



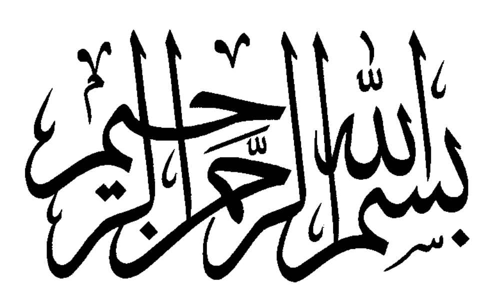
"موسوعة خطب مخرجة وموثقة وتحوي بحوثاً ومسائل
فقهية وحديثية ولغوية"

تأليف

د. إبراهيم بن محمد الحقيل

الجزء السادس

المجموعة الثانية


بسم الله الرحمن الرحيم

المفيد
في
خطب الجمعة والعيد

(ح) مجلة البيان، ١٤٣٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل، إبراهيم محمد

المفيد في خطب الجمعة والعيد - موسوعة خطب مخرجة وموثوقة وتحوي بحوثًا ومسائل فقهية وحديثية ولُغوية

إبراهيم محمد الحقيل - الرياض، ١٤٣٧ هـ

١٠ مج.

ردمك: ١-٨٤-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٨٥-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٦)

١- الخطب الدينية ٢- خطبة الجمعة ٣- خطبة العيد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٧/١٥٥

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٥٥

ردمك: ١ - ٨٤ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٨ - ٨٥ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٦)

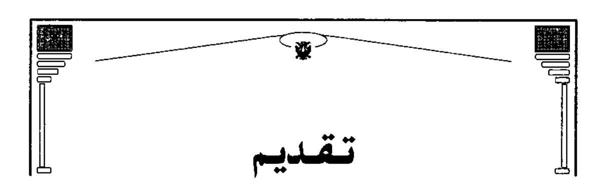
www.albayan-magazine.com

الرياض: هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٣٢_ ٠٥٠٢٢١٩٢٠_ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦_ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥_ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٨٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٠٦١٦



تقديم

الحمد لله رب العالمين، ونصلي ونسلم علىٰ المبعوث رحمة للعالمين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن مؤسسة ملتقىٰ الخطباء تأسست لتحمل علىٰ عاتقها رسالة تجديد خطبة الجمعة وتفعيل أثرها في حياة المسلمين، وأطلقت من أجل ذلك شبكة ملتقىٰ الخطباء؛ مستهدفة توحيد الجهود الخادمة لخُطْبَة الجمعة، والارْتِقَاء بالخطاب الدعوي والإصلاحي، وتطوير مستوىٰ الخطباء علميًّا ومهاريًّا. وقد بلغت خدمات هذه الشبكة خطباء العالم في أكثر من مائة وثنتين وثمانين دولة حول العالم، ولكنْ بقي للكتاب المطبوع جمهوره، وللتعامل مع الورق مريدوه، فلا زالت الطلبات تتوالىٰ علينا وعلىٰ مشايخنا الذين ينشرون عندنا راغبة في طباعة بعض الخطب، أو بعض الموضوعات.

واستجابة لهذه الطلبات، وحرصًا منا علىٰ زيادة تبليغ العلم والخير، ورغبة في إبراز النماذج الناجحة في الخطب المتكاملة، تطلق المؤسسة باكورة مشروعها العلمي الكبير لطباعة الخطب المتميزة.

وقد اخترنا للبداية خطب فضيلة الشيخ الدكتور إبراهيم بن محمد الحقيل -حفظه الله-؛ وذلك لِمَا له من دور فاعِل علىٰ موقع المؤسسة ومنتداها، وما حظيت به خُطَبُه من قبول واسع من الخطباء في العالم الإسلامي من أقصاه إلىٰ أدناه.

وقد اقتصر دور المؤسسة علىٰ جمع تلك الخطب بين دفتي كتاب واحد، بعد مراجعتها، وضبطها كاملةً بالشكل، وإضافة الحواشي التي أضافها المؤلف.

وإنا نحمد الله تعالىٰ الذي يسر إخراج هذه المجموعة من الخطب بهذه الصورة، ثم نشكر فضيلة الشيخ الدكتور إبراهيم بن محمد الحقيل علىٰ هذا الإنجاز، وندعو له بالتوفيق والسداد، والثبات والقبول، كما نشكر الإخوة الفضلاء أعضاء الفريق العلمي في المؤسسة علىٰ ما بذلوه من مجهود، وما قاموا به من عمل لإخراج هذا الكتاب.

وستستمر المؤسسة -إن شاء الله تعالىٰ- في طباعة الخطب المميزة المنشورة في ركن الخطب وفق خطة مرسومة، وترحب بالراغبين في التواصل والتعاون وإبداء المرئيات والمقترحات.

موقع الشبكة علىٰ الإنترنت: www.khutabaa.com

البريد الإلكتروني: info@khutabaa.com

نسأل الله تعالىٰ أن يحظىٰ هذا المشروع بتوفيق الله تعالىٰ، ثم بقبول القارئ الكريم، وأن يتقبل منا ومن خطبائنا الكرام جهدهم المتواصل في نصرة دين الله تعالىٰ، وإصلاح ما ضعف من أخلاقيات المجتمع، ونشر العقيدة الصحيحة، ودحر البدع والخرافات، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

المدير العام

د. ماجد بن عبد الرحمن آل فريان

مُقَدِّمَة

الحمد لله حمدًا طيبًا كثيرًا مباركًا فيه كَمَا يُحِبّ ويَرْضىٰ، وأُصَلِّي وَأُسَلِّم علىٰ خير خلقه، وخاتم رسله محمد بن عبد الله، وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعه إلىٰ يوم الدين.

أما بعد: فهذه هي المجموعة الثانية مِنَ الخطب المسماة (**المفيد في خطب الجمعة والعيد**) وهي في خمس مجلدات، أربعة منها للخطب، والخامس كشافات خادمة للخطيب والباحث والقارئ، علىٰ غرار المجموعة الأولىٰ التي صدرت في خمس مجلدات عام ١٤٢٦هـ، ولاقت -ولله الحمد- قبولًا واستحسانًا من الخطباء وطلبة العلم، حتىٰ نفدت كميتها، وسنعيد طباعتها إن شاء الله تعالىٰ مَشْكُولة كما هو الحال في هذه المجموعة التي تُمَثِّل المجلدات (٦-٧-٨-٩-١٠)، ويليها إن شاء الله تعالىٰ المجموعة الثالثة، وتمثل المجلدات (١١-١٢-١٣-١٤-١٥)، وسأستمر علىٰ هذه الطريقة؛ فإذا اجتمع من الخطب ما يكفي لأربع مجلدات أخرجتها دفعة واحدة، ويكون الخامس منها كشافًا خادمًا للمجموعة.

هذا؛ وقد قدمت لهذه المجموعة بستة موضوعات تخدم الخطيب، فيما يتعلق بالاستدلال بالكتاب والسُّنَّة، وتخصيص خطبة بآية أو سورة أو بحديث أو بقصة قرآنية أو بقصة نبوية، مع تكميل لموضوع سابق نشر في المجموعة الأولىٰ وهو (الإشارة في الخطبة).

ومنهجي في هذه المجموعة لم يحِدْ عن منهجي في المجموعة الأولىٰ؛ ولذا فلن أعيده هنا حتىٰ لا أطيل، ويمكن مراجعته في المجموعة الأولىٰ، لَكِنِّي

زِدْتُ في هذه المجموعة كشافًا للخطب مرتبًا علىٰ تواريخها، وهو لم يكن في المجموعة الأولىٰ، ومن فوائده أنه يكشف للباحث والناقد اهْتِمَامات الخطيب، وانحيازه لبعض الموضوعات دون بعض؛ ولذلك أسباب عدة من أهمها: النوازل التي تنزل بالناس، وغفلة الخطيب عن بعض الموضوعات، بسبب أنه لا يَسِيرُ علىٰ خطة في الموضوعات التي يتَنَاوَلها، ولا يتفقَّد خطبه بين حين وآخر؛ ليتبين له النقص في الموضوعات التي فيها نقص، وخاصة حينما تكثر الخُطَب عنده.

وإني لأعتذر للخطباء وقراء هذه المجموعة عن التأخر في طباعتها؛ إذ كان من المفترض أن تُطْبَع قبل سِتٍّ سنوات علىٰ الأقل، أي في عام **١٤٢٩**هـ، ولكن حال دون ذلك انشغالي برسالة الدكتوراه، وضياع كثير من الخُطَب؛ ولهذا السبب الأخير قِصَّة مؤلمة؛ فإني انتقلت من الكتابة باليد إلىٰ أزرار الحاسب في عام **١٤٢٦**هـ، وكوني مبتدئًا في ذلك ما كنت أدرك أهمية تعدّد نسخ الخطبة، ووضعها في أكثر مِنْ جِهَاز، فكنت أخزنها في خانة (دي) من جهاز الحاسب، وعندي النسخ الورقية التي أخطب بها أخرج الأحاديث وأوثق النقول عليها، وأحيانًا يطلبها أحد الناس مني فأدفعها إليه ليصورها ثم لا يعيدها وأنسىٰ، وأنا مطمئن لوجودها في الجهاز، وذات مرة تعَطَّل الجهاز، فذهبت به للصيانة فنَظَّفُوه من كل ما فيه، وضاع ما يقرب من سبعين خُطْبة، ومقالات وبحوث عدة لا أعرف عددها، لكن أتذَكَّر أن بعضها أفنَيْتُ فيه وقتًا وجهدًا كبيرين، والحمد لله علىٰ كل حال.

فمكثت قرابة سنة أبحث عن النسخ المفقودة من الخطب، ولا أعرف موضوعاتها ولا عناوينها؛ لأني نسيتها، ولم أضع فهرسًا لها أحتفظ به لنفسي.

فجمعت النسخ الورقية للخطب في الأعوام الأربعة (١٤٢٥-١٤٢٦-١٤٢٧-١٤٢٨) فتبين لي النقص الكبير، فضجرت جدًّا، وعصفت ذاكرتي لأجد طريقة أصل إلىٰ ما ضاع مني، فتذكرت أني أثناء التصحيح لا أرمي المسودات ولو تعَدَّدَتْ إلىٰ عشر مسودات للموضوع الواحد ما لم يطبع الكتاب فأتلفها بعد طباعته، فأخرجتها من مخزنها وكانت كمًّا كبيرًا جدًّا، وجلست أسابيع عليها، فظفرت -بحمد الله تعالىٰ- بقرابة ثلاثين خطبة مما ضاع، وأعدت صَفَّها وتَخْرِيجها من جديد.

ثم تذكرت أن عددًا من الإخوة المشايخ كانوا يأخذونها مني نسخًا ورقية، فهرعت إلىٰ الاتصال بهم، وكانوا ثلاثة، فأحدهم قال: كلها كان عندي علىٰ ورق من عام ١٤٢١، إلىٰ الآن، ولكن مع الأسف أتلفتها قبل شهر؛ لأنها كثرت وضايقتني. والثاني أيضًا أتلفها قبل أشهر. والثالث أحضر ما عنده فكان ما عنده بعد تواريخ النقص لا قبلها، إلا ثلاث خطب ظفرت بها. وبحثت في أجهزة محمولة قديمة عندي؛ لأني ظننت أني قد أكون كتبت بعضها في السفر، ووجدت عددًا منها أيضًا، لكنه ليس كثيرًا.

ثم تَذَكَّرْتُ أن بعض المصلين كان يسجلها صوتيًّا لخاصة نفسه فاتصلت بهم، وظفرت بعدد قليل، وأَفْرَغْتُهَا مِنَ الصَّوْتِ علَىٰ الوَرَقِ وخرجتها، حتىٰ قلصت الفارق إلىٰ عشر خطب أو قريبًا منها، فلم أعثر عليها.

وكان عندي خطب قديمة من عام ١٤١٤هـ وما جاوره من الأعوام، ولم أدخلها في المجموعة الأولىٰ لما أخرجتها؛ لأن بعضها كان مفقودًا آنذاك، ثم عثرت عليها أثناء بحثي عما ضاع في المجموعة الثانية. وما كان موجودًا منها لم أخرجه ولم أوثقه، ورأيت أنها لا تستحق أن أضمها إلىٰ المجموعة

الأولىٰ، وكِدْتُ أن أتلفها لَوْلَا أن الله تعالىٰ رَدَّنِي عن ذلك، فله الحمد والشكر، ثم نشطت لتخريج بعضها وتوثيق ما استطعت، وضممته إلىٰ هذه المجموعة، وتواريخها مثبتة فيها، وهي تحمل الأرقام التالية (٢٥٥، ٢٦٤، ٢٨٩، ٢٩١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٨، ٣٥١، ٣٧١، ٣٧٩، ٣٨٠).

والله تعالىٰ أسأل أن يَتَقَبَّلَ هذه المجموعة بقبول حسن، وأن ينفع بها المسلمين، وأن يجعلها ذخرًا لي يوم القيامة، وأن يرزقني الإخلاص فيها وفي غيرها من الأعمال الصالحة.

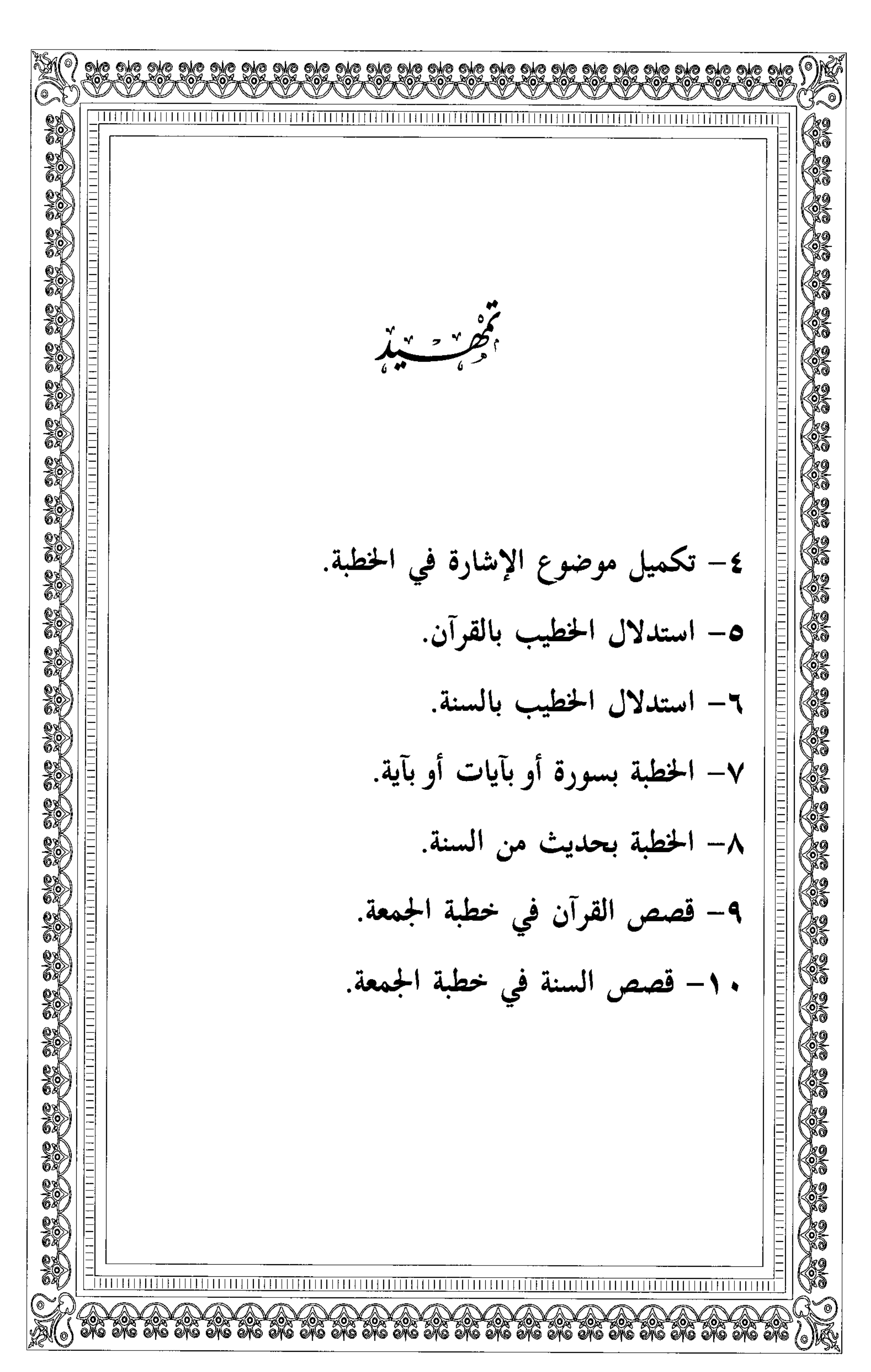
ويشرفني تعقب المتعقبين، وتصويب المصوّبين؛ فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه.

والله تعالىٰ المستعان في كل الأعمال والأحوال، والحمد لله رب العالمين.

إبراهيم بن محمد الحقيل

ليلة الثلاثاء: ٢٢ جمادىٰ الآخرة ١٤٣٥هـ

Hogail22@gmail.com



تمهيد

٤- تكميل موضوع الإشارة في الخطبة.

٥- استدلال الخطيب بالقرآن.

٦- استدلال الخطيب بالسنة.

٧- الخطبة بسورة أو بآيات أو بآية.

٨- الخطبة بحديث من السنة.

٩- قصص القرآن في خطبة الجمعة.

١٠- قصص السنة في خطبة الجمعة.



٤- تكميل موضوع الإشارة في الخطبة[١]

لما كتبت موضوع (الإشارة في الخطبة)، ونشرته في المجموعة الأولىٰ من المفيد في خطب الجمعة والعيد (١/ ٥٧)، ذكّرني بعض الإخوة المشايخ بحديث يناسب أن يكون في موضوع الإشارة، وكنت قد ذهلت عن هذا الحديث، رغم أنني قرأته من قبل، أو أنني رأيت وقتها أنه لا يدخل في باب الإشارة.

وهذا الحديث هو ما جاء عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عبد الرَّحْمَنِ، قَالَ: رَأَيْتُ بِشْرَ بْنَ مَرْوَانَ، يَوْمَ جُمُعَةٍ يَرْفَعُ يَدَيْهِ، فَقَالَ: عُمَارَةُ بْنُ رُؤَيْبَةَ: «قَبَّحَ اللهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ، لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ أَنْ يَقُولَ بِيَدِهِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ الْمُسَبِّحَةِ»[٢].

فقول الراوي: «رافعًا يديه» يدل علىٰ أن ذلك كان في الدعاء، وأن الهَدْيَ النبوي في الدعاء في الخطبة الإشارة بالمسبحة دون رفع اليدين.

وقد اختلف شارحو الحديث في معنىٰ ذلك علىٰ قولين:

القول الأول: أن المقصود به النهي عن رفع اليدين حال الدعاء في الخطبة، وهو ما يدل عليه ظاهر الحديث، ويتأيَّد برواية ابن خزيمة، وفيها: سَمِعْتُ

---

(١) نشرت في المجموعة الأولىٰ من (المفيد في خطب الجمعة والعيد) أربعة موضوعات، وهي: (١- كيف تختار موضوع الخطبة)، و(٢- كيف تعد خطبة الجمعة)، و(٣- الصوت في الخطابة)، و(٤- الإشارة في الخطبة)، وهذا الموضوع تكملة لموضوع الإشارة، وما يتلوه من موضوعات تكملة لهذه السلسلة في إعداد الخطيب وتكوينه وتدريبه.

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٧٤).

عُمَارَةَ بْنَ رُوَيْبَةَ الثَّقَفِيَّ قَالَ: خَطَبَ بِشْرُ بْنُ مَرْوَانَ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ يَدْعُو، فَقَالَ عُمَارَةُ: «قَبَّحَ اللهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ . . .» الحديث[٣].

وبرواية أحمد: عَنْ حُصَيْنِ بْنِ عبد الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: كُنْتُ إِلَىٰ جَنْبِ عمَارَةَ بْنِ رُوَيْبَةَ وَبِشْرٌ يَخْطُبُنَا، فَلَمَّا دَعَا، رَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ عمَارَةُ -يَعْنِي-: «قَبَّحَ اللهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ، أَوْ هَاتَيْنِ الْيُدِيَّتَيْنِ؛ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ إِذَا دَعَا يَقُولُ هَكَذَا، وَرَفَعَ السَّبَّابَةَ وَحْدَهَا»[٤].

قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: «فيه أن السُّنَّةَ أن لا يرفع اليد في الخطبة، وهو قول مالك وأصحابنا وغيرهم، وحَكَىٰ القاضي عن بعض السلف وبعض المالكية إباحته؛ لأن النبي ﷺ رفع يديه في خطبة الجمعة حين استسقىٰ، وأجاب الأولون بأن هذا الرفع كان لعارض» اهـ[٥].

القول الثاني: أن المقصود به النهي عن تحريك اليدين لإفهام السامعين، وأن السنة أن يكتفي الخطيب بالإشارة بأصبعه المسبحة كفعل النبي ﷺ.

قال شرف الحق العظيم آبادي في غاية المقصود: «قلت: وهل المراد في حديث عمارة بالرفع المذكور رفع اليدين عند الدعاء علىٰ المنبر، أو المراد رفع اليدين لا وقت الدعاء بل عند التكلم، كما هو دأب الوعاظ والقصاص أنهم يحركون أيديهم يمينًا وشمالًا ينبهون السامعين علىٰ الاستماع؟! فحديث عمارة يدور إسناده علىٰ حصين بن عبد الرحمن، ورواته اختلفوا عليه؛ فرواية عبد الله ابن إدريس وأبي عوانة وسفيان كلهم عن حصين تَدُلّ علىٰ المعنىٰ الثاني؛ ولذا بوب النسائي: باب الإشارة في الخطبة، وبوب ابن أبي شيبة: الرجل يخطب

(٣) صحيح ابن خزيمة (١٧٩٣).
(٤) مسند أحمد، ط الرسالة، وقال محققوه: إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين (١٧٢٢٤).
(٥) شرح النووي علىٰ مسلم (٦/ ١٦٢)، وشرح العيني علىٰ أبي داود (٤/ ٤٤٥).

يشير بيده، وهكذا فهم الطيبي.

ورواية هشيم وزائدة وابن فضيل كلهم عن حصين تدل علىٰ المعنىٰ الأول، وهكذا فهم النووي، وأما ترجمة المؤلف -يعني أبا داود- وكذا الترمذي فمُحْتَمل لمعنيين، وعندي للمعنىٰ الثاني ترجيح من وجهين:

الأول: أن أبا عوانة الوضاح وسفيان الثوري وعبد الله بن إدريس أوثق وأثبت من هشيم بن بشير ومحمد بن فضيل، وإن كان زائدة بن قدامة مثل هؤلاء الثلاثة في الحفظ، فتعارض رواية هؤلاء الثلاثة الحفاظ برواية زائدة بن قدامة، والعدد الكثير أولىٰ بالحفظ.

والثاني: أن قوله الآتي: لَقَدْ رأيت رسول الله ﷺ وهو علىٰ المنبر ما يَزِيدُ علىٰ هذه، يعني: السبابة التي تَلِي الإبهام، يؤيد هذا المعنىٰ الأخير؛ لأن رفع اليدين في الدعاء ليس مأثورًا بهذه الصفة، بل أراد الراوي أنَّ رَفْع اليدين كلتيهما لتخاطب السامعين ليس من دأب النبي ﷺ، بل إنما يشير النبي ﷺ بأصبعه السبابة» انتهىٰ مختصرًا من غاية المقصود[(٦)].

قلت: هذا الذي رجحه مرجوح من أوجه:

الوجه الأول: أنه قد نُصَّ في بعض الروايات علىٰ أن بشرًا رَفَعَ يَدَيْه في الدعاء، حتىٰ في الروايات الثلاث التي احتج بها شرف الحق آبادي علىٰ أن الحديث فيه نَهْي عن الإشارة لإفهام السامع، وهي كما يلي:

١- رواية أبي عوانة الوضاح: قال النسائي: أخبرنا قتيبة بن سعيد، ثنا أبو عوانة عن حصين بن عبد الرحمن قال: «رأيت بشر بن مروان يوم الجمعة يرفع يديه، فقال: يا عمارة بن رويبة قبح الله هاتين اليدين، لَقَدْ رَأَيْت

---

(٦) عون المعبود (٣/ ٣١٩).

رسول الله ﷺ ما يزيد علىٰ هذا، وأشار أبو عوانة»[٧].

٢- رواية سفيان الثوري: قال النسائي: أخبرنا محمود بن غيلان، قال: حَدَّثَنَا وكيع، قال: حدثنا سفيان، عن حصين، أن بشر بن مروان، رفع يديه يوم الجمعة علىٰ المنبر، فَسَبَّهُ عمارة بن رويبة الثقفي، وقال: «ما زاد رسول الله ﷺ علىٰ هذا»، وأشار بإصبعه السبابة[٨].

٣- رواية عبد الله بن إدريس: قال ابن أبي شيبة: حَدَّثَنَا ابْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ رُوَيْبَةَ، رَأَىٰ بِشْرَ بْنَ مَرْوَانَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: «قَبَّحَ اللهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ، لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ أَنْ يَقُولَ بِيَدِهِ: هَكَذَا، وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ الْمُسَبِّحَةِ»[٩].

فهذه الروايات الثلاث كلها دالة علىٰ أن بشرًا رَفَعَ يَدَيْهِ في الدعاء، ولم يشر بِهِمَا للإفهام كما ظنه الطيبي وشرف الحق آبادي، وبيان ذلك من وَجْهَيْنِ:

١- قوله: «رفع يديه يوم الجمعة علىٰ المنبر» فكيف حمله علىٰ الإشارة، وهو صريح في الرفع.

٢- قوله: «وأشَار بأصبعه»، يعني في الدعاء. وهذا ينقض دعوىٰ النهي عن الإشارة في الخطبة، وأن للداعي علىٰ المنبر أن يشير بأصبعه.

وأما تبويب النسائي وابن أبي شيبة فلا يُفْهَم منه منع الإشارة، كما هو ظاهر استدلال شرف الحق، بل يُفْهم منه مشْرُوعِيَّة الإشارة دون الرفع في الدعاء.

ففهم الطيبي وشرف الحق آبادي للحديث غلط، قال الطيبي: «قوله: يقول،

(٧) كتاب الجمعة للنسائي، تحقيق: أبي هاجر محمد زغلول، رقم (٦٦).
(٨) سنن النسائي، كتاب الجمعة: باب الإشارة في الخطبة (٣/ ١٠٨).
(٩) المصنف ط: الرشد (١/ ٤٥١).

أي: يشير عند التكلم في الخطبة بإصبعه يخاطب الناس، وينبههم علىٰ الاستماع»[١٠].

والصواب أنه عليه الصلاة والسلام إنَّمَا أشار بأصبعه في الدعاء لا لتنبيه السامعين.

وقد بوب البيهقي في سننه علىٰ الحديث فقال: «باب ما يستدل به علىٰ أنه يدعو في خطبته»، وساق الحديث، ثم قال: «والقصد من الحديثين: إثبات الدعاء في الخطبة، ثم فيه: من السنة أن لا يرفع يديه في حال الدعاء في الخطبة، ويقتصر علىٰ أن يشير بأصبعه»[١١].

الوجه الثاني: أن أكثر ما يقع من الإشارة للإيضاح يكون باليد الواحدة لا باليدين، والحديث نص علىٰ اليدين، وذلك موضعه الدعاء.

الوجه الثالث: أن ألفاظ الحديث في الروايات كلها نصت علىٰ رفع اليدين، ولو كان مقصوده الإشارة لقال: يشير بيديه؛ لأن رفع اليدين يكون في الدعاء، والمشير إن أشار بهما فإنه يحركهما، وهذا لا يسمىٰ رفعًا.

الوجه الرابع: أنه قد ثبت عن النبي ﷺ ما يُعَارِض هذا الفهم للحديث؛ إذا استخدم النبي عليه الصلاة والسلام الإشارة بيديه كلتيهما، وبيد واحدة، وبأصبعه في خطبه، ومن الأحاديث الدالة علىٰ ذلك:

١- في الإشارة بيديه كلتيهما حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صلىٰ لنا النبي ﷺ، ثم رَقِيَ المِنْبَر فأشار بيديه قبل قبلة المسجد، ثم قال: «**لَقَدْ رَأَيْتُ الْآنَ مُنْذُ صَلَّيْتُ لَكُمُ الصَّلَاةَ الجَنَّةَ وَالنَّارَ مُمَثَّلَتَيْنِ فِي قِبْلَةِ هَذَا الجِدَارِ، فَلَمْ أَرَ**

---

(١٠) مرقاة المفاتيح (٣/ ١٠٤٩).

(١١) السنن الكبرىٰ (٣/ ٢١٠).

كَالْيَوْمِ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ ثَلَاثًا»[١٢].

وهذا كان في خطبة الكسوف، وقد يتعقب عليه أنه ليس في خطبة الجمعة، والجواب: إثبات أصل الإشارة في الخطبة للتنبيه والإيضاح، ولا دليل يدل علىٰ المنع إلا فهمًا غير صحيح لحديث إنكار عمارة بن رويبة علىٰ بشر بن مروان.

٢- وفي الإشارة بيد واحدة، حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة، فقال: «**فِيهِ سَاعَةٌ، لَا يُوَافِقُهَا عبد مُسْلِمٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**» وأشار بيده يقللها[١٣]. وفي رواية: «فأشار إلينا كيف أشار النَّبِي ﷺ فألصق أصابعه بعضها إلىٰ بعض، وحناها شيئًا، ثم قبضها ولم يبسطها»[١٤].

٣- وفي إشارته بالأصبع، حديث جابر الطويل في صفة حجته عليه الصلاة والسلام، وفيه: قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال: بإصبعه السبابة، يرفعها إلىٰ السماء وينكتها إلىٰ الناس: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[١٥].

وفي إثبات الإشارة للإفهام أيضًا: حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قام النبي ﷺ خطيبًا، فأشار نحو مسكن عائشة، فقال: «**هُنَا الْفِتْنَةُ -ثَلَاثًا- مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ**»، وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو علىٰ المنبر: «**أَلَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَاهُنَا -يُشِيرُ إِلَىٰ**

---

(١٢) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب رفع البصر إلىٰ الإمام في الصلاة (٧١٦).

(١٣) أخرجه البخاري في الجمعة، باب الساعة التي في الجمعة (٩٣٥)، ومسلم في الجمعة، باب في الساعة التي في يوم الجمعة (٨٥٢).

(١٤) هذه الرواية لعبد الرزاق في المصنف (٥٥٧٢).

(١٥) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

المَشْرِقِ- مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»[١٦].

وحديث عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِقْسَم، أَنَّهُ نَظَرَ إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ﵄ كَيْفَ يَحْكِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**يَأْخُذُ اللَّهُ ﷻ سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ، فَيَقُولُ: أَنَا اللَّهُ** -وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا- **أَنَا الْمَلِكُ**» حَتَّىٰ نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّىٰ إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟[١٧].

فتحصل مما سبق ما يلي:

١- جواز استخدام الإشارة في الخطبة للإفهام بيديه كلتيهما، أو بواحدة، أو بأصبعه، حسب ما تقتضيه حاجة الإفهام أو التنبيه، وقد دلت السنة علىٰ ذلك كله.

٢- أن المنع من ذلك مبنيٌّ علىٰ فهْم غلط لحديث عمارة بن رؤيبة ﵁ في إنكاره علىٰ بشر بن مروان.

٣- أن السنة في الدعاء علىٰ المنبر أن لا يرفع يديه، وإنما يشير بأصبعه المسبحة، إلا إذا دعا مستسقيًا فيرفع يديه، وهي الصورة المستثناة في رفع اليدين للدعاء أثناء الخطبة.

❊ ❊ ❊

---

(١٦) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ، وما نسب من البيوت إليهن (٣١٠٤)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب الفتنة من المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان (٢٩٠٥). والرواية الأولىٰ للبخاري والثانية لمسلم.

(١٧) أخرجه مسلم في فاتحة كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٨).



٥- استدلال الخطيب بالقرآن[١]

صلاة الجمعة مِنْ أعْظَمِ الطَّاعَات التي تقرب إلىٰ الله تعالىٰ، والمسلمون في مَشَارِق الأرض ومغاربها يحرصون علىٰ أدائها أكثر من غيرها، ولا يفرطون فيها، وإن كان كثير منهم يقصرون في الصلوات الخمس الأخرىٰ، حتىٰ الأعاجم من المسلمين في البلاد العربية يحضرونها في المساجد، وإن لم يفهموا إلا قليلًا مما يقوله الخطباء.

والمسلمون في البلاد الكافرة من غربية وشرقية يقيمونها في مراكزهم الإسلامية، ومن عجزوا عن إنشاء مسجد أو مركز، أقاموها في دور بعضهم أو في الحدائق العامة أو غيرها، ولكنهم لا يتركونها -في الغالب- بحجة العجز عن مكان يجمعهم.

وما يكاد الخطيب يدعوهم عقب الصلاة للتبرع بشيء من المال لشراء موقع المسجد أو توسيعه أو سداد إيجاره إلا انصرفت أيديهم إلىٰ جيوبهم للمساعدة علىٰ ذلك، والمراكز الإسلامية في البلاد الكافرة لا تكاد تنفك عن طلب التبرع

---

(١) أود التنبيه علىٰ أمرين:

الأول: أن هذا الموضوع وما سيتلوه في هذا الباب لا يختص بالخطيب وحده، وإن خوطب به، بل يشترك معه الداعية والمحاضر والواعظ، وكل من تصدىٰ لدعوة الناس، وأراد تحضير موضوع من الموضوعات لخطبته أو محاضرته أو موعظته أو بحثه أو مقالته.

الثاني: أنني ما جمعت مادة هذه الموضوعات من كتب متخصصة في الخطابة والدعوة وغيرها؛ لأنني لم أجد فيها ما أريد، وعليه فلا مراجع عندي لهذه الموضوعات، ولا ما يليها في هذا الباب، وإنما هي تجارب وممارسات خلال السنوات الماضية، أردت أن أكتبها لإخواني، فالنقص والزلل محتمل فيها، والله الموفق.

في كل جمعة، ومع ذلك ما ضجر المسلمون من كثرة ذلك فتركوا حضورها، ولا أمسكوا أيديهم عن البذل عقب صلاة الجمعة؛ لتشييد مساجد لإقامتها.

وكثيرًا ما عجب الغربيون من الجاليات المسلمة حين يُقتر أفرادها علىٰ أنفسهم وأولادهم لسداد إيجار المركز أو المسجد، أو شرائه، كما يعجبون أيضًا من تنامي المراكز والمساجد في بلاد الغرب، وكثرتها واتساعها شيئًا فشيئًا، ويعجبون أكثر حين يرون الزحام الشديد علىٰ هذه المراكز يوم الجمعة، مع خلو الكنائس يوم الأحد إلا من عدد قليل. وكل هذه دلائل علىٰ أهمية صلاة الجمعة في دين الإسلام، وعظيم مكانتها في قلوب المسلمين.

والخطيب حين يَعْتَلِي درجات المنبر ليلقي خطبته يمسك المصلون عن الصلاة وقراءة القرآن وسائر أنواع الذكر والقربات، ويتوجهون بأبصارهم وقلوبهم إلىٰ خطيبهم، ويصغون إليه بأسماعهم، وينتبهون لما يقول. فإن استطاع الخطيب أن يشدهم إليه باستهلاله البارع، ومقدماته الضافية واصلوا الاستماع إليه، وتأثروا بمقوله لهم، وإلا ملّوه وضجروا من ضَعْفِهِ وأسلوبه، وانصرفت قلوبهم إلىٰ أودية أخرىٰ.

والخطيب يُلْقِي علىٰ الناس أفكارًا، ويحاول إقناعهم بها، فيستدل لها بالمنقول وبالمعقول أو بأحدهما، وهو يأمرهم وينهاهم، والنفوس البشرية لا تحب الأمر والنهي، ولكنها قد تتخذه دينًا إذا علمت أن ذلك حكم الله تعالىٰ وحكم رسوله ﷺ، فتحبه وتدين به رَغْم ما فيه من تكليف بواجبات فيها مشقة، أو حبس عن شهوات محبوبة.

- **أهمية الاستدلال بالقرآن:**

القرآن مُعَظَّم عند المسلمين، لا يتَطَرَّق إليه الشك لَدَىٰ المصلين، وهو أَقْوَىٰ

ما يستدل به أي متحدث في المجتمعات المسلمة ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصّلت: ٤٢].

وَأَوْصاف القرآن المنثورة فيما يتلىٰ من الآيات تجبذ النفوس إليه، وتحبب القلوب فيه، فلا يملك قارئ آياته إلا الإذعان والانقياد:

١- فهو الهدىٰ وما عارضه ضلال ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وهدايته تكون إلىٰ ما هو أحسن وأفضل وأقوم في كل الأمور التي تهم الناس في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

٢- وهو النور وما عارضه ظلمات، ويُخرج المنقادين له من جميع أنواع الظلمات -ظلمات الكفر والنفاق والبدعة والجهل والظلم وغيرها- إلىٰ النور ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وفي آية أخرىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩]، وفي ثالثة: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾ [الطّلاق: ١١].

٣- وهو شفاء القلوب وطبها من أدواء الكفر والنفاق والبدع والضلال وأنواع الشبهات والشهوات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وفي أخرىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وفي ثالثة:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصّلت: ٤٤].

٤- وهو السعادة فلا يشقىٰ به قارئه ولا المنقاد له العامل به ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ٢]، وفي أخرىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

كما أن هجره والإعراض عنه سبب للشقاء في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦].

٥- وهو من أعظم أسباب صلاح القلب، وخشوعه لله تعالىٰ، وخشيته منه، ومحبته له ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

كل هذه الأصاف العظيمة للقرآن -وغيرها كثير- يقرؤها المسلم ويسمعها بين حين وآخر حتىٰ عَظُم القرآن في قلبه. ويَكْفِيه عظمة عند المؤمن أنه كلام الله تعالىٰ؛ ولذلك لا يسمح أي مُؤْمِن في أبواب المجادلة والنقاش لأي شخص كان أن يطعن في صدق كلام الله تعالىٰ أو يسخر منه، أو يدعوه إلىٰ عدم الإيمان به، وإلا لخسره في دعوته؛ لما للقرآن الكريم من مكانة عظيمة في نفوس المسلمين.

ولأجل ذلك يلجأ الكفار والمنافقون والزنادقة وأشباههم حين يريدون صرف المسلمين عن القرآن إلىٰ تحريف معاني الآيات، ويتركون تكذيبهم لكلام الله

تعالىٰ أو التشكيك فيه أو الطعن في آياته، مع أنهم في باطنهم لا يؤمنون به. وما ذاك إلا لما يعلمونه من مكانة هذا الكتاب العزيز في قلوب المسلمين حتىٰ استولىٰ عليها محبة له، وقناعة به، وتعبدًا بقراءته والاستماع إلىٰ آياته تتلىٰ.

وإذا كان الأمر كذلك فَحَرِيّ بالخطباء أن يولوا الكتاب العزيز أهمية بالغة، فيكون هو المصدر الأول للخطبة، كما كان هو المصدر الأول في جميع علوم الشريعة الإسلامية وفروعها.

أقسام الآيات في الاستدلال من حيث الكثرة والقلة:

لا تخلو الآيات التي جمعها الخطيب لإعداد خطبته من حالات ثلاث:

الأولىٰ: أن تكون كافية في الاستدلال، متناسبة مع الخطبة، فلا هي كثيرة تطول الخطبة بها، ولا قليلة تؤدي إلىٰ قصر مخل.

الثانية: أن تكون الآيات في موضوعه المختار قليلة.

الثالثة: أن تكون الآيات كثيرة جدًّا لا يمكنه حشدها كلها في خطبته.

فالحالة الأولىٰ لا إشكال فيها.

وأما الثانية وهي: أن تكون قليلة، بل قد لا يجد في موضوعه إلا آية أو آيتين، فبإمكانه تغيير الموضوع إلىٰ آخر فيه من النصوص ما يخدم خطبته ويقويها.

فإن كان موضوعه مهما كنازلة حاضرة لا يسوغ إهمالها، فبإمكانه معالجة ذلك بخيارات عدة:

الخيار الأول: أن يجعل لموضوعه مدخلًا مناسبًا، تكون النصوص فيه متوافرة.

مثال ذلك: لو وقع زلزال مدمر، وأراد الخطيب أن يعرض لموضوع الزلازل

فسيجد أن الزلازل لم يأت ذكرها في القرآن إلا في موضعين: أول سورة الحج ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وفي سورة الزلزلة، وهما في زلزلة يوم القيامة، لا في زلازل الدنيا، وجاء ذكر الزلزلة في موضعين آخرين علىٰ الاستعمال المعنَوِيّ لا الحسي، في البقرة: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وفي الأحزاب: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١].

ففي هذا المثال يستطيع الخطيب الحديث عن موضوعات عدة لها صلة بالزلازل، منها:

١- زلزلة القيامة، والآثار الناجمة عنها؛ مستدلًّا بهذين الموضعين، ومستحضرًا لآثار تلك الزلزلة العظيمة بأوصافها المذكورة في سور الواقعة والتكوير والانفطار والانشقاق والقارعة، ثم يقارن بين ما خلفته الزلزلة التي شاهدها الناس من دمار جزئي في الأرض، وما ستخلفه زلزلة القيامة من دمار عام في الكون.

٢- الجبال وفائدتها، وكونها أوتادًا تثبت الأرض، ويجمع الآيات في ذلك، وهي كثيرة.

٣- قدرة الله تعالىٰ علىٰ الخلق، وأنهم مهما بلغوا من القوة لا يستطيعون أن يردوا عذاب الله ﷻ، مستحضرًا ما وقع من هلاك المكذبين السابقين بأنواع العقوبات، مما حكاه القرآن من قصصهم.

٤- آثار الذنوب والمعاصي، وأنها سبب للعذاب والدمار في الأرض، والآيات فيها كثيرة.

الخيار الثاني: أن يقتصر علىٰ ما في موضوعه من آيات ولو كانت قليلة،

ويؤيد خطبته بالأحاديث والآثار، وهذا حسن إن وجد في موضوعه نصوصًا في ذلك.

الخيار الثالث: أن يعوض النقص في ذلك بكلامه هو، ويطيل في الوصف والعرض بكلام إنشائي خال من النصوص، ولست أحبذ هذه الطريقة، وإن سلكها كثير من الخطباء لما يلي:

١- أنها تحول الخطبة إلىٰ ما يشبه كلام الإعلاميين والإخباريين.

٢- أن علىٰ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية نورًا إذا كسا به الخطيب خطبته كانت مباركة، وإذا خلت الخطبة من نصوصهما نزعت البركة منها.

٣- أن تكثيفه للنصوص يجعل خطبته مفيدة في كل زمان ومكان، ولو من النصوص التي جمعها، وإن تغيرت الصياغة والأفكار في ذلك.

وقد ينازع بعض المتخصصين في الخطابة وأساليبها وأبوابها محتجين بأن شخصية الخطيب تذوب في النصوص. وهذا غير صحيح؛ لأن قدرة الخطيب علىٰ جمع النصوص، وحسن ترتيبها وعرضها في خطبته، وقوته في الاستدلال بها، وانتزاع ما يفيده منها، إن لم يكن أعلىٰ من جودة الأسلوب في الدلالة علىٰ براعة الخطيب فليس بأقل منها.

وتصح المنازعة في ذلك لو كان الخطيب ضعيفًا في الاستنباط والاستدلال بحيث يضع النصوص في غير مواضعها، أو يتعسف في الاستنباط منها، ولا يحسن التعامل معها، أو يهمل قريب الدلالة ويورد بعيدها، ومن كان هذا حاله فالعلة فيه لا في نصوص الوحيين.

هذا وقد ثبت أن النبي عليه الصلاة والسلام خطب بسورة (ق) كما في حديث أم هشام بِنْت حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ، قَالَتْ: «مَا حَفِظْتُ ق، إِلَّا مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،

يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَةٍ»[٢]، وكفىٰ بها موعظة بليغة لمن ألقىٰ لها السمع وهو شهيد، وقد أفردت موضوعًا مستقلًا في الخطبة بآية أو آيات أو سورة.

وجاء في حديث جَابِرِ بن سَمُرَةَ ﷺ قال: «كَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ خُطْبَتَانِ يَجْلِسُ بَيْنَهُمَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيُذَكِّرُ النَّاسَ»[٣]، واستنادًا إلىٰ ذلك فإن من الأئمة من يشترط لصحة الخطبة قراءة ولو آية فيها.

والخطبة خطاب شرعي محض، له أحكامه التوقيفية، فلا يقاس بالأعمال الأدبية التي يتوسع فيها، ويظهر الكاتب شيئًا من بلاغته وفنه.

• موضوعات لا نصوص فيها أو هي قليلة:

قد تكون بعض الموضوعات ملجئة للخطيب إلىٰ عدم الإكثار من النصوص؛ كحديثه عن سير الأعلام، وقصص التاريخ، والمغازي، ونحوها، وهذه الموضوعات ونحوها بإمكان الخطيب أن يجد لها من النصوص ما يناسبها، سواء في ثنايا القصة أو الغزوة أو في الدروس المستفادة منها.

كذلك بعض القضايا المعاصرة قد تلجئ الخطيب إلىٰ التقليل من النصوص، بسبب تناول الخطيب للموضوع من جانب تاريخي أو عقلي يرىٰ أنه مهم؛ كالحديث عن تاريخ بيت المقدس أو تاريخ بعض الفرق، أو بعض المصطلحات الحادثة ونحو ذلك، ومثل هذه الموضوعات يُعْذَر فيها الخطيب، ولا سيما إذا دعت الحاجة إليها لنازلة فرضتها واقعًا، والناس يتحدثون فيها، وينتظرون تحريرًا شرعيًّا لها من الخطباء.

ولكن الخطيب يعاتب ويؤاخذ إذا كانت السّمَة الغالبة لخطبه فيها إعراضٌ عن

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٧٣).

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة، باب ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيهما من الجلسة (٨٦٢).

النصوص، أو يقلل منها لحساب إنشائه وبيانه وبلاغته، أو لحساب ما يعرضه من قصص أو أقوال أو حجج عقلية أو غير ذلك. ويشتد العتب عليه إذا كان الموضوع الذي يختاره مملوءًا بالنصوص القرآنية والنبوية فيعرض عنها إلىٰ ما هو أدنىٰ منها من حجج وقصص وأقوال ونُقُول.

وليعلم الخطيب أن من أهم مهماته التي يرتقي درجات المنبر لأجلها: تربية الناس علىٰ تعظيم نصوص الوحيين، وتقديمها في الاستدلال علىٰ غيرها، والإذعان لها، والتسليم بها، وعدم منازعتها بما هو دونها من حجج أو قصص أو أقاويل أو نقول ونحوها.

فإذا كان الأمر كذلك فكيف يقبل الناس دعوة خطيب إلىٰ تعظيم الكتاب والسنة، والتسليم بهما، وهم يرونه قليل الاستدلال بهما، مستبدلًا بهما غيرهما؟!

وأحسب أن هذه اللوثة المستهينة بنصوص الكتاب والسنة تسربت إلىٰ الخطباء من المناهج العقلانية التي تعنىٰ بحجج العقل علىٰ حساب النص، أو من الاتجاهات الأدبية التي تُعْلي من شأن الإنشاء والأساليب البلاغية واللغوية وتُقَدّمها علىٰ النصوص. كما أن انتشار لغة الصحفيين والإعلاميين في الآفاق أثَّر سلبًا علىٰ بعض الخطباء فصاروا يحاكونهم في أساليبهم ويستخدمون ما أحدثوه من مصطلحات ومفردات وعبارات بلا نَظَر في صحتها اللغوية، أو عدم مخالفتها الشرعية.

ولا ينبغي أن يفهم من تقرير ذلك أن نصوص الكتاب والسنة تعارض الحجج العقلية أو الأساليب البلاغية؛ فالقرآن مملوء بتقرير ما يوافق العقول الصريحة، ويحوي كثيرًا من الآيات التي تعنىٰ بمفردات العقل والبرهان والآية والدليل ونحوها، وهكذا السنة.

وكلام الله تعالىٰ هو أبلغ الكلام، وكثير من قوانين اللغة، وقواعد البلاغة إنما أخذت منه، ويستدل به لها أو عليها، وما عارضه من كلام بعض اللغويين أو البلاغيين فليس بشيء، ولا يحتج به.

والنبي ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، وهو أفصح البشر وأبلغهم، وأحاديثه الجامعة للمعاني الكبيرة الغزيرة في كلمات قليلة تدل علىٰ ذلك.

بيد أن بعض الخطباء يتأثر بالمناهج الفلسفية الكلامية في الاستدلال، أو يجنح إلىٰ أساليب أهل البلاغة والبيان علىٰ حساب نصوص الكتاب والسنة.

وأما الحال الثالثة وهي: أن تكون الآيات كثيرة جدًّا لا يمكنه حشدها كلها، كالخطبة عن التقوىٰ فإنها جاءت ومشتقاتها في أكثر من أربعين ومئتي موضع من القرآن، والصبر جاء ذكره فيما يزيد علىٰ مئة آية، هذا عدا موضوعات التوحيد والترغيب والترهيب، وذكر الجنة والنار وغيرها.

وفي هذه الحالة للخطيب خياران:

الخيار الأول: أن يرتب ما يناسب للاستدلال من هذه الآيات علىٰ وحدات موضوعية، يضم الآية فيها مع نظيرتها، مثل: جمعه للآيات الآمرة بالتقوىٰ، ويجمع آيات ثمرات التقوىٰ، وآيات صفات المتقين . . .، وهذه الطريقة وإن كان فيها مشقة فإنها تمكن الخطيب من صنع خطب عدة في الموضوع الواحد ليس فيها تكرار، وتزيد من قوته العلمية واستحضاره للآيات، ومعرفته لطريقة القرآن في عرض الموضوعات.

الخيار الثاني: أن يختار من هذا الكم الكبير من الآيات ما يراه مناسبًا لخطبته.

وثمة أمر مهم وهو أن كثيرًا من الخطباء لا يطلعون علىٰ كل الآيات في

الموضوع الذي سيخطبون به، وفي هذا شيء من القصور، وقد يؤدي إلىٰ ترك الاستدلال بآيات هي أقوىٰ في الدلالة علىٰ موضوعاتهم من الآيات التي اختاروها.

ما يراعىٰ في الاستدلال بالآيات:

في الاستدلال بالآيات القرآنية أرىٰ أنه ينبغي للخطيب مراعاة أمور:

أولها: التأكد من كون الآية أو موضع الشاهد منها قد كتبه بشكل صحيح لا خطأ فيه؛ وذلك يكون بمراجعة المصحف، وعدم اعتماده علىٰ حفظه مهما كان قويًّا؛ لأن بعض الآيات تشتبه بالأخرىٰ، وقد يكون فيها زيادة كلمة أو حرف لا ينتبه له فيقع في الخطأ، أو في القلب بالتقديم والتأخير، أو إسقاط شيء منها؛ ولأن استحضار آية واحدة أو جزء منها أكثر احتمالًا للخطأ من القراءة المستمرة للسورة كلها أو جزء كبير منها.

وأرىٰ أن الخطيب لا يعذر بخطئه في الآيات؛ لإمكانية عدم الوقوع في ذلك إذا وجد الحرص والاهتمام، وقد يترتب علىٰ ذلك مفاسد كالخطب التي تسجل، أو التي تنقل علىٰ الهواء مباشرة في القنوات الفضائية، أو مواقع الشبكة العالمية، فتنتقل إلىٰ الناس، وتنتشر في الآفاق بالخطأ الذي في بعض الآيات، ويكون ذلك أخطر إذا ترتب علىٰ الخطأ فساد المعنىٰ.

ويعذر الخطيب في ذلك إذا كان يرتجل الخطبة؛ لأن الإنسان يسهو ويغفل ويخطئ، وتشتبه عليه النصوص في بعض الأحيان، ولكن إذا كثر ذلك منه حال ارتجاله بسبب ارتباكه أو ضعف حفظه فيجب عليه كتابة هذه النصوص، وقراءتها من الورقة.

ثانيها: التأكد من صحة استدلاله بالآية.

والخطأ في الاستدلال يكون من أوجه:

أ- فقد يسوق الآية لمعنىٰ يريده وهي لا تفيد ذلك المعنىٰ، وسبب ذلك اعتماده علىٰ فهمه لظاهر الآية، وعدم مراجعته كتب التفسير.

ب- أو يكون في الآية أقوال عدة يختار أحدها - وقد يكون قولًا ضعيفًا أو شاذًّا- فيحمل الآية عليه.

ت- أو يكون في الآية أقوال أخرىٰ متساوية، أو بعضها أقوىٰ من بعض، أو هي من قبيل اختلاف التنوع، فيحصر معنىٰ الآية في القول الذي اختاره وهي تدل علىٰ المعاني الأخرىٰ أو الآية تحتملها.

ثالثها: التركيز علىٰ موضع الشاهد من الآية؛ فمن شأن ذكر كل الآية، والشاهد جزء قليل منها أن يشوش علىٰ المستمع، وقد يضيع منه موضع الاستشهاد ولا سيما إذا كانت الآية طويلة.

رابعها: أرىٰ أن لا يرتل الآية أو موضع الشاهد منها، أو يميزه عن سائر كلامه، كما هي طريقة بعض الدعاة والوعاظ والخطباء؛ لأنه ليس في محل القراءة والتعبد بها حتىٰ يرتل الآيات، وإنما هو في موضع الاستشهاد وإثبات ما يقول بآيات القرآن، وللاستشهاد محله وطريقته، كما أن للتلاوة محلها وطريقتها، ولا يحسن الخلط في ذلك. وكما أنه لا يسوغ لمن يقرأ القرآن إلا أن يرتله، ولا يقرأ بعض الآيات كما يقرأ كلامًا آخر غير القرآن، فكذلك لا يسوغ لمن يستشهد بالقرآن أن يسوقه مساق الترتيل.

خامسها: ينبغي له أن يرتب الآيات التي يستشهد بها حسب ترتيب سورها في القرآن؛ لأن الإجماع منعقد علىٰ أن ترتيب الآيات توقيفي، وأما ترتيب السور فقال قوم: إنه توقيفي، وقال آخرون: إنه اجتهادي، ولو قيل: إنه من اجتهاد

الصحابة ﷺ؛ فإن الأمة أجمعت علىٰ مصحف عثمان ﷺ، وعلىٰ ترتيب سوره. فإن كان ترتيب سوره توقيفيًّا فأُحب للخطيب أن يلتزم به، ولا يخالفه، وإن كان من اجتهاد الصحابة ﷺ فاجتهادهم خير من اجتهادنا، ثم إن انعقاد الإجماع علىٰ هذا الترتيب يجعله حجة.

وأرىٰ أنه يحسن بالخطيب أن لا يخل بترتيب الآيات في الاستشهاد عن ترتيب آيات المصحف وسوره إلا لمعنىٰ يقتضي عدم الترتيب، كأن تكون الآية التي يقدمها نصًّا فيما يريد، والآيات الأخرىٰ تفيد المعنىٰ ذاته، وآيات أخرىٰ يستأنس بها. فيقدم ما يكون نَصًّا في قضيته علىٰ غيرها من الآيات لقوة دلالتها علىٰ ما يريد، ثم يتبعها بالآيات الموافقة لها في المعنىٰ، ثم الآيات التي يستأنس بها.

سادسها: إذا كان عنده عدد من الآيات التي يستشهد بها، وبعض هذه الآيات واضح الدلالة للمستمع، وبعضها بعيد المنزع عما يريد، أو يتطرق إليه الاحتمال؛ فالأولىٰ أن يقتصر علىٰ الآيات الواضحة دون غيرها؛ لئلا يحدث بذكر الآيات المحتملة تشويشًا علىٰ المستمع، وتضعف في ذهنه القضية التي استدل لها الخطيب بهذا الدليل المحتمل، أو بعيد الدلالة.

وإذا كانت القضية محل نزاع في المجتمع، وتتجاذبها أطراف شتىٰ، كالحجاب والسفور، والاختلاط وعدمه، وخروج المرأة وقرارها في البيت، وقضايا الحرية والديمقراطية والانتخابات، فكل هذه القضايا ومثيلاتها محل نزاع بين التيارات العلمانية من جهة، والتيارات الإسلامية من جهة أخرىٰ، وصوت الدعاة والعلماء فيها يكون في المساجد وعلىٰ المنابر وعبر وسائل إعلام محدودة، وصوت العلمانيين فيها يكون في الصحف وأكثر المجلات

والقنوات الفضائية والإذاعية، والناس يشهدون هذه المعارك الفكرية، ويعيشونها كل يوم، فأرىٰ أن لا يكون استدلال الخطباء علىٰ ما يرونه حقًّا في تلك القضايا إلا بالأدلة الواضحة التي لا ينازع فيها إلا مكابر؛ لأن من شأن الاستدلال بالأدلة المشتبهة أو المحتملة أو ضعيفة الدلالة أن يقضي علىٰ قضيته في أذهان الناس، ولو جاء بالأدلة الواضحة معها لما يلي:

أولًا: أن الأدلة الواضحة علىٰ المعنىٰ الذي يريده تفي بالمقصود، وهو يخاطب مسلمين مستسلمين -في أغلبهم- للنصوص الشرعية، ويكفيهم منها دليل واحد واضح للقبول والانقياد عن عشرة أدلة ليست واضحة، أو في الاستدلال بها عسف وتكلف.

ثانيًا: أن الأدلة المحتملة قد تنسي المصلين الأدلة الواضحة، وقد ينشغلون بالتفكير في مدىٰ صحة الاستدلال بها، أو الإيرادات التي ترد عليها عن الاستماع إلىٰ الخطيب، فيصرفهم أو بعضهم عنه، وهو يريد منهم الاستماع إليه.

ثالثًا: أن الخصوم يتعلقون بضعيف الدلالة ويجعلونه أصلًا في المناقشة، فتُنقل القضية من أصلها إلىٰ مناقشة دليل محتمل أو ضعيف، فيحشر الخطيب في زاوية الدفاع عن استدلاله، وتنسىٰ القضية الأصل، وللمنحرفين مكرٌ كُبَّار في ذلك، وبراعة في التشويش علىٰ العوام من هذا الباب، ولا سيما أن أكثرهم ممن إذا خاصم فجر.

وحتىٰ لو لم تجر مناقشة ذلك مع الخطيب في حينه، فليفترض الخطيب أن المصلين عقب الجمعة يناقشون في مجالسهم ما قاله الخطيب، وفي الغالب أن مجالس الناس تجمع التيارين أو المتعاطفين مع أحدهما، فإذا أثبت المخاصم للناس ضعف استدلال الخطيب بدليل واحد من عشرة أدلة في

قضيته التي ساقها فإنه يكسب بذلك أمرين:

أ- صرف نظر الناس عن موضوع الخطبة وأدلتها الأخرىٰ إلىٰ هذا الدليل الضعيف أو المحتمل.

ب- التشكيك في كل ما ذكره الخطيب من القضايا الأخرىٰ، بل التشكيك فيما سيلقيه مستقبلًا، ونزع ثقة الناس فيه.

سابعها: إذا أنهىٰ الخطيب صلاته، ثم سئل عن معنىٰ في آية استشهد بها، أو أورد أحد المصلين عليه إشكالًا في استدلاله، أو دليلًا آخر ينقض ما قرره في خطبته، فلا يخلو الخطيب من حالين:

الأولىٰ: أن يكون عنده جواب لهذا الإشكال، ويعلم ما قد يورد علىٰ استدلالاته من أدلة أخرىٰ، ولديه أجوبة لها -ولا يتأتىٰ ذلك للخطيب إلا بالتحضير الجيد- فليزل تلك الإشكالات، ويُجِبْ عنها بما آتاه الله تعالىٰ من علم وفقه وتحضير جيد لموضوعه.

الثانية: أن لا يكون عنده جواب لهذا الإشكال، ولا يعلم بالأدلة التي أوردت عليه، فلا يجوز له حينئذ أن يُخلِّص نفسه من هذا المأزق بالكذب، أو بنفي ما لا يعلم مع احتمال ثبوته، ولا يَحِلُّ له أن يُصِرَّ علىٰ رأيه وهو غير متأكد مما أُورد عليه، وسأورد مثالًا علىٰ ذلك إن شاء الله تعالىٰ من السنة في موضوع مستقل بعنوان (استدلال الخطيب بالسنة).

ثم إن المناقشين لما في الخطبة من معلومات علىٰ أضرب ثلاثة:

الأول: أهل العلم والفقه والفضل ممن يوقن الخطيب أو يغلب علىٰ ظنه صوابهم وخطؤه، وهؤلاء يجب عليه أن يخضع لهم، ويستفيد من علمهم، ويشكرهم علىٰ تعقباتهم له.

الثاني: المسترشدون، وهم غالبًا ناصحون محبون للخير، متأثرون بالخطبة، ويريدون التطبيق والعمل، فيسألون عن بعض التفصيلات، أو انقدحت عندهم إشكالات مما ذكره الخطيب؛ لوجود مقررات سابقة لديهم، أو نصوص تعارض ما قاله خطيبهم.

وهؤلاء يجب علىٰ الخطيب العناية بهم، والتلطف معهم، وإزالة ما لديهم من إشكالات. فإن قدر الخطيب علىٰ ذلك ساعة سؤاله فذاك، وإلا طلب منهم إمهاله حتىٰ يبحث مسائلهم فيجيبهم عنها، وبحثه لها يفيده هو أكثر مما يفيدهم هم.

الثالث: المكابرون المتصيدون، وهم غالبًا لا يكونون علىٰ وفاق مع منهج الخطيب وأفكاره، أو في قلوبهم ضغينة عليه، أو حسد له، فيريدون إسقاطه وإحراجه.

وأرىٰ في تعامل الخطيب مع هؤلاء أن يدرأهم عنه قدر الإمكان، ويداريهم في الحق ما استطاع، ويجتنب جدالهم ومناقشتهم؛ لأنهم ليسوا طلاب حق. والمجادلة معهم تحقق غرضهم، وقد تصل بالخطيب إلىٰ حد المماراة التي نهي عنها، والإعراض عنهم خير من مواجهتهم.

❁ ❁ ❁

٦- استدلال الخطيب بالسُّنَّة

السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع في الإسلام، وأدلة وجوب الأخذ بها كثيرة جدًّا من الكتاب ومن السنة.

- **فمن الكتاب:**

١- قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

٢- قوله سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

٣- قوله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

- **ومن السنة:**

١- قول النبي عليه الصلاة والسلام في الموعظة التي حكاها العرباض بن سارية رضي الله عنه، وفيها: «**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١).

٢- حديث المقدام بن معدي كرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا**

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي وقال: حسن صحيح (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، والدارمي (٩٥).

الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ»(٢).

وأجمع المسلمون علىٰ ذلك.

والسنة تبين ما أجمل في القرآن، وتفصل ما اختصر، وتعين ما أبهم، وقد خاطب الله تعالىٰ نبيه عليه الصلاة والسلام بهذا المعنىٰ في قوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وفي آية أخرىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

والسنة النبوية بالنسبة إلىٰ ما وَرَدَ في القرآن علىٰ أنواع ثلاثة:

١- مؤكدة لما جاء في القرآن، فيكون الكتاب مثبتًا والسنة مؤيدة.

٢- مبينة لما جاء في القرآن بتفصيل مجمله، وتقييد مطلقه، وتخصيص عامه.

٣- مشرعة لأحكام لم ترد في القرآن، كتحريم نكاح المرأة علىٰ عمتها أو خالتها.

وللسنة مكانة عظيمة في نفوس المسلمين لمحبتهم للنبي ﷺ، وشغفهم باتباعه لنيل رضوان الله تعالىٰ ومحبته ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

ولا يجمل بالخطيب أو الداعية أو الواعظ أن تكون خطبته أو موعظته خالية من هدايات النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وتقريراته.

والملاحظ أن الانفتاح الإعلامي، وانتشار كثير من الحوارات والمناظرات علىٰ الفضائيات قد أثر كثيرًا في بعض الخطباء والدعاة، فصاروا يتقمصون

---

(٢) رواه أبو داود (٤٦٠٤)، وأحمد (٤/ ١٣٠).

شخصيات من يسمون بالمثقفين والمفكرين في كثرة الاستدلالات العقلية علىٰ حساب النصوص من الكتاب والسنة، وبعضهم صار يستبدل بنصوص الوحي أقوال الفلاسفة والمفكرين والكُتَّاب الغَرْبيين لما يلي:

١- إرضاء جمهوره من الحضور أو المستمعين الذين يستمعون له.

٢- كسب ود الوسيلة الإعلامية التي أبرزته للناس، وخصته ببرنامج فيها دون غيره.

٣- مجاراة ما يُلقىٰ علىٰ أسماع الناس عبر وسائل الإعلام المختلفة من ألفاظ ومصطلحات وأفكار لم تكن من قبل في معاجم الدعاة والمصلحين، ولا تجري علىٰ ألسنتهم؛ وذلك مثل مصطلحات: الأنا، والآخر، والرأي، والتعايش السلمي، والحوار، وغير ذلك.

٤- محاولة إظهار نفسه أمام المستمعين بمظهر الخطيب المثقف الذي يُلم بأدوات العصر ومصطلحاته. ولو كان ممحصًا لها، وناقدًا لخللها لكان ذلك محمودًا، ولكن يغلب علىٰ هذا الصنف استخدامها والموافَقة عليها والقناعة بها، وربما ترويجها والدفاع عنها. وقد تجتمع هذه الأسباب أو بعضها في الواحد من الخطباء.

ولا يجوز للخطيب أن يطوع حديث رسول الله ﷺ لضغوط العصر ومصطلحاته، أو يعرض عنه لأجلها؛ بل الواجب عليه أن يرد الناس إلىٰ الجادة، ويربيهم علىٰ تعظيم حديث رسول الله ﷺ وإجلاله والاستدلال به والتسليم له.

قال سفيان الثوري -رحمه الله تعالىٰ-: «إن استطعت ألا تحك رأسك إلا بأثر فافعل»[٣].

---

(٣) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٤٢).

وذَكَر الشافعي -رحمه الله تعالىٰ- حديثًا فقال له رجل: تأخذُ به يا أبا عبد الله؟ فقال: «أفي الكنيسة أنا؟! أو ترىٰ علىٰ وسطي زُنَّارًا؟! نعم أقول به، وكل ما بلغني عن النبي ﷺ قلت به»(٤).

وقال إبراهيم الحربي -رحمه الله تعالىٰ-: «ينبغي للرجل إذا سمع شيئًا من آداب النبي ﷺ أن يتمسك به»(٥).

- **الموازنة بين أحاديث مَوْضُوعِهِ وبين خطبته:**

أغلب الموضوعات التي يتناولها الخطباء هي موضوعات شرعية تتعَلَّق بالمعتقدات أو العبادات أو المعاملات أو الأخلاق أو غيرها، وتتفاوَتُ هذه الموضوعات من جِهَةِ وَفْرَة النصوص النبوية فيها وكثرتها من قلتها، وعليه فلا تَخْلو الأحاديث التي جمعها الخطيب لموضوع خطبته من حالات ثلاث:

الأولىٰ: أن تكون في عددها ومساحتها مناسبة لخطبته، فلا هي كثيرة تطول الخطبة بها، ولا هي قليلة تقصر بها عن المطلوب، وهذه لا إشكال فيها.

الثانية: أن تكون كثيرة لا يمكن استيعابها في خطبة واحدة، وهذه يعمل معها ما ذكرته سابقًا في الآيات الكثيرة بتقسيمها علىٰ موضوعات لعمل خطب عدة منها، ويمكن مراجعة ما ذكرته في تقسيم الآيات لتتضح الصورة أكثر(٦).

الثالثة: أن تكون قليلة بحيث تقصر بها الخطبة قصرًا مخلًّا، فيكملها بالآيات والآثار عن الصحابة والتابعين والأئمة وأقوال العلماء المتبوعين، ويمكن

---

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/١٠٦).
(٥) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٤٢).
(٦) انظر استدلال الخطيب بالقرآن، ص (٢١).

مراجعة ما ذكرته في فقرة الآيات القليلة في الموضوع، وكيف يتعامل الخطيب معها لتكون الصورة أوضح.

- **ما يراعىٰ في الاستدلال بالسنة:**

في الاستدلال بالأحاديث النبوية أرىٰ أنه ينبغي للخطيب مراعاة ما يلي:

أولًا: التأكد من صحة الحديث الذي يستدل به؛ فإن كان متواترًا أو في الصحيحين أو أحدهما فلا إشكال، ولا يحتاج إلىٰ مراجعة؛ لتلقي الأمة لهما بالقبول، ولإجماع العلماء علىٰ الاحتجاج بأحاديثهما في الجملة.

وهنا يحسن التنبيه علىٰ أن الخطيب قد ينقل الحديث ممن نقل عن الصحيحين أو أحدهما، وعزاه مؤلفه إلىٰ الصحيح، فالأولىٰ أن يتأكد من ذلك بمراجعة الصحيح؛ لما يلي:

أ- قد يكون مؤلف الكتاب الذي نقل منه واهمًا في عزوه للصحيح، أو أخطأ في ذلك، أو حصل خلل في الحواشي فنُقلت تخريجات أحاديث لأخرىٰ، وهذا محتمل، بل يقع في كثير من الأحيان.

ب- قد يكون أصل الحديث في الصحيح، والمؤلف ساقه بتمامه وألحق به زيادات أو ألفاظًا ليست في الصحيح، ثم عزا الحديث للصحيح يريد أصل الحديث الذي ساقه بتمامه دون الزيادات أو الروايات الأخرىٰ، ويكون استدلال الخطيب بجزء من الحديث، ويكون هذا الجزء من الزيادات لا مِنْ أصل الحديث، أو يكون من الألفاظ الأخرىٰ التي ليست من ألفاظ الصحيح، فيعزوه للصحيح تبعًا للمؤلف، مع أن اللفظ أو الزيادة التي ذكرها ليست في الصحيح.

ج- قد يكون الحديث في الصحيح موقوفًا أو معلقًا، والمؤلف رفعه أو وصله

باعتبار طرق أخرىٰ رفعته أو وصلته وهي ليست في الصحيح، فينسب للصحيح ما ليس منه لمجرد أنه اطلع علىٰ حديث فيه كلام طويل أو تخريج كثير فانتزع منه (أخرجه البخاري أو مسلم) دون أن يقرأ بقية الحاشية ليعلم أن ما في الصحيح موقوف أو معلق.

ومراجعة الصحيح للتأكد لا تضر الخطيب، بل تنفعه بتعظيم حديث رسول الله ﷺ، والعناية به، واكتساب معرفة جديدة مع كل مراجعة يطالع فيها الصحيحين، وقد يقع بصره علىٰ حديث ما كان يعرفه من قبل، ويناسب هذا الحديث أن يكون موضوع خطبة أخرىٰ، أو هو محتاج إليه في خطبته تلك، وهو بجوار حديثه الذي أراد التأكد من ثبوته ولفظه، وقد وقع ذلك لي كثيرًا.

أما إن كان الحديث في غير الصحيحين فلا يخلو الخطيب من حالات ثلاث:

١- أن يكون صاحب حديث عالمًا بتخريجه ورجاله والبحث فيهم والحكم عليه، فهذا خطيب محدث، وليس مثلي من يرشد مثله.

٢- أن لا يكون عنده أي معرفة بمراجعة كتب الحديث ومصادره، ولا يحسن بالخطيب أن يكون كذلك، ولا بد أن يتعلم ذلك ويمارسه حتىٰ يعرف ما يخدم به خطبته.

وبإمكان المبتدئ أن يعتمد علىٰ كتب الشيخ الألباني -رحمه الله تعالىٰ-، ولاسيما صحيح الجامع وضعيفه؛ لسهولة تناول كتب الشيخ، وحسن فهرستها وترتيبها علىٰ الحروف الهجائية.

وبإمكانه أيضًا أن يسأل المختصين أو طلاب العلم عن الأحاديث التي أشكلت عليه ولا يدري ثبوتها من عدمه، ويوجد مواقع علىٰ الشبكة العالمية تخدم السائلين في ذلك، أو يسأل بالهاتف أو غير ذلك، والحريص لن تعوزه

الوسيلة في زمن ليس لمحتاج إلىٰ علم فيه عذر أبدًا.

وكم هو جميل أن تتوثق الصلات بين الخطباء والوعاظ والدعاة وبين علماء الحديث؛ للاستفادة منهم في علم الحديث، ولتوثيق ما يلقونه علىٰ الناس من خطب ومواعظ، فواجب علىٰ الخطباء والدعاة الاتصال بأهل الحديث، وواجب علىٰ أهل الحديث التعاون معهم، وتقديمهم بالرعاية والاهتمام علىٰ غيرهم من سائر طلاب العلم؛ وذلك لأن خطاب الخطباء والدعاة عام في الجوامع، وربما في وسائل الإعلام الأخرىٰ من إذاعات وفضائيات وإنترنت، ويصل إلىٰ جموع الناس في مشارق الأرض ومغاربها، وتوثيقه بالصحيح من الأدلة والمعلومات أمر واجب، وفيه نفع عام. بخلاف الدروس التي لا يحضرها إلا القليل من الطلاب، وهم ممن لا يخشىٰ عليهم في الغالب.

وقد فعل ذلك أسلافنا من قبل؛ إذ كان رئيس الخطباء في القرن الخامس قد تقدم إلىٰ الخطباء والوعاظ أن لا يرووا حديثًا حتىٰ يعرضوه علىٰ الخطيب البغدادي -رحمه الله تعالىٰ- فما صححه أوردوه وما رده لم يذكروه[٧].

٣- أن يكون ملمًّا بتخريج الحديث مِنْ مَصَادِرِه الأصلية، ولكنه لا يستطيع الحكم عليه ولا معرفة رجاله، وهذا يَتَّكِئ في ذلك علىٰ علماء الحديث:

أ- فيبدأ بالمتقدمين المشهورين كعلي بن المديني وأحمد بن حنبل وأبي حاتم وأبي زرعة الرازيين والبخاري ونحوهم. وقد ينقل العلماء تصحيحاتهم لبعض الأحاديث، كما ينقل الترمذي أحكام شيخه البخاري علىٰ بعض الأحاديث في سننه[٨].

---

(٧) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٨٠)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (١/ ٤٣٥).

(٨) انظر علىٰ سبيل المثال هذه الأحاديث في الترمذي: فحديث رقم (١٢٨) نقل فيه تصحيح =

ب- ينظر إلىٰ أحكام من بعدهم من أهل الحديث كالترمذي وابن خزيمة وابن حبان ونحوهم.

ت- ينظر في أحكام المتأخرين من الحفاظ كالذهبي وابن حجر والعراقي والهيثمي والسيوطي.

ث- ينظر في أحكام المعاصرين من أمثال أحمد شاكر والألباني والأرناؤوط وغيرهم.

وكل كتب هؤلاء العلماء موجودة ومتداولة ومتوافرة في المكتبات العامة، وأكثرها -إن لم يكن كلها- موجود علىٰ الموسوعات الالكترونية والشبكة العالمية، وبإمكان الخطيب مراجعتها والاستفادة منها.

وأحسب أن السنة من جهة الرواية قد خدمت خدمة عظيمة علىٰ أيدي علماء الحديث علىٰ مر العصور، واللاحق من العلماء يكمل ما بدأه السابق، ويبدأ شيئًا جديدًا يكمله من بعده حتىٰ وصلت إلىٰ ما وَصَلَتْ إليه في عصرنا بحمد الله تعالىٰ.

ثانيًا: إن رأىٰ أن العلماء قد اختلفوا في الحديث تصحيحًا وتضعيفًا، وعنده من الصحيح ما يغني عنه فيعرض عن هذا المختلف فيه، وإن اتَّحَد معنىٰ الحديثين فجعل الصحيح شاهدًا لهذا المختلف فيه فأورده من هذا القبيل فتلك هي طريقة أهل الحديث في الضعيف المنجبر.

ثالثًا: إن كان الحديث مختلفًا فيه وهو محتاج إليه ويمثل أصلًا في خطبته،

= أحمد والبخاري لحديث حمنة بنت جحش فيما تفعل المستحاضة، وحديث (٦١٤) نقل فيه استغراب البخاري لحديث كعب بن عجرة ﷺ في الأمراء، وحديث (٦٢٠) نقل فيه تصحيح البخاري لحديث في الصدقة عن علي ﷺ، وينظر أيضًا: (٦٤٤ و٦٨٣ و٧٥٨ و١٠١٦ و١١٧٧ و١١٧٨ و١٤٦١ و١٣٦٦ و١٧٧٦ و١٨٤١ و٢٦٩٧).

وليس عنده ما يغني عنه؛ فيزيد من البحث والتأمل حتىٰ يصل إلىٰ نتيجة، ويستعين في ذلك بأهل التخصص وطلاب العلم المتمكنين في الحديث، فلعل أَحَدَهُمْ بحثه ووصل فيه إلىٰ نتيجة فيفيده بها.

رابعًا: يحسن التنبيه علىٰ أنه لا يجوز للخطيب أن يعتمد شهرة الحديث وتداول الناس له علىٰ الألسنة، فيظن بذلك صحته فيورده في خطبته دون التأكد من ثبوته؛ فإن ما يتداوله الناس من أحاديث فيه الصحيح والضعيف والموضوع، وفيه ما ليس بحديث مما هو من الأمثال أو أقوال السلف أو أقوال الحكماء أو غيرهم، سرت هذه الأقوال بين العوام علىٰ أنها أحاديث وليست كذلك.

وقد كثر ذلك في الأزمان المتأخرة، فكتب العلماء فيه كتبًا؛ فالحافظ ابن حجر كتب كتابه «اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة»، ثم ألف السيوطي كتابه «الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة»، وألف السخاوي كتابًا عنوانه «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة علىٰ الألسنة»، ثم جاء تلميذه عبد الرحمن بن الديبع فاختصره في كتابه «تمييز الطَّيِّب من الخبيث فيما يدور علىٰ ألسنة الناس من الحديث»، ثم كتب العجلوني -رحمه الله تعالىٰ- كتابًا سماه: «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث علىٰ ألسنة الناس».

وما كانت هذه العناية من العلماء حتىٰ أفردوا كتبًا في ذلك إلا حماية لجناب السنة، وحرصًا علىٰ الناس من الضلال، وتنقية لما يتناقلونه من أقوال، وبيانَ ما هو حديث منها وما ليس بحديث، فلا يجوز للخطيب أن ينقل ما يجري علىٰ الألسنة في خطبته لمجرد شهرته وسريانه في الناس.

ويلحق بذلك ما هو من محفوظات الخطيب، مما لم يتيقن أنه حديث؛ فقد

يكون الخطيب قد حفظ في صباه حديثًا أو مقولة علىٰ أنها حديث من أبيه أو جده أو معلمه أو خطيب مسجدهم أو غيرهم، ورسخ في ذهنه أنه حديث، ولم يراجعه في كبره، فلا يجدر به أن ينقله في خطبته حتىٰ يتأكد من ثبوته.

وكثيرًا ما سمعنا بعض الخطباء والوعاظ يستدلون بأحاديث مشهورة ولكنها لا تثبت، وقد يكون منها ما هو موضوع، وينسبه إلىٰ النبي ﷺ.

ومما ذكره المؤلفون في الموضوعات من دواعي وضع الأحاديث واختلاقها: القص علىٰ الناس وتذكيرهم وموعظتهم.

ومرة سمعت واعظًا في إحدىٰ المساجد الكبرىٰ يعظ الناس علىٰ إثر ريح شديدة أصابتهم، فبدأ موعظته يأمر الناس أن يقولوا: «اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحا» وردد ذلك عليهم، وكرر الدعاء به، مستدلًّا بالحديث المشهور في ذلك، وهو لا يثبت، ومبينًا لهم أن الرياح في كل آيات القرآن رحمة، وأن الريح عذاب، ولم تأت مفردة في سياق الرحمة أبدًا. وفي هذا الإطلاق ذهول منه عن قول الله تعالىٰ: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ [يونس: ٢٢].

بل إنه يجمل بالخطيب وإن كان حافظًا للحديث عارفًا بدرجته أن يراجعه حال التحضير لخطبته؛ لاحتمال الوهم، أو اختلاطه عليه بحديث آخر، وليستفيد رسوخه في ذهنه، وهو بمثابة المراجعة لحفظه.

خامسًا: أرىٰ أنه ينبغي للخطيب أن يذكر صحابي الحديث ومن أخرجه في خطبته باختصار؛ فإن ذلك أدْعَىٰ للثقة فيما ينقل لدىٰ المستمعين، ثم إنه قد يكون من المصلين معه من يستفيد من ذلك بترسيخ محفوظاته من الحديث النبوي.

سادسًا: التأكد من مفردات الحديث وجمله؛ فإن التصحيف والتحريف قد يقعان أثناء النسخ أو الطباعة، وقد يرويه الراوي علىٰ الخطأ؛ ولذلك اعتنىٰ العلماء قديمًا وحديثًا بضبط ألفاظ الحديث، وإصلاح ما به من التحريف والتصحيف.

وخصوا هذا الموضوع بكتب أفردوها فيه ككتاب تصحيفات المحدثين، وكتاب شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، كلاهما لأبي أحمد العسكري، وكتاب إصلاح غلط المحدثين للخطابي، وكتاب تصحيح التصحيف وتحرير التحريف لصلاح الدين الصفدي، ونبهوا فيها علىٰ ما وقع لبعض الرواة أو النساخ من تصحيف وتحريف.

ومِنْ أمثلة ذلك: ما وقع لشيخ يعرف بمحمش أجلس للتحديث بعد وفاة محمد بن يحيىٰ الذهلي -رحمه الله تعالىٰ- فحدث بحديث «يا أبا عُمَيْر ما فعل النغير» فصحفه إلىٰ: (يا أبا عَمير ما فعل البعير)، وحدث بحديث «لا تصحب الملائكة رفقة فيها جرس» فصحفه إلىٰ (خرس)(٩)، وأخطأ ابن لهيعة في حديث: «أن النبي ﷺ احتجر في المسجد» فحَرَّفَهُ إلىٰ (احتجم في المسجد).

قال الإمام مسلم -رحمه الله تعالىٰ-: «وهذه رواية فاسدة من كل جهة، فاحش خطؤها في المتن والإسناد جميعا، وابن لهيعة المصحف في متنه المغفل في إسناده، وإنما الحديث: أن النبي ﷺ احتجر في المسجد بخوصة أو حصير يصلي فيها»(١٠).

ومع كثرة الناشرين للكتب في هذا العصر، وازدهار سوق الطباعة، وتحول

(٩) انظر: معرفة علوم الحديث للحاكم ص١٤٦، وفتح المغيث (٣/ ٧٤).
(١٠) التمييز، ص١٨٧.

هذا العمل الجليل تدريجيًّا من قصد خدمة تراث المسلمين، وإخراجه للناس إلىٰ تجارة بحتة، حتىٰ صار بعض النصارىٰ الموارنة في لبنان يشتغلون في كتب المسلمين ويطبعونها، وهكذا الأقباط في مصر، وبعض أتباع الفرق الضالة ينشرون كتب أهل السنة، وكثير من ملاك دور النشر والقائمين عليها هم من أجهل الناس بالكتب وقيمتها؛ وأيضًا تصدىٰ لتحقيق الكتب وتخريجها في كثير من الأحيان أناس ليسوا من أهل الصنعة، ولا علم لديهم بأصول الفنون التي يُحَقِّقُون الكتب فيها تارة بأسمائهم، وتارة أخرىٰ بأسماء اللجان العلمية للدار، فإن الأخطاء الفاحشة، والتحريفات الكثيرة قد أصابت كثيرًا من كتب التراث المطبوعة؛ مما يوجب علىٰ المستفيد منها من الخطباء وغيرهم أخذ الحيطة والحذر، والتأكد من صحة النصوص المنقولة فيها، ولا سيما حديث رسول الله ﷺ؛ وذلك يكون وفق الخطوات التالية:

١- علىٰ الخطيب أن يحرص علىٰ اقتناء الطبعات الجيدة لمكتبته، المحققة تحقيقًا علميًّا ممن يوثق بعلمهم وورعهم، وخاصة فيما يتعلق بنص حديث رسول الله ﷺ من الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم وغيرها، وكذلك الكتب الناقلة عنها من كتب الترغيب والترهيب والآداب والمواعظ والزهد وأدلة الأحكام ونحوها؛ فإنها وإن غلا ثمنها -بسبب حقوق المحققين الذين أمضوا سنوات طويلة في تحقيقها- فإن قيمتها فيها، وهي خير من الطبعات التجارية الرخيصة في قيمتها وفي تحقيقها.

وهذا يريح الخطيب والباحث علىٰ مدىٰ الزمن، بطمأنينته إلىٰ أكثر كتبه التي يملكها، ووثوقه فيها، ويوفر عليه وقتًا طويلًا قد يقضيه بسبب أغلاط في حديث حولت معناه أو أوجدت فيه إشكالات يستنزف وقته وجهده في حلها، ولربما

رجع إلىٰ كتب الشروح والغريب واللغة ثم يتبين له بعد جهد جهيد، ووقت طويل أن في متن الحديث خطأ في الطباعة!!

٢- إذا كان الكتاب الذي سيأخذ منه الحديث لم يخدم كما ينبغي، ولا يوجد له طبعة جيدة -وهذا مع الأسف كثير في كتب التراث- أو هو لا يملك طبعة جيدة، فأرىٰ أن يأخذ الحديث من طبعته السقيمة، ولكن يراجع كتبًا أخرىٰ مساعدة يغلب علىٰ ظنه أن الحديث فيها، مثل كتب الزوائد والشروح، والكتب المصنفة في موضوعات معينة، وهذا الحديث من ضمن موضوعاتها.

وكثيرًا ما تتوارد نسخ عدة، وكتب متنوعة علىٰ الخطأ؛ لأن الخطأ في المصدر المنقول عنه، وقد يكون الخطأ في أصل المخطوط، ويكون اللفظ محتملًا وليس فيه ما يستنكر، وقد يعذر الخطيب في هذه الحالة. لكن زيادة الاستيثاق، وحرص الخطيب علىٰ إدراك معنىٰ الحديث يوصله إلىٰ الصواب، ويقلل احتمال وقوع الخطأ بإذن الله تعالىٰ، ولأهمية المثال العَمَلِي في توضيح الصورة للخطيب أسوق هذا المثال:

لو كان عند الخطيب حديث في مسند أحمد، والطبعة التي عنده للمسند رديئة، فيراجع طبعة جيدة ولو في مكتبة عامة، فإن لم يتوفر له ذلك، وكان الحديث في أحد الكتب الستة راجعه فيه -ويستعين في بحثه بجامع الأصول وفيه الموطأ وباقي الستة إلا ابن ماجه- فإن لم يكن في أحدها فيراجع مجمع الزوائد للهيثمي، وبإمكانه أن يراجع ترتيب المسند وشرحه للساعاتي المسمىٰ (الفتح الرباني ومعه بلوغ الأماني).

فإن كان الحديث في موضوع من موضوعات الترغيب أو الترهيب أمكنه مراجعة كتاب المنذري، وإن كان الحديث قولًا للنبي ﷺ أمكنه مراجعة الجامع

الصغير للسيوطي، وزياداته للمناوي، وصحيحه وضعيفه للألباني. وهكذا . . . . ولن يعدم طريقة من الطرق يجد بواسطتها الحديث في مصادر أخرىٰ.

ويستفيد من مراجعته لهذه الكتب المتنوعة فوائد كثيرة منها:

أ- الاطمئنان إلىٰ لفظ الحديث، وتوثيقه قدر المستطاع.

ب- زيادة خبرته في التعامل مع كتب التراث، ومعرفة مناهج مصنفيها فيها، ومع كثرة المراجعة والممارسة يمتلك دربة في ذلك تمكنه من الوصول إلىٰ المعلومة التي يريدها في أسرع وقت وأقل جهد؛ إذ إن هذه المراجعات تشبه دورات تعليمية سريعة في هذه الكتب العظيمة.

ت- قد يجد أحاديث أخرىٰ تخدمه في موضوعه الذي يكتبه، وربما كانت هذه الأحاديث بالنسبة لموضوعه أهم من الحديث الذي قصده؛ مما يثري موضوعه ويقويه بالنصوص ويوسعه.

فمراجعته لمجمع الزوائد تمكنه من معرفة أحاديث أخرىٰ في موضوعه أو قريبة منه في مسند أحمد أو مسند أبي يعلىٰ أو مسند البزار أو في معاجم الطبراني.

ومراجعته للترغيب والترهيب تكسبه أحاديث أخرىٰ في موضوعه أو قريبة منه، وقد يكون منها ما هو أقوىٰ من حديثه أو في الصحيح، وقد غفل عن هذه الأحاديث أو لا يعلمها قبل مراجعته لهذا الكتاب.

ومراجعته لبلوغ الأماني تكسبه أحاديث أخرىٰ وآثارًا عن الصحابة والتابعين؛ لأن الساعاتي -رحمه الله تعالىٰ- يعقد بابًا في نهاية كل باب من ترتيبه لأحاديث المسند يجعله لزوائد الباب وأحكامه، يسوق فيه أحاديث وآثارًا وأحكامًا يكثر فيها النقل من كتب الشروح، وقراءة الخطيب لذلك تجعله أكثر إلمامًا

بموضوعه، وتمكنًا فيه، وتفتح له أبوابًا عظيمة من العلم والمعرفة.

وإذا كان لديه كتاب ترتيب أحاديث صحيح الجامع الصغير وزياداته علىٰ الأبواب الفقهية لعوني الشريف، أمكنه الاطلاع علىٰ أحاديث قولية أخرىٰ في موضوعه الذي يريده أو قريبة منه.

ث- أنه يطلع علىٰ تخريج الحديث، فالمنذري والهيثمي والساعاتي يخرجون الأحاديث.

ج- أنه يطلع علىٰ حكم علىٰ الحديث أو حكم علىٰ رجاله؛ فالمنذري والهيثمي يحكمان أحيانًا علىٰ الحديث بالصحة أو بالحسن أو بالضعف أو النكارة، ويحكمان أكثر علىٰ رجاله بعبارات: ورجاله رجال الصحيح، ورجاله ثقات، أو موثوقون، أو فيه فلان مختلف فيه، أولم يوثقه إلا ابن حبان، أو ضعيف، أو منكر الحديث أو كذاب . . .

فإن كان الحديث لا يحتج به أسقط ذلك عن الخطيب عناء كبيرًا من البحث في درجة الحديث. وكانت مراجعته تلك عونًا له في السلامة من الاستدلال بحديث لا يحل الاستدلال به، ولا نسبته للنبي ﷺ.

وإن كان الحديث مما حكما علىٰ رجاله بالتوثيق احتاج إلىٰ التأكد من اتصال السند وعدم العلة المانعة من الاحتجاج بالحديث؛ لأنه لا يلزم من توثيق الرجال، أو كونهم من رجال الصحيح صحة الحديث؛ لاحتمال الانقطاع أو علة أخرىٰ خفية.

وكذلك الساعاتي يحكم أحيانًا علىٰ الأحاديث أو ينقل حكم مَنْ قَبْلَه عليها.

والسيوطي والألباني يحكمان أيضًا علىٰ الأحاديث.

سابعًا: الاستيثاق من قراءته للحديث وإعرابه بشكل صحيح؛ فإن بعض

الكلمات والجمل أو أسماء الرواة قد تكون عالقة في ذهنه علىٰ الخطأ، إما لأنه حفظه هكذا في صغره، أو سمعه من متحدث علىٰ الخطأ فرسخ في ذهنه، أو هو يقرأه ابتداء علىٰ الخطأ، ويكون استيثاقه بما يلي:

أ- أن يراجع الحديث في طبعة محققة موثوقة مضبوطة بالشكل ويقرأه منها بتمعن، ويضبط في كتابته ما يحتاج إلىٰ ضبط.

ب- أن لا يملك طبعة مشكولة، وفي هذه الحالة يراجع كتب الشروح، والشارحون غالبًا ما يضبطون الكلمات المشكلة، ويذكرون الأوجه أو الخلاف إن كان ثمة خلاف، أو كان للكلمة أكثر من وجه.

ومما يحضرني من الأمثلة حديث (تعرض الفتن علىٰ القلوب عرض الحصير عودًا عودًا) فكلمة (عودًا) اختلفوا في ضبطها علىٰ أقوال ثلاثة:

١- عَوْذًا عوذًا -بفتح العين والذال المُعْجَمَة- ومعناه: الاستعاذة بالله تعالىٰ منها.

٢- عَوْدًا عودًا -بفتح العين، وبالدال- علىٰ معنىٰ أن الفتنة كلما زالت عادت مرة أخرىٰ.

٣- عُودًا عودًا -بضم العين، وبالدال- علىٰ معنىٰ أن الفتن تتوالىٰ علىٰ القلب، كما يتوالىٰ العود بإزاء العود في نسج الحصير. وَقَدْ تَوَارَدَ شراح صحيح مسلم القاضي عياض والقرطبي والنووي والأبي علىٰ ذكر هذه المعاني والترجيح بينها.

والمعنىٰ الأخير هو الأَشْهَر والأَظْهَر، لكن معرفة الخطيب للمعاني الأخرىٰ يفيده جدًّا، وقد يكون أحد المصلين حَفِظَه علىٰ المعنىٰ الآخر فيحتج عليه به، فيكون ملمًّا بتلك المعاني، وهذا يُكسبه ثقة الناس فيه، وطمأنينتهم إلىٰ ما يلقي عليهم.

وأحيانًا يتصرف الرواة في الكلمة فيغيرون لفظها -بناء علىٰ جواز الرواية بالمعنىٰ إذا لم يخل به- بزيادة حروف أو إبدالها بمرادف، لكن المعنىٰ يكون متقاربًا، ومن لا علم له بذلك قد يظنه خطأ في الحديث، مع أن كل الألفاظ صحيحة لتقارب معانيها.

ومن أمثلة ذلك: ما جاء في حديث أبي رزين العقيلي لما سأل عن البعث وكيفيته فقال النبي ﷺ: «**أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي أَهْلِكَ مَحْلًا؟** . . .» الحديث.

فكلمة (مَحْلا) هكذا جاءت في المسند، ومعناها: مجدبًا، من أمحلت الأرض إذا أجدبت، وجاء في الرواية الأخرىٰ للمسند وعند الطيالسي (مُمْحِلا) وهي بمعنىٰ الأولىٰ، ومثلها حديث النواس رضي الله عنه في شأن الدجال، وفيه: «**فيصبحون مُمْحلين**»، وجاء في رواية الطبراني: (قَحْلا)، وقحل الناس: يبسوا من شدة القحط. فهذا اختلاف في الروايات، لكن المعنىٰ واحد.

ت- بإمكانه مراجعة كتب غريب الحديث إن كانت الكلمة غريبة -أي يقل استعمالها- أو كانت مشتركة مع غيرها في المعنىٰ؛ فالمصنفون في الغريب يعتنون ببيان الفروق المعنوية بين المشتركات في الألفاظ، وأحيانًا يوردون أحاديث أخرىٰ فيها ذات الكلمة أو قريبة منها في المعنىٰ فيستفيد الخطيب بمراجعتها نصوصًا أخرىٰ، واتساعًا في علم معاني الحديث.

والكتب في الغريب كثيرة ومتداولة ومن أشهرها: كتب الخطابي والحربي وابن الأثير.

ث- يمكنه أيضًا أن يراجع كتب أهل اللغة كالقاموس والصحاح واللسان ونحوها؛ فإن أهل اللغة يأتون بجذر الكلمة ويذكرون ما فيها من استعمالات، ويستدلون لما يوردون من المعاني بالقرآن والسنة وأشعار العرب وأمثالهم.

ثامنًا: التأكد من أن استدلاله بالحديث صحيح، فقد يكون معنىٰ الحديث أو الشاهد منه علىٰ غير الوجه الذي أراده الخطيب؛ إما لفهمه علىٰ الخطأ، أو سمعه من أحد خطأ، أو يكون المعنىٰ الذي قصده شاذًا أو مرجوحًا، وقد يحكيه علىٰ أنه المعنىٰ الوحيد للحديث مع كونه مرجوحًا.

وتلافي الخطأ في ذلك يكون بمراجعة كتب الشروح، ويستفيد من مراجعتها بعض النصوص الأخرىٰ غير حديثه المشروح، وقد يجد آثارًا وأقوالًا للعلماء تنفعه في موضوعه.

فإن كان حديثه في الكتب الستة فقد شرحت شروحًا كثيرة، وإن كان الحديث في كتاب لم يطبع له شرح، أو هو لا يملكه، فلن يعدم حيلة يجد فيها الحديث:

فقد يجده في شروحات عمدة الأحكام، أو المنتقىٰ، أو بلوغ المرام إن كان الحديث في الأحكام.

وإن كان الحديث قولًا وجده في شروح الجامع الصغير؛ كفيض القدير للمناوي.

وربما وجده في شروحات مشكاة المصابيح، أو رياض الصالحين، أو شرح السنة للبغوي، أو غيرها من كتب المجاميع والشروح.

تاسعًا: ينبغي للخطيب أن لا يشير إلىٰ الأحاديث إشارة لا يفهمها إلا من كان حافظًا للحديث، مستحضرًا له، فليس كل المصلين يحفظون الأحاديث، وليس كل من يحفظها يستحضرها في الحال، ولا سيما إذا كان الحديث لا يطرق الأسماع كثيرًا.

عاشرًا: إذا كان في الحديث إشارة توضيحية من النبي عليه الصلاة والسلام، فأرىٰ أن يطبقها الخطيب وهو يقرأ الحديث؛ تأسيًا بالنبي عليه الصلاة والسلام،

ولإفهام المصلين كيف فعل النبي ﷺ، فالوصف وحده قد لا يفهمه كل المصلين، والفعل أبلغ من الوصف.

وكثيرًا ما جاء في الأحاديث: وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، وخنس الإبهام، فبسط يديه أو قبضهما، وأشار بيده هكذا، أو قبل المشرق، يقول هكذا بأصبعه، وقبض أصابعه . . .

وأحيانًا قد لا يجد الخطيب وصفًا دقيقًا في الرواية كيف فعل النبي عليه الصلاة والسلام، إما لاختصارها أو بدا للراوي أنها معروفة فلم يوضحها، وعلىٰ الخطيب في مثل ذلك أن يجمع الروايات، ويطلع علىٰ شرح الحديث؛ ليتبين له الوصف كاملًا إما من رواياته الأخرىٰ وإما من كلام الشراح.

وذلك مثل حديث ابن عمر في أن الله تعالىٰ يطوي السماوات والأرضين بيديه، قال ابن عمر يحكي فعل النبي ﷺ وهو يحدث بهذا: «ويقبض أصابعه ويبسطها» هكذا في رواية مسلم، والحديث في الصحيحين. وزاد ذلك إيضاحًا رواية للنسائي وفيها: «وجعل باطنها إلىٰ السماء»(١١).

الحادي عشر: إذا أنهىٰ الخطيب صلاته، ثم سئل عن معنىٰ في حديث استشهد به، أو أورد أحد المصلين عليه إشكالًا في استدلاله، أو دليلًا آخر ينقض ما قرره في خطبته، فلا يخلو الخطيب من حالين:

الأولىٰ: أن يكون عنده جواب لهذا الإشكال، ويعلم ما قد يورد علىٰ استدلالاته من أدلة أخرىٰ، ولديه أجوبة لها -ولا يتأتىٰ ذلك للخطيب إلا بالتحضير الجيد- فليزل تلك الإشكالات، ويُجِبْ عنها بما آتاه الله تعالىٰ من علم وفقه وتحضير جيد لموضوعه.

---

(١١) السنن الكبرىٰ (٧٦٩٥).

الثانية: أن لا يكون عنده جواب لهذا الإشكال، ولا يعلم بالأدلة التي أوردت عليه، فلا يجوز له حينئذ أن يخلص نفسه من هذا المأزق بالكذب، أو بنفي ما لا يعلم مع احتمال ثبوته، ولا يحل له أن يصر علىٰ رأيه وهو غير متأكد مما أورد عليه.

مثال ذلك: لو تحدث الخطيب عن فوائد الأمراض وما يحصل فيها من الأجر والثواب، وساق الآيات والأحاديث في فضل الصبر علىٰ المصائب، ثم أورد ما جاء في المسند وغيره من أن أبي بن كعب -رضي الله تعالىٰ عنه- قد دعا علىٰ نفسه بالحمىٰ، فلازمته حتىٰ إن حرها ليوجد من وراء اللحاف، واستشهد الخطيب بفعل أبي رضي الله عنه علىٰ جواز أن يدعو الإنسان علىٰ نفسه بالمرض ابتغاء الأجر، ولا سيما أن أُبَيًّا رضي الله عنه من فقهاء الصحابة وعلمائهم.

ثم أورد معترض علىٰ الخطيب الأحاديث التي فيها الأمر بسؤال الله تعالىٰ العفو والعافية، والأخرىٰ التي فيها النهي عن الدعاء علىٰ الأنفس أو الأولاد أو الأموال، وذكر قصة الرجل الذي دعا علىٰ نفسه فزاره النبي صلى الله عليه وسلم وقد أكله المرض، فأنكر عليه الصلاة والسلام عليه دعاءه علىٰ نفسه، وقصته مخرجة في صحيح مسلم.

ولا شك في أن الخطيب في مثل هذه الحالة مخطئ، ولا يحل له المكابرة والإصرار علىٰ الخطأ، وفعل أبي رضي الله عنه اجتهاد منه يؤجر عليه إن شاء الله تعالىٰ، ولكن لا يقضىٰ باجتهاده رضي الله عنه علىٰ النصوص الصحيحة الصريحة في هذا الباب، ولا يوافق عليه بحجة أنه من علماء الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنه وإن كان كذلك فهو غير معصوم من الخطأ، وقد تخفىٰ عليه بعض النصوص، ولا عصمة إلا للرسل عليهم السلام.

والواجب الشرعي، ثم الشجاعة الأدبية يقضيان علىٰ الخطيب بأن يراجع الحق، ويعترف بخطئه، وأن يشكر من تعقبه فيه، وبينه له، وأن يسعىٰ إلىٰ تصحيحه في خطبة تالية سواء صرح بخطئه، وذكر لهم أنه راجع عنه، وهذا أحسن.

فإن عجز عن ذلك قرر الصواب الذي يعارض ما قرره من خطأ سابقًا، ويؤكد عليه مستشهدًا بما علمه من أدلة كان من قبل يجهلها، فإن نوقش عقب الصلاة بقوله السابق بين أنه أخطأ فيه، وأنه صححه في هذه الجمعة.

وقد يظن بعض الخطباء أن مثل هذا الاعتراف يقلل من ثقة المصلين في الخطيب، وهذا خطأ، بل الاعتراف بالخطأ يزيد من طمأنينة المصلين وثقتهم في خطيبهم؛ لأنهم سيتيقنون أو يغلب علىٰ ظنهم أن ما لم يعتذر خطيبهم عنه فهو صحيح، فهو قد عودهم علىٰ الاعتذار مما يخطئ فيه.

وقد بينت في موضوع سابق أنواع المناقشين للخطيب، وكيفية التعامل مع كل نوع منهم[١٢].



(١٢) ينظر: استدلال الخطيب بالقرآن، ص(٢١).



٧- الخطبة بسورة أو بآيات أو بآية

كتبت موضوعًا سابقًا بعنوان: استدلال الخطيب بالقرآن[١]، ذكرت فيه أهمية الاستدلال بالآيات القرآنية في الخطبة، وطريقة ذلك، وما يلزم له، فيمكن أن يستفاد من فقراتها في هذا الموضوع حتىٰ لا أكرر ما ذكرته قبل.

بيد أن تناول الخطيب للآيات القرآنية علىٰ أضرب ثلاثة:

الأول: الاستدلال بها، ويدخل فيه الاستئناس إذا كانت الدلالة ليست قاطعة ولا ظاهرة.

الثاني: القراءة بها، كقراءة النبي عليه الصلاة والسلام آية أو سورة علىٰ المنبر، والظاهر أن الغرض من هذه القراءة التذكير والموعظة.

الثالث: تخصيص الخطبة كلها في الحديث عن آية أو سورة، وهو موضوع مقالتي هذه.

والضرب الأول سبق إفراده بالكتابة المشار إليها آنفًا.

وأما الثاني: فإن بعض الفقهاء جعلوا قراءة شيء من القرآن شرطًا لصحة الخطبة، وهو مذهب الشافعية والحنابلة؛ للأحاديث والآثار الواردة في قراءة النبي ﷺ في خطبته، وقراءة بعض خلفائه ﷺ، ومما ورد في ذلك:

١- حديث أم هشام بنت حارثة ﵂ في قراءة النبي ﷺ لسورة (ق) علىٰ المنبر، وسيأتي الكلام عليه لاحقًا.

٢- حديث يَعْلَىٰ بن أمية ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يَقْرَأُ علىٰ الْمِنْبَرِ ﴿وَنَادَوْا

(١) ص(٢١).

يَمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزُّخرف: ٧٧](٢).

٣- حديث أُبَيِّ بن كَعْبٍ ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَرَأَ يوم الْجُمُعَةِ تَبَارَكَ وهو قَائِمٌ فَذَكَّرَنَا بِأَيَّامِ الله ...»(٣).

ووردت أحاديث أخرىٰ ضعيفة أن النبي عليه الصلاة والسلام قرأ علىٰ المنبر آخر سورة (الزمر)، وفي أخرىٰ قرأ سورتي (الكافرون والإخلاص)، وجاءت آثار عن عمر وعثمان وعلي ﷺ أنهم قرءوا آيات أو سورًا علىٰ المنبر يوم الجمعة(٤).

قال الشافعي -رحمه الله تعالىٰ-: «فَلَا تَتِمُّ الْخُطْبَتَانِ إِلَّا بِأَنْ يَقْرَأَ في إِحْدَاهُمَا آيَةً فَأَكْثَرَ، وَالَّذِي أُحِبُّ أَنْ يَقْرَأَ بـ(ق) في الْخُطْبَةِ الْأُولَىٰ، كما روي عن رَسُولِ الله ﷺ لا يُقَصِّرُ عنها ومَا قَرَأَ أَجْزَأَهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ»(٥).

وقال الترمذي -رحمه الله تعالىٰ-: «وقد اخْتَارَ قَوْمٌ من أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يَقْرَأَ الْإِمَامُ في الْخُطْبَةِ آيًا من الْقُرْآنِ، قال الشَّافِعِيُّ: وإذا خَطَبَ الْإِمَامُ فلم يَقْرَأْ في خُطْبَتِهِ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ أَعَادَ الْخُطْبَةَ»(٦).

---

(٢) رواه البخاري (٣٠٥٨)، ومسلم (٨٧١).

(٣) رواه ابن ماجه (١١١١)، وأحمد إلا أن فيه أنه عليه الصلاة والسلام قرأ (براءة) (٥/ ١٤٣)، وهذا اضطراب، قال البوصيري في مصباح الزجاجة: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وأصله في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة ﷺ (١/ ١٣٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.
لكن قال الشوكاني: هو من رواية عطاء بن يسار عن أبي ولم يدركه. نيل الأوطار (٣/ ٣٢٨)، ووهن ابن عبد البر هذه القصة في التمهيد (١٩/ ٣٦)، والذي في الصحيحين منه ما يتعلق بالنهي عن اللغو يوم الجمعة.

(٤) انظر: الأم (١/ ٢٠١)، ومعرفة السنن والآثار (٢/ ٤٩٣)، وسنن البيهقي (٣/ ٢١١).

(٥) الأم (١/ ٢٠١).

(٦) جامع الترمذي (٢/ ٣٨٢).

وقال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: «فيه القراءة في الخطبة، وهي مشروعة بلا خلاف، واختلفوا في وجوبها، والصحيح عندنا وجوبها وأقلها آية»(٧).

وفي مذهب الحنابلة: قال المرداوي -رحمه الله تعالىٰ-: «الصحيح من المذهب أنه يشترط لصحة الخطبتين قراءة آية مطلقًا في كل خطبة نص عليه، وعليه أكثر الأصحاب؛ لأنها بدل من ركعتين»(٨).

وأما الأحناف والمالكية فالقراءة عندهم من سنن الخطبة، وتَصِحّ الخطبة بلا قراءة، ونص ابن نجيم علىٰ أَنَّ مَنْ تَرَكَ القراءة فهو مسيء(٩).

وفي اختيارات السعدي أن القراءة من كمال الخطبة وليست واجبة، قال -رحمه الله تعالىٰ-: «من كمال الخطبة: الثناء فيها علىٰ الله وعلىٰ رسوله، وأن تَشْتَمِلَ علىٰ قراءة شيء من كتاب الله تعالىٰ، وأما كون هذه الأمور شرطًا لا تَصِحّ إلا بها سواء تركها عمدًا أو خطأ أو سهوًا فَفِيه نظر ظاهر ...» اهـ(١٠).

وقال ابن عثيمين -رحمه الله تعالىٰ-: «والدليل علىٰ اشتراط قراءة الآية أن النبي ﷺ كان يقرأ يوم الجمعة بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [سورة ق: ١] يخطب بها؛ ولكن هذا ليس بدليل؛ لأن لدينا قاعدة في أصول الفقه وهي: أن الفعل المجرد لا يدل علىٰ الوجوب»(١١).

قلت: ولعل ما اعتاده الخطباء من ختم الخطبة الأولىٰ بآية يبدءونها

---

(٧) شرح مسلم (٦/ ١٦٠).

(٨) الإنصاف (٢/ ٣٨٧).

(٩) انظر: البحر الرائق (٢/ ١٥٩)، والفتاوىٰ التاتارخانية (٢/ ٤٩)، والفتاوىٰ العالمكرية (١/ ١٦٢)، والخلاصة الفقهية للقروي ص٩٢.

(١٠) المختارات الجلية ص٥١.

(١١) الشرح الممتع (٥/ ٧١).

بالاستعاذة هو من باب قصد القراءة؛ أخذًا بما اشترطه الشافعية والحنابلة، واستحبه الأحناف والمالكية من القراءة في الخطبة، ومعلوم أن القراءة غير الاستدلال، فيستعيذون للقراءة، ولا يستعيذون في الاستدلال، ومما يؤيد ذلك أن غالب الآيات التي يختارونها هي في الترغيب والترهيب.

وفي الفتاوىٰ التاتارخانية: «إذا أراد أن يقرأ سورة تامة يتعوذ في أولها ويسمي، وأكثرهم قالوا يتعوذ ولا يسمي؛ ولهذا تعارف الخطباء ترك التسمية أحيانًا، والإتيان بالتعوذ علىٰ كل حال . . . وأصل الاختلاف القراءة في غير الخطبة إذا أراد أن يقرأ سورة يتعوذ ويسمي، وإذا أراد أن يقرأ آية هل يسمي؟ فعلىٰ الاختلاف» اهـ(١٢).

وأما عدم الترتيل أو التَّغَنّي بهذه الآيات فلا يشترط ذلك في قراءة الآيات التي تكون في الخطبة، والنبي عليه الصلاة والسلام نُقل عنه قراءة آيات وسور في الخطبة ولم يذكر الرواة أنه تغنىٰ في قراءتها أو رتلها، ولا أعلم أنه نُقل عن الصحابة أو التابعين أنهم كانوا يتغنون في قراءة الآيات التي في الخطبة أو يرتلونها.

وعليه فلا أرىٰ أي وجه لإنكار الاستعاذة في آية يقرءوها الخطيب في الخطبة دون غيرها من الآيات التي يستدل بها؛ لأن القراءة غير الاستدلال.

وإذا اعتُرِض علىٰ التزامه في آخر الخطبة الأولىٰ، فجوابه: أنه إذا ثبت استحباب القراءة في الخطبة أو اشتراطها أو مشروعيتها علىٰ الخلاف في ذلك، وثبتت مشروعية الاستعاذة للقراءة أو وجوبها علىٰ الخلاف في ذلك؛ جاز للخطيب أن يجعل قراءته حيث شاء من خطبته، بما يناسب الحال، ولا يقطع

---

(١٢) الفتاوىٰ التاتارخانية (٢/ ٤٩-٥٠).

معاني الخطبة، ومن أنسب مواضعها آخر الخطبة الأولىٰ، والله تعالىٰ أعلم(١٣).

- **جعل موضوع الخطبة في سورة أو آية أو آيات:**

قد يبدو للخطيب أن يجعل خطبته في سورة من سور القرآن، أو آية من آياته، أو بضع آيات تعالج موضوعًا من الموضوعات، وهذا مِنْ فقه الخطيب، ودليل علىٰ تعظيمه لكتاب الله تعالىٰ، ومحاولة نفع الناس به، كما يدل علىٰ تأسّيهِ بالنبي عليه الصلاة والسلام.

والأصل في جعل الخطبة في سورة أو آية حديث أم هِشَامٍ بِنْتِ حَارِثَةَ بن النُّعْمَانِ ﷺ قالت: «لقد كان تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ رَسُولِ الله ﷺ وَاحِدًا سَنَتَيْنِ، أَوْ سَنَةً

(١٣) ذكر الشيخ سعود الشريم -حفظه الله تعالىٰ- أن ختم الخطباء الخطبة بآية يستعيذ فيها دون غيرها من الآيات لا وجه له لأمور ثلاثة:
١- أن هذا ليس بقراءة، وإنما هو استشهاد بآية.
٢- أن النبي ﷺ لم يكن يستعيذ بالله تعالىٰ في الاستشهاد بالآيات.
٣- أن فعل الخطباء هذا تخصيص دون مخصص. انتهىٰ ملخصا من كتابه النفيس (الشامل في فقه الخطيب والخطبة) ص٣٤٥-٣٤٦.
قلت: ظاهر صنيع الخطباء أنهم يقصدون القراءة في الآية التي يوردونها في آخر الخطبة الأولىٰ؛ عملًا بالنصوص، وأخذًا بقول الفقهاء بالقراءة في الخطبة وجوبًا أو استحبابًا، فيستعيذون لقراءتهم بخصوصها، دون الآيات الأخرىٰ التي هي محل استشهاد، وكل هذه الأوجه الثلاثة تنتقض إذا قيل: إنها قراءة وليست استشهادًا كما لا يخفىٰ.
والشيخ حفظه الله تعالىٰ وسدده قد فرق بين القراءة والاستشهاد في موضع آخر من كتابه المذكور آنفًا ص٣١٠-٣١٤ حين أنكر التغني بالآيات التي يستشهد بها الخطيب، مع إجازته للتغني إذا قصد القراءة، فكذلك الحال في تخصيص القراءة بالاستعاذة دون الاستشهاد، فكان تخصيصًا بمخصص، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] والله تعالىٰ أعلم.

وَبَعْضَ سَنَةٍ، وما أَخَذْتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا عن لِسَانِ رسول الله ﷺ يَقْرَؤُهَا كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ علىٰ الْمِنْبَرِ إذا خَطَبَ الناس»(١٤).

وفي هذا الحديث مما له تعلق بموضوعنا مسائل ثلاث:

الأولىٰ: هل تلزم هذه السورة (ق) عينها؟

والثانية: هل كان يكتفي بقراءتها عن الوعظ والتذكير؟

والثالثة: هل كان يقرؤها كاملة في كل خطبة أم يقرأ بعضها، فحفظت كل السورة في عدد من الخطب؟

أما الأولىٰ: فلا تلزم قراءة سورة (ق)؛ لإطلاق أحاديث أخرىٰ في القراءة؛ ولثبوت قراءة النبي عليه الصلاة والسلام غيرها.

قال الصنعاني -رحمه الله تعالىٰ-: «قد قام الإجماع علىٰ عدم وجوب قراءة السورة المذكورة ولا بعضها في الخطبة، وكانت محافظته علىٰ هذه السورة اختيارًا منه لما هو الأحسن في الوعظ والتذكير» اهـ(١٥).

وأما الثانية: فالظاهر أنه يَقْرِن القراءة بالثناء علىٰ الله تعالىٰ والوعظ والتذكير، ولا يقتصر علىٰ القراءة وحدها؛ لما يلي:

١- حديث جَابِرِ بن سَمُرَةَ رضي الله عنه قال: «كانت لِلنَّبِيِّ ﷺ خُطْبَتَانِ يَجْلِسُ بَيْنَهُمَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيُذَكِّرُ الناسَ»(١٦).

٢- حديث جَابِرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كانت خُطْبَةُ النبي ﷺ يوم الْجُمُعَةِ يَحْمَدُ اللهَ وَيُثْنِي عليه»(١٧).

---

(١٤) رواه مسلم (٨٧٣) واللفظ له، وأبو داود (١١٠٠)، والنسائي (٣/ ١٠٧).

(١٥) سبل السلام (٣/ ١٧٠-١٧١).

(١٦) رواه مسلم (٨٦٢).

(١٧) رواه مسلم (٨٦٧).

فالجابران ﭬ يحكيان هدي النبي ﷺ في الخطبة، وكان مِنْ هَدْيِهِ أَنَّه يحمد الله تعالىٰ ويثني عليه ويُذَكِّر الناس، وهذا غير القراءة.

وليس في حديث أم هشام ﭬ ما يفيد حصر خطبته في قراءة (ق)، بل فيه ما يدل علىٰ أنه يقرؤها في الخطبة، ولا مانع أنه ضم إلىٰ القراءة حمدًا وموعظة، وهو الأقرب إلىٰ هديه عليه الصلاة والسلام، وعليه فلا دليل فيه لمن أجاز الاكتفاء بالقراءة عن الحمد والموعظة.

قال الشافعي -رحمه الله تعالىٰ-: «وَأُحِبُّ أَنْ يُقَدِّمَ الْكَلَامَ ثُمَّ يَقْرَأَ الْآيَةَ؛ لِأَنَّهُ بَلَغَنَا ذلك وَإِنْ قَدَّمَ الْقِرَاءَةَ ثُمَّ تَكَلَّمَ فلا بَأْسَ» اهـ[١٨].

وقال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: «وقوله: (يقرأ القرآن ويذكر الناس) فيه دليل للشافعي في أنه يشترط في الخطبة الوعظ والقرآن» اهـ[١٩].

وأما الثالثة: فمحل خلاف بين شرَّاح الحديث:

قال الطيبي -رحمه الله تعالىٰ-: «إن المراد أول السورة لا جميعها؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يقرأ جميعها في الخطبة»اهـ، وتعقبه ابن حجر المكي فقال: «يقرؤها كلها، وحَمْلُها علىٰ أول السورة صرف للنص عن ظاهره»[٢٠] اهـ.

وقال القاري -رحمه الله تعالىٰ-: «وفيه أنه لم يحفظ أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ أوّلها في كل جمعة، وإلا لكانت قراءتها واجبةً أو سنةً مؤكدةً، بل الظاهر أنه كان يقرأ في كل جمعة بعضها فحفظت الكل في الكل، والله أعلم، ثم رأيت ابن حجر قال قوله: (يقرؤها) أي: كلها، وحملها علىٰ

(١٨) الأم (١/ ٢٠١).
(١٩) شرح مسلم (٦/ ١٥٠).
(٢٠) انظر: عون المعبود (٣/ ٤٤٩)، وبذل المجهود (٦/ ١٠٠).

أوّل السورة صرف للنص عن ظاهره. اهـ، وفيه أن الظاهر مع الطيبي، لكن نحن نصرفه عن ظاهره بحمل كلها علىٰ الخطب المتعددة؛ إذ الحمل علىٰ كل السورة في كل خطبةٍ مستبعد جدًّا» اهـ(٢١).

ومن فقه الخطيب أن يحسن الاختيار من السور والآيات؛ فإن القرآن الكريم -وإن كان كله كلام الله تعالىٰ، وفيه الهدىٰ والرشاد- قد فضَّل الله تعالىٰ بعضه علىٰ بعض بالنسبة للبشر وما يصلحهم وينفعهم، كتفضيل الفاتحة علىٰ سائر السور، وآية الكرسي علىٰ سواها من الآيات.

وثمة سور وآيات تشتد حاجة الناس إليها في مكان دون مكان، أو زمان دون زمان، أو عند قوم بخصوصهم، ولا بد أن يراعي الخطيب ذلك.

وبيان ذلك كما يلي:

أولًا: لو رأىٰ الخطيب بعض الناس في بلده منغمسين في الربا، لا يتورعون عنه، ولا يخافون عاقبته، فيختار الآيات الزاجرة عن الربا في البقرة، ويفسرها للناس، ولا سيما إذا لم يستطع أن يخص الربا بخطبة؛ لغلبة المرابين وتمكنهم؛ فإن خطبته بهذه الآيات تفي بمقصوده، ويخرجه من الصدام معهم.

وهكذا لو رآهم متكالبين علىٰ الدنيا، متكثرين من متعها، معرضين عن طاعة الله تعالىٰ، فخطب فيهم بسورة التكاثر، أو بالآيات التي فيها تمثيل الدنيا بالأرض الخضرة التي تصفر وتزول خضرتها، في سور يونس، والكهف، والحديد. أو غير ذلك من الآيات التي تزهد في الدنيا، وتظهر حقارتها وزوالها، وتعظم أمر الآخرة والحساب والجزاء علىٰ الأعمال.

فيختار من السور والآيات ما تشتد حاجة الناس إليه، كما كان النبي عليه

---

(٢١) مرقاة المفاتيح (٣/ ٤٥٤).

الصلاة والسلام يذكر أصحابه بما يناسب أحوالهم، ويصلح معاشهم ومآلهم.

ثانيًا: قد تكون الحاجة ملحة إلىٰ الخطبة بسور أو آيات معينة في مكان حصلت فيه حادثة جعلت من المناسب أن يتحدث الخطيب عن تلك الآيات ويبينها للناس، كما لو ابتلي أناس في بلد من البلدان بزلزال رأوا آثاره، وشاهدوا دماره، فأراد الخطيب أن يذكر الناجين منه بزلزلة أعظم مما رأوا وأحسوا، فجعل خطبته في سورة الزلزلة، أو في الآيتين الأوليين من سورة الحج، أو في جميع ذلك.

ثالثًا: هناك آيات معينة تكون الحاجة إلىٰ الحديث عنها في زمان دون زمان مثل: اختيار آيات الصيام في رمضان، أو آيات الحج قرب الحج، أو نحو ذلك.

• أقسام السور والآيات بالنسبة لتكرارها أو فضلها:

بعض السور والآيات يحتاج الناس إلىٰ العلم بفضلها ومعرفة معانيها؛ لتكرارها كل يوم مرة، أو مرات عدة، أو كل أسبوع، أو كل حول، أو لورود فضل فيها بخصوصها، أو لكلا هذين الأمرين، وقد لا يتهيأ لهم معرفة ذلك لكسلهم أو جهلهم أو عدم مبالاتهم، فيوصل الخطيب إليهم ما ورد فيها من فضل، ويبين لهم شيئًا من معانيها العظيمة علىٰ المنبر يوم الجمعة، مما يحفزهم إلىٰ المحافظة علىٰ قراءتها في أوقاتها المسنونة لها، مع تدبرها وفهم معانيها.

وهذه السور والآيات علىٰ أنواع أربعة:

الأول: سور وآيات أُمروا بقراءتها في اليوم والليلة، فهي تتكرر معهم كل يوم، فلا يحسن بهم عدم معرفة فضلها، وفهم معانيها.

وتقصير كثير من الناس في إدراك ذلك واقع في هذا العصر الذي كثر فيه

الانشغال بالدنيا، والإعراض عن تعلم كثير من أمور الدين، فالخطيب منقذ لهم حين يجعلها من موضوعات خطبته.

فالفاتحة يقرأها المسلم في كل ركعة من صلاته، فمجموع تكرارها في يومه وليلته سبع عشرة مرة علىٰ الأقل، عدا صلوات الراتبة وقيام الليل والوتر والضحىٰ وتحية المسجد والنفل المطلق.

وسورتا الكافرون والإخلاص تقرآن في راتبتي الفجر والمغرب، والشفع والوتر، وركعتي الطواف.

وسور الإخلاص والمعوذتين تقرأ عقب كل صلاة مرة، وعقب الفجر والمغرب ثلاث مرات.

وكذا آية الكرسي تقرأ عقب كل صلاة مرة، وعند النوم مرة.

والآيتان الأخريان من سورة البقرة تقرأ كل ليلة.

فسورة الإخلاص يقرأها من التزم أذكار الصلوات والصباح والمساء والنوم عشر مرات، غير راتبتي الفجر والمغرب، فتكون بهما ثنتي عشرة مرة، ويقرأ المعوذتين ثنتي عشرة مرة، ويقرأ آية الكرسي ست مرات.

الثاني: سور تتكرر مع المصلين أسبوعيًّا أو حوليًّا، وهي السور التي يقرأ بها في المجامع الكبار أو في أيامها، وهي سور: ق والقمر في العيدين الكبيرين، والجمعة والمنافقون والأعلىٰ والغاشية في الجمعة، والسجدة والإنسان في فجر الجمعة، وقراءة الكهف في يوم الجمعة؛ فالمصلون محتاجون إلىٰ معرفة المعاني العظيمة التي حوتها هذه السور، ولماذا يسمعون أكثرها، ويقرءون بعضها كل أسبوع؟! كما أنهم محتاجون إلىٰ معرفة فضلها؛ لتكون لهم نية حسنة في قراءتها؛ امتثالًا للسنة، وطلبًا للمثوبة.

ومعرفتهم لذلك مما يعينهم علىٰ التزامها والمحافظة عليها، والفضل يعود في ذلك -بعد الله تعالىٰ- للخطيب الذي أولىٰ هذا الجانب المتكرر عنايته واهتمامه.

الثالث: سور نُقِل قراءة النبي عليه الصلاة والسلام لها في صلاته بالناس، وبعض أئمة المساجد يقرءونها؛ تأسيًا بالنبي عليه الصلاة والسلام، فيستمع المصلون ذلك منهم، ولا يعرفون لماذا يكررها الأئمة، مع ما فيها من المعاني العظيمة، مثل المرسلات والطور.

الرابع: سور ورد في فضلها أحاديث، لكن لم يوقت الشارع الحكيم لها وقتًا أو صلاة تقرأ فيها، مثل سور: البقرة وآل عمران والإسراء والفتح والملك والزلزلة وغيرها.

- **أقسام السور والآيات من جهة ما ورد فيها:**

تنقسم الآيات والسور القرآنية من جهة ما ورد فيها من الفضل إلىٰ أقسام ثلاثة:

الأول: سور وآيات لم يصح بخصوصها شيء عن النبي عليه الصلاة والسلام.

الثاني: سور وآيات جاء في فضلها أحاديث قليلة وربما حديث واحد فقط، مثل سورة الفتح والآيتين الأخريين من سورة البقرة.

الثالث: سور وآيات جاء في فضلها أحاديث كثيرة عن النبي عليه الصلاة والسلام، وآثار عن الصحابة ﷺ، مثل سور: الفاتحة والإخلاص والمعوذتين، ومثل: آية الكرسي.

ويلاحظ أن سور الفاتحة والإخلاص والمعوذتين وآية الكرسي قد جمعت بين كثرة ما ورد فيها من الفضل، وتخصيصها بأوقات أو صلوات تقرأ فيها، وهي أكثر ما يكرره المسلم من القرآن في يومه وليلته. ولو قيل: إنها من أكثر ما يكرره المسلم في حياته كلها لما كان ذلك بعيدًا.

وهذا يدل علىٰ فضل هذه السور والآيات، وعظيم مكانتها في حياة المسلم وفي يومه وليلته.

فالقسمان الأول والثاني لا إشكال فيهما؛ إذ تكون الخطبة في المعاني التي تحويها هذه السور والآيات، والدروس المستفادة منها، وإذا كان في فضلها بعض الأحاديث والآثار، أو فيها ما يفيد أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقرؤها في صلوات مخصوصة فللخطيب أن يفتتح خطبته بهذه الأحاديث، أو يختمها بها بعد أن يبين معاني السورة أو الآية، وهي لن تأخذ حيزًا كبيرًا من خطبته.

أما القسم الثالث وهو في السور والآيات التي كثرت الأحاديث في فضلها فقد لا يتأتىٰ للخطيب أن يعرض لفضل السورة أو الآية، مع بيان معانيها في خطبة واحدة، لما يلي:

١- أن بعضها قد كثرت الأحاديث والآثار في فضلها كثرة ربما استوعبت الخطبة كلها أو أكثرها.

٢- أن هذه السور والآيات تحوي معاني غزيرة جدًّا، ولو كانت آياتها قليلة.

ولفضلها ومكانتها في الإسلام، وتكرارها في حياة المسلم أولاها المفسرون عناية خاصة، فاجتهدوا في استخرج فوائدها ولطائفها، واجتمع من ذلك علم غزير، ونكت كثيرة.

والذي أراه في مثل هذه السور والآيات أن يَفصل الخطيب فضلها عن معانيها، فيخص كل واحد منهما بجمعة مستقلة، ويشير في كل خطبة إشارات عابرة إلىٰ ما أهمله:

فلو اختار الخطيب أن يخطب عن فضل الفاتحة، واستوعب النصوص الواردة فيها، فإنه يشير إلىٰ عظمة ما حوته من المعاني، وما تضمنته من العلوم والمعارف، ولو جعل فضائلها مستوعبة بنصوصها في خطبته الأولىٰ، وفي الثانية أشار إلىٰ تلك المعاني لكان ذلك حسنًا.

فإذا اختار في خطبة أخرىٰ الحديث عن معاني سورة الفاتحة عكس القضية، فاستوعب المعاني بما يسمح به المقام، وأشار إلىٰ فضل السورة إشارات تأتي علىٰ معاني الأحاديث الواردة فيها ولو لم ينص عليها.

وبعض السور تشترك في الفضل وفي كثير من المعاني كالمعوذتين، فيجمع بينها في خطبة واحدة، وإن خشي الإطالة أو عدم الاستيعاب أفرد فضل السورتين في جمعة، وجعل معانيهما في خطبة أخرىٰ، ويشير في كل خطبة إلىٰ ما أهمله مما هو في الأخرىٰ كما فعل في الفاتحة.

- **أقسام السور من حيث طولها وقصرها:**

تنقسم السور المذكورة آنفًا وهي التي ورد فيها فضل أو خصت بصلوات أو أيام أو أوقات تقرأ فيها من حيث طولها وقصرها إلىٰ أقسام ثلاثة:

الأول: سور طويلة جدًّا كالبقرة وآل عمران، وسور أقصر منها لكنها أيضًا طويلة لا يتسع الوقت لأنْ تُقرأ علىٰ المنبر فضلًا عن أن يُؤتىٰ علىٰ بعض معانيها كسورة الكهف.

الثاني: سور متوسطة في طولها، وبالإمكان أن تُقرأ علىٰ المنبر، ويؤتىٰ علىٰ

معانيها الإجمالية، مثل: ق والقمر، وأقل منها: الجمعة والمنافقون، ولو قسمها الخطيب على جمعتين لاستوفى الكلام على معانيها وفوائدها.

الثالث: سور قصيرة يستطيع الخطيب أن يتوسع في معانيها، وتعداد فوائدها ولطائفها، وهي: الفاتحة والأعلى والغاشية وقصار المفصل، إضافة إلى آية الكرسي والآيتين الأخريين من سورة البقرة.

وأما القسم الأول فلا قدرة للخطيب في الكلام عنها إلا وفق ما يلي:

١- أن يذكر فضل السورة، ثم يأتي على أهميتها من جهة الموضوعات التي تناولتها بإجمال وإيجاز، مستشهدًا ببعض الآيات في بعض المواضع التي يراها مهمة، بحيث يعرف المصلون موضوعات هذه السورة ومقاصدها وأهميتها، دون الخوض في المعاني التي يطول بها المقام، وتلك طريقة حسنة إن استطاع الخطيب أن يركز خطبته، ويستوعب المعالم العامة للسورة، ولا يطيل على الناس، وله أن يجعل ذلك في أكثر من خطبة إن خشي الإطالة.

٢- أن يختار موضوعًا من الموضوعات التي عالجتها السورة، ولا يكون طويلًا، فيجعله موضوع خطبته، مع ذكر ما ورد في السورة من الفضل، وفي هذه الحالة يكون الخطيب قد رجع إلى اختيار آيات في موضوع محدد، وخرج عن كونه قد اختار السورة عينها.

٣- أن يبدأ بالسورة من أولها، وفي كل جمعة يأخذ ما تيسر من آياتها، فيبين معانيها، ويذكر فوائدها، ثم يكمل في الجمعة الأخرى، وهكذا حتى ينهيها.

وأعرف خطيبًا كان يفعل ذلك فلا يخرج عن التفسير أبدًا، ولما نوقش احتج بأن القرآن هداية للناس، وأنهم في هذا الزمن قد أعرضوا عنه، ومن لم يتعظ بالقرآن فليس له واعظ.

والذي يظهر لي أن تلك الطريقة خطأ، وقد عرضت لأوجه خطئها في موضوع سابق مما يغني عن إعادته هنا.

وأضيف هنا علىٰ ما سبق ذكره: أن مثل سورة البقرة تتضمن أحكامًا فقهية كثيرة في النكاح والطلاق والعدة والخلع والرجعة وغيرها، وكلام المفسرين فيها طويل جدًّا، ولا سيما من لهم عناية بآيات الأحكام، فكيف سيتعامل الخطيب مع الخلاف في كثير من تلك المسائل، ولا يحسن به أن يحول خطبته إلىٰ ما يشبه الدروس الفقهية المتخصصة التي يُعرَض فيها الخلاف والأقوال، وقد يكون في ذلك فتنة للعامة، كما أن هذه الموضوعات لا تقع إلا للقليل من المصلين معه علىٰ حساب الأكثرية، ومحلها دور الإفتاء، وأروقة المحاكم لا منابر الجمعة.

والنبي عليه الصلاة والسلام كان يأتي في خطبته بما تشتد حاجة الناس إليه، فكيف يترك الخطيب ذلك إلىٰ موضوعات متخصصة لا يحتاجها إلا الأقل من الناس، وليس مكانها خطبة الجمعة؟!

- **السور والآيات التي وقع خلاف في تصحيح أحاديثها:**

بعض السور والآيات فيها أحاديث اختلف العلماء في ثبوتها وهذه ينبغي للخطيب أن يتثبت فيها لما يلي:

١- تسامح كثير من العلماء في أحاديث فضائل السور والآيات، علىٰ اعتبار أنها من الفضائل، ولا سيما أهل التفسير، فتمتلئ كتب بعضهم بالضعيف منها، وربما المنكر والموضوع، وقد يرد في فضلها شيء من الإسرائيليات.

٢- كثرة الوضع في فضائل القرآن وسوره وآياته، وكان من أهداف بعض الكذابين وضع أحاديث في فضائل سور القرآن لغرض الترغيب فيه، ومن ذلك:

أ- روىٰ ابن الجوزي بسنده عن ابن مهدي -رحمه الله تعالىٰ- أنه قال لميسرة بن عبد ربه: «من أين جئت بهذه الأحاديث: من قرأ كذا فله كذا؟ قال: وضعتها أرغب الناس فيها»(٢٢).

ب- وروىٰ بسنده عن أبي عمار المروزي قال: «قيل لأبي عصمة نوح بن أبي مريم المروزي: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا؟ فقال: إني رأيت الناس أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي بن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة»(٢٣).

وأحيل القارئ هنا علىٰ ما كتبته سابقًا بعنوان: (استدلال الخطيب بالسنة) لمعرفة كيفية التعامل مع الأحاديث الواردة في فضائل السور أو معانيها(٢٤).

• الجمل والكلمات التي وقع خلاف في معانيها:

سيجد الخطيب كثرة الأقوال المختلفة في تفسير الكلمات القرآنية، وأقل من ذلك في تفسير الجمل أو الآيات، لكنه خلاف موجود، وينبغي أن لا يكون هذا الخلاف وكثرة الأقوال التي يجدها الخطيب في كتب التفسير صارفة له عن الخطبة ببعض سور القرآن أو آياته؛ لأن أكثره من خلاف التنوع لا من خلاف التضاد، وعليه فإن للخطيب مع ما يجده من كثرة أقوال واختلاف في التفسير حالين:

١- أن يكون الخلاف من باب التنوع لا التعارض، فيورد هذه المعاني علىٰ

---

(٢٢) الموضوعات (١/ ١٧).

(٢٣) الموضوعات (١/ ١٨).

(٢٤) ص (٣٧).

أن الآية تحتملها، لا علىٰ أنها أقوال لمفسرين اختلفوا فيها؛ فإن العامة لا يفرقون بين احتمال الآية للمعاني التي ذكرها المفسرون وبين اختلاف التعارض.

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢] جاء في الزور أقوال كثيرة منها: الشرك وعبادة الأصنام، أو الكذب، أو الفسق، أو الكفر، أو اللغو والباطل، أو الغناء، أو أعياد المشركين، أو مجالس السوء والخنا، أو شرب الخمر، أو مجالسه، أو شهادة الزور[٢٥].

ومن نظر إلىٰ كل هذه الأفراد المذكورة في تفسير الزور وجد أنها من الزور، وكل واحدة منها لا تنفي غيرها، فإن كان الخطيب قد اختار هذه الآيات من سورة الفرقان موضوعًا لخطبته، فينبغي أن لا يحصر معنىٰ الزور في أحد هذه المعاني دون غيره، بل يأتي بعبارة تدل علىٰ أن هذه من أفراد الزور.

وأحسن من ذلك أن يأتي بعبارة موجزة جامعة تجمع هذه الأفراد وغيرها مما تحتمله الآية؛ كما فعل السعدي -رحمه الله تعالىٰ- في إتيانه بجملة جامعة في تفسيره لهذه الآية فقال: «أي: لا يحضرون الزور، أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة علىٰ الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة»[٢٦].

ومن المفيد للناس أن يذكر الخطيب بعد ذكره للجملة الجامعة في معنىٰ (الزور) أهم ما تشتمل عليه كثير من المجالس في هذا العصر من الزور؛ للتمثيل علىٰ الزور، وللتنبيه علىٰ أهمية هذه الأفراد منه، وغفلة من يحضرونها عنها.

---

(٢٥) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٢٦) تفسير السعدي ص٥٨٧.

وهكذا يفعل الخطيب في كل الآيات التي فيها أقوال هي من باب التنوع: يختار من المعاني ما يناسب الزمان والمكان وأحوال الناس دون نفي المعاني الأخرىٰ، أو حصر الآية في المعاني التي اختارها دون غيرها.

٢- أن يكون الخلاف خلاف تعارض، ولا بد من حمل الآية علىٰ أحد القولين، وحينئذ لا يخلو الأمر من حالين:

أ- أن لا يتوقف معنىٰ الآية علىٰ تحرير الخلاف في الكلمة أو الجملة، ولا إشكال حينئذ من تجاوز الخلاف، وعدم التعرض له، وذكر المعنىٰ إجمالًا.

ب- أن يتوقف معنىٰ الآية علىٰ تحرير الخلاف في الكلمة أو الجملة، فعلىٰ الخطيب أن يرجح بين القولين بمرجحات أخرىٰ، ويقتصر علىٰ الراجح منهما.

فإن كان الخلاف قويًا ولا مرجح لديه؛ ذكر القولين سواء بنسبة كل قول لقائله، أو يقول: معنىٰ هذه الجملة كذا أو معناها كذا، وهذا أحسن من التشويش علىٰ الناس بذكر الأقوال. وأنبه علىٰ أنه ينبغي للخطيب أن يكون حصيفًا في اختياره للسور والآيات التي يجعلها موضوع خطبته، فيختار ما يناسب الناس ويعالج مشكلاتهم؛ فإن ذلك أنفع لهم، ويجانب ما أشكل تفسيره، وعليه أن يركز خطبته علىٰ المعاني، وما يستفاد من الآيات، دون الخلافات وأوجه التفسير.

• الخلاف في معنىٰ الحديث الوارد في فضل السورة أو الآية:

قد يجد الخطيب خلافًا في معنىٰ الحديث الوارد في فضل السورة أو الآية، وحينئذ علىٰ الخطيب أن يقرأ أقوال شارحي الحديث ليعلم المعنىٰ الراجح من أقوالهم، فإن كان الحديث يحتمل المعاني المذكورة ولها وجه منه، أو دلت عليها أدلة أو قرائن ذكرها كلها، وإن ترجح له أحدها ذكر الراجح منها.

مثال ذلك: حديث أبي مَسْعُودٍ الأنصاري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**من قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ من آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ في لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ**»[٢٧].

اختلف شارحو الحديث في (كفتاه) علىٰ أقوال كثيرة، ساق الحافظ ابن حجر منها سبعة أقوال[٢٨]، وأشهر هذه الأقوال قولان: كفتاه كل سوء، أو كفتاه من قيام الليل.

وقد ذكر القرطبي والنووي بعضها، فلم يرجح القرطبي، وذكر النووي احتمال شمول كفايتها عن قيام الليل ومن الشيطان ومن الآفات[٢٩].

وقال الحافظ ابن حجر: «يجوز أن يراد جميع ما تقدم» اهـ[٣٠].

وأما ابن القيم فرجح المعنىٰ الأول وضعف الثاني فقال: «الصحيح أن معناها: كفتاه من شر ما يؤذيه، وقيل: كفتاه من قيام الليل، وليس بشيء» اهـ[٣١].

والخطيب مطالب أن يجتهد في تحري الصواب ما استطاع، ويستنير في ذلك بأهل العلم المبرزين، ومن اجتهد وصدق في نيته أعانه الله تعالىٰ، وألهمه الصواب.

• إذا كانت السورة أو الآية التي اختارها فيها سجدة:

قد يختار الخطيب سورة أو آيات فيها سجدة، وسجود القرآن سنة عند جمهور العلماء، وقد ورد ما يدل علىٰ أن الخطيب يسجد، ويسجد الناس تبعا له، وإن ترك السجود فلا بأس، وكل ذلك جاءت به السنة، ومما ورد فيه:

---

(٢٧) رواه البخاري (٤٧٢٢)، ومسلم (٨٠٧).

(٢٨) فتح الباري (٩/ ٥٦).

(٢٩) المفهم (٢/ ٤٣٥)، وشرح النووي علىٰ مسلم (٦/ ٩١-٩٢).

(٣٠) الفتح (٩/ ٥٦).

(٣١) الوابل الصيب ص١٣٢.

١- حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قال: «قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وهُوَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ (ص) فلما بَلَغَ السَّجْدَةَ نَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدَ النَّاسُ مَعَهُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمٌ آخَرُ قَرَأَهَا فلما بَلَغَ السَّجْدَةَ تَشَزَّنَ الناس لِلسُّجُودِ، فقال النبي ﷺ: **إنما هِيَ تَوْبَةُ نَبِيٍّ وَلَكِنِّي رَأَيْتُكُمْ تَشَزَّنْتُمْ لِلسُّجُودِ فَنَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدُوا**»(٣٢).

٢- حديث عُمَرَ بن الْخَطَّابِ ﷺ: «أنه قَرَأَ يوم الْجُمُعَةِ علىٰ الْمِنْبَرِ بِسُورَةِ النَّحْلِ حتىٰ إذا جاء السَّجْدَةَ نَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدَ الناس، حتىٰ إذا كانت الْجُمُعَةُ الْقَابِلَةُ قَرَأَ بها حتىٰ إذا جاء السَّجْدَةَ قال: يَا أَيُّهَا الناس إِنَّا نَمُرُّ بِالسُّجُودِ فَمَنْ سَجَدَ فَقَدْ أَصَابَ وَمَنْ لم يَسْجُدْ فلا إِثْمَ عليه، ولم يَسْجُدْ عُمَرُ ﷺ» وزاد نَافِعٌ عن ابن عُمَرَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لم يَفْرِضْ السُّجُودَ إلا أَنْ نَشَاءَ»(٣٣).

فإن استطاع السجود علىٰ المنبر استقبل القبلة وسجد وسجد الناس خلفه، وإن كان المنبر ضيقًا أو غير مهيأ لسجوده نزل فسجد وسجد الناس خلفه، ولا يقطع سجوده ولا نزوله من المنبر خطبته، بل هو منها.

قال ابن قدامة -رحمه الله تعالىٰ-: «وإن قرأ السجدة في أثناء الخطبة فإن شاء نزل فسجد، وإن أمكن السجود علىٰ المنبر سجد عليه، وإن ترك السجود فلا حرج فعله عمر وترك»(٣٤).

وقال الشَّافِعِيُّ -رحمه الله تعالىٰ-: «وإذا سَجَدَ أَخَذَ من حَيْثُ بَلَغَ من الْكَلَامِ، وَإِنْ اسْتَأْنَفَ الْكَلَامَ فَحَسَنٌ»(٣٥).

---

(٣٢) رواه أبو داود (١٤١٠)، والدارمي (١٤٦٦)، وصححه ابن خزيمة (١٤٥٥)، وابن حبان (٢٧٦٥)، والحاكم وقال: علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/ ٤٦٩)، ومعنىٰ: تشزن الناس للسجود، أي: تهيئوا للسجود.

(٣٣) رواه البخاري (١٠٢٧).

(٣٤) المغني (٢/ ٧٨).

(٣٥) الأم (١/ ٢٠١).

٨- الخطبة بحديث من السنة

من عظيم نعمة الله تعالىٰ علىٰ الإنسان أنه يعرب عما في نفسه باللسان، فينطق بما يريد، قال الله تعالىٰ مذكرًا بهذه النعمة العظيمة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرَّحمن: ١-٤] أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميز الله تعالىٰ به الآدمي علىٰ غيره من أجل نعمه وأكبرها عليه[(١)].

وفي مقام آخر بيَّن الله تعالىٰ عظيم هذه النعمة علىٰ الإنسان، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨-١٠].

قال قتادة -رحمه الله تعالىٰ-: «نعم الله متظاهرة يقررك بها كيما تشكر»[(٢)].

وإذا كان الله تعالىٰ قد علم الإنسان البيان فأولىٰ الناس بالبيان عما في نفوسهم رسل الله تعالىٰ؛ لأنهم يبلغون عن الله تعالىٰ دينه، قال الله تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، وفي خصوص النبي محمد ﷺ أخبرنا الله تعالىٰ أنه معلم لنا فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، وأمره بالبلاغ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، كما أمره بالإنذار فقال ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١]، وفي آية أخرىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وكل من الإنذار والبلاغ والتعليم يحتاج إلىٰ بيان.

---

(١) تفسير السعدي ص٨٢٨.

(٢) تفسير البغوي (٤/ ٤٨٩).

وأمره ﷺ أن يقول لهم قولًا بليغا فقال سبحانه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ [النساء: ٦٣]؛ أي: وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم[٣].

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: «وقد تكلم العلماء في حد البلاغة فقال بعضهم: البلاغة إيصال المعنىٰ إلىٰ القلب في أحسن صورة من اللفظ، وقيل: البلاغة حسن العبارة مع صحة المعنىٰ، وقيل: البلاغة الإيجاز مع الإفهام والتصرف من غير إضجار»[٤].

النبي ﷺ وجوامع الكلم:

إن كبرىٰ معجزات النبي ﷺ هي القرآن، وأعظم إعجاز فيه وأكبره وأشهره هو الإعجاز البياني البلاغي، وكان العرب أهل بلاغة فتحداهم الله تعالىٰ أن يأتوا بمثله، وكان من المعجزات الربانية التي اختص الله تعالىٰ بها رسوله محمدًا ﷺ ما آتاه من الفصاحة والبلاغة، فجمع له عظيم المعاني في الكلمات اليسيرة، والجمل القصيرة، وفي بعض الأحيان لا تتجاوز كلمتين أو ثلاثًا فتكتب فيها عشرات الصفحات، وهذا كثير في سنته ﷺ.

وكون فصاحته وبلاغته عليه الصلاة والسلام مما اختصه الله تعالىٰ به من المعجزات دون غيره من الناس ثابتًا بالسنة من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: سمعت رَسُولَ الله ﷺ يقول: «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ**» متفق عليه، وفي رواية لمسلم: «**فُضِّلْتُ علىٰ الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ** . . . الحديث»[٥]، قال البخاري -رحمه الله تعالىٰ- بعد أن رواه: «وَبَلَغَنِي أَنَّ جَوَامِعَ الْكَلِمِ أَنَّ اللهَ

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٠).
(٤) زاد المسير (٢/ ١٢٢).
(٥) رواه البخاري (٦٦١١)، ومسلم (٥٢٣).

يَجْمَعُ الْأُمُورَ الْكَثِيرَةَ التي كانت تُكْتَبُ في الْكُتُبِ قَبْلَهُ في الْأَمْرِ الْوَاحِدِ وَالْأَمْرَيْنِ أو نحو ذلك»[٦].

وقال ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: «هي الألفاظ اليسيرة لجمع المعاني الكثيرة» اهـ[٧].

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «هي الألفاظ الكلية العامة المتناولة لأفرادها» اهـ[٨].

---

(٦) الجامع الصحيح (٦/ ٢٥٧٣). وبعض العلماء يرىٰ أن المقصود بجوامع الكلم القرآن الكريم دون غيره، ونسب للزهري وفهم من طريقة البخاري في إيراد حديث: «إنما كان الذي أوتيته وحيا» عقبه، وقال به ابن بطال في شرحه للبخاري (٥/ ١٥٧)، ومال إليه البيهقي في الشعب فقال: «والظاهر أنه أراد به القرآن، وعلىٰ ذلك يدل سياق الحديث الذي عن عمر في ذلك، وقد حمله الحليمي -رحمه الله- علىٰ كلام النبي ﷺ وكلاهما محتمل» اهـ (٢/ ١٦٠).
والصواب أن جوامع الكلم التي أعطيها النبي ﷺ تشمل القرآن ولا خلاف فيه، وتشمل السنة؛ لإطباق العلماء علىٰ أن كلامه عليه الصلاة والسلام ليس ككلام غيره، وألفوا كتبا في كلماته اليسيرة الجامعة لمعان عظيمة، يقول الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-:
«جوامع الكلم التي خص بها النبي ﷺ نوعان:
أحدهما: ما هو في القرآن كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النحل: ٩٠].
قال الحسن: لم تترك هذه الآية خيرا إلا أمرت به، ولا شرا إلا نهت عنه.
والثاني: ما هو في كلامه ﷺ وهو منتشر موجود في السنن المأثورة عنه ﷺ، وقد جمع العلماء رضي الله عنهم جموعا من كلماته ﷺ الجامعة» اهـ من جامع العلوم والحكم (٥)، وينظر: شرح النووي علىٰ مسلم (٥/ ٥)، وفتح الباري لابن حجر (١٣/ ٢٤٨).
(٧) غريب الحديث لابن الجوزي (١/ ١٧١).
(٨) إعلام الموقعين (١/ ٢٦١).

- **وصف الصحابة ﭬ لكلامه ﷺ:**

قالت عَائِشَةُ ﭬ: «إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لم يَكُنْ يَسْرُدُ الحديث كَسَرْدِكُمْ»(٩).

وفي رواية: «أَنَّ النبي ﷺ كان يحدث حَدِيثًا لو عَدَّهُ الْعَادُّ لَأَحْصَاهُ»(١٠).

وفي رواية قالت: «كان كَلَامُ رسول الله ﷺ كَلَامًا فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ من سَمِعَهُ»(١١).

وفي رواية قالت: «إنما كان حديث رسول الله ﷺ فَصْلًا تفْهَمُهُ القُلُوبُ»(١٢).

وقولها: «لم يكن يسرد الحديث كسردكم: أي يتابع الحديث استعجالًا بعضه إثر بعض؛ لئلا يلتبس علىٰ المستمع»(١٣).

وقال علي بن أبي طالب ﭬ: «ما سمعت كلمة عربية من العرب إلا وقد سمعتها من رسول الله ﷺ»(١٤).

ولاختياره عليه الصلاة والسلام أفصح الألفاظ وأليقها وأحسنها وأكملها، مع جمال أدائها، وحسن عرضها كان ﷺ أحسن الناس تعليمًا كما قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللهَ لم يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا ولا مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا»(١٥).

وفي وصف حسن تعليمه ﷺ قال مُعَاوِيَةُ بن الْحَكَمِ السُّلَمِيُّ ﭬ: «فَبِأَبِي هو

(٩) رواه البخاري (٣٣٧٥)، ومسلم (٢٤٩٣).

(١٠) هذه الرواية للبخاري (٣٣٧٤)، ومسلم (٢٤٩٣).

(١١) هذه الرواية لأبي داود (٤٨٣٩)، والترمذي (٣٦٣٩)، وأحمد (٦/ ١٣٨)، وحسنها الترمذي ثم الألباني.

(١٢) هذه الرواية لأبي يعلىٰ (٤٣٩٣).

(١٣) فتح الباري (٦/ ٥٧٨).

(١٤) صفة الصفوة (١/ ٢٠٢).

(١٥) رواه مسلم من حديث جابر ﭬ (١٤٧٨).

وَأُمِّي ما رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ ولا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا منه»[١٦].

هذا؛ ولم يكن اختصاره الكلام عن عجز عن الإطالة، ولكنْ فصاحة وبلاغة، واختصار للمعاني الفخمة الكبيرة في كلمات موجزة قليلة، صارت بعد ذلك من قواعد الدين العظيمة، وإلا فإنه ﷺ إذا احتاج إلىٰ الإطالة أطال، ولم يكن طول حديثه مملًّا، ولا منقصًا لفصاحته وبيانه، وقد خطب في أصحابه ﭫ خطبًا طويلة ذكر فيها المبدأ والمعاد وما بينهما وما ملوا خطبته، ولا ضجروا من طول حديثه؛ كما روىٰ عَمْرَو بن أَخْطَبَ ﭬ قال: «صلىٰ بِنَا رسول الله ﷺ الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حتىٰ حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حتىٰ حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حتىٰ غَرَبَتْ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كان وَبِمَا هو كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا»[١٧]، وعن عُمَرَ ﭬ قال: «قام فِينَا النبي ﷺ مَقَامًا فَأَخْبَرَنَا عن بَدْءِ الْخَلْقِ حتىٰ دخل أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ حَفِظَ ذلك من حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ من نَسِيَهُ»[١٨].

وكما كان عليه الصلاة والسلام خطيب الناس في الدنيا ومعلمهم، فهو كذلك خطيبهم يوم القيامة، والمحامي عنهم الشافع لهم؛ كما روىٰ أُبَيِّ بن كَعْبٍ ﭬ عَنِ النبي ﷺ قال: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُمْ، وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ غير فَخْرٍ**»[١٩].

---

(١٦) رواه مسلم (٥٣٧).

(١٧) رواه مسلم (٢٨٩٢).

(١٨) رواه البخاري(٣٠٢٠)، ورواه مسلم من حديث حذيفة ﭬ (٢٨٩١)، ورواه الترمذي من حديث أبي سعيد ﭬ، وقال: حسن صحيح (٢١٩١)، وأحمد من حديث المغيرة بن شعبة ﭬ (٤/ ٢٥٤).

(١٩) رواه الترمذي وحسنه (٣٦١٣)، وابن ماجه (٤٣١٤)، وأحمد (٥/ ١٣٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٨٨)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.

وروىٰ أَنَسٌ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيِسُوا**»[٢٠].

قال المناوي -رحمه الله تعالىٰ-: «خطيبهم بما يفتح الله عليه من المحامد التي لم يحمده بها أحد قبله، فهو المتكلم بين الناس إذا سكتوا عن الاعتذار، فيعتذر لهم عند ربهم، فيطلق اللسان بالثناء علىٰ الله بما هو أهله، ولم يؤذن لأحد في التكلم غيره» اهـ[٢١].

- **وصف الجاحظ لكلامه ﷺ:**

لقد شهد أمراء البيان، ورؤساء البلاغة، وأساطين العربية قديمًا وحديثًا للنبي ﷺ بأن حديثه قد بلغ المنتهىٰ في الفصاحة والبلاغة والبيان:

قال الجاحظ: «وسنذكر من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبقه إليه عربي، ولم يشاركه فيه عجمي، ولم يُدّعَ لأحد، ولا ادعاه أحد؛ مما صار مستعملًا، ومثلًا سائرًا، فمن ذلك: قوله: «**يا خيل الله اركبي**»، ومن ذلك قوله: «**ماتَ حَتْفَ أَنْفِهِ**»، ومن ذلك قوله: «**لا ينْتَطِحُ فيه عَنزانِ**»، ومن ذلك قوله: «**الآن حَمِيَ الوَطِيسُ**»»[٢٢].

وذكر الجاحظ جملة من جوامع كلم النبي ﷺ ثم قال: «وأنا أذكر بعد هذا فنًّا آخر من كلامه ﷺ، وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالىٰ: (قل) يا محمد

---

(٢٠) رواه الترمذي، وقال: حسن غريب (٣٦١٠)، والدارمي (٤٨).

(٢١) فيض القدير (١/ ٤٢٧).

(٢٢) البيان والتبيين (٢/ ١٥) من ط عبد السلام هارون -رحمه الله تعالىٰ-، ويلاحظ في الطبعات الأخرىٰ اختلاف عنها في بعض الكلمات بسبب اختلاف المخطوطات، وبسبب التصحيف والتحريف والأخطاء المطبعية.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [سورة ص: ٨٦]. فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورَغِب عن الهجين السُّوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقىٰ الله عليه المحبة، وغَشَّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلىٰ معاودته. لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يَبُذُّ الخطب الطِّوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلْجَ إلا بالحق، ولا يستعين بالخِلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يُبطئ ولا يَعْجَل، ولا يسهب ولا يَحْصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمَّ نفعًا، ولا أصدق لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح عن معنىٰ، ولا أبين في فحوىٰ من كلامه ﷺ كثيرًا» اهـ[٢٣].

• وصف القاضي عياض لكلامه ﷺ:

قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: «وأما فصاحة اللسان، وبلاغة

(٢٣) البيان والتبيين (٢/ ١٦-١٨)، وفيه نقل الجاحظ عن محمد بن سلام قال: «قال يونس بن حبيب: ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ» اهـ (٢/ ١٨).
فتعقبه السهيلي قائلا بعد نقله: «وغلط في هذا الحديث، ونسب إلىٰ التصحيف، وإنما قال القائل: ما بلغنا عن البتي يريد عثمان البتي فصحفه الجاحظ، والنبي ﷺ أجل من أن يخلط مع غيره من الفصحاء حتىٰ يقال: ما بلغنا عنه من الفصاحة أكثر من الذي بلغنا عن غيره، كلامه أجل من ذلك صلوات الله عليه وسلامه» اهـ من الروض الأنف (٧/ ٢٠٠).

القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يُجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف. أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعُلِّم ألسنة العرب، يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتىٰ كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله. ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه، وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني، وطهفة النهدي، وقطن بن حارثة العليمي، والأشعث بن قيس، ووائل بن حجر الكندي، وغيرهم من أقيال حضرموت وملوك اليمن» اهـ[٢٤].

وذكر القاضي عياض أمثلة من مخاطبته عليه الصلاة والسلام للقبائل بألسنتها ولهجاتها، ثم قال -رحمه الله تعالىٰ-: «وأما كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه، وحكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، وفيها ما لا يوازَىٰ فصاحة، ولا يبارَىٰ بلاغة . . . . ثم مضىٰ القاضي عياض في سرد أمثلة كثيرة من السنة علىٰ جوامع الكلم في حديث النبي ﷺ»[٢٥].

ثم قال -رحمه الله تعالىٰ-: «إلىٰ ما روته الكافة عن الكافة من مقاماته، ومحاضراته، وخطبه، وأدعيته، ومخاطباته، وعهوده، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره، وحاز فيها سبقًا لا يُقدر قدره. وقد جمعت من كلماته التي لم يسبق إليها، ولا قدر أحد أن يُفرِغ في قالبه عليها كقوله . . .

---

(٢٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (١/ ٧٠-٧١).

(٢٥) الشفا (١/ ٧٧).

وذكر بعض الأمثلة التي أوردتها آنفًا من كلام الجاحظ»[٢٦].

ثم قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: «فَجُمِع له بذلك ﷺ قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلىٰ التأييد الإلهي الذي مَدده الوَحْي الذي لا يحيط بعلمه بشري. قالت أم معبد في وصفها له: حلو المنطق، فصل لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ، كأن منطقه خرزات نظمن. وكان جهير الصوت، حسن النغمة ﷺ» اهـ[٢٧].

- **كراهته ﷺ التكلف في الكلام:**

الفصيح من الناس يكره التكلف والمتكلفين في الكلام، المتقعرين فيه، المتشدقين به، ولما كان النبي ﷺ أفصح الناس فإنه كره التكلف في الكلام، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن أَحَبَّكُمْ إليَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الآخِرَةِ: مَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إليَّ وأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الآخِرَةِ: مَسَاوِيكُمْ أَخْلاَقًا، الثَّرْثَارُونَ، المُتَفَيْهِقُونَ، المُتَشَدِّقُونَ**»[٢٨]، وفي حديث آخر قال ﷺ: «**ألا أُنَبِّئُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟ فقال: هُمُ الثَّرْثَارُونَ المُتَشَدِّقُونَ، ألا أُنَبِّئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا**»[٢٩].

قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: «الثرثار: هو كثير الكلام تكلفًا، والمتشدق: المتطاول علىٰ الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصحًا وتعظيمًا لكلامه، والمتفيهق: أصله من الفهق وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام

---

(٢٦) الشفا (١/ ٨٠).

(٢٧) الشفا (١/ ٨٠-٨١).

(٢٨) رواه من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه: الترمذي وقال: حسن غريب (٢٠١٨)، وأحمد (٤/ ١٩٣)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٠).

(٢٩) رواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٣٦٩).

ويتوسع فيه ويغرب به تكبرًا وارتفاعًا وإظهارًا للفضيلة علىٰ غيره» اهـ[٣٠].

• إفراد خطبة بحديث نبوي:

ما ذكرته آنفًا وأطلت فيه، وأكثرت فيه من النقول في وصف حديث رسول الله ﷺ هو من باب دعوة إخواني الخطباء والدعاة للعناية بحديث المصطفىٰ ﷺ في زمن نسمع فيه دعوات فجة للإعراض عنه، والتقليل من قيمته، والتشكيك في أهميته.

ومن المستحسن أن يخص الخطيب خطبته بين الحين والآخر بحديث يختاره فيشرح معانيه، ويذكر فوائده ولطائفه؛ ليُعَظِّم السنة في قلوب الناس، ويعود آذانهم علىٰ سماع حديث رسول الله ﷺ، مع ما يفيدهم به من علم غزير، ودروس نافعة، وفوائد جامعة في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والرقاق وغيرها.

وينبغي للخطيب في اختياره للحديث الذي يكون موضوع خطبته أن يراعي أمورًا منها:

أولًا: التأكد من صحة الحديث، وقد سبق أن أشبعت هذه القضية في موضوع (استدلال الخطيب بالسنة)[٣١] مما لا داعي لتكراره هنا.

لكن أزيد هنا علىٰ ما ذكرته في المقالة المذكورة فأقول: إذا كان من الخطورة بمكان أن يستدل الخطيب بحديث لا يثبت، فإن الخطر يكون أكبر إذا كان مبنىٰ الخطبة كلها علىٰ حديث ضعيف يصول فيه الخطيب ويجول، ويستخرج منه النكات والفوائد والدروس، ثم في النهاية يقال له: هذا حديث لا يثبت!!

---

(٣٠) رياض الصالحين ص ١٣٦.

(٣١) ص (٣٧).

ويخشىٰ عليه من الإثم العظيم في تربيته الناس علىٰ ما لا يصح، وإذا كان الخطيب يلام في إيراد حديث واحد لا يثبت مستشهدًا به، فأين ذلك الاستدلال ممن بنىٰ جميع خطبته علىٰ ما لا يثبت؛ ولذا فإنه يجب علىٰ الخطيب في مرحلة اختياره الحديث لخطبته أن يستوثق من صحته استيثاقًا يطمئن القلب إليه، ولا يحل له أن يقصر في ذلك، أو يتساهل فيه.

ولو اقتصر علىٰ ما في الصحيحين أو أحدهما لكان حسنًا، لكن سيفوته أحاديث صحيحة جامعة نافعة في غيرهما، وهي كثيرة جدًّا، والبخاري ومسلم -عليهما رحمة الله تعالىٰ- لم يدعيا أنهما استوعبا في كتابيهما كل الأحاديث الصحيحة، ولا ادعاه العلماء لهما.

ثانيًا: نقل الحديث من المصدر الأصلي له، وعدم الاعتماد علىٰ المصادر التي نقلت عن الأصل؛ لزيادة التوثيق، والسلامة من الخطأ والتحريف والتصحيف.

ثم إن بعض الناقلين عن الأصل قد يتصرفون في الحديث بالاختصار، أو الاقتصار علىٰ الشاهد منه دون بقية الحديث، والخطيب قد اختار هذا الحديث موضوعًا لخطبته، فكيف يقتصر علىٰ بعضه فقط؟!

بل قد يقع في بعض الأحاديث المهمة التي هي مظنة موضوع خطبة أو محاضرة حذف من الناقل عن المصدر الأصلي، ومما يحضرني في ذلك أن النووي -رحمه الله تعالىٰ- في رياض الصالحين لما أورد حديث: «**مَنْ عَادَىٰ لِي وليًّا . . .**» في موضعين حذف منه فيهما كليهما آخر الحديث، وهو قول الله تعالىٰ: «**وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ**

وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[٣٢]، وفعل ذلك أيضًا في الأربعين التي اختارها واشتهرت بالأربعين النووية[٣٣].

فالنووي -رحمه الله تعالىٰ- قد أخطأ بهذا الحذف، ونسب للبخاري بل للنبي ﷺ حديثًا ناقصًا، ولو كان في موضع استشهاد لاعتذر له بالاقتصار علىٰ موضع الشاهد، ولكنه في رياض الصالحين وفي الأربعين يسوق الأحاديث التي انتقاها لهما كاملة، ثم إنه لم يُشر إلىٰ ما حذفه إشارة يبين بها تصرفه في الحديث؛ ولذا فات علىٰ كثير من شارحي رياض الصالحين ومحققيه وشارحي الأربعين النووية التنبيه علىٰ هذا النقص في هذا الحديث[٣٤].

ولا يعتذر للنووي إلا بأن تكون نسخة البخاري التي نقل عنها في الأربعين ورياض الصالحين قد سقط منها هذا القدر من الحديث، وهو اعتذار فيه بعد؛ لأن النووي -رحمه الله تعالىٰ- حافظ عالم بالسنة شارح لها، وصحيح البخاري مشهور متداول، فلا يخفىٰ عليه مثل هذا، ويُخشىٰ أن حذفه كان

---

(٣٢) صحيح البخاري (٦١٣٧).

(٣٣) رياض الصالحين، برقمي (٩٥ و٣٨٦) وكذا في الأربعين، الحديث الثامن والثلاثون منها.

(٣٤) لأهمية هذا الموضوع فإني حاولت استقصاء الكتب التي شرحت رياض الصالحين والأربعين النووية وطبعات رياض الصالحين المحققة أو المخرجة؛ لمعرفة من تنبه لهذا الحذف، ومن فات عليه من الشارحين والمحققين؛ ليبين للقارئ تتابع الناس علىٰ الخطأ وقلة من ينتبه له بالنسبة لمن يفوت عليه، فكانت نتيجة ما توصلت إليه كما يلي:

أولًا: رجعت إلىٰ ثمانية عشر شرحا للأربعين النووية، انتبه لهذه الحذف منهم ستة فقط، وفات علىٰ اثني عشر شارحًا.

ثانيًا: رجعت إلىٰ ستة شروح لرياض الصالحين، انتبه للحذف ثلاثة منهم، وفات علىٰ ثلاثة، مع أن الشارح في شرحه لا بد أن يراجع شروح البخاري والمحذوف فيه.

ثالثًا: رجعت إلىٰ أحد عشر تحقيقا لرياض الصالحين، لم ينتبه للحذف منهم إلا واحد فقط، هو الألباني -رحمه الله تعالىٰ- وفات علىٰ عشرة.

لمعتقد لا يوافقه، وهو إثبات التردد لله تعالىٰ علىٰ ما يليق به سبحانه كما دل عليه الحديث(٣٥).

(٣٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: «وقد رد هذا الكلام طائفة وقالوا: إن الله لا يوصف بالتردد، وإنما يتردد من لا يعلم عواقب الأمور والله أعلم بالعواقب. وربما قال بعضهم: إن الله يعامل معاملة المتردد. والتحقيق: أن كلام رسوله حق وليس أحد أعلم بالله من رسوله، ولا أنصح للأمة منه، ولا أفصح ولا أحسن بيانا منه. فإذا كان كذلك كان المتحذلق والمنكر عليه من أضل الناس؛ وأجهلهم وأسوئهم أدبا، بل يجب تأديبه وتعزيره، ويجب أن يصان كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة، والاعتقادات الفاسدة، ولكن المتردد منا وإن كان تردده في الأمر لأجل كونه ما يعلم عاقبة الأمور لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنزلة ما يوصف به الواحد منا؛ فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ثم هذا باطل؛ فإن الواحد منا يتردد تارة لعدم العلم بالعواقب، وتارة لما في الفعلين من المصالح والمفاسد، فيريد الفعل لما فيه من المصلحة، ويكرهه لما فيه من المفسدة، لا لجهله منه بالشيء الواحد الذي يحب من وجه ويكره من وجه. كما قيل:

الشيب كره وكره أن أفارقه ... فاعجب لشيء علىٰ البغضاء محبوب

وهذا مثل إرادة المريض لدوائه الكريه، بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس هو من هذا الباب، وفي الصحيح «**حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره**»، وقال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ الآية. ومن هذا الباب يظهر معنىٰ التردد المذكور في هذا الحديث فإنه قال: «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه**». فإن العبد الذي هذا حاله صار محبوبا للحق محبا له، يتقرب إليه أولا بالفرائض يحبها، ثم اجتهد في النوافل التي يحبها ويحب فاعلها، فأتىٰ بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق؛ فأحبه الحق لفعل محبوبه من الجانبين بقصد اتفاق الإرادة، بحيث يحب ما يحبه محبوبه، ويكره ما يكرهه محبوبه، والرب يكره أن يسوء عبده ومحبوبه، فلزم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محاب محبوبه. والله ﷻ قد قضىٰ بالموت فكل ما قضىٰ به فهو يريده ولا بد منه، فالرب مريد لموته لما سبق به قضاؤه، وهو مع ذلك كاره لمساءة عبده؛ وهي المساءة التي تحصل له بالموت، فصار الموت مرادًا للحق من وجه، مكروهًا له من وجه، وهذا حقيقة التردد وهو: أن يكون الشيء الواحد مرادا من وجه مكروهًا من وجه، وإن كان لا بد من ترجح أحد الجانبين كما ترجح إرادة الموت؛ =

فهذا مثال واضح في حديث مشهور، وفي كتابين للنووي هما أشهر كتبه وأكثرها انتشارًا، وأكثر الناس يعتمد عليهما -خاصة رياض الصالحين- في مطالعة الأحاديث وتخريجها، فكيف بما دونهما من الكتب شهرة وعناية وتخريجًا، ولعله بهذا المثال الواضح يتبين للخطيب أهمية مراجعة الأصول -الكتب المسندة- في نقل الأحاديث وتخريجها، ولا سيما ما كان منها أصلًا لخطبته.

ثالثًا: جمع روايات الحديث سواء عن الصحابي نفسه أو عن غيره، فقد يكون فيها زيادات مهمة تزيد في المعنىٰ وتنفع السامع، وتلك هي طريقة العلماء في شرح الأحاديث، كابن عبد البر في التمهيد، وابن رجب في جامع العلوم والحكم أو في الأجزاء التي أفردها لشرح بعض الأحاديث، وابن حجر في الفتح، وغيرهم.

ومعلوم أن الخطيب هنا لا يستشهد بالحديث فتكفيه رواية واحدة، أو جزء منه، وإنما جعل خطبته كلها في هذا الحديث، فمن حق المستمع عليه أن يعلم كل ما هو مهم ومفيد فيه حسب علمه واستطاعته، وأهم شيء في ذلك ما في الروايات الأخرىٰ من زيادات وإيضاح.

ويجب علىٰ الخطيب كما استوثق من ثبوت الحديث الأصل أن يستوثق من

= لكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته . . . ومن هذا الباب ما يقع في الوجود من الكفر والفسوق والعصيان؛ فإن الله تعالىٰ يبغض ذلك ويسخطه ويكرهه، وينهىٰ عنه، وهو سبحانه قد قدره وقضاه وشاءه بإرادته الكونية، وإن لم يرده بإرادة دينية. هذا هو فصل الخطاب فيما تنازع فيه الناس: من أنه سبحانه هل يأمر بما لا يريده» مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ١٢٩-١٣١).

ثبوت الروايات الأخرىٰ، ولا يتساهل فيها؛ لأنه ليست كل زيادة صحيحة، بل قد تكون شاذة أو ضعيفة أو منكرة.

رابعًا: يختار من الروايات أصَحَّهَا وأتمَّهَا، فإن وجدت عنده رواية اتفق الحُفَّاظ أو الشيخان عليها، وواحدة انفرد بها أحد الحفاظ دون غيره، أو خرجها أحد الشيخين، فليعتمد الرواية التي عليها أكثر الحفاظ أو المتفق عليها؛ لأنها أقوىٰ وأبعد عن الغلط.

فإن كانت الرواية الأصح مختصرة، والأقل صحة أتم منها، فلا شك أن اعتماد الرواية الأتم فيه فائدة أكثر، لكن بشرط أن تكون صحيحة ولا تخالف الرواية المختصرة فتكون شاذة، ولو جمع بينهما فجعل الرواية الأقوىٰ هي الأصل، ثم أعقبها بالرواية الأتم منها لكان محققًا للغايتين؛ إذ يعلم الناس أن الرواية المختصرة هي الأقوىٰ، والثانية هي الأتم.

وسياقه للرواية الأتم يريحه أثناء إضافته للزيادات الصحيحة عليها من الروايات الأخرىٰ؛ إذ في الغالب أن الزيادات تكون قليلة لتمام الرواية التي ساقها، وهذا يكون أشدَّ بناء للحديث، وأَنْظَمَ لسياقه، وأقل تشويشًا علىٰ السامع فينسجم مع الخطيب وحديثه.

ويتأكد اختياره للرواية الأصح في الأحاديث القصيرة الجامعة التي هي قواعد كبرىٰ لما يلي:

١- أنها أدلُّ شيء علىٰ أن النبي ﷺ قد أعطي جوامع الكلم.

٢- أن الإخلال بألفاظها قد يختل به المعنىٰ والناقل لم ينتبه لذلك.

٣- أن بعض علماء الأصول شدَّدوا في جواز رواية مثل هذه الأحاديث بالمعنىٰ، فقد نقل السرخسي -رحمه الله تعالىٰ- قول المجيزين لرواية مثل هذه

الأحاديث الجامعة بالمعنىٰ، ثم قال: «والأصح عندي أنه لا يجوز ذلك؛ لأن النبي عليه السلام كان مخصوصًا بهذا النظم علىٰ ما روي أنه قال: «**أوتيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ**» أي: خصصت بذلك، فلا يقدر أحد بعده علىٰ ما كان هو مخصوصًا به، ولكن كل مكلف بما في وسعه، وفي وسعه نقل ذلك اللفظ ليكون مؤديًا إلىٰ غيره ما سمعه منه بيقين، وإذا نقله إلىٰ عبارته لم يؤمن القصور في المعنىٰ المطلوب به، ويتيقن بالقصور في النظم الذي هو من جوامع الكلم، وكان هذا النوع هو مراد رسول الله ﷺ بقوله: «**ثُمَّ أَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا**»» اهـ(٣٦).

وقال الشوكاني -رحمه الله تعالىٰ-: «وشرط بعضهم -أي: في الرواية بالمعنىٰ- أن لا يكون الخبر من جوامع الكلم، فإن كان من جوامع الكلم . . . لم تجز روايته بالمعنىٰ» اهـ(٣٧).

• أقسام الأحاديث من حيث طولها وقصرها:

يمكن تقسيم الأحاديث من جهة طولها وقصرها إلىٰ أقسام ثلاثة:

الأول: أحاديث طويلة، وغالبها -إن لم يكن كلها- قصص، وبعضها طويل جدًّا، مثل حديث الإفك، وقصة الثلاثة المتخلفين عن تبوك، وبعضها أقْصَر لكنه يبقىٰ في قسم الطويل مثل: قصة الأعمىٰ والأقرع والأبرص، وقصة الغلام والساحر والراهب.

الثاني: أحاديث متوسطة، وهي كثيرة جدًّا، مثل: «**إِنَّ الحَلاَلَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ** . . .» وبعضها أمثال ضربها النبي ﷺ لأمته، مثل حديث: «**مثلُ مَا بعَثَنِي اللهُ به مِنَ الهُدَىٰ**»، وحديث: «**مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا** . . .».

---

(٣٦) أصول السرخسي (١/ ٣٥٧).

(٣٧) إرشاد الفحول ص١٠٧-١٠٨.

الثالث: أحاديث قصيرة، ومنها ما هو قصير جدًّا، ولكنها تمثل قواعد كبرىٰ في العبادات مثل: «**إنما الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ . . .**»[٣٨]، أو في المعاملات مثل: «**كُلُّ شَرْطٍ ليْسَ في كتابِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ**»، أو في القضاء مثل: «**البَيِّنَةُ عَلَىٰ المُدَّعِي . . .**»، أو في الأخلاق والسلوك مثل: «**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ**»، أو في الصحة مثل: «**ما مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ**»، أو في حياطة الشريعة وحماية العبد من الزيادة مثل: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»، أو في تخفيف التكليف مثل: «**إذا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»، أو غيرها، وهذا كثير في حديث النبي ﷺ، وهذه الأحاديث مِنْ أَبْيَنِ ما يَدُلّ علىٰ أن النبي ﷺ قد أوتي جوامع الكلم.

فأما القسم الأول، وهي الأحاديث الطويلة فيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالىٰ في موضوع مفرد بعنوان: (قصص السنة في خطبة الجمعة) أُفصِّل فيها تعامل الخطيب معها.

وأما القسم الثاني، وهي الأحاديث المتوسطة فإن أحاديثها تناسب أن تفرد في خطبة كاملة، تكون الأولىٰ في سياق الحديث ورواياته ومعانيه وما يستنبط منه، ثم في الخطبة الثانية ينزل الخطيب الحديث علىٰ واقع الناس مبينًا مِقْدَار قربهم مما دل عليه أو بعدهم عنه، كاشفًا مواضع الخلل التي نأت بهم عن العمل بهذا الحديث، مستنهضًا هممهم للأوبة والتوبة من تقصيرهم فيه، مركزًا

---

(٣٨) يقول شيخ الإسلام -رحمه الله تعالىٰ-: «قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**» مما خصه الله تعالىٰ به من جوامع الكلم كما قال: «**بعثت بجوامع الكلم**»، وهذا الحديث من أجمع الكلم الجوامع التي بعث بها؛ فإن كل عمل يعمله عامل من خير وشر هو بحسب ما نواه. فإن قصد بعمله مقصودًا حسنًا كان له ذلك المقصود الحسن، وإن قصد به مقصودًا سيئًا كان له ما نواه» اهـ مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٢٥٤).

قوله علىٰ أهمية التأسِّي بالنبي ﷺ وطاعة أوامره واجتناب نواهيه، وهذا الحديث إما أن يكون في أمر قصروا فيه، أو نهي ارتكبوه، أو في كليهما.

ولو أيد قوله ببعض تطبيقات السلف والعلماء والصالحين لما ورد في الحديث لكان أكثر وقعًا علىٰ القلب، وأشد إزراء بالنفس المقصرة التي تأمر بالسوء وتتثاقل عن الطاعة.

وأما القسم الثالث فإن غالب هذه الكلمات الجامعة -وإن قلَّت حروفها- قد أسس العلماء عليها قواعد كبرىٰ، تنتظم الكثير من الجزئيات والمسائل في العبادات أو المعاملات أو الأخلاق أو الأسرة أو السياسة الشرعية أو غيرها، فينتقي من هذا الكم الهائل مما دل عليه الحديث من قواعد ومسائل وأمثلة ما تشتد إليه حاجة الناس مما غفلوا عن فضله فتركوه، أو جهلوا إثمه فاجترحوه.

فمثلا حديث: «**إنما الأعمال بالنيات** . . .» يستطيع الخطيب أن ينطلق منه للاحتساب في كل شيء حتىٰ في العادات فتتحول إلىٰ عبادات، كاحتساب الأكل والشرب والنوم للتقوِّي علىٰ طاعة الله تعالىٰ، وللمحافظة علىٰ بدنه الذي هو أمانة عنده فلا يتصرف فيه إلا بأمر الله تعالىٰ، واحتساب الوظيفة لنفع الناس وخدمتهم وتوفير اللقمة الحلال، واحتساب النفقة علىٰ الأهل والعيال لإعفافهم وإغنائهم عن السؤال، وللقيام بالواجب الشرعي المنوط به تجاههم . . . وهكذا دواليك؛ فإن كل الناس يأكلون ويشربون ويعملون في الوظائف، وينفقون علىٰ أولادهم، حتىٰ الكفار يفعلون ذلك، فإذا رسَّخ الخطيب هذا المعنىٰ في الناس منطلقًا من هذا الحديث العظيم نقلهم إلىٰ ذكر الله تعالىٰ في كل شئونهم، والاحتساب له في كل أعمالهم وأحوالهم، فكان لهم باحتسابهم أجور عظيمة فاتت كثيرًا منهم من قبل، وكان للخطيب من الأجر مثل أجورهم؛ لأنه هو الذي

دلهم علىٰ هذا الباب العظيم من الخير.

وهكذا يفعل الخطيب في كل الأحاديث الأخرىٰ التي تمثِّل قواعد كبرىٰ، ويُستخرج منها جزئيات كثيرة؛ إذ لا انفكاك عن حاجة الناس إليها في شئونهم وأحوالهم.

• أقسام الأحاديث من جهة وحدتها الموضوعية:

يمكن تقسيم الأحاديث من جهة وحدتها الموضوعية إلىٰ أقسام ثلاثة:

الأول: أحاديث وردت في موضوع واحد. مثل حديث: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» فلا إشكال فيها؛ لأنه لَنْ ينتقل من موضوع إلىٰ آخر.

فإن كان الحديث طويلًا أو فوائده كثيرة جدًّا قسم فوائده علىٰ خطبتين أو أكثر، وفي كل مرة يأتي بالحديث، ويُجمل في كل خطبة منها ما فَصَّلَهُ في الخطبة الأخرىٰ.

وفي الغالب أن مثل هذه الأحاديث تكفيها خطبة واحدة إذا ركَّز الخطيب خطبته، ولم يتشعب إلىٰ موضوعات فيها بُعْدٌ عن الحديث، ولم يكثر من الدقائق والتفصيلات التي لا يحتاج الناس إليها.

الثاني: أحاديث وردت في أكثر من موضوع، ولكن بين موضوعاتها ارتباط ظاهر. وذلك مثل حديث السبع الموبقات، فإن الرابط بين هذه السبع كونها من الموبقات.

وهذه إما أن يتحدث في خطبته عن جميعها بإيجاز مبينًا خطر كل واحدة منها حتىٰ صارت من الموبقات دون التفصيل فيها؛ لأن مقصوده تعليل كونها من الموبقات، وهذا هو المطلوب، ويصدق عليه حينئذ أنه ركَّز خطبته في هذا الحديث.

وإما أن يُفرد كل واحدة من السبع الواردة في الحديث بخطبة مستقلة، فيكون قد خرج عن كونه جعل خطبته في حديث إلىٰ الموضوع الذي اختاره من هذه السبع.

الثالث: أحاديث وردت في أكثر من موضوع وليس بين موضوعاتها ارتباط ظاهر، وغالبًا ما تكون إجابة علىٰ أسئلة، مثل حديث جبريل الطويل في الإسلام والإيمان والإحسان وأمارات الساعة، وحديث أنس في سؤالهم النبي ﷺ حتىٰ أحفوه في المسألة.

وعلىٰ الخطيب أن يبتعد عن التفصيلات التي لا تفيد الناس أو التي قد تثير إشكالات عندهم، مثل المسائل الخلافية، أو المسائل المشكلة، أو الإيرادات التي قد ترد علىٰ الحديث، وهذه محلها الدروس ومجالس العلم، ولا تُلقىٰ علىٰ العامة فتحدث فتنة فيهم.

- **الربط بين جمل الحديث:**

أغلب الأحاديث يوجد ارتباط وثيق بين جملها وإن بدا لقارئها أنها في موضوعات مختلفة، إلا القليل من الأحاديث التي لا يظهر بين جملها ارتباط، وهي التي تكون أجوبة علىٰ أسئلة، فهي بحسب أسئلة السائل، وهنا ينبغي أن تظهر براعة الخطيب في الربط بين جمل الحديث، ولا يتأتىٰ ذلك للخطيب إلا بشيئين:

أولهما: قراءة ما أمكن من شروح الحديث وكلام العلماء عليه، سواء كانت شروحًا مطولة، أم مختصرة، أم مجرد تعليقات قليلة؛ فقد يكون في بعض التعليقات القصيرة من الفائدة ما يغني عن صفحات كثيرة[٣٩].

---

(٣٩) وذلك مثل تعليقات السندي -رحمه الله تعالىٰ- علىٰ السنن والمسند فيها فوائد غزيرة في كلمات قليلة، وهكذا تعليقات الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالىٰ- في دروسه؛ فإنه كان =

ثانيًا: التأمل كثيرًا في الحديث، وعلاقة كل جملة منه بالأخرىٰ، وحصر كل الموضوعات التي يمكن أن تندرج تحتها، ثم النظر في المشترك بين موضوعات هذه الجمل، ومع كثرة التأمل والتفكير، وذكر الله تعالىٰ وتسبيحه واستغفاره ودعائه وإخلاص النية له سبحانه ستفتح له فتوحات عجيبة.

ويحضرني في هذا ما ذكره ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- من مناسبة تحذير النبي ﷺ من الزنا في خطبة الكسوف فقال: «وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقيب صلاة الكسوف سرٌ بديع لمن تأمله، وظهور الزنا من أمارات خراب العالم وهو من أشراط الساعة . . . وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله ﷻ، ويشتد غضبه، فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة» اهـ(٤٠).

وقال في مقام آخر: «وفي ذكر هذا الذنب بخصوصه في خطبة الكسوف سر بديع قد نبهنا عليه في باب غض البصر، وأنه يورث نورًا في القلب؛ ولهذا جمع الله ﷻ بين الأمر به وبين ذكر آية النور، فجمع الله سبحانه بين نور القلب بغض البصر وبين نوره الذي مثله بالمشكاة لتعلق أحدهما بالآخر، فجمع النبي ﷺ بين ظلمة القلب بالزنا، وبين ظلمة الوجود بكسوف الشمس وذكر أحدهما مع الآخر» اهـ(٤١).

= لا يكثر من الشرح، ولكن إذا علق كان تعليقه فصلا في المسائل الخلافية، وحلا لما يتبادر من مشكلات، وهي تعليقات مختصرة لكنها مركزة عظيمة النفع ما خرجت إلا بعد تأمل وبحث، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، قال الدارقطني -رحمه الله تعالىٰ-: «كان أبو القاسم بن منيع -رحمه الله تعالىٰ- قلما يتكلم علىٰ الحديث، فإذا تكلم كان كلامه كالمسمار في الساج» رواه الخطيب في تاريخه (١٠/ ١١٦).

(٤٠) الداء والدواء ص١١٤.

(٤١) روضة المحبين ص٢٩٥.

فهذا ربط عجيب موفق من ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- ومن أعلىٰ مراتب العلم ما يُوفق له العبد من الاستنباطات البديعة، والفتوحات العجيبة، وذلك فضل الله تعالىٰ يؤتيه من يشاء، ولا يحقر العبد نفسه فقد يفتح الله تعالىٰ له بابًا في ذلك حُجب عن غيره، فليكثر من التأمل في النصوص، ويجتهد في الاستنباط، ويستعين بالله تعالىٰ.

وعلىٰ الخطيب إن توصل إلىٰ معنىٰ لم يُسبق إليه أن يعضده بالاستدلال نصًّا ومعنىٰ، ويشاور فيه أهل العلم الراسخين بعد أن يستكمله، فلعله كان مخطئًا، أو لعل أحدًا قال به قبله فيُرشد إليه فيكون ذلك من التوفيق، ومن التوافق في الاستنباط والتفكير، أو لعل أحدًا يورد إيرادات عليه تمنعه من الجزم بما توصل إليه، أو يكون مستعدًّا للإجابة عن هذه الإيرادات.

من أمثلة الأحاديث التي لآخرها تعلق بأولها: حديث «**إنَّ الحَلالَ بَيِّن** . . .» ففي آخره: «**أَلَا وَإِنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ** . . .» كأن الرابط -والله أعلم- أن صلاح القلب سبب للتورع عن الحرام والمتشابه، كما أن فساده سبب للوقوع في الحرام، وبقدر ما في القلب من صلاح وفساد يقترب صاحبه من الحرام أو يبتعد عنه، فكان مناسبًا أن يُذيل الكلام علىٰ الحرام والحلال والمتشابه بما يكون سببًا للوقوع في الحرام والمتشابه وهو فساد القلب، أو التورع عنهما بصلاح القلب.

- **تنزيل الحديث علىٰ واقع الناس:**

حين اختار الخطيب حديثًا معينًا ليجعله موضوع خطبته، فإنه إنما فعل ذلك ظنًّا منه أن الناس محتاجون إليه، وأنهم سينتفعون بما فيه من علم، فأفرده بخطبة دون غيره من الأحاديث؛ ولذا فإنه يجدر بالخطيب أن يعتني بتنزيل الحديث

علىٰ واقع الناس حتىٰ تكمل فائدتهم به:

فإن كان الحديث في التنبيه علىٰ فريضة قصر الناس فيها ذكر لهم نماذج من تقصيرهم، وقارنها بأمور دنيوية يهتمون بها، ودعاهم إلىٰ المحافظة عليها مبينا لهم مكانتها عند الله تعالىٰ ومنزلتها من الشريعة.

وإن كان الحديث متعلقًا بسنة مهجورة بين لهم فضلها، وهجر الناس لها، وحفز هممهم إلىٰ إحيائها وإشهارها.

وإن كان الحديث في محرم قد وقع كثير من الناس فيه بين خطورته وحجم انتهاكهم له، وحذرهم منه.

وإن كان الحديث في ذم الدنيا ذكر لهم مقدار تكالب الناس عليها في هذا الزمن، وعقد مقارنة بين ما تكالبوا عليه من قليل الدنيا وما فرطوا فيه من كثير العمل الصالح.





٩- قصص القرآن في خطبة الجمعة

للقصة تأثير كبير في النفس البشرية، فقارئها ومستمعها يعيش بكليته مع أحداثها، وتؤثر في نفسه إيجابًا أو سلبًا حسب هدف كاتبها منها، والرسالة التي يريد إيصالها للقارئ أو المستمع عن طريقها؛ ولذلك كثرت القصص والروايات، وازدهرت سوق كُتَّابها، وتنوَّعَتْ تنوُّعًا كبيرًا؛ فقصص للأطفال، وأخرىٰ لمن هم فوقهم، وقصص للمراهقين، وروايات للكبار، ومنها العاطفي ومنها البوليسي ومنها المرعب، بل منها قصص السحر والشعوذة والخرافة؛ ليسبح قارئها ومستمعها في خيالها، وينبتَّ عن واقعه حال عيشه معها، ومع الانفتاح الإعلامي عُرفت كثير من الروايات الغربية، وأصبح الوصول إليها سهلًا فور إصدارها، ومن تابع الضجة الإعلامية التي صاحبت صدور الأجزاء الأخيرة من رواية (هاري بوتر) التي كانت مبيعاتها بمئات الملايين من النسخ، وتُرجمت إلىٰ ما يقارب سبعين لغة؛ أدرك أثر الرواية والقصة في نفوس البشر، ولو كانت خرافية، بل لا يجعل لها مثل هذا الصيت إلا كونها خرافية.

ولا غرابة في أن نرىٰ مثل هذه الروايات والقصص التي أكثرها يعارض ديننا وأخلاقنا وأعرافنا تتسلل إلىٰ بيوتنا، وتفسد دين نسائنا وأولادنا وأخلاقهم، ومع تطور الصنعة الإعلامية صورت القصص والروايات المكتوبة في أفلام ومسلسلات ورسوم متحركة وغيرها، ولا تسل عن الإقبال عليها.

وهذا يبرز لنا أهمية القصة وأثرها العظيم، ووجوب العناية بقصص القرآن والسنة، وتقديمها للناس، والخطبة من أهم المنابر التي يمكن أن تكون مجالًا لعرض قصص القرآن والسنة؛ للاستفادة منها، والاهتداء بها.

• الغرض من القصص في القرآن:

قارئ القرآن الكريم يلحظ كثرة القصص فيه، وتنوعها في موضوعاتها التي تعالجها، وفي شخصياتها التي تحكي أدوارها وأعمالها، وفي طولها وقصرها، وفي تكرار بعضها بأساليب مختلفة، ولهذه القصص أغراض عدة منها:

أولًا: التذكرة والاعتبار؛ وذلك كقصص الظالمين ونهاياتهم، والمستكبرين ومآلاتهم؛ للتحذير من سلوك مسلكهم، ومنها قصص: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون والنمرود بن كنعان، وبلعام، وصاحب الجنتين.

وجاء في بعض هذه القصص النص علىٰ أن من أغراضها التفكر والاعتبار، كما في قصة بلعام الذي أنعم الله تعالىٰ عليه بآياته فانسلخ منها، واتبع هواه؛ إذ ختمها الله سبحانه بقوله ﷻ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ولما قص سبحانه في الأعراف قصص آدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ذيل ذلك بقوله عز من قائل: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وفي قصة حشر بني النضير -حصارهم- قال الله تعالىٰ فيها: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢].

وفي الإشارة إلىٰ غزوة بدر في أوائل آل عمران قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وختم الله تعالىٰ قصة يوسف عليه السلام بقوله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

ويدخل في ذلك قصة إبليس اللعين مع أبينا آدم عليه السلام؛ لنحذر من إغوائه لنا، ونعتبر بما حصل لأبينا عليه السلام لما أطاع إبليس، فلا نطيعه، بل نتخذه عدوًّا ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

ثانيًا: التسلية والتثبيت، وهي قصص الابتلاء كابتلاء الأنبياء وأتباعهم بالمكذبين والظالمين، وابتلاء بني إسرائيل بفرعون وما جرىٰ لهم علىٰ يديه من الذل والهوان، وابتلاء يوسف عليه السلام، وقد ذكر الله تعالىٰ قصص جملة من رسله عليهم السلام في سورة هود ثم ختم ذلك بقوله ﷻ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ﴾ [هود: ١٢٠].

وختم ﷻ قصة نوح وما جرىٰ له مع قومه بقوله ﷻ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال ﷻ في فاتحة قصة يوسف عليه السلام: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] وختمها بقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

ثالثًا: الاقتداء والتأسي؛ كقصص الأنبياء والصالحين في ثباتهم علىٰ الحق، وصبرهم علىٰ الدعوة، وتحمل أذىٰ المؤذين في ذات الله تبارك وتعالىٰ، وهكذا التأسي بهم في توكلهم ويقينهم، وثقتهم بربهم ﷻ، وكذلك اتباع هديهم في

عباداتهم ومعاملاتهم وزهدهم وأخلاقهم، وقد ذكر الله تعالىٰ في الأنعام قصة إبراهيم عليه السلام ومباهلته لقومه، وأعقبها بالثناء علىٰ جملة من الأنبياء عليهم السلام، ثم ختمها ﷻ بالأمر بالتأسي بهم فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال سبحانه في قصة أهل الكهف: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

رابعًا: رفع الخلاف في مسائل كبيرة اختلف الناس فيها قبل إنزال القرآن، فجلَّاها الرب جل جلاله لعباده بما يزيل الخلاف، ومن ذلك قصة خلق عيسىٰ عليه السلام، وولادته بلا أب، وطهارة أمه العذراء عليها السلام، ورفعه إلىٰ الله تعالىٰ حيًّا في الدنيا، ونزوله في آخر الزمان حاكمًا بشريعة أخيه نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام.

وقصة مريم وعيسىٰ عليهما السلام مما وقع فيه خلاف كبير بين طائفتي بني إسرائيل: اليهود والنصارىٰ؛ ولذلك ختم الله تعالىٰ هذه القصة العظيمة في آل عمران بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٢]. وقال سبحانه في شأن قصة مريم عليها السلام: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

فمن أكبر أغراض سياق قصة مريم وعيسىٰ عليهما السلام: بيان الحق من الباطل فيما نسجه أهل الكتاب حولهما من القصص والأخبار، وقد قال الله تعالىٰ في

موضع آخر: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

ولو تأملنا في أحوال الناس وحاجاتهم لوجدنا أن الخطيب محتاج إلىٰ كل هذه الأغراض الهادفة من قصص القرآن، وأن من شأنها إصلاح أحوال الناس، والخطيب إنما يريد من الناس أن يعتبروا ويتعظوا، وفي ذكر مآل المكذبين، وعاقبة الظالمين أبلغ عظة وعبرة.

والخطيب محتاج إلىٰ تثبيت الناس علىٰ إيمانهم مع كثرة فتن السراء والضراء التي لا يكاد يسلم منها أحد في زمننا هذا، وفي ذكر قصص ثبات الأنبياء وأتباعهم تثبيت لقلوب المؤمنين.

والخطيب يريد هداية من يستمعون إليه، وتأسيهم بالصالحين من البشر، وفي ذكر قصص الأنبياء وأتباعهم حث علىٰ الاقتداء بهم.

والخطيب لا يعرض في خطبته إلا ما يعتقد أنه صدق وحق، ويجب أن يربي الناس علىٰ تلمس الصدق واتباع الحق، وقصص القرآن قد جلَّت لنا الحقائق، وبينت الكذب والغبش في قصص السابقين.

• تعامل الخطيب مع قصص القرآن:

المتأمل للقصص القرآني يجد أنها من حيث من تتناوله القصة علىٰ أقسام ثلاثة:

القسم الأول: قصص الأنبياء عليهم السلام، ومنها قصص تكررت في أكثر من موضع، وهي غالب قصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، إضافة إلىٰ قصة آدم عليه السلام مع إبليس، ومنها ما لم يتكرر بل جاء في موضع واحد من القرآن، سواء كانت القصة طويلة كقصة يوسف عليه السلام، أم كانت قصيرة كقصة إلياس عليه السلام.

القسم الثاني: قصص السابقين من غير الأنبياء عليهم السلام، مثل: أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وذي القرنين، وأصحاب الجنة في سورة القلم، وقصة مريم عليها السلام في سورتي آل عمران ومريم.

القسم الثالث: قصص للنبي عليه الصلاة والسلام، مثل غزواته: بدر في الأنفال، وأحد في آل عمران، والخندق وقريظة في الأحزاب، وبني النضير في الحشر، والحديبية في الفتح، وتبوك في التوبة، وإيلائه من نسائه في التحريم، وقصة زواجه من زينب في الأحزاب.

أما من جهة طول هذه القصص وقصرها فهي علىٰ أقسام ثلاثة أيضًا:

القسم الأول: قصص قصيرة وهي قليلة مثل: قصة إلياس عليه السلام في سورة الصافات، وقصة يونس عليه السلام في سور يونس والأنبياء والصافات، وقصة أيوب عليه السلام في سورتي الأنبياء وص، وقصة أصحاب الأخدود في البروج، وقصة الذي انسلخ من آيات الله تعالىٰ في الأعراف، فهذه القصص وأمثالها يكفي الواحدة منها خطبة واحدة بدروسها وفوائدها، وإن قصرت عن ذلك فلا تخلو من حالين:

الأولىٰ: أن يجد الخطيب لها في السنة والآثار ما يزيدها بحيث تصلح خطبة كاملة.

الثانية: أن لا يجد الخطيب في السنة والآثار شيئًا، وحينئذ لا بد أن يضع الخطيب مدخلًا مناسبًا لخطبته يغطي النقص الذي عنده.

مثال ذلك: يصدر الخطيب خطبته بالحديث عن منزلة الأنبياء عند الله تعالىٰ، وفضلهم علىٰ البشرية، وسيجد نصوصًا كثيرة في ذلك، ثم يأتي علىٰ قصة النبي الذي اختاره.

فإن اختار أن يخطب عن قصة أيوب عليه السلام صدر خطبته بالحديث عن ابتلاء الله تعالىٰ لأنبيائه وعباده الصالحين، أو عن فوائد الأمراض، ويجعل قصة أيوب عليه السلام وصبره مع شدة ما أصابه من البلاء مثالًا لذلك.

وهكذا في قصة يونس عليه السلام يتكلم عن الابتلاء والصبر، أو الكرب ودعاء المكروب.

وما من قصة إلا سيجد الخطيب لها مدخلًا يناسبها بحيث لا تقصر عن أن تكون خطبة كاملة.

القسم الثاني: قصص متوسطة، وهي الأكثر في القرآن، مثل قصص هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، فهي وإن تكررت في الأعراف وهود والشعراء، وغيرها فإنها ليست طويلة في كل المواضع التي تكررت فيها، بحيث لو جمع الخطيب ما يتعلق بها من تفصيلات في كل موضع من القرآن لناسب أن يجتمع منها خطبة واحدة، فإن طالت فخطبتان.

وقريب منها قصص أصحاب الكهف وصاحب الجنتين وذي القرنين وأصحاب الجنة في سورة القلم.

القسم الثالث: قصص طويلة جدًّا، لا يمكن للخطيب أن يعرضها في خطبة واحدة، وإلا لأطال علىٰ الناس كثيرًا، وذلك مثل قصص آدم ونوح وإبراهيم ويوسف عليهم السلام، وأطول منها قصة موسىٰ عليه السلام مع فرعون، فقد أبدأ فيها القرآن وأعاد، وكررها مطولة في الأعراف، وطه، والشعراء، والقصص، وغافر، وجاءت أقل من ذلك في يونس، والنمل، وجاءت مختصرة في هود، والإسراء، والذاريات، والنازعات.

والمتأمل في هذه القصة العظيمة يلاحظ أن تكرارها لا يخلو من فوائد

وتفصيلات يكمل بعضها بعضًا:

ففي سور: طه والقصص تفصيل لولادة موسىٰ عليه السلام ونشأته في بيت فرعون وكيف كان ذلك.

وفي الأعراف ويونس وطه والشعراء مناظرة موسىٰ عليه السلام لفرعون، وقصة السحرة، وانتهاء أمرهم إلىٰ الإيمان، وقيام حجة موسىٰ عليه السلام علىٰ فرعون.

وفي سورة غافر قصة الرجل المؤمن الناصح الذي آزر موسىٰ عليه السلام، ودعا فرعون إلىٰ الإيمان، ومناظرته له في ذلك.

وهناك قصص أخرىٰ لموسىٰ عليه السلام مع بني إسرائيل ومعالجته لعنادهم وعنتهم، وصبره عليه السلام عليهم، وقد جاء تفصيل ذلك مطولًا في البقرة والأعراف وطه، وأيضًا قصته عليه السلام مع الخضر -رحمه الله تعالىٰ- في سورة الكهف.

فهذه القصص المكررة الطويلة لا يحسن بالخطيب أن يعرض عنها كلية لما فيها من الطول، ولا أن يعرضها بطولها فيثقل علىٰ الناس، وسيكون ذلك علىٰ حساب الدروس والفوائد المستخرجة منها؛ ذلك أن الغرض الأكبر من عرض هذه القصص علىٰ الناس استخلاص العبر والدروس للعبرة والاقتداء.

وقد يعمد بعض الخطباء إلىٰ اختيار موضع واحد من القرآن وردت فيه القصة، فيسوقها كما وردت فيه، مع استخلاص العبر والدروس من ذلك الموضع، وهذا حسن، إلا أنه لا يتأتىٰ في المواضع التي جاءت فيها القصة مطولة، مثل الأعراف وطه والشعراء والقصص وإلا لأطال علىٰ الناس، كما أن فيه إهمالًا لتفصيلات كاشفة لأمور مهمة من القصة جاءت في مواضع أخرىٰ مع الحاجة إلىٰ ذكرها.

والذي أراه مناسبًا في مثل هذه القصص الطويلة العظيمة أن يتبع الخطيب الخطوات التالية:

أولًا: أن يجتهد الخطيب في جمع كل ما يتعلق بالقصة من آيات في كل المواضع التي وردت فيها، ولو كانت طويلة جدًّا.

ثانيًا: يضم إليها ما صح من الأحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام مما له تعلق بالقصة أو بعض أجزائها.

ثالثًا: يراجع كتب التفسير، وشروح الحديث، وكتب التاريخ، وقصص الأنبياء، فيجمع منها ما زاد علىٰ ما وجده في الآيات والأحاديث من كلام الصحابة أو التابعين مما هو كاشف لبعض المواضع التي فيها غموض، أو فيه جمع لما ظاهره التعارض.

رابعًا: عليه أن يجتنب الإسرائيليات في ذلك؛ لأنها ستطيل بحثه بلا طائل، ولأن التفصيلات الموجودة فيها -وإن هفت النفوس إليها- لا دليل عليها، ولا يحل للخطيب أن يفتن العامة بها، فكثير من الناس لا يفرقون بينها وبين ما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام، وليس لهم دراية في التعامل مع أخبار بني إسرائيل، وبمجرد سماعهم لها من الخطيب سيحملونها علىٰ محمل التصديق والتسليم.

وهناك كتب حذرت من بعض ما جاء في الإسرائيليات من تفصيلات، وبينت ما فيها من معارضة للقرآن والسنة، وكتب أخرىٰ عنيت بما صح من تفصيلات هذه القصص، ورد ما لم يصح منها، وهذه الكتب مما يعين الخطيب في بحثه، ويزيد من علمه بقصص القرآن، ويقوي ملكة النقد لديه.

خامسًا: أرىٰ أن يتأمل الخطيب في نصوص القصة، ويحاول استنباط

الدروس والفوائد منها، ويقيد ذلك قبل أن يراجع كتب التفسير والشروح وقصص القرآن؛ وذلك لتنمية ملكة الاستنباط لديه، ولينظر ما وافق هو فيه غيره، وقد يفتح الله تعالىٰ عليه بفوائد لم يسبق إليها، بخلاف ما إذا بدأ يجمع فوائد القصة ودروسها من الكتب التي سبقته فإنه يكون قد رهن عقله لها، فلا ينشط في التفكير والاستنباط.

سادسًا: يجمع الدروس والفوائد المستفادة من هذه القصص، ومظنتها كتب التفسير وشروح الأحاديث، إضافة إلىٰ كثير من الكتب التي عنيت بقصص الأنبياء، أو بالقصص القرآني، وبعضها عام في كل القصص، وبعضها مخصوص في قصة بعينها، وغالبًا ما يركز أصحاب هذه الكتب -وبالأخص المعاصرة منها- علىٰ الدروس المستفادة من القصة.

سابعًا: أن يحذر من كتابة القصة أو بعض أجزائها علىٰ فهمه هو للآيات دون مراجعة كتب التفسير، ولو كتابًا واحدًا موثوقًا؛ فقد يقع في الخطأ وهو لا يعلم فيأتي بمعنىٰ في القصة أو الآية ليس بصحيح، وقد يأتي بمعنىٰ مرجوح يرسخه في أذهان الناس ويهمل الراجح، وكونه يعلم المعنىٰ الآخر في القصة أو الآية -سواء كان مرجوحًا أو مساويًا للمعنىٰ الذي اختاره- مما يفيده في الإلمام بالمعاني، ويخلصه من حرج المناقشين والمتعقبين عليه.

ومن الأمثلة التي وقعت لي في ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، وقد تكرر معنىٰ هذه الآية في سورة الأعراف آية (١٤١)، وفي سورة إبراهيم آية (٦)، وكنت آخذ الآية علىٰ ظاهرها فيما بدا لي فأجعل البلاء: الابتلاء بهذا التعذيب من تقتيل الأبناء واستحياء البنات،

ولا سيما أنه موصوف بأنه عظيم، حتىٰ نبهني أحد الإخوة من طلبة العلم إلىٰ أن الطبري يرىٰ أن البلاء هنا بمعنىٰ النعمة، وأنه يعود علىٰ الإنجاء من فرعون وظلمه، فراجعت ما قال لي فوجدت هذا المعنىٰ منقولًا عن ابن عباس ومجاهد وأبي العالية وأبي مالك والسدي وغيرهم، ورجحه ابن جرير وقال: «أكثر ما يقال في الشر بلوته أبلوه بلاء، وفي الخير أبليه إبلاء وبلاء» والقول الثاني في الآية أن المعنىٰ البلاء بفرعون وتقتيله لبني إسرائيل، وحكاه القرطبي عن الجمهور(١).

ثامنًا: بعد اكتمال مادة الجمع عنده سيجد أن القصة تحتاج إلىٰ خطب كثيرة ليغطي الموضوع بأكمله، فيقسم القصة إلىٰ وحدات متنوعة يجعل كل واحدة منها موضوعًا لخطبة مستقلة، ويكون تقسيمه لها علىٰ وجهين:

الأول: أن يقسمها بحسب الزمان، وتسلسل الأحداث فيه.

مثال ذلك: يقسم قصة موسىٰ عليه السلام علىٰ الزمن الذي عاشه، ويسوق الأحداث بالنسبة لذلك الزمن، فيتحصل عنده مجموعة من الخطب علىٰ النحو التالي:

١- أحوال بني إسرائيل تحت حكم فرعون وجنده قبل ولادة موسىٰ عليه السلام، ويجمل فيها الكلام عن موسىٰ عليه السلام، وأنه كان نعمة من الله تعالىٰ علىٰ بني إسرائيل وخلاصًا لهم.

٢- قصة حمل أم موسىٰ به وولادته، ونشأته في منزل فرعون.

٣- هجرة موسىٰ إلىٰ مدين وقصة بعثه وتكليمه.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٧٤-٢٧٥)، وتفسير القرطبي (١/ ٣٨٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٩١-٩٢).

٤- دعوته لفرعون ومناظراته إياه في الربوبية والعبودية.

٥- تكذيب فرعون واستعانته بالسحرة وإيمانهم بموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٦- مطاردة فرعون وجنده لموسىٰ ومن معه، وهلاك فرعون ونجاة موسىٰ.

الثاني: أن يقسمها بحسب الموضوع، ولا يهمه سرد القصة وأحداثها وترتيبها.

مثال ذلك: أن يقسم قصة موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون علىٰ موضوعات لا يراعي فيها الزمن بقدر ما يراعىٰ الأحداث والصفات المتعلقة بموضوعه، أشبه ما يكون بطريقة التفسير الموضوعي، وذلك كما يلي:

١- مظاهر طغيان فرعون من خلال قصته في كل السور التي وردت فيها.

٢- حاجة الظلمة إلىٰ أعوان، وصفات هؤلاء الأعوان، وذلك من خلال ما قص الله تعالىٰ عن الملأ من قوم فرعون، وخاصة هامان، وأعماله التي ساند فيها فرعون.

٣- وصف الأذىٰ الذي لحق ببني إسرائيل قبل مبعث موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وبعده.

٤- ضعف بني إسرائيل وهوانهم، واستكانتهم لظلم الظالمين، ومظاهر ذلك من الآيات القرآنية.

٥- اصطفاء موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مخلصًا لبني إسرائيل، وتربيته في بيت عدوه.

٦- فضائل موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ من خلال إيمانه بالله تعالىٰ وثقته به، وتوكله عليه، وقوته في الحق، وصبره علىٰ الأذىٰ فيه.

٧- عاقبة المؤمنين النصر، ونهاية المستكبرين العذاب، وجعل قصة موسىٰ وفرعون أنموذجًا لذلك، بوصف أعمال الفريقين، وبيان عاقبتهما.

فهذه موضوعات سبعة بدت لي ابتداء، وقد تزيد مع جمع مادة القصة من مصادرها.

إضافة إلىٰ أن لموسىٰ ﷺ قصصًا أخرىٰ مع بني إسرائيل بعد هلاك فرعون يتحصل منها عدد من الخطب ليس بالقليل، سواء تناولها الخطيب بحسب زمنها أو تناولها بحسب موضوعاتها، وهكذا قصة موسىٰ والخضر ﷺ.

ولست هنا أدعو الخطيب إلىٰ أن يجعل هذه الخطب مسلسلة، في كل جمعة يخطب بواحدة حتىٰ ينهيها، بل الذي أراه أن يجعل كل خطبة مستقلة عن الأخرىٰ، ويخطب بها بين الحين والآخر حسب الحاجة حتىٰ ينتهي منها.

ولو رأىٰ أن يسلسل قصة من القصص حتىٰ ينهيها فالأمر واسع، والخطب يسير، وهو محل اجتهاد بما يحقق المصلحة، وقد يناسب ذلك في بعض المساجد دون غيرها، لكني أرىٰ أنه من غير المستحسن أن يبدأ في قصص القرآن فلا يخرج منها إلىٰ غيرها حتىٰ ينتهي منها كلها؛ لأن ذلك سيطول وقد يستغرق سنوات، ويكون علىٰ حساب موضوعات أخرىٰ مهمة، وقد سبق أن بينت مفاسد جمود الخطيب علىٰ فن من الفنون يخطب فيه ولا يتعداه.

تاسعًا: سيجد الخطيب أثناء الجمع تعليقات علىٰ بعض مواضع القصة مؤثرة جدًّا عن الصحابة أو التابعين أو الأئمة بعدهم، فعليه أن يعتني بها، ويؤكد عليها، ويضعها في مواضعها اللائقة بها، فإن ناسب أن يذكرها في موضعها من القصة فذاك، وإن رأىٰ أنَّ إيرادها في سياق القصة سيقطعها، ويشوش علىٰ المستمعين، ولا ينتفعون بها فليجعلها في الدروس ولا يهملها. ومما يحضرني في ذلك:

١- في قول الله تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]، وقوله سبحانه عن موسىٰ أنه قال: ﴿هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٣٠-٣٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥] قال

بعض السلف: «ليس أحد أعظم مِنَّةً علىٰ أخيه من موسىٰ علىٰ هارون ﷺ، فإنه شفع فيه حتىٰ جعله الله نبيًّا ورسولًا معه إلىٰ فرعون وملئه، ولهذا قال تعالىٰ في حق موسىٰ: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]»[٢].

٢- في قصة بناء الخليل ﷺ للبيت، عن وهيب بن الورد -رحمه الله تعالىٰ-: «أنه قرأ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] فجعل يبكي ويقول: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يقبل منك؟!»[٣].

٣- في قصة موسىٰ ﷺ، وقول الله تعالىٰ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] قال يزيد الرقاشي -رحمه الله تعالىٰ-: «يا من يتحبب إلىٰ من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه»[٤]، وقُرئت عند يحيىٰ بن معاذ فبكىٰ، وقال: «إلهي، هذا رفقك بمن يقول: أنا الإله فكيف رفقك بمن يقول أنت الله؟!»[٥].

٤- في دعاء الخليل ﷺ حين قال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قال إبراهيم التيمي -رحمه الله تعالىٰ-: «من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول: واجنبني وبني أن نعبد الأصنام كما عبدها أبي وقومي»[٦].

• إيرادات والجواب عنها:

الإيراد الأول: أن هذه الطريقة المقترحة لتعامل الخطيب مع القصص القرآني تحتاج إلىٰ وقت طويل، والخطبة متكررة كل جمعة، فأنىٰ للخطيب أن يجد

---

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٠).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٣٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٤).

(٥) تفسير الألوسي (١٦/ ١٩٥).

(٦) تفسير القرطبي (٩/ ٣٦٨).

الوقت لمثل هذا العمل الكبير، ولديه أعمال أخرىٰ؟!

وجواب ذلك كما يلي:

١- أن مثل هذا البحث وإن أخذ جزءًا ثمينًا من وقته فإنه يريحه أيضًا جمعات كثيرة يكون عنده لها رصيد من الموضوعات قد أَعَدَّهُ وَجَمَع مادته، ولم يبق إلا الصياغة، وذلك يُوَفِّرُ عَلَيْهِ وقتًا طويلًا فيما لو أراد إعداد خطبة لكل جمعة.

ولو أن الخطيب فعل مثل ذلك في كل الموضوعات الطويلة سواء كانت في القصص أو العقائد أو العبادات أو الأخلاق أو السيرة أو القضايا المعاصرة أو غيرها لتحصل له كَمّ كبير من الموضوعات الجاهزة التي لا تحتاج منه إلا إلىٰ صياغة فقط، وهذا يريحه كثيرًا في اختيار موضوع خطبته وفي كتابتها، فلا تستنزف منه وقتًا طويلًا.

٢- قد يضيق الوقت علىٰ الخطيب في بعض الجمع لظرف طارئ لم يحسب حسابه فلا يتمكن من جمع مادة خطبته، فتكون هذه المواد المجموعة سابقًا مُعِينَة له علىٰ الالتزام بكتابة خطبة جديدة وجيدة رغم ما عرض له من مشاغل وعوائق. بخلاف ما لو لم يكن عنده مادة محضرة فسيضطر للإعادة، ولو كتب خطبة جديدة دون تحضير وجمع فستكون خطبة ضعيفة.

الإيراد الثاني: قد ينازع بعض الناس فيقول: إن الخطبة مجرد موعظة وتذكير بما يفتح الله تعالىٰ علىٰ الخطيب، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يخطب بما يحتاج الناس إليه.

وجواب ذلك من وجهين:

١- أن من أبلغ المواعظ والتذكير الموعظة بقصص القرآن، وتكرارها في القرآن، وطولها في بعض السور يدل علىٰ أهميتها في الوعظ والتذكير، وأن لها

أثرًا كبيرًا في نفس قارئها وسامعها، ومن لم يتعظ بالقرآن وآياته وقصصه فلا واعظ له.

٢- أن الخطبة بقصص القرآن مما يحتاج الناس إليه؛ لما فيها من الفوائد الكثيرة؛ ولتشوف نفوس السامعين إلىٰ القصص، ومحبتهم لها، وتأثر قلوبهم بها.

الإيراد الثالث: قد يرىٰ بعض الناس أن الخطبة ليست بحثًا فلا تحتاج إلىٰ كل هذا الجمع، ويكفي الخطيب أن يعرض لظاهر القصة ويختار منها ما يراه مناسبًا، ولا يحتاج إلىٰ صنع أكثر من خطبة في القصة الواحدة.

وجواب ذلك من أوجه:

١- أن الاقتصار في الموضوعات الطويلة -ومنها بعض قصص القرآن- علىٰ خطبة واحدة سيلجئه إلىٰ إطالتها بما يشق علىٰ المصلين، أو سيهمل ما هو مهم فيها وهذا قصور.

٢- أن من فعل ذلك سيكتفي بالعمومات، والاقتصار علىٰ العمومات أقل فائدة وتأثيرًا علىٰ المصلين من الغوص في أعماق الموضوع، واستخراج النكت والفوائد والدروس منه، والعمومات يفهمها أكثر المصلين، وربما كان إدراكهم لبعض التفصيلات أكثر من إدراك الخطيب.

٣- أن الخطيب هو أول المستفيدين من بحوثه التي يجمعها للخطبة، فذلك مما يزيد في معلوماته، ويرسخ الموضوعات التي بحثها في ذهنه بدقائقها ونكتها ومسائلها. والذي أراه أن البحث هو أقوىٰ وسيلة لتحصيل العلم وترسيخه، وتقوية ملكة النظر والنقد والترجيح والاجتهاد، فعلام يحرم الخطيب نفسه هذه الثمرات العظيمة ببعض جهد يبذله في شعيرة هي من أعظم الشعائر، فينفع نفسه وينفع إخوانه المسلمين؟

٤- أن أي خطبة لم تكتب إلا بعد جمع وبحث ونظر ستحوي فوائد ونكتًا لا توجد في غيرها، وهذا مما يخلدها، ويجعل الناس يتناقلونها علىٰ أوسع نطاق، وربما وقعت في أيدي خطباء فخطبوا بها لفائدتها ونفاستها، وقد يستفيد من بعض ما فيها عالم كبير، أو طالب علم مبرز، أو داعية مشهور، أو كاتب مرموق، والفضل في ذلك -بعد الله تعالىٰ- يعود لمن كتبها.

وواجب علىٰ الخطيب أن لا يحتقر عقول المصلين معه ولو كانوا من العوام؛ فإن أغلبهم يميزون جيد الكلام من رديئه، ويدركون أكثر ما يخاطبون به. كيف وما من جامع إلا وفيه متعلمون ودارسون حتىٰ جوامع القرىٰ والهجر، بما منَّ الله تعالىٰ علىٰ الناس من نهضة التعليم والدراسة في هذا العصر؟!

ويبدو لي أن من أهم أسباب ضعف الخطبة في هذا العصر، وقلة تأثيرها في نفوس المستمعين هو عدم التحضير الجيد لها، والاكتفاء بعمومات الموضوع الذي يختاره الخطيب، حتىٰ بلغ الأمر ببعض الخطباء أنك تستمع إلىٰ خطبته فلا تجد موضوعًا واحدًا لها، وإنما يتشعب في أودية كثيرة، ويتكلم عن موضوعات عدة في آن واحد، بل ربما جاوز الموضوع ثم عاد إليه مرة أخرىٰ في نفس خطبته، ولست أدري كيف كتبها؟!

❀ ❀ ❀



١٠- قصص السنة في خطبة الجمعة

أمر الله تعالىٰ نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام أن يقص القصص علىٰ قومه، وأن يتلو عليهم أخبار من سبقوا؛ ليعتبروا ويتعظوا فيؤمنوا، وتكرر ذلك في القرآن، وما ذاك إلا لتأثير القصة في النفوس البشرية، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ . . . الآيات [المائدة: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ . . . الآيات [الأعراف: ١٧٥]، وفي آخرها قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ . . . الآيات [يونس: ٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ . . . الآيات [الشعراء: ٦٩].

قال القرطبي -رحمه الله تعالىٰ-: «أمره ﷺ أن يذكرهم أقاصيص المتقدمين ويخوفهم العذاب الأليم علىٰ كفرهم» اهـ[١].

وقال ابن عاشور -رحمه الله تعالىٰ-: «وشأن القصص المفتتحة بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أن يقصد منها وعظ المشركين بصاحب القصة بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ ويحصل من ذلك تعليم . . .» اهـ[٢].

وقد امتثل النبي ﷺ أمر الله تعالىٰ فبلغ القرآن للأمة، وفيه من قصص السابقين شيء كثير، كما قصَّ عليه الصلاة والسلام علىٰ أصحابه ﵃ قصصًا كثيرة مما علمه الله تعالىٰ ليست في القرآن، فكان في ذلك أبلغ عبرة، وأحسن موعظة لمن انتفع بها. فيحسن بالخطيب أن يأتي بهذه القصص من السنة النبوية

---

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٣٦٢).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ١٧٣).

بين حين وآخر؛ لأخذ الدروس والعبر منها، ونفع المصلين وإطرابهم بها؛ فإن القصص النبوي من أجمل القصص وأحسنها، وأكثرها تأثيرًا في سامعها.

وأئمة الحديث والأثر علموا ما للقصة من تأثير في النفس البشرية فترجموا بها في كتبهم، وجعلوها عناوين أبوابها، ومن تراجم أمير المؤمنين في الحديث أبي عبد الله البخاري -رحمه الله تعالىٰ-: باب قصة يأجوج ومأجوج، باب قصة إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، باب قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه، باب قصة خزاعة، باب قصة زمزم، باب قصة الحبش، باب قصة البيعة والاتفاق علىٰ عثمان رضي الله عنه، باب قصة أبي طالب ... إلخ[٣].

- **وللقصة تأثير كبير في نفس سامعها لأسباب أهمها:**

١- ولع الإنسان بالقصص وميله لها. حتىٰ إن النبي ﷺ قال في قصة الخضر مع موسىٰ عليه السلام: «**وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ صَبَرَ حَتَّىٰ يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا**»[٤].

٢- أن القصة أقوىٰ في التأثير من التوجيه المباشر. قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير؛ ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد، ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنىٰ ظهورًا ووضوحًا، فالأمثال شواهد المعنىٰ المراد، ومزكية له»[٥].

(٣) ينظر: صحيح البخاري نسخة مصطفىٰ البغا: (٣/ ١٢٢٠-١٢٣٤-١٢٩٤-١٢٩٧-١٢٩٨-١٣٥٢-١٤٠٨)، وينظر أيضًا أبوابًا أخرىٰ فيه: (٤/ ١٤٥٤-١٥٣٥-١٥٩١-١٥٩٢-١٥٩٣-١٥٩٦).

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٥).

(٥) إعلام الموقعين (١/ ١٨٣).

٣- أن القارئ يستوعب معانيها؛ لأنه يعيش بكليته معها فتؤثر فيه.

٤- أنها أداة سهلة للفهم وتحظىٰ بالقبول من العامة[٦].

قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ-: «ما أحوج الناس إلىٰ قاص صادق!»[٧].

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام متفاعلًا مع قصص القرآن متأثرا بها، وظهر انفعاله وتأثره بها في مواقف كثيرة، منها:

١- تأثره بقصة عيسىٰ عليه السلام، وما أحدثه النصارىٰ فيه من القول ببنوته لله تعالىٰ، والقول بالتثليث، وغلوهم في المسيح وأمه، فظهر تأثره عليه الصلاة والسلام بتربية أصحابه علىٰ عدم الغلو فيه فقال ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْد اللَّهِ وَرَسُولُهُ**»[٨].

٢- تأثره ﷺ بأذية بني إسرائيل لموسىٰ عليه السلام، فصبر علىٰ أذىٰ قومه وقال: «**رَحِمَ اللهُ مُوسَىٰ قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»[٩].

٣- تأثره ﷺ بما نزل من العذاب بالمعذبين، قالت عائشة رضي الله عنها: «كَانَ إِذَا رَأَىٰ غَيْمًا أو رِيحًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ المَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الكَرَاهِيَةُ؟ فَقَالَ: **يَا عَائِشَةُ مَا يُؤْمِنِّي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَىٰ قَوْمٌ العَذَابَ، فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا**»[١٠].

---

(٦) ينظر: مختارات من القصص الصحيح في السنة النبوية د. طلعت محمد عفيفي سالم، الزهراء للإعلام العربي القاهرة الأولىٰ ١٤٠٨، ص: ٢٠-٢٦.

(٧) إحياء علوم الدين، نشرة: دار المعرفة، بيروت (١/ ٣٥).

(٨) رواه من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم: البخاري (٣٤٤٥).

(٩) رواه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: البخاري (٣١٥٠).

(١٠) رواه البخاري (٤٨٢٩)، ومسلم واللفظ له (٨٩٩).

- **ميزات القصص النبوي:**

فضل الوحي علىٰ سائر الكلام كفضل الله تعالىٰ علىٰ خلقه، وما القصص النبوي إلا غيب كشفه الله تعالىٰ لنبيه عليه الصلاة والسلام، فأداه النبي ﷺ كما تحمله، وهو الذي لا ينطق عن الهوىٰ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النَّجم: ٤]؛ ولذا امتاز القصص النبوي بميزات كثيرة لم تجتمع في غيره من قصص المتقدمين والمتأخرين، ومن تلك الميزات:

١- صدق أحداثها ووقوعها وواقعيتها، فهي وحي من الله تعالىٰ لرسوله ﷺ، وليست من أفكار الخيال التي ينسجها القاص لقرائه ومستمعيه؛ فكانت منهاج عمل لضبط الحياة للراغبين في اقتفاء أثر مدارج السالكين للوصول إلىٰ جنات النعيم(١١).

وكما أنها قصص لا تجنح إلىٰ الخيال الشارد الجموح فإنها لا تميل للتعمق المفلسف الغامض، ولا للسطحية الفارغة الجوفاء المغطاة بقشرة خالية من بديع العبارة، وليست هي القصة التي وضع الغرب لها عشرات القواعد والشروط، ولكن هي القصة التي تقوم علىٰ سلامة فطرة القاص، وتكفي كل الكفاية في تقرير الغرض، وتروع كل الروعة في تسلسل الأحداث ولباقة الحوار وتصوير الأشخاص(١٢).

إنها القصة الواقعية الصادقة في أحداثها فلا تهويل فيها ولا تهوين، بخلاف

---

(١١) ينظر: موسوعة القصص النبوي، د.شاهر ذيب أبو شريح، دار صفاء، الأردن، الأولىٰ، ٢٠٠٣، ص٧.

(١٢) ينظر: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، د. كمال عز الدين، دار اقرأ، بيروت، الأولىٰ ١٤٠٤، ص ٤٥٩.

قصص بني إسرائيل المختلقة، وقصص القصاص الوضاعين؛ ففيها من الغرائب والأخبار المنكرة ما لا تقبله العقول السوية، ويكون أحيانًا فيها تناقض كثير.

نقل السيوطي عن ابن الجوزي قوله: «معظم البلاء في وضع الحديث إنما يجري من القصاص؛ لأنهم يريدون أحاديث ترقق وتنفق والصحاح تقل في هذا»[١٣].

٢- العناية بموضوع القصة وأهدافها دون الاهتمام بأشخاصها أو تحديد زمانها؛ ولذا تأتي بأساليب نحو: كان رجل ممن كانوا قبلكم، كان رجل من بني إسرائيل، ومثله أيضًا: حديث الثلاثة المبتلين الأبرص والأقرع والأعمىٰ، وحديث الثلاثة الذين باتوا في الغار، وحديث غلام الأخدود.

وفي هذا استيعاب للحياة كلها مع تخطي الزمان والمكان[١٤].

٣- انتقاء الأسلوب، فليس أسلوبها متكلفًا متقعرًا ولا مبتذلًا رخيصًا، والملاحظ أن أئمة المساجد يقرؤونها علىٰ العوام فيفهمونها، ويتأثرون بها، وهي تطرب كبار الأدباء والبلغاء، فهي قد جمعت بين سهولة العبارة وسرعة الفهم مع جزالة الأسلوب، وبراعة التركيب، وترابط القصة. بل حتىٰ القصص التي حكاها الصحابة -مما وقع لهم- فيها براعة قصصية تأخذ بالألباب، كحديث عائشة رضي الله عنها عن الإفك، وحديث كعب بن مالك في تخلفه عن غزوة تبوك.

٤- النزاهة والعفة، والتعريض في المواضع الخاصة دون التصريح، نحو: **«اتَّقِ اللهَ ولا تفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعدَ الرَّجُلِ مِن امْرَأتِهِ»**.

---

(١٣) تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، تحقيق: د. محمد الصباغ، نشرة المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٤هـ، ص ١٥٥.

(١٤) ينظر: أقباس من قصص السنة، د. عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، مكتبة الدار العربية، القاهرة، الأولىٰ ١٤٢٠، ص ١٨.

وبهذا نعلم قذارة الرواية الغربية، ومقلدتها الليبرالية العربية حين تمتلئ بالمشاهد الجنسية الفاضحة، وتصفها وصفًا دقيقًا لتهييج الغرائز، وسحب قارئها إلىٰ الشهوة، وكأن هذه الإثارة الرخيصة مقصودة لستر ضعف البنية القصصية في تلك الروايات الساقطة.

٥- عدم الوقوف طويلا عند مواقف الضعف والهبوط البشري فيمر بها سريعًا؛ لأنها ليست الأصل في المؤمن المحب للخير والعفة، وليست الهدف من القصة، وحالات الضعف هي استثناءات في هؤلاء الضعفة من المؤمنين، وعارض عرض لهم.

٦- الإسراع في القصة إلىٰ لحظة الإفاقة والتركيز عليها والإشادة بها؛ لأنها اللحظة اللائقة بالمؤمن.

- **تقسيمها من جهة الطول والقصر:**

من قصص السنة النبوية ما هو طويل كقصة الإفك[١٥]، وتوبة كعب بن مالك[١٦]، وقصة بدء الوحي[١٧]، وقصة إبراهيم وهاجر[١٨]، ونحوها.

ومنها ما هو متوسط، كقصة الثلاثة المبتلين[١٩]، والثلاثة أصحاب الغار[٢٠]، والبقرة التي تكلمت[٢١]، ونحوها.

---

(١٥) رواها البخاري (٤١٤١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(١٦) رواها البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).
(١٧) رواها البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠).
(١٨) رواها البخاري (٣٣٦٤-٣٣٦٥).
(١٩) رواها البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).
(٢٠) رواها البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٣٧٤٣).
(٢١) رواها البخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨).

ومنها ما هو قصير كقصة الرجل الذي أوصىٰ بأن يحرق ويذر رماده[٢٢]، وقصة الذي اشترىٰ عقارًا فوجد في أرضه ذهبًا[٢٣]، وقصة عيسىٰ عليه السلام مع السارق[٢٤] ونحوها.

والقصص الطويلة من المستحسن أن يستوعب بها الخطيب الخطبة الأولىٰ كاملة، ويختصر في مقدمة الخطبة حتىٰ لا يطيل علىٰ الناس، وفي الخطبة الثانية يأتي علىٰ أهم ما في القصة مما يحتاج الناس إليه، وهذا يختلف باختلاف الزمان والمكان والحال؛ فمثلًا لو خطب بحديث الإفك؛ لأن بعض أهل البدع وقع في عرض عائشة رضي الله عنها، فهو في الخطبة الثانية سيبين أن رمي عائشة رضي الله عنها كفر؛ لأن فيه تكذيبًا للقرآن الكريم، ومن كذب بالقرآن فقد كفر، أو يتناول حال المنافقين في القديم والحديث، أو يذكر فضل عائشة رضي الله عنها بتبرئة الله تعالىٰ لها، وقد يتحدث عن كل ذلك باختصار.

وقد يسوق القصة لغرض بيان شدة القذف، وخطر الشائعة، وهنا سيكون تركيزه في الخطبة الثانية علىٰ الأضرار التي تسببت لبيت النبوة بسبب هذه الشائعة الخطيرة.

وقد يسوق القصة لأغراض تربوية، فيستخلص منها المواقف التربوية للنبي ﷺ في هذه الحادثة، ولعائشة وأبويها وبعض الصحابة المذكورين في القصة رضي الله عنهم.

وعلىٰ الخطيب أن يحدد الغرض الذي ساق القصة من أجله، حتىٰ يمكنه التركيز عليه وإبرازه في الخطبة الثانية. ومن الخطأ أن يظن أنه سيأتي علىٰ فوائد القصة كلها؛ لأن ذلك سيطول جدًّا، ويشتت السامعين.

---

(٢٢) رواها البخاري (٣٤٨١)، ومسلم (١٧٥٦).

(٢٣) رواها البخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١).

(٢٤) رواها البخاري (٣٤٤٤)، ومسلم (٢٣٦٨).

ولا مانع من أن يعيد ذكر القصة بعد زمن، وفي كل مرة يبرز في الخطبة الثانية جانبًا مهمًّا مما يستفاد منها مما تمس الحاجة إليه، فتكون الخطبة الأولىٰ مكرورة، والثانية مختلفة.

وإذا كان للقصة أكثر من رواية طويلة أورد في كل مرة رواية من رواياتها حتىٰ يأتي علىٰ جميعها كما هو فعل حذاق المحدثين كالبخاري رحمه الله تعالىٰ.

وأما القصص المتوسطة في طولها ففيها سعة بإبراز فوائدها وعبرها ودروسها، وللخطباء في ذلك طريقان:

١- أن يذكر فوائد القصة ودروسها أثناء سرد القصة، وهذا يحتاج إلىٰ براعة في الصياغة وفي انتقاء الدروس والعبر؛ لئلا يشتت ذهن السامع فينسىٰ القصة. وميزة هذه الطريقة أنها أكثر اختصارًا للخطبة، وتدل السامع علىٰ موضع الشاهد من القصة لكل فائدة استخلصها الخطيب. وهذه الطريقة تشبه شرح القصة أو الحديث وتفكيك عباراته، لكن علىٰ من ينزع إلىٰ هذه الطريقة أن ينتبه؛ لئلا يحول الخطبة إلىٰ درس أو شرح، ويبقي علىٰ أسلوبها الخطابي .. وقليل من الخطباء من يبرع في ذلك.

٢- أن يسرد القصة أولًا، ثم يأتي علىٰ دروسها وفوائدها مذكرًا بالشاهد منها في كل فائدة، وميزة هذه الطريقة أنها تعطي السامع القصة كاملة بلا تدخل من الخطيب، وهذا أجمع لقلبه، وأكثر تأثيرًا عليه، وهي أسلم للخطيب الذي لا يتقن إدخال الفوائد والمسائل في داخل القصة دون أن يشوش علىٰ السامع أو يصيبه بالملل لانقطاع القصة، ولكن هذه الطريقة فيها شيء من التكرار؛ لأن الخطيب يسوق القصة كاملة، ثم يعيدها أو جزءًا منها في الفوائد حين يذكر الشواهد علىٰ كل فائدة.

وأما النوع الثالث وهو القصص القصيرة، فهي علىٰ نوعين:

١- أن يكون فيها من الفوائد ما يغطي الخطبة، فيفردها بخطبة.

٢- أن تكون قصيرة جدًّا وفوائدها ليست كثيرة، وهذه لا بد أن يعضدها بمثيلاتها من القصص أو النصوص؛ لأنه لو اعتمدها كما هي فسيضطر لإطالة المقدمة والخاتمة ليغطي قصر الخطبة، أو يكثر من الكلام الإنشائي الذي لا فائدة منه، أو يعمد إلىٰ التكرار واللت والعجن في الخطبة، وكل هذه مفسدات للخطبة، وتصيب السامع بالملل والامتعاض.

• **أقسام القصة من جهة من عرضت له:**

الأول: قصصه ﷺ عن الأمم السابقة، وخاصة قصص بني إسرائيل؛ لأنها الأكثر في حديثه ﷺ، ومنها: قصة الخضر(٢٥)، وقصة البغي أو الرجل الذي سقىٰ الكلب(٢٦)، وقصة جريج العابد(٢٧)، وغيرها كثير في السنة النبوية.

ولعل سبب كثرة حكاية النبي ﷺ قصص بني إسرائيل: قربهم من البعثة النبوية زمانًا ومكانًا؛ فاليهود كانوا في المدينة، والنصارىٰ كانوا في الجزيرة ومن بعض القبائل العربية وفي الشام، والنبي ﷺ بُعث علىٰ حين فترة من الرسل، وبُعث قبله جملة من أنبياء بني إسرائيل؛ ولأن بني إسرائيل حفظوا بعض كتبهم فإذا حدثهم بقصص يعرفونها دل ذلك علىٰ صدق النبي ﷺ؛ ولما في حكايتها من تأليف بني إسرائيل علىٰ الإسلام؛ فإنه عليه الصلاة والسلام إذا حدث بقصص سابقيهم كان ذلك أدعىٰ لقبولهم الإسلام لولا الحسد الذي امتلأت به قلوب

---

(٢٥) رواها البخاري (٧٤).

(٢٦) رواها البخاري (١٧٣-٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٤-٢٢٤٥).

(٢٧) رواها البخاري (١٢٦٠)، ومسلم (٢٥٥٠).

أحبارهم ورهبانهم، فأضلوا بحسدهم العامة منهم.

الثاني: قصص وقعت للنبي ﷺ، وهي علىٰ نوعين:

١- ما وقع قبل البعثة؛ كحادثة شق الصدر، وإرضاعه في بني سعد، وتحكيمه في بناء الكعبة، ونحوها. وفيها أحوال طفولته وصباه عليه الصلاة والسلام والكرامات التي يراها الناس منه، مع عفته وأمانته وأخلاقه الكريمة عليه الصلاة والسلام.

٢- قصصه بعد البعثة، وهي كثيرة جدًّا، سواء قصصه الخاصة به كقصة فتور الوحي، وحادثة الإسراء والمعراج، أو قصصه مع آل بيته رضي الله عنهم، كقصصه مع نسائه -رضي الله عنهن-، ومنها حديث الإفك، وخبر إيلائه من نسائه، وأيضًا خبر تخييرهن بينه وبين الدنيا، أو مع أصحابه كقصة هجرته، وقصته مع أبي بكر في الغار، وقصة جوعه يوم الخندق واستضافة جابر رضي الله عنه له.

وقصصه مع المشركين واليهود والمنافقين، وهي كثيرة جدًّا.

الثالث: قصص وقعت في العصر النبوي للصحابة رضي الله عنهم كقصة كعب بن مالك في تبوك، وقصة تميم الداري مع الدجال، ونحوها.

الرابع: قصص المنام: كحديث: «**رأيتُ رَبِّي** ...»[٢٨]، وحديث: «**هَلْ رأَىٰ أحَدٌ منْكُمْ مِنْ رُؤْيا**»[٢٩].

الخامس: القصص التمثيلية: ومنها «**مَثَلُ القَائِمِ في حُدُودِ اللَّهِ والوَاقِعِ فِيهَا** ...»[٣٠]، وحديث: «**إنَّما مَثَلُكُمْ ومَثَلُ اليَهُودِ والنَّصَارىٰ كَرَجُلٍ اسْتَأْجَرَ**

(٢٨) رواه الدارمي (٢١٩٥)، ومسلم (٢٥٥٠).
(٢٩) رواه البخاري (٧٠٤٧).
(٣٠) رواه البخاري (٢٤٩٣).

عُمَّالًا . . .»[٣١]، وحديث: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ مِنَ الهُدَىٰ . . .**»[٣٢].

السادس: قصص المستقبل، مثل أخبار الدجال والدابة ويأجوج ومأجوج والملاحم، وقصص يوم القيامة، وآخر من يدخل الجنة.

وينبغي للخطيب في اختياره لقصة من القصص النبوي لتكون موضوع خطبته مراعاة ما يلي:

أولًا: التأكد من صحة القصة المختارة، وقد سبق أن أشبعت هذه القضية في موضوع (استدلال الخطيب بالسنة)، وموضوع (الخطبة بحديث من السنة) فليراجعهما من أراد الاستزادة.

ثانيًا: نقل القصة من المصدر الأصلي لها، وعدم الاعتماد علىٰ المصادر التي نقلت عن الأصل؛ لزيادة التوثيق، والسلامة من الخطأ والتحريف والتصحيف.

ثالثًا: جمع روايات القصة، سواء عن الصحابي نفسه أو عن غيره من الصحابة، فقد يكون فيها زيادات مهمة تزيد القصة وضوحًا، وتشبعها معنىٰ وأثرًا.

ويجب علىٰ الخطيب كما استوثق من ثبوت أصل القصة أن يستوثق من ثبوت الروايات الأخرىٰ للقصة؛ لأنه ليست كل زيادة صحيحة، بل قد تكون شاذة أو ضعيفة أو منكرة، وقد تعارض القصة الأصل مما يؤدي إلىٰ التناقض والتشويش علىٰ الناس.

رابعًا: يختار من روايات القصة أصحها وأتمَّها، فإن وجدت عنده رواية اتفق

(٣١) رواه البخاري (٣٤٥٩).

(٣٢) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

الحُفَّاظ أو الشيخان عليها، وواحدة انفرد بها أحد الحفاظ دون غيره، أو خرجها أحد الشيخين، فليعتمد الرواية التي عليها أكثر الحفاظ أو المتفق عليها؛ لأنها أقوىٰ وأبعد عن الغلط.

فإن كانت الرواية الأصح مختصرة، والأقل صحة أتم منها، فلا شك أن اعتماد الرواية الأتم فيه فائدة أكثر، لكن بشرط أن تكون صحيحة ولا تخالف الرواية المختصرة فتكون شاذة، ولو جمع بينهما فجعل الرواية الأقوىٰ هي الأصل، ثم أعقبها بالرواية الأتم منها لكان محققًا للغايتين؛ إذ يعلم الناس أن الرواية المختصرة هي الأقوىٰ، والثانية هي الأتم.

وسياقه للرواية التامة للقصة يريحه أثناء إضافته للزيادات الصحيحة عليها من الروايات الأخرىٰ؛ إذ في الغالب أن الزيادات تكون قليلة لتمام الرواية التي ساقها، وهذا يكون أشدَّ بناء للقصة، وأَنْظَمَ لسياقها، وأقل تشويشًا علىٰ السامع فينسجم مع القصة النبوية.



العقيدة

٢٠٣- حقوق النبي ﷺ علينا (١) وجوب محبته

١٣/ ٣/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ للَّهِ؛ هَدَانَا صِرَاطَهُ المُسْتَقِيمَ، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِبَعْثَةِ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، أَحْمَدُهُ عَدَدَ مَا خَلَقَ، وَمِلْءَ مَا خَلَقَ، وَأَشْكُرُهُ عَدَدَ مَا أَحْصَىٰ كِتَابُهُ، وَمِلْءَ مَا أَحْصَىٰ كِتَابُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَنْصَحُ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وَأَتْقَاهُمْ للَّهِ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ أُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ، الأَنْصَارِ مِنْهُمْ وَالمُهَاجِرِينَ، وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَىٰ، وَاسْتَمْسِكُوا بِالعُرْوَةِ الوُثْقَىٰ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ رَاجِعُونَ، وَعَلَىٰ أَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ مُحَاسَبُونَ، فَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ الحِسَابِ، وَزِنُوا أَعْمَالَكُمْ قَبْلَ المِيزَانِ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: اخْتَارَ اللهُ تَعَالَىٰ لِهَذِهِ الأُمَّةِ أَفْضَلَ رُسُلِهِ، وَاخْتَارَ لَهُ مِنَ الأَسْمَاءِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ الحَمْدِ وَالثَّنَاءِ، فَسَمَّاهُ مُحَمَّدًا، فَهُوَ ﷺ مَحْمُودٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، مَحْمُودٌ عِنْدَ مَلَائِكَتِهِ، مَحْمُودٌ عِنْدَ إِخْوَانِهِ المُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَحْمُودٌ عِنْدَ أَهْلِ الأَرْضِ كُلِّهِمْ، وَإِنْ كَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمْ؛ لِأَنَّ صِفَاتِهِ مَحْمُودَةٌ عِنْدَ

كُلِّ ذِي عَقلٍ وَإِنْ كَابَرَ وَجحَدَ؛ فَصدَقَ عَلَيْهِ وَصْفُهُ نَفْسَهُ حِينَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَم يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، بِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ، تَحْتَهُ آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ**» رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ[(١)].

أَغَاثَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ البَشَرِيَّةَ المُتَخَبِّطَةَ فِي ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ وَالجَهْلِ وَالخُرَافَةِ، فَكَشَفَ بِهِ الظُّلْمَةَ، وَأَذْهَبَ الغُمَّةَ، وَأَصْلَحَ الأُمَّةَ، فَهُوَ الإِمَامُ المُطْلَقُ فِي الهُدَىٰ لِأَوَّلِ بَنِي آدَمَ وَآخِرِهِمْ.

هَدَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَعَلَّمَ بِهِ مِنَ الجَهَالَةِ، وَأَرْشَدَ بِهِ مِنَ الغَوَايَةِ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَكَثَّرَ بِهِ بَعْدَ القِلَّةِ، وَأَعَزَّ بِهِ بَعْدَ الذِّلَّةِ، وَأَغْنَىٰ بِهِ بَعْدَ العَيْلَةِ. عَرَّفَ النَّاسَ رَبَّهُمْ وَمَعْبُودَهُمْ غَايَةَ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَنَالَهُ قُوَاهُمْ مِنَ المَعْرِفَةِ، وَلَمْ يَدَعْ لِأُمَّتِهِ حَاجَةً فِي هَذَا التَّعْرِيفِ، لَا إِلَىٰ مَنْ قَبْلَهُ، وَلَا إِلَىٰ مَنْ بَعْدَهُ، بَلْ كَفَاهُمْ وَشَفَاهُمْ، وَأَغْنَاهُمْ عَنْ كُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذَا البَابِ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وَعَرَّفَهُمُ الطَّرِيقَ المُوصِلَةَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانِهِ، وَدَارِ كَرَامَتِهِ، وَلَمْ يَدَعْ ﷺ حَسَنًا إِلَّا أَمَرَ بِهِ، وَلَا قَبِيحًا إِلَّا نَهَىٰ عَنْهُ[(٢)].

---

(١) أخرجه من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه: أبو يعلىٰ (٧٤٩٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٧٩٣)، والضياء في المختارة (٤٢٨)، وصححه ابن حبان (٦٤٧٨)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ١٠٠-١٠١)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٤)، وله شواهد منها:

أ- حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: مسلم (٢٢٧٨).

ب- حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند: أحمد (٣/ ٢)، والترمذي (٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨).

ج- حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند: أبي يعلىٰ (٢٣٢٨).

(٢) بتصرف يسير من حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال، إصدار: المنتدىٰ الإسلامي (٦١-٦٢).

وَعَرَّفَهُمْ حَالَهُمْ بَعْدَ القُدُومِ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَتَّمَ تَعْرِيفٍ؛ فَكَشَفَ الأَمْرَ وَأَوْضَحَهُ، وَلَمْ يَدَعْ بَابًا مِنَ العِلْمِ النَّافِعِ لِلْعِبَادِ المُقَرِّبِ لَهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَّا فَتَحَهُ، وَلَا مُشْكِلًا إِلَّا بَيَّنَهُ وَشَرَحَهُ، حَتَّىٰ هَدَىٰ بِهِ القُلُوبَ مِنْ ضَلَالِهَا، وَشَفَاهَا بِهِ مِنْ أَسْقَامِهَا، وَأَغَاثَهَا بِهِ مِنْ جَهْلِهَا، فَأَيُّ بَشَرٍ أَحَقُّ بِأَنْ يُحَبَّ؟ جَزَاهُ اللهُ عَنَّا وَعَنْ أُمَّتِهِ أَجْمَعِينَ أَفْضَلَ الجَزَاءِ(٣).

مَحَبَّتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَاجِبَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ؛ إِذْ هِيَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَكَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ تَعَالَىٰ وَهُوَ لَا يُحِبُّ خَلِيلَهُ وَصَفِيَّهُ مِنَ العَالَمِينَ: مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

إِنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ أَعْظَمِ وَاجِبَاتِ الْإِيمَانِ، وَأَكْبَرِ أُصُولِهِ، وَأَجَلِّ قَوَاعِدِهِ، بَلْ هِيَ أَصْلُ كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الإِيمَانِ وَالدِّينِ، كَمَا أَنَّ التَّصْدِيقَ أَصْلُ كُلِّ قَوْلٍ مِنْ أَقْوَالِ الإِيمَانِ وَالدِّينِ(٤).

دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ نُصُوصُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِ الأُمَّةُ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، فَالآيَةُ نَصٌّ عَلَىٰ أَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَمَحَبَّةَ رَسُولِهِ ﷺ يَجِبُ أَنْ تُقَدَّمَ عَلَىٰ كُلِّ مَحْبُوبٍ مَهْمَا كَانَ(٥).

قَالَ القَاضِي عِيَاضٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «كَفَىٰ بِهَذَا حَضًّا وَتَنْبِيهًا، وَدَلَالَةً وَحُجَّةً عَلَىٰ إِلْزَامِ مَحَبَّتِهِ، وَوُجُوبِ فَرْضِهَا، وَعِظَمِ خَطَرِهَا، وَاسْتِحْقَاقِهِ لَهَا ﷺ؛

---

(٣) المصدر السابق (٦٢).

(٤) ينظر: التحفة العراقية لشيخ الإسلام (٥٩)، ومجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٤٨-٤٩).

(٥) ينظر: تفسير القرطبي (٨/ ٩٥)، وحقوق النبي ﷺ علىٰ أمته في ضوء الكتاب والسنة للدكتور: محمد بن خليفه التميمي (٢٤٦).

إِذْ قَرَّعَ اللهُ مَنْ كَانَ مَالُهُ وَأَهْلُهُ وَوَلَدُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، ثُمَّ فَسَّقَهُمْ بِتَمَامِ الآيَةِ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُمْ مِمَّنْ ضَلَّ وَلَمْ يَهْدِهِ اللهُ تَعَالَىٰ»(٦).

وَهَذِهِ المَحَبَّةُ العَظِيمَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَازِمُهَا أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْلَىٰ بِالمُؤْمِنِ مِنْ أَيِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ مَهْمَا كَانَ قُرْبُهُ مِنْهُ وَمَحَبَّتُهُ لَهُ، بَلْ هُوَ ﷺ أَوْلَىٰ بِالمُؤْمِنِ مِنْ نَفْسِهِ الَّتِي يُحِبُّهَا أَعْظَمَ المَحَبَّةِ، وَيُقَدِّمُهَا عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، رَوَىٰ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾**»(٧).

وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَنَا أَوْلَىٰ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ**»(٨).

إِنَّ المَحَبَّةَ الكَامِلَةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ الَّتِي يَنْجُو بِهَا العَبْدُ مِنَ العَذَابِ، وَيَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا النَّعِيمَ؛ يَجِبُ أَنْ تَتَجَاوَزَ مَحَبَّةَ المُؤْمِنِ لِنَفْسِهِ، وَتَتَخَطَّىٰ مَحَبَّتَهُ لِوَالِدَيْهِ وَأَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ وَأَمْوَالِهِ.

فَفِي شَأْنِ تَقْدِيمِ مَحَبَّتِهِ ﷺ عَلَىٰ مَحَبَّةِ الأُمِّ وَالأَبِ، وَالزَّوْجَةِ وَالوَلَدِ، وَكُلِّ

(٦) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ (٢/ ٥٦٣).

(٧) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] (٤٥٠٣)، وأحمد (٢/ ٣٣٤)، والبيهقي (٦/ ٢٣٨).

(٨) أخرجه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء، باب في أرزاق الذرية (٢٩٥٦)، والنسائي في الجنائز، باب الصلاة علىٰ من عليه دين (٤/ ٦٥)، وأحمد (٣/ ٢٩٦)، وعبد بن حميد (١٠٨)، وأبو يعلىٰ (٢١١١).
وجاء نحوه عن أبي هريرة والبراء بن عازب وزيد بن أرقم والمقدام الكندي رضي الله عنهم.

مَحْبُوبٍ سِوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ: حَدِيثُ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «**لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»(٩).

وَفِي شَأْنِ تَقْدِيمِ مَحَبَّتِهِ عَلَىٰ مَحَبَّةِ النَّفْسِ: رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بنِ هِشَامٍ رضي الله عنه قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **الآنَ يَا عُمَرُ**»(١٠) أَي: الآنَ عَرَفْتَ فَنَطَقْتَ بِمَا يَجِبُ(١١).

وَإِذَا حَقَّقَ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَاسْتَوْلَتْ مَحَبَّتُهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ فَقَدَّمَهُ عَلَىٰ كُلِّ مَحْبُوبٍ؛ قَطَفَ ثَمَرَةَ ذَلِكَ بِحَلَاوَةٍ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ، وَأُنْسٍ كَبِيرٍ يَجْتَاحُ نَفْسَهُ، لَا يَنَالُهُ بِجَاهٍ، وَلَا يَشْتَرِيهِ بِمَالٍ، وَلَا يَتَحَصَّلُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ إِلَّا بِاسْتِيلَاءِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عَلَىٰ قَلْبِهِ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ**

---

(٩) أخرجه البخاري في الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥)، ومسلم في الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين (٤٤)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٧٤٤)، وابن ماجه في المقدمة، باب في الإيمان (٦٧)، والدارمي (٢٧٤١)، وأحمد (٣/ ١٧٧)، وأبو يعلىٰ (٣٠٤٩).

(١٠) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٢٥٧)، وأحمد (٤/ ٢٣٣)، والبزار (٣٤٥٩)، ووهم الحاكم فاستدركه (٣/ ٥١٦).

(١١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٥٢٨).

إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٢).

وَبِهَذِهِ المَحَبَّةِ الخَالِصَةِ لِلرَّسُولِ ﷺ يَنَالُ العَبْدُ شَفَاعَتَهُ، وَيُحْشَرُ فِي زُمْرَتِهِ، وَيُرَافِقُهُ فِي الجَنَّةِ؛ كَمَا رَوَىٰ أَنَسٌ رضي الله عنه فَقَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَىٰ السَّاعَةُ؟ قَالَ: **وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ؟** قَالَ: حُبَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: **فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**، قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: **فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»، قَالَ أَنَسٌ: «فَأَنَا أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ(١٣).

وَلَا يَظُنَّنَّ ظَانٌّ أَنَّ هَذِهِ المَحَبَّةَ لَا يُحَقِّقُهَا إِلَّا الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم، أَوْ أَهْلُ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ، فَيَيْأَسُ مِنْ تَحْقِيقِهَا، وَيُقَصِّرُ فِي تَحْصِيلِهَا؛ فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ فِي أَهْلِ الصَّدْرِ الأَوَّلِ مِنَ الإِسْلَامِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي غَيْرِهِمْ، فَإِنَّ أَفْرَادًا مِنْ مُتَأَخِّرِي هَذِهِ الأُمَّةِ يُحَقِّقُونَهَا، وَيُقَدِّمُونَ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَمَحَبَّةَ رَسُولِهِ ﷺ عَلَىٰ كُلِّ مَحَبَّةٍ، وَوَدُّوا لَوْ فَدَوُا النَّبِيَّ ﷺ بِأَرْوَاحِهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رُؤْيَتَهُ بِأَهْلِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؛ كَمَا رَوَىٰ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا: نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ أَعْطَىٰ أَهْلَهُ وَمَالَهُ وَأَنَّهُ رَآنِي**»(١٤).

---

(١٢) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

(١٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب ما جاء في قول الرجل: ويلك (٥٨١٥)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٢٦٣٩) واللفظ لمسلم.

(١٤) أخرجه مسلم واللفظ له، في الجنة ونعيمها وأهلها، باب فيمن يود رؤية النبي ﷺ بأهله =

فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ، وَأَنْ يَمْلأَ قُلُوبَنَا مَحَبَّةً للَّهِ تَعَالَىٰ، وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَلِمَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، آمِينَ يَا رَبَّ العَالَمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: مَحَبَّةُ النَّبِيِّ ﷺ قُرْبَةٌ وَعِبَادَةٌ يَتَقَرَّبُ بِهَا المُؤْمِنُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَالعِبَادَةُ الَّتِي أَرَادَهَا اللهُ تَعَالَىٰ وَيُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا مِنَ العَبْدِ هِيَ مَا ابْتُغِيَ بِهِ

= وماله (٢٨٣٢)، وأحمد (٢/ ٤١٧)، وابن حبان (٧٢٣١)، ووهم الحاكم فاستدركه (٤/ ٩٥). والرواية الثانية لأحمد من حديث أبي ذر ﷺ (٥/ ١٥٦)، والبغوي في شرح السنة (٣٨٤٣).

قال المناوي في فيض القدير (٦/ ٩): «يعني: يتمنىٰ أحدهم أن يكون مفديا بأهله لو اتفقت رؤيتهم إياه، ووصولهم إليه»، ثم نقل عن الطيبي قوله: «(لو) هنا كما في قوله تعالىٰ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ لا بد لقوله: (يود) من مفعول، فـ(لو) مع ما بعده نزل منزلته، كأنه قيل: يود أحدهم ويحب ما لا يلزم، قوله: لو رآني بأهله؛ أي: يفديني بأهله وماله ليراني» اهـ

وَجْهُهُ ﷻ، وَكَانَتْ عَلَىٰ الصِّفَةِ الَّتِي شَرَعَهَا فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، وَعَلَىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ ﷺ؛ فَعِمَادُهَا الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَمُتَابَعَةُ رَسُولِهِ ﷺ.

فَأَمَّا الإِخْلَاصُ فِي الأَعْمَالِ، وَابْتِغَاءُ وَجْهِ اللَّهِ بِهَا فَهُوَ مُقْتَضَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهَا لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ ﷻ(١٥).

وَأَمَّا مُتَابَعَةُ النَّبِيِّ ﷺ فَهِيَ مُقْتَضَىٰ الشَّهَادَةِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَلَازِمٌ مِنْ لَوَازِمِهَا؛ إِذْ مَعْنَىٰ الشَّهَادَةِ لَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا: «طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَىٰ وَزَجَرَ، وَأَنْ لَا يُعْبَدَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَّا بِمَا شَرَعَ ﷺ»(١٦). فَمَنْ حَقَّقَ ذَلِكَ فَقَدْ حَقَّقَ كَمَالَ المَحَبَّةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَكَمَالَ تَعْظِيمِهِ، وَغَايَةَ تَوْقِيرِهِ. وَأَيُّ تَعْظِيمٍ أَوْ تَوْقِيرٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَدَىٰ مَنْ شَكَّ فِي خَبَرِهِ، أَوِ اسْتَنْكَفَ عَنْ طَاعَتِهِ، أَوِ ارْتَكَبَ مُخَالَفَتَهُ، أَوِ ابْتَدَعَ فِي دِينِهِ، وَعَبَدَ اللهَ تَعَالَىٰ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِهِ؟!

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ ضَلُّوا فِي هَذَا البَابِ يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَىٰ بِمَحْضِ أَهْوَائِهِمْ، وَيُعَبِّرُونَ عَنْ حُبِّهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ بِمَا لَا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ، وَمِنْ ذَلِكَ: مَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي هَذَا الزَّمَنِ مِنَ الاِحْتِفَالِ بِالمُنَاسَبَاتِ النَّبَوِيَّةِ: المَوْلِدِ، وَالإِسْرَاءِ، وَالهِجْرَةِ، وَنَحْوِهَا، وَجَعْلِ الأَيَّامِ المُوَافِقَةِ لَهَا مِنْ كُلِّ عَامٍ مَوْسِمًا وَعِيدًا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ لِتَذَاكُرِ أَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتِلَاوَةِ سِيرَتِهِ، وَإِلْقَاءِ القَصَائِدِ فِي مَدِيحِهِ وَإِطْرَائِهِ، عَلَىٰ نَحْوٍ يُخَالِفُ سُنَّتَهُ الَّتِي جَاءَ فِيهَا قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ**

---

(١٥) حقوق النبي ﷺ بين الإجلال والإخلال (٦٩).

(١٦) مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١/ ١٩٠).

فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(١٧).

وَقَدْ أَمَرَنَا ﷺ بِلُزُومِ سُنَّتِهِ، وَاتِّخَاذِ طَرِيقَتِهِ وَطَرِيقَةِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَوْصَانَا بِذَلِكَ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»** رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٨).

وَلَا يَشُكُّ كُلُّ مُطَّلِعٍ عَلَىٰ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، قَارِئٍ لِسِيرَتِهِ، وَسِيرَةِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِهِ .. لَا يَشُكُّ فِي أَنَّ هَذِهِ الاحْتِفَالَاتِ بِمَوْلِدِهِ أَوْ إِسْرَائِهِ أَوْ هِجْرَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُحْدَثَةٌ بَعْدَ زَمَنِهِ وَزَمَنِ خُلَفَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ ﵃، وَفِيهَا مِنَ المُخَالَفَةِ لِسُنَّتِهِ وَسِيرَتِهِ مَا فِيهَا، وَإِنْ رَأَىٰ أَصْحَابُهَا خِلَافَ ذَلِكَ جَهْلًا مِنْهُمْ أَوْ هَوًىٰ، وَلَوْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ حَقِيقَةً فَإِنَّهُمْ قَدْ أَخْطَئُوا الطَّرِيقَ فِي تَعْبِيرِهِمْ عَنْ هَذِهِ المَحَبَّةِ، وَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ اتِّبَاعُ سُنَّتِهِ ﷺ، وَاجْتِنَابُ مَا أَحْدَثَهُ النَّاسُ عَنْ جَهْلٍ أَوْ هَوًىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِذَلِكَ . . .

---

(١٧) أخرجه من حديث عمر ﵁: البخاري في الأنبياء باب ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (٣٢٦١)، والدارمي (٢٧٨٤)، وأحمد (١/ ٢٣)، وأبو يعلى (١٥٣)، وابن حبان (٤١٤)، والطيالسي (٢٤) من حديث عمر بن الخطاب ﵁.

(١٨) أخرجه من حديث العرباض بن سارية ﵁: أبو داود في السنة باب لزوم السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم باب (١٦)، وقال: حسن صحيح (٢٦٧٨)، وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (٤٣)، والدارمي (٩٥)، وأحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧).

٢٠٤- حقوق النبي ﷺ علينا (٢) وجوب نصرته

٢٧/ ١٢/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْنَا خَاتَمَ رُسُلِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ أَفْضَلَ كُتُبِهِ، وَشَرَّعَ لَنَا خَيْرَ الشَّرَائِعِ، وَكَلَّفَنَا بِأَيْسَرِ التَّكَالِيفِ؛ فَضْلًا مِنْهُ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الْحَجّ: ٧٥-٧٦]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، فَفَتَحَ بِهِ قُلُوبًا غُلْفًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَأَعْيُنًا عُمْيًا، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ، وَأَحَبُّوهُ وَعَظَّمُوهُ، وَبَذَلُوا كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ نَفْسٍ وَنَفِيسٍ فِدَاءً لَهُ وَلِدِينِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ، وَاتَّقُوهُ يَدْرَأْ عَنْكُمْ تَسَلُّطَ أَعْدَائِكُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: فَضْلُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَىٰ الْبَشَرِ عَظِيمٌ، وَحَقُّهُمْ عَلَيْهِم كَبِيرٌ، إِذْ هُمُ الْمِنَّةُ الْكُبْرَىٰ، وَالْهِدَايَةُ الْعُظْمَىٰ الَّتِي بِهَا عَرَفُوا اللهَ تَعَالَىٰ، وَاسْتَبَانُوا الطَّرِيقَ إِلَيْهِ، وَكُلُّ سَعَادَةٍ أَبَدِيَّةٍ كُتِبَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ فَهُمْ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِهَا. دَعَوْا إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ سِرًّا وَجِهَارًا، وَنَصَحُوا لِلْعِبَادِ لَيْلًا وَنَهَارًا. بَشَّرُوا، وَأَنْذَرُوا، وَرَغَّبُوا

وَرَهَّبُوا، وَصَبَرُوا عَلَىٰ اسْتِكْبَارِ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَصُدُودِ الْمُمْتَنِعِينَ، وَاسْتِهْزَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ، وَأَذَىٰ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. مَا وَطِئَ الْأَرْضَ أَقْدَامٌ خَيْرٌ مِنْ أَقْدَامِهِمْ، وَلَا كَانَ فِي الْخَلْقِ أَحَدٌ أَنْصَحَ لِلْبَشَرِ مِنْهُمْ، هُمُ الرَّحْمَةُ الَّتِي رَحِمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا الْعِبَادَ فَأَخْرَجَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَمِنَ الذُّلِّ إِلَىٰ الْعِزِّ، وَمِنَ الشَّقَاءِ الْأَبَدِيِّ إِلَىٰ السَّعَادَةِ الْخَالِدَةِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ١٠٧].

فَكَانَ حَقًّا عَلَىٰ الْبَشَرِ مَحَبَّتُهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَاتِّبَاعُهُمْ وَتَوْقِيرُهُمْ وَنُصْرَتُهُمْ، وَالِاعْتِرَافُ بِفَضْلِهِمْ، وَحِفْظُ مَكَانَتِهِمْ، وَإِنْزَالُهُمْ مَنَازِلَهُمْ، فَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ الْأَطْهَارُ، الْمُصْطَفَوْنَ الْأَخْيَارُ، يَجِبُ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِهِمْ. وَالْكُفْرُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ كُفْرٌ بِهِمْ كُلِّهِمْ، لِأَنَّ مُرْسِلَهُمْ وَاحِدٌ جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَدِينَهُمْ كَذَلِكَ وَاحِدٌ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحْلِ: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٢٥].

وَأَتْبَاعُهُمْ لَيْسُوا مَنِ انْتَسَبُوا إِلَيْهِمْ مَعَ كُفْرِهِمْ بِبَعْضِ مَا جَاءُوا بِهِ، كَمَا كَفَرَ الْيَهُودُ بِبَعْضِ دِينِ مُوسَىٰ ﷺ، وَكَمَا كَفَرَ النَّصَارَىٰ بِبَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ عِيسَىٰ ﷺ، وَقَدْ ذَمَّهُمُ اللَّهُ ﷻ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَسَمَّاهُمْ كُفَّارًا رَغْمَ أَنَّهُمْ يَنْتَسِبُونَ لِمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﷺ، فَقَالَ فِيهِمْ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النِّسَاء: ١٥٠-١٥١].

وَلَكِنَّ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ هُمْ مَنْ آمَنُوا بِهِمْ، وَدَانُوا بِدِينِهِمْ، وَعَمِلُوا بِشَرَائِعِهِمْ، وَلَمْ

يَنْتَقُوا مَا يَهْوَوْنَ، أَوْ يُنْكِرُوا مَا لَا يَشْتَهُونَ، بَلْ قَالُوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨٥]، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨٤] فَأَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ بِإِيمَانِهِمْ، وَبِاتِّبَاعِهِمْ لِرُسُلِهِمْ فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِيهِمْ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٥٢].

وَلَا يُوجَدُ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَنْ يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ مُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ سِوَىٰ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِنُبُوَّتِهِمْ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ خَاتِمَتِهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَمَّا بَقِيَّةُ أُمَمِ الْأَرْضِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَدْيَانِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ فَكُفَّارٌ بِكُلِّ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، وَلَوْ كَانُوا هُمْ أَهْلَ الْكَثْرَةِ وَالْقُوَّةِ؛ فَإِنَّ الْكَثْرَةَ وَالْقُوَّةَ لَا تَدُلَّانِ عَلَىٰ الْحَقِّ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الْأَنْعَام: ١١٦].

وَكَانَ أَكْثَرُ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ فِي كُلِّ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ ضُعَفَاءَ النَّاسِ وَمَسَاكِينَهُمْ، كَمَا قَالَ هِرَقْلُ الرُّومِ فِي أَسْئِلَتِهِ لِأَبِي سُفْيَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ ...، قَالَ هِرَقْلُ: وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ»[1]، فَالْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَوْلَىٰ بِكُلِّ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ كُلِّ أُمَمِ الْأَرْضِ الَّتِي تُكَذِّبُهُمْ وَتَكْفُرُ بِهِمْ وَبِمَا جَاءُوا بِهِ.

وَإِذَا انْتُهِكَ عِرْضُ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ سَخِرَ الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ بِهِ وَجَبَ عَلَىٰ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ -وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ- أَنْ يَنْتَصِرُوا لَهُ، وَأَنْ يَذُبُّوا عَنْ عِرْضِهِ، وَأَنْ يَدْفَعُوا قَالَةَ السُّوءِ فِيهِ، وَأَنْ يُعَاقِبُوا الْمُعْتَدِيَ أَشَدَّ الْعِقَابِ؛ لِأَنَّ

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهم: البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي لرسول الله ﷺ (٧).

ذَلِكَ مِنْ مُحَتِّمَاتِ إِيمَانِهِمْ، وَوَاجِبَاتِ دِينِهِمْ، وَلَا يُرْتَجَىٰ مِنْ أَحَدٍ أَنْ يَنْتَصِرَ لِرُسُلِ اللَّهِ ﷺ سِوَىٰ الْمُسْلِمِينَ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتِ السُّخْرِيَةُ وَالطَّعْنُ قَدْ طَالَتْ أَفْضَلَ الْبَشَرِ، وَخَاتَمَ الرُّسُلِ، وَسَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ مُحَمَّدًا ﷺ، عَلَىٰ يَدِ مَلَاحِدَةِ الْغَرْبِ فِي رُسُومٍ سَاخِرَةٍ، وَمَقَالَاتٍ كَاذِبَةٍ مُتَنَقِّصَةٍ، تَفْتَرِي عَلَىٰ سَيِّدِ الْبَشَرِ، وَتَطْعَنُ فِي أَفْضَلِ الرُّسُلِ(٢)، وَلَهُ عَلَيْنَا مِنَ الْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ مَا لَا نُحْصِيهِ، فَمَا عَسَانَا أَنْ نَفْعَلَ

---

(٢) هذا إشارة لما فعلته صحيفة (بيو لاندز بوستن) الدانماركية؛ إذ أراد مؤلف كتب أطفال دانماركي أن يضع على غلاف كتابه صورة للرسول ﷺ، ورفض رسام الكاريكاتير المكلف بإعداد الغلاف رسم هذه الصورة، فقرر المؤلف إقامة مسابقة لرسم الرسول ﷺ، فتقدم لها (١٢) رسامًا كاريكاتيريًا أرسلوا (١٢) صورة مسيئة للرسول ﷺ، ومن ثم قامت الصحيفة المذكورة آنفًا -وهي تابعة للحزب الحاكم- بنشرها يوم الثلاثاء ٢٦ شعبان ١٤٢٦هـ/ ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٥، وحاول المسلمون في الدانمارك والبالغ عددهم (٢٠٠) ألف الاحتجاج على هذه الإساءة، وذلك عن طريق رفع مذكرة إلى الحكومة الدانماركية، إلا أن الجواب كان هو الرفض، وإصرار الحكومة على دعم حملة الهجوم تحت مسمى (حرية التعبير)، بل كان الموقف الحكومي الدانماركي أكثر شراسة برفض المدعي العام تلبية طلب الجالية الإسلامية برفع دعوى قضائية ضد الصحيفة بتهمة انتهاك مشاعر أكثر من مليار مسلم في العالم، وقال المدعي العام الدانماركي: إن القانون الذي يستخدم لتوجيه تهم بسبب انتهاك حرمة الأديان لا يمكن استخدامه ضد الصحيفة، والعداء للإسلام والمسلمين في الدانمرك بدأ يعلن به ويظهر؛ وذلك بتعبئة الناس ضد الإسلام على كافة المستويات بدءًا بتصريح ملكة الدانمرك (مارجريت الثانية) الذي قالت فيه: (إن الإسلام يمثل تهديدًا على المستويين العالمي والمحلي)، وحثت حكومتها على (عدم إظهار التسامح تجاه الأقلية المسلمة)، ومرورًا بمواقع الإنترنت التي يطلقها دانماركيون أفرادًا ومؤسسات خاصة، تحذر من السائقين المسلمين، بدعوى أنهم: إرهابيون وقتلة، وانتهاء بالحملة العامة في الصحف ومحطة التلفاز العامة التي أعلنت الحرب ضد الإسلام والمسلمين رغم ثقل المسلمين هناك؛ إذ الإسلام هو الديانة الثانية في الدانمارك بعد النصرانية البروتستانتية.

وانتقلت عدوى الاستهزاء بالنبي ﷺ إلى النرويج؛ إذ انبرت مجلة نرويجية هذه المرة لإعادة نفس الإساءة، بدعوى ما أسمته حرية التعبير.

إذ اختارت المجلة المسيحية «ماغازينت» إعادة نشر الرسوم الآنف ذكرها المزعومة =

وَنَحْنُ نَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٧] فَعَلَّقَ سُبْحَانَهُ الْفَلَاحَ بِالنُّصْرَةِ فَمَنْ لَمْ يَنْصُرْهُ فَلَيْسَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ. وَإِذَا كَانَتْ نُصْرَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَاجِبَةً بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الْأَنْفَال: ٧٢]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**»، فَكَيْفَ بِنُصْرَةِ أَفْضَلِ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِي هَدَانَا اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ إِلَىٰ الْإِيمَانِ، وَأَخْرَجَنَا بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ؟!

وَهَكَذَا فَعَلَ الْمُسْلِمُونَ طَوَالَ تَارِيخِهِمْ، فَدَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِأَجْسَادِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ حَيًّا، وَذَبُّوا عَنْ عِرْضِهِ مَيِّتًا، وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ غَزِيرَةٌ.

هَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه يَنَامُ لَيْلَةَ الْهِجْرَةِ فِي فِرَاشِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ تَآمَرَ الْمُشْرِكُونَ عَلَىٰ قَتْلِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَيُخَاطِرُ عَلِيٌّ رضي الله عنه بِنَفْسِهِ دُونَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[٣].

وَفِي غَزْوَةِ بَدْرٍ انْبَرَىٰ فَتَيَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ لِلِانْتِقَامِ مِنْ أَبِي جَهْلٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَشْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَيُؤْذِيهِ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رضي الله عنه: «يَا عَمُّ

= للنبي محمد عليه الصلاة والسلام في أول أيام عيد الأضحى المبارك، في توقيت مقصود لإهانة المسلمين في أكبر أعيادهم الشرعية.

ووجدت هذه المجلة النصرانية كامل الدعم والتأييد من أمين عام رابطة الصحفيين النرويجيين (بيرادغار كوكفولد) الذي رأى أن إعادة نشر الرسومات يعد مؤشرًا صحيًّا على مبدأ حرية التعبير في البلاد، ويرفع من سقف الحريات العامة.

ورأت شريحة من مسلمي النرويج أن تصرف المجلة ينطوي على محاولة للحصول على السمعة والشهرة، كما أكد رئيس العلاقات الخارجية بالرابطة الإسلامية في النرويج (باسم غزلان) أن هدف الصحيفة هو الشهرة؛ لأنها غير معروفة وتوزع أعدادًا ضئيلة جدًّا في العاصمة (أوسلو) وتفتقر إلى القراء والمشتركين.

(٣) ينظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٨)، والمنتظم (٣/ ٤٧)، والبداية والنهاية (٣/ ١٧٧).

هَلْ تَعرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّىٰ يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا، فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ . . . فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَىٰ أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، قُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي. فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا، فَضَرَبَاهُ حَتَّىٰ قَتَلَاهُ»(٤).

وَفِي غَزْوَةِ أُحُدٍ لَمَّا دَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ، وَأَحَاطَ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ انْحَنَىٰ أَبُو دُجَانَةَ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَ مِنْ ظَهْرِهِ تُرْسًا يَحْمِي بِهِ النَّبِيَّ ﷺ مَنْ نِبَالِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ امْتَلأَ ظَهْرُهُ سِهَامًا(٥)! لَا مَسَّتِ النَّارُ ظَهْرَهُ.

وَهَذَا زَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ رضي الله عنه أَسَرَهُ الْمُشْرِكُونَ وَأَخْرَجُوهُ مِنَ الْحَرَمِ لِقَتْلِهِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ حِينَ قُدِّمَ لِيُقْتَلَ: «أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ يَا زَيْدُ: أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا الْآنَ عِنْدَنَا مَكَانَكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ وَإِنَّكَ فِي أَهْلِكَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا الْآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ وَإِنِّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا»(٦).

وَرَجُلٌ أَعْمَىٰ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم يَنْتَصِرُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَيَقْتُلُ أُمَّ أَوْلَادِهِ بِسَبَبِ وُقُوعِهَا فِيهِ، وَشَتْمِهَا لَهُ، كَمَا رَوَىٰ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ أَعْمَىٰ كَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ وَتَقَعُ فِيهِ، فَيَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي، وَيَزْجُرُهَا فَلَا تَنْزَجِرُ، قَالَ: فَلَمَّا

(٤) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب، ومن قتل قتيلا فله سلبه من غير أن يخمس، وحكم الإمام فيه (٣١٤١)، ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل (١٧٥٢).

(٥) أخرجه ابن هشام في السيرة (٣/ ١١٨)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٣٤).

(٦) أخرجه ابن هشام في السيرة (٤/ ١٢٦)، والطبري في تاريخه (٢/ ٧٨)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٢٩٩٩)، وهو في البداية والنهاية (٤/ ٦٥).

كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ جَعلَتْ تقَعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَتَشْتُمُهُ فَأَخَذَ الْمِغْوَلَ فَوَضَعَهُ فِي بَطْنِهَا وَاتَّكَأَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا، فَوَقَعَ بَيْنَ رِجْلَيْهَا طِفْلٌ، فَلَطَخَتْ مَا هُنَاكَ بِالدَّمِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَمَعَ النَّاسَ فَقَالَ: **أَنْشُدُ اللهَ رَجُلًا فَعَلَ مَا فَعَلَ لِي عَلَيْهِ حَقٌّ إِلَّا قَامَ.** فَقَامَ الْأَعْمَىٰ يَتَخَطَّىٰ النَّاسَ وَهُوَ يَتَزَلْزَلُ حَتَّىٰ قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا صَاحِبُهَا، كَانَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَنْهَاهَا فَلَا تَنْتَهِي، وَأَزْجُرُهَا فَلَا تَنْزَجِرُ، وَلِي مِنْهَا ابْنَانِ مِثْلُ اللُّؤْلُؤَتَيْنِ، وَكَانَتْ بِي رَفِيقَةً، فَلَمَّا كَانَتِ الْبَارِحَةَ جَعَلَتْ تَشْتُمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَخَذْتُ الْمِغْوَلَ فَوَضَعْتُهُ فِي بَطْنِهَا وَاتَّكَأْتُ عَلَيْهَا حَتَّىٰ قَتَلْتُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَلَا اشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٧].

وَإِذَا تَجَاوَزْنَا عَصْرَ الصَّحَابَةِ ﷺ فَإِنَّنَا نَجِدُ الْمُسْلِمِينَ قَدِ انْتَصَرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ عَبْرَ الْقُرُونِ، وَدَرَأُوا عَنْهُ أَذَىٰ الْمُؤْذِينَ، وَطَعْنَ الطَّاعِنِينَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُرْتَدِّينَ، وَالْحَوَادِثُ فِي ذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ.

وَفِي الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ أَسَرَ المَلِكُ الصَّلِيبِيُّ أَرْنَاطُ جَمْعًا مِنَ الْحُجَّاجِ وَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَآذَاهُمْ وَسَلَبَهُمْ وَتَنَقَّصَ الرَّسُولَ ﷺ، وَقَدَّمَهُمْ لِلْقَتْلِ وَهُوَ يَقُولُ: أَيْنَ مُحَمَّدُكُمْ؟ دَعُوهُ يَنْصُرْكُمْ! فَبَلَغَ ذَلِكَ صَلَاحَ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- فَغَضِبَ لِذَلِكَ أَشَدَّ الْغَضَبِ، وَحَلَفَ بِاللَّهِ لَيَقْتُلَنَّ المَلِكَ أَرْنَاطَ بِيَدِهِ لِتَنَقُّصِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَلِغَدْرِهِ بِالْمُسْلِمِينَ، فَهَيَّأَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ الْأَسْبَابَ لِلْبِرِّ بِقَسَمِهِ، فَكَانَ هَذَا المَلِكُ الْمُسْتَكْبِرُ مِنْ ضِمْنِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ أَسَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ

---

(٧) أخرجه أبو داود في الحدود، باب الحكم فيمن سب النبي ﷺ (٤٣٦١)، والنسائي في تحريم الدم، باب الحكم فيمن سب النبي ﷺ (٧/ ١٠٧)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٥١) رقم (١١٩٨٤)، والدارقطني (٣٩/ ١١٢)، والبيهقي (١٠/ ١٣١)، وصححه الحاكم وقال: على شرط مسلم (٤/ ٣٩٤).

فِي مَوْقِعَةِ حِطِّينَ، فَأَمَّنَ صَلَاحُ الدِّينِ سَائِرَ الْمُلُوكِ سِوَاهُ، وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ أَرْنَاطَ حَتَّىٰ أَقَامُوهُ أَمَامَهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ، وَدَعَاهُ لِلْإِسْلَامِ فَامْتَنَعَ، فَذَكَّرَهُ صَلَاحُ الدِّينِ بِشَتْمِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: هَا أَنَا أَنْتَصِرُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ مِنْكَ، فَقَتَلَهُ(٨).

وَفِي عَصْرِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- وَقَعَ نَصْرَانِيٌّ يُدْعَىٰ عَسَّافًا فِي عِرْضِ النَّبِيِّ ﷺ وَشَتَمَهُ، فَأَرَادَ النَّاسُ الِانْتِصَارَ مِنْهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَجَارَ عَسَّافٌ هَذَا بِأَحَدِ شُيُوخِ الْأَعْرَابِ، فَأَجَارَهُ وَحَمَاهُ مِنَ النَّاسِ، فَسَارَ الشَّيْخَانِ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَزَيْنُ الدِّينِ الْفَارِقِيُّ إِلَىٰ الْأَمِيرِ عِزِّ الدِّينِ أَيْبَكَ الْحَمَوِيِّ نَائِبِ السَّلْطَنَةِ فَكَلَّمَاهُ فِي أَمْرِهِ، فَأَرْسَلَ لِيُحْضِرَهُ، فَخَرَجَ الشَّيْخَانِ مِنْ عِنْدِهِ وَمَعَهُمَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَرَأَوْا عَسَّافًا حِينَ قَدِمَ وَمَعَهُ الْأَعْرَابِيُّ الَّذِي أَجَارَهُ، فَلَمْ يُطِيقُوا أَنْ يَرَوْا شَاتِمَ نَبِيِّهِمْ ﷺ فَسَبُّوهُ وَشَتَمُوهُ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ، يَعْنِي: النَّصْرَانِيَّ، فَرَجَمَهُمَا النَّاسُ بِالْحِجَارَةِ، فَأَصَابَتْ عَسَّافًا إِصَابَةً بَالِغَةً، فَأَرْسَلَ الْأَمِيرُ إِلَىٰ الشَّيْخَيْنِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَالْفَارِقِيِّ فَضَرَبَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَجَنَهُمَا، وَأَحْضَرَ النَّصْرَانِيَّ فَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَزَعَمَ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشُّهُودِ عَدَاوَةً فَحَقَنَ دَمَهُ لِأَجْلِ ذَلِكَ، وَهَرَبَ النَّصْرَانِيُّ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الشَّامِ إِلَىٰ الْحِجَازِ، فَلَحِقَ بِهِ ابْنُ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ قَرِيبًا مِنْ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَبِسَبَبِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ صَنَّفَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ كِتَابَهُ الْعَظِيمَ: «الصَّارِمُ الْمَسْلُولُ عَلَىٰ شَاتِمِ الرَّسُولِ»(٩)، وَقَرَّرَ فِيهِ إِجْمَاعَ الْأُمَّةِ عَلَىٰ قَتْلِ مَنْ تَنَقَّصَ الرَّسُولَ ﷺ(١٠).

---

(٨) انظر خبر ذلك في: الروضتين في أخبار الدولتين (٣/ ٢٩٧)، والأنس الجليل (١/ ٣٢٢)، والنجوم الزاهرة (٦/ ٣٤).

(٩) انظر خبر ذلك في: البداية والنهاية (١٣/ ٣٣٥-٣٣٦)، والوافي بالوفيات (٢٠/ ٧٣)

(١٠) قال شيخ الإسلام في الصارم المسلول (٩-١٠): «من سب النبي ﷺ من مسلم أو كافر فإنه يجب قتله. هذا مذهب عليه عامة أهل العلم، قال ابن المنذر: «أجمع عوام أهل =

. . . .

= العلم على أن حد من سب النبي ﷺ القتل» وممن قاله مالك والليث وأحمد وإسحاق، وهو مذهب الشافعي، قال: «وحكي عن النعمان: لا يقتل» يعني الذي هم عليه من الشرك أعظم، وقد حكى أبو بكر الفارسي من أصحاب الشافعي إجماع المسلمين على أن حد من يسب النبي ﷺ القتل، كما أن حد من سب غيره الجلد، وهذا الإجماع الذي حكاه هذا محمول على إجماع الصدر الأول من الصحابة والتابعين، أو أنه أراد به إجماعهم على أن ساب النبي ﷺ يجب قتله إذا كان مسلمًا، وكذلك قيده القاضي عياض فقال: «أجمعت الأمة على قتل متنقصه من المسلمين وسابه»، وكذلك حكي عن غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره، وقال الإمام إسحاق بن راهويه أحد الأئمة الأعلام: «أجمع المسلمون على أن من سب الله أو سب رسوله ﷺ، أو دفع شيئًا مما أنزل الله ﷻ، أو قتل نبيًّا من أنبياء الله ﷺ أنه كافر بذلك، وإن كان مقرا بكل ما أنزل الله»، قال الخطابي: «لا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف في وجوب قتله»، وقال محمد بن سحنون: «أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ المتنقص له كافر، والوعيد جار عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر».

وتحرير القول فيه: أن الساب إن كان مسلما فإنه يكفر ويقتل بغير خلاف، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم، وقد تقدم ممن حكى الإجماع على ذلك إسحاق بن راهويه وغيره. وإن كان ذميا فإنه يقتل أيضا في مذهب مالك وأهل المدينة، وسيأتي حكاية ألفاظهم، وهو مذهب أحمد وفقهاء الحديث. وقد نص أحمد على ذلك في مواضع متعددة قال حنبل: «سمعت أبا عبد الله يقول: كل من شتم النبي ﷺ أو تنقصه مسلمًا كان أو كافرًا فعليه القتل، وأرى أن يقتل ولا يستتاب»، قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: «كل من نقض العهد وأحدث في الإسلام حدثا مثل هذا رأيت عليه القتل ليس على هذا أعطوا العهد والذمة»، وكذلك قال أبو الصفراء: «سألت أبا عبد الله عن رجل من أهل الذمة شتم النبي ماذا عليه؟ قال: إذا قامت عليه البينة يقتل من شتم النبي ﷺ مسلمًا كان أو كافرًا» رواهما الخلال.

وقال القاضي عياض: «جميع من سب النبي ﷺ أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله، أو عرض به، أو شبهه بشيء على طريق السب له والإزراء عليه أو البغض منه والعيب له فهو ساب له، والحكم فيه حكم الساب: يقتل ولا نستثن فصلا من فصول هذا الباب عن هذا المقصد، ولا تمتر فيه تصريحًا كان أو تلويحًا، وكذلك من لعنه أو تمنى مضرة له أو دعا عليه أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق =

وَنُقِلَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَوْلُهُ: «مَنْ شَتَمَ النَّبِيَّ ﷺ، أَوْ تَنَقَّصَهُ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا فَعَلَيْهِ الْقَتْلُ»[١١].

ثُمَّ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «أَمَّا سَبُّ الرَّسُولِ وَالطَّعْنُ فِي الدِّينِ وَنَحْوُ ذَلِكَ، فَهُوَ مِمَّا يَضُرُّ الْمُسْلِمِينَ ضَرَرًا يَفُوقُ ضَرَرَ قَتْلِ النَّفْسِ وَأَخْذِ الْمَالِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ؛ فَإِنَّهُ لَا أَبْلَغَ فِي إِسْفَالِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَإِذْلَالِ كِتَابِ اللَّهِ، وَإِهَانَةِ كِتَابِ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُظْهِرَ الْكَافِرُ الْمُعَاهَدُ السَّبَّ وَالشَّتْمَ لِمَنْ جَاءَ بِالْكِتَابِ»[١٢].

هَكَذَا كَانَ حَالُ أَسْلَافِنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ؛ نُصْرَةً لَهُ وَدِفَاعًا عَنْهُ، وَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ سَارُوا سِيرَةَ أَسْلَافِهِمْ؛ فَانْتَفَضُوا لَمَّا تَنَقَّصَ بَعْضُ مَلَاحِدَةِ الْغَرْبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَظَهَرَ التَّعْبِيرُ عَنْ ذَلِكَ بِوَسَائِلَ شَتَّىٰ مِنَ الِاعْتِرَاضِ وَالِاسْتِنْكَارِ، وَاسْتِدْعَاءِ السُّفَرَاءِ، وَتَخْصِيصِ الْبَرَامِجِ الْإِعْلَامِيَّةِ لِذَلِكَ، وَالدَّعْوَةِ إِلَىٰ مُقَاطَعَةِ بَضَائِعِ تِلْكَ الدَّوْلَةِ الْمُلْحِدَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُثِيبَ كُلَّ مَنْ غَضِبَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ لَمَّا انْتُهِكَتْ حُرْمَةُ

= الذم أو عيبه في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور، أو عيره بشيء مما يجري من البلاء والمحنة عليه أو غمضه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه قال: هذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن أصحابه، وهلم جرا» الشفاء (٢/ ١٨٨)، وعنه ابن تيمية في الصارم المسلول (٥٢٦).

وقال شيخ الإسلام: «وقد أجمع العلماء كما حكاه من يرجع إليه على أن كل مسلم صدر منه سب الرسول أو تنقيصه وجب قتله ويحكم بكفره وردته عن دين الإسلام، على ذلك دلت نصوص من السنة والكتاب وحكم جماعة من المتقدمين من: أنه يقتل من غير استتابة كما نص العلماء أيضًا أن التعريض بسبه أو تنقيصه كالصريح» الرد على البكري (٢/ ٦٨٣)

(١١) أخرجه الخلال في أحكام أهل الملل (٧٢٤).

(١٢) الصارم المسلول (٢٤٩).

رَسُولِهِ ﷺ، وَأَنْ يَحْشُرَهُمْ فِي زُمْرَتِهِ، وَأَنْ يُورِدَهُمْ حَوْضَهُ، وَأَنْ يَسْقِيَهُمْ مِنْهُ شَرْبَةً لَا ظَمَأَ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَأَنْ يُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ مَعَهُ. آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَنَرْجُو أَنْ نَكُونَ مِمَّنْ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٣).

كَمَا أَسْأَلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَنْتَقِمَ مِمَّنْ تَنَقَّصَ خَاتَمَ رُسُلِهِ، أَوْ أَعَانَ عَلَىٰ ذَلِكَ، أَوْ رَضِيَهُ، أَوْ دَافَعَ عَمَّنْ فَعَلَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَهُمْ عِبْرَةً لِمَنْ خَلْفَهُمْ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

رَضِينَا بِاللَّهِ تَعَالَىٰ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَنُشْهِدُ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [**الأَحْزَاب**: ٧٠-٧١].

---

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في صفة الجنة ونعيمها وأهلها، باب فيمن يود رؤية النبي ﷺ بأهله وماله (٢٨٣٢).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: حُقُوقُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْنَا عَظِيمَةٌ، وَمَهْمَا عَمِلْنَا لِنُصْرَتِهِ فَإِنَّنَا لَا نُوَفِّيهِ حَقَّهُ، وَلَنْ نَرُدَّ بِذَلِكَ إِلَّا بَعْضَ مَا لَهُ عَلَيْنَا، فَهُوَ الَّذِي بِهِ عَرَفْنَا رَبَّنَا، وَتَعَلَّمْنَا أُمُورَ دِينِنَا، وَمَا مِنْ خَيْرٍ نَفْعَلُهُ إِلَّا وَهُوَ مَنْ دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا مِنْ شَرٍّ نَحْذَرُهُ إِلَّا وَهُوَ مَنْ حَذَّرَنَا مِنْهُ، وَمَنْ كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ الْجَنَّةَ وَأَنْجَاهُ مِنَ النَّارِ، فَإِنَّمَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَنُجِّيَ مِنَ النَّارِ بِسَبَبِ اتِّبَاعِهِ ﷺ. فَهَلْ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِهِ يَجْزِيهِ جَزَاءَهُ، أَوْ يَفِيهِ حَقَّهُ مَهْمَا قَدَّمَ لِأَجْلِهِ، وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٤].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْأَنْصَارِ: «**أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَمُتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُمُ اللهُ بِي؟** وَيَقُولُونَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ»(١٤).

وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهَا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٥).

فَجَزَاهُ اللهُ عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ مَا جَزَىٰ نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَلْنَعْلَمْ أَنَّنَا مَهْمَا قَدَّمْنَا لِنُصْرَتِهِ مِنْ مَقَالَةٍ نَكْتُبُهَا، أَوْ حَقِيقَةٍ نُبْرِزُهَا، أَوْ سِيرَةٍ نَتْلُوهَا أَوْ نُتَرْجِمُهَا،

---

(١٤) أخرجه من حديث عبدالله بن زيد رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف (٤٠٦٩)، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه (١٠٦١).

(١٥) أخرجه البخاري في الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي (٦١١٨)، ومسلم في الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٢٢٨٤).

أَوْ دَعْوَىٰ نُبْطِلُهَا، أَوْ رِسَالَةٍ نُرْسِلُهَا، أَوْ بِضَاعَةٍ نُقَاطِعُهَا فَهِيَ أَقَلُّ مَا يَجِبُ عَلَيْنَا نُصْرَةً لِنَبِيِّنَا ﷺ.

وَأَمَّا أُولَئِكَ المَلَاحِدَةُ الَّذِينَ طَعَنُوا فِيهِ فَهُمْ فِي سُفُولٍ وَخُسْرَانٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا وَيُؤْمِنُوا، فَمَا انْتَقَصَ أَحَدٌ رَسُولَهُ ﷺ ثُمَّ سَلِمَ مِنَ الْعُقُوبَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: لَا يَظُنَّنَّ ظَانٌّ أَنَّ هَذَا الْحَدَثَ فَرْدِيٌّ أَوْ أَنَّهُ قَلَمُ عَابِثٍ، أَوْ فِعْلُ سَاخِرٍ؛ بَلْ -وَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِهِ- إِنَّهُ لَبَعْضُ الْبَغْضَاءِ الَّتِي بَدَتْ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ.

إِنَّ الَّذِي أَغَاظَ الْأَعْدَاءَ مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَىٰ وَمَلَاحِدَةٍ مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ مُقَدَّسٌ دِينِيٌّ لَا يَخْضَعُ لِلنَّقْدِ وَالْأَخْذِ وَالرَّدِّ عِنْدَ كُلِّ الْأُمَمِ سِوَىٰ الْمُسْلِمِينَ، فَعِنْدَهُمْ كِتَابُ اللَّهِ ﷻ وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَوْقَ كُلِّ نَقْدٍ، وَلِذَا فَهُمْ يَسْعَوْنَ جَاهِدِينَ لِتَحْطِيمِ هَذَا الْمُقَدَّسِ وَرُمُوزِهِ بِكُلِّ مَا أُوتُوا مِنْ قُوَّةٍ؛ لِيَتَمَكَّنُوا مِنْ إِفْسَادِ الْمُسْلِمِينَ وَعَلْمَنَتِهِمْ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ عَائِقٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يُرِيدُونَ، وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ صَرَّحَ بِهَا رَئِيسُ تَحْرِيرِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي أَسَاءَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ إِذْ اسْتَغْرَبَ مِنْ هَذِهِ الْحُرْمَةِ وَالْقُدْسِيَّةِ الَّتِي لَا تُوجَدُ إِلَّا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، وَخَتَمَ قَوْلَهُ بِأَنَّهُ يَسْعَدُ لَوْ أَزَالَ ذَلِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ! وَسَيَبْقَىٰ لِعَدُوِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا يَسُوءُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ، فَاللهُ تَعَالَىٰ حَافِظٌ دِينَهُ، مُعْلٍ كَلِمَتَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.

وَقَدْ دَنَّسَ إِخْوَانُهُ مِنْ قَبْلُ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَوَصَفُوا رَسُولَهُ ﷺ بِأَبْشَعِ الْأَوْصَافِ، وَمِنَ الْمُتَوَقَّعِ أَنْ تَسْتَمِرَّ هَذِهِ السِّلْسِلَةُ مِنَ الْهَجَمَاتِ عَلَىٰ مُقَدَّسَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا سِيَّمَا إِذَا اخْتَبَرُوا رُدُودَ الْأَفْعَالِ فَرَأَوْهَا ضَعِيفَةً، وَلِذَا لَا بُدَّ مِنْ إِصْرَارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ حِمَايَةِ مُقَدَّسَاتِهِمْ، وَعَدَمِ السَّمَاحِ بِالْمَسَاسِ بِهَا مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ؛ لِيَرْتَدِعَ المَلَاحِدَةُ وَالْمُشْرِكُونَ؛ وَلِيَخْبُوَا صَوْتُ الْمُنَافِقِينَ وَالْجَاهِلِينَ

الَّذِينَ أَزْعَجُوا المُسْلِمِينَ بِكَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ الْآخَرِ، وَزَعَمُوا أَنَّنَا لَا نَفْهَمُهُ، وَنَدَّعِي عَدَاوَتَهُ، فَإِذَا هَذَا الْآخَرُ يَصْفَعُهُمْ بِهَذِهِ الطَّامَّةِ الْكُبْرَىٰ كَمَا صَفَعَهُمْ بِعَظَائِمَ قَبْلَهَا؛ فَلْتُكْسَرْ أَقْلَامُهُمْ، وَلْتَخْرَسْ أَلْسِنَتُهُمْ، وَلْيَعُودُوا إِلَىٰ إِيمَانِهِمْ خَيْرًا لَهُمْ.

وَالْيَهُودُ قَدْ جَعَلُوا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الدَّوْلِيَّةِ الَّتِي لَا يَجُوزُ الْمَسَاسُ بِهَا: مُعَادَاةَ السَّامِيَّةِ، أَوْ نَفْيَ الْمَحَارِقِ النَّازِيَّةِ، وَلَسْنَا بِأَقَلَّ مِنَ الْيَهُودِ، وَلَا ابْتِزَازُهُمْ لِلْعَالَمِ بِأَكْرَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ كَرَامَةِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَنَا.

إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَىٰ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ يُرِيدُونَ أَنْ يَصِيرَ حَالُ الْمُسْلِمِينَ حَالَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةِ فِي قَوَانِينِهِمْ وَأَنْظِمَتِهِمْ، يَطْعَنُونَ فِي جَلَالِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَفِي مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ عليهم السلام فَلَا يُحَاكَمُونَ؛ لِأَنَّ الْقَانُونَ الطَّاغُوتِيَّ يَحْمِي حُرِّيَّةَ الرَّأْيِ، فَهَلْ مَنْ يَدْعُونَ إِلَىٰ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ يُرِيدُونَ ذَلِكَ، أَمْ هُمْ جَاهِلُونَ لَا يَعْرِفُونَ لَوَازِمَ دَعَوَاتِهِمْ وَمَآلَاتِهَا؟

وَلْنَعْلَمْ أَنَّ كُلَّ دَاعٍ إِلَىٰ حُرِّيَّةِ الْكَلِمَةِ وَإِفْلَاتِهَا مِنَ الْقُيُودِ الشَّرْعِيَّةِ فَإِنَّمَا هُوَ يُعَبِّدُ الطَّرِيقَ لِلطَّاعِنِينَ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَفِي كُلِّ مُعَظَّمٍ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ، مُقَدَّسٍ عِنْدَهُمْ، فَهُوَ الْعَدُوُّ الَّذِي يَجِبُ الْحَذَرُ وَالتَّحْذِيرُ مِنْهُ، وَالْأَخْذُ عَلَىٰ يَدِهِ؛ لِئَلَّا يُعْتَدَىٰ بِسَبَبِهِ عَلَىٰ رَبِّنَا وَدِينِنَا وَقُرْآنِنَا وَرَسُولِنَا ﷺ.

حَفِظَ اللهُ تَعَالَىٰ الْمُسْلِمِينَ بِحِفْظِهِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ، وَكَفَاهُمْ شَرَّ أَعْدَائِهِمْ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ....

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ ...

❁ ❁ ❁

٢٠٥- حقوق النبي ﷺ علينا (٣) وجوب طاعته

٤/ ١/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ هِدَايَةً لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، فَسُبْحَانَهُ مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ، وَإِلَهٍ عَظِيمٍ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ نَصَبَ الْأَدِلَّةَ عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَأَعْذَرَ الْمُكَلَّفِينَ مِنْ عِبَادِهِ، لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَاهِرَةُ فِي خَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَيَّدَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَأَمَدَّهُ بِجُنْدِهِ، وَأَظْهَرَهُ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَآوَوْهُ، وَفَدَوْهُ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ، وَالْجَئُوا إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَسِيرٍ، وَلُوذُوا بِهِ فِي كُلِّ عَظِيمٍ؛ فَإِنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشُّورَىٰ: ٢٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِالْمُكَلَّفِينَ: أَنْ دَلَّهُمْ عَلَىٰ الطَّرِيقِ إِلَيْهِ، فَأَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَأَوْجَبَ عَلَىٰ الْعِبَادِ طَاعَتَهُمْ؛ فَهُمْ وَسَائِطُ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، يَصْدُرُونَ عَنْهُ، وَيَتَلَقَّوْنَ وَحْيَهُ، وَيُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُسْأَلُونَ عَنْ بَلَاغِهِمْ، وَيُسْأَلُ الْعِبَادُ عَنْ إِجَابَتِهِمْ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ﴾ [المَائِدَة: ١٠٩]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ

إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٦].

وَسَتَشْهَدُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ سَائِرِ الْأُمَمِ أَنَّ الرُّسُلَ بَلَّغَتْهَا الرِّسَالَاتِ، وَهَذَا مَعْنَىٰ كَوْنِهِمْ شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ؛ كَمَا رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ شُهُودُكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُجَاءُ بِكُمْ فَتَشْهَدُونَ**، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ **قَالَ: عَدْلًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**»، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ وَابْنِ مَاجَهْ: «**يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيُدْعَىٰ قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُقَالُ: وَمَا عِلْمُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيُّنَا فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا**»(١).

وَالْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ وَطَاعَتُهُمْ، وَاتِّبَاعُ دِينِهِمْ، وَالْتِزَامُ شَرَائِعِهِمْ هُوَ الْغَايَةُ مِنْ إِرْسَالِهِمْ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النِّسَاء: ٦٤] وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نُوح: ٣].

وَلَمَّا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ آخِرَ الرُّسُلِ وَخَاتَمَهُمْ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَجَبَ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ أَنْ يُصَدِّقَهَا، وَيَتَّبِعَهُ فِيهَا، وَإِلَّا كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَلِأَنْبِيَائِهِ كُلِّهِمْ وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِبَعْضِهِمْ كَمَا هُوَ حَالُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ بَعْدَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ (٦٩١٧)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٠٠٧)، وابن ماجه في الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٤٨).

وَلِذَا سُمُّوا كُفَّارًا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِرِسَالَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَمَا كَفَرُوا بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ عليهما السلام مِنَ الْبِشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَقُرِنُوا فِي الْقُرْآنِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَوُصِفُوا بِأَنَّهُمْ شَرُّ الْخَلِيقَةِ، وَكَانَتِ النَّارُ مَأْوَاهُمْ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [الْبَيِّنَة: ٦]، وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَإِنَّمَا كَانَ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ وَاجِبًا، وَطَاعَتُهُ فَرْضًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النَّجم: ٤]، فَكُلُّ مَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ وَحْيًا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ، أَوْ فِعْلًا فَعَلَهُ فَأَقَرَّهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ فَكَانَ وَحْيًا، وَلَمَّا طَلَبَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ تَبْدِيلَ الْقُرْآنِ كَانَ خِطَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَهُ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يُونُس: ١٥]، وَتَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا التَّأْكِيدُ عَلَىٰ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٤٥]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ﴾ [سَبَأ: ٥٠].

وَتَضَافَرَتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ عَلَىٰ إِيجَابِ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ وَطَاعَتِهِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مُخَالَفَتِهِ، وَجَعْلِ طَاعَتِهِ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَىٰ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ [النِّسَاء: ٨٠]، وَمُبَايَعَتِهِ مُبَايَعَةً لِلَّهِ تَعَالَىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ [الْفَتْح: ١٠]، وَقَرَنَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ اسْمِهِ وَاسْمِهِ فِي الْمَحَبَّةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التَّوْبَة: ٢٤]، وَفِي الطَّاعَةِ:

---

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام (١٥٣).

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ﴾ [الْفَتْح: ١٧]، وَفِي الْمَعْصِيَةِ: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الْجِنّ: ٢٣]، وَفِي الرِّضَا: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التَّوْبَة: ٦٢]، وَفِي الْإِيذَاءِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الْأَحْزَاب: ٥٧][٣].

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «نَظَرْتُ فِي الْمُصْحَفِ فَوَجَدْتُ طَاعَةَ الرَّسُولِ ﷺ فِي ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ مَوْضِعًا ثُمَّ جَعَلَ يَتْلُو ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣]، وَجَعَلَ يُكَرِّرُهَا وَيَقُولُ: وَمَا الْفِتْنَةُ؟ ثُمَّ يُجِيبُ فَيَقُولُ: الْكُفْرُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩١] فَيَدَعُونَ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَتَغْلِبُهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ إِلَىٰ الرَّأْيِ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ، فَيَزِيغَ قَلْبُهُ فَيُهْلِكَهُ» اهـ[٤].

وَالْأَمْرُ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ فِي الْقُرْآنِ جَاءَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَبِصِيَغٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَعَلَىٰ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَتَارَةً يُقْرَنُ بَيْنَ طَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ بِأَمْرٍ وَاحِدٍ وَفِعْلٍ وَاحِدٍ ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٣٢]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الْأَنْفَال: ٢٠]، فَعَطَفَ طَاعَةَ الرَّسُولِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، وَلَمْ يُكَرِّرِ الْفِعْلَ؛ إِعْلَامًا بِأَنَّ طَاعَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا بِطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ.

وَتَارَةً أُخْرَىٰ يَأْمُرُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ فَيُكَرِّرُ الْأَمْرَ وَالْفِعْلَ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النِّسَاء: ٥٩]، وَفِي الْمَائِدَةِ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ [الْمَائِدَة: ٩٢]،

---

(٣) ينظر: مجموع فتاوىٰ ابن تيمية (١/ ٦٨).

(٤) ينظر: الصارم المسلول (٢/ ١١٦)، وتيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (٤٨٣).

وَفِي النُّورِ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النُّور: ٥٤]، وَفِي الْقِتَالِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٣٣]، وَكُلُّ هَذِهِ الآيَاتِ وَأَمْثِلَتُهَا تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ تَجِبُ اسْتِقْلَالًا، فَلَوْ أَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَمْرٍ لَا وُجُودَ لَهُ فِي الْقُرْآنِ وَجَبَ طَاعَتُهُ فِيهِ؛ لِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ فِي مَنْزِلَةِ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ جِهَةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَوُجُوبِ الْأَخْذِ بِهِ، كَيْفَ؟ وَهُوَ الْقَائِلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَانًا عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ؛ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ(٥).

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَأَمَرَ تَعَالَىٰ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَأَعَادَ الْفِعْلَ؛ إِعْلَامًا بِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ تَجِبُ اسْتِقْلَالًا مِنْ غَيْرِ عَرْضِ مَا أَمَرَ بِهِ عَلَىٰ الْكِتَابِ، بَلْ إِذَا أَمَرَ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ مُطْلَقًا، سَوَاءٌ كَانَ مَا أَمَرَ بِهِ فِي الْكِتَابِ أَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ أُوتِيَ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» اهـ(٦).

وَلَا أَدَلَّ عَلَىٰ تَقْرِيرِ هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ مِنْ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ اسْتِقْلَالًا؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النُّور: ٥٦]، وَفِي هَذِهِ الآيَاتِ وَمَثِيلَاتِهَا رَدٌّ عَلَىٰ مَنِ اسْتَهَانَ بِسُنَّتِهِ، فَقَدَّمَ عَلَيْهَا أَقْوَالَ الْبَشَرِ، أَوْ رَدَّ شَيْئًا مِنْهَا بِدَعْوَىٰ عَدَمِ إِشَارَةِ الْقُرْآنِ إِلَيْهِ؛

(٥) أخرجه من حديث المقداد بن معد يكرب ﵁: أبو داود في السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٤٠)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٨٣) رقم (٦٧٠)، وفي مسند الشاميين (١٠٦١)، ومحمد بن نصر في السنة (٢٤٤-٤٠٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٢٢٩).

(٦) إعلام الموقعين (١/ ٤٨).

كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مِنْ يَقُولُهُ مِمَّنْ تَشَرَّبُوا الْفِتْنَةَ، وَقَضَوْا بِعُقُولِهِمُ الْقَاصِرَةِ عَلَىٰ السُّنَّةِ، فَزَاغُوا فَأَزَاغَ اللهُ تَعَالَىٰ قُلُوبَهُمْ.

وَتَارَةً ثَالِثَةً: يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَىٰ بِاتِّبَاعِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَالتَّأَسِّي بِهِ، وَالْأَخْذِ عَنْهُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٣١]، وَفِي الْأَحْزَابِ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الْأَحْزَاب: ٢١]، وَفِي الْحَشْرِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الْحَشْر: ٧]، وَتَارَةً رَابِعَةً: يَأْمُرُ سُبْحَانَهُ بِالتَّحَاكُمِ إِلَيْهِ، وَقَبُولِ حُكْمِهِ، وَالتَّسْلِيمِ لَهُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٦٥]. وَفِي النُّورِ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النُّور: ٥١]. وَفِي الْأَحْزَابِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الْأَحْزَاب: ٣٦](٧).

فَمَنْ أَحَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَأَرَادَ نُصْرَتَهُ؛ فَلْيَمْتَثِلْ أَمْرَهُ، وَلْيَجْتَنِبْ نَهْيَهُ، وَلْيَلْتَزِمْ سُنَّتَهُ، وَلْيَرْضَ بِالتَّحَاكُمِ إِلَىٰ شَرِيعَتِهِ وَلَوْ كَانَ الْحُكْمُ مُخَالِفًا لِهَوَاهُ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَكُونُ كَامِلَ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَالْأَحْكَامِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٥٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

---

(٧) ينظر: حقوق النبي ﷺ علىٰ أمته في ضوء الكتاب والسنه (١٤٥-١٥٠).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ إِحْسَانِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ تَوْفِيقِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ طَلَبًا لِعَفْوِهِ وَغُفْرَانِهِ، وَنَسْأَلُهُ طَمَعًا فِي ثَوَابِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كَبِيرٌ فِي ذَاتِهِ، عَظِيمٌ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥٥]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، لَا يُحِبُّهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْنَؤُهُ إِلَّا كَافِرٌ أَوْ مُنَافِقٌ، جُمِعَ الْكَمَالُ الْبَشَرِيُّ فِي شَخْصِهِ، وَبَهَرَ الْعَالِمِينَ بِحُسْنِ خُلُقِهِ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَالْتَزِمُوا سُنَّةَ نَبِيِّهِ وَاتَّبِعُوهُ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٣٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اعْتِدَاءَاتُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ عَلَىٰ الرَّسُولِ ﷺ وَعَلَىٰ مَنْ يَدِينُونَ بِدِينِهِ قَدِيمَةٌ قِدَمَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ، وَبَلَاغِ سَيِّدِ الْأَنَامِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَسَتَظَلُّ حَمَلَاتُهُمْ شَدِيدَةَ الْأُوَارِ، عَظِيمَةَ الِاضْطِرَامِ، إِلَىٰ آخِرِ الزَّمَانِ، تَخْبُو تَارَةً لِعَجْزِ الْأَعْدَاءِ أَوْ ضَعْفِهِمْ أَوِ انْشِغَالِهِمْ بِحُرُوبٍ بَيْنَهُمْ، وَلَكِنَّهَا لَا تَلْبَثُ إِلَّا وَتَعُودُ كَرَّةً أُخْرَىٰ أَشَدَّ مَا تَكُونُ.

وَإِنَّ أَعْظَمَ نُصْرَةٍ يُقَدِّمُهَا الْمُسْلِمُ لِرَبِّهِ ﷻ، وَلِدِينِهِ، وَلِنَبِيِّهِ ﷺ هِيَ مَزِيدٌ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالْإِسْلَامِ، وَتَعْظِيمِ شَعَائِرِهِ، وَإِظْهَارِ مَعَالِمِهِ، وَإِبْرَازِ مَحَاسِنِهِ.

إِنَّ الْأَعْدَاءَ مَا شَرِقُوا بِالْإِسْلَامِ، وَلَا نَالُوا مِنْ سَيِّدِ الْأَنَامِ، وَلَا جَيَّشُوا الْجُيُوشَ الْعَسْكَرِيَّةَ، وَلَا حَشَدُوا الْأَبْوَاقَ الْإِعْلَامِيَّةَ، فَدَمَّرُوا مَا دَمَّرُوا، وَاحْتَلُّوا مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مَا احْتَلُّوا، وَنَشَرُوا الشَّهَوَاتِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَذَفُوا الشُّبُهَاتِ بَيْنَهُمْ، وَدَنَّسُوا قُرْآنَهُمْ، وَشَتَمُوا نَبِيَّهُمْ، وَحَاوَلُوا تَزْوِيرَ دِينِهِمْ، وَانْتَدَبُوا

المُحَرِّفِينَ لِهَذِهِ المُهِمَّةِ الْقَذِرَةِ، وَأَعَانُوا كُلَّ ضَالٍّ وَمُبْتَدِعٍ، وَأَيَّدُوا كُلَّ مُنَافِقٍ وَزِنْدِيقٍ، فَبَاءُوا بِفَشَلٍ بَعْدَ فَشَلٍ .. إِنَّهُمْ مَا فَعَلُوا ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَّا لِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ بَقِيَ كَمَا هُوَ غَضًّا طَرِيًّا كَمَا نَزَلَ مُنْذُ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا.

لَقَدْ غَزَوُا المُسْلِمِينَ بِالتَّنْصِيرِ وَالْإِلْحَادِ، وَرَفَعُوا مِنْ شَأْنِ الزَّنَادِقَةِ وَالمُلْحِدِينَ فَمَا أَفْلَحُوا، وَنَشَرُوا أَفْكَارَ مَارْكِس وَلِينِينَ وَسَارْتَرَ وَنِيتْشَهْ وَدِيوِي وَرِيكَارْدَ وَمَالْتُوسْ وَمِيلْ وَعَشَرَاتٍ غَيْرِهِمْ، فَكَانَ لِأَفْكَارِهِمْ بَرِيقٌ اغْتَرَّ بِهِ شَبَابُ المُسْلِمِينَ رَدَحًا مِنَ الزَّمَنِ حَتَّىٰ اطْمَأَنَّ الْأَعْدَاءُ أَنَّ مَوْجَةَ الْإِلْحَادِ قَدْ شَقَّتْ طَرِيقَهَا فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ، وَأَنَّ مَآلَهَا مَآلُ الْغَرْبِ المُلْحِدِ، وَمَا هِيَ إِلَّا سَنَوَاتٌ قَلَائِلُ حَتَّىٰ مَاتَتْ هَذِهِ الْأَفْكَارُ، وَظَهَرَ دِينُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ جَدِيدٍ، وَصَارَ يُهَدِّدُ إِلْحَادَ الْغَرْبِ بِانْتِشَارِ الْإِسْلَامِ بَيْنَ أَفْرَادِهِ، وَلَيْسَتِ النَّصْرَانِيَّةُ المُحَرَّفَةُ قَادِرَةً عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ بَدِيلًا صَالِحًا لِلْإِسْلَامِ، رَغْمَ مَا يُنْفَقُ عَلَىٰ التَّنْصِيرِ مِنْ أَمْوَالٍ ضَخْمَةٍ.

وَإِذْ ذَاكَ ظَهَرَ الْوَجْهُ الْحَقِيقِيُّ لِحُرِّيَّةِ الرَّأْيِ وَالْحُرِّيَّةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي يَتَشَدَّقُ بِهَا الْغَرْبُ، وَيَصِيحُ بِهَا المَفْتُونُونَ بِهِ وَبِشِعَارَاتِهِ الزَّائِفَةِ، فَمَنَعُوا الْحِجَابَ، وَشَوَّهُوا الْإِسْلَامَ، وَوَصَمُوهُ بِالْإِرْهَابِ، وَضَيَّقُوا عَلَىٰ المُسْلِمِينَ، وَاتَّهَمُوهُمْ بِالتُّهَمِ الْبَاطِلَةِ، وَمَا زَادَ هَذَا الْإِرْهَابُ الْغَرْبِيُّ الْإِسْلَامَ إِلَّا قُوَّةً وَانْتِشَارًا.

إِنَّ الإِسْلَامَ هُوَ الدِّينُ الْوَحِيدُ فِي التَّارِيخِ كُلِّهِ الَّذِي اسْتَعْصَىٰ عَلَىٰ مُحَاوَلَاتِ التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ، وَالمَسْخِ وَالتَّحْرِيفِ، وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي لَمْ يَقْبَلِ المُمَاحَكَاتِ وَالمُسَاوَمَاتِ عَلَىٰ شَرِيعَتِهِ وَأَحْكَامِهِ؛ مُنْذُ أَنْ رَفَضَ النَّبِيُّ ﷺ مُسَاوَمَاتِ المُشْرِكِينَ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، وَإِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُبَدَّلُ: أَنْ يَبْقَىٰ الْإِسْلَامُ إِلَىٰ آخِرِ الزَّمَانِ، رَغْمَ أُنُوفِ الْحَاقِدِينَ وَالْكَارِهِينَ.

وَالإِسْلَامُ هُوَ الدِّينُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَكُونُ أَقْوَىٰ مَا يَكُونُ حِينَ يَكُونُ أَتْبَاعُهُ أَضْعَفَ مَا يَكُونُونَ، وَمَنْ رَأَىٰ فِي هَذَا الْعَصْرِ قُوَّةَ الْأَعْدَاءِ وَضَعْفَ الْمُسْلِمِينَ، وَاجْتِمَاعَهُمْ وَتَفَرُّقَ الْمُسْلِمِينَ، مَعَ نَظَرِهِ لِانْتِشَارِ الإِسْلَامِ فِي كُلِّ مَكَانٍ اسْتَبَانَتْ لَهُ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ؛ وَلِذَلِكَ أَعْيَتْهُمُ الْحِيَلُ مَعَ الْإِسْلَامِ.

وَالإِسْلَامُ هُوَ الدِّينُ الَّذِي يُحْيِي أَتْبَاعَهُ نَيْلُ الْأَعْدَاءِ مِنْهُ أَوْ مِنْ شَعَائِرِهِ أَوْ رُمُوزِهِ الْعِظَامِ، وَكَمْ دُنِّسَتْ أَدْيَانٌ وَأَفْكَارٌ أُخْرَىٰ فَمَا رَفَعَ أَتْبَاعُهَا بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَاسِيَّمَا إِنْ كَانُوا ضُعَفَاءَ مُسْتَضَامِينَ، وَحِينَ غَزَا أَبْرَهَةُ الْكَعْبَةَ قَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ سَيِّدُ قُرَيْشٍ: «أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَلِلْبَيْتِ رَبٌّ يَحْمِيهِ»[٨]، وَتَبَدَّلَ الْحَالُ بِالْإِسْلَامِ؛ فَلَا يُنَالُ مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَّا انْتَفَضَ الْمُسْلِمُونَ لِذَلِكَ، وَقَلَبُوا حِسَابَاتِ الْأَعْدَاءِ رَأْسًا عَلَىٰ عَقِبٍ، أَفَنَعْجَبُ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- إِنْ طَفَحَ الْغَيْظُ مِنْ صُدُورِهِمْ فَفَعَلُوا مَا فَعَلُوا؟!

وَإِنَّ أَعْظَمَ شَيْءٍ يُغِيظُهُمْ: إِظْهَارُ سُنَّةِ الْمُصْطَفَىٰ ﷺ؛ مِنْ إِعْفَاءِ اللِّحَىٰ، وَتَقْصِيرِ الثِّيَابِ، وَالْتِزَامِ الْمَرْأَةِ بِالْحِجَابِ، وَتَتَبُّعِ السُّنَنِ النَّبَوِيَّةِ وَتَطْبِيقِهَا، وَالْإِعْلَانِ بِهَا، وَاتِّخَاذِهَا شِعَارًا؛ تَعَبُّدًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَإِغَاظَةً لِأَعْدَائِهِ، وَإِنَّ إِغَاظَتَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَبِتَطْبِيقِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ مِنْ أَوْثَقِ عُرَىٰ الْإِسْلَامِ، فَهُبُّوا يَا أَنْصَارَ مُحَمَّدٍ ﷺ لِنُصْرَتِهِ بِتَطْبِيقِ سُنَّتِهِ، وَاجْتِنَابِ مُخَالَفَتِهِ؛ فَتِلْكَ وَاللَّهِ أَعْظَمُ وَسَائِلِ النُّصْرَةِ.

وَمَنْ لَاحَظَ رُسُومَاتِهِمُ الْفَاجِرَةَ بَانَ لَهُ أَنَّهَا تَرْتَكِزُ عَلَىٰ الِاسْتِهْزَاءِ بِتِلْكَ السُّنَنِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَاتَّخَذَهَا الْمُمْتَثِلُونَ لِسُنَّتِهِ شِعَارًا لَهُمْ،

---

(٨) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٦٨)، وتاريخ الطبري (١/ ٤٤١).

وَهَكَذَا يَفْعَلُ إِخْوَانُهُمُ المُنَافِقُونَ مِنَ الاِسْتِهْزَاءِ بِالسُّنَنِ الظَّاهِرَةِ، فَإِغَاظَتُهُمْ وَهَزِيمَتُهُمْ تَكُونُ بِالمُحَافَظَةِ عَلَيهَا؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَمَحَبَّةً لِلنَّبِيِّ ﷺ[٩].

وَإِنَّ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي انْتَدَبَكُمْ إِلَيْهَا، وَحَضَّكُمْ عَلَيْهَا: صِيَامَ الْعَاشِرِ مِنْ مُحَرَّمٍ، وَمُخَالَفَةَ الْيَهُودِ بِصِيَامِ يَوْمٍ قَبْلَهُ؛ كَمَا رَوَىٰ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فَقَالَ: «قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ فَرَأَىٰ الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: **مَا هَذَا؟** قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّىٰ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَىٰ، قَالَ: **فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَىٰ مِنْكُمْ**. فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَئِنْ بَقِيتُ إِلَىٰ قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ**»[١٠]، وَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ صِيَامَهُ مُكَفِّرٌ لِلذُّنُوبِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١١].

فَصُومُوهُ رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ؛ تَعَبُّدًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَامْتِثَالًا لِسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَطَلَبًا لِلْأَجْرِ والمَثُوبَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ....

---

(٩) الرسوم التي تضمنت الإساءة للنبي ﷺ ركز راسمها علىٰ السخرية باللحية وحجاب المرأة.

(١٠) رواه البخاري في الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (٢٠٠٤)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠)، والرواية الثانية لمسلم في الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء (١١٣٤).

(١١) رواه من حديث أبي قتادة رضي الله عنه: مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس (١١٦٢).

٢٠٦- حقوق النبي ﷺ علينا (٤) وِلاية أتباعه والبراءة من أعدائه

١١/ ١/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي عِبَادِهِ أَنِ ابْتَلَىٰ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً؛ لِيَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلُونَ؟ وَيُحَاسِبَهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وَلَمَّا زَاغَ أَهْلُ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَكَذَّبُوا الْمُرْسَلِينَ؛ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ بِسَبَبِ فِتْنَتِهِمْ، وَاغْتِرَارِهِمْ بِالصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَكَوْنِهِمْ مِنْ ضَعَفَةِ النَّاسِ وَلَيْسُوا مِنْ أَشْرَافِهِمْ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وَهَكَذَا أَهْلُ الْكُفْرِ وَالاسْتِكْبَارِ لَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْحَقِّ بِصَفَائِهِ وَنَقَائِهِ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ حَالِ أَتْبَاعِهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالِاسْتِكَانَةِ، وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِرَدِّهِ وَعَدَمِ قَبُولِهِ. إِنَّهُمْ يُحَاكِمُونَ الْحَقَّ بِمَقَايِيسِهِمُ الْفَاسِدَةِ مِنَ الثَّرَاءِ وَالْجَاهِ وَالْقُوَّةِ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ اللهَ ﷻ يَصْطَفِي رُسُلًا وَأَتْبَاعًا لَهُمْ بِمُوجَبِ هَذَا الْقَانُونِ الْفَاسِدِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ فِي النَّبِيِّ ﷺ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [سورة ص: ٨]، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وَأَخْبَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا.

وَلَوْ شَاءَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ لَسَخَّرَ الْبَشَرَ كُلَّهُمْ لِعِبَادَتِهِ كَمَا كَانَ الْمَلَائِكَةُ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]، وَكَمَا كَانُوا أَيْضًا ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ لَجَعَلَ الدُّنْيَا مَعَ رُسُلِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ ابْتِلَاءَ الرُّسُلِ بِالْعِبَادِ، وَابْتِلَاءَ الْعِبَادِ بِالرُّسُلِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ مُخَاطِبًا خَاتَمَ رُسُلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

إِذَا كَانَتْ تِلْكَ سُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي عِبَادِهِ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ عَلَىٰ فَرِيقَيْنِ: عِبَادٍ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، يَدِينُونَ بِمَا أُنْزِلَ مِنَ الْحَقِّ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ، وَيَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ، وَيَلْقَوْنَ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ. وَالْفَرِيقِ الآخَرِ: عَبِيدٌ لِأَهْوَائِهِمْ وَشَيَاطِينِهِمْ، لَا يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ، وَلَا يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ،

---

(١) رواه من حديث عياض بن حمار ﷺ: مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

وَلا بُدَّ أَنْ يَقَعَ الصِّدَامُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَلَا الْتِقَاءَ بَيْنَهُمَا بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ الْمُوَاءَمَةُ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَيَسْتَحِيلُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا مُؤَاخَاةَ بَيْنَ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ ﷺ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِمْ، بَلْ هِيَ عَدَاوَةٌ ثَابِتَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، وَمَنْ خَرَجَ عَنْ هَذَا الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ الْمُقْتَضِي لِلسُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّهِ، وَالْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ، وَيَنْسَلِخُ مِنْ دِينِهِ، وَلَنْ يُغَيِّرَ مِنَ الْحَقِيقَةِ شَيْئًا ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

وَلِذَا جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ دَاعِيَةً إِلَىٰ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَحَبَّتِهِ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمُوَالَاتِهِ، وَمُوَالَاةِ مَنْ وَالَاهُ، وَمُعَادَاةِ مَنْ عَادَاهُ، وَالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ أَوْ دِينٍ سِوَىٰ دِينِهِ.

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ حُقُوقِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْنَا أَنْ نُوَالِيَ أَوْلِيَاءَهُ، وَنُعَادِيَ أَعْدَاءَهُ، فَمَنْ وَالَاهُ فَهُوَ وَلِيُّنَا، وَمَنْ عَادَاهُ فَهُوَ عَدُوُّنَا ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦].

وَمُوَالَاةُ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَبْدَأَ فِيهَا الْقُرْآنُ وَأَعَادَ، وَأَكَّدَ وُجُوبَهَا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥]، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ حَقَّ الْمُؤْمِنِ عَلَىٰ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يُوَالِيَهُ، فَكَيْفَ بِحَقِّ أَفْضَلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟! فَمَحَبَّتُهُ وَنُصْرَتُهُ، وَتَوَلِّيهِ وَالْوَلَاءُ فِيهِ فَرْضٌ عَلَىٰ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ.

وَمِنْ لَوَازِمِ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَالتَّوَلِّي لِلنَّبِيِّ ﷺ: مُعَادَاةُ مَنِ اسْتَكْبَرَ عَنْ طَاعَتِهِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جَاءَ بِهِ، فَهُوَ عَدُوٌّ لَهُ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ، لَكِنَّهُ قَدْ يَكُونُ عَدُوَّ سِلْمٍ؛ كَمَنْ كَفَّ

أَذَاهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يُعِنْ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ يَكُون حَرْبًا عَلَيْهِمْ.

وَكِلَا الْفَرِيقَيْنِ أَعْدَاءٌ لِلْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْدَاءٌ لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَلِرُسُلِهِ ﷺ، وَمَنْ حَارَبَ مِنْهُمْ حُورِبَ، وَمَنْ سَالَمَ وَخَضَعَ لِسُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ صَالَحَهُمْ قُبِلَ مِنْهُ حَسَبَ مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَنْتَفِي عَدَاوَتُهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُوَالِيَهُ الْمُسْلِمُونَ مَا دَامَ عَلَىٰ الْكُفْرِ، هَذَا هُوَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَهَذَا حُكْمُهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ فِي الْقُرْآنِ، وَإِنْ شَرِقَ بِهِ مَنْ شَرِقَ، وَأَغْضَبَ مَنْ أَغْضَبَ ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وفي المائدة: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وَفِي التَّوْبَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، وَفِي الْمُمْتَحَنَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ سَبَبَ النَّهْيِ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ هُوَ كُفْرُهُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ.

بَلْ إِنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ الْعَظِيمَةَ جَاءَتِ الْمُفَاصَلَةُ فِيهَا بَيْنَ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ، وَالْإِخْوَانِ وَالْقَرَابَةِ وَالْعَشِيرَةِ؛ فَالْأُخُوَّةُ فِي الدِّينِ أَعْظَمُ وَأَوْلَىٰ بِالْمُرَاعَاةِ مِنَ الْأُخُوَّةِ فِي النَّسَبِ؛ فَضْلًا عَنِ الْقَرَابَةِ وَالْعَشِيرَةِ وَالْوَطَنِ وَالْعُرُوبَةِ الَّتِي أُرِيدَ لَها أَنْ تَحْتَلَّ مَكَانَ الْأُخُوَّةِ فِي الدِّينِ ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ

إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وَبِمَا قَرَّرَتْهُ هَذِهِ الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ عَمِلَ الصَّحَابَةُ ﭫ؛ فَعَادَوْا آبَاءَهُمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَإِخْوَانَهُمْ، وَانْخَلَعُوا مِنْ عَصَبَاتِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ؛ مُوَالَاةً لِلرَّسُولِ ﷺ، وَقَدَّمُوا عَلَىٰ قَرَابَتِهِمُ الْعَبِيدَ وَالمَوَالِي، فَوَالَوْا سَلْمَانَ وَبِلَالًا وَصُهَيْبًا وَعَمَّارًا؛ لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُمْ وَالَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

بَلْ إِنَّهُمْ رَفَعُوا سُيُوفَهُمْ فِي وُجُوهِ الْآبَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالْعَشِيرَةِ حَتَّىٰ أَظْهَرَ اللهُ الْحَقَّ وَأَزْهَقَ الْبَاطِلَ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ ﭬ قَتَلَ أَبَاهُ عَلَىٰ الشِّرْكِ فِي بَدْرٍ[٢]، وَجَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بْنِ سَلُولٍ ﭬ أَنَّهُ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فِيمَا بَلَغَكَ عَنْهُ، فَإِنْ كُنْتَ فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ رَأْسَهُ؛ فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ فِيهَا رَجُلٌ أَبَرَّ بِوَالِدِهِ مِنِّي، وَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ تَأْمُرَ بِهِ غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ؛ فَلَا تَدَعْنِي نَفْسِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَىٰ قَاتِلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ فَأَقْتُلَ مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**»[٣].

---

(٢) عن عبدالله بن شوذب قال: «جعل أبو أبي عبيدة يتصدىٰ لأبي عبيدة يوم بدر، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر، قصده أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله ﷻ فيه هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]» رواه الطبراني في الكبير (١/ ١٥٤) برقم (٣٦٠)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٥٧٩)، وابن عساكر في تاريخه (٢٥/ ٤٤٦)، وقال ابن حجر في الإصابة: أخرج الطبراني بسند جيد ...، فذكره (٣/ ٥٨٧).

(٣) رواه ابن إسحاق في السيرة، كما في سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٥)، والطبري في تفسيره (٢٨/ ١١٦)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٦٢).

وَلمَّا شَاعَتْ مَقَالَةُ أَبِيهِ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] يَعْنِي: رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَفَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ عَلَىٰ بَابِ المَدِينَةِ، وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ فَجَعَلَ النَّاسُ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُوهُ قَالَ لَهُ ابْنُهُ: وَرَاءَكَ! فَقَالَ: مَا لَكَ؟ وَيْلَكَ! فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا تَجُوزُ مِنْ هَا هُنَا حَتَّىٰ يَأْذَنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ وَأَنْتَ الذَّلِيلُ، فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ(٤).

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ أَجْبَرَ أَبَاهُ عَلَىٰ أَنْ يَنْطِقَ بِأَنَّهُ هُوَ الذَّلِيلُ، وَبِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْعَزِيزُ(٥).

وَقَالَ الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي»(٦).

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا-: «وَاللَّهِ لَإِسْلَامُكَ يَوْمَ أَسْلَمْتَ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ؛ لِأَنَّ إِسْلَامَكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ إِسْلَامِ الْخَطَّابِ»(٧).

وَلمَّا قَدِمَ أَبُو سُفْيَانَ المَدِينَةَ قَبْلَ إِسْلَامِهِ لِيَزِيدَ فِي هُدْنَةِ الْحُدَيْبِيَةِ دَخَلَ عَلَىٰ

---

(٤) رواه ابن شبة في أخبار المدينة (٧٣٤)، وينظر: تفسير الطبري (٢٨/ ١١٣)، وجوامع السيرة (٢٠٤)، والدرر في اختصار المغازي والسير (١٩٠)، والسيرة الحلبية (٢/ ٦٠٢).

(٥) رواه من حديث جابر رضي الله عنه: الترمذي في التفسير، باب ومن سورة المنافقين، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح (٣٣١٥).

(٦) رواه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في المغازي، باب حديث بني النضير، ومخرج رسول الله ﷺ إليهم في دية الرجلين، وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ (٤٠٣٥)، ومسلم في الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة» (١٧٥٩).

(٧) رواه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ابن إسحاق في السيرة كما في سيرة ابن هشام (٥/ ٥٩)، والطبراني في الكبير (٨/ ٩) رقم (٧٢٦٤)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٣٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٣٤١).

ابْنَتِهِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ حَبِيبَةَ ﵂، فَلَمَّا ذَهَبَ لِيَجْلِسَ عَلَىٰ فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ طَوَتْهُ دُونَهُ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ أَرَغِبْتِ بِهَذَا الْفِرَاشِ عَنِّي أَمْ بِي عَنْهُ؟ قَالَتْ: بَلْ هُوَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنْتَ امْرُؤٌ نَجَسٌ مُشْرِكٌ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّةُ، لَقَدْ أَصَابَكِ بَعْدِي شَرٌّ(٨).

هَكَذَا أَخْلَصَ الصَّحَابَةُ ﵃ دِينَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَجَرَّدُوا وَلَاءَهُمْ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَلِرَسُولِهِ ﷺ، وَلِدِينِهِ، وَلِمَنْ دَانَ بِدِينِهِ، وَأَعْلَنُوا الْبَرَاءَةَ مِنَ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ، وَبَارَزُوهُمْ بِالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ، مُتَأَسِّينَ فِي ذَلِكَ بِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمَ ﵇ وَبِأَتْبَاعِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِرِسَالَتِهِ؛ إِذْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ أُسْوَةً فِي الْبَرَاءَةِ مِنَ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وَإِبْرَاهِيمُ ﵇ هُوَ الَّذِي أَعْلَنَ الْعَدَاوَةَ لَهُمْ ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

وَتَأَسَّىٰ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ نَابَذَ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا يَعْبُدُونَ، فَقَالَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١-٢].

وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ التَّأَسِّي بِالْخَلِيلَيْنِ: إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي اتِّخَاذِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلِيَاءَ وَالْكَافِرِينَ أَعْدَاءً.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَوْلِيَاءِ رُسُلِهِ، وَأَنْ يَكْفِيَنَا شَرَّ أَعْدَائِهِ وَأَعْدَاءِ رُسُلِهِ، إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ . . .

---

(٨) رواه ابن سعد (٨/ ١٠٠)، وابن عساكر (٦٩/ ١٥٠)، وابن الجوزي في المنتظم (٥/ ٢١١).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ، وَوَالُوا أَوْلِيَاءَهُ، وَعَادُوا أَعْدَاءَهُ؛ فَإِنَّ وِلَايَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ تُنَالُ بِذَلِكَ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

وَأَعْظَمُ وِلَايَةٍ يَجِبُ أَنْ تُصْرَفَ لِرُسُلِ اللَّهِ ﷺ، وَهِيَ مِنْ وِلَايَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالْإِنْسَانُ مَفْطُورٌ عَلَىٰ وِلَايَةِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ بِإِيصَالِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ؛ وَلِذَا فَهُوَ يُوَالِي وَالِدَيْهِ وَإِخْوَانَهُ وَعَشِيرَتَهُ، وَيُعَادِي أَعْدَاءَهُمْ. وَأَعْظَمُ إِحْسَانٍ حَازَهُ المُسْلِمُ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ النَّبِيِّ ﷺ؛ إِذْ أَوْصَلَ إِلَيْهِ أَعْظَمَ نَفْعٍ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، وَدَفَعَ عَنْهُ أَعْظَمَ ضَرَرٍ وَهُوَ الْكُفْرُ؛ فَكَانَ لَهُ مِنَ الْحَقِّ وَالمَحَبَّةِ وَالنُّصْرَةِ وَالْوِلَايَةِ مَا لَيْسَ لِلْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، بَلْ هُوَ أَوْلَىٰ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾» رَوَاهُ الشَّيخَانِ[٩].

وَفِي السُّنَنِ قَالَ ﷺ: «**أَنَا أَوْلَىٰ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، فَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيْعَةً**

---

(٩) رواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في التفسير، باب ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] (٤٧٨١)، ومسلم في الفرائض، باب من ترك مالًا فلورثته (١٦١٩).

فَإِلَيَّ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ، وَأَنَا مَوْلَىٰ مَنْ لَا مَوْلَىٰ لَهُ؛ أَرِثُ مَالَهُ وَأَفُكُّ عَانَهُ»(١٠) أَيْ: أَسِيرَهُ.

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١١).

وَالْعَوَامُّ تَقُولُ: (عَدُوُّ أَبِيكَ عَدُوُّكَ) وَلَا زَالَ النَّاسُ يُعَادُونَ أَعْدَاءَ آبَائِهِمْ، وَيُنْكِرُونَ عَلَىٰ مَنْ وَالَىٰ أَعْدَاءَ أَبِيهِ، وَيَعُدُّونَهُ عُقُوقًا وَظُلْمًا، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ عَادَىٰ الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي هُوَ الْأَبُ الْحَقِيقِيُّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَحَقُّهُ مُقَدَّمٌ عَلَىٰ سَائِرِ الْحُقُوقِ بَعْدَ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ؟!

إِنَّهُ يَجِبُ إِحْيَاءُ الْوَلَاءِ لِلرَّسُولِ ﷺ فِي الْقُلُوبِ، وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِهِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُرْتَدِّينَ الَّذِينَ يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَمِنْ دِينِهِ، وَيُكَذِّبُونَ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ؛ فَهُمُ الْأَعْدَاءُ وَإِنْ أَظْهَرُوا النُّصْحَ، وَتَظَاهَرُوا بِالصَّدَاقَةِ.

وَهُمُ الْأَعْدَاءُ وَلَوْ قَالَ الْمُنَافِقُونَ وَالْجَاهِلُونَ مِنْ أَهْلِ السِّيَاسَةِ وَالصَّحَافَةِ غَيْرَ ذَلِكَ، وَلَوْ أَظْهَرُوهُمْ عَلَىٰ خِلَافِ مَا وَصَفَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، فَكَذَبُوا وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ حَدِيثًا؟!

إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ خَالِقُ الْخَلْقِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِدَخَائِلِ النُّفُوسِ، وَمُطَّلِعٌ عَلَىٰ مَكْنُونِ الصُّدُورِ، وَقَدْ بَيَّنَ لَنَا أَعْدَاءَنَا مِنْ إِخْوَانِنَا، وَفَصَّلَ لَنَا أَحْوَالَ أَعْدَائِنَا

---

(١٠) رواه من حديث المقدام الكندي رضي الله عنه: أبو داود في الفرائض، باب في ميراث ذوي الأرحام (٢٩٠٠)، وابن ماجه في الفرائض، باب ذوي الأرحام (٢٧٣٨)، وأحمد (١٧٢٠٠)، وصححه ابن حبان (٦٠٣٦).

(١١) رواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أبو داود في الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة (٨)، والنسائي في الطهارة، باب النهي عن الاستطابة بالروث (١/ ٣٨)، وأحمد (٧٤٠٩)، وصححه ابن حبان (١٤٣١).

وَأَنْوَاعَهُمْ مِنْ مُشْرِكِينَ وَمُنَافِقِينَ وَأَهْلِ كِتَابٍ، وَذَكَرَ شَيْئًا مِنْ حَسَدِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ لَنَا:

فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْمُشْرِكِينَ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ٨-١٠]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَىٰ: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]، وَخَاطَبَ رَسُولَهُ ﷺ فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْمُنَافِقِينَ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ سَاعُونَ فِي إِضْلَالِنَا: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٩].

وَبَيَّنَ ﷻ أَنَّنَا إِنْ أَطَعْنَاهُمْ فِيمَا يُرِيدُونَ، وَوَافَقْنَا عَلَىٰ مَشَارِيعِهِمُ التَّغْرِيبِيَّةِ خَرَجْنَا مِنْ دِينِنَا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ وَعَنِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ وُصُولَ الْخَيْرِ لَنَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

أَفَبَعْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ الْوَاضِحَاتِ فِي حَقِيقَةِ أَعْدَائِنَا يَشُكُّ بَعْضُ النَّاسِ فِي عَدَاوَتِهِمْ؛ لِأَنَّ فَرِيقًا مِنَ الْجَهَلَةِ وَالْمُنَافِقِينَ يُصَوِّرُونَهُمْ عَلَىٰ غَيْرِ حَقِيقَتِهِمْ، وَيُظْهِرُونَهُمْ بِغَيْرِ مَظْهَرِهِمْ؛ تَلْبِيسًا عَلَىٰ النَّاسِ، وَمُخَادَعَةً لَهُمْ؟! أَيَتْرُكُ النَّاسُ كَلَامَ مَنْ خَلَقَهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] إِلَىٰ كَلَامِ جَهَلَةٍ وَمُنَافِقِينَ؟! كَيْفَ؟ وَاللهُ تَعَالَىٰ يُخَاطِبُنَا فَيَقُولُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ عَلِيمًا: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥]؟!

وَمَا هَذَا التَّأَلُّبُ الْغَرْبِيُّ عَقِبَ هَذِهِ الرُّسُومِ الْفَاجِرَةِ، وَإِعَادَةِ نَشْرِهَا مَرَّاتٍ وَكَرَّاتٍ، وَالتَّلْوِيحُ بِإِعَادَةِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ مِنْ جَدِيدٍ إِلَّا دَلَائِلُ وَاقِعِيَّةٌ تَدْحَضُ أَقْوَالَ الْجَهَلَةِ وَالْمُنَافِقِينَ الَّذِين خَدَعُوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِتَحْسِينِ صُورَةِ الْأَعْدَاءِ فِي نُفُوسِهِمْ حَتَّىٰ كَانَ مَا كَانَ، وَلَعَلَّ مَنْ كَانَ نَائِمًا أَنْ يُفِيقَ، وَمَنْ كَانَ جَاهِلًا أَنْ يَعْلَمَ، وَمَنْ كَانَ مُغَرَّرًا بِهِ مِنْ قِبَلِ الْإِعْلَامِ الْمُضَلِّلِ أَنْ يَتَبَصَّرَ؛ فَمَا بَعْدَ هَذَا الْوُضُوحِ مِنْ وُضُوحٍ، وَلَا عَدَاوَةَ أَشَدُّ مِنْ تِلْكَ الْعَدَاوَةِ الَّتِي يُعْتَدَىٰ فِيهَا عَلَىٰ مَنْ مَحَبَّتُهُ فِي قُلُوبِنَا فَاقَتْ مَحَبَّةَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَوْلَادِ وَالزَّوْجَاتِ، بِآبَائِنَا هُوَ وَأُمَّهَاتِنَا ﷺ.

وَالْمُؤْمِنُ لَا يَحْتَاجُ لِمِثْلِ هَذِهِ الْوَقَائِعِ حَتَّىٰ يَعْلَمَ حَقِيقَةَ الْأَعْدَاءِ، وَيُوقِنَ بِعَدَاوَتِهِمُ الدِّينِيَّةِ لَنَا؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَرْشِدُ فِي ذَلِكَ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّذِي بَيَّنَ حَقِيقَتَهُمْ أَبْلَغَ بَيَانٍ، وَفَصَّلَهَا أَحْسَنَ تَفْصِيلٍ، وَرُبَّ ضَارَّةٍ نَافِعَةٌ، وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ؛ فَلَعَلَّ هَذِهِ النَّازِلَةَ الْعَظِيمَةَ تَزِيدُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا إِلَىٰ إِيمَانِهِمْ، وَتَقْطَعُ الرِّيبَةَ مِمَّنْ فِي قَلْبِهِ شَكٌّ وَرِيبَةٌ، وَتَفْضَحُ الْمُنَافِقَ الَّذِي يَلْتَمِسُ الْمَعَاذِيرَ، أَوْ يُفَلْسِفُ الْقَضِيَّةَ مُحَاوِلًا احْتِوَاءَهَا وَالتَّقْلِيلَ مِنْ آثَارِهَا.

وَلَا يَقْضِي اللهُ تَعَالَىٰ قَضَاءً إِلَّا كَانَ فِيهِ خَيْرٌ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، فَاحْمَدُوا اللهَ

تَعَالَىٰ عَلَىٰ نِعَمِهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَاعْرِفُوا حَقِيقَةَ أَعْدَائِكُمْ، وَاصْرِفُوا وَلَاءَكُمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَوَلُّوا رُسُلَهُ وَصَالِحَ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَبَرَّأُوا مِنَ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَرَبُّوا أَوْلَادَكُمْ عَلَىٰ عَقِيدَةِ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ؛ فَإِنَّهَا مِمَّا يَحْفَظُ عَلَىٰ الْمَرْءِ دِينَهُ وَعَقِيدَتَهُ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ إِغَاظَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ....



٢٠٧- حقوق النبي ﷺ علينا (٥) وجوب الإيمان به

١٢/ ٢/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؛ خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِعِبَادَتِهِ، وَكَلَّفَهُمْ بِحَمْلِ أَمَانَتِهِ، وَأَوْجَبَ عَلَيْهِمُ الْتِزَامَ شَرِيعَتِهِ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ الْعَظِيمَةِ، وَآلَائِهِ الْجَسِيمَةِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَرْسَلَ رُسُلَهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ، وَهِدَايَةِ خَلْقِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَبِلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ هِدَايَتَهُ، وَالْتَزَمَ شَرِيعَتَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ هَادِيًا وَمُعَلِّمًا، وَبَشِيرًا وَنَذِيرًا؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّىٰ الْأَمَانَةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّىٰ أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَجَزَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنَّا خَيْرَ مَا جَزَىٰ نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ خَيْرِ صَحْبٍ لِخَيْرِ نَبِيٍّ، تَرَضَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَذَكَرَ مَنَاقِبَهُمْ، وَمَدَحَ صِفَاتِهِمْ، وَأَثْنَىٰ عَلَىٰ مَنْ أَحَبَّهُمْ مِمَّنْ جَاءُوا بَعْدَهُمْ ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] وَعَلَىٰ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاعْمَلُوا صَالِحًا؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لِبَقَائِكُمْ، وَلَا هِيَ مُنْتَهَىٰ آمَالِكُمْ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُكُمْ، وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ فِيهَا آبَاؤُكُمْ وَلَا أَبْنَاؤُكُمْ، وَإِنَّمَا يَنْفَعُكُمْ إِيمَانُكُمْ وَتَقْوَاكُمْ، فَتَزَوَّدُوا بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ

جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ هِدَايَتُهُمْ وَتَعْلِيمُهُمْ، وَإِرْسَالُ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، وَإِنْزَالُ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ، وَبَيَانُ الْحَقِّ لَهُمْ، فَمِنَ الْعِبَادِ مِنْ قَبِلَ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَهِدَايَتَهُ، فَاتَّبَعَ رُسُلَهُ، وَصَدَّقَ كُتُبَهُ، وَالْتَزَمَ شَرِيعَتَهُ؛ فَلَهُ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَفَوْزُ الْآخِرَةِ. وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَىٰ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَعَارَضَ رُسُلَهُ، وَكَذَّبَ كُتُبَهُ، وَاسْتَنْكَفَ عَنْ عِبَادَتِهِ؛ فَلَهُ شَقَاءُ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ.

وَرَسُولُنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ خَاتَمُ الرُّسُلِ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، أَوْجَبَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ الْمُكَلَّفِينَ مُنْذُ بَعْثَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ الْإِيمَانَ بِهِ، وَتَصْدِيقَهُ وَاتِّبَاعَهُ؛ فَلَا دِينَ يُوصِلُ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَّا دِينُهُ، وَلَا شَرِيعَةَ يُحِبُّهَا اللهُ تَعَالَىٰ وَيَرْضَاهَا لِعِبَادِهِ إِلَّا شَرِيعَتُهُ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وَجَاءَتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ آمِرَةً أُمَّتَهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ [النساء: ١٧٠]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، وَفِي ثَالِثَةٍ: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ﴾ [التغابن: ٨].

وَتَوَعَّدَ اللهُ ﷻ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ سُبْحَانَهُ وَبِرَسُولِهِ ﷺ بِنَارِ جَهَنَّمَ ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣].

وَالْإِيمَانُ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ التَّصْدِيقُ مَعَ الْإِقْرَارِ بِنُبُوَّتِهِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي مَحَبَّتَهُ وَطَاعَتَهُ، وَالْقَبُولَ بِهِ، وَالِانْقِيَادَ لَهُ، وَالْإِذْعَانَ لِدِينِهِ، وَالِاسْتِسْلَامَ لِشَرِيعَتِهِ.

وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أُرْسِلَ إِلَىٰ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَهَذَا يَقْتَضِي بِأَنَّهُ لَيْسَ رَسُولًا إِلَىٰ أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ، أَوْ إِلَىٰ جِنْسٍ دُونَ جِنْسٍ، أَوْ رَسُولًا فِي زَمَنٍ دُونَ زَمَنٍ، بَلْ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ الْعَالَمِينَ مُنْذُ بَعْثَتِهِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يُخَاطِبَ النَّاسَ بِذَلِكَ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَىٰ أَنَّ الْإِنْذَارَ بِهِ عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ، وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ**» رَوَاهُ الشَّيخَانِ(١).

وَلَوَازِمُ هَذِهِ النُّصُوصِ الْكَثِيرَةِ: أَنَّ كُلَّ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لَهَا وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ فَهُوَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ خَالِدًا فِيهَا؛ كَمَا جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

---

(١) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: البخاري في كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورا (٤٢٧)، ومسلم في فاتحة كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلىٰ جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣).

وَمِنْ أُصُولِ الْإِقْرَارِ بِرِسَالَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الِاعْتِقَادُ بِأَنَّهُ آخِرُ الرُّسُلِ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ؛ فَمَنِ ادَّعَىٰ النُّبُوَّةَ بَعْدَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ، أَوِ ادَّعَىٰ أَنَّ لَهُ مَا لِلْأَنْبِيَاءِ مِنَ التَّشْرِيعِ بِاسْمِ الْوِلَايَةِ أَوْ غَيْرِهَا فَهُوَ كَاذِبٌ كَذَلِكَ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا نَبِيَّ بَعْدِي**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٣].

وَلَا بُدَّ أَنْ يُقِرَّ الْعَبْدُ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ، وَقَاضِيًا عَلَىٰ كُلِّ الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ، فَنَاسِخٌ لِبَعْضِهَا، وَمُكَمِّلٌ لِأَكْثَرِهَا ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

وَهَذَا يَقْتَضِي طَاعَتَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالِاسْتِسْلَامَ لِشَرِيعَتِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ [النور: ٥٤]، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْهِدَايَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ﴾ [النور: ٥٤].

وَلَا يَسَعُ مُؤْمِنًا الْخُرُوجُ عَنْ طَاعَتِهِ، أَوِ التَّحَاكُمُ إِلَىٰ غَيْرِ شَرِيعَتِهِ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا بِهِ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

وَالَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ أَقْسَامٍ:

فَقِسْمٌ مِنْهُمْ كَذَّبُوهُ، وَزَعَمُوا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمْ يُرْسِلْهُ إِلَىٰ النَّاسِ نَبِيًّا وَرَسُولًا،

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٦٨)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٢).

مَعَ قِيَامِ الْأَدِلَّةِ الْوَاضِحَةِ، وَالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ عَلَىٰ صِدْقِهِ وَنُصْحِهِ لِأُمَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهَذَا الْقِسْمُ هُمْ أَكْثَرُ أُمَمِ الْأَرْضِ فِي المَاضِي وَفِي الْحَاضِرِ مِنْ أَنْوَاعِ الْوَثَنِيِّينَ وَالْمُلْحِدِينَ، وَمِنْ طَوَائِفِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وَقِسْمٌ آخَرُ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يُصَدِّقُونَهُ، وَلَكِنَّهُمْ جَعَلُوهُ نَبِيًّا لِأُمَّةِ الْعَرَبِ فَحَسْبُ، وَبَعْضُهُمْ يَحْصُرُونَ نُبُوَّتَهُ فِي زَمَنِ بَعْثَتِهِ وَحَيَاتِهِ دُونَ الْقُرُونِ الَّتِي بَعْدَهُ، أَوْ يَحْصُرُونَهَا فِيمَنْ هُمْ فِي مَكَّةَ أَوْ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ دُونَ غَيْرِهِمْ. وَهَؤُلَاءِ مُتَنَاقِضُونَ، فَإِنْ آمَنُوا أَنَّهُ نَبِيٌّ لَزِمَهُمْ أَنْ يُصَدِّقُوا مَا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ أَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْقُرْآنِ وَأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَفِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُرْسَلٌ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً، وَرَسُولُ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ النَّاسِ جَمِيعًا، فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ فَإِنْ آمَنُوا بِنُبُوَّتِهِ لَزِمَهُمْ تَصْدِيقُ خَبَرِهِ هَذَا وَإِلَّا كَانُوا مُتَنَاقِضِينَ.

وَقِسْمٌ ثَالِثٌ أَظْهَرُوا تَصْدِيقَهُمْ بِنُبُوَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَكِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ الطُّرُقَ كُلَّهَا مُوَصِّلَةٌ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّ الْأَدْيَانَ كُلَّهَا مَرْضِيَّةٌ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ، وَهُمْ مِنْ يُسَمَّوْنَ بِالرُّوحَانِيِّينَ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَخُصُّونَ ذَلِكَ بِمَا يُسَمُّونَهُ الْأَدْيَانَ السَّمَاوِيَّةَ أَوِ الْأَدْيَانَ الْإِبْرَاهِيمِيَّةَ؛ لِيُدْخِلُوا الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ فِي الدِّينِ الصَّحِيحِ. وَهَؤُلَاءِ إِنْ كَانُوا يُصَدِّقُونَ بِنُبُوَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَزِمَهُمْ أَنْ يُصَدِّقُوا بِخَبَرِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَنَّ مَنِ ابْتَغَىٰ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَمِمَّا جَاءَ بِهِ إِبْطَالُ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَسَائِرِ الْأَدْيَانِ وَالْمِلَلِ سِوَىٰ دِينِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ فَلَزِمَهُمْ تَصْدِيقُهُ فِي ذَلِكَ وَاتِّبَاعُهُ، أَوْ تَكْذِيبُهُ، وَإِلَّا كَانُوا مُتَنَاقِضِينَ.

وَقِسْمٌ رَابِعٌ أَظْهَرُوا إِيمَانَهُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَلَكِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ لِشَرِيعَتِهِ بَاطِنًا

وَظَاهِرًا، وَأَنَّ بَاطِنَ شَرِيعَتِهِ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا هُمْ وَمَشَايِخُهُمْ، فَخَرَجُوا عَلَىٰ ظَاهِرِ شَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذَا الْبَاطِنِ الَّذِي اخْتَرَعُوهُ، وَزَعَمُوا اخْتِصَاصَهُمْ بِهِ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ، وَكُلُّ الْفِرَقِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي أَبْطَلَتْ دِينَ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدَحَتْ فِي أَزْوَاجِهِ وَأَصْحَابِهِ ﵃، وَغَالَتْ فِي رُؤُوسِهَا وَمَشَايِخِهَا هُمْ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ، وَإِيمَانُهُمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ مَنْقُوضٌ بِإِبْطَالِهِمْ شَرِيعَتَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَإِحْدَاثِهِمْ دِينًا آخَرَ زَعَمُوا أَنَّهُ بَاطِنُ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَقِسْمٌ خَامِسٌ أَظْهَرُوا تَصْدِيقَهُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَيَزْعُمُونَ الْإِيمَانَ بِهِ وَتَعْظِيمَهُ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ إِذَا ذُكِرَ، وَلَكِنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَوْ يَظُنُّونَ أَنَّ بِوُسْعِهِمُ الْخُرُوجَ عَنْ شَرِيعَتِهِ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ يَخْتَصُّ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِالْآخِرَةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْمَحْضَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَنَحْوِهَا دُونَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا الَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهَا مَتْرُوكَةٌ لِلنَّاسِ. وَكَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ الِاتِّجَاهَاتِ الْعَلْمَانِيَّةِ هُمْ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ، وَهُمْ مُتَنَاقِضُونَ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُمْ إِنْ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ لَزِمَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا أَخْبَارَهُ، وَيُذْعِنُوا لِأَحْكَامِهِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَأُمُورِ الْآخِرَةِ وَلَا فَرْقَ، وَإِلَّا لَمْ يَكُونُوا مُسْتَسْلِمِينَ لِشَرِيعَتِهِ. وَعَدَمُ اسْتِسْلَامِهِمْ لِشَرِيعَتِهِ قَادِحٌ فِي إِيمَانِهِمْ بِنُبُوَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَلْجَأُ فِي تَنَصُّلِهِ مِنْ أَوَامِرِ الشَّرِيعَةِ إِلَىٰ التَّحْرِيفِ وَالتَّأْوِيلِ؛ فَمَا لَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ يَزْعُمُونَ خُصُوصِيَّتَهُ بِزَمَنِ الرِّسَالَةِ دُونَ هَذَا الزَّمَنِ، أَوْ يَدَّعُونَ أَنَّهُ كَانَ لِظُرُوفٍ خَاصَّةٍ، أَوْ أَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ الْعَادَاتِ الْمَتْرُوكَةِ لِلنَّاسِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ مُتَعَلِّقًا بِالْحُرِّيَّةِ أَوِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، أَوْ لَهُ صِلَةٌ بِمَا يَدَّعُونَهُ حُقُوقًا لِلْإِنْسَانِ أَوْ لِلْمَرْأَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ. وَسَبَبُ ضَلَالِهِمْ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِالْمَنَاهِجِ الْغَرْبِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ إِيمَانًا مُطْلَقًا، ثُمَّ حَاكَمُوا شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهَا، فَإِنْ وَافَقَتْهَا الشَّرِيعَةُ

الْمُحَمَّدِيَّةُ انْقَلَبُوا إِلَىٰ عُلَمَاءَ وَوُعَّاظٍ وَخُطَبَاءَ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا، وَيَسْتَدِلُّونَ لَهَا، وَإِنْ عَارَضَتْهَا الشَّرِيعَةُ رَفَضُوهَا أَوْ تَأَوَّلُوهَا أَوْ حَرَّفُوهَا أَوْ كَذَّبُوهَا، وَمَنْ رَفَضَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَدْ نَقَضَ إِيمَانَهُ بِهِ.

وَمَعَ التَّجْيِيشِ الْإِعْلَامِيِّ لِلْمَنَاهِجِ الْغَرْبِيَّةِ الْمُنْحَرِفَةِ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَالدِّعَايَةِ لَهَا، وَإِظْهَارِ مَحَاسِنِهَا؛ قَدْ يَجِدُ بَعْضُ النَّاسِ حَرَجًا فِي قَلْبِهِ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، أَوْ عَدَمَ انْقِيَادٍ لَهَا، أَوْ تَمَنَّىٰ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَأْتِ بِهَا، وَهَذَا الضِّيقُ وَالْحَرَجُ وَالتَّمَنِّي مِمَّا يَقْدَحُ فِي الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّهُ يَتَعَارَضُ مَعَ التَّسْلِيمِ الْمُطْلَقِ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

إِنَّ النَّتِيجَةَ الْحَتْمِيَّةَ لِلْإِيمَانِ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالرِّضَا بِهِ نَبِيًّا وَرَسُولًا التَّسْلِيمُ الْمُطْلَقُ فِيمَا جَاءَ بِهِ، أَوْ أَخْبَرَ عَنْهُ، وَتَصْدِيقُهُ وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ بِهِ أَوْ نَهَىٰ عَنْهُ، مِنْ غَيْرِ ضِيقٍ أَوْ حَرَجٍ أَوْ تَعْقِيبٍ أَوْ جِدَالٍ أَوْ مُنَاقَشَةٍ، أَوْ أَخْذِ الْبَعْضِ وَتَرْكِ الْبَعْضِ؛ إِذْ إِنَّ مِنَ التَّنَاقُضِ أَنْ يَزْعُمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ يَتَمَرَّدَ عَلَىٰ بَعْضِ مَا جَاءَ بِهِ، أَوْ يُنَازِعَهُ فِيهِ، أَوْ لَا يَرْضَىٰ بِهِ، أَوْ يُنَصِّبَ نَفْسَهُ مُعَقِّبًا عَلَيْهِ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَنْقُضُ الْإِيمَانَ بِرِسَالَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَسْلِمُوا لَهُ قُلُوبَكُمْ، وَأَخْلِصُوا لَهُ دِينَكُمْ، وَاسْتَسْلِمُوا لِشَرِيعَةِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَإِنَّ الْإِيمَانَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِذَلِكَ.

وَاحْذَرُوا مَنَاهِجَ الْمُنْحَرِفِينَ وَلَوْ كَثُرُوا، وَلَوْ زَخْرَفُوا كَلَامَهُمْ بِلَحْنِ الْقَوْلِ، وَحُسْنِ الْبَيَانِ، وَلَوْ مَلَكُوا نَوَاصِيَ الْإِعْلَامِ فِي الْأَرْضِ، وَكَانَتْ أَصْوَاتُهُمْ عَالِيَةً وَمُنْتَشِرَةً؛ فَإِنَّ الْبَاطِلَ بَاطِلٌ وَلَوْ كَثُرَ أَتْبَاعُهُ وَعَلَتْ أَصْوَاتُهُمْ، وَإِنَّ الْحَقَّ حَقٌّ وَلَوْ قَلَّ أَتْبَاعُهُ وَضَعُفَتْ أَصْوَاتُهُمْ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ؛ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَهِدَايَةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، فَكَانَ مِنْ قَبُولِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: الْإِيمَانُ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَبُولُ شَرِيعَتِهِ، وَالْتِزَامُ سُنَّتِهِ. كَمَا كَانَ تَكْذِيبُهُ أَوْ رَفْضُ شَرِيعَتِهِ رَفْضًا لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

وَلِذَا كَانَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مَنْ قَبِلُوا رَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا، فَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَكَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ هُمْ مَنْ لَمْ يَقْبَلُوا رَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا، فَلَمْ يَتَّبِعُوا رَسُولَهُ ﷺ.

وَمَا طَعْنُ الطَّاعِنِينَ فِي شَخْصِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ فِي رِسَالَتِهِ أَوْ شَرِيعَتِهِ أَوْ سِيرَتِهِ مِنْ قِبَلِ كَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَوْ مِنْ مَلَاحِدَةِ الْغَرْبِ، أَوْ مِنْ زَنَادِقَةِ الْعَرَبِ إِلَّا طَعْنٌ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَرَفْضٌ لِرَحْمَتِهِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَتَنَزَّهَ رَسُولُهُ ﷺ عَمَّا يَقُولُونَ وَيَفْتَرُونَ.

وَيْلَهُمْ! كَيْفَ يَطْعَنُونَ فِي النَّبِيِّ ﷺ، وَيُكَذِّبُونَهُ، وَيَسْخَرُونَ مِنْهُ، وَيَرْفُضُونَ شَرِيعَتَهُ، وَهُوَ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ إِنْسِهِمْ وَجِنِّهِمْ، عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ، مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، بَلْ تَعَدَّتِ الرَّحْمَةُ بِهِ إِلَىٰ الْعَجْمَاوَاتِ مِنَ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ، بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي حَفِظَ الْحُقُوقَ، وَأَوْفَىٰ الْعُهُودَ، وَأَعْطَىٰ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ؛ فَكَانَ رَحْمَةً لِمَنْ عَلَىٰ الْأَرْضِ أَجْمَعِينَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؟!

لَقَدْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَنَالُونَهُ مِنَ السَّعَادَةِ وَالسَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ فِي الْآخِرَةِ.

وَرَحِمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ الْكُفَّارَ بِمَا حَفِظَ لَهُمْ مِنَ الْحُقُوقِ(٤)، وَأَوْفَىٰ لَهُمْ مِنَ الْعُهُودِ، فَلَا يُكْرَهُونَ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَلَا يُغْدَرُ بِهِمْ لِكُفْرِهِمْ، وَمَنْ دَخَلَ فِي عَهْدِ ذِمَّةٍ أَوْ أَمَانٍ كَانَ لَهُ الْأَمَانُ فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، لَا يُتَعَدَّىٰ عَلَيْهِ وَلَا يُظْلَمُ مَا دَامَ مُلْتَزِمًا عَهْدَهُ، وَمَنْ خَانَهُ خَانَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٥).

بَلْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ الْكُفَّارَ الْمُحَارِبِينَ لِلْإِسْلَامِ بِمَا شَرَعَ لَهُمْ مِنْ حُقُوقٍ وَهُمْ مُحَارِبُونَ، مِنْ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَتَخْيِيرِهِمْ قَبْلَ الْحَرْبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِزْيَةِ،

---

(٤) انظر خطبتين في ذلك بعنوان: الخلال النبوية (١-٢).

(٥) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: البخاري في الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم (٣١٦٦).

وَرَحِمَ بِهِ نِسَاءَهُمْ وَذَرَارِيَّهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ وَشُيُوخَهُمْ فَلَا يُقْتَلُونَ فِي الْحَرْبِ إِلَّا إِذَا شَارَكُوا فِي مُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَانَتِ الرَّحْمَةُ بِالْحَيَوَانِ وَالطَّيْرِ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُتَمِّمَةً لِلرَّحْمَةِ بِالْعَالَمِينَ، فَلَا يَجُوزُ تَعْذِيبُهَا وَلَا تَجْوِيعُهَا وَلَا تَكْلِيفُهَا مَا لَا تُطِيقُ، وَلَا اتِّخَاذُهَا هَدَفًا يُرْمَىٰ إِلَيْهِ، وَلَا ذَبْحُهَا إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَقُّهَا أَنْ يَأْكُلَهَا وَلَا يَرْمِيهَا، وَقَدْ دَخَلَ النَّارَ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا أَطْلَقَتْهَا، وَدَخَلَ الْجَنَّةَ بَغِيٌّ فِي كَلْبٍ سَقَتْهُ فَشَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهَا فَغَفَرَ لَهَا.

فَاعْرِفُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- قَدْرَ نِعْمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْكُمْ بِبَعْثَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاحْمَدُوا اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نِعْمَتِهِ بِبَعْثَتِهِ إِلَيْكُمْ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَاشْكُرُوهُ عَلَىٰ أَنْ هَدَاكُمْ لِدِينِهِ، وَاعْرِفُوا لَوَازِمَ الْإِيمَانِ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاتَّبِعُوا سُنَّتَهُ، وَالْتَزِمُوا هَدْيَهُ، وَاقْبَلُوا حُكْمَهُ، وَلَا تَجِدُوا فِي صُدُورِكُمْ حَرَجًا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ جَاءَكُمْ بِهِ نَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، فَهُوَ الْحَقُّ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَمَا عَارَضَهُ فَهُوَ الْبَاطِلُ أَيًّا كَانَ مَصْدَرُهُ، وَمَهْمَا كَانَ وَزْنُ قَائِلِهِ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . . .

❁ ❁ ❁

٢٠٨- تكفير المسلمين (١)
خطره وضرره

٩/ ١/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ، تَرَكَنَا عَلَىٰ بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَصْلَحَ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْإِسْلَامِ قُلُوبَهُمْ، وَجَمَعَ كَلِمَتَهُمْ، وَلَمَّ شَتَاتَهُمْ، وَأَزَالَ ضَغَائِنَهُمْ؛ فَكَانُوا كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ إِخْوَةً مُتَحَابِّينَ، ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٣]، ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الْأَنْفَال: ٦٣]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ: اتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَاجْتَمِعُوا، وَلَا تَعْصُوهُ فَتَخْتَلِفُوا؛ فَإِنَّ الطَّاعَةَ سَبَبُ كُلِّ خَيْرٍ، وَإِنَّ الْمَعَاصِيَ أَبْوَابُ الْفِتَنِ وَالشُّرُورِ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٢-١٠٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: شَرَعَ اللهُ تَعَالَىٰ الْإِسْلَامَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَرَضِيَهُ لِعِبَادِهِ دِينًا يَدِينُونَ بِهِ، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهِ، بَلْ إِنَّ كُلَّ دِينٍ غَيْرَ الْإِسْلَامِ، وَكُلَّ طَرِيقٍ غَيْرَ طَرِيقِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ فَإِنَّهَا إِثْمٌ وَضَلَالٌ لَا تَزِيدُ أَصْحَابَهَا إِلَّا بُعْدًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨٥].

هَذَا الدِّينُ الْعَظِيمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَوْجَبَهُ عَلَىٰ الْبَشَرِ أَجْمَعِينَ؛ لَهُ مَعَالِمُ وَحُدُودٌ، وَوَاجِبَاتٌ وَفُرُوضٌ، وَمُحَرَّمَاتٌ وَقُيُودٌ، لَا يَجُوزُ لِمَنِ اخْتَارَ الدُّخُولَ فِيهِ، وَدَانَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ بِهِ؛ أَنْ يَتَعَدَّىٰ مَعَالِمَهُ وَحُدُودَهُ، وَلَا أَنْ يُضَيِّعَ وَاجِبَاتِهِ وَفُرُوضَهُ، وَلَا أَنْ يَنْتَهِكَ مُحَرَّمَاتِهِ وَقُيُودَهُ؛ وَإِلَّا كَانَ الْعَبْدُ عَبْدًا لِهَوَاهُ وَمُشْتَهَاهُ، مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ.

وَهَذِهِ الْحُدُودُ وَالْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي مِنْهَا الْحَتْمُ اللَّازِمُ الَّذِي لَا يَسَعُ مُسْلِمًا التَّفْرِيطُ فِيهِ، وَمِنْهَا الْمَنْدُوبُ إِلَيْهِ فِعْلًا أَوْ تَرْكًا، وَكُلُّ دِينٍ لَيْسَ لَهُ حُدُودٌ، وَلَا وَاجِبَاتٌ، وَلَا فِيهِ مُبَاحَاتٌ وَمُحَرَّمَاتٌ فَلَيْسَ بِدِينٍ، وَهَكَذَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَدْيَانِ الْمُحَرَّفَةِ أَوِ الْمُحْدَثَةِ، لَا يَعْرِفُ أَصْحَابُهَا مِنْهَا إِلَّا تَوْصِيَاتٍ وَتَوْجِيهَاتٍ، تُعْرَضُ وَلَا تُفْرَضُ، وَيُدْعَىٰ إِلَيْهَا، وَلَا عِقَابَ عَلَيْهَا.

وَالْإِسْلَامُ لَيْسَ كَذَلِكَ؛ بَلْ فِيهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [الْبَقَرَة: ١٨٧]، وَفِيهِ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٩]، وَفِيهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطَّلَاق: ١].

وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ فَحَسْبُ؛ بَلْ رَتَّبَ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ عُقُوبَاتٍ دُنْيَوِيَّةً تُقَامُ عَلَىٰ مَنْ تَعَدَّىٰ هَذِهِ الْحُدُودَ، وَانْتَهَكَ حُرُمَاتِ اللَّهِ ﷻ، فَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ، وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ، وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ، وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ، وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ، وَالسَّارِقُ يُقْطَعُ، وَالزَّانِي يُجْلَدُ أَوْ يُرْجَمُ؛ وَالْمُحَارِبُ يُقْتَلُ أَوْ يُصْلَبُ، أَوْ تُقْطَعُ يَدُهُ وَرِجْلُهُ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَىٰ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْمُفْتَرِي وَشَارِبُ الْخَمْرِ يُجْلَدَانِ، وَالْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ تُقَاتَلُ حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ، ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الْحُجُرَات: ٩]،

«**وَمَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ(١)، وَمَنْ عَمِلَ جُرْمًا مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ؛ عُوقِبَ بِالْعُقُوبَةِ الَّتِي تُنَاسِبُ جُرْمَهُ، وَتَرْدَعُ غَيْرَهُ، وَلَا حُرِّيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ؛ بَلْ هُوَ دِينُ الْعُبُودِيَّةِ وَالذِّلَّةِ وَالْخُضُوعِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَلِشَرِيعَتِهِ.

وَمَنْ شَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ؛ دَخَلَ حَظِيرَةَ الْإِسْلَامِ، فَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا بِنَاقِضٍ يَنْقُضُهَا، وَلَوْ أَتَىٰ كَبَائِرَ الذُّنُوبِ، وَعَظَائِمَ الْمُوبِقَاتِ، فَلَا يَكْفُرُ بِذَلِكَ، إِلَّا إِذَا كَانَ مُسْتَحِلًّا لَهَا، أَوْ كَانَتْ كُفْرًا بِنُصُوصِ الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ.

وَقَدْ يَقَعُ الْمُسْلِمُ فِي الْكُفْرِ قَوْلًا كَانَ أَمْ فِعْلًا أَمِ اعْتِقَادًا وَلَكِنَّهُ لَا يَكْفُرُ؛ لِأَنَّهُ جَاهِلٌ، أَوْ مُتَأَوِّلٌ، أَوْ مُكْرَهٌ. فَإِذَا أُزِيلَ عُذْرُهُ، وَأُقِيمَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَبَانَتْ لَهُ الْمَحَجَّةُ وَلَا يَزَالُ مُصِرًّا عَلَىٰ مَا بِهِ يَكْفُرُ، فَلَا يَجُوزُ الْحُكْمُ بِإِسْلَامِهِ وَقَدْ نَقَضَهُ، وَإِلَّا كَانَ الْإِسْلَامُ مُسْتَبَاحَ الْحُدُودِ، مُنْتَهَكَ الْحُرُمَاتِ.

إِنَّ مَسْأَلَةَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ مَسْأَلَةٌ كَبِيرَةٌ، أَخْطَأَتْ فِيهَا أَفْهَامٌ، وَزَلَّتْ فِيهَا أَقْدَامٌ، وَتَجَاذَبَ خَطَأَهَا فِرْقَتَانِ: فِرْقَةٌ أَدْخَلَتْ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، وَفِرْقَةٌ أَخْرَجَتِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ إِسْلَامِهِمْ، وَضَاعَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْفِرْقَتَيْنِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

فَالْمُرْجِئَةُ الْوَعْدِيَّةُ سَوَّغُوا لِلنَّاسِ الْحُرُمَاتِ، وَأَبَاحُوا لَهُمُ الشَّهَوَاتِ، وَاكْتَفَوْا مِنْهُمْ بِقَوْلِ اللِّسَانِ؛ اعْتِمَادًا عَلَىٰ نُصُوصِ الْوَعْدِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَّةِ، الْمَبْثُوثَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄: البخاري في استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم (٦٥٢٤)، وأبو داود في الحدود، باب الحكم فيمن ارتد (٤٣٥١)، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في المرتد (١٤٥٨)، والنسائي في تحريم الدم، باب الحكم في المرتد (٧/ ١٠٤-١٠٥)، وابن ماجه في الحدود، باب المرتد عن دينه (٢٥٣٥)، وأحمد (١/ ٢١٧).

وَالْخَوَارِجُ الْوَعِيدِيَّةُ حَجَّرُوا عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وَاسِعًا، وَكَفَّرُوهُمْ بِالذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي؛ اعْتِمَادًا عَلَىٰ نُصُوصِ الْوَعِيدِ بِالْعَذَابِ وَالنَّارِ.

وَلَا تُوجَدُ طَائِفَةٌ مِنْ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ الضَّالَّتَيْنِ فِي عَصْرٍ مِنَ الْعُصُورِ، أَوْ مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ؛ إِلَّا كَانَتِ الْأُخْرَىٰ مُقَابِلَةً لَهَا، فَحَيْثُ يُوجَدُ الْإِرْجَاءُ يُوجَدُ التَّكْفِيرُ، وَإِذَا وُجِدَ التَّكْفِيرُ وُجِدَ الْإِرْجَاءُ، وَلَا سَبِيلَ لِلْقَضَاءِ عَلَىٰ هَاتَيْنِ الْبِدْعَتَيْنِ إِلَّا بِسُلُوكِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالتَّمَسُّكِ بِأَهْدَابِ الدِّينِ، وَإِعْمَالِ النُّصُوصِ كُلِّهَا، بِفَهْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

إِنَّ إِخْرَاجَ الْمُسْلِمِ مِنْ إِسْلَامِهِ وَهُوَ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ خَطِيرٌ عَلَىٰ دِينِ مَنْ فَعَلَهُ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ حَاكِمًا عَلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِغَيْرِ شَرْعِهِ، بَلْ بِمَا اشْتَهَاهُ؛ وَلِذَا حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ مِنْ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، وَأَخْبَرَ ﷺ: «**أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، وَفِي لَفْظٍ لِأَبِي عَوَانَةَ: «**إِنْ قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ وَجَبَ الْكُفْرُ عَلَىٰ أَحَدِهِمَا**»[٢]، وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ**» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ[٣]، وَمَعْنَىٰ حَارَ عَلَيْهِ، أَيْ: عَادَ عَلَيْهِ.

بَلْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مَا يُفِيدُ أَنَّ تَكْفِيرَ الْمُسْلِمِ كَقَتْلِهِ، وَهَذَا تَشْبِيهٌ عَجِيبٌ بَدِيعٌ؛ لِأَنَّ مِنْ لَوَازِمِ تَكْفِيرِهِ مُقَاتَلَتَهُ؛ إِذِ الْمُرْتَدُّ يُقْتَلُ، فَكَانَ حُكْمُهُ فِيهِ بِالْكُفْرِ

---

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٩٨٤)، وأحمد (٢/ ١٨)، والبخاري في الآداب، باب من أكفر أخاه بلا تأويل فهو كما قال (٥٧٥٣)، ومسلم في الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر (٦٠)، وأبو عوانة (٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم (٦١).

كَالْقَتْلِ لَهُ، رَوَىٰ ثَابِتُ بْنُ الضَّحَّاكِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ لَعَنَ مُؤْمِنًا فَهُوَ كَقَتْلِهِ، وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٤).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَإِذَا كَانَ تَكْفِيرُ الْمُعَيَّنِ عَلَىٰ سَبِيلِ الشَّتْمِ كَقَتْلِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ تَكْفِيرُهُ عَلَىٰ سَبِيلِ الِاعْتِقَادِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ مِنْ قَتْلِهِ»(٥) اهـ.

وَمَنْ كَفَّرَ مُسْلِمًا فَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ أَنْ يَلْعَنَهُ؛ لِأَنَّ لَعْنَ الْمُسْلِمِ لَا يَجُوزُ، فَإِذَا لَعَنَهُ وَهُوَ لَا يَسْتَحِقُّ اللَّعْنَ عَادَتِ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ؛ كَمَا رَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَىٰ الْأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا؛ فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَىٰ الَّذِي لُعِنَ، فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَىٰ قَائِلِهَا**» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ(٦).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ يَنْهَيَانِ عَنْ تَفْسِيقِ الْمُسْلِمِ وَتَكْفِيرِهِ بِبَيَانٍ لَا إِشْكَالَ فِيهِ، وَمِنْ جِهَةِ النَّظَرِ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا مَدْفَعَ لَهُ: أَنَّ كُلَّ مَنْ ثَبَتَ لَهُ عَقْدُ الْإِسْلَامِ فِي وَقْتٍ بِإِجْمَاعٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، أَوْ تَأَوَّلَ تَأْوِيلًا، فَاخْتَلَفُوا بَعْدُ فِي خُرُوجِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ؛ لَمْ يَكُنْ

---

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣)، والبخاري في الآداب، باب ما ينهىٰ من السباب واللعن (٥٧٠٠)، ومسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم قتل النفس (١١٠) واللفظ للبخاري.

(٥) الاستقامة (٢/ ١٦٥-١٦٦).

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في اللعن (٤٩٠٥)، والديلمي كما في مسند الفردوس (٧٤٧)، والبيهقي في الشعب (٥١٦٢)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣٨١)، وجود إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٣٦٧)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٢٠٦٩) ثم الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٢) وفي السلسلة الصحيحة (١٢٦٩). وله شاهد من حديث ابن مسعود ﷺ بنحوه عند أحمد (١/ ٤٠٨-٤٢٥) بإسناد جيد.

لِاخْتِلَافِهِمْ بَعْدَ إِجْمَاعِهِمْ مَعْنًىٰ يُوجِبُ حُجَّةً، وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْإِسْلَامِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ آخَرَ، أَوْ سُنَّةٍ ثَابِتَةٍ لَا مُعَارِضَ لَهَا.

وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ -وَهُمْ أَهْلُ الْفِقْهِ وَالْأَثَرِ- عَلَىٰ أَنَّ أَحَدًا لَا يُخْرِجُهُ ذَنْبُهُ وَإِنْ عَظُمَ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَخَالَفَهُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ، فَالْوَاجِبُ فِي النَّظَرِ أَنْ لَا يُكَفَّرَ إِلَّا إِنِ اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَىٰ تَكْفِيرِهِ، أَوْ قَامَ عَلَىٰ تَكْفِيرِهِ دَلِيلٌ لَا مَدْفَعَ لَهُ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ»[٧] اهـ.

وَيَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُكَفِّرَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ أَخْطَأَ وَغَلِطَ، حَتَّىٰ تُقَامَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَتُبَيَّنَ لَهُ الْمَحَجَّةُ، وَمَنْ ثَبَتَ إِسْلَامُهُ بِيَقِينٍ، لَمْ يَزَلْ ذَلِكَ عَنْهُ بِالشَّكِّ، بَلْ لَا يَزُولُ إِلَّا بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَإِزَالَةِ الشُّبْهَةِ»[٨].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُرِينَا الْحَقَّ حَقًّا وَيَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ، وَأَنْ يُرِينَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَيَرْزُقَنَا اجْتِنَابَهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عِمْرَان: ٨]، بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

(٧) التمهيد (١٧/ ٢١-٢٢).

(٨) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٤٦٦).

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: التَّكْفِيرُ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ مَرَدُّهُ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَكَمَا أَنَّ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ وَالْإِيجَابَ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَكَذَلِكَ التَّكْفِيرُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا وُصِفَ بِالْكُفْرِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يَكُونُ كُفْرًا أَكْبَرَ مُخْرِجًا عَنِ الْمِلَّةِ.

وَلَمَّا كَانَ مَرَدُّ حُكْمِ التَّكْفِيرِ إِلَىٰ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُكَفَّرَ إِلَّا مَنْ دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَىٰ كُفْرِهِ دَلَالَةً صَرِيحَةً، فَلَا يَكْفِي فِي ذَلِكَ مُجَرَّدُ الشُّبْهَةِ وَالظَّنِّ؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ الْخَطِيرَةِ؛ وَإِذَا كَانَتِ الْحُدُودُ تُدْرَأُ بِالشُّبُهَاتِ -مَعَ أَنَّ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا أَقَلُّ مِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ التَّكْفِيرِ- فَالتَّكْفِيرُ أَوْلَىٰ أَنْ يُدْرَأَ بِالشُّبُهَاتِ[٩].

إِنَّ فُشُوَّ التَّكْفِيرِ أَوِ التَّفْسِيقِ أَوِ التَّبْدِيعِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبٌ لِلِافْتِرَاقِ وَالِاخْتِلَافِ، وَيَنْتِجُ عَنْهُ الِاحْتِرَابُ وَالِاقْتِتَالُ، وَسَفْكُ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَاخْتِلَافُ الْمُسْلِمِينَ، وَتَفَرُّقُ كَلِمَتِهِمْ؛ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْفَشَلِ وَالْهَزِيمَةِ، وَتَمْكِينِ الْأَعْدَاءِ، كَمَا هُوَ وَاقِعُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعُصُورِ الْمُتَأَخِّرَةِ.

يَقُولُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ نَاصِرِ الدِّينِ الدِّمَشْقِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَلَعْنُ الْمُسْلِمِ الْمُعَيَّنِ حَرَامٌ، وَأَشَدُّ مِنْهُ رَمْيُهُ بِالْكُفْرِ، وَخُرُوجُهُ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَفِي ذَلِكَ أُمُورٌ غَيْرُ مُرْضِيَةٍ مِنْهَا: إِشْمَاتُ الْأَعْدَاءِ بِأَهْلِ هَذِهِ الْمِلَّةِ الزَّكِيَّةِ، وَتَمْكِينُهُمْ بِذَلِكَ مِنَ الْقَدْحِ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتِضْعَافُهُمْ لِشَرَائِعِ هَذَا الدِّينِ، وَمِنْهَا: أَنَّهُ رُبَّمَا يُقْتَدَىٰ بِالرَّامِي فِيمَا رَمَىٰ فَيَتَضَاعَفُ وِزْرُهُ بِعَدَدِ مَنْ تَبِعَهُ مَأْثَمًا، وَقَلَّ أَنْ يَسْلَمَ مَنْ رَمَىٰ بِالْكُفْرِ مُسْلِمًا، وَقَدْ رُوِّينَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ يَقُولُ: مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ إِلَّا

(٩) هذا مقطع من بيان مجلس هيئة كبار العلماء في المملكة المنعقد في الطائف، في دورته التاسعة والأربعين، برئاسة الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالىٰ- في ٢/ ٤/ ١٤١٩هـ.

وَبَيْنَهُمَا سِتْرٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ، فَإِنْ قَالَ أَحَدُهُمَا لِأَخِيهِ كَلِمَةَ هَجْرٍ خَرَقَ سِتْرَ اللَّهِ الَّذِي بَيْنَهُمَا، وَلَا قَالَ أَحَدُهُمَا: أَنْتَ كَافِرٌ؛ إِلَّا كَفَرَ أَحَدُهُمَا(١٠). فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْوَعِيدِ مِنْ مَزِيدٍ فِي التَّهْدِيدِ؟!

وَلَعَلَّ الشَّيْطَانَ يُزَيِّنُ لِمَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ، وَرَمَىٰ بِالْكُفْرِ وَالْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ أَخَاهُ، أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِيهِ بِحَقٍّ وَرَمَاهُ، وَأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ، لَا يَسَعُهُ السُّكُوتُ عَنِ الْقَلِيلِ، فَكَيْفَ بِالْجَلِيلِ؟ ... هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! إِنَّ فِي مَجَالِ الْكَلَامِ فِي الرِّجَالِ عَقَبَاتٍ مُرْتَقِيهَا عَلَىٰ خَطَرٍ، وَمُرْتَقِبُهَا هَوًىٰ، لَا مَنْجَىٰ لَهُ مِنَ الْإِثْمِ وَلَا وَزَرَ، فَلَوْ حَاسَبَ نَفْسَهُ الرَّامِي أَخَاهُ مَا السَّبَبُ الَّذِي هَاجَ ذَلِكَ؟ لَتَحَقَّقَ أَنَّهُ الْهَوَىٰ الَّذِي صَاحِبُهُ هَالِكٌ» اهـ(١١).

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مُحْتَاجُونَ أَشَدَّ الْحَاجَةِ إِلَىٰ اجْتِمَاعِ كَلِمَتِهِمْ، وَرَأْبِ صَدْعِهِمْ؛ لِمُوَاجَهَةِ الْأَخْطَارِ الْمُحْدِقَةِ بِهِمْ، وَإِذَا كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَرْمِيهِمْ بِالْكُفْرِ أَوِ الْفُسُوقِ أَوِ الْبِدْعَةِ بِلَا بُرْهَانٍ صَحِيحٍ، وَلَا دَلِيلٍ صَرِيحٍ؛ كَانَ ذَلِكَ سَبَبَ تَفَرُّقٍ وَاخْتِلَافٍ، وَتَحَزُّبٍ وَاحْتِرَابٍ؛ يَخْسَرُ مِنْ جَرَّائِهِ الْمُسْلِمُونَ كَثِيرًا، وَيَرْبَحُ الْأَعْدَاءُ رِبْحًا وَفِيرًا.

وَالْمُسْلِمُونَ كَذَلِكَ مُحْتَاجُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَىٰ عَوْنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَتَسْدِيدِهِ وَحِفْظِهِ وَنَصْرِهِ، وَلَاسِيَّمَا مَعَ تَكَالُبِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ

---

(١٠) أخرجه موقوفًا علىٰ ابن مسعود ﷺ: البخاري في الأدب المفرد (٤٣٥)، والبيهقي في الشعب (٥٠١٦)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢١٠)، وفي إسناده يزيد بن أبي زياد ضعيف، وبه ضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد وقال: «لكن الجملة الأخيرة صحيحة عن غير ما واحد من الصحابة منهم أبو ذر ﷺ» (٦٥)، قلت: حديث أبي ذر ﷺ الذي أشار إليه الشيخ مرفوع وهو في صحيح مسلم، ينظر تخريجه في حاشية (٢).

(١١) الرد الوافر (١١-١٣).

يُمَيِّعُ دِينَهُمْ، وَيُبَدِّلُ شَرِيعَتَهُمْ، وَيُحَرِّفُ نُصُوصَهُمْ؛ لِمُجَارَاةِ الْأَهْوَاءِ، وَمُسَايَرَةِ الْأَحْدَاثِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُؤْذِنٌ بِسَخَطِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَغَضَبِهِ؛ مِمَّا يَكُونُ سَبَبًا فِي رَفْعِ النِّعَمِ، وَحُلُولِ النِّقَمِ، وَاخْتِلَافِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَسَلُّطِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَلَا يُنْجِي مِنْ هَذَا الضَّلَالِ الْمُتَرَاكِمِ، وَالْإِثْمِ الْمُتَزَايِدِ، وَمِنْ نَتَائِجِهِ الْخَطِيرَةِ إِلَّا تَعْظِيمُ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِتَعْظِيمِ شَرِيعَتِهِ، وَالتَّمَسُّكِ بِهَا، وَالْأَخْذِ بِالنُّصُوصِ كُلِّهَا، دُونَ تَجْزِئَةٍ وَلَا انْتِقَائِيَّةٍ؛ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحَ آنِيَةٍ أَوْ ذَاتِيَّةٍ؛ وَإِلَّا كَانَ حَالُ الْمُسْلِمِينَ كَحَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؛ فَلَعَنَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَضَرَبَ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَكَتَبَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ.

وَقَدْ حَذَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ سُلُوكِ مَسْلَكِهِمْ، وَاتِّخَاذِ طَرِيقَتِهِمْ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٥]، وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الْحَدِيد: ١٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...

❊ ❊ ❊



٢٠٩- تكفير المسلمين (٢)
موانع التكفير

٢/ ٦/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ عِبَادَهُ فَكَلَّفَهُمْ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ فَهَدَاهُمْ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُجَازِيهِمْ، أَحْمَدُهُ عَلَىٰ تَتَابُعِ نِعَمِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَىٰ عَظِيمِ مِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَقَامَ الحُجَّةَ، وَأَوْضَحَ المَحَجَّةَ، وَنَصَحَ لِلْأُمَّةِ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّىٰ تَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ؛ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِأَنَّهُمْ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّهَا نِعْمَ العُدَّةُ لِيَوْمٍ تَسْتَحْكِمُ فِيهِ الشِّدَّةُ، وَتَشْتَدُّ المِحْنَةُ، وَتَعْظُمُ الكُرْبَةُ، حِينَ يُلْجِمُ النَّاسَ عَرَقُهُمْ؛ فَاتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلنَّجَاةِ مِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ العَصِيبِ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: شَرِيعَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَسَطٌ بَيْنَ إِفْرَاطِ المُفْرِطِينَ، وَتَفْرِيطِ المُفَرِّطِينَ، وَسَطٌ بَيْنَ غُلُوِّ الغَالِينَ، وَجَفَاءِ الجَافِينَ، وَهِيَ الدِّينُ الحَقُّ الَّذِي هُوَ دِينُ الأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ، وَلَا يُقْبَلُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الأَدْيَانِ سِوَاهُ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ

وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وَمَنِ اخْتَارَ الإِسْلَامَ دِينًا لَهُ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ الحُكْمُ بِكُفْرِهِ إِلَّا بِنَاقِضٍ يَنْقُضُ إِسْلَامَهُ، بَعْدَ أَنْ تُبَيَّنَ لَهُ الحُجَّةُ، وَتُزَالَ عَنْهُ الشُّبْهَةُ، فَإِنْ أَصَرَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا بِسَبَبِهِ يَكْفُرُ فَلَا يَجُوزُ الحُكْمُ بِإِسْلَامِهِ، وَإِلَّا لَكَانَ دِينُ الإِسْلَامِ أُلْعُوبَةً فِي أَيْدِي السُّفَهَاءِ وَالمُحَرِّفِينَ، كَمَا هُوَ حَالُ الأَدْيَانِ المُحَرَّفَةِ أَوِ المَوْضُوعَةِ.

إِنَّ المُسْلِمَ لَا يَكْفُرُ إِلَّا إِذَا أَنْكَرَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ، أَوِ اعْتَقَدَ اعْتِقَادًا، أَوْ قَالَ قَوْلًا، أَوْ فَعَلَ فِعْلًا، قَدِ انْعَقَدَ الإِجْمَاعُ، أَوْ دَلَّ الدَّلِيلُ الصَّحِيحُ الصَّرِيحُ عَلَىٰ أَنَّهُ كُفْرٌ نَاقِلٌ عَنِ المِلَّةِ، وَلَا يَكْفُرُ بِارْتِكَابِ الْكَبَائِرِ وَالمُوبِقَاتِ، وَلَوْ جَاءَتِ النُّصُوصُ بِلَعْنِ صَاحِبِهَا أَوْ غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ، أَوْ جَاءَ فِيهَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ بِالْعَذَابِ وَالنَّارِ، إِلَّا أَنْ يَسْتَحِلَّهَا فَيَكْفُرَ بِالِاسْتِحْلَالِ لَا بِمُجَرَّدِ الفِعْلِ.

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ وُقُوعِ المُسْلِمِ فِي مُكَفِّرٍ مِنَ المُكَفِّرَاتِ الْوَاضِحَةِ الحُكْمُ بِكُفْرِهِ ابْتِدَاءً حَتَّىٰ يَنْقَطِعَ عُذْرُهُ بِتَوَافُرِ الشُّرُوطِ، وَارْتِفَاعِ المَوَانِعِ مِنَ الجَهْلِ وَالتَّأْوِيلِ وَالإِكْرَاهِ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ دَلَّتْ نُصُوصُ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَانْعَقَدَ إِجْمَاعُ سَلَفِ الأُمَّةِ، خِلَافًا لِلْفِرَقِ الضَّالَّةِ فِي هَذَا البَابِ.

أَمَّا الإِكْرَاهُ فَقَدْ رَخَّصَ اللهُ تَعَالَىٰ لِمَنْ غَلَبَ عَلَىٰ ظَنِّهِ أَنَّهُ يُقْتَلُ أَوْ يُعَذَّبُ أَنْ يَقُولَ الكُفْرَ أَوْ يَفْعَلَهُ مَعَ سَلَامَةِ قَلْبِهِ مِنْهُ، وَطُمَأْنِينَتِهِ بِالإِيمَانِ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]، نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ ﵄ حِينَ عَذَّبَهُ المُشْرِكُونَ، وَمَا تَرَكُوهُ حَتَّىٰ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تُرِكْتُ حَتَّىٰ

سَبَبْتُكَ وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، قَالَ: **كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟** قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالإِيمَانِ، فَقَالَ: **إِنْ عَادُوا فَعُدْ**»[١].

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَلِهَذَا اتَّفَقَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنَّ المُكْرَهَ عَلَىٰ الكُفْرِ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُوَالِيَ إِبْقَاءً لِمُهْجَتِهِ»[٢].

وَهَذِهِ الرُّخْصَةُ رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ، فَمَا كُلُّ النَّاسِ يُطِيقُ العَذَابَ، وَيُوَاجِهُ المَوْتَ فِي سَبِيلِ دِينِهِ، وَمَنْ ثَبَتَ عَلَىٰ دِينِهِ وَلَوْ أَفْضَىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ تَعْذِيبِهِ وَقَتْلِهِ فَهُوَ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ كَمَا ثَبَتَ بِلَالٌ ﷺ، وَأَغَاظَ المُشْرِكِينَ وَهُمْ يَفْعَلُونَ بِهِ الأَفَاعِيلَ؛ حَتَّىٰ كَانُوا يَضَعُونَ الصَّخْرَةَ العَظِيمَةَ عَلَىٰ صَدْرِهِ فِي شِدَّةِ الحَرِّ وَيَأْمُرُونَهُ بِالشِّرْكِ بِاللَّهِ فَيَأْبَىٰ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ[٣]، وَيَقُولُ: وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ كَلِمَةً هِيَ أَغْيَظُ لَكُمْ مِنْهَا لَقُلْتُهَا! رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ[٤].

وَكَذَلِكَ حَبِيبُ بنُ زَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ لَمَّا قَالَ لَهُ مُسَيْلِمَةُ الكَذَّابُ: أَتَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ مُسَيْلِمَةُ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا أَسْمَعُ، فَلَمْ يَزَلْ يُقَطِّعُهُ إِرْبًا إِرْبًا وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ لَقِيَ اللهَ تَعَالَىٰ، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ[٥].

وَقَدْ نَهَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ إِلَّا أَنْ

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٤٩)، والبيهقي (٨/ ٢٠٨)، والحاكم وصححه وقال: علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/ ٣٨٩)، والطبري في تفسيره (١٤/ ١٢٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٩).

(٣) أخرجه من حديث ابن مسعود ﷺ: ابن ماجه في المقدمة، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد (١٥٠)، وأحمد (١/ ٤٠٤)، وصححه ابن حبان (٧٠٨٣)، والحاكم (٨/ ٣٢٠).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٩).

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٩).

يَخَافُوهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيُصَانِعُوهُمْ؛ دَرْءًا لِشَرِّهِمْ، وَرَدًّا لِخَطَرِهِمْ، مَعَ بُغْضِهِمْ لَهُمْ، وَمَعُونَةِ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] أَيْ: إِلَّا أَنْ تَخَافُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فِي إِبْدَاءِ العَدَاوَةِ لِلْكَافِرِينَ، فَلَكُمْ فِي هَذِهِ الحَالِ الرُّخْصَةُ فِي المُسَالَمَةِ وَالمُهَادَنَةِ، لَا فِي التَّوَلِّي الَّذِي هُوَ مَحَبَّةُ القَلْبِ الَّذِي تَتْبَعُهُ النُّصْرَةُ[٦].

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ﴾ [آل عمران: ٢٨] أَيْ: إِلَّا مَنْ خَافَ فِي بَعْضِ البُلْدَانِ وَالأَوْقَاتِ مِنْ شَرِّهِمْ فَلَهُ أَنْ يَتَّقِيَهُمْ بِظَاهِرِهِ لَا بِبَاطِنِهِ وَنِيَّتِهِ؛ كَمَا قَالَ البُخَارِيُّ: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: إِنَّا لَنُكَشِّرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ» اهـ[٧].

وَالجَهْلُ مَانِعٌ مِنْ وَصْفِ المُسْلِمِ بِالكُفْرِ، إِذَا كَانَ مِثْلُهُ يَجْهَلُ الكُفْرَ الَّذِي قَالَهُ أَوْ فَعَلَهُ، وَلَوْ أَتَىٰ نَاقِضًا مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلَامِ؛ حَتَّىٰ يُرْفَعَ جَهْلُهُ بِالعِلْمِ، وَتُقَامَ عَلَيْهِ الحُجَّةُ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: **«أَنَّ رَجُلًا كَانَ قَبْلَكُمْ رَغَسَهُ اللهُ مَالًا** -أَيْ: كَثَّرَ مَالَهُ أَوْ جَعَلَ لَهُ أَصْلًا مِنْ مَالٍ- **فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حُضِرَ: أَيُّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَإِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللهُ ﷻ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ»**، وَفِي رِوَايَةٍ: **«فَجَمَعَهُ اللهُ، فَقَالَ: لِمَ**

---

(٦) تفسير السعدي (١٢٧).

(٧) تفسير ابن كثير (١/ ٣٥٨)، وأثر أبي الدرداء رضي الله عنه أخرجه البخاري معلقًا بصيغة التمريض في الآداب، باب المداراة مع الناس (٥/ ٢٢٧١)، ووصله هناد في الزهد (١٢٥٠)، والبيهقي في الشعب (٨١٠٣)، وابن أبي الدنيا في الحلم (١٠٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٢٢)، وينظر: تغليق التعليق (٥/ ١٠٢-١٠٣).

فَعَلْتَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، فَغَفَرَ لَهُ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ[٨].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ أَوْصَىٰ بَنِيهِ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ أَذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ؛ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا، قَالَ: فَفَعَلُوا ذَٰلِكَ بِهِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ، أَوْ قَالَ: مَخَافَتُكَ؛ فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ»**[٩].

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَهَذَا الرَّجُلُ اعْتَقَدَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ جَمْعِهِ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ أَوْ شَكَّ، وَأَنَّهُ لَا يَبْعَثُهُ، وَكُلٌّ مِنْ هَذَيْنِ الِاعْتِقَادَيْنِ كُفْرٌ يَكْفُرُ مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الحُجَّةُ؛ لَكِنَّهُ كَانَ يَجْهَلُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَبْلُغْهُ العِلْمُ بِمَا يَرُدُّهُ عَنْ جَهْلِهِ، وَكَانَ عِنْدَهُ إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَبِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَخَافَ مِنْ عِقَابِهِ؛ فَغَفَرَ اللهُ لَهُ بِخَشْيَتِهِ، فَمَنْ أَخْطَأَ فِي بَعْضِ مَسَائِلِ الِاعْتِقَادِ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِاليَوْمِ الآخِرِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ لَمْ يَكُنْ أَسْوَأَ حَالًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَيَغْفِرُ اللهُ تَعَالَىٰ خَطَأَهُ أَوْ يُعَذِّبُهُ إِنْ كَانَ مِنْهُ تَفْرِيطٌ فِي اتِّبَاعِ الحَقِّ عَلَىٰ قَدْرِ دِينِهِ، وَأَمَّا تَكْفِيرُ شَخْصٍ عُلِمَ إِيمَانُهُ بِمُجَرَّدِ الغَلَطِ فِي ذَلِكَ فَعَظِيمٌ»اهـ[١٠].

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «غَفَرَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ وَرَحِمَهُ لِجَهْلِهِ؛

---

(٨) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ (حديث الغار) (٣٢٩١)، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالىٰ وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٧)، والرواية الثانيه للبخاري (٣٢٩٢).

(٩) هذه الرواية للبخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٧٥٦).

(١٠) الاستقامه (١/ ١٦٣-١٦٤).

إِذْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي فَعَلَهُ مَبْلَغَ عِلْمِهِ، وَلَمْ يَجْحَدْ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ إِعَادَتِهِ عِنَادًا أَوْ تَكْذِيبًا»اهـ[١١].

وَالمُسْلِمُ قَدْ تَعْرِضُ لَهُ شُبْهَةٌ فَتُوقِعُهُ فِي الغَلَطِ، فَيَفْهَمُ النُّصُوصَ عَلَىٰ غَيْرِ وَجْهِهَا، فَيَقُولُ كُفْرًا أَوْ يَفْعَلُهُ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْهِ بِالكُفْرِ حَتَّىٰ يُزِيلَ شُبْهَتَهُ، وَيُصَحِّحَ غَلَطَهُ، فَإِنْ أَصَرَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا بِهِ كُفِّرَ كُفْرًا ظَاهِرًا وَأُقِيمَ عَلَيْهِ حَدُّ الرِّدَّةِ، وَسَرِيرَتُهُ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ وَقَعَ لِبَعْضِ الصَّحَابَةِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؛ كَمَا رَوَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَامِرٍ ﵄: «أَنَّ عُمَرَ ﵁ اسْتَعْمَلَ قُدَامَةَ بنَ مَظْعُونٍ ﵁ عَلَىٰ البَحْرَيْنِ فَقَدِمَ الجَارُودُ سَيِّدُ عَبْدِ القَيْسِ عَلَىٰ عُمَرَ ﵄ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ قُدَامَةَ شَرِبَ فَسَكِرَ، وَإِنِّي رَأَيْتُ حَدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أَرْفَعَهُ إِلَيْكَ، فَقَالَ عُمَرُ ﵁: مَنْ شَهِدَ مَعَكَ؟ قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ، فَدَعَا عُمَرُ أَبَا هُرَيْرَةَ ﵄ فَشَهِدَ عَلَيْهِ عِنْدَ عُمَرَ، ثُمَّ كَتَبَ عُمَرُ إِلَىٰ قُدَامَةَ أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ مِنَ البَحْرَيْنِ، وَاسْتَشْهَدَ عُمَرُ زَوْجَةَ قُدَامَةَ فَأَقَامَتِ الشَّهَادَةَ عَلَىٰ زَوْجِهَا، فَقَالَ عُمَرُ لِقُدَامَةَ ﵄: إِنِّي حَادُّكَ، فَقَالَ: لَوْ شَرِبْتُ كَمَا يَقُولُونَ مَا كَانَ لَكُمْ لِتَجْلِدُونِي، فَقَالَ عُمَرُ -﵁: لِمَ؟ قَالَ قُدَامَةُ ﵁: قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ ... [المائدة: ٩٣]، قَالَ عُمَرُ ﵁: أَخْطَأْتَ التَّأْوِيلَ، إِنِ اتَّقَيْتَ اللهَ ﷻ اجْتَنَبْتَ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْكَ، فَجَلَدَهُ عُمَرُ حَدَّ الخَمْرِ»[١٢].

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ظَنَّ أَنَّ الخَمْرَ حُرِّمَتْ عَلَىٰ العَامَّةِ دُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فَشَرِبَهَا

---

(١١) مدارج السالكين (١/ ٣٣٩).

(١٢) أخرجه عبد الرزاق (٩/ ٢٤٠) رقم (١٧٠٧)، والبيهقي (٨/ ٣١٥)، وابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١٢٧٧-١٢٧٨).

مُتَأَوِّلًا، فَأَحْضَرَهُ عُمَرُ، وَاتَّفَقَ هُوَ وَأَئِمَّةُ الصَّحَابَةِ كَعَلِيٍّ وَغَيْرِهِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ إِنْ أَصَرُّوا عَلَىٰ اسْتِحْلَالِهَا كَفَرُوا، وَإِنْ أَقَرُّوا بِالتَّحْرِيمِ جُلِدُوا، فَأَقَرُّوا بِالتَّحْرِيمِ، ثُمَّ حَصَلَ لِذَلِكَ نَوْعٌ مِنَ اليَأْسِ وَالقُنُوطِ لِمَا فَعَلَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١-٣]، وَأَظُنُّهُ قَالَ: مَا أَدْرِي أَيُّ ذَنْبَيْكَ أَعْظَمُ: اسْتِحْلَالُكَ الرِّجْسَ أَمْ يَأْسُكَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؟! وَهَذَا مِنْ عِلْمِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَعَدْلِهِ؛ فَإِنَّ الفَقِيهَ كُلَّ الفَقِيهِ لَا يُؤَيِّسُ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَا يُجَرِّئُهُمْ عَلَىٰ مَعَاصِي اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَاسْتِحْلَالُ المُحَرَّمَاتِ كُفْرٌ، وَاليَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﷻ كُفْرٌ؛ وَلِهَذَا كَانَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَىٰ بَيْنَ الحَرُورِيَّةِ وَالمُرْجِئَةِ»اهـ[١٣].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا الفِقْهَ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَىٰ الحَقِّ المُبِينِ، وَأَنْ يَحْفَظَنَا وَإِخْوَانَنَا المُسْلِمِينَ مِنْ مُضِلَّاتِ الفِتَنِ وَالأَهْوَاءِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة ص: ٢٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ قَضَىٰ بِالحَقِّ، وَأَمَرَ بِالعَدْلِ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَعَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

(١٣) الاستقامة (٢/ ١٩٠).

وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَأَطِيعُوهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: قَضِيَّةُ الإِيمَانِ وَالكُفْرِ مِنْ أَخْطَرِ القَضَايَا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ ضَلَّ فِيهَا طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْصَارِ وَالأَزْمَانِ، وَاحْتَارَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِسَبَبِ الِاخْتِلَافِ فِيهَا بَيْنَ المُفْرِطِينَ وَالمُفَرِّطِينَ؛ فَأَقْوَامٌ عَرَضَتْ لَهُمْ بَعْضُ الشُّبُهَاتِ فِي إِخْوَانِهِمُ المُسْلِمِينَ فَكَفَّرُوهُمْ ثُمَّ قَاتَلُوهُمْ بِنَاءً عَلَىٰ تَكْفِيرِهِمْ لَهُمْ، وَنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ مِنْ إِيقَاعِ الكُفْرِ عَلَىٰ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ، ثُمَّ الِاعْتِدَاءِ عَلَيْهِ، وَاسْتِبَاحَةِ دَمِهِ وَمَالِهِ؛ وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: رَجُلٌ كَفَرَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ، أَوْ زَنَىٰ بَعْدَ إِحْصَانِهِ، أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ**»[(١٤)].

وَمِنَ الظُّلْمِ العَظِيمِ فِي هَذَا البَابِ: القَوْلُ بِالإِرْجَاءِ، وَنَفْيُ الكُفْرِ عَمَّنْ يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْكُفَّارِ الْأَصْلِيِّينَ؛ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَالوَثَنِيِّينَ، أَوِ المُرْتَدِّينَ الَّذِينَ يُعْلِنُونَ رَفْضَهُمْ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَعَ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَاسْتِبَانَةِ المَحَجَّةِ لَهُمْ، بِحُجَّةِ أَنَّ وَصْفَهُمْ بِالْكُفْرِ لَا يَتَنَاسَبُ مَعَ ثَقَافَةِ الحِوَارِ، وَقَبُولِ الرَّأْيِ الآخَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الحُجَجِ الوَاهِيَةِ الَّتِي تُلْغَىٰ بِهَا شَرِيعَةُ رَبِّ العَالَمِينَ؛ إِرْضَاءً لِلْكَافِرِينَ

---

(١٤) أخرجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: البخاري في الديات، باب قول الله تعالىٰ: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] (٦٤٨٤)، ومسلم في المحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦).

وَالمُنَافِقِينَ، وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ وَالجَاهِلِينَ.

بَلْ إِنَّ بَعْضَ مَنْ ضَلُّوا فِي هَذَا البَابِ يَزْعُمُونَ أَنَّ الحَقَّ خَفِيٌّ، أَوْ أَنَّ الأَدْيَانَ كُلَّهَا مُوَصِّلَةٌ لِرِضَا رَبِّ العَالَمِينَ، فَلَا يَجُوزُ الِاخْتِلَافُ بِسَبَبِهَا، وَكُلُّ هَذِهِ الأَقَاوِيلِ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَضَلَالٌ كَبِيرٌ، مَنْ قَالَ بِهَا فَهُوَ يُلْغِي الإِسْلَامَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَقَدْ كَفَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ مَنِ اسْتَحَقَّ الكُفْرَ مِنْ عِبَادِهِ، فَقَالَ ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وَكَثُرَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ لَعْنُ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، وَالحُكْمُ عَلَيْهِمْ بِالنَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا مَا دَامُوا عَلَىٰ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ؛ كَمَا رَوَىٰ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(١٥).

فَالحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ، وَدِينُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَسَطٌ بَيْنَ الغَالِينَ وَالجَافِينَ، وَلَنْ يَضُرَّهُ ضَلَالُ الضَّالِّينَ، وَلَا تَحْرِيفُ المُحَرِّفِينَ، وَلَا تَخْذِيلُ المُخَذِّلِينَ، الَّذِينَ جَعَلُوا مِنْ مُهِمَّاتِهِمْ تَحْرِيفَ الكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَتَبْدِيلَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَصْدِيرَ الفَتَاوَىٰ الشَّاذَّةِ الَّتِي لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا سَلَفٌ، وَهِيَ مُصَادِمَةٌ لِلنُّصُوصِ القَطْعِيَّةِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ لِيَشْتَرُوا بِهَا ثَمَنًا قَلِيلًا، وَلِيَنَالُوا عَرَضًا مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا، كَمَا فَعَلَ أَسْلَافُهُمْ مِنْ أَحْبَارِ اليَهُودِ، وَرُهْبَانِ النَّصَارَىٰ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ

(١٥) أخرجه مسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلىٰ جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣)، وأحمد (٢/ ٣١٧).

أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَعَضُّوا عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ، وَلَا تَغُرَّنَّكُمْ أَقْوَالُ المُخَذِّلِينَ، وَتَشْكِيكُ المُشَكِّكِينَ، وَتَلَاعُبُ المُتَلَاعِبِينَ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّهُمْ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ، وَلَنْ يَضُرُّوا اللهَ تَعَالَىٰ وَلَا شَرِيعَتَهُ شَيْئًا، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ....



٢١٠- فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (١) أثرها على الصحابة والتابعين

١٦/ ٤/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: عِنْدَمَا تَمُوجُ الْفِتَنُ، وَيَخْتَلِطُ الْأَمْرُ، وَيَكْثُرُ الْجَدَلُ، وَيَلْتَبِسُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ؛ فَإِنَّ مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ أَنْ يَثْبُتَ عَلَى الْجَادَّةِ، وَيَلْزَمَ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَيَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ سَلِيمُ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ .. قَدْ سَلِمَ قَلْبُهُ مِنَ الشُّبُهَاتِ؛ فَمَا أُشْرِبَهَا، وَسَلِمَ مِنَ الْفِتْنَةِ؛ فَمَا مَالَ إِلَيْهَا، وَسَلِمَ عَلَى إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَلَمْ يَحْمِلْ فِي قَلْبِهِ غِشًّا وَلَا ضَغِينَةً بِسَبَبِ دُنْيَا مُنِعَ مِنْهَا وَأُعْطِيَتْ لِغَيْرِهِ، وَسَلِمَ قَلْبُهُ لِلَّهِ تَعَالَى فَامْتَلَأَ إِيمَانًا وَيَقِينًا، وَوَلَاءً لِلَّهِ تَعَالَى وَلِدِينِهِ

وَلِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ. وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ سَلَامَةَ قَلْبٍ؛ فَإِنَّ جَوَارِحَهُ سَتَكُونُ نَظِيفَةً سَلِيمَةً، فَلَا تَتَلَطَّخُ يَدُهُ بِدِمَاءٍ مُحَرَّمَةٍ، وَلَا يَقَعُ لِسَانُهُ فِي أَعْرَاضِ إِخْوَانِهِ، وَلَنْ يَكُونَ شَرِيكًا فِي تَأْجِيجِ فِتْنَةٍ . . وَإِذَا مَا اسْتَزَلَّهُ الشَّيْطَانُ فِي حَالِ ضَعْفٍ وَغَفْلَةٍ هَرِعَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَاسْتَغْفَرَهُ وَتَابَ إِلَيْهِ، وَاعْتَنَىٰ بِصَلَاحِ قَلْبِهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، وَسَلَامَةِ جَوَارِحِهِ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَالْفِتَنُ لَا تَبْدَأُ عَظِيمَةً كَبِيرَةً، وَلَا تَكُونُ فِي أَوَّلِهَا مُلْتَبِسَةً مُحَيِّرَةً، وَلَكِنَّهَا تَكْبُرُ شَيْئًا شَيْئًا؛ فَمَنْ سَارَعَ فِيهَا مَلَكَتْهُ وَلَمْ يَمْلِكْهَا، وَسَيَّرَتْهُ وَلَمْ يُسَيِّرْهَا، وَأَوْقَعَتْهُ فِيمَا يُسَبِّبُ خَسَارَتَهُ، وَيُوجِبُ نَدَمَهُ، حِينَهَا يَتَمَنَّىٰ المُتَشَرِّبُ بِالْفِتَنِ عَوْدَةَ الزَّمَنِ إِلَىٰ بِدَايَتِهِ؛ لِكَيْلَا يَسِيرَ فِي رِكَابِهَا، وَلَا يَرْكَبَ أَمْوَاجَهَا؛ وَلَكِنْ فَاتَ وَقْتُ التَّمَنِّي، وَحَقَّتْ آثَارُ الْفِتْنَةِ وَنَتَائِجُهَا.

وَالْبَابُ المُوصَدُ دُونَ الْفِتَنِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَانَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه[(١)]، فَلَمَّا كُسِرَ الْبَابُ بِقَتْلِهِ انْطَلَقَتِ الْفِتَنُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَلَا تَقِفُ إِلَّا بِقَتْلِ الدَّجَّالِ، ثُمَّ هَلَاكِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ. قَالَ أَعْلَمُ الصَّحَابَةِ بِالْفِتَنِ، وَأَمِينُ سِرِّ النَّبِيِّ ﷺ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رضي الله عنهما: «أَوَّلُ الْفِتَنِ قَتْلُ عُثْمَانَ، وَآخِرُ الْفِتَنِ خُرُوجُ الدَّجَّالِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَمُوتُ رَجُلٌ وَفِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ حُبِّ قَتْلِ عُثْمَانَ إِلَّا تَبِعَ الدَّجَّالَ إِنْ أَدْرَكَهُ، وَإِنْ لَمْ يُدْرِكْهُ آمَنَ بِهِ فِي قَبْرِهِ»[(٢)].

---

(١) دل علىٰ ذلك حديث حذيفة رضي الله عنه وفيه: أن حذيفة قال لعمر رضي الله عنهما لما سأله عن الفتنة التي تموج موج البحر: «ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا، قال عمر: أيكسر الباب أم يفتح؟ قال: لا بل يكسر، قال عمر: إذا لا يغلق أبدًا» أخرجه البخاري في الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر (٦٦٨٣)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب في الفتنة التي تموج كموج البحر (١٤٤).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٤٤٧)، ونقله عنه ابن كثير في البداية =

لَقَدْ كَانَ الْخُرُوجُ عَلَىٰ عُثْمَانَ ﷺ وَقَتْلُهُ أَعْظَمَ فِتْنَةٍ ابْتُلِيَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ فِي صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَرَغْمَ أَنَّ عُمَرَ أَفْضَلُ مِنْ عُثْمَانَ وَهُوَ مَقْتُولٌ أَيْضًا؛ فَإِنَّ قَتْلَ عُثْمَانَ كَانَ أَشَدَّ وَطْأَةً عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَرْضَاهُمَا-؛ فَقَاتِلُ عُمَرَ ﷺ فَرْدٌ مَجُوسِيٌّ كَافِرٌ، أَكَلَهُ الْحِقْدُ، وَأَعْمَاهُ الْحَسَدُ، وَمَا ادَّعَىٰ بِقَتْلِ عُمَرَ إِصْلَاحًا .. أَمَّا قَتَلَةُ عُثْمَانَ فَمُسْلِمُونَ دَاخَلَتْهُمُ الشُّبُهَاتُ، وَتَشَرَّبَتْهُمُ الْفِتَنُ وَالْأَهْوَاءُ، فِي جَمْعٍ غَفِيرٍ مِنَ الرَّعَاعِ وَالدَّهْمَاءِ، زَعَمُوا بِالْخُرُوجِ عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ وَقَتْلِهِ صَلَاحَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ الْفَسَادُ عَيْنُهُ!!

لَقَدْ طَاشَتْ عُقُولُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَتْلِ عُثْمَانَ ﷺ، وَعَظُمَ ذَلِكَ فِي نُفُوسِهِمْ، وَضَاقَتْ حِيلَتُهُمْ؛ مِنْ شِدَّةِ الْفِتْنَةِ، وَأَلَمِ الْمُصِيبَةِ، وَهَوْلِ الْفَاجِعَةِ؛ حَتَّىٰ إِنَّ عَلِيًّا ﷺ دَخَلَ عَلَىٰ عُثْمَانَ وَهُوَ مَقْتُولٌ فَوَقَعَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ يَبْكِي، فَظَنُّوا أَنَّهُ سَيَلْحَقُ بِهِ مِنْ شِدَّةِ مَا أَلَمَّ بِهِ!![٣].

وَرَغْمَ مَا مَرَّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ ﷺ مِنْ مَصَائِبَ وَحُرُوبٍ وَفِتَنٍ؛ فَإِنَّهُ مَا نَسِيَ مَقْتَلَ عُثْمَانَ ﷺ، وَتَذَكَّرَهُ وَهُوَ يُقَابِلُ أَعْدَاءَهُ فِي مَوْقِعَةِ الْجَمَلِ لِقِتَالِهِمْ، قَالَ قَيْسُ بْنُ عَبَّادٍ: سَمِعْتُ عَلِيًّا ﷺ يَوْمَ الْجَمَلِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَقَدْ طَاشَ عَقْلِي يَوْمَ قُتِلَ عُثْمَانُ، وَأَنْكَرْتُ نَفْسِي، وَجَاءُونِي لِلْبَيْعَةِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أُبَايِعَ قَوْمًا قَتَلُوا رَجُلًا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَلَا أَسْتَحْيِي مِمَّنْ تَسْتَحْيِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ؟** وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ

= والنهاية (٧/ ١٥٤)، وهو في تاريخ الخلفاء للسيوطي(١٦٢).

وجاء في مصنف ابن أبي شيبة عن حذيفة ﷺ قال: «أول الفتن قتل عثمان، وآخرها الدجال» (٧/ ٢٦٤)، وأخرجه عمر بن شبة في أخبار المدينة (٢٢٠٩-٢٢١٠)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٢/ ٨٨).

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٥٥).

أَنْ أُبَايِعَ وَعُثْمَانُ قَتِيلٌ عَلَىٰ الْأَرْضِ لَمْ يُدْفَنْ بَعْدُ، فَانْصَرَفُوا، فَلَمَّا دُفِنَ رَجَعَ النَّاسُ فَسَأَلُونِي الْبَيْعَةَ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي مُشْفِقٌ مِمَّا أُقْدِمُ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَاءَتْ عَزِيمَةٌ فَبَايَعْتُ؛ فَلَقَدْ قَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَأَنَّمَا صُدِعَ قَلْبِي، وَقُلْتُ: اللَّهُمَّ خُذْ مِنِّي لِعُثْمَانَ حَتَّىٰ تَرْضَىٰ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ(٤).

كَانَ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ- وَقْتَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ فِي الطَّرِيقِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ عَائِدَاتٍ مِنَ الْحَجِّ، فَلَمَّا بَلَغَهُنَّ الْخَبَرُ رَجَعْنَ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَأَقَمْنَ بِهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ إِلَىٰ أَنْ خَفَّ أَلَمُ الْمُصِيبَةِ(٥).

وَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ لِيُفَجَّعُوا بِمَقْتَلِ عُثْمَانَ هَذِهِ الْفَجِيعَةَ الْعَظِيمَةَ لَوْلَا عِلْمُهُمْ أَنَّ لِهَذَا الْحَدَثِ مَا بَعْدَهُ، فَمَا كَانَ لِأُمَّةٍ أَنْ تَخْرُجَ عَلَىٰ سُلْطَانِهَا، وَتَقْتُلَ خَلِيفَتَهَا، ثُمَّ تَأْمَنَ بَعْدَ ذَلِكَ!! لَقَدْ أَدْرَكَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ -رَضِيَ اللهُ عَنْ جَمِيعِهِمْ- حَجْمَ هَذِهِ الْكَارِثَةِ، وَعَلِمُوا مِقْدَارَ تِلْكَ الْفِتْنَةِ؛ فَكَانَتْ فَجِيعَتُهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ الْحَدَثِ، وَوَصْفُهُمْ لِآثَارِهِ وَقَعَ كَمَا ظَنُّوا.

قَالَ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ زَيْدُ بْنُ صُوحَانَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «يَوْمَ قُتِلَ عُثْمَانُ نَفَرَتِ الْقُلُوبُ مَنَافِرَهَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَتَأَلَّفُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٦).

---

(٤) أخرجه الحاكم وصححه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٣/ ٩٥).

(٥) البداية والنهاية (٧/ ١٥٦).

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٤٩٠-٤٩١)، وهو في البداية والنهاية (٧/ ١٥٦).
وزيد بن صوحان هو ابن حجر بن الحارث بن الهجرس العبدي أسلم في عهد النبي ﷺ، واختلف في صحبته، قال ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٥٥٥-٥٥٦): «لا أعلم له عن النبي ﷺ رواية وإنما يروي عن عمر وعلي» ثم نقل ابن عبد البر عن محمد بن السائب الكلبي أن زيدا أدرك النبي ﷺ وصحبه، قال ابن عبد البر «ولا أعلم له صحبة ولكنه ممن أدرك النبي ﷺ بسنة مسلما» اهـ.
=

وَسَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ رضي الله عنه رَجُلًا يَقُولُ لِآخَرَ: «قُتِلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فَلَمْ يَنْتَطِحْ فِيهِ عَنْزَانِ، فَقَالَ ابْنُ سَلَامٍ رضي الله عنه: أَجَلْ، إِنَّ الْبَقَرَ وَالمَعْزَ لَا تَنْتَطِحُ فِي قَتْلِ الْخَلِيفَةِ، وَلَكِنْ يَنْتَطِحُ فِيهِ الرِّجَالُ بِالسِّلَاحِ، وَاللَّهِ لَتُقْتَلَنَّ بِهِ أَقْوَامٌ إِنَّهُمْ لَفِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ مَا وُلِدُوا بَعْدُ»(٧).

وَوَقَعَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ.

وَكَانَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه إِذْ ذَاكَ مَرِيضًا مَرَضَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِالْأَمْرِ، فَسَمِعَ رَجُلًا يُنَاجِي امْرَأَتَهُ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَسَأَلَهُمَا: «مَاذَا تَقُولَانِ؟ فَقَالَا: خَيْرًا، فَقَالَ: إِنَّ شَيْئًا تُسِرَّانِهِ دُونِي مَا هُوَ بِخَيْرٍ! قَالَ: قُتِلَ الرَّجُلُ -يَعْنِي عُثْمَانَ- قَالَ: فَاسْتَرْجَعَ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ بِمَعْزِلٍ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا فَهُوَ لِمَنْ حَضَرَهُ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا فَهُوَ لِمَنْ حَضَرَهُ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، الْيَوْمَ نَفَرَتِ الْقُلُوبُ بِأَنْفَارِهَا، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَبَقَ بِيَ الْفِتَنَ قَادَتَهَا وَعُلُوجَهَا، الْحَطِيُّ مَنْ تَرَدَّىٰ بَعِيرُهُ، فَشَبِعَ شَحْمًا وَقَلَّ عَمَلُهُ»(٨).

= وذكره ابن حبان في مشاهير التابعين بالكوفة في كتابه: مشاهير علماء الأمصار (٧٤٥).
وقال الذهبي في السير (٣/ ٥٢٥): «ذكروه في كتب معرفة الصحابة، ولا صحبة له لكنه أسلم في حياة النبي ﷺ . .» اهـ.
وذكر ابن عساكر في تاريخه وفدا جاءوا إلىٰ النبي ﷺ معهم زيد بن صوحان وأثنىٰ عليهم النبي ﷺ (١٩/ ٤٧٣)، قال الحافظ في الإصابة (٢/ ٦٢٥) بعد أن أورد ذلك: «وعلىٰ هذا فهو صحابي لا محالة».
قلت: المشهور أنه أسلم في وقت النبي ﷺ ولم يره.

(٧) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٤٨١)، وهو في البداية والنهاية (٧/ ١٥٦).
وروىٰ ابن أبي شيبة بسنده إلىٰ محمد بن سيرين قال: «لما قتل عثمان قال عدي بن حاتم: لا تنتطح فيه عنزان، فلما كان يوم صفين فقئت عينه، فقيل: لا تنتطح في قتل عثمان عنزان؟ قال: بلىٰ، وتفقأ فيه عيون كثيرة» (٧/ ٥٢٥) برقم (٣٧٧١٤).

(٨) أخرجه ابن عساكر (٣٩/ ٤٧٩)، وهو في البداية والنهاية (٧/ ١٥٤). =

وَلمَّا رَأَىٰ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ أَبُو مُسْلِمِ الْخَوْلَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- الْوَفْدَ الَّذِينَ قَدِمُوا مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ سَأَلَهُمْ فَقَالَ: «أَمَا مَرَرْتُمْ بِبِلَادِ ثَمُودَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكُمْ مِثْلُهُمْ؛ لَخَلِيفَةُ اللَّهِ أَكْرَمُ عَلَيْهِ مِنْ نَاقَتِهِ»(٩).

وَقَالَ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ ﷺ: «لَوْ كَانَ قَتْلُ عُثْمَانَ هُدًىٰ لَاحْتَلَبَتْ بِهِ الْأُمَّةُ لَبَنًا، وَلَكِنَّهُ كَانَ ضَلَالًا فَاحْتَلَبَتْ بِهِ الْأُمَّةُ دَمًا»(١٠).

إِنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ الْمُتَضَافِرَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ فِي فِتْنَةِ مَقْتَلِ عُثْمَانَ لَتَدُلُّ عَلَىٰ فَهْمِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ لِلْوَاقِعِ مَعَ فِقْهِهِمْ لِلنُّصُوصِ، وَتُثْبِتُ أَنَّهُمْ ﷺ كَانُوا يُدْرِكُونَ حَجْمَ الْفِتْنَةِ، وَآثَارَهَا السَّيِّئَةَ فِي الْأُمَّةِ، وَأَنَّ دَمَ عُثْمَانَ ﷺ الَّذِي أُهْرِيقَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا سَتَتْبَعُهُ دِمَاءٌ كَثِيرَةٌ لَنْ يَتَوَقَّفَ نَزِيفُهَا إِلَّا بِخُرُوجِ الدَّجَّالِ؛ فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فِي الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ، وَمُنْذُ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ وَفِتَنُ الدِّمَاءِ يَأْخُذُ بَعْضُهَا بِرِقَابِ بَعْضٍ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا.

وَأَمَّا قَتَلَةُ عُثْمَانَ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ نَدِمُوا أَشَدَّ النَّدَمِ، وَمَا ظَنُّوا أَنَّ الْأُمُورَ سَتَبْلُغُ مَا بَلَغَتْ، وَلَكِنْ مَا نَفْعُ نَدَمٍ بَعْدَ سَفْكِ دَمٍ وَإِشْعَالِ نَارِ فِتْنَةٍ، لَا يَمْلِكُ مَنْ أَشْعَلَهَا إِطْفَاءَهَا؟!

وَلَمَّا بَلَغَ عَلِيًّا ﷺ أَنَّ قَتَلَةَ عُثْمَانَ نَدِمُوا تَلَا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ

= والمعنىٰ فيما يظهر لي: أي: ضعف بعيره عن المسير وعجز عن ذلك بسبب الشحم، كناية عن عدم سيره في الفتنة، واستعجاله إليها، والله أعلم.

(٩) البداية والنهاية (٧/ ١٥٤).

(١٠) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ٣٦٩)، وابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٤٨٠)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٦٦٠٥).
وجاء مثله عن الحسن البصري: أخرجه ابن عساكر (٣٩/ ٤٩١)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ١٥٧).

إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْحَشْر: ١٦](١١).

وَتَلَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ فِي حَقِّهِمْ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الْكَهْف: ١٠٢-١٠٣](١٢).

نَعَمْ وَاللَّهِ! إِنَّهُمْ قَدْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أَحْسَنُوا صُنْعًا بِقَتْلِهِ، وَقَدْ أَسَاءُوا أَعْظَمَ الْإِسَاءَةِ، وَدَعَا سَعْدٌ عَلَيْهِمْ - وَهُوَ مُجَابُ الدَّعْوَةِ - فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْدِمْهُمْ ثُمَّ خُذْهُمْ»(١٣).

فَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَىٰ دُعَاءَ سَعْدٍ، فَمَا مَاتَ أَحَدٌ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَّا مَقْتُولًا؛ كَمَا أَقْسَمَ عَلَىٰ ذَلِكَ بَعْضُ السَّلَفِ(١٤)، وَبَعْضُهُمْ قُتِلَ شَرَّ قِتْلَةٍ بَعْدَ أَنْ طُورِدُوا وَعُذِّبُوا وَمُثِّلَ بِبَعْضِهِمْ.

نَسْأَلُ اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، كَمَا نَسْأَلُهُ أَنْ يَحْفَظَنَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ، وَنَوَازِعِ الْهَوَىٰ، وَالْتِبَاسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، اللَّهُمَّ أَرِنَا الْحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ، وَأَرِنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ؛ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ

---

(١١) أخرجه ابن عساكر (٣٩/ ٤٤٠)، وهو في مقتل الشهيد عثمان للجاحظ (١٤٩)، والبداية والنهاية (٧/ ١٥٢).

(١٢) البداية والنهاية (٧/ ١٥٢).

(١٣) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٧٦)، وابن عساكر(٣٩/ ٤٤٠)، وهو في مقتل الشهيد عثمان للجاحظ (١٤٩).

(١٤) البداية والنهاية (٧/ ١٥٢).

عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنَا لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، اللَّهُمَّ احْفَظْ بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، وَرُدَّ كَيْدَ الْكَائِدِينَ إِلَىٰ نُحُورِهِمْ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ لِي وَلَكُمْ؛ فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَىٰ فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارًا يَمْحُو الذُّنُوبَ وَالْخَطَايَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاسْتَمْسِكُوا بِمَا أَنْزَلَ مِنَ الْوَحْيِ؛ فَإِنَّ تَقْوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي الظُّلَمِ، وَالْوَحْيَ سَبِيلٌ يَهْدِي الْعِبَادَ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَا يَحْصُلُ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنِ اخْتِلَافٍ وَفُرْقَةٍ، وَتَنَازُعٍ فِي الْأَقْوَالِ، وَتَرَاشُقٍ بِالتُّهَمِ، وَانْتِشَارٍ لِلْأَهْوَاءِ، وَازْدِيَادِ الْفِتَنِ فِي وَقْتٍ عَصِيبٍ عَسِيرٍ لَيَسْتَدْعِي التَّوْبَةَ الْجَمَاعِيَّةَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالتَّجَرُّدَ مِنَ الْأَهْوَاءِ، وَالْتِزَامَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالنُّصْحَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ، وَالسَّعْيَ الْحَثِيثَ إِلَىٰ مَا يَجْمَعُ الْكَلِمَةَ، وَيَرْأَبُ الصَّدْعَ، مَعَ الِاسْتِفَادَةِ مِنَ التَّجَارِبِ

السَّابِقَةِ فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ فِي مُوَاجَهَةِ الْمِحَنِ، وَمُعَالَجَةِ الْفِتَنِ، وَاجْتِنَابِ أَخْطَائِهَا، وَالْتِزَامِ صَوَابِهَا.

وَلَوْ نَظَرْنَا فِي فِتْنَةِ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ﵁ لَوَجَدْنَا أَنَّ بِدَايَتَهَا كَانَتْ مُجَرَّدَ آرَاءٍ فِي الِاعْتِرَاضِ عَلَىٰ سِيَاسَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، ثُمَّ تَفَاقَمَتْ بِفِعْلِ أَعْدَاءٍ مَلَأَ الْحِقْدُ قُلُوبَهُمْ، فَانْدَسُّوا فِي صُفُوفِ الدَّهْمَاءِ وَالرَّعَاعِ، يُؤَلِّبُونَهُمْ وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَىٰ الْخُرُوجِ عَلَىٰ عُثْمَانَ ﵁ كَانَ عَلَىٰ رَأْسِهِمْ: ابْنُ السَّوْدَاءِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَإٍ الْيَهُودِيُّ، الَّذِي لُقِّبَ بِالمَوْتِ الْأَسْوَدِ، وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ، وَكَانَ عَلَىٰ رَأْسِ طَلَائِعِ الْخَارِجِينَ عَلَىٰ عُثْمَانَ، يَنْفُخُ فِي نَارِ الْفِتْنَةِ، وَيَقْطَعُ الطَّرِيقَ عَلَىٰ أَيِّ مُبَادَرَةٍ لِرَدِّ الْعُدْوَانِ عَنْ عُثْمَانَ ﵁ وَيُحَرِّضُ عَامَّةَ النَّاسِ، وَيُضَخِّمُ الْأَخْطَاءَ، وَيَتَّخِذُ الْكَذِبَ وَالْأَبَاطِيلَ وَالْإِشَاعَاتِ سَبِيلًا إِلَىٰ مَا يُرِيدُ؛ حَتَّىٰ بَلَغَ مَا تَمَنَّىٰ، وَكَانَ أَخْزَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ جُمْلَةِ مَنِ اقْتَحَمُوا الدَّارَ عَلَىٰ عُثْمَانَ ﵁ وَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا(١٥).

وَسَبَبٌ آخَرُ لَا يَقِلُّ أَهَمِّيَّةً عَنِ السَّبَبِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ كَانَ مِنْ خَاصَّةِ عُثْمَانَ ﵁، وَأَقَامَ مَعَهُ فِي الدَّارِ، وَلَمَّا وَقَعَ الصُّلْحُ فِي بِدَايَاتِ الْفِتْنَةِ بَيْنَ عُثْمَانَ وَالْخَارِجِينَ عَلَيْهِ بِأَنْ يُلَبِّيَ بَعْضَ مَطَالِبِهِمْ، وَكَتَبَ كِتَابًا بِذَلِكَ؛ إِخْمَادًا لِلْفِتْنَةِ، وَحَقْنًا لِلدِّمَاءِ؛ اجْتَهَدَ مَرْوَانُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَافْتَاتَ عَلَىٰ وَلِيِّ أَمْرِهِ، فَكَتَبَ كِتَابًا خَتَمَهُ بِخَاتَمِ عُثْمَانَ، وَوَجَّهَهُ إِلَىٰ أَمِيرِ مِصْرَ يَأْمُرُهُ بِقَتْلِ الْخَوَارِجِ عَلَىٰ عُثْمَانَ وَصَلْبِهِمْ، وَتَقْطِيعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافٍ، فَاطَّلَعَ الْخَارِجُونَ عَلَىٰ عُثْمَانَ عَلَىٰ هَذَا الْكِتَابِ فَثَارَتْ ثَائِرَتُهُمْ، وَعَادُوا مَرَّةً أُخْرَىٰ بَعْدَ أَنْ سَكَنُوا وَتَمَّ الصُّلْحُ، فَحَلَفَ عُثْمَانُ ﵁ أَنَّهُ مَا كَتَبَ كِتَابًا وَلَا رَضِيَهُ، فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُسَلِّمَ

---

(١٥) ينظر: مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٥٢٠) برقم (٣٧٦٩٠)، وتاريخ الطبري (٢/ ٦٧١)، وفضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٤٧٢)، ومقتل الشهيد عثمان (٢٣٢).

مَرْوَانَ فَأَبَىٰ عُثْمَانُ ﷺ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَقْتُلُوهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَرَأَىٰ عُثْمَانُ أَنَّ اجْتِهَادَ مَرْوَانَ خَاطِئٌ وَلَكِنَّهُ لَا يُوجِبُ قَتْلَهُ، وَلَوِ اسْتَحَقَّ الْقَتْلَ فَذَلِكَ لِوَلِيِّ الْأَمْرِ وَلَيْسَ لِلْخَوَارِجِ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَقَدَرِهِ مَا كَانَ(١٦).

---

(١٦) قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: «وفي رواية أنهم طلبوا منه أن يعزل نوابه عن الأمصار ويولي عليهم من يريدون هم، وإن لم يعزل نفسه أن يسلم لهم مروان بن الحكم فيعاقبوه كما زور علىٰ عثمان كتابه إلىٰ مصر، فخشي عثمان إن سلمه إليهم أن يقتلوه فيكون سببا في قتل امرئ مسلم، وما فعل من الأمر ما يستحق بسببه القتل» اهـ. من البداية والنهاية (٧/ ١٤٥).

وقال في موضع آخر: «وقد ذكر ابن جرير في تاريخه بأسانيده: أن المصريين لما وجدوا ذلك الكتاب مع البريد إلىٰ أمير مصر، فيه الأمر بقتل بعضهم وصلب بعضهم، وبقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، وكان قد كتبه مروان بن الحكم علىٰ لسان عثمان؛ متأولا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]، وعنده أن هؤلاء الذين خرجوا علىٰ أمير المؤمنين عثمان ﷺ من جملة المفسدين في الأرض، ولا شك أنهم كذلك، لكن لم يكن له أن يفتات علىٰ عثمان، ويكتب علىٰ لسانه بغير علمه، ويزور علىٰ خطه وخاتمه، ويبعث غلامه علىٰ بعيره بعد ما وقع الصلح بين عثمان وبين المصريين علىٰ تأمير محمد بن أبي بكر علىٰ مصر بخلاف ذلك كله؛ ولهذا لما وجدوا هذا الكتاب علىٰ خلاف ما وقع الاتفاق عليه، وظنوا أنه من عثمان؛ أعظموا ذلك مع ما هم مشتملون عليه من الشر، فرجعوا إلىٰ المدينة فطافوا به علىٰ رؤوس الصحابة، وأعانهم علىٰ ذلك قوم آخرون، حتىٰ ظن بعض الصحابة أن هذا عن أمر عثمان ﷺ، فلما قيل لعثمان ﷺ في أمر هذا الكتاب بحضرة جماعة من أعيان الصحابة وجمهور المصريين حلف بالله العظيم -وهو الصادق البار الراشد- أنه لم يكتب هذا الكتاب، ولا أملاه علىٰ من كتبه، ولا علم به، فقالوا: إن عليه خاتمك، فقال: إن الرجل قد يزور علىٰ خطه وخاتمه، قالوا: فإنه مع غلامك وعلىٰ جملك، فقال: والله لم أشعر بشيء من ذلك ..» اهـ. من البداية والنهاية (٧/ ١٤٩).
وينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٥)، وتاريخ خليفة (١٦٩)، وفضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٤٧١)، والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة (١/ ٨١).

وَكَمَا افْتَاتَ مَرْوَانُ عَلَىٰ عُثْمَانَ ﷺ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يُسَمَّوْنَ بِالْمُثَقَّفِينَ وَالمُفَكِّرِينَ وَالْإِعْلَامِيِّينَ يَفْتَاتُونَ عَلَىٰ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَيُذْكُونَ نَارَ الْفِتْنَةِ بِالطَّعْنِ فِي الدِّينِ، وَاتِّهَامِ الْبُرَآءِ، وَاخْتِلَاقِ أَسْبَابٍ لِلْإِرْهَابِ لَيْسَتْ صَحِيحَةً، وَالتَّغَافُلِ عَنِ الْأَسْبَابِ الْحَقِيقِيَّةِ.

إِنَّ أَيَّةَ فِتْنَةٍ لَا تَسْتَعِرُ إِلَّا بِأَبْوَاقٍ حَاقِدَةٍ تُؤَلِّبُ النَّاسَ، وَتَدْفَعُ الرَّعَاعَ لِيَكُونُوا حَطَبَهَا، وَفِي الْأَزَمَاتِ وَالْفِتَنِ يَبْرُزُ ذَوُو المَنَافِعِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالمَطَامِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَأَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ وَالْأَحْقَادِ، وَيَتَّخِذُونَ مِنَ الْفِتْنَةِ مَجَالًا لِلْكَسْبِ المَادِّيِّ، أَوْ لِتَصْفِيَةِ حِسَابَاتٍ شَخْصِيَّةٍ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ حِسَابِ دِمَاءِ النَّاسِ وَآلَامِهِمْ، وَلِوَسَائِلِ الِاتِّصَالِ الْحَدِيثِ مِنْ شَبَكَةٍ عَالَمِيَّةٍ، وَقَنَوَاتٍ فَضَائِيَّةٍ، وَصُحُفٍ وَمَجَلَّاتٍ نَصِيبٌ كَبِيرٌ فِي ذَلِكَ.

إِنَّ عَلَىٰ كُلِّ مُتَحَدِّثٍ وَكَاتِبٍ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ ﷻ فِي قَلَمِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَلَا يُرَوِّجُ الْإِشَاعَاتِ، وَلَا يَخْتَلِقُ الْأَكَاذِيبَ، وَلَا يَرْمِي الْبُرَآءَ بِتُهَمٍ بَاطِلَةٍ؛ لِإِثْبَاتِ رَأْيِهِ، أَوْ نَيْلِ مُرَادِهِ مِنْ كَسْبٍ مَادِّيٍّ، أَوْ تَصْفِيَةِ حِسَابَاتٍ شَخْصِيَّةٍ. وَلْيَكُنْ صَادِقًا فِي مُعَالَجَتِهِ، مُخْلِصًا فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ وَالنُّصْحَ؛ فَإِنَّ الشَّرَّ إِنْ وَقَعَ عَصَفَ بِالْجَمِيعِ.

وَعَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَصْدُقَ فِي النُّصْحِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ، وَلَا يَفْتَاتُ عَلَىٰ وُلَاةِ أَمْرِهِ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يَظُنُّ فِيهِ صَلَاحًا وَهُوَ عَيْنُ الْفَسَادِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالِاسْتِشَارَةِ.

وَمَا يَقَعُ فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ مِن اسْتِحْلَالٍ لِلدِّمَاءِ المُحَرَّمَةِ، وَقَتْلِ الْأَبْرِيَاءِ، وَبِوَجْهٍ أَخَصَّ فِي مَنْبَعِ الرِّسَالَةِ، وَمَهْبِطِ الْوَحْيِ، يَنْتَفِعُ بِهِ الْحَاقِدُونَ المَوْتُورُونَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ يُعْجِبُهُمُ اخْتِلَاطُ الْأَمْرِ، وَاشْتِعَالُ الْفِتَنِ فِي بِلَادِ

المُسْلِمِينَ، وَقَدِ اتَّخَذُوا الْإِسْلَامَ سِخْرِيًّا بِالطَّعْنِ فِي شَرِيعَتِهِ، وَاتِّهَامِ أَهْلِهِ بِأَنَّهُمْ مُتَعَطِّشُونَ لِسَفْكِ الدِّمَاءِ، وَانْتِهَاكِ الْحُرُمَاتِ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ اللُّطْفَ وَالثَّبَاتَ، كَمَا نَسْأَلُهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَحْفَظَ بِلَادَنَا وَبِلَادَ المُسْلِمِينَ مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ، وَشَرِّ الْحَاسِدِينَ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِكُلِّ مُفْسِدٍ وَمُفْسِدَةٍ، اللَّهُمَّ أَبْطِلْ كَيْدَهُمْ، وَأَحْبِطْ عَمَلَهُمْ، وَاكْشِفْ أَمْرَهُمْ، وَاهْتِكْ سِتْرَهُمْ، اللَّهُمَّ مَنْ قَصَدَ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ وَالْفَسَادِ فَاكْفِ المُسْلِمِينَ شَرَّهُ، وَرُدَّ كَيْدَهُ إِلَىٰ نَحْرِهِ، وَاجْعَلْهُ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ.

اللَّهُمَّ آمِنَّا فِي أَوْطَانِنَا، وَأَصْلِحْ وُلَاةَ أَمْرِنَا، وَرُدَّ كَيْدَ أَعْدَائِنَا مِنَ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ، وَسَائِرِ المُفْسِدِينَ؛ إِنَّكَ سَمِيعٌ مُجِيبٌ. وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ . .



٢١١- فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (٢)
مدافعة الفتنة وحسن الاختيار

٢٠/ ٦/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي الْمِحَنِ وَالْبَلَايَا، وَالْفِتَنِ وَالرَّزَايَا مَعْرِفَةُ عِزِّ الرُّبُوبِيَّةِ وَقَهْرِهَا، وَذِلَّةِ الْعُبُودِيَّةِ وَكَسْرِهَا ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٥٦]، اعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ مِلْكُهُ وَعَبِيدُهُ، وَأَنَّهُمْ رَاجِعُونَ إِلَىٰ حُكْمِهِ وَتَدْبِيرِهِ، وَقَضَائِهِ وَتَقْدِيرِهِ، لَا مَفَرَّ لَهُمْ مِنْهُ، وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ[١].

وَالْمُؤْمِنُ يُبْتَلَىٰ بِالشَّرِّ كَمَا يُبْتَلَىٰ بِالْخَيْرِ، وَتُصِيبُهُ الضَّرَّاءُ كَمَا تُصِيبُهُ السَّرَّاءُ؛

---

(١) فوائد البلوىٰ والمحن، للعز بن عبد السلام (٩).

فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَعَلَيْهِ السُّخْطُ. وَإِذَا انْقَشَعَتْ سَحَابَةُ الْمِحَنِ، وَسَكَنَتْ عَاصِفَةُ الْفِتَنِ كَانَ فِي النَّاسِ مَأْجُورٌ وَمَوْزُورٌ، وَسَالِمٌ وَمَوْتُورٌ، وَأَعْظَمُ الْوَتْرِ الْوَتْرُ فِي الدِّينِ، ثُمَّ الْوَتْرُ فِي النَّفْسِ، ثُمَّ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ.

وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ﷺ وُتِرَ فِي نَفْسِهِ، وَوُتِرَ بِهِ أَهْلُهُ بَعْدَ شِدَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَمِحْنَةٍ عَظِيمَةٍ، وَبَلْوَىٰ كَبِيرَةٍ، أَخْبَرَهُ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يُفَارِقَ أَصْحَابَهُ ﷺ، فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا أَخْبَرَ بَعْدَ أَكْثَرَ مِنْ رُبْعِ قَرْنٍ مِنْ إِخْبَارِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[٢].

رَوَىٰ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ ﷺ: «أَنَّ عُثْمَانَ ﷺ اسْتَأْذَنَ بِالدُّخُولِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَبِي مُوسَىٰ: «**ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ عَلَىٰ بَلْوَىٰ تُصِيبُهُ**»، قَالَ أَبُو مُوسَىٰ: فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ: ادْخُلْ وَبَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْجَنَّةِ عَلَىٰ بَلْوَىٰ تُصِيبُكَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ: «قَالَ أَبُو مُوسَىٰ: فَذَهَبْتُ فَإِذَا هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، قَالَ: فَفَتَحْتُ وَبَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ، قَالَ: وَقُلْتُ الَّذِي قَالَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ صَبْرًا، أَوِ: اللهُ الْمُسْتَعَانُ»، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ: أَنَّ عُثْمَانَ ﷺ حَمِدَ اللهَ تَعَالَىٰ ثُمَّ قَالَ: اللهُ الْمُسْتَعَانُ[٣].

---

(٢) وذلك أن راوي الحديث أبو موسىٰ الأشعري ﷺ، وهو بواب النبي عليه الصلاة والسلام في ذلك اليوم، والأشعريون قدموا المدينة عام خيبر سنة سبع، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال هذا الحديث بين العامين السابع والحادي عشر، وعثمان قتل سنة خمس وثلاثين، فوقع إخبار النبي عليه الصلاة والسلام بعد ثمان وعشرين سنة، أو بعد أربع وعشرين سنة أو بينهما.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب، باب مناقب عثمان ﷺ (٣٤٩٢)، ومسلم في فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل عثمان ﷺ (٢٤٠٣).
والرواية الثانية لمسلم، وأحمد (٤/ ٣٩٣)، وعبد بن حميد (٥٥٥)، وابن حبان (٦٩١٢).
والرواية الثالثة للبخاري في المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب ﷺ (٣٤٩٠).

وَهَذِهِ الْبَلْوَىٰ الَّتِي أَخْبَرَهُ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ أَصَابَتْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ ﵁، وَهُوَ شَيْخٌ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، وَتَحَمَّلَ مِنْ أُمُورِ الْأُمَّةِ مَا تَحَمَّلَ؛ فَقَابَلَ بَلْوَاهُ بِثَبَاتٍ عَجِيبٍ، وَصَبْرٍ جَمِيلٍ؛ فَلَمْ يَتَزَحْزَحْ عَنْ إِيمَانِهِ، وَلَا جَزِعَ مِنْ مُصَابِهِ، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وَجَعَلَ دَارَ الْخُلْدِ مَأْوَاهُ.

كَانَتْ بِدَايَةُ هَذِهِ الْبَلْوَىٰ الْعَظِيمَةِ لِهَذَا الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ بِفِتْنَةٍ مُنْكَرَةٍ، أَطَلَّتْ بِرَأْسِهَا فِي آخِرِ خِلَافَتِهِ، أَشْعَلَ نَارَهَا الْمُنَافِقُونَ، وَجَعَلُوا حَطَبَهَا الْجَهَلَةَ وَالرَّعَاعَ مِنْ نُزَّاعِ الْقَبَائِلِ، وَسَفَلَةِ الْأَطْرَافِ وَالْأَرَاذِلِ، قَدِ امْتَلَأَتْ بِالْفِتْنَةِ قُلُوبُهُمْ، وَتَوَاصَوْا بِالشَّرِّ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَتَرَاسَلُوا وَتَكَاتَبُوا يَسُبُّونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَمْلَئُونَ صُدُورَ الْعَامَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ وُلَاتِهِ؛ جَرَّاءَ سِيَاسَاتٍ انْتَقَدُوهَا، وَأَفْعَالٍ نَقِمُوهَا، كَانَ الْحَقُّ فِيهَا مَعَ عُثْمَانَ ﵁ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَسْتَعْجِلُونَ، وَأَوْبَاشٌ إِلَىٰ الْفِتْنَةِ يُسَارِعُونَ(٤).

فَاسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ، وَاسْتَطَارَ شَرُّهُمْ، فَمَا عَادَتْ تَكْفِيهِمُ الْمُرَاسَلَاتُ وَالْمُكَاتَبَاتُ، وَلَا أَشْبَعَتْ قُلُوبَهُمُ الْمَفْتُونَةَ الْأَقْوَالُ وَالْمُشَاتَمَاتُ، فَانْتَقَلُوا إِلَىٰ التَّجَمُّعَاتِ وَالْخُرُوجِ الْمُسَلَّحِ؛ فَسَارَ الْمَفْتُونُونَ، يَقُودُهُمُ الْمُنَافِقُونَ، سَارُوا مِنْ مِصْرَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ، عَاصِمَةِ الْخِلَافَةِ، وَمَوْطِنِ الْخَلِيفَةِ. فَوَصَلُوهَا وَقَدْ أَضْمَرَتْ رُؤُوسُهُمُ الشَّرَّ، وَتَشَرَّبَ أَتْبَاعُهُمُ الْفِتْنَةَ، فَوَقَعَتْ أُمُورٌ عَظَائِمُ، وَكَثُرَتِ الْأَقَاوِيلُ وَالشَّتَائِمُ الَّتِي أُوذِيَ فِيهَا عُثْمَانُ ﵁ إِيذَاءً شَدِيدًا، حَتَّىٰ وَقَفُوا عَلَيْهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَىٰ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَاطَعُوهُ فِي خُطْبَتِهِ بِالسَّبِّ

---

(٤) كان مبتدأ ذلك من الكوفة ثم امتد إلىٰ البصرة حتىٰ وصل إلىٰ مصر، ينظر تفصيل ذلك في: تاريخ الطبري (٤/ ٢٥١)، وتاريخ خليفة (١٥٧)، والكامل (٣/ ٨٢)، وعبد الله بن سبأ وأثره في إحداث الفتنة في صدر الإسلام، للدكتور سليمان بن حمد العودة (١٣٣-١٤٢) وفيه نقولات مهمة، وتحليلات جيدة في هذا الموضوع.

وَالشَّتِيمَةِ، ثُمَّ حَصَبُوهُ بِالْحَصَىٰ فَشَجُّوهُ وَأَدْمَوْهُ، وَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ رضي الله عنه، وَحُمِلَ إِلَىٰ بَيْتِهِ، وَهُوَ إِمَامُ الْمُسْلِمِينَ فِي وَقْتِهِ(٥).

فَطَمِعَ فِيهِ الْخَوَارِجُ أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ أَكْثَرَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم كَانُوا فِي الْحَجِّ وَفِي الثُّغُورِ، وَالْبَقِيَّةُ الْبَاقِيَةُ مِنْهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لَا تَكْفِي لِرَدِّ عُدْوَانِ الْخَوَارِجِ(٦).

---

(٥) ينظر: تاريخ الطبري (٤/ ٣٥١)، والبداية والنهاية (٧/ ١٤١-١٤٢)، وسير أعلام النبلاء، سير الخلفاء الراشدين (١٩٣).

(٦) قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: «إن قال قائل: كيف وقع قتل عثمان رضي الله عنه بالمدينة وفيها جماعة من كبار الصحابة رضي الله عنهم؟ فجوابه من وجوه:

أحدها: أن كثيرا منهم، بل أكثرهم أو كلهم، لم يكن يظن أنه يبلغ الأمر إلىٰ قتله، فإن أولئك الأحزاب لم يكونوا يحاولون قتله عينا، بل طلبوا منه أحد أمور ثلاثة؛ إما أن يعزل نفسه، أو يسلم إليهم مروان بن الحكم، أو يقتلوه، فكانوا يرجون أن يسلم إلىٰ الناس مروان، أو أن يعزل نفسه ويستريح من هذه الضائقة الشديدة. وأما القتل فما كان يظن أحد أنه يقع، ولا أن هؤلاء يجترئون عليه إلىٰ ما هذا حده، حتىٰ وقع ما وقع. والله أعلم.

الثاني: أن الصحابة مانعوا دونه أشد الممانعة، ولكن لما وقع التضييق الشديد عزم عثمان علىٰ الناس أن يكفوا أيديهم ويغمدوا أسلحتهم ففعلوا، فتمكن أولئك مما أرادوا، ومع هذا ما ظن أحد من الناس أنه يقتل بالكلية.

الثالث: أن هؤلاء الخوارج لما اغتنموا غيبة كثير من أهل المدينة في أيام الحج، ولم تقدم الجيوش من الآفاق للنصرة، بل لما اقترب مجيئهم، انتهزوا فرصتهم، قبحهم الله، وصنعوا ما صنعوا من الأمر العظيم.

الرابع: أن هؤلاء الخوارج كانوا قريبا من ألفي مقاتل من الأبطال، وربما لم يكن في أهل المدينة هذه العدة من المقاتلة؛ لأن الناس كانوا في الثغور وفي الأقاليم في كل جهة وفي الحج. ومع هذا كان كثير من الصحابة قد اعتزل هذه الفتنة ولزموا بيوتهم، ومن كان يحضر منهم المسجد لا يجيء إلا ومعه السيف يضعه علىٰ حبوته إذا احتبىٰ، والخوارج محدقون بدار عثمان رضي الله عنه وربما لو أرادوا صرفهم عن الدار لما أمكن ذلك. ولكن كبار الصحابة قد بعثوا أولادهم إلىٰ الدار يجاحفون عن عثمان رضي الله عنه لكي تقدم الجيوش من الأمصار =

فَحَاصَرُوا عُثْمَانَ ﷺ فِي بَيْتِهِ، وَمَنَعُوا عَنْهُ المَاءَ الْحُلْوَ، فَشَرِبَ المَاءَ المَالِحَ فِي حِصَارِهِ، وَحَالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلَاةِ فِي المَسْجِدِ، وَهُوَ إِمَامُ المُسْلِمِينَ!! أَيُفْعَلُ ذَلِكَ بِعُثْمَانَ ﷺ وَهُوَ المُبَشَّرُ بِالْجَنَّةِ، وَقَدْ زَوَّجَهُ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَتَيْهِ الْوَاحِدَةَ تِلْوَ الْأُخْرَىٰ، وَجَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ مِنْ خَالِصِ مَالِهِ حَتَّىٰ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**»[7]؟!

لَقَدْ مَنَعُوهُ المَاءَ وَالصَّلَاةَ فِي المَسْجِدِ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ قَدْ جَاوَزَ الثَّمَانِينَ، وَهُوَ إِمَامُهُمْ وَوَلِيُّ أَمْرِهِمْ، وَلَهُ عَلَيْهِمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ مَفْتُونُونَ، قَدْ

= لنصرته، فما فجأ الناس إلا وقد ظفر أولئك بالدار من خارجها، وأحرقوا بابها، وتسوروا عليه حتىٰ قتلوه.

وأما ما يذكره بعض الناس من أن بعض الصحابة أسلمه ورضي بقتله، فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة أنه رضي بقتل عثمان ﷺ بل كلهم كرهه، ومقته، وسب من فعله، ولكن بعضهم كان يود لو خلع نفسه من الأمر؛ كعمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر، وعمرو بن الحمق، وغيرهم.

ولقد أحسن بعض السلف حيث يقول وقد سئل عن عثمان: هو أمير البررة، وقتيل الفجرة، مخذول من خذله، منصور من نصره.

وقال شيخنا أبو عبد الله الذهبي في آخر ترجمة عثمان وفضائله، بعد حكايته هذا الكلام: «قلت: الذين قتلوه أو ألبوا عليه قتلوا إلىٰ عفو الله ورحمته، والذين خذلوه خذلوا وتنغص عيشهم، وكان الملك بعده في نائبه معاوية وابنيه، ثم في وزيره مروان وثمانية من ذريته، استطالوا حياته وملوه مع فضله وسوابقه، فتملك عليهم من هو من بني عمه بضعا وثمانين سنة، فالحكم لله العلي الكبير. وهذا لفظه بحروفه» البداية والنهاية ط هجر (١٠/ ٣٤٤-٣٤٦)، ولم أقف علىٰ كلام الذهبي هذا في كتبه.

(٧) أخرجه من حديث عبد الرحمن بن سمرة ﷺ: أحمد في المسند (٥/ ٦٣)، وفي فضائل الصحابة (٧٣٨)، والترمذي في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان ﷺ وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه (٣٧٠١)، والطبراني في مسند الشاميين (١٢٧٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ١١٠).

وجاء بنحوه عن ابن عمر ﷺ عند: أحمد في فضائل الصحابة (٨٥٤).

أَعْمَتِ الْفِتْنَةُ أَبْصَارَهُمْ، وَرَانَتْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، فَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ رَعَاعٍ وَإِمَامٍ، وَلَا عَرَفُوا لِلصَّحَابَةِ فَضْلَهُمْ وَهُوَ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ، بَلْ مِنْ أَوَائِلِهِمْ إِسْلَامًا وَهِجْرَةً، وَجِهَادًا وَدَعْوَةً!! أَطَلَّ عَلَيْهِمْ ﷺ مِنْ دَارِهِ وَهُوَ مَحْصُورٌ، وَقَدْ أَحَاطُوا بِهِ شَاهِرِينَ أَسْلِحَتَهُمْ، مُتَرَبِّصِينَ بِهِ، فَنَاقَشَهُمْ وَجَادَلَهُمْ، وَوَعَظَهُمْ وَذَكَّرَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: «أَنْشُدُكُمُ اللهَ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ ضَاقَ المَسْجِدُ بِأَهْلِهِ فَقَالَ: **مَنْ يَشْتَرِي هَذِهِ الْبُقْعَةَ مِنْ خَالِصِ مَالِهِ فَيَكُونُ فِيهَا كَالْمُسْلِمِينَ وَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ**؛ فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ خَالِصِ مَالِي فَجَعَلْتُهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْتُمْ تَمْنَعُونِي أَنْ أُصَلِّيَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ؟! ثُمَّ قَالَ: أَنْشُدُكُمُ اللهَ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا بِئْرٌ يُسْتَعْذَبُ مِنْهُ إِلَّا رُومَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ يَشْتَرِيهَا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ فَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا كَدِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ؟**» فَاشْتَرَيْتُهَا مِنْ خَالِصِ مَالِي وَأَنْتُمْ تَمْنَعُونِي أَنْ أَشْرَبَ مِنْهَا؟!»(٨).

فَأَقَرُّوا لَهُ بِذَلِكَ، لَكِنَّهُمْ مَا اسْتَجَابُوا وَلَا سَمِعُوا!! طَالَ حِصَارُهُ ﷺ حَتَّىٰ قَارَبَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَعَلِمَ الْخَوَارِجُ أَنَّ الصَّحَابَةَ عَائِدُونَ مِنَ الْحَجِّ، وَأَنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ قَدْ بَلَغَهُمْ مَا يَجْرِي فِي الْمَدِينَةِ، فَسَيَّرُوا الْجُيُوشَ لِنُصْرَةِ الْخَلِيفَةِ،

(٨) أخرج البخاري جزءًا منه معلقًا مجزومًا به فقال: «وقال عثمان: قال النبي ﷺ: «**من يشتري بئر رومة، فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين**» فاشتراها عثمان ﷺ» في المساقاة، باب في الشرب، ومن رأىٰ صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة، مقسوما كان أو غير مقسوم (٢/ ٨٢٩).

ووصله بتمامه من حديث ثمامة بن حزن القشيري: الترمذي في المناقب، باب مناقب عثمان ﷺ، وقال: حديث حسن (٣٧٠٣)، والنسائي في الأحباس، باب وقف المساجد (٦/ ٢٣٥)، وأحمد (١/ ٧٤).

وجاء بنحوه من حديث أبي عبد الرحمن السلمي: عند الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب (٣٦٩٩)، والنسائي (٦/ ٢٣٦)، وصححه ابن خزيمة (٢٤٩١)، وابن حبان (٦٩١٦).

ومن حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عند: النسائي (٦/ ٢٣٦).

فَاسْتَعْجَلُوا قَتْلَهُ ﷺ قَبْلَ قُدُومِ الْحُجَّاجِ، وَوُصُولِ الْجُيُوشِ مِنَ الْأَمْصَارِ(٩).

وَفِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ عُمْرِهِ ﷺ رَأَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ إِنْ قَاتَلَهُمْ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَبْنَائِهِمْ فَهُوَ مَنْصُورٌ، وَإِنْ تَرَكَهُمْ قَدِمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَاخْتَارَ الْقُدُومَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَقَالَ لِمَنْ كَانُوا يَحْمُونَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَبْنَائِهِمْ: «أُقْسِمُ عَلَىٰ مَنْ لِي عَلَيْهِ حَقٌّ أَنْ يَكُفَّ يَدَهُ، وَأَنْ يَنْطَلِقَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ» ثُمَّ قَالَ لِرَقِيقِهِ: «مَنْ أَغْمَدَ مِنْكُمْ سَيْفَهُ فَهُوَ حُرٌّ»(١٠).

وَعَنْ أَبِي الصَّلْتِ قَالَ: أَغْفَىٰ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ فَاسْتَيْقَظَ فَقَالَ: «لَوْلَا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ تَمَنَّىٰ عُثْمَانُ أُمْنِيَةً لَحَدَّثْتُكُمْ»، قَالَ: قُلْنَا: أَصْلَحَكَ اللهُ، حَدِّثْنَا فَلَسْنَا نَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي مَنَامِي هَذَا، فَقَالَ: إِنَّكَ شَاهِدٌ مَعَنَا الْجُمْعَةَ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(١١).

وَرُوِيَ عَنْ مُسْلِمٍ أَبِي سَعِيدٍ مَوْلَىٰ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ: «أَنَّ عُثْمَانَ أَعْتَقَ عِشْرِينَ مَمْلُوكًا، وَدَعَا بِسَرَاوِيلَ فَشَدَّهَا لَمْ يَلْبَسْهَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، وَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَنَامِ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَنَّهُمْ قَالُوا لِي: اصْبِرْ فَإِنَّكَ

---

(٩) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ١٥٠).
وعن أبي عون مولىٰ المسور بن مخرمة قال: ما زال المصريون كافين عن دمه وعن القتال حتىٰ قدمت أمداد العراق من الكوفة ومن البصرة ومن الشام، فلما جاءوا وشجع القوم حين بلغهم أن البعوث قد فصلت من العراق من عند ابن عامر، ومن مصر من عند عبد الله بن سعد، فقالوا: نعالجه قبل أن تقدم الأمداد. رواه ابن سعد (٣/ ٧١)، والبلاذري (٢/ ٢٩٦)، والطبري في تاريخه (٢/ ٦٧٨)، وابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٣٩٩).

(١٠) البداية والنهاية (١٠/ ٢٩٨)، وشذرات الذهب (١/ ٤٠)، قال ابن العماد: والصحيح أنه لم يتعين قاتله وكانوا أربعة آلاف.

(١١) أخرجه ابن سعد (٣/ ٧٤)، وابن شبة في أخبار المدينة (٢١٥٨)، والبيهقي في الدلائل (٧/ ٤٧)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ١٠٦).

تُفْطِرُ عِنْدَنَا الْقَابِلَةَ. ثُمَّ دَعَا بِمُصْحَفٍ فَنَشَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقُتِلَ وَهُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ»(١٢).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «إِنَّمَا لَبِسَ السَّرَاوِيلَ ﵁ فِي هَذَا الْيَوْمِ لِئَلَّا تَبْدُوَ عَوْرَتُهُ إِذَا قُتِلَ؛ فَإِنَّهُ كَانَ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، كَانَتْ تَسْتَحْيِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ؛ كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، وَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْمُصْحَفَ يَتْلُو فِيهِ، وَاسْتَسْلَمَ لِقَضَاءِ اللَّهِ ﷻ، وَكَفَّ يَدَهُ عَنِ الْقِتَالِ، وَأَمَرَ النَّاسَ وَعَزَمَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يُقَاتِلُوا دُونَهُ، وَلَوْلَا عَزِيمَتُهُ عَلَيْهِمْ لَنَصَرُوهُ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَلَكِنْ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا»(١٣).

وَثَبَتَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ: أَنَّ أَوَّلَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ سَقَطَتْ عَلَىٰ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الْبَقَرَة: ١٣٧] وَيُرْوَىٰ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَيْهَا فِي تِلَاوَتِهِ حِينَ دَخَلَ عَلَيْهِ الْخَوَارِجُ الْأَشْقِيَاءُ(١٤).

وَرَوَىٰ ابْنُ سَعْدٍ أَنَّهُ لَمَّا طُعِنَ ﵁ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ، وَإِذَا الدَّمُ يَسِيلُ عَلَىٰ لِحْيَتِهِ، فَقَطَرَ وَالْمُصْحَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاتَّكَأَ عَلَىٰ شِقِّهِ الْأَيْسَرِ وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَقْرَأُ الْمُصْحَفَ، وَالدَّمُ يَسِيلُ عَلَىٰ الْمُصْحَفِ حَتَّىٰ وَقَفَ الدَّمُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الْبَقَرَة:١٣٧] وَأَطْبَقَ الْمُصْحَفَ وَضَرَبُوهُ جَمِيعًا ضَرْبَةً وَاحِدَةً»(١٥).

---

(١٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١/ ٧٢)، وفي فضائل الصحابة (٩٠٨)، وصححه الشيخ أحمد شاكر (٥٢٦). لكن ضعفه محققو المسند (ط الرسالة) فقالوا: إسناده ضعيف، يونس ابن أبي يعفور -وإن خرج له مسلم- كثير الخطأ، وصفه بذلك الحافظ في «التقريب»، وضعفه ابن معين والنسائي والساجي وأحمد، وقال الدارقطني: ثقة، وقال أبو حاتم: صدوق، وقال ابن عدي: هو عندي ممن يكتب حديثه، يعني للمتابعات والشواهد، وقال ابن حبان في «الضعفاء»: يروي عن الثقات ما لا يشبه حديث الأثبات (٥٢٦).

(١٣) البداية والنهاية (١٠/ ٣٠٣).

(١٤) أخرجه خليفة في تاريخه (١٩٠)، وابن سعد (٣/ ٧٣).

(١٥) أخرجه ابن سعد (٣/ ٧٤)، وابن عساكر (٣٩/ ٤١٣).

وَقَدْ أَقْسَمَ بَعْضُ السَّلَفِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ: «أَنَّهُ مَا مَاتَ أَحَدٌ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَّا مَقْتُولًا، أَصَابَتْهُمْ دَعْوَةُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ حِينَ دَعَا عَلَيْهِمْ -وَهُوَ مُجَابُ الدَّعْوَةِ- فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْدِمْهُمْ ثُمَّ خُذْهُمْ»(١٦).

وَرَوَىٰ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- «أَنَّ عَامَّةَ الرَّكْبِ الَّذِينَ سَارُوا إِلَىٰ عُثْمَانَ جُنُّوا»(١٧).

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «كُنْتُ أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَمَا أَظُنُّ أَنْ تَغْفِرَ لِي! فَقُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَقُولُ مَا تَقُولُ، قَالَ: كُنْتُ أَعْطَيْتُ اللهَ عَهْدًا إِنْ قَدَرْتُ أَنْ أَلْطِمَ وَجْهَ عُثْمَانَ إِلَّا لَطَمْتُهُ، فَلَمَّا قُتِلَ وُضِعَ عَلَىٰ سَرِيرِهِ فِي الْبَيْتِ، وَالنَّاسُ يَجِيئُونَ فَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، فَدَخَلْتُ كَأَنِّي أُصَلِّي عَلَيْهِ، فَوَجَدْتُ خَلْوَةً، فَرَفَعْتُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ فَلَطَمْتُهُ وَسَجَّيْتُهُ، وَقَدْ يَبِسَتْ يَمِينِي». قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: «فَرَأَيْتُهَا يَابِسَةً كَأَنَّهَا عُودٌ»(١٨).

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَنَسْأَلُه تَعَالَىٰ أَنْ يَعْصِمَنَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنَ الدِّمَاءِ الْمُحَرَّمَةِ، وَأَنْ يَتَوَفَّانَا عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأَنْبِيَاء: ٣٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ..

❀ ❀ ❀

---

(١٦) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٧٦)، وابن عساكر (٣٩/ ٤٤٠).

(١٧) أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٤٥) رقم (١٣٤)، وابن عساكر (٣٩/ ٤٤٦)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: وإسناده حسن (٩/ ٩٤).

(١٨) أخرجه اللالكائي في السنة (٢٣٦٣)، وابن عساكر (٣٩/ ٤٤٦).

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَىٰ فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَىٰ نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَىٰ أَثَرَهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَسَلُوهُ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ(١٩).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: هَدْيُ الصَّحَابَةِ ﷺ خَيْرُ الْهَدْيِ، وَهُمْ أَصْلَحُ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا، وَأَكْثَرُهُمْ عِلْمًا وَفِقْهًا، فَمَنْ رَامَ الْهِدَايَةَ إِلَىٰ الْحَقِّ؛ فَلْيَسْلُكْ مَسْلَكَهُمْ، وَلْيَسْتَمْسِكْ بِهَدْيِهِمْ، وَلْيَنْهَلْ مِنْ فِقْهِهِمْ وَعِلْمِهِمْ.

وَفِي حَادِثَةِ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ، وَمَوْقِفِهِ مِنْ تِلْكَ الْفِتْنَةِ الْعَمْيَاءِ: مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ ﷺ كَانَ مِنْ كِبَارِ فُقَهَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمِنْ أَشَدِّهِمْ تَأَسِّيًا بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَاتِّبَاعًا لِسُنَّتِهِ، وَعَمَلًا بِقَوْلِهِ، وَلَمْ تُفْقِدْهُ الْفِتْنَةُ صَوَابَهُ، وَلَا خَرَجَ عَنِ الِاتِّبَاعِ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ، رَغْمَ مَا مَرَّ بِهِ مِنْ شِدَّةٍ وَمِحْنَةٍ. وَيَتَجَلَّىٰ ذَلِكَ أَكْثَرَ مَا يَتَجَلَّىٰ فِي اسْتِسْلَامِهِ لِقَضَاءِ

---

(١٩) كما في حديث معاذ بن رفاعة، عن أبيه، قال: قام أبو بكر الصديق علىٰ المنبر ثم بكىٰ فقال: قام رسول الله ﷺ عام الأول علىٰ المنبر ثم بكىٰ فقال: «**اسألوا الله العفو والعافية، فإن أحدا لم يعط بعد اليقين خيرا من العافية**» أخرجه الترمذي في الدعوات، باب (١١٨)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه عن أبي بكر (٣٥٥٨)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٧١٨)، وابن ماجه في الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٤٩)، وأحمد (١/ ٣-٥-٧-٩)، وصححه ابن حبان (موارد: ٢٤٢١)، والحاكم (١/ ٧١١)، وأحمد شاكر (٥-٦-١٠).

اللَّهِ تَعَالَىٰ وَقَدَرِهِ، وَحَقْنِهِ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَقْدِيم مَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ مَصْلَحَتِهِ الْخَاصَّةِ؛ بِالِاكْتِفَاءِ بِسَفْكِ دَمِهِ دُونَ دَم غَيْرِهِ، مَعَ وُجُودِ مَنْ سَيُدَافِعُ عَنْهُ، وَيَقِيهِ بِدَمِهِ؛ لَكِنَّهُ رَأَىٰ أَنْ لَا فَائِدَةَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَحَسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ؛ فَكَانَ شُجَاعًا، وَاجَهَ الْأَمْرَ وَحْدَهُ، وَأَعْفَىٰ الْمُسْلِمِينَ مِنْ تَبِعَةِ ذَلِكَ، فَحَقَنَ بِفِعْلِهِ هَذَا دِمَاءً كَثِيرَةً.

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ فِقْهًا وَعِلْمًا أَنَّهُ رَفَضَ التَّنَازُلَ عَنِ الْخِلَافَةِ تَلْبِيَةً لِمَطَالِبِ الْخَوَارِجِ، وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ ذَهَابُ نَفْسِهِ؛ إِعْمَالًا لِلنُّصُوصِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي اسْتَحْضَرَهَا فِي تِلْكَ الْفِتْنَةِ، وَعَلِمَ مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ رَغْمَ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الشِّدَّةِ وَالْمِحْنَةِ؛ فَمَنْ يَثْبُتُ عَقْلُهُ كَمَا ثَبَتَ عَقْلُ عُثْمَانَ فِي فِتْنَةٍ تَجْعَلُ الْحَلِيمَ حَيْرَانَ؟!

رَوَىٰ أَبُو سَهْلَةَ مَوْلَىٰ عُثْمَانَ ﵁ أَنَّ عُثْمَانَ قَالَ يَوْمَ الدَّارِ حِينَ حُصِرَ: «إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا، فَأَنَا صَابِرٌ عَلَيْهِ، قَالَ قَيْسُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ: فَكَانُوا يَرَوْنَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ[٢٠].

وَرَوَتْ عَائِشَةُ ﵂ فَقَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَا عُثْمَانُ، لَعَلَّ اللهَ يُقَمِّصُكَ قَمِيصًا، فَإِنْ أَرَادُوكَ عَلَىٰ خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ حَتَّىٰ يَخْلَعُوهُ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَفِي لَفْظٍ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ: «**إِنَّ اللهَ لَعَلَّهُ يُقَمِّصُكَ**

---

(٢٠) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان ﵁ وقال: حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث إسماعيل بن أبي خالد (٣٧١١)، وابن ماجه في المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١١٣)، وأحمد (١/ ٥٧-٦٩)، وصححه ابن حبان (٦٩١٨)، وأحمد شاكر ونبه علىٰ أن الحاكم روىٰ هذا الحديث وحديث عائشة في مقتل عثمان فجعلهما حديثًا واحدًا في المستدرك (٣/ ٩٩)، قال: والصواب أنهما حديثان منفصلان، وأن الخطأ من بعض الرواة. انتهىٰ من شرح المسند (٤٠٧).

قَمِيصًا، فَإِنْ أَرَادَكَ أَحَدٌ عَلَىٰ خَلْعِهِ فَلَا تَخْلَعْهُ»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ لِعَائِشَةَ: يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، فَأَيْنَ كُنْتِ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ؟ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، وَاللَّهِ أُنْسِيتُهُ(٢١). فَرَضِيَ اللهُ عَنْ عَائِشَةَ؛ نَسِيَتْ هَذَا الْحَدِيثَ، فَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ تَذَكَّرَتْهُ، وَرَضِيَ اللهُ عَنْ عُثْمَانَ مَا نَسِيَهُ رَغْمَ المُصِيبَةِ الَّتِي أَلَمَّتْ بِهِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ ثَبَاتِ عُثْمَانَ، وَشِدَّةِ امْتِثَالِهِ لِوَصَايَا النَّبِيِّ ﷺ.

وَرَوَتْ عَائِشَةُ ﵂: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا عُثْمَانَ يَوْمًا فَتَنَحَّىٰ بِهِ، فَجَعَلَ يُسَارُّهُ، وَلَوْنُ عُثْمَانَ يَتَغَيَّرُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الدَّارِ وَحُصِرَ فِيهَا قُلْنَا: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، أَلَا تُقَاتِلُ؟ قَالَ: لَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا، وَإِنِّي صَابِرٌ نَفْسِي عَلَيْهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٢٢).

لَقَدْ كَانَ عُثْمَانُ ﵁ مُسَدَّدًا فِي رَأْيِهِ، مُوَفَّقًا فِي اخْتِيَارِهِ، وَتَجَاوَزَ الْفِتْنَةَ بِأَقَلِّ الْخَسَائِرِ، وَأَكْبَرِ المَكَاسِبِ، فَلَقِيَ اللهَ ﷻ وَقَدْ حَفِظَ عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَصِيَّتَهُ، وَلَمْ تَتَلَطَّخْ يَدَاهُ بِدِمَاءٍ مَعْصُومَةٍ مُحَرَّمَةٍ، بَلْ لَمْ يَسْفِكْ حَتَّىٰ دِمَاءَ أَعْدَائِهِ الْخَارِجِينَ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ، وَقُتِلَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وَيَجِدُ عُقْبَىٰ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

إِنَّ اسْتِمْسَاكَهُ ﵁ بِالْخِلَافَةِ حَتَّىٰ آخِرِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ، مَعَ عَدَمِ الْقِتَالِ عَلَيْهَا كَانَ الْخِيَارَ الْحَسَنَ بَيْنَ شَرَّيْنِ عَظِيمَيْنِ؛ فَلَوْ قَاتَلَ عَلَيْهَا لَسُفِكَتْ دِمَاءٌ كَثِيرَةٌ مِنْ ضِمْنِهَا دَمُهُ، فَكَانَتِ الْخَسَائِرُ أَكْبَرَ، وَلَوْ تَنَحَّىٰ عَنِ الْخِلَافَةِ لَمَا وَفَىٰ بِعَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ، وَفِي تَنَحِّيهِ عَنْهَا فَتْحٌ لِبَابِ شَرٍّ كَبِيرٍ عَلَىٰ الْأُمَّةِ؛ إِذْ يَتَوَلَّىٰ

---

(٢١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان ﵁، وقال: حديث حسن غريب (٣٧٠٥)، والطبراني في مسند الشاميين (١٩٣٤)، وصححه ابن حبان (٦٩١٥).

(٢٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١١٣)، وأحمد (٦/ ٥١-٢١٤)، وأبو يعلىٰ (٤٨٠٥)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ١٠٦).

شُؤُونَهَا الرَّعَاعُ وَالدَّهْمَاءُ، يَقُودُهُمْ أَصْحَابُ النَّوَايَا السَّيِّئَةِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُفْسِدِينَ، فَيَعْزِلُونَ مَنْ شَاءُوا، وَيُوَلُّونَ مَنْ شَاءُوا حَسَبَ أَهْوَائِهِمْ، وَمَنْصِبُ الْإِمَامَةِ الْكُبْرَىٰ لَيْسَ أُلْعُوبَةً فِي أَيْدِي السُّفَهَاءِ وَالدَّهْمَاءِ، بَلْ هُوَ شَأْنُ كُبَرَاءِ الْأُمَّةِ وَعُقَلَائِهَا وَعُلَمَائِهَا مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ. وَلَا يَفْتَاتُ عَلَىٰ هَذَا الْحَقِّ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ إِلَّا مَنْ أُشْرِبَ الْفِتْنَةَ، كَمَا أُشْرِبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ، وَلَا يَطْعَنُ فِيهِ لِأَجْلِ دُنْيَا لَمْ يُصِبْهَا إِلَّا طُلَّابُ الدُّنْيَا، وَعُبَّادُ الْأَمْوَالِ وَالْجَاهِ الَّذِينَ إِنْ أُعْطِيَ أَحَدُهُمْ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ فَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ.

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَىٰ هُدَاةً مُهْتَدِينَ، لَا ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ، وَهَدَانَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَأَصْلَحَ لَنَا أَحْوَالَ الدُّنْيَا وَالدِّينِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.



٢١٢- فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (٣)
من أسبابها: الانفتاح على الدنيا

٢٦/ ١١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ يُبْدِي وَيُعِيدُ، وَيَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَأَشْكُرُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ وَلَا تُعَدُّ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ هُوَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَهُوَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، وَهُوَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، وَهُوَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ، أَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ اصْطَفَاهُ رَبُّهُ بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَاخْتَصَّهُ بِأَعْلَىٰ المَقَامِ وَالمَكَانَةِ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَنَصَرُوهُ وَعَزَّرُوهُ، وَآوَوْهُ وَأَكْرَمُوهُ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ. لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُ النَّاسِ مِلْءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَمَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ. وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ عز وجل؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَىٰ، وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ مِنَ الْهُدَىٰ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْعِبَادَ مُحْتَاجُونَ إِلَىٰ تَقْوَىٰ رَبِّهِمْ فِي عُسْرِهِمْ وَيُسْرِهِمْ، وَمَنْشَطِهِمْ وَمَكْرَهِهِمْ، وَمُفْتَقِرُونَ إِلَىٰ هِدَايَةِ رَبِّهِمْ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ. وَالتَّقْوَىٰ سَبِيلٌ لِلْهِدَايَةِ وَالنَّجَاةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: كَثْرَةُ النِّعَمِ عِنْدَ النَّاسِ، وَتَدَفُّقُ الْخَيْرَاتِ عَلَيْهِمْ، وَحُصُولُ الْفَرَاغِ

لَدَيْهِمْ؛ سِلَاحٌ ذُو حَدَّيْنِ؛ فَهُوَ مِنْ جِهَةٍ يُحَقِّقُ لَهُمْ أَنْوَاعًا مِنَ الرَّفَاهِيَةِ، وَيُمَكِّنُهُمْ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ كَثِيرَةٍ؛ لِضَمَانِ قُوتِهِمْ، وَكَثْرَةِ فَرَاغِهِمْ، وَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ بَسْطَةً فِي المَالِ، وَسَعَةً فِي الرِّزْقِ؛ تَيَسَّرَ لَهُ الْإِنْفَاقُ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَنَفْعِ النَّاسِ، وَقَدْ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ بِالْأُجُورِ.

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ النِّعَمِ سَبَبٌ لِلْأَشَرِ وَالْبَطَرِ، وَانْفِتَاحِ أَبْوَابِ الْفِتَنِ، وَضَعْفِ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ، وَكَثْرَةِ السُّخْطِ وَالتَّشَكِّي؛ فَلَا الْفَقِيرُ يَصْبِرُ، وَلَا المَسْتُورُ يَقْنَعُ، وَلَا الْغَنِيُّ يَرْضَىٰ.

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ الْخُرُوجِ عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ: كَثْرَةُ الْخَيْرَاتِ، وَاتِّسَاعُ الدُّنْيَا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَفَرَاغُهُمْ بَعْدَ أَنْ فُتِحَتِ الْأَقَالِيمُ، وَغَنِمُوا وَاطْمَأَنُّوا، فَأَخَذُوا يَنْقِمُونَ عَلَىٰ خَلِيفَتِهِمْ؛ إِذْ تَفَرَّغُوا لِذَلِكَ.

وَقَدْ نَقَلَ المُؤَرِّخُونَ فِي الْكَلَامِ عَلَىٰ فِتْنَةِ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ قَوْلَ حَكِيمِ بنِ عَبَّادِ ابْنِ حُنَيْفٍ: «إِنَّ أَوَّلَ مُنْكَرٍ ظَهَرَ بِالمَدِينَةِ حِينَ فَاضَتِ الدُّنْيَا، وَانْتَهَىٰ سِمَنُ النَّاسِ»[١]، وَفِي رِوَايَةٍ ذَكَرَ: «لَهْوَ النَّاسِ بِالْحَمَامِ، وَالرَّمْيَ عَلَىٰ الْجُلَاهِقَاتِ» وَهِيَ قَوْسُ الْبُنْدُقِ كَانَتْ تُتَّخَذُ لِلَّهْوِ؛ حَتَّىٰ إِنَّ عُثْمَانَ ﷺ قَصَّ الطُّيُورَ، وَكَسَرَ الْجُلَاهِقَاتِ[٢].

كَانَ مِنْ سِيَاسَةِ عُمَرَ ﷺ: حَبْسُ النَّاسِ عَنِ الدُّنْيَا، وَتَزْهِيدُهُمْ فِيهَا، وَتَقْلِيلُ حَظِّهِمْ مِنْهَا، وَإِشْغَالُهُمْ عَنْهَا بِالْعِبَادَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَبَدَأَ بِنَفْسِهِ فِي ذَلِكَ، وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَعَسَفَ رَعِيَّتَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ. وَمَا اسْتَطَاعَ عُثْمَانُ لَمَّا جَاءَ بَعْدَهُ أَنْ يَسِيرَ سِيرَتَهُ، وَيَعْمَلَ بِسِيَاسَتِهِ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ الرَّهَقِ وَالمَشَقَّةِ.

---

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٨٠)، وابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٢٢٨).

(٢) الكامل لابن الأثير (٣/ ٧٠).

وَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ لَمَّا تَوَلَّىٰ أَمْرَ الشُّورَىٰ بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ عُمَرُ ﷺ: عَزْلُ نَفْسِهِ مِنَ الْخِلَافَةِ؛ فَإِنَّهُ ﷺ خَطَبَ فِي النَّاسِ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ: «ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَانْظُرْ فِي أُمُورِ النَّاسِ -يَقْصِدُ أَنْ يَتَوَلَّىٰ الْخِلَافَةَ- فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ! إِنَّهُ لَنْ يَلِيَ هَذَا الْأَمْرَ أَحَدٌ بَعْدَ عُمَرَ إِلَّا لَامَهُ النَّاسُ»(٣).

وَقَدْ وَصَفَ الشَّعْبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- الْأَحْوَالَ آنَذَاكَ وَصْفًا دَقِيقًا، أَثْبَتَ فِيهِ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الْفِتْنَةِ: انْفِتَاحَ النَّاسِ عَلَىٰ الدُّنْيَا، وَخَاصَّةً الْأَكَابِرَ مِنْهُمْ -وَهُمْ قُرَيْشٌ-؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ، وَيَتْبَعُونَ هَدْيَهُمْ، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَمْ يَمُتْ عُمَرُ حَتَّىٰ مَلَّتْهُ قُرَيْشٌ، وَقَدْ كَانَ حَصَرَهُمْ بِالْمَدِينَةِ فَامْتَنَعَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةِ انْتِشَارُكُمْ فِي الْبِلَادِ؛ فَإِنْ جَاءَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لِيَسْتَأْذِنَهُ فِي الْغَزْوِ قَالَ لَهُ: قَدْ كَانَ لَكَ فِي غَزْوِكَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يُبَلِّغُكَ، وَخَيْرٌ لَكَ مِنْ غَزْوِكَ الْيَوْمَ أَلَّا تَرَىٰ الدُّنْيَا وَلَا تَرَاكَ، وَكَانَ يَفْعَلُ هَذَا بِالْمُهَاجِرِينَ مِنْ قُرَيْشٍ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَةَ فِيهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَلَمَّا وَلِيَ عُثْمَانُ ﷺ خَلَّىٰ عَنْهُمْ، فَانْتَشَرُوا فِي الْبِلَادِ، وَانْقَطَعَ إِلَيْهِمُ النَّاسُ، وَكَانَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ عَنْ عُمَرَ وَعُثْمَانَ»(٤).

وَكَانَ عُثْمَانُ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ عُمَرَ ﷺ أَتْعَبَ وَاللَّهِ مَنْ تَبِعَ أَثَرَهُ»(٥).

وَلَمْ تَمْضِ سَنَةٌ مِنْ إِمَارَةِ عُثْمَانَ ﷺ حَتَّىٰ اتَّخَذَ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ الْأَمْوَالَ فِي

---

(٣) أخرجه اللالكائي في السنة (٢٥٥٠)، وابن عساكر (٣٥/ ٢٩٢)، وذكره الذهبي في السير (١/ ٨٧).

(٤) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٧٩)، وابن عساكر (٣٩/ ٣٠٢-٣٠٣)، ونقله ابن الأثير في الكامل (٣/ ٧٠)، وما بين الحاصرتين ليس من كلام الشعبي، وإنما هو إيضاح مني.

(٥) أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٨١).

الْأَمْصَارِ، وَصَارَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهُمْ، وَثَبَتُوا سَبْعَ سِنِينَ عَلَىٰ حَالِهِمْ هَذِهِ، ثُمَّ أَفْسَدَتِ الدُّنْيَا أَبْنَاءَهُمْ(٦)، فَسَأَلُوا عُثْمَانَ الْإِمَارَةَ فَلَمْ يَرَهُمْ أَكْفَاءَ لَهَا، فَنَقَمُوا عَلَيْهِ، فَاسْتَغَلَّهُمْ رُؤُوسُ الْفِتْنَةِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُفْسِدِينَ، وَأَلَّبُوهُمْ عَلَىٰ عُثْمَانَ ﷺ، فَكَانُوا مِنَ الْخَوَارِجِ عَلَيْهِ؛ نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

كَانَ مِنْهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ الَّذِي نَفِسَتْ بِهِ أُمُّهُ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ(٧)، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُذَيْفَةَ الَّذِي وُلِدَ فِي الْهِجْرَةِ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ(٨).

---

(٦) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٧٩)، والتمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان للمالقىٰ الأندلسي (٩١).

(٧) أخرجه مرسلا من حديث سعيد بن المسيب: أن أسماء بنت عميس نفست بمحمد بن أبي بكر الصديق بذي الحليفة وهم يريدون حجة الوداع ... : ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٨٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦٥٧)، والبيهقي (٥/ ٣٢)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ١٤١) برقم (٣٧٤) وصححه مرسلا: الضياء في المختارة (٥٣).
ورواه مالك عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه: عن أسماء، وفي إسناد آخر: عن أبيه أن أسماء، وفي إسناد ثالث: عن أبيه عن عائشة، قال الدارقطني في العلل (١/ ٢٧٠) بعد أن ذكرها كلها: «وأصحها عندي قول مالك ومن تابعه».
وأخرجه النسائي في مناسك الحج، باب الغسل للإهلال (٥/ ١٢٧-١٢٨)، وابن ماجه في المناسك، باب النفساء والحائض تهل بالحج (٩٧٢)، والبزار (٧٨) من حديث يحيىٰ بن سعيد الأنصاري عن القاسم بن محمد عن أبيه عن أبي بكر ﷺ قال: «أمر رسول الله ﷺ أسماء بنت عميس حين نفست بمحمد بن أبي بكر أن تغتسل وتهل» قال البزار: «وهذا الحديث هكذا رواه يحيىٰ بن سعيد عن القاسم بن محمد عن أبيه عن جده، ورواه عبد الله بن عمر عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة، وقد روي عن القاسم عن أسماء، ومحمد بن أبي بكر كان صغيرا حين توفي أبو بكر ﷺ إنما كان له أقل من ثلاث سنين» اهـ من مسند البزار (١/ ١٥٦).
وثبت ذلك من حديث جابر بن عبد الله ﷺ في ذكر قصة حجة النبي ﷺ وفيه قال جابر: «حتىٰ أتينا ذا الحليفة فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر ...» أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

(٨) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥٢/ ٢٦٩)، وذكره الذهبي في السير (٣/ ٤٨٠). =

وَكِلَا الِاثْنَيْنِ مَا أُتِيَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ الدُّنْيَا، وَلَا حَرَّضَهُمَا مَنْ حَرَّضَهُمَا عَلَىٰ عُثْمَانَ رضي الله عنه إِلَّا بِهَا؛ إِذْ طَلَبَا الْإِمَارَةَ فَلَمَّا لَمْ يُمَكَّنَا مِنْهَا؛ نَكَثَا الْبَيْعَةَ، وَنَازَعَا السُّلْطَانَ، فَهَاجَ مَعَهُمَا أَهْلُ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ:

أَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ فَخَرَجَ عَلَىٰ عُثْمَانَ يَطْلُبُ وِلَايَةَ مِصْرَ(٩)، فَوَلَّاهُ عَلَيْهَا أَوَّلَ الْأَمْرِ؛ حَقْنًا لِلدِّمَاءِ، وَتَسْكِينًا لِلدَّهْمَاءِ، وَإِخْمَادًا لِلْفِتْنَةِ(١٠).

وَلَكِنَّ مَنْ خَرَجُوا مَعَهُ مَا أَرَادُوا إِلَّا دَمَ الْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ رضي الله عنه، فَكَانَ مُحَمَّدٌ فِيمَنْ دَخَلَ عَلَىٰ عُثْمَانَ وَقْتَ مَقْتَلِهِ، فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ رضي الله عنه: «يَا ابْنَ أَخِي، مَا كَانَ أَبُوكَ لِيَأْخُذَ بِلِحْيَتِي»(١١)، وَفِي رِوَايَةٍ: «لَقَدْ أَخَذْتَ بِلِحْيَةٍ كَانَ أَبُوكَ يُكْرِمُهَا»(١٢).

= وقال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: «ونشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس علىٰ حربه -أي: عثمان- والإنكار عليه، وكان عظم ذلك مسندا إلىٰ محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة؛ حتىٰ استنفرا نحوا من ست مئة راكب يذهبون إلىٰ المدينة في صفة معتمرين في شهر رجب؛ لينكروا علىٰ عثمان فساروا إليه تحت أربع أرفاق ... وأقبل معهم محمد بن أبي بكر، وأقام بمصر محمد بن أبي حذيفة يؤلب الناس ويدافع عن هؤلاء» اهـ من البداية (٧/ ١٣٧) أحداث سنة (٣٥).

(٩) سئل سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم عن محمد بن أبي بكر: «ما دعاه إلىٰ ركوب عثمان؟ فقال: الغضب والطمع، قيل: ما الغضب والطمع؟ قال: كان من الإسلام بالمكان الذي هو به، وغره أقوام فطمع، وكانت له دالة فلزمه حق، فأخذه عثمان من ظهره ولم يداهن، فاجتمع هذا إلىٰ هذا، فصار مذمما بعد أن كان محمدا» أخرجه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٨١)، وابن عساكر (٣٩/ ٣٠٥).

(١٠) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ٣٥).

(١١) أخرجه من حديث الشعبي -رحمه الله تعالىٰ-: عمر بن شبة في أخبار المدينة (٢/ ٢٩١) برقم (٢٣٣٠).

(١٢) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ١٤٩)، والوافي بالوفيات (٢٠/ ٣٠) وفيه: «وكان أول من دخل عليه الدار محمد بن أبي بكر فأخذ بلحيته، فقال: له دعها يا ابن أخي، فوالله لقد كان =

فَاسْتَحْيَا مُحَمَّدٌ مِنْ قَوْلِهِ، وَأَفَاقَ مِنْ سَكْرَتِهِ، وَظَهَرَ لَهُ خَطَؤُهُ، فَتَذَمَّمَ مِنْ ذَلِكَ، وَغَطَّىٰ وَجْهَهُ حَيَاءً، وَرَجَعَ وَحَاجَزَ دُونَ عُثْمَانَ يَحْمِيهِ فَلَمْ يَنْفَعْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ كَانَ بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، وَتَمَكُّنِ أَهْلِ الْفِتْنَةِ وَالْأَهْوَاءِ(١٣)، ثُمَّ إِنَّهُ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي خِضَمِّ هَذِهِ الْفِتْنَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي كَانَ هُوَ سَبَبًا فِي إِشْعَالِهَا، وَعَسَىٰ اللهُ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْهُ بِمَا نَالَهُ مِنْ أَذًىٰ وَقَتْلٍ، وَبِمَا حَصَلَ لَهُ مِنْ نَدَمٍ وَرُجُوعٍ إِلَىٰ الْحَقِّ(١٤).

وَأَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُذَيْفَةَ فَقَدْ كَانَ يَتِيمًا فِي حِجْرِ عُثْمَانَ، وَكَانَ عُثْمَانُ رضي الله عنه وَالِيَ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَمُحْتَمِلًا كَلَّهُمْ، وَقَيِّمًا عَلَيْهِمْ، فَسَأَلَ عُثْمَانَ أَنْ يُؤَمِّرَهُ فَاعْتَذَرَ عُثْمَانُ مِنْهُ، فَأَلَحَّ عَلَيْهِ يَطْلُبُ الْإِمَارَةَ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ رضي الله عنه: «يَا بُنَيَّ، لَوْ كُنْتَ رِضًا لَاسْتَعْمَلْتُكَ، قَالَ: فَأْذَنْ لِي فَأَخْرُجَ فَأَطْلُبَ الرِّزْقَ، قَالَ: اذْهَبْ حَيْثُ

= أبوك يكرمها، فاستحيا وخرج» اهـ وينظر أيضًا: تاريخ الطبري (٢/ ٦٦٥).

وروىٰ أبو سعيد مولىٰ أبي أسيد الأنصاري: «أن محمد بن أبي بكر دخل عليه فأخذ بلحيته قال: فقال له: قد أخذت مني مأخذا، وقعدت مني مقعدا ما كان أبو بكر ليقعده أو ليأخذه، قال: فخرج وتركه» اهـ من تاريخ الطبري (٢/ ٦٧١)، ورواه بنحوه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٧٢) برقم (٧٦٥)، وابن شبة في أخبار المدينة (٢/ ٢٨٦) (٢٣٢٩) عن الحسن.

وروىٰ الشعبي: «أن محمد بن أبي بكر دخل علىٰ عثمان فأخذ بلحيته فقال: أرسل لحيتي فلم يكن أبوك ليتناولها فأرسلها» أخرجه الطبري (٢/ ٦٧٧)، وابن عساكر (٣٩/ ٤١٠).

وروىٰ سعيد بن المسيب: «أن محمد أبي بكر دخل علىٰ عثمان فأخذ بلحيته، فقال له عثمان رضي الله عنه: أما والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني، فتراخت يده» أخرجه ابن شبة في أخبار المدينة (٢/ ٣٠٠) برقم (٢٣٦٣)، وابن عساكر (٣٩/ ٤١٨).

(١٣) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ١٤٩).

(١٤) ذكر الذهبي في العبر (١/ ٤٤): «أن محمد بن أبي بكر هزم من جيش معاوية بن حديج الكندي فاختفىٰ في بيت لامرأة فدلت عليه، فقال: احفظوني في أبي بكر، فقال معاوية بن حديج: قتلت ثمانية من قومي في دم عثمان وأتركك، فقتله وصيره في بطن حمار وأحرقه»، ونحوه في السير (٣/ ٤٨٢).

شِئْتَ، وَجَهَّزَهُ مِنْ عِنْدِهِ، وَحَمَلَهُ وَأَعْطَاهُ، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِ، فَذَهَبَ إِلَىٰ مِصْرَ، وَتَغَيَّرَ عَلَىٰ عُثْمَانَ، وَحَرَّضَ النَّاسَ عَلَىٰ الْفِتْنَةِ؛ لِأَنَّ عُثْمَانَ مَنَعَهُ الْوِلَايَةَ»(١٥).

وَيُرْوَىٰ أَنَّ كَعْبَ الْأَحْبَارِ نَصَحَهُ فَمَا انْتَصَحَ؛ فَقَدْ رَكِبَ مَعَهُ السَّفِينَةَ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُذَيْفَةَ: «يَا كَعْبُ، كَيْفَ تَجِدُ نَعْتَ سَفِينَتِنَا هَذِهِ فِي التَّوْرَاةِ؟ قَالَ كَعْبٌ: لَسْتُ أَجِدُ نَعْتَ هَذِهِ السَّفِينَةِ، وَلَكِنِّي أَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّهُ يَنْزُو فِي الْفِتْنَةِ رَجُلٌ يُدْعَىٰ فَرْخَ قُرَيْشٍ لَهُ سِنٌّ شَاغِيَةٌ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ ذَلِكَ»(١٦).

وَقَدْ قُتِلَ أَيْضًا فِي تِلْكَ الْفِتْنَةِ الَّتِي كَانَ أَحَدَ مُشْعِلِيهَا عَفَا اللهُ عَنَّا وَعَنْهُ، وَرَحِمَنَا وَإِيَّاهُ.

قَالَ الذَّهَبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- بَعْدَ أَنْ عَرَضَ سِيرَتَهُ: «عَامَّةُ مَنْ سَعَىٰ فِي دَمِ عُثْمَانَ قُتِلُوا، وَعَسَىٰ الْقَتْلُ خَيْرًا لَهُمْ وَتَمْحِيصًا»(١٧).

وَذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ(١٨) أَنَّ الدُّنْيَا لَمَّا انْفَتَحَتْ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ آنَذَاكَ، وَوَسَّعَ

---

(١٥) ذكر ذلك سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالىٰ- فيما رواه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٨٠)، وابن عساكر (٣٩/ ٣٠٣)، وذكره ابن الأثير في الكامل (٣/ ٧١)، والمالقي في التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان (٩٣).

(١٦) أخرجه أبو عبيد بن سلام في غريب الحديث (٤/ ٣٤٧)، وابن شبة في أخبار المدينة (٢/ ١٩٢) برقم (١٩٥٠)، ونقله الذهبي في السير (٣/ ٤٨١).

والسن الشاغية هي الزائدة علىٰ الأسنان، يقال: رجل أشغىٰ، وامرأة شغواء، والجمع: شغو. اهـ من الغريب لابن سلام، وينظر: الغريب لابن الجوزي (١/ ٥٤٩) وقال بعد أن نقل قول أبي عبيد: «وقال غيره: الشغا خروج الثنيتين من الشفة وارتفاعهما». وقال الزمخشري: «شغىٰ، الشاغية: التي تخالف نبتتها نبتة غيرها من الأسنان» اهـ من الفائق (٢/ ٢٥٤)، ونقل ابن الأثير قولًا ثالثًا فقال: «وقيل: هو الذي تقع أسنانه العليا تحت رؤوس السفلىٰ» قال: والأول أصح، يعني: قول أبي عبيد، ينظر: النهاية (٢/ ٤٨٤).

(١٧) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٨١).

(١٨) ينظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٧٩)، والتمهيد والبيان (٩١).

عَلَيْهِم عُثْمَانُ بَعْدَ أَنْ زَهَّدَهُم عُمَرُ ﵁؛ اتَّخَذُوا الضِّيَاعَ، وَمَالُوا إِلَىٰ الْجَاهِ وَالمَالِ؛ فَاسْتَطَالُوا عُمْرَ عُثْمَانَ، وَسَعَوْا فِي الْفِتْنَةِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ عَوَاقِبَهَا، فَمَا سَلِمَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا الَّتِي أَثَارُوا الْفِتْنَةَ مِنْ أَجْلِهَا، وَأَضَرُّوا بِدِينِهِمْ ضَرَرًا كَبِيرًا، يَلْقَوْنَ اللهَ تَعَالَىٰ يَوْمَ لِقَائِهِ بِدَمِ خَلِيفَةٍ رَاشِدٍ، زَوَّجَهُ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَتَيْهِ، وَبَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ، وَشَهِدَ لَهُ بِهَا، وَزَكَّاهُ أَعْظَمَ تَزْكِيَةٍ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**»(١٩).

وَصَدَقَ الرَّسُولُ ﷺ حِينَ حَذَّرَ أُمَّتَهُ الدُّنْيَا، وَاسْتِشْرَافَهَا، وَمَحَبَّتَهَا، وَالْخُضُوعَ لَهَا، وَخَافَهَا عَلَيْهِمْ أَشَدَّ الْخَوْفِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢٠).

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الدُّنْيَا، فَتُفْسِدَ دِينَكُمْ، وَاحْذَرُوا الْفِتْنَةَ بِهَا؛ فَإِنَّ الْفِتْنَةَ بِهَا سَبَبٌ لِلتَّنَافُسِ عَلَيْهَا، ثُمَّ الِاقْتِتَالِ مِنْ أَجْلِهَا؛ وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَىٰ فِتَنٍ عَظِيمَةٍ، يُرْفَعُ فِيهَا الْأَمْنُ، وَيَعْظُمُ الْخَوْفُ، وَيَكْثُرُ الْجُوعُ؛ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا أَمِنُوا شَبِعُوا، وَإِذَا خَافُوا جَاعُوا.

---

(١٩) أخرجه من حديث عبدالرحمن بن سمرة: الترمذي وقال: حسن غريب (٣٧٠١)، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٧٩)، والطبراني في مسند الشاميين (١٢٧٤)، والحاكم وصححه (٣/ ١١٠).

(٢٠) أخرجه من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ﵁: البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (٢٩٨٨)، ومسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦١)، والرواية الثانية للبخاري في الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٠٦١)، ومسلم (٢٩٦١).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالمُعَافَاةَ الدَّائِمَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا نَسْأَلُهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَكْفِيَنَا شُرُورَ أَنْفُسِنَا، وَشُرُورَ الدُّنْيَا وَفِتْنَتَهَا، وَشُرُورَ كُلِّ ذِي شَرٍّ مِنْ خَلْقِهِ، وَشُرُورَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فَاطِر: ٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ..

❋ ❋ ❋

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّىٰ اللهُ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ الَّتِي تَفْتَحُ أَبْوَابَ فِتَنٍ كَثِيرَةٍ: الْفِتْنَةُ بِالدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا، وَلَيْسَ شَيْءٌ مُفْسِدًا لِقُلُوبِ الْعِبَادِ كَالْفِتْنَةِ بِهَا؛ فَمَنْ فُتِنَ بِهَا بَدَّلَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَحَرَّفَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَمْ يَتَوَرَّعْ عَنْ فِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ؛ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ المُحَرَّمَةَ، وَيَنْتَهِبُ الْأَمْوَالَ المُحْتَرَمَةَ، وَيَنْتَهِكُ الْأَعْرَاضَ المَصُونَةَ، بِتَأْوِيلَاتٍ خَاطِئَةٍ. وَحُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ[٢١]؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ

(٢١) جاء ذلك من كلام جندب بن عبد الله ﷺ؛ كما عند البيهقي في الشعب (١٠٥٠١)، =

. . . .

= وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٠٠) بعد أن أورده من كلام جندب رضي الله عنه: «وروي مرفوعا، وروي عن الحسن مرسلا» اهـ.
وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤١٢): «رواه البيهقي في الشعب بإسناد حسن إلىٰ الحسن البصري رفعه مرسلا، وذكره الديلمي في الفردوس، وتبعه ولده بلا سند عن علي رفعه، وقال ابن الغرس: الحديث ضعيف، ورواه البيهقي أيضا في الزهد، وأبو نعيم من قول عيسىٰ بن مريم، وفي رواية لولد أحمد بلفظ: رأس الخطيئة حب الدنيا والنساء حبالة الشيطان والخمر مفتاح كل شر. ولأحمد في الزهد عن سفيان قال: كان عيسىٰ بن مريم .. فذكره».
وقال السيوطي في تدريب الراوي (١/ ٢٨٧): «حديث: حب الدنيا رأس كل خطيئة، إما من كلام مالك بن دينار، كما رواه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان بإسناده إليه، أو من كلام عيسىٰ ابن مريم ﷺ كما رواه البيهقي في الزهد، ولا أصل له من حديث النبي ﷺ، إلا من مراسيل الحسن البصري كما رواه البيهقي في شعب الإيمان، ومراسيل الحسن عندهم شبه الريح، وقال شيخ الإسلام -يعني ابن حجر-: إسناده إلىٰ الحسن حسن، ومراسيله أثنىٰ عليها أبو زرعة وابن المديني، فلا دليل علىٰ وضعه والأمر كما قال».
وقال السخاوي في فتح المغيث (١/ ٢٦٥): «حديث: حب الدنيا رأس كل خطيئة. رواه البيهقي في الزهد، وأبو نعيم في ترجمة الثوري من الحلية من قول عيسىٰ بن مريم عليه السلام، وجزم ابن تيمية بأنه من قول جندب البجلي رضي الله عنه، وأورده ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان له من قول مالك بن دينار، وابن يونس في ترجمة سعد بن مسعود التجيبي في تاريخ مصر له من قول سعد هذا، ولكن قد أخرجه البيهقي أيضا في الحادي والسبعين من الشعب بسند حسن إلىٰ الحسن البصري رفعه مرسلا، وأورده الديلمي في الفردوس وتبعه ولده بلا إسناد عن علي بن أبي طالب رفعه أيضا، ولا دليل للحكم عليه بالوضع مع وجود هذا».
وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- عن معنىٰ قول من يقول: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» فهل هي من جهة المعاصي، أو من جهة جمع المال؟
فأجاب: ليس هذا محفوظا عن النبي ﷺ، ولكن هو معروف عن جندب بن عبد الله البجلي من الصحابة، ويذكر عن المسيح بن مريم عليه السلام، وأكثر ما يغلو في هذا اللفظ: المتفلسفة، ومن حذا حذوهم من الصوفية، علىٰ أصلهم في تعلق النفس إلىٰ أمور ليس هذا موضوع بسطها. وأما حكم الإسلام في ذلك فالذي يعاقب الرجل عليه الحب الذي يستلزم =

لِلْهَوَىٰ، وَالْهَوَىٰ لَا ضَابِطَ لَهُ، وَلَا قَيْدَ يُقَيِّدُهُ، فَصَاحِبُهُ يَسْتَحِلُّ مَحَارِمَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَيَرْفُضُ شَرِيعَتَهُ؛ لِأَنَّهَا تُخَالِفُ هَوَاهُ؛ وَلِذَلِكَ سَمَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ الْهَوَىٰ

= المعاصي، فإنه يستلزم الظلم، والكذب، والفواحش، ولا ريب أن الحرص علىٰ المال والرئاسة يوجب هذا، كما في الصحيحين أنه قال: «**إياكم والشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا**»، وعن كعب عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه**» قال الترمذي: حديث حسن، فحرص الرجل علىٰ المال والشرف يوجب فساد الدين، فأما مجرد الحب الذي في القلب إذا كان الإنسان يفعل ما أمره الله به، ويترك ما نهىٰ الله عنه، ويخاف مقام ربه، وينهىٰ النفس عن الهوىٰ؛ فإن الله لا يعاقبه علىٰ مثل هذا إذا لم يكن معه عمل، وجمع المال إذا قام بالواجبات فيه، ولم يكتسبه من الحرام لا يعاقب عليه، لكن إخراج فضول المال، والاقتصار علىٰ الكفاية أفضل وأسلم، وأفرغ للقلب، وأجمع للهم، وأنفع في الدنيا والآخرة، وقال النبي ﷺ: «**من أصبح والدنيا أكبر همه شتت الله عليه شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه ضيعته، وأتته الدنيا وهي راغمة**» اهـ من مجموع الفتاوىٰ (١١/ ١٠٧-١٠٨).

وقال أيضا (١٨/ ١٢٣): «وما يروون: «حب الدنيا رأس كل خطيئة» هذا معروف عن جندب بن عبد الله البجلي، وأما عن النبي ﷺ فليس له إسناد معروف».

وقال المناوي في فيض القدير (٣/ ٣٦٨): «حب الدنيا رأس كل خطيئة، بشاهد التجربة والمشاهدة؛ فإن حبها يدعو إلىٰ كل خطيئة ظاهرة وباطنة، سيما خطيئة يتوقف تحصيلها عليها، فيسكر عاشقها حبها عن علمه بتلك الخطيئة وقبحها، وعن كراهتها واجتنابها، وحبها يوقع في الشبهات، ثم في المكروه، ثم في المحرم، وطالما أوقع في الكفر؛ بل جميع الأمم المكذبة لأنبيائهم إنما حملهم علىٰ كفرهم حب الدنيا؛ فإن الرسل لما نهوا عن المعاصي التي كانوا يلتمسون بها حب الدنيا حملهم حبها علىٰ تكذيبهم، فكل خطيئة في العالم أصلها: حب الدنيا، ولا تنس خطيئة الأبوين، فإن سببها حب الخلود في الدنيا، ولا تنس خطيئة إبليس فإن سببها حب الرياسة التي هي شر من حب الدنيا، وكفر فرعون وهامان وجنودهما، فحبها هو الذي عمر النار بأهلها، وبغضها هو الذي عمر الجنة بأهلها، ومن ثم قيل: الدنيا خمر الشيطان فمن شرب منها لم يفق من سكرتها إلا في عسكر الموتىٰ خاسرا نادما» اهـ.

إِلَهًا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الْجَاثِيَة: ٢٣].

وَقَدْ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّ سَعَةَ الدُّنْيَا خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ضِيقِهَا؛ وَلِذَلِكَ يَسْأَلُونَ اللهَ تَعَالَىٰ سَعَةَ الرِّزْقِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَظُنُّونَ؛ فَكَمْ مِنْ عَبْدٍ حَمَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ الدُّنْيَا فَكَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَهُ(٢٢)، وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ بَسَطَ لَهُ مِنْهَا مَا بَسَطَ فَفُتِنَ بِهَا، فَكَانَ هَلَاكُهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ!

وَمِنْ مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ انْفِتَاحَ الدُّنْيَا سَيَكُونُ سَبَبًا لِفِتْنَةِ الْمُسْلِمِينَ وَاقْتِتَالِهِمْ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟** قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَوَغَيْرَ ذَلِكَ؟ تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ الْمُهَاجِرِينَ فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ رِقَابِ بَعْضٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٣).

---

(٢٢) كما في حديث قتادة بن النعمان -رضىٰ الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبدا حماه الدنيا كما يحمي أحدكم سقيمه الماء**» أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب (٢٠٣٦)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٥٧)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٢) برقم (١٧)، وصححه ابن حبان (٦٦٩)، والحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٢٣٠).
وجاء مرسلا عن محمود بن لبيد عن النبي ﷺ **عند**: ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٤٣)، وقد بين ذلك الترمذي في جامعه (٤/ ٣٨١).
وجاء أيضا عن محمود بن لبيد عن عقبة بن رافع رضي الله عنه عند: أبي يعلىٰ (٦٨٦٥).
وجاء أيضا عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج رضي الله عنه عند: القضاعي في مسند الشهاب (١٣٩٧)، والطبراني في الكبير (٤/ ٢٥٢) برقم (٤٢٩٦)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٦١) برقم (٤٨٠٩)، والهيثمي في الزوائد (١٠/ ٢٨٥).

(٢٣) أخرجه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: مسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٢)، وابن ماجه في الفتن، باب فتنة المال (٣٩٩٦).

وَالسَّلَامَةُ مِنَ الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ زَهْرَتِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَأَوْزَارِهَا وَفِتْنَتِهَا، وَمَا يَنْتِجُ عَنْهَا مِنَ التَّنَافُسِ وَالتَّقَاطُعِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَىٰ الْفِتْنَةِ وَالتَّقَاتُلِ، فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ ﵁ قَالَ: «إِنَّا لَجُلُوسٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي المَسْجِدِ إِذْ طَلَعَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ مَا عَلَيْهِ إِلَّا بُرْدَةٌ لَهُ مَرْقُوعَةٌ بِفَرْوٍ، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَكَىٰ لِلَّذِي كَانَ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالَّذِي هُوَ الْيَوْمَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ وَرُفِعَتْ أُخْرَىٰ، وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ**؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْنُ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مِنَّا الْيَوْمَ، نَتَفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ، وَنُكْفَىٰ المُؤْنَةَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **لَأَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ(٢٤).

فَهَذِهِ النُّصُوصُ وَأَمْثَالُهَا تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ بَسْطَ الدُّنْيَا عَلَىٰ النَّاسِ يَكُونُ سَبَبًا فِي فِتْنَتِهِمْ بِهَا، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَيْهَا، وَتَكُونُ نَتِيجَةُ ذَلِكَ: الْبَغْيَ وَالْعُدْوَانَ وَالظُّلْمَ وَالْأَثَرَةَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ، الَّتِي هِيَ مِنْ أَسْبَابِ الْفِتَنِ وَالْمِحَنِ، وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشُّورَىٰ: ٢٧].

عِبَادَ اللَّهِ: يَحِلُّ بِكُمْ قَرِيبًا عَشْرٌ مُبَارَكَةٌ، هِيَ خَيْرُ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَفْضَلُ مِنَ الْعَمَلِ فِي غَيْرِهَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ** -يَعْنِي الْعَشْرَ- قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: **وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ**

---

(٢٤) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، وقال: حديث حسن (٢٤٧٦)، وهناد في الزهد (٧٥٨)، وأبو يعلىٰ (٥٠٢)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٤٢٩٣).

وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَاللَّفْظُ لَهُ(٢٥).

وَقَدْ شَرَعَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي خَاتِمَتِهَا: الْأُضْحِيَّةَ، وَهِيَ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرَبِ وَأَعْظَمِهَا، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ فَلْيُمْسِكْ عَنْ شَعْرِهِ وَأَظْفَارِهِ مِنْ أَوَّلِ الشَّهْرِ؛ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ(٢٦).

فَاجْتَهِدُوا رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُقَرِّبُكُمْ مِنَ اللَّهِ ﷻ، وَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّكْبِيرِ، وَالتَّهْلِيلِ، وَالتَّحْمِيدِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ النَّاسِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ خَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



(٢٥) أخرجه البخاري في العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق (٩٢٦)، وأبو داود في الصوم، باب صوم العشر (٢٤٣٨).

(٢٦) أخرجه من حديث أم سلمة ﵂: مسلم في الأضاحي، باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة وهو مريد التضحية أن يأخذ من شعره، أو أظفاره شيئًا (١٩٧٧).

٢١٣- فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (٤) الشبهات وردها

٢٩/ ٢/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ الله تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: لِلْقُلُوبِ أَمْرَاضٌ كَمَا أَنَّ لِلْأَبْدَانِ أَمْرَاضًا، وَأَمْرَاضُ الْقُلُوبِ أَعْصَىٰ مِنْ أَمْرَاضِ الْأَبْدَانِ، وَهِيَ أَشَدُّ فَتْكًا بِالْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِدِينِهِ، وَتُحَدِّدُ مَصِيرَهُ فِي آخِرَتِهِ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضَ الْقَلْبِ فَزَادَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مَرَضًا إِلَىٰ مَرَضِهِ بِسَبَبِ صَدِّهِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَإِنَّهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَهْلِ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِمْ: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ [الْبَقَرَة: ١٠] ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصَّفّ: ٥].

وَمِنْ أَعْظَمِ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ الَّتِي تُورِدُ أَصْحَابَهَا المَهَالِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: الشُّبُهَاتُ الَّتِي تَعْلَقُ بِالْقُلُوبِ حَتَّىٰ يَظُنَّ أَصْحَابُهَا أَنَّهُمْ عَلَىٰ هُدًىٰ وَهُمْ عَلَىٰ ضَلَالٍ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا وَهُمْ مُخْطِئُونَ، وَمَا وَقَعَ فِي الْبِدْعَةِ مَنْ وَقَعَ فِيهَا مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِالشُّبُهَاتِ وَالْأَهْوَاءِ؛ بَلْ إِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ عَظِيمَةٍ وَقَعَتْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ نَتَجَتْ عَنْ شُبُهَاتٍ دَاخَلَتْ قُلُوبَ أَصْحَابِهَا فَأَوْرَدَتْهُمُ المَهَالِكَ فِي الدُّنْيَا، وَعَلَّقُوا بِسَبَبِهَا فِي رِقَابِهِمْ دَمَ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﷺ وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ بِعَاقِبَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ.

لَقَدْ نَقَمُوا عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ مَا نَقَمُوا، فَرَكِبَهُمْ أَهْلُ السُّوءِ وَالنِّفَاقِ، وَمُبْتَغُو الْفِتْنَةِ وَالشِّقَاقِ، يُلْقُونَ إِلَيْهِمْ قَالَتَهُمْ، وَيُسَيِّرُونَهُمْ بِشَائِعَتِهِمْ، وَيَقْذِفُونَ فِي قُلُوبِهِمْ شُبُهَاتِهِمْ؛ حَتَّىٰ مَكَّنُوا مِنْ قُلُوبِهِمْ شُبُهَاتٍ مَا رَدُّوهَا مِنْ بِدَايَتِهَا، وَلَا اسْتَفْتَوْا فِيهَا الْعُلَمَاءَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ، بَلِ اسْتَسْلَمُوا لَهَا، فَتَشَرَّبَتْهَا قُلُوبُهُمْ، وَعَظُمَتْ بِهَا نُفُوسُهُمْ، حَتَّىٰ تَهَيَّئُوا لِلشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ فَخَرَجَ بِهِمُ الرُّؤُوسُ الظَّالِمُونَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَلَىٰ عُثْمَانَ ﷺ، يُظْهِرُونَ لَهُمُ الْإِصْلَاحَ، وَيَهْتِفُونَ فِيهِمْ بِالْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، فَأَحْسَنُوا الظَّنَّ بِهِمْ وَمَا أَحْسَنُوا، وَظَنُّوا السُّوءَ بِخَلِيفَتِهِمْ وَبِئْسَ مَا ظَنُّوا، فَكَانُوا أَهْلَ المُنْكَرِ وَالْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ.

لَقَدْ حَسِبُوا أَنَّهُمْ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا لِلْإِسْلَامِ يَنْصُرُونَ، وَفِي الْبِلَادِ يُصْلِحُونَ، وَلِلَّهِ تَعَالَىٰ يَتَقَرَّبُونَ، وَهُمُ المُفْسِدُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

لَمَّا وَصَلُوا المَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ، وَأَعْلَنُوا خُرُوجَهُمْ عَلَىٰ الْخَلِيفَةِ، وَأَخَذُوا يُشَغِّبُونَ عَلَىٰ النَّاسِ، وَيُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِشُبُهَاتِهِمْ، وَيَبُثُّونَ فِيهِمْ شَائِعَاتِهِمْ؛ نَصَحَ لَهُمْ عُثْمَانُ ﷺ وَهُوَ الْخَلِيفَةُ النَّاصِحُ لِرَعِيَّتِهِ، وَعَرَضَ شُبُهَاتِهِمْ وَأَجَابَ عَنْهَا،

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، وَعَنْ غَيِّهِمْ يَرْجِعُونَ.

قَامَ عُثْمَانُ ﷺ فِي النَّاسِ خَطِيبًا فَقَالَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-: «إِنَّ هَؤُلَاءِ ذَكَرُوا أُمُورًا قَدْ عَلِمُوا مِنْهَا مِثْلَ الَّذِي عَلِمْتُمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يُذَاكِرُونِيهَا لِيُوجِبُوهَا عَلَيَّ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْلَمُ، وَقَالُوا: أَتَمَّ الصَّلَاةَ فِي السَّفَرِ وَكَانَتْ لَا تُتَمُّ، أَلَا وَإِنِّي قَدِمْتُ بَلَدًا فِيهِ أَهْلِي فَأَتْمَمْتُ لِهَذَيْنَ الْأَمْرَيْنِ أَوَ كَذَلِكَ؟

قَالَ النَّاسُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

وَقَالُوا: وَحَمَيْتَ حِمًى، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا حَمَيْتُ إِلَّا مَا حُمِيَ قَبْلِي -يَعْنِي: مَا حَمَاهُ قَبْلَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ لِإِبِلِ الصَّدَقَةِ- وَاللَّهِ مَا حَمَوْا شَيْئًا لِأَحَدٍ، مَا حَمَوْا إِلَّا مَا غَلَبَ عَلَيْهِ أَهْلُ المَدِينَةِ، ثُمَّ لَمْ يَمْنَعُوا مِنْ رَعْيِهِ أَحَدًا، وَاقْتَصَرُوا لِصَدَقَاتِ المُسْلِمِينَ يَحْمُونَهَا؛ لِئَلَّا يَكُونَ بَيْنَ مَنْ يَلِيهَا وَبَيْنَ أَحَدٍ تَنَازُعٌ، ثُمَّ مَا مَنَعُوا وَلَا نَحَّوْا مِنْهَا أَحَدًا إِلَّا مَنْ سَاقَ دِرْهَمًا، وَمَا لِي مِنْ بَعِيرٍ غَيْرَ رَاحِلَتَيْنِ، وَمَا لِي ثَاغِيَةٌ وَلَا رَاغِيَةٌ، وَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ وَأَنَا أَكْثَرُ الْعَرَبِ بَعِيرًا وَشَاءً، فَمَا لِيَ الْيَوْمَ شَاةٌ وَلَا بَعِيرٌ غَيْرَ بَعِيرَيْنِ لِحَجِّي، أَكَذَلِكَ؟ قَالَ النَّاسُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

وَقَالُوا: كَانَ الْقُرْآنُ كُتُبًا فَتَرَكْتَهَا إِلَّا وَاحِدًا -يَعْنُونَ جَمْعَ عُثْمَانَ المَصَاحِفَ فِي مُصْحَفٍ وَاحِدٍ- أَلَا وَإِنَّ الْقُرْآنَ وَاحِدٌ، جَاءَ مِنْ عِنْدِ إِلَهٍ وَاحِدٍ، وَإِنَّمَا أَنَا فِي ذَلِكَ تَابِعٌ لِهَؤُلَاءِ، أَكَذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ».

وَعِنْدَمَا أَجَابَ ﷺ عَنْ شُبُهَاتِهِمْ بِهَذِهِ الْأَجْوِبَةِ المُفْحِمَةِ لَهُمْ سَأَلُوهُ أَنْ يُقِيلَهُمْ مِنْ بَقِيَّةِ شُبُهَاتِهِمْ، وَلَكِنَّهُ ﷺ أَرَادَ أَنْ يُوضِّحَ لِلنَّاسِ حَقِيقَتَهُمْ، وَيَكْشِفَ لَهُمْ خَطِيئَتَهُمْ، وَيُزِيلَ الشُّبُهَاتِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَمَضَىٰ يُجِيبُهُمْ وَقَالَ: «وَقَالُوا إِنِّي رَدَدْتُ الْحَكَمَ -يَعْنِي: ابْنَ أَبِي الْعَاصِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ نَفَاهُ إِلَىٰ الطَّائِفِ ثُمَّ أَرْجَعَهُ إِلَىٰ مَكَّةَ- وَقَدْ سَيَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَالْحَكَمُ مَكِّيٌّ سَيَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ

الطَّائِفِ ثُمَّ رَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، فَرَسُولُ اللَّهِ سَيَّرَهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ رَدَّهُ، أَكَذَلِكَ؟ قَالَ النَّاسُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

وَقَالُوا: اسْتَعْمَلْتَ الْأَحْدَاثَ، فَلَمْ أَسْتَعْمِلْ إِلَّا مُجْتَمَعًا مُحْتَمَلًا مَرْضِيًّا، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ عَمَلِهِمْ فَسَلُوهُمْ عَنْهُ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ بَلَدِهِ، وَلَقَدْ وَلَّىٰ مَنْ قَبْلِي أَحْدَثَ مِنْهُمْ، وَقِيلَ فِي ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ أَشَدَّ مِمَّا قِيلَ لِي فِي اسْتِعْمَالِهِ أُسَامَةَ، أَكَذَاكَ؟

قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ يَعِيبُونَ لِلنَّاسِ مَا لَا يُفَسِّرُونَ.

وَقَالُوا: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنَ أَبِي سَرْحٍ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ، وَإِنِّي إِنَّمَا نَفَّلْتُهُ خُمْسَ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْخُمْسِ لَمَّا فَتَحَ إِفْرِيقِيَّةَ، فَكَانَ مِائَةَ أَلْفٍ، وَقَدْ أَنْفَذَ مِثْلَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما، وَمَعَ ذَلِكَ زَعَمَ الْجُنْدُ أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ ذَلِكَ فَرَدَدْتُهُ عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَ ذَاكَ لَهُمْ، أَكَذَاكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ.

وَقَالُوا: إِنِّي أُحِبُّ أَهْلَ بَيْتِي وَأُعْطِيهِمْ، فَأَمَّا حُبِّي لَهُمْ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَحْمِلْنِي عَلَىٰ جَوْرٍ، بَلْ أَحْمِلُ الْحُقُوقَ عَلَيْهِمْ، وَأَمَّا إِعْطَاؤُهُمْ؛ فَإِنِّي مَا أُعْطِيهِمْ إِلَّا مِنْ مَالِي، وَلَا أَسْتَحِلُّ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ لِنَفْسِي وَلَا لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَقَدْ كُنْتُ أُعْطِي الْعَطِيَّةَ الْكَبِيرَةَ الرَّغِيبَةَ مِنْ صُلْبِ مَالِي أَزْمَانَ رَسُولِ الله وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما وَأَنَا يَوْمَئِذٍ شَحِيحٌ حَرِيصٌ أَفَحِينَ أَتَيْتُ عَلَىٰ أَسْنَانِ أَهْلِ بَيْتِي، وَفَنِيَ عُمْرِي، وَوَدَّعْتُ الَّذِي لِي فِي أَهْلِي؛ قَالَ الْمُلْحِدُونَ مَا قَالُوا!! إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَذْتُ مِنْ مِصْرٍ مِنَ الْأَمْصَارِ مَالًا وَلَا فَضْلًا فَيَجُوزُ ذَلِكَ لِمَنْ قَالَهُ، وَلَقَدْ رَدَدْتُ عَلَىٰ تِلْكَ الْأَمْصَارِ الْأَمْوَالَ وَلَمْ يُحْضِرُوا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ إِلَّا الْأَخْمَاسَ مِنَ الْغَنَائِمِ، وَلَا يَحِلُّ لِي مِنْهَا شَيْءٌ، فَوُلِّيَ الْمُسْلِمُونَ وَضْعَهَا فِي أَهْلِهَا دُونِي، وَلَا تَبَلَّغْتُ مِنْ مَالِ اللَّهِ عز وجل بِفَلْسٍ فَمَا فَوْقَهُ، وَلَا أَتَبَلَّغُ بِهِ، مَا آكُلُ إِلَّا فِي مَالِي.

وَقَالُوا: أَعْطَيْتَ الْأَرْضَ رِجَالًا، وَإِنَّ هَذِهِ الْأَرَضِينَ شَارَكَهُمْ فِيهَا الْمُهَاجِرُونَ

وَالْأَنْصَارُ أَيَّامَ افْتُتِحَتْ؛ فَمَنْ أَقَامَ بِمَكَانِهِ مِنْ هَذِهِ الْفُتُوحِ فَهُوَ أُسْوَةُ أَهْلِهِ، وَمَنْ رَجَعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ لَمْ يَذْهَبْ ذَلِكَ مَا حَوَىٰ اللهُ ﷻ، فَنَظَرْتُ فِي الَّذِي يُصِيبُهُمْ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَبِعْتُهُ لَهُمْ بِأَمْرِهِمْ مِنْ رِجَالِ أَهْلِ عَقَارٍ بِبِلَادِ الْعَرَبِ، فَنَقَلْتُ إِلَيْهِمْ نَصِيبَهُمْ فَهُوَ فِي أَيْدِيهِمْ دُونِي . . .»[(١)].

فَلَمَّا أَزَالَ عُثْمَانُ رضي الله عنه شُبُهَاتِهِمْ لَانَ لَهُ أَكْثَرُ النَّاسِ، حَتَّىٰ مِمَّنْ خَرَجُوا عَلَيْهِ، وَأَبَىٰ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا قَتْلَ الْخَوَارِجِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ رضي الله عنه كَانَ رَحِيمًا بِرَعِيَّتِهِ، صَبُورًا عَلَىٰ أَذِيَّةِ الْمُؤْذِينَ مِنْهُمْ، فَأَبَىٰ رضي الله عنه إِلَّا الْعَفْوَ عَنْهُمْ، وَتَرَكَهُمْ يَرْتَحِلُونَ غَيْرَ مَأْخُوذِينَ وَلَا مُحَاسَبِينَ عَلَىٰ فِعْلَتِهِمُ الشَّنِيعَةِ.

وَلَكِنَّ عَفْوَهُ عَنْهُمْ مَا زَادَ رُؤُوسَهُمْ إِلَّا عُتُوًّا وَنُفُورًا، فَرَجَعُوا إِلَىٰ بِلَادِهِمْ عَلَىٰ أَنْ يَغْزُوهُمْ مَعَ الْحُجَّاجِ كَالْحُجَّاجِ، وَتَكَاتَبُوا وَتَوَاصَوْا بِالشَّرِّ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَقَالُوا: مَوْعِدُكُمْ ضَوَاحِي الْمَدِينَةِ فِي شَوَّالٍ، وَعَادُوا مَرَّةً أُخْرَىٰ وَقَدِ اشْتَدَّ شَرُّهُمْ، وَعَظُمَتْ فِتْنَتُهُمْ، فَحَاصَرُوا خَلِيفَتَهُمْ، ثُمَّ قَتَلُوهُ وَنَهَبُوا مَالَهُ، وَاسْتَحَلُّوا بَيْتَ مَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَبِقَتْلِهِ رضي الله عنه وُضِعَ السَّيْفُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فَلَا يُرْفَعُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ[(٢)].

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا بَطَنَ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ الْهِدَايَةَ لِلْحَقِّ وَالثَّبَاتَ عَلَيْهِ، وَالْعِصْمَةَ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْهَوَىٰ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوهُ؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

---

(١) أخرجه سيف بن عمر التميمي في الفتنة ووقعة الجمل (٥٥-٥٧)، وعنه الطبري في تاريخه (٢/ ٦٥١-٦٥٢)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٣١٢-٣١٤).
وينظر حديث طويل في ذلك بسياق آخر عن سعيد مولىٰ أبي أسيد الأنصاري في: فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٤٧٠) رقم (٧٦٥)، وفضائل عثمان رضي الله عنه لعبد الله بن أحمد ابن حنبل (٥٦)، وتاريخ الطبري (٢/ ٦٧١).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (٧/ ١٥١).

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا النَّاسُ: كَثِيرٌ مِنَ الشُّبَهِ الَّتِي تَرِدُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ فِي مَسَائِلِ الدِّينِ، وَفِي حُقُوقِ السَّلَاطِينِ وَمَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ، يَحْتَاجُ النَّاسُ فِي إِزَالَتِهَا إِلَىٰ مَنْ يُحْسِنُ التَّعَامُلَ مَعَهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، وَأَصْحَابِ الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ، وَإِلَّا فَتَكَتْ بِأَصْحَابِهَا، وَأَدْخَلَتِ الْمُسْلِمِينَ فِي دَوَّامَةٍ مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ لَا خَلَاصَ لَهُمْ مِنْهَا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَمَا وَقَعَ مِنْ أَحْدَاثٍ مَأْسَاوِيَّةٍ فِي كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَبِالْأَخَصِّ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الْمُبَارَكَةِ، عَلَىٰ أَيْدِي بَعْضِ أَبْنَائِهَا، إِنَّمَا هُوَ نَاتِجٌ عَنْ شُبُهَاتٍ وَرَدَتْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، أَخْطَئُوا مَعَهَا طَرِيقَ الْإِصْلَاحِ، وَظَنُّوهُ فِي رَفْعِ السِّلَاحِ، وَنَكْثِ الْبَيْعَةِ، وَالْخُرُوجِ عَلَىٰ السُّلْطَانِ؛ فَكَانُوا سَبَبًا فِي ضَرْبِ الْمُسْلِمِينَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، وَأَشْمَتُوا بِالْأُمَّةِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَمَكَّنُوا لِأَهْلِ الْفَسَادِ وَالْإِلْحَادِ التَّسَلُّقَ عَلَىٰ الْأَحْدَاثِ، وَنَشْرَ الْبَغْيِ وَالْفَسَادِ، ثُمَّ كَانَتْ نِهَايَةُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ أَلِيمَةً، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَلْقَوْنَ بِهِ رَبَّهُمْ، وَفِي رِقَابِهِمْ دِمَاءٌ مَعْصُومَةٌ، وَفِي ذَلِكَ أَبْلَغُ الْعِبْرَةِ وَالْعِظَةِ لِكُلِّ مَنْ يَسْتَسْلِمُ لِلشُّبُهَاتِ، وَلَا يُرَاجِعُ الْعُلَمَاءَ الرَّبَّانِيِّينَ فِيهَا.

وَلَوْ أَنَّهُمْ مَا اسْتَسْلَمُوا لِلشُّبُهَاتِ الَّتِي دَاخَلَتْ قُلُوبَهُمْ، وَلَا أَعَارُوا عُقُولَهُمْ غَيْرَهُمْ، لَمَا فَعَلُوا فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مَا فَعَلُوا.

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَهِمُوا نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يَخْرِقُوا إِجْمَاعَ الْأُمَّةِ، لَمَا

ضَلُّوا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ، وَلَمَا رَفَعُوا السِّلَاحَ عَلَىٰ المُسْلِمِينَ، وَاسْتَحَلُّوا الدِّمَاءَ المُحَرَّمَةَ الَّتِي شَأْنُهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَظِيمٌ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَقِهُوا المَصَالِحَ وَالمَفَاسِدَ، وَعَرَفُوا تَرْتِيبَ الْأَوَّلِيَّاتِ، لَأَدْرَكُوا أَنَّ الْإِفْسَادَ لَا يَكُونُ إِصْلَاحًا، وَأَنَّ قَصْدَ الآمِنِينَ وَالْإِفْسَادَ فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ لَنْ تَكُونَ عَاقِبَتُهُ إِلَّا خَرَابَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

وَالمَسْئُولُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ الشُّبُهَاتُ الَّتِي تَرِدُ عَلَىٰ الْقُلُوبِ فَتُفْسِدُهَا، فَيَظُنُّ أَصْحَابُهَا أَنَّهُمْ يُصْلِحُونَ وَهُمْ يُفْسِدُونَ، وَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- أَنَّ المُتَشَرِّبِينَ بِالشُّبُهَاتِ مَعَهُمْ مَنْقُولَاتٌ ظَنُّوهَا صِدْقًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ خِبْرَةٌ بِأَنَّهَا كَذِبٌ، وَمَعَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ تَأْوِيلَاتٌ ظَنُّوهَا مُرَادَةً مِنَ النَّصِّ وَلَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ، وَمَعَهُمْ نَوْعٌ مِنَ الْقِيَاسِ وَالرَّأْيِ ظَنُّوهُ حَقًّا وَهُوَ بَاطِلٌ، ثُمَّ قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: فَهَذَا مَجْمُوعُ مَا يُورِثُ الشُّبَهَ فِي ذَلِكَ إِذَا خَلَتِ النُّفُوسُ عَنِ الْهَوَىٰ، وَقَلَّ أَنْ يَخْلُوَ أَكْثَرُ النَّاسِ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النَّجم: ٢٣][٣].

وَقَالَ تِلْمِيذُهُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: الشُّبْهَةُ وَارِدٌ يَرِدُ عَلَىٰ الْقَلْبِ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ انْكِشَافِ الْحَقِّ لَهُ، فَمَتَىٰ بَاشَرَ الْقَلْبُ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ لَمْ تُؤَثِّرْ تِلْكَ الشُّبْهَةُ فِيهِ، بَلْ يَقْوَىٰ عِلْمُهُ وَيَقِينُهُ بِرَدِّهَا، وَمَعْرِفَةِ بُطْلَانِهَا، وَمَتَىٰ لَمْ يُبَاشِرْ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ بِالْحَقِّ قَلْبُهُ قَدَحَتْ فِيهِ الشَّكَّ بِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، فَإِنْ تَدَارَكَهَا وَإِلَّا تَتَابَعَتْ عَلَىٰ قَلْبِهِ أَمْثَالُهَا حَتَّىٰ يَصِيرَ شَاكًّا مُرْتَابًا، وَالْقَلْبُ يَتَوَارَدُهُ جَيْشَانِ مِنَ الْبَاطِلِ:

جَيْشُ شَهَوَاتِ الْغَيِّ، وَجَيْشُ شُبُهَاتِ الْبَاطِلِ، فَأَيُّمَا قَلْبٍ صَغَا إِلَيْهَا، وَرَكَنَ إِلَيْهَا تَشَرَّبَهَا، وَامْتَلَأَ بِهَا، فَيَنْضَحُ لِسَانُهُ وَجَوَارِحُهُ بِمُوجَبِهَا، فَإِنْ أُشْرِبَ شُبُهَاتِ

(٣) منهاج السنة النبوية (٦/ ٣٣١-٣٣٢).

الْبَاطِلِ تَفَجَّرَتْ عَلَىٰ لِسَانِهِ الشُّكُوكُ وَالشُّبُهَاتُ وَالْإِيرَادَاتُ، فَيَظُنُّ الْجَاهِلُ أَنَّ ذَلِكَ لِسَعَةِ عِلْمِهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ عَدَمِ عِلْمِهِ وَيَقِينِهِ. وَقَالَ لِي شَيْخُ الْإِسْلَامِ ﷺ وَقَدْ جَعَلْتُ أُورِدُ عَلَيْهِ إِيرَادًا بَعْدَ إِيرَادٍ: لَا تَجْعَلْ قَلْبَكَ لِلْإِيرَادَاتِ وَالشُّبُهَاتِ مِثْلَ السَّفِنْجَةِ، فَيَتَشَرَّبَهَا فَلَا يَنْضَحُ إِلَّا بِهَا، وَلَكِنِ اجْعَلْهُ كَالزُّجَاجَةِ الْمُصْمَتَةِ تَمُرُّ الشُّبُهَاتُ بِظَاهِرِهَا وَلَا تَسْتَقِرُّ فِيهَا فَيَرَاهَا بِصَفَائِهِ، وَيَدْفَعُهَا بِصَلَابَتِهِ، وَإِلَّا فَإِذَا أَشْرَبْتَ قَلْبَكَ كُلَّ شُبْهَةٍ تَمُرُّ عَلَيْهَا صَارَ مَقَرًّا لِلشُّبُهَاتِ. أَوْ كَمَا قَالَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «فَمَا أَعْلَمُ أَنِّي انْتَفَعْتُ بِوَصِيَّةٍ فِي دَفْعِ الشُّبُهَاتِ كَانْتِفَاعِي بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِاشْتِبَاهِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ فِيهَا؛ فَإِنَّهَا تُلْبِسُ ثَوْبَ الْحَقِّ عَلَىٰ جِسْمِ الْبَاطِلِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ أَصْحَابُ حُسْنٍ ظَاهِرٍ، فَيَنْظُرُ النَّاظِرُ فِيمَا أَلْبَسَتْهُ مِنَ اللِّبَاسِ فَيَعْتَقِدُ صِحَّتَهَا، وَأَمَّا صَاحِبُ الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْتَرُّ بِذَلِكَ، بَلْ يُجَاوِزُ نَظَرَهُ إِلَىٰ بَاطِنِهَا وَمَا تَحْتَ لِبَاسِهَا فَيَنْكَشِفُ لَهُ حَقِيقَتُهَا» اهـ[٤].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُصْلِحَ أَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَحْفَظَ بِلَادَهُمْ مِنَ الْفَسَادِ وَالْمُفْسِدِينَ، وَأَنْ يَعْصِمَ شَبَابَهُمْ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ بِالْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

❁ ❁ ❁

(٤) مفتاح دار السعادة (١٤٠-١٤١).

٢١٤- فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (٥) من آثارها ونتائجها

١٧/ ٤/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ كَلَّفَ عِبَادَهُ إِقَامَةَ الدِّينِ، وَدَلَّهُمْ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ، بِمَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الرُّسُلِ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكُتُبِ؛ لِيَهْتَدِيَ مَنْ أَرَادَ هِدَايَتَهُ، وَيَعْمَىٰ عَنِ الْحَقِّ مَنْ عَمِلَ بِجَهْلِهِ أَوِ اتَّبَعَ هَوَاهُ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البَقَرَة: ٢١٣]. نَحْمَدُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ وَآلَائِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ إِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ قَائِلًا: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»(١).

صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَكْثَرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عِلْمًا وَعَمَلًا، وَأَشَدِّ النَّاسِ اتِّبَاعًا لِلْحَقِّ، وَتَمَسُّكًا بِالدِّينِ، وَنَبْذًا لِلْبِدَعِ وَالْهَوَىٰ، مَنْ سَارَ عَلَىٰ هَدْيِهِمْ فَلَنْ يَضِلَّ أَبَدًا، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧٠).

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- فَإِنَّهُ كُلَّمَا تَخَلَّفَ النَّاسُ عَنْ هَدْيِ نَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَابْتَعَدُوا عَنْ مَنْهَجِ سَلَفِهِمُ الصَّالِحِ؛ عَظُمَتْ مُصِيبَتُهُمْ، وَاشْتَدَّتْ مِحَنُهُمْ، وَكَثُرَتْ فِتَنُهُمْ، وَاخْتَلَفَتْ قُلُوبُهُمْ، وَالنَّاجِي مِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ عَلَىٰ الطَّرِيقِ الْأَوَّلِ وَإِنْ قَلَّ السَّالِكُونَ، وَتَمَسَّكَ بِالشَّرِيعَةِ وَإِنْ كَثُرَ الْمُنْحَرِفُونَ وَالزَّائِغُونَ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٞ لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٣-٤٤].

أَيُّهَا النَّاسُ: هَذِهِ الْأُمَّةُ أُمَّةٌ مُبَارَكَةٌ، مَعْصُومَةٌ مِنَ الْإِجْمَاعِ عَلَىٰ ضَلَالَةٍ، قَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ عَافِيَتَهَا فِي أَوَّلِهَا، وَجُعِلَ بَلَاؤُهَا وَفِتْنَتُهَا فِي آخِرِهَا، وَمِنْ سِمَاتِ فِتَنِهَا وَمِحَنِهَا أَنَّ بَعْضَهَا يُرَقِّقُ بَعْضًا، وَأَنَّ عَظِيمَهَا يَخْلُفُ صَغِيرَهَا، وَأَنَّ شَدِيدَهَا يُنْسِي خَفِيفَهَا، إِلَىٰ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ تَعَالَىٰ بِخُرُوجِ آخِرِ فِتْنَةٍ فِيهَا وَأَكْبَرِهَا، وَهِيَ فِتْنَةُ المَسِيحِ الدَّجَّالِ.

وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ شِدَّةِ نُصْحِهِ لَنَا، وَرَحْمَتِهِ بِنَا، وَشَفَقَتِهِ عَلَيْنَا؛ ذَكَرَ لَنَا الْفِتَنَ، وَوَصَفَهَا لَنَا، وَحَذَّرَنَا مِنْ شَرِّهَا، وَبَيَّنَ سُبُلَ النَّجَاةِ مِنْهَا.

اسْتَيْقَظَ ﷺ لَيْلَةً فَزِعًا يَقُولُ: «**سُبْحَانَ اللَّهِ! مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الخَزَائِنِ؟ وَمَاذَا أَنْزَلَ مِنَ الْفِتَنِ؟ ...**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها[٢].

وَذَاتَ مَرَّةٍ أَشْرَفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ أُطُمٍ مِنْ آطَامِ المَدِينَةِ فَقَالَ: «**هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَىٰ؟** قَالُوا: لَا، قَالَ: **فَإِنِّي لَأَرَىٰ الْفِتَنَ تَقَعُ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَوَقْعِ الْقَطْرِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما[٣].

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ**

(٢) أخرجه البخاري في العلم، باب العلم والعظة بالليل (١١٥).

(٣) أخرجه البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**ويل للعرب من شر قد اقترب**» (٧٠٦٠)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٥).

الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلْجَأً فَلْيَعُذْ بِهِ» رَوَاهُ الشَّيخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ[٤].

قَالَ الْعُلَمَاءُ: شَبَّهَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سُقُوطَ الْفِتَنِ وَكَثْرَتَهَا بِسُقُوطِ الْقَطْرِ فِي الْكَثْرَةِ وَالْعُمُومِ . . . وَإِنَّمَا اخْتُصَّتِ الْمَدِينَةُ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ قَتْلَ عُثْمَانَ ﷺ كَانَ بِهَا، ثُمَّ انْتَشَرَتِ الْفِتَنُ فِي الْبِلَادِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَالْقِتَالُ بِالْجَمَلِ وَبِصِفِّينَ كَانَ بِسَبَبِ قَتْلِ عُثْمَانَ، وَالْقِتَالُ بِالنَّهْرَوَانِ كَانَ بِسَبَبِ التَّحْكِيمِ بِصِفِّينَ، وَكُلُّ قِتَالٍ وَقَعَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ إِنَّمَا تَوَلَّدَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ تَوَلَّدَ عَنْهُ، ثُمَّ إِنَّ قَتْلَ عُثْمَانَ كَانَ أَشَدَّ أَسْبَابِهِ الطَّعْنُ عَلَىٰ أُمَرَائِهِ، ثُمَّ عَلَيْهِ بِتَوْلِيَتِهِ لَهُمْ[٥].

كَانَ مَقْتَلُ عُثْمَانَ ﷺ أَعْظَمَ مُصِيبَةٍ أُصِيبَتْ بِهَا الْأُمَّةُ بَعْدَ مَوْتِ نَبِيِّهَا ﷺ، وَإِنْ كَانَ الْفَارُوقُ عُمَرُ ﷺ قَدْ قُتِلَ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ عُثْمَانَ، فَإِنَّ قَاتِلَهُ كَانَ عِلْجًا وَاحِدًا مِنَ الْمَجُوسِ لَمْ يَرْكَعْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ رَكْعَةً، وَلَا ادَّعَىٰ بِقَتْلِهِ إِصْلَاحًا، بَلْ إِنَّهُ قَتَلَ نَفْسَهُ عَلَىٰ إِثْرِ ذَلِكَ لِعِلْمِهِ بِشَنَاعَةِ مَا فَعَلَ[٦].

وَأَمَّا قَتَلَةُ عُثْمَانَ ﷺ فَجَمَاعَةٌ وَلَيْسَ وَاحِدًا، قَدْ دَانُوا بِالْإِسْلَامِ، وَأَظْهَرُوا التَّنَسُّكَ وَالصَّلَاحَ، وَزَعَمُوا بِقَتْلِهِ الْخَيْرَ وَالْإِصْلَاحَ، وَهِيَ أَوَّلُ فِتْنَةٍ سِيَاسِيَّةٍ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ افْتَاتَ مُشْعِلُوهَا عَلَىٰ أَمِيرِهِمْ، وَنَازَعُوهُ سُلْطَانَهُ، وَأَعْلَنُوا الْخُرُوجَ عَلَيْهِ ثُمَّ قَتَلُوهُ، فَفَتَحُوا بَابَ الْفِتَنِ السِّيَاسِيَّةِ، وَسَنُّوا فِي الْأُمَّةِ شَقَّ عَصَا الطَّاعَةِ،

(٤) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠١)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٦).

(٥) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٤/ ٩٥) و(١٣/ ١٣)، وعمدة القاري (١٠/ ٢٤٢)، وفيض القدير (٦/ ٣٥٤).

(٦) ينظر: خطبة مقتل عمر ﷺ مجلد (٤)، خطبة رقم (١٥٤).

وَمُفَارَقَةَ الْجَمَاعَةِ، وَمُنَازَعَةَ الْأَمْرِ أَهْلَهُ، وَمَضَتْ سُنَّتُهُمُ السَّيِّئَةُ فِي النَّاسِ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، فَكَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ أَثَرٍ لِفِتْنَتِهِمْ، وَأَكْبَرَ نَتِيجَةٍ لَهَا.

وَظَلَّتِ الْفِتَنُ فِي الْأُمَّةِ كَحَلَقَاتِ سِلْسِلَةٍ مُتَّصِلَةٍ، كُلَّمَا فُصِمَتْ مِنْهُ حَلْقَةٌ تَبِعَتْهَا أُخْتُهَا مُنْذُ مَقْتَلِ عُثْمَانَ ﷺ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، وَهِيَ فِتَنٌ مُتَشَابِهَةٌ، وَنَتَائِجُهَا وَاحِدَةٌ، تَتَمَثَّلُ فِي نُفْرَةِ الْقُلُوبِ وَتَبَاعُدِهَا، وَاخْتِلَافِ النَّاسِ وَتَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ يَعْقُبُ الِاخْتِلَافَ السِّبَابُ وَالتَّلَاسُنُ، فَالمُحَارَبَةُ وَسَفْكُ الدِّمَاءِ، فَلَا يَأْمَنُ النَّاسُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَا أَعْرَاضِهِمْ وَلَا أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَىٰ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعْبَدَ، وَهَكَذَا تُعَطَّلُ شَعَائِرُ الدِّينِ وَأَحْكَامُهُ بِسَبَبِ اشْتِعَالِ الْفِتَنِ وَاشْتِغَالِ النَّاسِ بِهَا.

وَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ ﷺ وَانْعَقَدَتِ الْبَيْعَةُ لأَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ كَانَتِ الْفِتْنَةُ لَا تَزَالُ مُشْتَعِلَةً، فَاخْتَلَفَتِ الْأُمَّةُ مِنْ جَدِيدٍ فِي أَمْرِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ وَمَاذَا يُفْعَلُ بِهِمْ، فَقَوْمٌ رَأَوْا وُجُوبَ المُسَارَعَةِ بِالِاقْتِصَاصِ مِنْهُمْ، وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ، وَآخَرُونَ رَأَوْا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ ذَلِكَ فِي حَالِ اشْتِعَالِ الْفِتْنَةِ، وَهَيَجَانِ النَّاسِ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَسْكِينِهِمْ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَقَرَّتِ الْأُمُورُ وَانْكَشَفَتِ الْفِتْنَةُ أُخِذُوا بِجُرْمِهِمْ، وَكَادَ الْفَرِيقَانِ أَنْ يَصْطَلِحَا، وَلَكِنَّ مُشْعِلِي الْفِتْنَةِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ إِنِ اصْطَلَحُوا حُوكِمُوا بِقَتْلِ عُثْمَانَ، فَمَا زَالُوا يُوَسِّعُونَ دَائِرَةَ الْخِلَافِ، وَيَزِيدُونَ الْفُرْقَةَ بَيْنَ الطَّائِفَتَيْنِ، حَتَّىٰ بَلَغُوا مَا أَرَادُوا مِنِ اقْتِتَالِ الطَّائِفَتَيْنِ، فَنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ حَرْبَانِ كَبِيرَتَانِ قُتِلَ فِيهِمَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي الْجَمَلِ وَصِفِّينَ(٧).

---

(٧) جاء في تاريخ الطبري ما نصه: «لما جاءت وفود أهل البصرة إلىٰ أهل الكوفة، ورجع القعقاع من عند أم المؤمنين وطلحة والزبير بمثل رأيهم، جمع علي الناس، ثم قام علىٰ الغرائر، فحمد الله ﷻ وأثنىٰ عليه وصلىٰ علىٰ النبي ﷺ، وذكر الجاهلية وشقاءها =

. . . .

= والإسلام والسعادة وإنعام الله علىٰ الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ، ثم الذي يليه، ثم حدث هذا الحدث الذي جره علىٰ هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا، حسدوا من أفاءها الله عليه علىٰ الفضيلة، وأرادوا رد الأشياء علىٰ أدبارها، والله بالغ أمره، ومصيب ما أراد. ألا وإني راحل غدا فارتحلوا، ألا ولا يرتحلن غدا أحد أعان علىٰ عثمان بشيء في شيء من أمور الناس، وليغن السفهاء عني أنفسهم.

فاجتمع نفر، منهم علباء بن الهيثم، وعدي بن حاتم، وسالم بن ثعلبة العبسي، وشريح بن أوفىٰ بن ضبيعة، والأشتر، في عدة ممن سار إلىٰ عثمان، ورضىٰ بسير من سار، وجاء معهم المصريون: ابن السوداء وخالد بن ملجم وتشاوروا، فقالوا: ما الرأي؟ وهذا والله علي، وهو أبصر الناس بكتاب الله وأقرب ممن يطلب قتلة عثمان وأقربهم إلىٰ العمل بذلك، وهو يقول ما يقول، ولم ينفر إليه إلا هم والقليل من غيرهم، فكيف به إذا شام القوم وشاموه، وإذا رأوا قلتنا في كثرتهم! أنتم والله ترادون، وما أنتم بأنجىٰ من شيء.

فقال الأشتر: أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما، وأما علي فلم نعرف أمره حتىٰ كان اليوم، ورأي الناس فينا والله واحد، وإن يصطلحوا وعلي فعلىٰ دمائنا، فهلموا فلنتواثب علىٰ علي فنلحقه بعثمان، فتعود فتنة يرضىٰ منا فيها بالسكون، فقال عبد الله بن السوداء: بئس الرأي رأيت! أنتم يا قتلة عثمان من أهل الكوفه بذىٰ قار ألفان وخمسمائة أو نحو من ستمائة، وهذا ابن الحنظلية وأصحابه في خمسة آلاف بالأشواق إلىٰ أن يجدوا إلىٰ قتالكم سبيلا، فارقأ علىٰ ظلعك.

وقال علباء بن الهيثم: انصرفوا بنا عنهم ودعوهم، فإن قلوا كان أقوىٰ لعدوهم عليهم، وإن كثروا كان أحرىٰ أن يصطلحوا عليكم، دعوهم وارجعوا، فتعلقوا ببلد من البلدان حتىٰ يأتيكم فيه من تتقون به، وامتنعوا من الناس.

فقال ابن السوداء: بئس ما رأيت! ود والله الناس أنكم علىٰ جديلة، ولم تكونوا مع أقوام براء، ولو كان ذلك الذي تقول لتخطفكم كل شيء.

فقال عدي بن حاتم: والله ما رضيت ولا كرهت، ولقد عجبت من تردد من تردد عن قتله في خوض الحديث، فأما إذ وقع ما وقع ونزل من الناس بهذه المنزلة، فإن لنا عتادا من خيول وسلاح محمودا، فإن أقدمتم أقدمنا وإن أمسكتم أحجمنا، فقال ابن السوداء: أحسنت! وقال سالم بن ثعلبة: من كان أراد بما أتىٰ الدنيا فإني لم أرد ذلك، والله لئن لقيتهم غدا لا أرجع إلىٰ بيتي، ولئن طال بقائي إذا أنا لاقيتهم لا يزد علىٰ جزر جزور، =

. . . .

= وأحلف بالله إنكم لتفرقون السيوف فرق قوم لا تصير أمورهم إلا إلىٰ السيف فقال ابن السوداء: قد قال قولا.

وقال شريح بن أوفىٰ: أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا، ولا تؤخروا أمرا ينبغي لكم تعجيله، ولا تعجلوا أمرا ينبغي لكم تأخيره، فإنا عند الناس بشر المنازل، فلا أدري ما الناس صانعون غدا إذا ما هم التقوا! وتكلم ابن السوداء فقال: يا قوم، إن عزكم في خلطة الناس، فصانعوهم، وإذا التقىٰ الناس غدا فأنشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع، ويشغل الله عليا وطلحة والزبير، ومن رأىٰ رأيهم عما تكرهون، فأبصروا الرأي، وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون» (٣/ ٣٢-٣٣)، وينظر: الفتنة ووقعة الجمل لسيف بن عمر (١٤٩)، والكامل لابن الأثير(٣/ ١٢٥).

وقال ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله تعالىٰ-: «فجرت فتنة الجمل علىٰ غير اختيار من علي، ولا من طلحة والزبير، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين، ثم جرت فتنة صفين لرأي، وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم، أو لا يتمكن من العدل عليهم -وهم كافون، حتىٰ يجتمع أمر الأمة، وأنهم يخافون طغيان من في العسكر، كما طغوا علىٰ الشهيد المظلوم» شرح العقيدة الطحاوية (٥٤٦).

وقال ابن حزم -رحمه الله تعالىٰ-: «وأما أم المؤمنين والزبير وطلحة رضي الله عنهم ومن كان معهم فما أبطلوا قط إمامة علي، ولا طعنوا فيها، ولا ذكروا فيه جرحة تحطه عن الإمامة، ولا أحدثوا إمامة أخرىٰ، ولا جددوا بيعة لغيره. هذا ما لا يقدر أن يدعيه أحد بوجه من الوجوه.

بل يقطع كل ذي علم علىٰ أن كل ذلك لم يكن؛ فإذ لا شك في كل هذا فقد صح صحة ضرورية لا إشكال فيها أنهم لم يمضوا إلىٰ البصرة لحرب علي، ولا خلافا عليه، ولا نقضا لبيعته. ولو أرادوا ذلك لأحدثوا بيعة غير بيعته، هذا ما لا يشك فيه أحد، ولا ينكره أحد، فصح أنهم إنما نهضوا إلىٰ البصرة لسد الفتق الحادث في الإسلام من قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ظلما؛ وبرهان ذلك أنهم اجتمعوا ولم يقتتلوا ولا تحاربوا، فلما كان الليل عرف قتلة عثمان، إلا أن الأراغة والتدبير عليهم، فبيتوا عسكر طلحة والزبير، وبذلوا السيف فيهم، فدفع القوم عن أنفسهم في دعوىٰ حتىٰ خالطوا عسكر علي، فدفع أهله عن أنفسهم، وكل طائفة تظن -ولا شك- أن الأخرىٰ بدأتها بالقتال، واختلط الأمر اختلاطا لم يقدر أحد علىٰ أكثر من الدفاع عن نفسه، والفسقة من قتلة عثمان لا يفترون =

وَقَدْ شَخَّصَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ رضي الله عنه مَا وَقَعَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ، وَالْحَيْرَةِ وَالْأَسَىٰ، وَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ فِي هَذِهِ الْفِتْنَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْئًا، بَلْ يَدُورُونَ مَعَهَا حَيْثُ دَارَتْ، وَيَسْكُنُونَ إِذَا سَكَنَتْ، فَرَوَىٰ عَلْقَمَةُ اللَّيْثِيُّ رضي الله عنه فَقَالَ: «لَمَّا خَرَجَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَائِشَةُ رضي الله عنهم رَأَيْتُ طَلْحَةَ وَأَحَبُّ المَجَالِسِ إِلَيْهِ أَخْلَاهَا، وَهُوَ ضَارِبٌ بِلِحْيَتِهِ عَلَىٰ زَوْرِهِ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، أَرَىٰ أَحَبَّ المَجَالِسِ إِلَيْكَ أَخْلَاهَا، وَأَنْتَ ضَارِبٌ بِلِحْيَتِكَ عَلَىٰ زَوْرِكَ، إِنْ كَرِهْتَ شَيْئًا فَاجْلِسْ. قَالَ: فَقَالَ لِي: يَا عَلْقَمَةُ بْنَ وَقَّاصٍ، بَيْنَا نَحْنُ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَىٰ مَنْ سِوَانَا إِذْ صِرْنَا جَبَلَيْنِ مِنْ حَدِيدٍ يَطْلُبُ بَعْضُنَا بَعْضًا»[٨].

وَيُبَيِّنُ رضي الله عنه كَيْفَ طَاشَتْ عُقُولُهُمْ مِنْ عِظَمِ هَذِهِ الْفِتْنَةِ وَشِدَّتِهَا فَيَقُولُ: «إِنَّ هَذِهِ

= من شن الحرب وإضرامها، فكلتا الطائفتين مصيبة في غرضها ومقصدها، مدافعة عن نفسها. ورجع الزبير وترك الحرب بحالها، وأتىٰ طلحة سهم غائر وهو قائم لا يدري حقيقة ذلك الاختلاط، فصادف جرحا في ساقه كان أصابه يوم أحد بين يدي رسول الله ﷺ فانصرف، ومات من وقته رضي الله عنه، وقتل الزبير رضي الله عنه بوادي السباع علىٰ أقل من يوم من البصرة فهكذا كان الأمر» الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٢٣).

وقال القرطبي في تفسيره: «وقال جلة من أهل العلم: إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت علىٰ غير عزيمة منهم علىٰ الحرب، بل فجأة وعلىٰ سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم؛ لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به؛ لأن الأمر كان قد انتظم بينهم، وتم الصلح والتفرق علىٰ الرضا، فخاف قتلة عثمان رضي الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت آراؤهم علىٰ أن يفترقوا فريقين ويبدءوا بالحرب سحرة في العسكرين، وتختلف السهام بينهم، ويصيح الفريق الذي في عسكر علي: غدر طلحة والزبير، والفريق الذي في عسكر طلحة والزبير: غدر علي، فتم لهم ذلك علىٰ ما دبروه، ونشبت الحرب، فكان كل فريق دافعا لمكرته عند نفسه، ومانعا من الإشاطة بدمه، وهذا صواب من الفريقين، وطاعة لله تعالىٰ؛ إذ وقع القتال والامتناع منهما علىٰ هذه السبيل. وهذا هو الصحيح المشهور، والله أعلم». (١٦/ ٣١٨-٣١٩).

(٨) أخرجه الطبري في تاريخه (٣/ ٢٢).

لَهِيَ الْفِتْنَةُ الَّتِي كُنَّا نُحَدَّثُ عَنْهَا، فَقَالَ لَهُ مَوْلَاهُ: أَتُسَمِّيهَا فِتْنَةً وَتُقَاتِلُ فِيهَا؟! قَالَ: وَيْحَكَ! إِنَّا نُبْصِرُ وَلَا نُبْصِرُ، مَا كَانَ أَمْرٌ قَطُّ إِلَّا عَلِمْتُ مَوْضِعَ قَدَمِي فِيهِ غَيْرَ هَذَا الْأَمْرِ؛ فَإِنِّي لَا أَدْرِي أَمُقْبِلٌ أَنَا فِيهِ أَمْ مُدْبِرٌ؟»(٩).

لَقَدْ أَكَلَتْ هَذِهِ الْفِتْنَةُ الْعَمْيَاءُ جُمْلَةً مِنْ عُظَمَاءِ الرِّجَالِ، وَسَادَةِ النَّاسِ، عَلَىٰ رَأْسِهِمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، قَتَلَهُمْ مَنْ أَثَارُوا الْفِتْنَةَ، وَأَجَّجُوا الْخِلَافَ، مِنَ الْخَوَارِجِ وَالدَّهْمَاءِ وَالرَّعَاعِ، وَهُمْ ﷺ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَمِنَ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، فَكَيْفَ يَقْتُلُهُمْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ؟! وَيَقْتُلُونَهُمْ تَقَرُّبًا إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِزَعْمِهِمْ!! وَلَكِنَّهَا الْفِتَنُ تُعْمِي الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْهَا.

وَنَجَمَ عَنْ هَذِهِ الْفِتَنِ الْعَظِيمَةِ اخْتِلَالُ أَمْنِ الْمُسْلِمِينَ آنَذَاكَ، وَظُهُورُ اللُّصُوصِ، وَقُطَّاعِ الطَّرِيقِ؛ لِأَنَّ الْحُدُودَ لَا تُقَامُ إِلَّا حَيْثُ تَكُونُ دَوْلَةٌ وَوِلَايَةٌ، وَلَا دَوْلَةَ إِلَّا بِإِمَامٍ يَجْتَمِعُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيُقِيمُ الْعَدْلَ، وَيَرْفَعُ الظُّلْمَ، وَقَدْ شَغَلَ سَادَةَ النَّاسِ وَأَئِمَّتَهُمْ آنَذَاكَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالْخِلَافِ.

وَتَوَقَّفَتِ الْفُتُوحُ الَّتِي كَانَتْ فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الثَّلَاثَةِ ﷺ؛ لِأَنَّ الْجُيُوشَ تَحَوَّلَتْ مِنَ الثُّغُورِ إِلَىٰ مُنَاصَرَةِ إِحْدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ فُتُوحٌ تُذْكَرُ لَا فِي آخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ وَلَا فِي خِلَافَةِ عَلِيٍّ ﷺ. وَقَوِيَ النِّفَاقُ، وَكَثُرَ الْمُنَافِقُونَ وَطُلَّابُ الدُّنْيَا، وَشَمِتَتِ الْفُرْسُ وَالرُّومُ وَكُلُّ عَدُوٍّ بِالْمُسْلِمِينَ.

وَمَا عَادَتِ الْأُمُورُ إِلَىٰ نِصَابِهَا، وَلَا سَكَنَتِ الْفِتْنَةُ إِلَّا لَمَّا كَانَتِ الْبَيْعَةُ لِلْحَسَنِ ابْنِ عَلِيٍّ ﷺ، فَآثَرَ مَصْلَحَةَ الْأُمَّةِ عَلَىٰ مَصْلَحَتِهِ، وَرَأَىٰ أَنَّ حَقْنَ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَوْلَىٰ بِالرِّعَايَةِ مِنْ حَقِّهِ فِي الْخِلَافَةِ، وَمَا تَرَكَهَا ﷺ لِعَجْزِهِ أَوْ لِقِلَّةِ مَنْ يُعِينُهُ

---

(٩) أخرجه الطبري في تاريخه (٣/ ٢٢).

وَيَنْصُرُهُ!! كَلَّا، بَلْ تَرَكَهَا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَحَقْنًا لِدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَمَنْ يَفْعَلُ فِعْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما، وَقَدْ جَمَعَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ كَلِمَةَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ تَفَرُّقِهَا، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ بَعْدَ تَنَافُرِهَا وَاخْتِلَافِهَا؟! فَكَانَ سَيِّدًا مِنْ سَادَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَحَقَّ فِيهِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١٠].

فَاجْتَمَعَ سَوَادُ الْأُمَّةِ عَلَىٰ مُعَاوِيَةَ بَعْدَ تَنَازُلِ الْحَسَنِ رضي الله عنهما، فَأُغْمِدَ السَّيْفُ، وَسَكَنَتِ الْفِتْنَةُ، وَعَادَتْ مَهَابَةُ الْأُمَّةِ، وَتَوَارَىٰ أَهْلُ النِّفَاقِ وَالشِّقَاقِ، فَهُمْ لَا يَظْهَرُونَ إِلَّا فِي أَحْوَالِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ، وَأُقِيمَتِ الْحُدُودُ، وَحُمِيَتِ الثُّغُورُ، وَانْطَلَقَتْ جُيُوشُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ تَفْتَحُ الْبُلْدَانَ، وَتُمَصِّرُ الْأَمْصَارَ، وَتَنْشُرُ الْإِسْلَامَ، حَتَّىٰ حُوصِرَتِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ، وَمَاتَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه تَحْتَ أَسْوَارِهَا، وَبُنِيَتْ مَدِينَةُ الْقَيْرَوَانِ، وَعَظُمَتِ الْفُتُوحُ فِي خُرَاسَانَ وَالسِّنْدِ وَسِجِسْتَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَاتَّسَعَتْ رُقْعَةُ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَفَاضَتِ الْخَيْرَاتُ، وَازْدَهَرَتِ الْعُلُومُ.

وَالْفُتُوحُ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الْعَهْدِ الْأُمَوِيِّ كَانَتْ مِنْ أَوْسَعِ الْفُتُوحِ وَأَكْثَرِهَا فِي تَارِيخِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ كُلِّهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ بِبَرَكَةِ الِاجْتِمَاعِ عَلَىٰ إِمَامٍ وَاحِدٍ، وَالِائْتِلَافِ بَعْدَ الِاخْتِلَافِ، وَكَانَ الْفَضْلُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما.

وَمَا اشْتَعَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ فِتْنَةٌ فِي قُطْرٍ مِنْ أَقْطَارِ الْمُسْلِمِينَ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِيهَا

---

(١٠) أخرجه من حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه: البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٣٧٤٦)، وأبو داود في السنة، باب ما يدل علىٰ ترك الكلام في الفتنة (٤٦٦٢)، والنسائي في الجمعة، باب مخاطبة الإمام رعيته وهو علىٰ المنبر (٣/ ١٠٧)، والترمذي في المناقب، باب مناقب الحسن والحسين (٣٧٧٣).

عَنْ إِمَامِهِمْ إِلَّا فَرَّقَ اللهُ تَعَالَىٰ قُلُوبَهُمْ، وَصَدَّعَ صَفَّهُمْ، وَشَتَّتَ كَلِمَتَهُمْ، وَأَطْمَعَ فِيهِمْ أَعْدَاءَهُمْ، فَحَلَّ فِيهِمُ الْخَوْفُ، وَرُفِعَ مِنْهُمُ الأَمْنُ، وَعُطِّلَتِ الْحُدُودُ، وَظَهَرَ أَهْلُ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ.

وَمَا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَىٰ إِمَامٍ إِلَّا اجْتَمَعَتْ قُلُوبُهُمْ، وَرُفِعَ خَوْفُهُمْ، وَزَادَتْ خَيْرَاتُهُمْ. وَكُلُّ الدُّوَلِ الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ تَشْهَدُ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَمَنْ قَرَأَ التَّارِيخَ اسْتَبَانَ لَهُ الأَمْرُ، وَعَرَفَ أَنَّ مَوَاضِعَ عِزَّةِ الأُمَّةِ وَنَصْرِهَا تَكُونُ حَيْثُ يَجْتَمِعُ أَبْنَاؤُهَا، وَأَنَّ ضَعْفَهُمْ وَهَوَانَهُمْ يَكُونُ حَيْثُ يَتَفَرَّقُونَ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٠٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ أَعْلَمَ الصَّحَابَةِ ﷺ بِمَا سَيَئُولُ إِلَيْهِ حَالُ النَّاسِ مِنَ الْفِتْنَةِ

وَالتَّفَرُّقِ إِنْ قُتِلَ عُثْمَانُ ﵁: حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، وَعَبْدُاللَّهِ بْنُ سَلَامٍ.

أَمَّا حُذَيْفَةُ ﵁ فَكَانَ أَعْلَمَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ رَسُولِهَا ﷺ بِالْفِتَنِ وَبِالْمُنَافِقِينَ، وَكَانَ يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الشَّرِّ فِي حِينِ أَنَّ النَّاسَ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْخَيْرِ[(١١)]، وَلَمَّا بَلَغَهُ مَقْتَلُ عُثْمَانَ ﵁ قَالَ: «اعْتَبِرُوا مَا أَقُولُ لَكُمْ: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتِ الْعَرَبُ أَصَابَتْ بِقَتْلِهَا عُثْمَانَ لَتَحْتَلِبَنَّ بِهِ لَبَنًا، وَلَئِنْ كَانَتِ الْعَرَبُ أَخْطَأَتْ بِقَتْلِهَا عُثْمَانَ لَتَحْتَلِبَنَّ بِهِ دَمًا»[(١٢)]، فَوَقَعَ مَا قَالَ حُذَيْفَةُ ﵁ فَاحْتَلَبَتِ الْأُمَّةُ بِمَقْتَلِ عُثْمَانَ ﵁ دَمًا كَثِيرًا، وَلَا زَالَتْ تَحْتَلِبُ دَمًا إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، وَسَتَظَلُّ تَحْتَلِبُ بِقَتْلِهِ دَمًا كَثِيرًا إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ.

وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ قَالَ حُذَيْفَةُ: انْفَتَقَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْقٌ لَا يَرْتِقُهُ جَبَلٌ»[(١٣)].

وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ ﵁ فَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَدْ آتَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الْإِسْلَامِ عِلْمًا وَحِكْمَةً، فَحَذَّرَ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ مِنْ قَتْلِ عُثْمَانَ ﵁ وَقَالَ لَمَّا حَصَرُوا عُثْمَانَ فِي الدَّارِ: «لَا تَقْتُلُوهُ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ أَجَلِهِ إِلَّا قَلِيلٌ، وَاللَّهِ لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ لَا تُصَلُّونَ جَمِيعًا أَبَدًا»[(١٤)]، وَحَذَّرَ مِنَ الِاقْتِتَالِ فَقَالَ ﵁: «لَا تَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ؛ فَلَئِنْ سَلَلْتُمُوهَا لَا تُغْمَدُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[(١٥)]، وَلَمَّا بَلَغَهُ مَقْتَلُ عُثْمَانَ جَعَلَ يَبْكِي وَيَقُولُ: «الْيَوْمَ هَلَكَتِ الْعَرَبُ»[(١٦)].

---

(١١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠٦)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (١٨٤٧).

(١٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥٢٣)، وأحمد في فضائل الصحابة (٨٠١).

(١٣) أخرجه ابن سعد (٣/ ٨٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥١٨) وأبو نعيم في الإمامة (١٤٢).

(١٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٤٢).

(١٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥١٩).

(١٦) أخرجه ابن سعد (٣/ ٨١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥١٨)، وابن شبة في أخبار المدينة (٢٠٥٤).

وَكَانَ عُثْمَانُ ﷺ يَعْلَمُ مَا سَيَئُولُ إِلَيْهِ حَالُ رَعِيَّتِهِ إِنْ هُمْ قَتَلُوهُ، فَحَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: «لَا تَقْتُلُونِي، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَتَلْتُمُونِي لَا تُقَاتِلُونَ عَدُوًّا جَمِيعًا، وَلَا تَقْتَسِمُونَ فَيْئًا جَمِيعًا أَبَدًا، وَلَا تُصَلُّونَ جَمِيعًا أَبَدًا».

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَوَاللَّهِ إِنْ صَلَّىٰ الْقَوْمُ جَمِيعًا فَإِنَّ قُلُوبَهُمْ لَمُخْتَلِفَةٌ»(١٧).

وَوَقَعَ مَا خَافَهُ عُثْمَانُ وَحُذَيْفَةُ وَابْنُ سَلَامٍ ﷺ، وَلَا يَزَالُ يَقَعُ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا.

وَمَنْ كَانَ لَهُ عِلْمٌ وَعَقْلٌ عَلِمَ أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَىٰ السَّلَاطِينِ مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ الَّتِي تُبْتَلَىٰ بِهَا الْأُمَّةُ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَجُرُّ إِلَىٰ فِتَنٍ مَاحِقَةٍ مِنْ أَهَمِّهَا: سَفْكُ الدِّمَاءِ، وَرَفْعُ الْأَمْنِ، وَحُلُولُ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ، وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ النُّصْحَ وَالدُّعَاءَ وَالصَّبْرَ وَالطَّاعَةَ خَيْرٌ مِنْ نَكْثِ الْبَيْعَةِ، وَمُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ، وَقَدْ تَضَافَرَتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٣]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النِّسَاء: ٥٩].

وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ رَأَىٰ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٨).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٩).

---

(١٧) أخرجه ابن شبة في أخبار المدينة (٢٠٧٥)، وابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٣٤٨).

(١٨) أخرجه من حديث ابن عباس ﷺ: البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**سترون بعدي أمورا تنكرونها**» (٧٠٥٤)، ومسلم في الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلىٰ الكفر (١٨٤٩).

(١٩) أخرجه مسلم في الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلىٰ الكفر (١٨٥١).

وَمِمَّا يَأْسَىٰ عَلَيْهِ المُسْلِمُ مَا وَقَعَ فِيهِ بَعْضُ أَبْنَاءِ هَذِهِ الْبِلَادِ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالتَّخْطِيطِ وَالْجَمْعِ وَالْعَزْمِ عَلَىٰ التَّخْرِيبِ وَالتَّفْجِيرِ بَعْدَ أَنْ فَعَلَ بَعْضُ أَسْلَافِهِمْ مَا فَعَلُوا مِمَّا هُوَ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِاجْتِهَادَاتٍ خَاطِئَةٍ، وَتَأْوِيلَاتٍ فَاسِدَةٍ، وَشُبُهَاتٍ فَاتِنَةٍ، وَالْفَسَادُ فِي أَرْضٍ فَاسِدَةٍ لَا يَحِلُّ، فَكَيْفَ بِالْفَسَادِ فِي أَرْضٍ آمِنَةٍ؟! وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وَأَيُّ فَسَادٍ أَعْظَمُ مِنْ إِفْسَادٍ فِي بِلَادٍ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهَا بِالْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَهِيَ مَهْوَىٰ أَفْئِدَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَإِذَا اخْتَلَّ أَمْنُهَا كَيْفَ يَحُجُّ النَّاسُ وَكَيْفَ يَعْتَمِرُونَ؟!

أَوَلَيْسُوا بِأَعْمَالِهِمُ الْخَاطِئَةِ، وَتَأْوِيلَاتِهِمُ الْفَاسِدَةِ قَدْ أَشْمَتُوا بِالْمُسْلِمِينَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَمَهَّدُوا الطُّرُقَ لِلْمُنْحَرِفِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ أَنْ يَطْعَنُوا فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَأَحْكَامِهَا، وَفِي الدَّعْوَةِ وَالدُّعَاةِ، وَفِي الْحِسْبَةِ وَالْمُحْتَسِبِينَ، وَفِي التَّعْلِيمِ وَالْمُتَعَلِّمِينَ وَفِي الْمَنَاهِجِ الدِّرَاسِيَّةِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَيْهَا، وَكَمْ تَأَخَّرَتِ الدَّعْوَةُ وَالْإِغَاثَةُ وَالْإِصْلَاحُ بِسَبَبِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ؟!

أَلَيْسَتْ أَفْعَالُهُمُ الْمَشِينَةُ كَانَتْ سَبَبًا فِي تَسَلُّقِ الْمُرْتَزِقَةِ وَذَوِي الْأَهْوَاءِ لِيَتَأَكَّلُوا بِالْأَحْدَاثِ، وَيَرْتَزِقُوا بِأَمْنِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَيَقْتَاتُوا عَلَىٰ الْمَصَائِبِ وَالنَّكَبَاتِ؛ لِيَحُوزُوا مَالًا أَوْ جَاهًا أَوْ لِيُصَفُّوا حِسَابَاتِهِمْ مَعَ الدِّينِ وَحَمَلَتِهِ وَأَهْلِهِ، وَيَسْعَوْا بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ فِي نَشْرِ الْفَسَادِ وَالِانْحِلَالِ. وَمَا رَأَيْنَا إِصْلَاحًا مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ.

فَحَرِيٌّ بِكُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَحْذَرَ الْفِتَنَ وَأَهْلَهَا، وَأَنْ لَا يُسَلِّمَ قَلْبَهُ لِلشُّبُهَاتِ، فَإِنَّهَا تَفْتِكُ بِالْقُلُوبِ فَتْكًا، وَحَرِيٌّ بِكُلِّ مَنْ عَرَضَتْ لَهُ شُبْهَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ يَسْأَلَ أَهْلَ الْعِلْمِ فِيهَا، وَأَنْ لَا يُقْدِمَ عَلَىٰ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ لَيْسَ عِنْدَهُ فِيهِ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ حُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ؛ فَإِنَّ الْحِسَابَ عَسِيرٌ، وَإِنَّ حُرْمَةَ الدِّمَاءِ الْمَعْصُومَةِ عَظِيمَةٌ،

وَلِعَظَمَتِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ كَانَتْ أَوَّلَ شَيْءٍ يُقْضَىٰ فِيهِ بَيْنَ الْعِبَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[٢٠]، وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا؛ كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[٢١].

وَلَمَّا ثَارَتِ الْفِتْنَةُ الْأُولَىٰ اعْتَزَلَهَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ، فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢٢].

وَلَمَّا قِيلَ لَهُ ﷺ: «أَلَا تُقَاتِلُ فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الشُّورَىٰ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِكَ؟ قَالَ ﷺ: لَا أُقَاتِلُ حَتَّىٰ يَأْتُونِي بِسَيْفٍ لَهُ عَيْنَانِ وَلِسَانٌ وَشَفَتَانِ يَعْرِفُ الْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، قَدْ جَاهَدْتُ وَأَنَا أَعْرِفُ الْجِهَادَ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ: وَقَالَ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ[٢٣].

وَلَمَّا جَاءَ الْخَوَارِجُ إِلَىٰ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ، وَمِنْ

---

(٢٠) كما في حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**أول ما يقضىٰ بين الناس في الدماء**» أخرجه البخاري في فاتحة كتاب الديات (٦٨٦٤)، ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضىٰ فيه بين الناس يوم القيامة (١٦٧٨).

(٢١) أخرجه من حديث ابن عمر ﷺ: البخاري في فاتحة كتاب الديات (٦٨٦٢).

(٢٢) أخرجه مسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٥).

(٢٣) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٧٣٦)، ونعيم بن حماد في الفتن (٤٣٢)، وابن سعد (٣/ ١٤٣)، والطبراني في الكبير (١/ ١٤٤) رقم (٣٢٢)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٥٣٣)، والحاكم وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه (٤/ ٤٩١). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٧/ ٢٩٩).

أَعْلَمِهِمْ بِالْفِتَنِ، جَاءُوهُ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ رَأْيِهِمْ فَقَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «يَا هَؤُلَاءِ، لَوْ كَانَ لِي نَفْسَانِ بَايَعْتُكُمْ بِإِحْدَاهُمَا وَأَمْسَكْتُ الْأُخْرَىٰ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي تَقُولُونَ هُدًىٰ أَتْبَعْتُهَا الْأُخْرَىٰ، وَإِنْ كَانَ ضَلَالَةً هَلَكَتْ نَفْسٌ وَبَقِيَتْ لِي نَفْسٌ، وَلَكِنْ هِيَ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ لَا أُغَرِّرُ بِهَا»[٢٤].

فَخُذُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- مِنْ سِيَرِ مَنْ سَبَقُوكُمْ عِظَاتٍ وَعِبَرًا؛ فَإِنَّ الْقَوْمَ أَتْقَىٰ لِلَّهِ تَعَالَىٰ مِنَّا، وَأَعْلَمُ بِالشَّرِيعَةِ، وَأَسَدُّ رَأْيًا، وَأَحْكَمُ عَقْلًا، وَالسَّعِيدُ مَنْ لَقِيَ اللهَ تَعَالَىٰ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَالشَّقِيُّ مَنْ تَشَرَّبَتْهُ الْفِتَنُ فَلَقِيَ اللهَ تَعَالَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُفْلِسًا بِمَا عَلَيْهِ مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ...



(٢٤) أخرجه البلاذري في أنساب الأشراف (٤/ ٣١٩)، وذكره الذهبي في السير (٤/ ١٩٥).



٢١٥- قنوات السحر والشعوذة (١) برامجها وموضوعاتها وخطرها

٨/ ٥/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ؛ خَلَقَ خَلْقَهُ لِيَعْبُدُوهُ، وَتَابَعَ عَلَيْهِمْ نِعَمَهُ لِيَشْكُرُوهُ، نَحْمَدُهُ وَلَا نَجْحَدُهُ، وَنَشْكُرُهُ وَلَا نَكْفُرُهُ، وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ تَفَرَّدَ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ وَالْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ، فَلَا نَفْعَ وَلَا ضُرَّ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَلَا أَحَدَ يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرَّعْد: ٨-٩]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَمَّا سَمِعَ جَارِيَةً تَرْتَجِزُ وَتَقُولُ: «وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ» أَنْكَرَ عَلَيْهَا ذَلِكَ، وَنَهَاهَا عَمَّا تَقُولُ[(١)]، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَسَلُوهُ الثَّبَاتَ عَلَىٰ دِينِكُمْ؛ فَإِنَّ قُلُوبَ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِهِ سُبْحَانَهُ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهَا وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهَا، وَكَانَ مِنْ دُعَاءِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه من حديث الربيع بنت معوذ رضي الله عنها: البخاري في النكاح، باب ضرب الدف في النكاح والوليمة (٥١٤٧)، وأبو داود في الأدب، باب في النهي عن الغناء (٤٩٢٢)، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في إعلان النكاح (١٠٩٠)، وابن ماجه في النكاح: باب الغناء والدف (١٨٩٧).

(٢) أخرجه من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه: ابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية (١٩٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٩)، والبغوي في شرح السنة (٨٩)، وصححه ابن حبان (٩٤٣)، والحاكم ووافقه الذهبي(١/ ٥٢٥).

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ الَّتِي يَنَالُهَا الْإِنْسَانُ أَنْ يُهْدَىٰ إِلَىٰ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، وَأَنْ يَعْلَمَ أُصُولَ دِينِهِ وَفُرُوعَهُ، وَأَنْ يُدْرِكَ مَا يَضُرُّهُ وَمَا يَنْفَعُهُ، وَأَنْ يُمَيِّزَ بَيْنَ الْوَحْيِ وَبَيْنَ الْخُرَافَةِ، فَيُؤْمِنَ بِمَا جَاءَ بِهِ الْوَحْيُ وَلَوْ كَانَ غَيْبًا، وَيَنْبِذَ مَا نَتَجَ عَنِ الْخُرَافَةِ وَلَوْ شَاهَدَ لَهُ أَثَرًا. وَالْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ هُوَ الْإِيمَانُ بِدِينِ الْإِسْلَامِ؛ ذَلِكَ أَنَّ أَرْكَانَ الْإِيمَانِ السِّتَّةَ كُلَّهَا غَيْبٌ، وَالْقُرْآنُ لَا يَكُونُ هِدَايَةً إِلَّا لِمَنْ آمَنَ بِالْغَيْبِ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢-٤].

وَعِلْمُ الْغَيْبِ خِصِّيصَةٌ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ، لَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَكْشِفُ مَا شَاءَ مِنْ غَيْبِهِ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ [آل عِمْرَان: ١٧٩]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الْجِنّ: ٢٦-٢٧].

كَمَا أَنَّ النَّفْعَ وَالضَّرَّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، لَا يَمْلِكُهُمَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ مَهْمَا عَلَتْ مَنْزِلَتُهُ، أَوْ عَظُمَتْ قُوَّتُهُ، أَوْ كَثُرَ جَمْعُهُ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الْأَنْعَام: ١٧].

وَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دَالَّانِ عَلَىٰ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ، أَنَّ الْغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ النَّفْعَ وَالضَّرَّ بِيَدِهِ ﷻ، وَآيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تُثْبِتُ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِلْغَيْبِ، وَتَنْفِيهِ عَمَّا سِوَاهُ سُبْحَانَهُ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّتِهِ ﷻ؛ فَفِي آيَةِ الْأَنْعَامِ ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الْأَنْعَام: ٥٩]، وَفِي آيَةِ يُونُسَ: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يُونُس: ٢٠]، وَفِي آيَةِ النَّمْلِ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النَّمْل: ٦٥]، وَنُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَلَآ

﴿أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [هُود: ٣١]، وَهَكَذَا قِيلَ لِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَقُولَ لِأَهْلِ مَكَّةَ.

وَالْجِنُّ الَّذِينَ يَعْتَقِدُ كَثِيرٌ مِنَ الْبَشَرِ أَنَّهُمْ يَنْفَعُونَ وَيَضُرُّونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مَا عَلِمُوا بِمَوْتِ سُلَيْمَانَ عليه السلام وَقَدِ اسْتَعْبَدَهُمْ وَاسْتَعْمَلَهُمْ، وَمَاتَ بَيْنَهُمْ، وَلَوْ عَلِمُوا الْغَيْبَ لَعَلِمُوا بِمَوْتِهِ، وَكَفُّوا عَنْ خِدْمَتِهِ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سَبَأ: ١٤].

وَلَمَّا قَصَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَبَرَ نُوحٍ عليه السلام مَعَ قَوْمِهِ ذَيَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ عز وجل: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هُود: ٤٩]، وَفِي قِصَّةِ يُوسُفَ خَتَمَهَا اللهُ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يُوسُف: ١٠٢].

وَأَمَّا الضُّرُّ وَالنَّفْعُ فَقَدْ خُوطِبَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الْجِنّ: ٢١]، وَخُوطِبَ مَنِ اعْتَقَدُوا أَنَّ مَعْبُودَاتِهِمْ تَنْفَعُهُمْ أَوْ تَضُرُّهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإِسْرَاء: ٥٦]، وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتُ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ(٣).

---

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب (٥٩) وقال: حسن صحيح (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣)، وأبو يعلىٰ (٢٥٥٦).

وَجَمَعَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ خَاطَبَ بِهَا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٨٨].

وَهَذَانَ الْأَصْلَانِ الْعَظِيمَانِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ يَجِبُ أَنْ يَدِينَ بِهِمَا الْمُسْلِمُ، وَلَا يَشُكَّ فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا، وَلَا يَقُولَ أَوْ يَعْمَلَ أَوْ يَعْتَقِدَ مَا يُخَالِفُهُمَا، وَأَيُّ إِخْلَالٍ بِهِمَا أَوْ بِأَحَدِهِمَا فَهُوَ إِخْلَالٌ بِتَوْحِيدِ الْعَبْدِ وَإِيمَانِهِ، وَقَدْ يُخْرِجُهُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَىٰ الْكُفْرِ، وَمِنَ التَّوْحِيدِ إِلَىٰ الشِّرْكِ.

وَكُلُّ طَرِيقٍ يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ، أَوْ يَزْعُمُ صَاحِبُهَا أَنَّهُ يَنْفَعُ النَّاسَ أَوْ يَضُرُّهُمْ فَهِيَ طَرِيقُ ضَلَالٍ وَشِرْكٍ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمُنَازَعَةٍ لَهُ سُبْحَانَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَصَاحِبُهَا يَسْعَىٰ فِي تَعْبِيدِ الْبَشَرِ لِغَيْرِ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ وَمُدَبِّرِهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ.

وَفِي مُقَدِّمَةِ مَا يُخِلُّ بِهَذَيْنَ الْأَصْلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ وَيَنْقُضُهُمَا: السِّحْرُ وَالتَّنْجِيمُ، وَالْكِهَانَةُ وَالْعِرَافَةُ، وَقِرَاءَةُ الْكَفِّ وَالْفِنْجَانِ، وَمَعْرِفَةُ الْحَظِّ، وَالْخَطُّ بِالرَّمْلِ، وَالضَّرْبُ بِالْحَصَىٰ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَقُومُ بِهِ دَجَّالُونَ يُفْسِدُونَ عَقَائِدَ النَّاسِ، وَيَسْلُبُونَ أَمْوَالَهُمْ، وَيَزْرَعُونَ الشُّكُوكَ وَالْوَسَاوِسَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيُخْرِجُونَهُمْ مِنْ نَعِيمِ الْإِيمَانِ وَالطُّمَأْنِينَةِ إِلَىٰ شَقَاءِ الشُّكُوكِ وَالظُّنُونِ، وَيَنْقُلُونَ قُلُوبَهُمْ مِنْ تَعَلُّقِهَا بِالله تَعَالَىٰ إِلَىٰ تَعَلُّقِهَا بِالْبَشَرِ وَبِالشَّيَاطِينِ وَبِالْأَوْثَانِ.

وَطُرُقُ الْبَاطِلِ كَثِيرَةٌ، وَأَسَالِيبُ أَهْلِ الضَّلَالِ فِي نَشْرِهِ عَدِيدَةٌ، وَمُدَّعُو عِلْمِ الْغَيْبِ وَالنَّفْعِ وَالضُّرِّ مِنَ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ مَوْجُودُونَ فِي الْقَدِيمِ وَفِي الْحَدِيثِ، وَيَحْتَالُونَ عَلَىٰ النَّاسِ بِشَتَّىٰ الْوَسَائِلِ لِنَشْرِ بَاطِلِهِمْ، بَيْدَ أَنَّ الدَّاهِيَةَ الْكُبْرَىٰ، وَالْبَلِيَّةَ الْعُظْمَىٰ: أَنَّهُمْ فِي هَذَا الزَّمَنِ اسْتَطَاعُوا الْوُصُولَ إِلَىٰ النَّاسِ فِي بُيُوتِهِمْ،

وَالنَّفَاذَ عَبْرَ الشَّاشَاتِ إِلَىٰ نِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَالْخَلْوَةَ بِهِمْ فِي غُرَفِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ؛ لِإِفْسَادِ عُقُولِهِمْ، وَإِزَاغَةِ قُلُوبِهِمْ، وَتَدْمِيرِ عَقَائِدِهِمْ. إِي وَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِهِ! إِنَّ هَذَا لَوَاقِعٌ، وَكَمْ مِنْ قَلْبٍ مُوَحِّدٍ لِلَّهِ تَعَالَىٰ نَقَلُوهُ إِلَىٰ شِرْكِهِمْ، وَكَمْ مِنْ أُسْرَةٍ دَمَّرُوهَا بِسِحْرِهِمْ وَشَعْوَذَاتِهِمْ.

إِنَّهَا قَنَوَاتٌ فَضَائِيَّةٌ خُصَّتْ لِلشِّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَعِبَادَةِ الشَّيَاطِينِ، وَكَرَّسَتْ بَرَامِجَهَا لِلسِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ وَالْكِهَانَةِ، يَدَّعِي ضُيُوفُهَا عِلْمَ الْغَيْبِ، وَامْتِلَاكَ النَّفْعِ وَالضُّرِّ، وَيُمَارِسُونَ سِحْرَهُمْ وَكِهَانَتَهُمْ وَتَنْجِيمَهُمْ عَلَىٰ الْمَلَإِ، وَلَا أَحَدَ يُوقِفُهُمْ، وَلَا رَادِعَ يَرْدَعُهُمْ، وَالْمُقَدِّمُونَ لَهُمْ يَنْعَتُونَهُمْ بِالْعِلْمِ وَالْوِلَايَةِ وَالْمَشْيَخَةِ، وَيَخْلَعُونَ عَلَيْهِمْ أَلْفَاظَ التَّبْجِيلِ وَالْوَقَارِ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا كَرَّسُوا أَوْقَاتَهُمْ لِخِدْمَةِ النَّاسِ، وَحَلِّ مَشَاكِلِهِمْ، وَإِزَالَةِ هُمُومِهِمْ وَغُمُومِهِمْ!!

أَيُشْرَكُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ فِي رُبُوبِيَّتِهِ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَلَا يُحَرِّكُ ذَلِكَ سَاكِنًا فِي النَّاسِ!! فَأَيْنَ هِيَ الْغَيْرَةُ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ؟! وَأَيْنَ تَعْظِيمُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَقَدْ أُعْلِنَ الشِّرْكُ بِرُبُوبِيَّتِهِ عَبْرَ الشَّاشَاتِ، وَنَازَعَتِ الشَّيَاطِينُ رَبَّنَا ﷻ بَعْضَ خَصَائِصِهِ، فَمَا أَحْلَمَ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ! وَمَا أَشَدَّ أَذَىٰ الْخَلْقِ لِرَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ!

قَنَوَاتٌ آثِمَةٌ تَبُثُّ ضَلَالَهَا عَلَىٰ الْهَوَاءِ مُبَاشَرَةً طِيلَةَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَضُيُوفُهَا شَيَاطِينُ فِي إِثْرِ شَيَاطِينَ، لَا يَكِلُّونَ وَلَا يَمَلُّونَ، وَالْمُتَّصِلُونَ بِهِمْ مِنْ جَهَلَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَمَاذَا يَقُولُونَ فِيهَا؟ وَمَاذَا يَفْعَلُونَ؟ وَمَاذَا يَعْرِضُونَ؟

لَقَدْ رَأَيْتُ فِي إِحْدَاهَا وَلَبِئْسَ مَا رَأَيْتُ!! وَسَمِعْتُ وَيَا لِفَظَاعَةِ مَا سَمِعْتُ!! رَأَيْتُ سَاحِرًا رَافِضِيًّا بَاطِنِيًّا- وَالْفِرَقُ الْبَاطِنِيَّةُ هِيَ أَكْثَرُ النَّاسِ تَعَاطِيًا لِلسِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ- يَنْتَمِي هَذَا السَّاحِرُ الرَّافِضِيُّ إِلَىٰ النَّجَفِ قَدْ أَلْقَىٰ عَلَىٰ طَاوِلَتِهِ أَحْجَارًا يَزْعُمُ أَنَّ النَّفْعَ وَالضُّرَّ فِيهَا، وَمِنَ التَّلْبِيسِ وَالْإِضْلَالِ يَدَّعِي هَذَا الْأَفَّاكُ أَنَّ كُلَّ

هَذِهِ الْأَحْجَارِ مَذْكُورَةٌ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَسْتَعْمِلُهَا، وَأَنَّهَا مِنَ الطِّبِّ النَّبَوِيِّ، وَأَنَّ تَأْثِيرَهَا فَوْرِيٌّ.

وَتَتَّصِلُ بِهِ امْرَأَةٌ فَقَدَتْ زَوْجَهَا مُنْذُ عَامٍ فَيَتَقَمَّصُ هَذَا السَّاحِرُ الْخَبِيثُ صِفَةَ الرَّبِّ وَيَقُولُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]! تَعَالَىٰ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ شِرْكِ هَذَا الْكَذَّابِ الْأَشِرِ، ثُمَّ يُخَاطِبُ شَيَاطِينَهُ عَنْ طَرِيقِ حَجَرٍ مِنْ أَحْجَارِهِ، فَيَخْلَعُ عَلَيْهِمْ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ إِرْجَاعَ هَذَا الزَّوْجِ إِلَىٰ زَوْجَتِهِ، ثُمَّ يُخْبِرُهَا عَنْ مَكَانِهِ، وَأَنَّهُ يَرَاهُ الْآنَ، وَأَنَّهُ سَيَعُودُ فِي غُضُونِ أَيَّامٍ.

وَيَتَّصِلُ بِهِ آخَرُ يُرِيدُ تَخْلِيصَ مُعَامَلَةٍ إِدَارِيَّةٍ عَقَارِيَّةٍ فَيَعُودُ إِلَىٰ أَحْجَارِهِ وَشَيَاطِينِهِ يُخَاطِبُهَا بِمَا أَرَادَ، وَيَعِدُهُ بِإِنْجَازِهَا فَوْرًا.

وَتَتَّصِلُ بِهِ أُخْرَىٰ تَسْأَلُهُ الصِّحَّةَ وَالرِّزْقَ، فَيَضْمَنُ لَهَا تَوْسِيعَ رِزْقِهَا، وَعَافِيَتَهَا مِنْ مَرَضِهَا بَعْدَ أَنْ يُخَاطِبَ أَحْجَارَهُ وَشَيَاطِينَهُ.

وَفِي قَنَاةٍ أُخْرَىٰ شَيْطَانٌ آخَرُ يَرْسُمُ أَشْكَالًا وَيَكْتُبُ فِيهَا طَلَاسِمَ، ثُمَّ يَطْلُبُ مِنَ الْمُتَّصِلِ أَنْ يَرْسُمَ مِثْلَهَا، وَيُعَلِّقَ هَذِهِ الْوَرَقَةَ فِي بَيْتِهِ لِتَحْمِيَهُ طَلَاسِمُهَا وَأُسْرَتَهُ مِنَ الشُّرُورِ.

وَحَدَّثَ أَحَدُ الْمَشَايِخِ الْمُهْتَمِّينَ بِهَذَا الْمَوْضُوعِ: أَنَّهُ شَاهَدَ سَاحِرًا يَقُولُ لِإِحْدَىٰ الْمُتَّصِلَاتِ: رِزْقُكِ عِنْدِي .. حَيَاتُكِ عِنْدِي .. عَلَاقَتُكِ مَعَ زَوْجِكِ عِنْدِي .. كُلُّ شَيْءٍ عَنْكِ عِنْدِي.

وَيُحَدِّثُ عَنْ كَاهِنٍ آخَرَ أَنَّهُ يَقُولُ لِإِحْدَىٰ الْمُتَّصِلَاتِ: لِمَاذَا تَزَوَّجْتِ فُلَانًا؟ الْمَفْرُوضُ أَنَّكِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ تُطَلَّقِينَ.

وَقَالَتْ لَهُ مُتَّصِلَةٌ عَنْ مَشَاكِلَ لَهَا مَعَ زَوْجِهَا، فَقَالَ لَهَا: لَوْ يَجْتَمِعُ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ لِكَيْ يُصْلِحُوا زَوَاجَكِ فَلَنْ يَنْجَحَ.

وَاتَّصَلَتْ بِهِ امْرَأَةٌ تَحْكِي أَنَّ زَوْجَهَا كَثِيرُ الِانْشِغَالِ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لَهَا وَفِي يَدِهِ طِلَّسْمٌ: اكْتُبِي هَذَا الْحِجَابَ وَضَعِيهِ تَحْتَ فِرَاشِ زَوْجِكِ، وَإِنْ عَادَ إِلَىٰ أُمِّهِ عُودِي إِلَيَّ.

وَكَاهِنَةٌ أُخْرَىٰ يَتَّصِلُ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْفَتَيَاتِ، تَسْأَلُهَا الْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ: هَلْ سَتَتَزَوَّجُ أَمْ لَا؟ وَكَمْ سَتُرْزَقُ مِنَ الْوَلَدِ؟ فَتَسْأَلُهَا الْكَاهِنَةُ عَنْ عُمْرِهَا وَلَوْنِ بَشَرَتِهَا، ثُمَّ تَرْمِي بِحَجَرٍ، فَتُخْبِرُهَا مَنْ سَتَتَزَوَّجُ! وَكَمْ تُرْزَقُ مِنَ الْوَلَدِ!

وَيَهْزَءُونَ بِالْقُرْآنِ وَيُدَنِّسُونَهُ؛ وَذَلِكَ حِينَمَا قَالَ أَحَدُهُمْ لِإِحْدَىٰ الْمُتَّصِلَاتِ: اكْتُبِي الْآيَاتِ مَعْكُوسَةً، وَآخَرُ يَقُولُ لِمُتَّصِلَةٍ أُخْرَىٰ: اجْمَعِي فَضَلَاتِ الطُّيُورِ وَاطْحَنِيهَا وَاكْتُبِي بِهَا سُورَةَ الْوَاقِعَةِ. وَيَقُولُ هَذَا الْأَفَّاكُ الْأَثِيمُ: إِنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي فِيهِ جِنٌّ لَا يُقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ، الْمَرِيضُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ طَلَاسِمَ.

إِنَّهُ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- إِفْسَادٌ لِلْعَقَائِدِ، وَشِرْكٌ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَعِبَادَةٌ لِلْأَوْثَانِ وَالشَّيَاطِينِ، وَاسْتِهْزَاءٌ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَدْمِيرٌ لِلْأُسَرِ وَالْبُيُوتِ، وَإِفْسَادٌ لِلنِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ، وَتَعْلِيقٌ لِقُلُوبِ الْمَرْضَىٰ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَحَثٌّ عَلَىٰ الْقَطِيعَةِ وَالْعُقُوقِ، وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ﴾ [الْبَقَرَة: ١٠٢].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: مَا نَقَلْتُهُ عَلَىٰ مَسَامِعِكُمْ مَا هُوَ إِلَّا شَيْءٌ قَلِيلٌ، وَنَزْرٌ يَسِيرٌ، مِنْ شِرْكٍ كَثِيرٍ، وَإِفْسَادٍ عَظِيمٍ؛ يُبَثُّ إِلَيْكُمْ، وَيَصِلُ إِلَىٰ بُيُوتِكُمْ عَبْرَ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ الْفَاجِرَةِ الْمُفْسِدَةِ.

وَلَمْ أَنْقُلْهُ إِلَيْكُمْ بِهَذَا التَّفْصِيلِ رَغْمَ مَا فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالدَّجَلِ إِلَّا لِتَعْلَمُوا خُطُورَةَ الْأَمْرِ؛ وَلِكَيْلَا يَتَصَدَّرَ مَنِ اتَّخَذُوا مِنْ تَخْذِيلِ النَّاسِ عَادَةً لَهُمْ، فَيَتَّهِمُونَ كُلَّ نَاصِحٍ بِالتَّهْوِيلِ وَالْمُبَالَغَةِ؛ فَلَقَدْ بَلَغَ السِّحْرُ وَالْكِهَانَةُ بُيُوتَكُمْ،

وَوَصَلَ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَنْ طَرِيقِ الْبَثِّ الْفَضَائِيِّ الْخَبِيثِ، فَاحْذَرُوا ثُمَّ احْذَرُوا ثُمَّ احْذَرُوا، اللَّهُمَّ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: ٨٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ....

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ جَعَلَ لِلْحَقِّ أَنْصَارًا، وَجَعَلَ لِلْبَاطِلِ أَعْوَانًا؛ ابْتِلَاءً لِلْعِبَادِ وَامْتِحَانًا، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٤].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِيَلِ هَؤُلَاءِ الدَّجَّالِينَ الْمُجْرِمِينَ مِنَ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ وَالْعَرَّافِينَ: أَنَّهُمْ يَدْعُونَ الْمُتَّصِلِينَ بِهِمْ إِلَىٰ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَيُحَدِّدُونَ لَهُمْ سُوَرًا وَآيَاتٍ يَقْرَءُونَهَا بِأَعْدَادٍ مُعَيَّنَةٍ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ -وَلَا أَحْنَثُ فِي يَمِينِي- أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْقُرْآنَ، وَإِنَّمَا شَيَاطِينُهُمْ تُلْقِي ذَلِكَ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ لِخِدَاعِ النَّاسِ وَإِضْلَالِهِمْ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَقْرَءُونَ الْآيَاتِ، وَإِنَّمَا يَذْكُرُونَ سُوَرَهَا وَأَرْقَامَهَا لِلْمُتَّصِلِينَ بِهِمْ، وَفَلَتَتْ مِنْ بَعْضِهِمْ مَعَ الْحَمَاسَةِ وَالِانْفِعَالِ فَلَتَاتٌ حَاوَلُوا فِيهَا ذِكْرَ أَوَّلِ الْآيَاتِ الَّتِي يُوصُونَ بِقِرَاءَتِهَا، فَإِذَا هُمْ يَكْسِرُونَهَا وَلَا يُقِيمُونَهَا،

وَيَلْحَنُونَ فِيهَا، وَيُخْطِئُونَ خَطَأً لَا يُخْطِئُهُ أَطْفَالُ الْمُسْلِمِينَ، وَهِيَ آيَاتٌ مِنْ قِصَارِ السُّوَرِ، فَهَلْ هَؤُلَاءِ يَعْرِفُونَ الْقُرْآنَ أَوْ يَقْرَؤُونَهُ؟ وَهَلْ هُمْ أَهْلُ مَشْيَخَةٍ وَوِلَايَةٍ؟!

وَقَدْ يَتَسَاءَلُ بَعْضُ النَّاسِ: لِمَاذَا تَدْعُوهُمْ شَيَاطِينُهُمْ إِلَىٰ التَّزَيُّنِ بِالْقُرْآنِ، وَخِدَاعِ النَّاسِ بِهِ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ قِرَاءَتِهِ، وَالشَّيَاطِينُ وَالسَّحَرَةُ وَالْكُهَّانُ هُمْ أَعْدَاءُ الْقُرْآنِ؟!

وَجَوَابُ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ يُسَوِّقُونَ بِضَاعَتَهُمُ الرَّدِيئَةَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَوْ كَانُوا عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ لَسَوَّقُوهَا بِالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، أَوْ بِمَا يُؤْمِنُ بِهِ مَنْ يَسْتَهْدِفُونَهُمْ. وَلَوْ أَنَّهُمُ اقْتَصَرُوا عَلَىٰ طَلَاسِمِهِمْ وَخُزَعْبَلَاتِهِمْ لَأَحْجَمَ عَنْهُمْ أَكْثَرُ مَنْ يَتَّصِلُونَ بِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ تَقَمَّصُوا ثِيَابَ الْمَشْيَخَةِ، وَادَّعَوُا الْوِلَايَةَ، وَلَا بُدَّ لِهَذِهِ الْهَيْئَةِ مِنْ قُرْآنٍ!

وَمَاذَا يَضِيرُ شَيَاطِينَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِهِ إِذَا كَانُوا يَصْرِفُونَ زَبَائِنَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ إِلَىٰ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ مِنَ الشِّرْكِ وَالتَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؟!

وَهَلْ يَنْفَعُ مَنْ وَقَعَ فِي الشِّرْكِ شَيْئًا أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ أَلْفَ مَرَّةٍ، أَوْ يُرَدِّدَ بَعْضَ سُوَرِهِ أَوْ آيَاتِهِ حَسَبَ مَا يُمْلِي عَلَيْهِ السَّاحِرُ أَوِ الْكَاهِنُ؟!

أَلَيْسَ الشَّيْطَانُ قَدْ عَلَّمَ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَضْلَ آيَةِ الْكُرْسِيِّ؛ مُقَابِلَ أَنْ يُطْلِقَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَلَا يَرْفَعَ أَمْرَهُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[٤].

---

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله ﷺ، فقص الحديث، فقال: إذا أويت إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي، لن يزال معك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتىٰ تصبح، وقال النبي ﷺ: «**صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان**» أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة (٥٠١٠).

أَيَفْعَلُ الشَّيْطَانُ ذَلِكَ مُقَابِلَ إِطْلَاقِهِ مِنْ عُقُوبَةٍ عَلَىٰ خُدْعَةٍ خَدَعَهَا أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ، وَلَا يَفْعَلُهَا فِيمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ إِغْوَاءُ مُوَحِّدِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَجَرُّهُمْ إِلَىٰ الشِّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَاللَّهِ لَا يُمَانِعُ الشَّيْطَانُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ إِذَا كَانَتْ قِرَاءَتُهُ وَالدَّلَالَةُ عَلَيْهِ خُدْعَةً يَسْتَخْدِمُهَا السَّاحِرُ وَالْكَاهِنُ لِجَرِّ زَبَائِنِهِمْ إِلَىٰ مَا يُرِيدُونَ، وَرِبْحُ الشَّيْطَانِ فِي إِضْلَالِ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْخُدْعَةِ أَعْظَمُ مِنْ خَسَارَتِهِ بِقِرَاءَتِهِمْ لِلْقُرْآنِ.

إِنَّ هَذَا الْوَبَاءَ بَالِغُ الْخُطُورَةِ، وَيَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَهُوَ يَفْتِكُ بِعَقَائِدِ النَّاسِ وَقُلُوبِهِمْ، وَيُدَمِّرُ أُسَرَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَدَاعَىٰ الْغَيُورُونَ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الرَّأْيِ وَالْمَسْؤُولِيَّةِ وَسَائِرِ النَّاسِ إِلَىٰ مُكَافَحَتِهِ، وَحِمَايَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِ.

إِنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ مَنْ بِيَدِهِ أَمْرٌ وَنَهْيٌ فِي الْأَقْمَارِ الِاصْطِنَاعِيَّةِ أَنْ يُوقِفُوا بَثَّ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ عَلَىٰ الْأَقْمَارِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَوَاجِبٌ عَلَىٰ شَرِكَاتِ الِاتِّصَالَاتِ أَنْ تُلَاحِقَ أَرْقَامَ الِاتِّصَالِ بِتِلْكَ الْقَنَوَاتِ فَتَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُتَّصِلِينَ.

وَوَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ لَهُ عِلْمٌ وَرَأْيٌ وَعَقْلٌ وَمَعْرِفَةٌ أَنْ يُحَذِّرَ النَّاسَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ الْمُفْسِدَةِ.

وَوَاجِبٌ عَلَىٰ رَبِّ الْأُسْرَةِ أَنْ يُحَصِّنَ أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ بِالْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، وَأَنْ يُطَهِّرَ بَيْتَهُ وَيَحْفَظَ أُسْرَتَهُ مِنْ وَبَاءِ الْبَثِّ الْفَضَائِيِّ الْخَبِيثِ، فَإِنْ عَجَزَ عَنْ إِلْغَائِهِ فَلَا أَقَلَّ مِنْ تَرْشِيدِهِ، بِحَجْبِ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ مِنْ أَجْهِزَةِ مَنْزِلِهِ. وَمَا يُدْرِيهِ لَوْ أَنَّ بَعْضَ بَنَاتِهِ دَلَّتْهَا زَمِيلَتُهَا عَلَىٰ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ لِضَائِقَةٍ مَرَّتْ بِهَا، أَوْ لِأَمْرٍ أَهَمَّهَا تُرِيدُ مَشُورَةً فِيهِ، وَالْبَنَاتُ فِي ذَلِكَ ضَعِيفَاتٌ جِدًّا، فَدُلَّتْ عَلَىٰ سَاحِرٍ

أَوْ كَاهِنٍ يَنْقُلُ سِحْرَهُ إِلَىٰ بَيْتِهِ وَأَهْلِهِ، فَيُدَمِّرُ بَيْتَهُ، وَيَخْسَرُ أُسْرَتَهُ فِي غَفْلَةٍ مِنْهُ.

وَمَاذَا لَوْ جَرَّبَ أَحَدُ الْأَوْلَادِ وَرَسَمَ هَذِهِ الطَّلَاسِمَ الَّتِي يَعْرِضُونَهَا عَلَىٰ أَنَّهَا تَجْلِبُ الرِّزْقَ أَوْ تَدْفَعُ الشَّرَّ، وَعَلَّقَهَا فِي غُرْفَتِهِ، فَمَارَسَ السِّحْرَ بِنَفْسِهِ، وَجَلَبَهُ إِلَىٰ أَهْلِهِ، فَهِيَ قَنَوَاتٌ لَا تَكْتَفِي بِعَرْضِ السِّحْرِ، وَالدَّجَلِ عَلَىٰ النَّاسِ بِهِ، وَلَكِنَّهَا تُعَلِّمُ مُشَاهِدِيهَا كِتَابَةَ الطَّلَاسِمِ وَالشِّرْكِيَّاتِ.

وَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ الْجُلُوسُ أَمَامَهَا وَمُشَاهَدَتُهَا، وَلَا الِاتِّصَالُ بِضُيُوفِهَا، فَمَنِ اتَّصَلَ بِهَا لِيَسْأَلَ السَّاحِرَ كَشْفَ ضُرِّهِ، أَوْ جَلْبَ النَّفْعِ إِلَيْهِ، مَعَ إِيمَانِهِ بِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَمَنِ اتَّصَلَ بِكَهَنَتِهَا فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُمْ بِمَا يَقُولُونَ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(٥)، وَمُجَرَّدُ سُؤَالِهِمْ وَلَوْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ يَمْنَعُ قَبُولَ صَلَاتِهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، كَمَا دَلَّتْ عَلَىٰ ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ(٦).

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْهَا وَمِنَ الْقَائِمِينَ عَلَيْهَا، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَحْفَظَنَا وَنِسَاءَنَا وَأَوْلَادَنَا وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ مِنْ شَرِّ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ وَالشَّيَاطِينِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ . . . .

❀ ❀ ❀

---

(٥) كما في حديث أبي هريرة، والحسن، عن النبي ﷺ قال: «**من أتىٰ كاهنًا أو عرافًا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد**» أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٩)، والحاكم وصححه وقال: علىٰ شرطهما (١/ ٤٩).

(٦) كما في حديث صفية، عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**من أتىٰ عرافًا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**» أخرجه مسلم في الآداب، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٣٠).



٢١٦- قنوات السحر والشعوذة (٢) حكمها وأسباب الإقبال عليها

١٥/ ٥/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْبَشَرِ بِالْوَحْيِ الرَّبَّانِيِّ؛ هِدَايَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الضَّلَالِ، وَنَجَاةً لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشُّورَىٰ: ٧]، وَلَوْلَا هَذَا الْوَحْيُ لَمَا اهْتَدَىٰ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْبَشَرِ إِلَىٰ مَا يَنْفَعُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشُّورَىٰ: ٥٢]،

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَلَا رُوحَ إِلَّا فِيمَا جَاءَ بِهِ، وَلَا نُورَ إِلَّا فِي الِاسْتِضَاءَةِ بِهِ؛ فَهُوَ الْحَيَاةُ وَالنُّورُ وَالْعِصْمَةُ وَالشِّفَاءُ وَالنَّجَاةُ وَالْأَمْنُ»(١).

وَلَمَّا كَانَ الْوَحْيُ نُورًا وَهُدًىٰ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِلْبَشَرِ كَانَ الضَّلَالُ وَالظُّلُمَاتُ فِيمَا عَارَضَهُ مِنَ الدِّيَانَاتِ وَالْأَفْكَارِ وَالْأَفْعَالِ، يَتِيهُ فِيهَا مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ نُورَ الْوَحْيِ؛ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الْأَنْعَام: ٣٩]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الْأَنْعَام: ١٢٢].

وَهَؤُلَاءِ عُمْيٌ عَنِ الْحَقِّ وَلَوْ كَانُوا يُبْصِرُونَ، وَصُمٌّ عَنْهُ وَلَوْ كَانُوا يَسْمَعُونَ، وَلَمْ تُوَفَّقْ عُقُولُهُمْ لِإِدْرَاكِهِ وَلَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ؛ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٧٩]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الْحَجّ: ٤٦]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرَّعْد: ١٩]، وَفِي آيَةٍ رَابِعَةٍ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الْفُرْقَان: ٤٤].

وَأَهْلُ الضَّلَالِ مُجْتَهِدُونَ فِي طَمْسِ الْهُدَىٰ، وَدَائِبُونَ فِي صَدِّ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ وَالنُّورِ، إِلَىٰ الضَّلَالِ وَالظُّلُمَاتِ؛ ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الْإِسْرَاء: ٧٣]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٣٦-٣٧].

(١) «الصواعق المرسلة» (١/ ١٥٢).

وَكُلُّ بُعْدٍ عَنْ وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَإِنَّ مَآلَ أَصْحَابِهِ إِلَىٰ الضَّلَالِ وَالْعَمَىٰ، وَمِنْ أَعْظَم سُبُلِ أَهْلِ الضَّلَالِ فِي صَدِّ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ: تَعْلِيقُ قُلُوبِهِمْ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَصَرْفُهُمْ إِلَىٰ الْخُرَافَاتِ وَالشَّعْوَذَاتِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا السَّحَرَةُ وَالْكُهَّانُ وَالْمُنَجِّمُونَ وَالْعَرَّافُونَ فَيَخْدَعُونَ بِهَا مَنْ رَقَّ دِينُهُمْ، وَضَعُفَتْ عَنْ إِدْرَاكِ الْحَقَائِقِ عُقُولُهُمْ، فَلَمْ يَعُودُوا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ مَا يَضُرُّهُمْ وَمَا يَنْفَعُهُمْ، وَلَا يُدْرِكُونَ مَنْ يَصْدُقُ مَعَهُمْ مِمَّنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِمْ.

إِنَّ هَذَا الْعَصْرَ يُوصَفُ بِأَنَّهُ عَصْرُ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْحَضَارَةِ وَالْمَعْرِفَةِ بِمَا فَتَحَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ لِلْبَشَرِيَّةِ مِنْ مَغَالِيقِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ، وَمَا هَيَّأَ لَهُمْ مِنْ وَسَائِلِ الِاتِّصَالِ السَّرِيعِ، وَلَكِنَّهُ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ عَصْرُ الدَّجَلِ وَالْخُرَافَةِ وَالْكَذِبِ وَالشَّعْوَذَةِ؛ إِذْ مَعَ تَطَوُّرِ وَسَائِلِ الِاتِّصَالِ زَادَتْ نِسْبَةُ خِدَاعِ النَّاسِ، وَالْكَذِبِ عَلَيْهِمْ، وَالِاسْتِخْفَافِ بِعُقُولِهِمْ، وَإِفْسَادِ عَقَائِدِهِمْ؛ بِزَعْمِ إِيجَادِ حُلُولٍ سَرِيعَةٍ لِمَشَاكِلِهِمْ عَنْ طَرِيقِ السِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ وَالشَّعْوَذَةِ. وَالْإِحْصَاءَاتُ الْعَرَبِيَّةُ تُفِيدُ بِأَنَّ الْعَرَبَ يُنْفِقُونَ سَنَوِيًّا عَلَىٰ السِّحْرِ وَحْدَهُ خَمْسَةَ مِلْيَارَاتِ دُولَارٍ، وَأَنَّ هُنَاكَ دَجَّالًا وَاحِدًا لِكُلِّ أَلْفٍ مِنَ الْعَرَبِ، وَقَدِ ازْدَهَرَتْ سُوقُ تَرْوِيجِ السِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ حَتَّىٰ بَلَغَتْ مَبِيعَاتُ كُتُبِهَا أَرْقَامًا قِيَاسِيَّةً، وَبَعْضُ الصُّحُفِ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَرْبَاحُهَا الْكُبْرَىٰ مِنْ مَوَارِدِ إِعْلَانَاتِ السِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ[٢].

---

(٢) نشرت صحيفة الحياة في ١٥/٠٨/٢٠٠٥ تحقيقًا عنوانه: (سياح يعودون من الخارج حاملين كتب سحر وشعوذة) وجاء فيه: أن أحد السعوديين يدعىٰ سالم محمد عاد بكتاب ورقه رديء، يعرف باسم «ورق دشت»، وهو أبيض منطفئ، يميل إلىٰ الاصفرار، وحروفه مطبوعة بطريقة بارزة، توحي أنه قديم جدا، ويحمل تاريخ نشر قديم أيضًا.
لم يكن الكتاب سوىٰ «الجواهر اللماعة في استحضار ملوك الجن في الوقت والساعة».
ويدعي سالم أن بائع الرصيف الذي اشترىٰ منه الكتاب قال له: إن مؤلفه جني، من أصحاب نبي الله سليمان عليه السلام، وهو كتاب يجعل الجان تحت تصرفك وإمرتك، =

. . . .

= يدافعون عن حقوقك، ويغنونك ويطيلون عمرك. نعوذ بالله من الشرك.
وذكر التحقيق أنه زادت خلال السنوات الماضية بين السياح السعوديين جلب الكتب التي تتناول الشعوذة والسحر والدجل، فمن كتب قراءة الكف والفناجين وفتح المندل، إلىٰ كتب تفريق الأزواج وأخذ الأرزاق وما شابه ذلك.
ويشير موظف في أحد المنافذ البرية السعودية، إلىٰ أنهم غالبا ما يعثرون علىٰ تلك الكتب بين أمتعة العائدين من بعض الدول العربية، إذ تكون مخبأة بعناية واهتمام، في محاولة لتهريبها.
وتحوي أغلفة الكتب اسم مؤسسة طباعة ونشر، قد تكون معروفة، وقد تكون غير معروفة، وغالبا ما تطبعها دور نشر مصرح لها إعلاميا ونقابيا للحصول علىٰ الأرباح ولو علىٰ حساب عقائد الناس وأموالهم.
ومن تلك الكتب الخبيثة التي يعود بها بعض المسافرين «السحر الأحمر»، و«اللؤلؤ والمرجان في تسخير ملوك الجان»، وكتاب «سحر الكهان في حضور الجان»، و«المندل والخاتم السليماني والعلم الروحاني»، و«مفاتيح الكنوز في حل الطلاسم والرموز».
وتلعب الكتب علىٰ الوتر النفسي لدىٰ القارئ في صورة مباشرة، ومن أول بدايات الكتاب، يحاول الكاتب الإيحاء أنه «متصل دينيا بالله تعالىٰ في الكتاب، وما هو إلا تسخير من عند الله تعالىٰ» وذلك لخداع الناس بأن هذه الكتب الشيطانية ليست تتعارض مع الشريعة. ويذكر أحد باعة تلك الكتب: «أن النساء أكثر المشترين لهذه النوعية من الكتب؛ تصديقًا منهن لما تحويها، بينما الرجال لا يحتاجون لهذه الكتب».
ونشرت صحيفة (المغربية اليومية) في عددها (٦٦٩١) الأربعاء **١٦** مايو **٢٠٠٧** ملفًا صحفيًا عن هذه الظاهرة في المغرب بعنوان: ظلاميات السحرة والمشعوذين «الشعوذة» تتحول إلىٰ اقتصاد مواز يدر ملايين الدولارات، ذكروا فيه أن الدكتور محمد عبد العظيم بمركز البحوث الجنائية في القاهرة كشف في دراسة له حول السحر والشعوذة: أن (**٢٥٠** ألف) دجال يمارسون أنشطة الشعوذة في عموم الدول العربية، وأن العرب ينفقون زهاء خمسة مليارات دولار سنويا في هذا المجال، وأن نصف نساء العرب يعتقدن بفعل الخرافات والخزعبلات ويترددن علىٰ المشعوذين سرا وعلانية.
وأشار د. محمد إلىٰ أن ممارسي السحر يخلطون بين السحر والدين، ويزعمون أن لهم القدرة علىٰ علاج الأمراض، وأن هناك زهاء **٣٠٠** ألف شخص في مصر يدعون علاج =

. . . .

= الأمراض بتحضير الأرواح. وتؤكد الإحصائيات أنه يوجد في العالم العربي عراف أو مشعوذ لكل ألف نسمة.

وفي دراسة أخرىٰ أعدتها الدكتورة سامية الساعاتي عن السحر والشعوذة ونشرها موقع -الجزيرة- أكدت أن ٥٥٪ من المترددات علىٰ السحرة هن من المتعلمات ومن المثقفات، و٢٤٪ ممن يجدن القراءة.

وذكر عالم الأنتروبولوجيا د.محمد بلفقيه أن «المشعوذ» في المغرب أصبح لا يتقن إلا لغة «السحر والشعوذة»، وأن المجتمع يتحمل مسؤولية هذا الواقع؛ لأنه لم يعلم هذه الفئات مهنا بديلة، وذكر أن المشارقة الذين يأتون للمغرب من أجل هذا الغرض يحملون معهم عقدا اجتماعية وجنسية وثقافية وتاريخية يبحثون عن حلول لها لدىٰ السحرة والمشعوذين، وأن ذلك يمكن تصنيفه في خانة «عودة المكبوت».

وفي دبي كشفت إحصائية رسمية أن حجم الجرائم الاقتصادية عن طريق السحر وصل ٤.١ مليار درهم سنويًا!

وفي تقرير أعدته الباحثة فابيولا بدوي في جريدة الحياة ٢٠٠٣/٦/٢٩ قالت: إن الفقراء في مصر -وهم الآن غالبية الشعب- يعدون الدجل والخرافات والشعوذة الزاد الحقيقي لمعظمهم .. فقد أثبتت أحدث الدراسات التي أجراها المركز القومي للبحوث الجنائية بالقاهرة أن المصريين ينفقون عشرة مليارات جنيه مصري سنويا علىٰ قراءة الغيب وفك السحر والعلاج من الجان، وهذا مبلغ يفوق فعليا ما تحصل عليه مصر من قناة السويس نتيجة عبور السفن فيها، كما أشارت الدراسة نفسها إلىٰ أن هناك ٢٧٤ خرافة تسيطر علىٰ سلوك أهل الريف والحضر.

وهذا المبلغ الضخم الذي ينفقه المصريون علىٰ الشعوذة هو أكبر من ميزانية التعليم المصرية، وتؤكد الدراسة المذكورة في إحدىٰ فقراتها علىٰ أن هناك دجالًا لكل ٢٤٠ مواطنًا يعينه علىٰ كشف الغيب.

وذكر «عبد لاوي لخلافة» أن كثيرًا من الصحف المغربية تقتات علىٰ مداخيل إشهارات للدجالين والمشعوذين؛ إذ تخصص هذه الصحف حيزًا يوميًا أو أسبوعيًا أو شهريًا في أسفل صفحاتها لإعلانات الشعوذة والصداقة الوهمية وأرقام أصحابها الهاتفية لتسهيل الاتصال بهم.

هذا بالإضافة إلىٰ وجود عدة محلات في مختلف مناطق المغرب مخصصة للشعوذة =

وَكُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ مَا آلَ إِلَيْهِ حَالُ النَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَوْصُوفِ بِالْعِلْمِ وَالْحَضَارَةِ!!

وَلَمَّا تَطَوَّرَ الْبَثُّ الْفَضَائِيُّ، وَتَيَسَّرَ الْحُصُولُ عَلَيْهِ؛ اسْتَغَلَّ ذَلِكَ مَنْ يُتَاجِرُونَ بِآلَامِ النَّاسِ وَمَصَائِبِهِمْ، فَبَرَزُوا إِلَيْهِمْ عَبْرَ الشَّاشَاتِ يَزْعُمُونَ حَلَّ مَشَاكِلِهِمْ،

= تقصدها شريحة متنوعة من المغاربة، كما أن بعض المشعوذين يستغلون مناسبة الأسواق التجارية والمناسبات الخاصة بالأولياء المزعومين للترويج لتجارتهم علىٰ مرأىٰ من السلطات القريبة من أماكن هذه المناسبات.

وفي هذا السياق قال صاحب جريدة مغربية فضل عدم ذكر اسمه: إنه يقبض ثلاثة آلاف درهم مقابل إشهاره لإعلانات الدجالين والمشعوذات ونشر أرقامهم الهاتفية، والذين يدعون قدرتهم علىٰ التنبؤ بالمستقبل، وحل المشاكل العاطفية، والتسريع بالزواج والشغل. وتكلف المكالمات الهاتفية مع هؤلاء المشعوذين والمشعوذات تسعيرة عالية تتراوح بين ستة دراهم وسبعة للدقيقة الواحدة، ويتم استهلاك جل وقتها -حسب أحد المجربين لها- في مقطوعات موسيقية لمزيد من ابتزاز الضحايا المغفلين.

ونشر في جريدة الوطن السعودية ٢٠٠٣/٦/١٨ علىٰ لسان الشيخ عبدالحق المسغوي أشهر الشيوخ المعالجين بالرقية الشرعية في المغرب: إن فصل الصيف في المغرب يعد موسما لصيد الزبائن الأجانب وبالخصوص الخليجيين من قبل المشعوذين والدجالين الذين يوزعون السماسرة علىٰ المطارات والفنادق والشقق المفروشة أو يستعينون بسائقي سيارات الأجرة أو عمال الفنادق أو حراس الشقق المفروشة.

وقد أصبح قول: إن فلانة قد عملت حجابا لزوجها لكي يطلق ضرتها أو لكي لا يتزوج غيرها من الأقوال المتعارف عليها، بل إن بعض الأسر الثرية تحتفظ في منازلها بمشايخ من المغرب مرفوع عنهم الحجاب، ومن أولياء الله؛ لطرد الجان والشياطين ودفع المكروه.

وتقول منال الشريف في جريدة الوطن السعودية: أحب أن أخبركم بأنني في هذا الصيف التقيت رجل أعمال من الخليج علىٰ وشك شراء خادم جني بمبلغ خرافي؛ حيث أخبره مشعوذ أنه سيشكل الخادم علىٰ شكل خنفساء ليتمكن من حمله وأخذه معه في الطائرة.

والعجائب في هذا الباب من الضلال كثيرة، والآن لا حاجة لكل ذلك؛ لأن قنوات السحر والشعوذة وصلت إلىٰ من يريدها ومن لا يريدها في بيوتهم، فلا يحتاجون السفر للبحث عن السحرة والمشعوذين.

وَإِنْهَاءَ مُعَانَاتِهِمْ، فَكَانَ الْإِقْبَالُ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الدَّجَاجِلَةِ الْكَذَّابِينَ يَفُوقُ حِسَابَاتِ الْحَاسِبِينَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِوُجُودِ الْقَابِلِيَّةِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُضْحَكَ عَلَيْهِمْ، وَيُسْتَخَفَّ بِعُقُولِهِمْ، وَيُتَلَاعَبَ بِدِينِهِمْ.

إِنَّهُ مَا ازْدَهَرَتْ سُوقُ فَضَائِيَّاتِ السِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ إِلَّا لِكَثْرَةِ الْمُتَّصِلِينَ بِهِمْ، الشَّاكِينَ لَهُمْ، وَهِيَ فِي ازْدِيَادٍ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ بِقَدْرِ ازْدِيَادِ زَبَائِنِهَا وَالْمُتَّصِلِينَ بِهَا، وَهَذَا يُنْذِرُ بِخَطَرٍ عَظِيمٍ، وَإِثْمٍ كَبِيرٍ، لَا بُدَّ أَنْ يَتَدَاعَىٰ الْغَيُورُونَ لِتَخْفِيفِهِ وَإِزَالَتِهِ؛ حِمَايَةً لِلنَّاسِ مِنْ شَرِّهَا وَإِثْمِهَا.

إِنَّ أَكْبَرَ سَبَبٍ لِلْإِقْبَالِ عَلَىٰ بَرَامِجِ السِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ هُوَ ضَعْفُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَسُوءُ الظَّنِّ بِهِ، وَالِاعْتِمَادُ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَإِلَّا فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ فَإِنَّهُ لَا يَرْجُو جَلْبَ نَفْعٍ أَوْ دَفْعَ ضُرٍّ إِلَّا مِنْهُ ﷻ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الْبَشَرَ لَا يَمْلِكُونَ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا.

وَمَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ بِرَبِّهِ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يُقَدِّرُ عَلَيْهِ شَرًّا مَحْضًا، وَأَنَّ مَا يُصِيبُهُ مِنْ آلَامٍ وَأَحْزَانٍ وَأَمْرَاضٍ وَهُمُومٍ وَمُشْكِلَاتٍ فَإِنَّمَا هِيَ كَفَّارَاتٌ لِسَيِّئَاتِهِ، وَرِفْعَةٌ فِي دَرَجَاتِهِ، وَزِيَادَةٌ فِي حَسَنَاتِهِ، فَلَا يَسْعَىٰ فِي إِزَالَتِهَا بِمَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ.

إِنَّ الظُّرُوفَ المَعِيشِيَّةَ الضَّاغِطَةَ عَلَىٰ النَّاسِ، وَمَحَبَّتَهُمْ لِلثَّرَاءِ السَّرِيعِ، وَاسْتِبْدَادَ الْجَشَعِ بِهِمْ، وَخَوْفَهُمْ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ المَجْهُولِ، وَإِقْبَالَهُمْ عَلَىٰ الدُّنْيَا، وَإِعْرَاضَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ، قَدْ أَدَّىٰ بِكَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَىٰ الْخَوْفِ وَالِاضْطِرَابِ وَالْقَلَقِ، فَأَتَاهُمْ أَبَالِسَةُ النَّاسِ مِنْ نُقْطَةِ الضَّعْفِ هَذِهِ، فَأَوْرَدُوهُمْ مَهَالِكَ لَمْ تُزِلْ هُمُومَهُمْ، وَلَا حَلَّتْ مَشَاكِلَهُمْ، وَلَكِنَّهَا اسْتَنْزَفَتْ أَمْوَالَهُمْ، وَأَفْسَدَتْ عَقَائِدَهُمْ، فَلَا أَصْلَحُوا لَهُمْ دُنْيَاهُمْ، وَلَا أَبْقَوْا لَهُمْ دِينَهُمْ، وَالنِّسَاءُ ضَعِيفَاتٌ فِي هَذَا الْبَابِ.

وَالمَشَاكِلُ الْأُسَرِيَّةُ سَوَاءٌ بَيْنَ الزَّوْجِ وَزَوْجَتِهِ، أَوْ بَيْنَ الْأَبِ وَبَنَاتِهِ قَدْ أَلْقَتْ بِظَلَالِهَا عَلَىٰ هَذِهِ الْفِتْنَةِ الْعَظِيمَةِ، حَتَّىٰ هُدِمَتْ أُسَرٌ بِسَبَبِ هَذَا الْبَلَاءِ، وَمَنْ أَرَادَ حِفْظَ أَهْلِهِ وَبَنَاتِهِ فَلْيَكُنْ قَرِيبًا مِنْهُنَّ، مُتَلَمِّسًا مَشَاكِلَهُنَّ، سَاعِيًا فِيمَا يُصْلِحُهُنَّ، وَإِلَّا شَكَوْنَ إِلَىٰ غَيْرِهِ، فَاصْطَادَهُنَّ أَرْبَابُ السِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ وَالشَّعْوَذَاتِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ لَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ فِي حَلِّ مَشَاكِلِهِ مِنَ الذَّهَابِ إِلَىٰ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ؛ لِضَعْفِ إِيمَانِهِ، وَقِلَّةِ صَبْرِهِ، أَوْ لِجَهْلِهِ بِخُطُورَةِ هَذَا الْأَمْرِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ الذَّهَابَ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجِدُهُمْ بِسُهُولَةٍ، أَوْ يَخَافُ عَلَىٰ سُمْعَتِهِ، وَكَانَتْ وَلَا تَزَالُ الْجِهَاتُ الْمَسْئُولَةُ مِنَ الشُّرَطِ وَهَيْئَاتِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ تُلَاحِقُ السَّحَرَةَ وَالْمُشَعْوِذِينَ، وَتَكُفُّ شَرَّهُمْ عَنِ النَّاسِ. أَمَّا الْآنَ فَقَدْ سَهُلَ الِاتِّصَالُ بِهِمْ عَنْ طَرِيقِ قَنَوَاتِهِمُ الْخَبِيثَةِ، وَصَارَ الْمُتَّصِلُ بِهِمْ وَبِالْأَخَصِّ مِنَ النِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ تَجِدُ نَفْسَهَا فِي مَأْمَنٍ مِنَ الْفَضِيحَةِ، مَعَ سُهُولَةِ وُصُولِهَا إِلَىٰ مَا تُرِيدُ مِنْهُمْ، وَهَذَا هُوَ مَكْمَنُ الْخُطُورَةِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَفَتَيَاتِهِمْ، وَهُنَّ الْفِئَةُ الْأَضْعَفُ، وَالْأَكْثَرُ تَصْدِيقًا لِهَذَا الدَّجَلِ؛ وَلِذَا تَسْتَهْدِفُهُنَّ هَذِهِ الْقَنَوَاتُ الْخَبِيثَةُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِنَّ، وَفِي بَعْضِ الْإِحْصَائِيَّاتِ أَنَّ أَكْثَرَ مِنْ ثُلُثَي الْمُتَابِعِينَ لِهَذِهِ الْقَنَوَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ وَالْمُتَّصِلِينَ بِهَا هُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ.

فَكَيْفَ سَتَكُونُ حَالُ بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهَا أَدَوَاتُ السِّحْرِ وَالشَّعْوَذَةِ عَنْ طَرِيقِ بَنَاتِهَا وَنِسَائِهَا، وَبِفِعْلِ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ الَّتِي لَا تَنْظُرُ إِلَّا إِلَىٰ الرِّبْحِ وَلَوْ فَرَّقَتْ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَوْلَادِهِ، وَلَوْ قَلَبَتْ بُيُوتَ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ بُؤَرٍ لِلشَّيَاطِينِ، وَأَحْدَثَتْ مَا أَحْدَثَتْ فِيهَا مِنَ الْعَدَاوَاتِ وَالْبَغْضَاءِ وَالشَّقَاءِ.

وَالدَّاعِي إِلَىٰ هَذَا التَّحْذِيرِ وَتَكْرَارِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ: هُوَ أَنَّ الْإِقْبَالَ عَلَىٰ هَذِهِ

الْقَنَوَاتِ الْخَبِيثَةِ كَبِيرٌ جِدًّا، وَهِيَ تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، حَتَّىٰ إِنَّ الْمُتَّصِلَ بِهَا رُبَّمَا اتَّصَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ وَلَا يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَىٰ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ مِنْ شِدَّةِ الزِّحَامِ عَلَيْهِ، وَفِي بَعْضِهَا يَأْخُذُونَ رَقَمَ الْمُتَّصِلِ وَيَعِدُونَهُ بِالِاتِّصَالِ بِهِ بَعْدَ أُسْبُوعٍ أَوْ أَكْثَرَ؛ لِكَثْرَةِ مَنْ يَنْتَظِرُونَ قَبْلَهُ، فَهَلْ هَذَا إِلَّا دَلِيلٌ عَلَىٰ قَابِلِيَّةِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُضْحَكَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ الْيَأْسِ الَّذِي أَحَاطَ بِهِمْ، أَوِ الْجَهْلِ الَّذِي أَطْبَقَ عَلَيْهِمْ، مَعَ ضَعْفِ إِيمَانِهِمْ وَتَوَكُّلِهِمْ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَقِلَّةِ صَبْرِهِمْ وَاحْتِسَابِهِمْ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِرَبِّهِمْ ﷻ.

فَمَا أَسْرَعَ النَّاسَ إِلَىٰ الْخُرَافَةِ فِي عَصْرٍ يُوصَفُ بِأَنَّهُ عَصْرُ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْحَضَارَةِ، الَّتِي مَا زَادَتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا جَهْلًا بِدِينِهِمْ، وَتَعَلُّقًا بِالدَّجَلِ وَالشَّعْوَذَةِ! وَلَا تَسَلْ حِينَئِذٍ عَمَّا يَقَعُ مِنْ فَسَادِ الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «قَبُولُ الْمَحَلِّ لِمَا يُوضَعُ فِيهِ مَشْرُوطٌ بِتَفْرِيغِهِ مِنْ ضِدِّهِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ فِي الذَّوَاتِ وَالْأَعْيَانِ فَكَذَلِكَ هُوَ فِي الِاعْتِقَادَاتِ وَالْإِرَادَاتِ، فَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ مُمْتَلِئًا بِالْبَاطِلِ اعْتِقَادًا وَمَحَبَّةً لَمْ يَبْقَ فِيهِ لِاعْتِقَادِ الْحَقِّ وَمَحَبَّتِهِ مَوْضِعٌ ... وَسِرُّ ذَلِكَ: أَنَّ إِصْغَاءَ الْقَلْبِ كَإِصْغَاءِ الْأُذُنِ، فَإِذَا أَصْغَىٰ إِلَىٰ غَيْرِ حَدِيثِ اللَّهِ لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِصْغَاءٌ وَلَا فَهْمٌ لِحَدِيثِهِ، كَمَا إِذَا مَالَ إِلَىٰ غَيْرِ مَحَبَّةِ اللَّهِ لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَيْلٌ إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ ...» اهـ[٣].

وَلَا يَشُكُّ عَاقِلٌ فِي أَنَّ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ الَّتِي تَبُثُّ السِّحْرَ وَالْكِهَانَةَ تُفْرِغُ قُلُوبَ مُشَاهِدِيهَا وَالْمُتَّصِلِينَ بِهَا مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَالتَّعَلُّقِ بِهِ، إِلَىٰ التَّعَلُّقِ بِشَيَاطِينِ الْإِنْسِ فِي سِحْرِهِمْ وَشَعْوَذَاتِهِمْ، وَرَبْطِهِمْ بِشَيَاطِينِ الْجِنِّ، فَيَرْجُونَ نَفْعَهُمْ، وَيَخَافُونَ ضُرَّهُمْ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْإِثْمِ وَالضَّلَالِ.

---

(٣) الفوائد (٢١٢).

فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَحْذَرَ وَيُحَذِّرَ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ المَاحِقِ الَّذِي غَزَا المُسْلِمِينَ فِي عُقْرِ دُورِهِمْ، يَسْتَهْدِفُ دِينَهُمْ، وَيُدَمِّرُ تَوْحِيدَهُمْ، وَيُفْسِدُ قُلُوبَهُمْ، وَيَسْتَنْزِفُ أَمْوَالَهُمْ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: لَقَدْ زَادَ هَذَا الْأَمْرَ سُوءًا وَاسْتِفْحَالًا تَصْدِيرُ بَعْضِ المَفْتُونِينَ المُضِلِّينَ فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الَّذِينَ لَا يَتْرُكُونَ شُذُوذًا مِنَ الْقَوْلِ وَالرَّأْيِ إِلَّا قَذَفُوا بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَحْدَثُوا بِهِ ضَجَّةً فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ، قَدْ رَكِبَهُمْ أَرْبَابُ الْأَفْكَارِ المُنْحَرِفَةِ لِتَمْرِيرِ مَا يُرِيدُونَ مِنْ ضَلَالٍ عَبْرَهُمْ، بَعْدَ دَمْغِهِ بِفَتَاوَاهُمُ الشَّاذَّةِ، وَآرَائِهِمُ المُضِلَّةِ.

وَقَدْ أَبَاحَ هَذَا الْفَرِيقُ الْمَفْتُونُ الْمُنْحَرِفُ الْعِلَاجَ بِالسِّحْرِ، وَرَخَّصَ لِلنَّاسِ فِي الِاتِّصَالِ بِالسَّحَرَةِ وَغِشْيَانِ مَجَالِسِهِمْ، فِي دَعَايَةٍ فَجَّةٍ وَدَعْمٍ كَبِيرٍ لِكُلِّ سَاحِرٍ وَمُشَعْوِذٍ، مَعَ مُخَالَفَةٍ صَرِيحَةٍ لِلنُّصُوصِ الْوَاضِحَةِ فِي ذَلِكَ، وَمَا هَذَا الصِّنْفُ مِنَ الْمَفْتُونِينَ الْمُحَرِّفِينَ لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيهَا.

وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] فَإِذَا كَانَ السَّاحِرُ لَمْ يُفْلِحْ فِي نَفْعِ نَفْسِهِ، حَتَّىٰ إِنَّ السَّحَرَةَ هُمْ مِنْ شَرِّ النَّاسِ حَالًا وَمَآلًا، وَوَاقِعُهُمْ يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَكَيْفَ يُفْلِحُ فِي نَفْعِ غَيْرِهِ؟ وَكَيْفَ يُفْلِحُ مَنْ أَجَازَ لِلنَّاسِ أَنْ يَذْهَبُوا لِلسَّحَرَةِ وَالْمُشَعْوِذِينَ؟ نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْهَوَىٰ وَالرَّدَىٰ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَعَلَ السِّحْرَ مِنَ السَّبْعِ الْمُوبِقَاتِ الَّتِي أَمَرَ بِاجْتِنَابِهَا، وَعَدَّهُ عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ نَاقِضًا مِنْ نَوَاقِضِ الْإِسْلَامِ، فَكَيْفَ يَسُوغُ لِعَاقِلٍ أَنْ يُفْتِيَ بِجَوَازِ الِاسْتِشْفَاءِ بِهِ وَهُوَ مِنَ الْمُوبِقَاتِ؟ وَكَيْفَ يَرْضَىٰ مُسْلِمٌ أَنْ يُوبِقَ نَفْسَهُ عِنْدَ سَحَرَةٍ وَمُشَعْوِذِينَ؟ وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ النُّشْرَةِ، فَقَالَ: **هُوَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٤].

وَالنُّشْرَةُ هِيَ حَلُّ السِّحْرِ بِالسِّحْرِ[٥]، وَلَوْ جَازَتِ النُّشْرَةُ السِّحْرِيَّةُ لَكَانَتِ

---

(٤) أخرجه أبو داود في الطب، باب في النشرة (٣٨٦٨)، وأحمد (٣/ ٢٩٤)، وصححه الحاكم (٤/ ٤٦٤)، والنووي في المجموع (٩/ ٦٤)، وحسنه الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٣).

(٥) قال القاضي عياض -رحمه الله تعالىٰ-: «النشرة -بضم النون-: نوع من التطبب بالاغتسال علىٰ هيئة مخصوصة بالتجربة لا يحتملها القياس الطبي» مشارق الأنوار (٢/ ٢٩).
وقال ابن الجوزي -رحمه الله تعالىٰ-: «النشرة: إطلاق السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر علىٰ ذلك إلا من يعرف السحر، ومع هذا فلا بأس بذلك» غريب الحديث (٢/ ٤٠٨).
وقال ابن الأثير -رحمه الله تعالىٰ-: «النشرة -بالضم-: ضرب من الرقية والعلاج، =

. . . .

= يعالج به من كان يظن أن به مسا من الجن، سميت نشرة؛ لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء، أي: يكشف ويزال، وقال الحسن: النشرة من السحر، وقد نشرت عنه تنشيرا، ومنه الحديث: فلعل طبا أصابه، ثم نشره بقل أعوذ برب الناس، أي: رقاه، والحديث الآخر هلا تنشرت» النهاية (٥/ ٥٣).

وقد روىٰ مالك حديث عائشة ﷺ في جارية سحرتها، فرأت في المنام أنها تغتسل من آبار ثلاثة، فأحضر لها منها ماء فاغتسلت فشفيت، وهو حديث رواه مالك بآخرة من كتابه فليس عند يحيىٰ وطائفة معه من رواة الموطأ كما أفاد ذلك ابن عبد البر، ثم قال ابن عبد البر تعليقا عليه: «وفيه إثبات النشرة، وأنها قد ينتفع بها، وحسبك ما جاء منها في اغتسال العائن للمعين» الاستذكار (٨/ ١٥٨-١٥٩).

ونقل ابن عبد البر عن ابن جريج قال: سألت عطاء بن أبي رباح عن النشرة، فكره نشرة الأطباء، وقال: لا أدري ما يصنعون فيها؟ وأما شيء تصنعه أنت فلا بأس به، ثم نقل عن يحيىٰ بن سعيد -رحمه الله تعالىٰ- قال: «ليس بالنشرة التي يجمع فيها من الشجر والطيب ويغتسل به الإنسان بأس» التمهيد (٦/ ٢٤٥).

ونقل الحافظ ابن حجر عن حماد بن شاكر -رحمه الله تعالىٰ-: «أن النشرة أن يجمع أيام الربيع ما قدر عليه من ورد المفاره-هكذا في مطبوعة محب الدين الخطيب، ولعل الصواب: المفازة- وورد البساتين ثم يلقيها في إناء نظيف ويجعل فيهما ماء عذبا، ثم يغلي ذلك الورد في الماء غليا يسيرا، ثم يمهل حتىٰ إذا فتر الماء أفاضه عليه فإنه يبرأ بإذن الله تعالىٰ» الفتح (١٠/ ٢٣٤).

وفي عون المعبود نقل قول الحسن -رحمه الله تعالىٰ-: «النشرة من السحر، ثم نقل عن فتح الودود: لعله كان مشتملًا علىٰ أسماء الشياطين أو كان بلسان غير معلوم؛ فلذلك جاء أنه سحر، سمي نشرة لانتشار الداء وانكشاف البلاء به، هو من عمل الشيطان، أي: من النوع الذي كان أهل الجاهلية يعالجون به ويعتقدون فيه، وأما ما كان من الآيات القرآنية والأسماء والصفات الربانية والدعوات المأثورة النبوية فلا بأس به» اهـ من عون المعبود (١٠/ ٢٤٩).

والذي يظهر لي من خلال هذه النقول عن العلماء أن النشرة أنواع:

الأول: ما كان بأدوية مشروعة مأمور بها كالرقية الشرعية بآيات القرآن، فهذه لا شك في إباحتها، بل هي مستحبة؛ لأنها من الاستشفاء بالقرآن. =

. . . .

= **الثاني**: ما كان بأدوية مباحة لا محرم فيها، قد دلت التجربة علىٰ نفعها، كالحجامة وورق السدر، وبعض الأعشاب، ونوع من الاغتسال، وغير ذلك من الأدوية التي ثبت نفعها في ذلك، فالأظهر أنها مباحة.

الثالث: ما كان بأدوية سحرية، وهي التي يتناولها الحديث، وهي من عمل الشيطان، وهي محرمة ولو كان ظاهر كلام بعض الأئمة إجازتها، فيحمل قولهم علىٰ ما يجوز منها.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «والنشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: حل سحر بسحر مثله وهو الذي من عمل الشيطان؛ فإن السحر من عمله، فيتقرب إليه الناشر والمنتشر بما يحب فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة فهذا جائز بل مستحب، وعلىٰ النوع المذموم يحمل قول الحسن: لا يحل السحر إلا ساحر» إعلام الموقعين (٤/ ٣٩٦).

وقد جاء عن سعيد بن المسيب ما قد يفيد أنه يجيز النشرة السحرية، وهو ما رواه البخاري عن قتادة قال: «قلت لسعيد بن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه» أخرجه البخاري معلقا مجزوما به في الطب، باب: هل يستخرج السحر (٥/ ٢١٧٥).

وكلام ابن المسيب -رحمه الله تعالىٰ- محتمل، وليس قاطعا في أنه يجيز النشرة السحرية، بل قد يريد ما هو مباح من الأدوية المجربة النافعة التي لا محرم فيها.

يقول الشيخ الحافظ سليمان بن عبد الله -رحمه الله تعالىٰ-: «وهذا الكلام من ابن المسيب يحمل علىٰ نوع من النشرة لا يعلم هل هو نوع من السحر أم لا، فأما أن يكون ابن المسيب يفتي بجواز قصد الساحر الكافر المأمور بقتله ليعمل السحر فلا يظن به ذلك، حاشاه منه، ويدل علىٰ ذلك قوله: إنما يريدون به الإصلاح. فأي إصلاح في السحر؟ بل كله فساد وكفر» تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٣٦٦).

وفي موضع آخر ذكر ما قرره ابن القيم من أن النشرة نوعان: «محرمة وهو ما كان بالسحر ونحوه، والثاني: ما كان بالرقىٰ الشرعية، ثم قال -رحمه الله تعالىٰ-: هذا الثاني هو الذي يحمل عليه كلام ابن المسيب، أو علىٰ نوع لا يدري هل هو من السحر أم لا؟ وكذلك ما روي عن الإمام أحمد من إجازة النشرة فإنه محمول علىٰ ذلك، وغلط من ظن أنه أجاز النشرة السحرية، وليس في كلامه ما يدل علىٰ ذلك، بل لما سئل عن الرجل يحل السحر؟ قال: قد رخص فيه بعض الناس، قيل: إنه يجعل في الطنجير ماء ويغيب فيه =

الشَّرِيعَةُ مُتَنَاقِضَةً، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَلِكَ؛ إِذْ كَيْفَ يُحْكَمُ بِالْكُفْرِ عَلَىٰ مُتَعَلِّمِ السِّحْرِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البَقَرَة: ١٠٢]، ثُمَّ يُبَاحُ حَلُّ السِّحْرِ بِمِثْلِهِ؟! وَالْعُلَمَاءُ يَسْتَدِلُّونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَىٰ أَنَّ مُمَارَسَةَ السِّحْرِ كُفْرٌ كَمَا أَنَّ تَعَلُّمَهُ كُفْرٌ(٦)، ثُمَّ كَيْفَ تَأْتِي النُّصُوصُ

= فنفض يده وقال: لا أدري ما هذا؟ قيل له: أفترىٰ أن يؤتىٰ مثل هذا؟ قال: لا أدري ما هذا؟ وهذا صريح في النهي عن النشرة علىٰ الوجه المكروه، وكيف! وهو الذي روىٰ الحديث «**إنها من عمل الشيطان**» لكن لما كان لفظ النشرة مشتركا بين الجائزة والتي من عمل الشيطان، ورأوه قد أجاز النشرة ظنوا أنه قد أجاز التي من عمل الشيطان، وحاشاه من ذلك» اهـ من تيسير العزيز الحميد (١/ ٣٦٧-٣٦٨).

وقال الشنقيطي -رحمه الله تعالىٰ-: «التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه في هذه المسألة أن استخراج السحر إن كان بالقرآن كالمعوذتين وآية الكرسي ونحو ذلك مما تجوز الرقيا به فلا مانع من ذلك، وإن كان بسحر أو بألفاظ عجمية أو بما لا يفهم معناه أو بنوع آخر مما لا يجوز فإنه ممنوع، وهذا واضح وهو الصواب إن شاء الله تعالىٰ كما ترىٰ» أضواء البيان (٤/ ٥٧).

وقال الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله تعالىٰ-: «أما حل السحر عن المسحور بسحر مثله فيحرم فإنه معاونة للساحر، وإقرار له علىٰ عمله، وتقرب إلىٰ الشيطان بأنواع القرب ليبطل عمله عن المسحور؛ ولهذا قال الحسن: لا يحل السحر إلا ساحر» معارج القبول (٢/ ٥٦٦).

(٦) قال ابن قدامة -رحمه الله تعالىٰ-: «تعلم السحر وتعليمه حرام لا نعلم فيه خلافا بين أهل العلم، قال أصحابنا: ويكفر الساحر بتعلمه وفعله سواء اعتقد تحريمه أو إباحته، وروي عن أحمد ما يدل علىٰ أنه لا يكفر فإن حنبلا روىٰ عنه قال: قال عمي في العراف والكاهن والساحر: أرىٰ أن يستتاب من هذه الأفاعيل كلها؛ فإنه عندي في معنىٰ المرتد فإن تاب وراجع، يعني: يخلىٰ سبيله، قلت له: يقتل؟ قال: لا، يحبس لعله يرجع، قلت له: لم لا تقتله؟ قال: إذا كان يصلي لعله يتوب ويرجع، وهذا يدل علىٰ أنه لم يكفره؛ لأنه لو كفره لقتله، وقوله في معنىٰ المرتد يعني: في الاستتابة.

وقال أصحاب أبي حنيفة: إن اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء كفر، وإن اعتقد أنه تخييل لم يكفر.

وقال الشافعي: إن اعتقد ما يوجب الكفر مثل التقرب إلىٰ الكواكب السبعة، وأنها تفعل =

. . . .

= ما يلتمس، أو اعتقد حل السحر كفر؛ لأن القرآن نطق بتحريمه، وثبت بالنقل المتواتر والإجماع عليه، وإلا فسق ولم يكفر؛ لأن عائشة رضي الله عنها باعت مدبرة لها سحرتها بمحضر من الصحابة، ولو كفرت لصارت مرتدة يجب قتلها، ولم يجز استرقاقها؛ ولأنه شيء يضر بالناس فلم يكفر بمجرده كأذاهم.
ولنا قول الله تعالىٰ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: وما كفر سليمان، أي: وما كان ساحرا كفر بسحره، وقولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: لا تتعلمه فتكفر بذلك .... وقول عائشة قد خالفها فيه كثير من الصحابة، وقال علي رضي الله عنه: كافر، ويحتمل أن المدبرة تابت فسقط عنها القتل والكفر بتوبتها، ويحتمل أنها سحرتها بمعنىٰ أنها ذهبت إلىٰ ساحر سحر لها» اهـ من المغني (٩/ ٣٤-٣٥).
وقال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: «وقد استدل بهذه الآية علىٰ أن السحر كفر ومتعلمه كافر، وهو واضح في بعض أنواعه التي قدمتها وهو التعبد للشياطين أو للكواكب، وأما النوع الآخر الذي هو من باب الشعوذة فلا يكفر به من تعلمه أصلا.
قال النووي: عمل السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عده النبي ﷺ من السبع الموبقات، ومنه ما يكون كفرا، ومنه ما لا يكون كفرا، بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كفر وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فحرام فإن كان فيه ما يقتضي الكفر كفر واستتيب منه ولا يقتل، فإن تاب قبلت توبته، وإن لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عزر، وعن مالك: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب، بل يتحتم قتله كالزنديق، قال عياض: وبقول مالك قال أحمد وجماعة من الصحابة والتابعين» اهـ من فتح الباري (١٠/ ٢٢٤).
ثم ذكر الحافظ أن اختيار البخاري -رحمه الله تعالىٰ- كفر الساحر فقال: وفي إيراد المصنف هذه الآية إشارة إلىٰ اختيار الحكم بكفر الساحر لقوله فيها: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فإن ظاهرها أنهم كفروا بذلك، ولا يكفر بتعليم الشيء إلا وذلك الشيء كفر، وكذا قوله في الآية علىٰ لسان الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] فإن فيه إشارة إلىٰ أن تعلم السحر كفر فيكون العمل به كفرا» اهـ فتح الباري (١٠/ ٢٢٥).
ونقل الشنقيطي -رحمه الله تعالىٰ- بعض كلام ابن حجر ثم قال: «التحقيق في هذه المسألة إن شاء الله تعالىٰ أن السحر نوعان: منه ما هو كفر، ومنه ما لا يبلغ بصاحبه =

تَذُمُّ السَّحَرَةَ وَالْكُهَّانَ، وَتُحَذِّرُ مِنْ سُؤَالِهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ وَالْإِصْغَاءِ إِلَيْهِمْ، وَتَصْدِيقِهِمْ فِيمَا يَقُولُونَ، ثُمَّ تُجِيزُ التَّدَاوِيَ بِسِحْرِهِمْ وَشَعْوَذَاتِهِمْ؟! وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ التَّنَاقُضِ عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِهِ مِنَ الْمَفْتُونِينَ الْمُحَرِّفِينَ.

إِنَّ الِاتِّصَالَ بِبَرَامِجِ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ قَدْ يُؤَدِّي إِلَىٰ كُفْرِ الْمُتَّصِلِ بِهِمْ وَلَوْ صَلَّىٰ وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَإِنْ طَلَبَ مِنْهُمْ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ شِفَاءِ الْمَرْضَىٰ، أَوْ رَدِّ غَائِبٍ، أَوْ حُصُولِ الرِّزْقِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَتِلْكَ مِنْ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةُ وَالْكُهَّانُ يَرْزُقُونَ النَّاسَ أَوْ يَدُلُّونَهُمْ عَلَىٰ أَسْبَابِ الرِّزْقِ لَرَزَقُوا أَنْفُسَهُمْ، وَلَمْ يُرْهِقُوهَا بِالْجُلُوسِ سَاعَاتٍ مُتَتَابِعَةً أَمَامَ الشَّاشَاتِ يَصِيحُونَ فِي زَبَائِنِهِمْ، يَخْدَعُونَهُمْ، وَيَسْتَدِرُّونَ أَمْوَالَهُمْ.

وَمَنْ سَأَلَهُمْ عَنْ حَظِّهِ أَوْ مُسْتَقْبَلِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُهِمُّهُ فَصَدَّقَهُمْ كَانَ كَافِرًا بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، مُكَذِّبًا لِصَرِيحِ الْقُرْآنِ الَّذِي فِيهِ أَنَّ الْغَيْبَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَتَىٰ كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا**

= الكفر؛ فإن كان الساحر استعمل السحر الذي هو كفر فلا شك في أنه يقتل كفرا . . . .
وأظهر القولين عندي أن المرأة الساحرة حكمها حكم الرجل الساحر، وأنها إن كفرت بسحرها قتلت كما يقتل الرجل ... وأما إن كان الساحر عمل السحر الذي لا يبلغ بصاحبه الكفر فهذا هو محل الخلاف بين العلماء: فالذين قالوا يقتل ولو لم يكفر بسحره، قال أكثرهم: يقتل حدا ولو قتل إنسانا بسحره، وانفرد الشافعي في هذه الصورة بأنه يقتل قصاصا لا حدا ... أما الذين قالوا: مطلقا إذا عمل بسحره ولو لم يقتل به أحدا، فاستدلوا بآثار عن الصحابة رضي الله عنهم وبحديث جاء بذلك إلا أنه لم يصح» أضواء البيان (٤/ ٥٢-٥٣).
وقال في موضع آخر: «اعلم أن الناس اختلفوا في تعلم السحر من غير عمل به هل يجوز أو لا؟ والتحقيق وهو الذي عليه الجمهور هو أنه لا يجوز، ومن أصرح الأدلة في ذلك تصريحه تعالىٰ بأنه يضر ولا ينفع في قوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وإذا أثبت الله أن السحر ضار ونفىٰ أنه نافع، فكيف يجوز تعلم ما هو ضرر محض لا نفع فيه؟!» أضواء البيان (٤/ ٥٥).

فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٧).

فَإِنْ سَأَلَهُ لَكِنْ لَمْ يَصَدِّقْهُ بِمَا قَالَ رُدَّتْ عَلَيْهِ صَلَاتُهُ بِنَصِّ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: **«مَنْ أَتَىٰ عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨).

وَيُخْشَىٰ أَنْ يَلْحَقَ هَذَا الْوَعِيدُ مَنْ شَاهَدَ الْقَنَوَاتِ الَّتِي تَبُثُّ السِّحْرَ وَالْكِهَانَةَ لِلْفُرْجَةِ أَوِ التَّسْلِيَةِ أَوْ حُبِّ المَعْرِفَةِ؛ لِأَنَّ مُشَاهَدَتَهَا تُشْبِهُ الْحُضُورَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ خَطَرِ التَّأَثُّرِ بِهَا، وَتَصْدِيقِ دَجَاجِلَتِهَا فَيَقَعُ فِي الْكُفْرِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ.

وَوَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ يُهِمُّهُ أَمْرُ إِخْوَانِهِ المُسْلِمِينَ أَنْ يَسْعَىٰ بِمَا يَسْتَطِيعُ لِلْحَيْلُولَةِ بَيْنَ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ المُفْسِدَةِ وَبَيْنَ النَّاسِ؛ نُصْحًا لِإِخْوَانِهِ المُسْلِمِينَ، وَحِفْظًا لِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَدَحْرًا لِهَؤُلَاءِ الدَّجَّالِينَ المُشَعْوِذِينَ، عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَرُدَّ مَكْرَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ يَحْفَظَنَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ....

❊ ❊ ❊

---

(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٩)، وصححه الحاكم وقال: علىٰ شرطهما (١/ ٤٩) وجاء بلفظ آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أتىٰ حائضا أو امرأة في دبرها أو كاهنا فصدقه فقد برئ مما أنزل علىٰ محمد ﷺ**» أخرجه أحمد واللفظ له (٢/ ٤٠٨)، وأبو داود في الطب، باب في الكاهن (٣٩٠٤)، والترمذي في الطهارة، باب ما جاء في كراهيته إتيان الحائض (١٣٩)، والدارمي (١١٣٦)، وابن الجارود (١٠٧)، وصححه الالباني.

(٨) أخرجه مسلم في السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٣٠)، وأحمد (٤/ ٦٨) وهذا الحديث جاء عن صفيه بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي ﷺ، وذكر الحافظ في الفتح أن بعض الرواة سماها حفصة رضي الله عنها (١٠/ ٢١٧).

٢١٧- عيدا الميلاد ورأس السنة النصرانيين أصلهما، وشعائرهما، وحكمهما

١٩/ ١٢/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَانَا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَشَرَعَ لَنَا دِينًا قَوِيمًا ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٦١]، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ مَا أَعْطَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَفَّقَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَكَانَ عَمَلُهُمْ مَبْرُورًا، وَسَعْيُهُمْ مَشْكُورًا، وَضَلَّ عَنْ صِرَاطِهِ أُمَمٌ لَا تَزِيدُهُمْ عِبَادَاتُهُمْ وَشَعَائِرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَبُعْدًا عَمَّا يُرْضِيهِ ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الْكَهْف: ١٠٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ تَرَكَنَا عَلَىٰ بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوهُ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ؛ فَأَكْثَرُ النَّاسِ قَدْ ضَلُّوا عَنْ دِينِهِ، وَحَادُوا عَنْ شَرِيعَتِهِ، وَاسْتَوْجَبُوا سُخْطَهُ وَنِقْمَتَهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَقَلِيلٌ مَنْ هَدَاهُمْ إِلَىٰ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الدِّينِ، وَكُنْتُمْ مِنْ هَذَا الْقَلِيلِ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْكُمْ، وَهِدَايَتِهِ لَكُمْ ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٩٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: تَقَعُ هَذِهِ الْجُمْعَةُ الْمُبَارَكَةُ بَيْنَ عِيدَيْنِ كَبِيرَيْنِ مِنْ أَعْيَادِ الْأُمَّةِ الضَّالَّةِ الَّتِي ضَلَّتْ عَنْ دِينِ الْمَسِيحِ ﷺ، وَجَرَىٰ عَلَيْهَا مَا جَرَىٰ عَلَىٰ الْأُمَمِ الَّتِي حَادَتْ عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَرُسُلِهِ ﷺ ضَلَالًا وَإِضْلَالًا، وَوَقَعَ فِي دِينِهَا

التَّحْرِيفُ وَالتَّبْدِيلُ وَالْإِحْدَاثُ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِمَا لَا يُحِبُّهُ وَلَا يَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ وَالْعِبَادَاتِ وَالشَّعَائِرِ.

وَقَبْلَ أَيَّامٍ كَانَتْ أَيَّامُ عِيدِ الْمُسْلِمِينَ الْكَبِيرِ: يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ الَّتِي شَرَعَهَا اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ، وَارْتَضَاهَا مِنْ دِينِهِمْ، وَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا، وَجَعَلَهَا ظَرْفًا لِلتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِأُمَّهَاتِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنَ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَالْأَضَاحِي وَالْهَدَايَا، فَمَا أَبْعَدَ مَا بَيْنَ أَعْيَادِنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَمَا بَيْنَ أَعْيَادِ الْأُمَمِ الضَّالَّةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَعُبَّادِ الْأَوْثَانِ!! فَنَحْمَدُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِذْ هَدَانَا لِذَلِكَ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَىٰ مَا يُرْضِيهِ إِلَىٰ أَنْ نَلْقَاهُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ الْأُمَّةَ النَّصْرَانِيَّةَ أُمَّةٌ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْوَثَنِيَّةُ مُبَكِّرًا؛ فَاسْتَقَوْا مِنَ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ كَثِيرًا مِنْ شَعَائِرِهِمُ الْوَثَنِيَّةِ، وَجَعَلُوهَا مِنْ أَصْلِ دِينِهِمْ، وَنَسَبُوا بَعْضَهَا لِلْمَسِيحِ ﷺ أَوْ لِحَوَارِيِّيهِ، وَهُمْ مِمَّا أَحْدَثُوا بُرَآءُ.

وَمِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِهِمُ الْبَاطِلَةِ مَا يَحْتَفِلُونَ بِهِ كُلَّ عَامٍ مِنَ الْأَعْيَادِ الْمُحْدَثَةِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ دِينِ الْمَسِيحِ ﷺ، وَقَبْلَ يَوْمَيْنِ احْتَفَلُوا بِمَا يَزْعُمُونَهُ عِيدَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ ﷺ الْمُسَمَّىٰ «الْكِرِيسْمَسْ»[1]، وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ يَحْتَفِلُونَ بِعِيدِ رَأْسِ السَّنَةِ الْمِيلَادِيَّةِ[2]، وَلَهُمْ فِي هَذَيْنِ الْعِيدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ عِنْدَهُمْ جُمْلَةٌ مِنَ الشَّعَائِرِ

---

(١) وهو في يوم ٢٥ ديسمبر، ويوافق هذا العام يوم الثلاثاء الماضي ١٦/ ١٢/ ١٤٢٨ حسب رؤية هلال ذي الحجة، و١٥/ ١٢/ ١٤٢٨ حسب تقويم أم القرىٰ، فعلىٰ الخطيب أن ينتبه ويغير في صلب الخطبة بما يتوافق مع العام الذي يلقيها فيه؛ لئلا يقع في الغلط والحرج.

(٢) وتسمىٰ ليلة رأس السنة، وتبدأ احتفالاتها عندهم بغروب شمس يوم ٣١ ديسمبر، وتبلغ ذروة الاحتفال منتصف الليل؛ لأن اليوم عندهم يبدأ بعد الساعة الثانية عشرة ليلا، وتدخل السنة الجديدة في تلك اللحظة، فيحتفلون احتفالا عظيما بها.

وتوافق هذه العام ليلة الثلاثاء ٢٣/ ١٢/ ١٤٢٨هـ حسب رؤية الهلال، و٢٢ من ذي الحجة حسب تقويم أم القرىٰ.

وَالْأَعْمَالِ الْمَمْلُوءَةِ بِالشِّرْكِ وَالْبِدْعَةِ، وَالْمُشْتَمِلَةِ عَلَىٰ أَنْوَاعٍ مِنَ الشُّبُهَاتِ الْمُضِلَّةِ، وَالشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ، وَالِاعْتِقَادَاتِ الْفَاسِدَةِ.

وَهَذِهِ الْأَعْيَادُ الشِّرْكِيَّةُ تَصِلُ احْتِفَالَاتُهَا وَشَعَائِرُهَا إِلَىٰ بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ عَبْرَ الْبَثِّ الْفَضَائِيِّ، وَأَضْحَىٰ كَثِيرٌ مِنَ الْمُذِيعِينَ وَمُقَدِّمِي الْبَرَامِجِ فِي أَكْثَرِ الْفَضَائِيَّاتِ وَالْإِذَاعَاتِ يَفْتَتِحُونَ بَرَامِجَهُمْ هَذِهِ الْأَيَّامَ بِتَهْنِئَةِ جُمْهُورِهِمْ بِهَذِهِ الْأَعْيَادِ الْمُحَرَّمَةِ؛ مِمَّا يُحَتِّمُ الْحَدِيثَ عَنْهَا، وَالتَّحْذِيرَ مِنْهَا؛ لِعُمُومِ الْبَلْوَىٰ بِهَا، وَكَثْرَةِ الْوَاقِعِينَ فِي إِثْمِهَا، الْمُغْتَرِّينَ بِزُخْرُفِهَا؛ نُصْحًا لِلْأُمَّةِ، وَحِمَايَةً لِجَنَابِ الشَّرِيعَةِ الرَّبَّانِيَّةِ؛ وَإِلَّا فَإِنَّ الشَّعَائِرَ الْبَاطِلَةَ لَا يَكَادُ يُحِيطُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ كَثْرَتِهَا، وَلَيْسَ مِنْ مُهِمَّاتِ الْمُسْلِمِ مَعْرِفَتُهَا إِلَّا مَا يُخْشَىٰ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ وُقُوعُهُمْ فِيهِ تَحْذِيرًا وَتَنْفِيرًا، وَذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ الشَّرِّ لِاتِّقَائِهِ؛ كَمَا قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ ﷺ: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

إِنَّ عِيدَ الْمِيلَادِ عِنْدَ النَّصَارَىٰ قَدْ أَحْدَثُوهُ لِمَا يَزْعُمُونَهُ تَجْدِيدًا لِذِكْرَىٰ مَوْلِدِ الْمَسِيحِ عليه السلام، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ لَدَىٰ مُؤَرِّخِي النَّصَارَىٰ يَوْمُ مَوْلِدِهِ عليه السلام، وَالْخِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي عَامِهِ كَبِيرٌ جِدًّا!! فَكَيْفَ بِشَهْرِهِ وَيَوْمِهِ؟!(٤).

---

(٣) أخرجه البخاري في الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٦٦٧٣)، ومسلم في الإمارة، باب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ... (١٨٤٧).

(٤) اختلف مؤرخو النصارىٰ ورهبانهم في العام الذي ولد فيه المسيح عليه السلام علىٰ ما يلي:
أولًا: أنه ولد في السنة الرابعة قبل التاريخ الميلادي الذي وضعه الراهب «ديونسيوس أكيسجوس» وهذا هو المثبت في دائرة المعارف الكتابية الصادرة عن الأقباط في مصر، ونسبوا ذلك إلىٰ إنجيل متىٰ (٢/ ١و ١٣-١٥)، قالوا: ولا يمكن تحديد التاريخ بدقة أكبر. اهـ (٧/ ١٣١).
ثانيًا: أنه ولد في أواخر السنة الخامسة قبل التاريخ الميلادي، أو أوائل السنة الرابعة =

. . . .

= قبل التاريخ الميلادي. وهذا هو المثبت في قاموس الكتاب المقدس، دار مكتبة العائلة، القاهرة، ط١٤، مطبعة الحرية، بيروت ٢٠٠٥م (ص: ٨٦٣-٨٦٤).

ثالثًا: أنه ولد قبل التاريخ الميلادي بست سنوات إلىٰ ثمان سنوات، وهو ما توصل إليه مجموعة من الباحثين والفلكيين النصارىٰ بعد دراستهم لإنجيل متىٰ. ينظر: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند (٣٧٦).

رابعًا: أنه ولد قبل العام الثالث قبل الميلاد. ومستند ذلك أيضا في إنجيلي متىٰ ولوقا، كما في قصة الحضارة لديورانت (١١/ ٢١٢).

خامسًا: أنه ولد في العام الثاني أو الأول قبل الميلاد. ومستند ذلك: إنجيل لوقا، كما في قصة الحضارة (١١/ ٢١٢).

سادسًا: أنه ولد قبل العام السادس من التاريخ الميلادي. ومستند ذلك: إحصاء لبلاد اليهود قام به حاكم سورية (سترنينس) عام سبعة أو ثمانية قبل التاريخ الميلادي. ينظر: قصة الحضارة (١١/ ٢١٢).

أما اليوم والشهر، فالخلاف بينهم فيه أشد، ومن أقوالهم فيه:

١- في التاسع عشر من إبريل.

٢- في العاشر من مايو.

٣- في السابع عشر من نوفمبر.

وفي عام ٣٥٤ ميلادي احتفلت بعض الكنائس الغربية، ومنها كنيسة رومة بذكرىٰ مولد المسيح في اليوم الخامس والعشرين من نوفمبر، هكذا في قصة الحضارة، ولعله أراد شهر ديسمبر؛ لأن النصارىٰ الغربيين استقروا عليه مولدا للمسيح، وهو اليوم الذي كان يحتفل به الوثنيون بعيد مثراس؛ أي: مولد الشمس التي لا تقهر. ينظر: قصة الحضارة (١١/ ٢١٢-٢١٣).

وفي دائرة المعارف البريطانية اعتراض علىٰ أن يكون المسيح ﷺ قد ولد في شهر ديسمبر؛ استنادا إلىٰ فقرة في إنجيل لوقا، وهي: «وكان في تلك الكورة رعاة متبدين يحرسون حراسات الليل علىٰ رعيتهم، وإذا ملاك الرب وقف بهم، ومجد الرب أضاء حولهم، فخافوا خوفًا عظيمًا». يقول محرر الدائرة: «لا يمكن أن يكون ذلك في شهر ديسمبر؛ لأن هذا الشهر يكثر فيه نزول المطر في أرض فلسطين؛ فلا يتصور وجود رعاة غنم خارج البنيان». ثم يقول عقب ذلك: «ويحتفل العالم المسيحي بعيد الميلاد في =

وَهَذَا الْعِيدُ مِنْ أَقْدَمِ أَعْيَادِهِمْ؛ إِذْ أَحْدَثُوهُ فِي أَوَاسِطِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ مِنَ التَّارِيخِ النَّصْرَانِيِّ الْمِيلَادِيِّ(٥)، وَمِنْ شَعَائِرِهِمْ فِيهِ أَنَّهُمْ يَذْهَبُونَ إِلَىٰ الْكَنَائِسِ، يُقِيمُونَ

= (٢٤-٢٥) ديسمبر من كل عام، علىٰ أن الفلكيين والمؤرخين من رجال العلم والدين علىٰ السواء قد أجمعوا علىٰ أن ٢٥ ديسمبر من السنة الأولىٰ ميلادي ليس التاريخ الحقيقي لميلاد المسيح، لا من حيث السنة ولا من حيث اليوم، وتقع المسئولية في هذا علىٰ هذا الراهب «ديونسيوس أكيسجوس» الذي ارتكب أخطاء عديدة في حساباته، وقد عاش هذا الراهب في رومية، وفي سنة (٥٣٢م) طلب إليه أن يجدد العهد الجديد بالرجوع إلىٰ الوراء، ولكنه نسي في حسابه سنة الصفر بين السنة الأولىٰ قبل الميلاد والسنة الأولىٰ بعد الميلاد التي كان يجب إدخالها في تقديره، كما أنه أغفل الأربع سنوات التي حكم فيها الإمبراطور (أوغسطس) باسمه القديم (أكنا فيرس) انظر: لمحات في التاريخ في الإنجيل (٣٢) لحبيب سعيد، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، القاهرة ١٩٧٤م، وعنه: الأعظمي في دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند (٢٧٥-٢٧٦).

ويذكر حسن نعمة في كتابه الأعياد (٢٧٧): أن أول من احتفل بعيد الميلاد هم مسيحيو مصر، وذلك بدءا من القرن الثالث للميلاد، وكان يتم ذلك في العشرين من آيار من كل عام، ثم نقلته كنيسة الإسكندرية إلىٰ السادس من كانون الثاني، وبعد ذلك دخل العيد إلىٰ روما ثم إلىٰ بقية الكنائس. اهـ.

والنصارىٰ الشرقيون يحتفلون به في السادس من يناير منذ القرن الثاني من التاريخ الميلادي، وذكر ديورانت أن الكنائس الشرقية استمسكت وقتا باليوم السادس من يناير، واتهمت أخواتها الغربية بالوثنية وعبادة الشمس، ولكن لم يكد يختتم القرن الرابع حتىٰ اتخذ اليوم الخامس والعشرون من ديسمبر عيدا للميلاد في الشرق أيضا. قصة الحضارة (١١/ ٢١٢-٢١٣).

وقد عقب محمد بدران محقق هذا الجزء من قصة الحضارة علىٰ كلام ديورانت، فقال: «الذي نعرفه أن الكنائس الشرقية لا تزال تحتفل بعيد الميلاد في اليوم السادس من يناير».

قلت: رأيت هذا العام ١٤٢٨ نصارىٰ فلسطين قد احتفلوا به في يوم الخامس والعشرين من ديسمبر علىٰ وفق ما ذكره ديورانت، ونقلت ذلك الفضائيات بالبث المباشر من (بيت لحم) البلد المزعوم لولادة المسيح ﷺ.

(٥) أول احتفال لهم به كان عام ٣٣٦م، ينظر: الموسوعة العربية العالمية (١٦/ ٧١١)، ومن الموافقات العجيبة: أن مبتدعة النصارىٰ أحدثوا الاحتفال بميلاده ﷺ في القرن الرابع =

الصَّلَاةَ، وَيُرَتِّلُونَ التَّرَانِيمَ، وَيُنْشِدُونَ الْأَنَاشِيدَ، وَيَقْرَءُونَ قِصَّةَ الْمَوْلِدِ مِنْ إِنْجِيلَيْ مَتَّىٰ وَلُوقَا[٦]، وَيَتَبَادَلُونَ الْهَدَايَا وَالتَّهَانِيَ بِهِ، وَخَصُّوا الْأَطْفَالَ بِهَدَايَا الْبَابَا نُويلْ[٧]، وَهُوَ رَاهِبٌ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يَعِيشُ فِي الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ، وَيَحْضُرُ لَيْلَةَ هَذَا الْعِيدِ لِيَضَعَ لُعَبًا لِلْأَطْفَالِ النَّصَارَىٰ وَهُمْ نَائِمُونَ. وَبَعْضُ النَّصَارَىٰ يَحْرِقُ كُتْلَةً مِنْ جِذْعِ شَجَرَةِ عِيدِ مِيلَادِ الْمَسِيحِ، ثُمَّ يَحْتَفِظُونَ بِالْجُزْءِ غَيْرِ الْمَحْرُوقِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ الْحَرْقَ يَجْلِبُ الْحَظَّ.

وَالَّذِي عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ مُؤَرِّخِي النَّصَارَىٰ أَنَّ عِيدَ الْمِيلَادِ عِيدٌ وَثَنِيٌّ أَحْدَثَهُ عُبَّادُ الشَّمْسِ لِمَا يَزْعُمُونَهُ مَوْلِدًا لِلشَّمْسِ الَّتِي لَا تُقْهَرُ[٨]، فَلَمَّا تَنَصَّرَ الرُّومَانُ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ، نَقَلَهُ رُهْبَانُ النَّصَارَىٰ مِنْ كَوْنِهِ عِيدًا لِمَوْلِدِ الشَّمْسِ إِلَىٰ عِيدٍ لِمِيلَادِ الْمَسِيحِ ﷺ؛ مُسَايَرَةً لِلرُّومَانِ الْوَثَنِيِّينَ الَّذِينَ اعْتَنَقُوا النَّصْرَانِيَّةَ الْمُحَرَّفَةَ، وَمُوَافَقَةً لَهُمْ فِي عِيدِهِمْ؛ وَلِذَا جَعَلُوهُ فِي مَوْعِدِهِ.

= الميلادي، وكذلك أحدث بنو عبيد الباطنيين الاحتفال بمولد النبي محمد عليه الصلاة والسلام في القرن الرابع الهجري.

(٦) في دائرة المعارف الكتابية: «نجد قصة ميلاد يسوع مسجلة في إنجيلي متىٰ ولوقا، وواضح أنه كان لكل إنجيل مصادره ...» (٧/ ١٣٣).

(٧) هو راهب له عدة أسماء، منها: البابا نويل، القديس نيكولاس، سانتا كلوز، مار نقولا، الأب ميلاد. وقد عاش في القرن الرابع للميلاد، وكان أسقفا في كنيسة (ميرا) في ليسبا بالأناضول، وقيل: عاش في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي. ينظر: الأعياد، حسن نعمة (٢٨٢).

وللنصارىٰ ولع شديد به في عيد ميلاد المسيح ﷺ في هذا العصر؛ إذ جعلوه رمزا لمحبة الأطفال وتخليصهم من مشاكلهم، وإهدائهم الهدايا، وألفت حوله القصص، ونسجت الأساطير، وصنعت أفلام فيه، وشعاره: اللباس الأحمر، واللحية الكثة البيضاء المستعارة.

(٨) كان الوثنيون يسمونه (عيد إله الشمس: ميثراس) ويسمىٰ إله الخير والضوء عند الرومان. ينظر: الأعياد، حسن نعمة (٢٧٧).

وَشَجَرَةُ الْمِيلَادِ الَّتِي هِيَ مِنْ رُمُوزِ عِيدِهِمْ هَذَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْوَثَنِيِّينَ؛ إِذْ يَعْتَقِدُ الْفَرَاعِنَةُ وَالصِّينِيُّونَ أَنَّ الشَّجَرَةَ رَمْزٌ لِلْحَيَاةِ السَّرْمَدِيَّةِ(٩)، وَأَخَذَهَا عَنْهُمُ الرُّومَانُ الْوَثَنِيُّونَ، فَلَمَّا اعْتَنَقُوا النَّصْرَانِيَّةَ اخْتَرَعَ الرُّهْبَانُ لَهَا أَصْلًا فِي دِينِهِمْ عَلَىٰ عَادَتِهِمْ فِي التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ، وَتَطْوِيعِ الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ لِأَهْوَاءِ النَّاسِ وَمُتَطَلَّبَاتِهِمْ.

أَمَّا عِيدُ رَأْسِ السَّنَةِ الْمِيلَادِيَّةِ؛ فَهُوَ يُوَافِقُ عِيدًا يُسَمَّىٰ عِيدَ «الْبُسْتَرِينَةِ»(١٠) وَهِيَ آلِهَةٌ اتَّخَذَهَا الْيُونَانُ وَالرُّومَانُ الْوَثَنِيُّونَ رَمْزًا لِلْقُوَّةِ، فَلَمَّا اعْتَنَقَ الرُّومَانُ النَّصْرَانِيَّةَ

---

(٩) للوثنيين معتقدات غريبة في الشجرة حتىٰ اتخذوها آلهة تعبد من دون الله تعالىٰ، وجعلوا لها أعيادا، ويرىٰ مانفرد لوكر في معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة: أن المعبودات المختلفة انبثقت من الشجرة (١٦٣) مادة (ش).
وانتقلت عبادة الشجرة من الوثنيين إلىٰ النصارىٰ حتىٰ قال جون كولسي في انتصار الشجرة (١٣٠): «إن الاهتمام الذي يظهره الإنسان نحو الشجرة -شجرة الميلاد- ما هو سوىٰ بقية باقية من عبادة الشجرة» اهـ عن الأعياد، حسن نعمة (٣٧٣).
وينظر تفصيلا أكثر في أصلها الوثني في: «موسوعة أغرب الأعياد» سيد صديق عبد الفتاح (٥٣٨-٥٤٠).
وكان الوثنيون القدماء من الفراعنة وغيرهم في الشرق يحتفلون بشجرة الحياة التي يختارونها من الأشجار الدائمة الخضرة، وسرت هذه العادة من الشرق إلىٰ الغرب، فخرجت من مصر إلىٰ سوريا، ومنها إلىٰ بابل، ثم عبرت البحر الأبيض؛ لتظهر في أعياد الرومان، ثم في أعياد ميلاد المسيح عليه السلام.
وشجرة الكريسمس التي يختارونها من الأشجار التي تحتفظ بخضرتها طوال العام؛ كالسرو، والصنوبر.
فهي في واقع الأمر شجرة الحياة التي كانت عند الوثنيين من قبل، ولكنهم سموها الكريسمس. موسوعة أغرب الأعياد (٥٠٩-٥١٣).

(١٠) الأعياد، حسن نعمة (٢٦٩)، وعيد الختان عند الأقباط في السادس من شهر (طوبة) في التقويم القبطي، ولا زال هذا العيد عند الموارنة في لبنان يسمىٰ عيد (البسترينة) ويذكرون أنها هدية كانت تقدم لآلهة القوة عند قدماء الرومان، فسموها باسمها، وهي كلمة لاتينية من (سترينا) وعنهم أخذها اليونان، وجعلوها للعيد وللهدايا المتبادلة فيه. ينظر: صحيفة المستقبل اللبنانية، عدد (١٤٨٧) ص(٦).

أَقَرَّ الرُّهْبَانُ كَثِيرًا مِنْ شَعَائِرِهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ، وَأَحْدَثُوا لَهَا أُصُولًا دِينِيَّةً عِنْدَهُمْ، فَسَمَّوْا هَذَا الْعِيدَ الْوَثَنِيَّ «عِيدَ الْخِتَانَةِ» وَزَعَمُوا أَنَّ الْمَسِيحَ عليه السلام خُتِنَ فِيهِ(١١).

(١١) المعروف أن النصارىٰ بشتىٰ طوائفهم وكنائسهم لا يختتنون، وهذا ما دعاني لبحث ذلك في كتبهم، فتبين لي ما يلي:

أولًا: الختان ثابت في كتبهم المقدسة، وأناجيلهم المحرفة، وعلىٰ ألسنة رسلهم عليهم السلام، ومن ذلك:

١- عن إبراهيم عليه السلام في سفر التكوين (٢١/ ٤): «وختن إبراهيم إسحاق ابنه».

٢- موسىٰ عليه السلام، جاء في إنجيل يوحنا (٧/ ٢٢): «لهذا أعطاكم موسىٰ الختان».

٣- عيسىٰ عليه السلام: في سفر يشوع (٥/ ٢): «اختن بني إسرائيل ثانية».

٤- آيات عامة: في سفر الرؤيا (٢/ ٥٢): «فإن الختان ينفع إن عملت الذي في الكتاب والختان».

بل جاء في سفر التكوين أن الختان هو عهد الله تعالىٰ إليهم، ففيه: «هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم، وبين نسلك من بعدك: يختن منكم كل ذكر ... فيكون علامة عهد بيني وبينكم، وأما الذكر الأغلف الذي لا يختن في لحم غرته، فتقطع تلك النفس من شعبها أنه قد نكث عهدي». تكوين (١٧/ ٧-١٤) عن دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٢٣٧).

ثانيًا: أن الختان امتد من شريعة إبراهيم عليه السلام إلىٰ موسىٰ فعيسىٰ عليهما السلام، كما هو ظاهر من النصوص السابقة في كتبهم.

واختتان إبراهيم عليه السلام ثابت في شريعتنا؛ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم**» أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] (٣٣٥٦)، ومسلم في الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم (٢٣٧٠)، وقد جاءت آثار في كتب الأوائل أنه عليه السلام كان أول من اختتن.

ثالثًا: أن الذي لا يختتن يعاقب، كما في سفر الخروج «وإذا نزل عندك نزيل وصنع فصحا للرب، فليختتن منه كل ذكر، ثم يتقدم ليصنعه ... أما كل أغلف فلا يأكل منه» (١٢/ ٤٨).

وفي دائرة المعارف الكتابية أن الختان كان علامة مميزة لنسل إبراهيم عليه السلام، وفيها أن أم موسىٰ عليه السلام ختنت ابنها، وأن هذا يدل علىٰ أهمية الختان، بل ذكرت: «ختان الابن كان فيه نجاة موسىٰ» سفر الخروج (٤/ ٢٤-٢٥) عن دائرة المعارف الكتابية (٣/ ٢٣٧).

وفيها أيضًا أن عيسىٰ عليه السلام كان يختن الإسرائيليين بسبب ما كان يمكن حدوثه من اختلاط =

. . . .

= بينهم وبين الشعوب الكنعانية؛ وذلك للاحتفاظ بالعلامة المميزة لعهد إبراهيم ﷺ. دائرة المعارف (٣/ ٢٣٨).

رابعًا: نصت كتبهم علىٰ تحديد اليوم الثامن للمولد موعد الختان، كما في فهرس الكتاب المقدس (١٦٣)، ودائرة المعارف الكتابية (٣/ ٢٣٨)، وقاموس الكتاب المقدس (٣٣٧).

وعندهم أن إبراهيم ﷺ ختن وهو في التاسعة والتسعين، وإسماعيل وهو في الثالثة عشرة، ثم تجددت سنة الختان لموسىٰ ﷺ وفي سفر اللاويين: «قضي بأن لا يأكل من الفصح رجل أغرل».

وأهمل اليهود سنة الختان في سنوات التيه، فلما أراد يوشع بن نون ﷺ دخول الأرض المقدسة بهم أعاد تلك السنة، فختنهم كلهم. سفر يشوع (٥/ ٢-٩).

خامسًا: يجب علىٰ كل غريب يريد الدخول في اليهودية أن يخضع لفرض الختان، مهما كان عمره، كما في سفر التكوين (٣٤/ ١٤-١٧)، وسفر الخروج (١٢/ ٤٨).

سادسًا: لما دخل بعض اليهود في النصرانية بعد بعثة عيسىٰ ﷺ تمسكوا بسنة الختان، معتقدين أنها ضرورية للخلاص، كما في قاموس الكتاب المقدس (٣٣٧).

سابعًا: جاء في إنجيل برنابا، وهو ممن شاهد عيسىٰ ﷺ وأحد حوارييه:

أيها الأعزاء: إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوىٰ التقوىٰ مبشرين بتعليم شديد الكفر داعين المسيح ابن الله ورافضين الختان الذي أمر به الله دائمًا مجوزين كل لحم» اهـ.

إنجيل برنابا ودراسات حول وحدة الدين عند موسىٰ وعيسىٰ ومحمد ﷺ، سيف الله أحمد فاضل، دار القلم، الكويت - ١٤٠٣هـ، ط: الثانية، (ص٣٧).

وفيه أيضًا: وإذا بامرأة من كنعان مع ابنيها قد جاءت من بلادها لترىٰ يسوع فلما رأته آتيا مع تلاميذه صرخت يا يسوع ابن داود، ارحم ابنتي التي يعذبها الشيطان، فلم يجب يسوع بكلمة واحدة؛ لأنهم كانوا من غير أهل الختان فتحنن التلاميذ وقالوا: يا معلم، تحنن عليهم، انظر ما أشد صراخهم وعويلهم فأجاب يسوع: إني لم أرسل إلا إلىٰ شعب إسرائيل، فتقدمت المرأة وابناها إلىٰ يسوع معولة قائلة: يا يسوع بن داود، ارحمني، أجاب يسوع: لا يحسن أن يأخذ الخبز من أيدي الأطفال ويطرح للكلاب، وإنما قال يسوع هذا لنجاستهم؛ لأنهم كانوا من غير أهل الختان. ص ٦٣-٦٤. =

. . . .

= وفيه أيضًا: قال التلاميذ: قل لنا يا معلم لأي سبب يجب علىٰ الإنسان الختان؟ فأجاب يسوع: يكفيكم أن الله أمر به إبراهيم قائلا: يا إبراهيم، اقطع غرلتك وغرلة كل بيتك؛ لأن هذا عهد بيني وبينك إلىٰ الأبد. ص ٦٥.

وفيه أيضا: فتسلسلت سنة الختان من جيل إلىٰ جيل، إلا أنه لم يكن في زمن إبراهيم سوىٰ النزر القليل من المختونين علىٰ الأرض؛ لأن عبادة الأوثان تكاثرت علىٰ الأرض، وعليه فقد أخبر الله إبراهيم بحقيقة الختان، وأثبت هذا العهد قائلا: النفس التي لا تختن جسدها إياها ابدد من بين شعبي إلىٰ الأبد، فارتجف التلاميذ خوفا من كلمات يسوع، لأنه تكلم باحتدام الروح، ثم قال يسوع: دعوا الخوف للذي لم يقطع غرلته؛ لأنه محروم من الفردوس. ص٦٦.

ثامنا: الظاهر أن بولس «شاؤول اليهودي» هو أول من ألغىٰ الختان، في جملة ما ألغاه وحرفه من شرائع موسىٰ وعيسىٰ ﷺ؛ لأن أهل غلاطية كانوا مصرين علىٰ سنة الختان، فكتب إليهم بولس: «ها أنا بولس أقول لكم: إنه إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئًا»، وقال: «لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئًا، ولا الغرلة، بل الخليقة الجديدة» انتهىٰ، من رسائل أهل غلاطية (٥/ ٢-٣) (٦/ ١٥).

وبهذين النصين نعرف أن بولس سعىٰ لإلغاء الختان، والظاهر أنه استبدل به التعميد -وهو الغسل بالماء للتطهير- كما جاء في رسائل كولوسي: إن الرسول -يعني بولس- يعلم بأن للمعمودية في العهد الجديد نفس المكانة التي كانت للختان في العهد القديم» (٢/ ١١-١٢) عن قاموس الكتاب المقدس ص٣٣٨.

ولا يزال اليهود في عصرنا يختتنون في مراسيم وطقوس معينة ومعلوم أن بولس هو من أحدث التثليث في النصرانية، وقد أطبق النصارىٰ عليه مع أن فيه تناقضًا كبيرًا، ولا يمكن فهمه، وفيه تغيير لأهم شيء في معتقد الإنسان وهو الربوبية والألوهية، فمن قدر علىٰ أن يغير أصل العقيدة النصرانية ليس عاجزًا علىٰ تغيير سنة الختان المتوارثة من عهد إبراهيم ﷺ إلىٰ عيسىٰ ﷺ ليجعل التعميد بدلًا عنها.

المراجع:

دائرة المعارف الكتابية، إعداد جماعة بإشراف: وليم وهبة بباوي، دار الثقافة القاهرة، ط٢.

فهرس الكتاب المقدس، د جورج بوست، إصدار مكتبة العائلة، القاهرة، بإشراف رابطة الكنائس الإنجيلية في الشرق الأوسط، مطبعة الحرية، بيروت ٢٠٠١م. =

وَمِنَ اعْتِقَادَاتِ النَّصَارَىٰ فِي هَذَا الْعِيدِ الْوَثَنِيِّ: أَنَّ الَّذِي يَحْتَسِي آخِرَ كَأْسٍ مِنْ قِنِّينَةِ الْخَمْرِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ سَيَكُونُ سَعِيدَ الْحَظِّ، وَإِذَا كَانَ عَازِبًا فَسَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَتَزَوَّجُ مِنْ بَيْنِ رِفَاقِهِ فِي تِلْكَ السَّهْرَةِ، وَمِنَ الشُّؤْمِ دُخُولُ مَنْزِلٍ فِي هَذَا الْعِيدِ دُونَ أَنْ يَحْمِلَ الْمَرْءُ هَدِيَّةً، وَكَنْسُ الْغُبَارِ إِلَىٰ الْخَارِجِ يُكْنَسُ مَعَهُ الْحَظُّ السَّعِيدُ، وَغَسْلُ الثِّيَابِ وَالصُّحُونِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الشُّؤْمِ، وَالْحِرْصُ عَلَىٰ بَقَاءِ النَّارِ مُشْتَعِلَةً طَوَالَ لَيْلَةِ رَأْسِ السَّنَةِ يَحْمِلُ الْحَظَّ السَّعِيدَ . . . إِلَىٰ آخِرِ خُرَافَاتِهِمْ وَمُعْتَقَدَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ فِيهِ(١٢).

= قاموس الكتاب المقدس، دار مكتبة العائلة، القاهرة، بإشراف رابطة الكنائس الإنجيلية في الشرق الأوسط، مطبعة الحرية، بيروت ٢٠٠١م.

(١٢) ينظر: أعياد الكفار وموقف المسلم منها، للمؤلف (٤٣).

ومن عاداتهم في زمننا هذا: إحياء السهرة التي تسبق العيد. وفيها يجتمع الناس سواء في المنازل أو الأندية أو في المقاهي أو الملاهي، ملتفين حول موائد الأطعمة والأشربة، يرقصون ويغنون، حتىٰ إذا انتصف الليل، والتقت العقارب، هتف الساهرون هتاف الابتهاج لانتقالهم من سنة إلىٰ أخرىٰ، وتعانقوا وتبادلوا القبلات والتهاني، فيما يسمع في الخارج قرع الأجراس، ودوي الأسهم النارية المتصاعدة في الأجواء، وزمامير السيارات، وسوىٰ ذلك من مظاهر التعبير عن الفرح، وتتعالىٰ الأصوات بالغناء، وتتوالىٰ حلقات الرقص. ومن عادات رأس العام وتقاليده المقامرة. وكان الرومان يحرمونها طول العام، ويجيزونها في رأس العام. وقد أخذها اللبنانيون عنهم بعد احتلالهم للبلاد. وسبب ذلك اعتقاد موروث، وهو أن اللعب في «صباح الخير» حلال، لكشفه الزهر أو البخت، فيعرف ما سيكون الحظ في السنة المقبلة؛ لذلك دعا بعضهم ليلة رأس السنة «ليلة الفوز»، أي: ليلة فوران المال بالمقامرة. فالرابح في اللعب يعتقد أن سنته الطالعة ستكون سنة خير وبركة، فيما يستعيذ الخاسر من مصاعبها ومكارهها.

ومن أغرب عاداتهم وخرافاتهم أن النساء في بعض القرىٰ اللبنانية عند ذهابهن في رأس العام إلىٰ العين؛ لملء جرارهن، يأخذن معهن حبوبا من الحنطة والحمص والشعير وحلوىٰ من الملبسات والمعجنات، والفاكهة المقددة كالتين المطبع والزبيب، ليقدمنه هدية أو صباحية للعين، وذلك بأن ينثرنه في الماء؛ اعتقادا بأن ذلك يسيغ الماء للشاربين، =

وَكَثِيرٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ مِنْ نَصَارَىٰ الْغَرْبِ يُقِرُّونَ بِالْجُذُورِ الْوَثَنِيَّةِ لِشَعَائِرِهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ وَتَعَبُّدَاتِهِمْ، وَأَلَّفَ مَجْمُوعَةٌ مِنْ بَاحِثِيهِمْ كِتَابًا بِعُنْوَانِ: «الْأُصُولُ الْوَثَنِيَّةُ لِلْمَسِيحِيَّةِ» قَالُوا فِيهِ: «دَارِسُ تَارِيخِ الْأَدْيَانِ الْوَثَنِيَّةِ وَالمَسِيحِيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يُلَاحِظَ أَنَّ الْأَعْيَادَ المَسِيحِيَّةَ قَدْ وُقِّتَتْ بِذَكَاءٍ مِنْ قِبَلِ الْكَنِيسَةِ، وَصَارَ يُحْتَفَلُ بِهَا فِي أَيَّامِ الْأَعْيَادِ الْوَثَنِيَّةِ نَفْسِهَا . . . لَا بُدَّ مِنَ المُلَاحَظَةِ أَنَّ الشُّعُوبَ الْوَثَنِيَّةَ أَحْبَطَتْ جُهُودَ الْكَنِيسَةِ لِانْتِزَاعِ الطَّابَعِ الْوَثَنِيِّ عَنْ بَعْضِ الْأَدْيَانِ، وَجَعَلَتْ ذَلِكَ مُسْتَحِيلًا مِمَّا أَدَّىٰ بِالْكَنِيسَةِ نَفْسِهَا إِلَىٰ أَنْ تَتَبَنَّىٰ التَّقَالِيدَ وَالشَّعَائِرَ الْوَثَنِيَّةَ، وَتَخْلَعَ عَلَيْهَا أَلْقَابًا مَسِيحِيَّةً» اهـ[١٣].

= ويبعد عنه الجان، ومختلف المضار والجراثيم. ومما يقلنه: «يا عين يا عين. الله يرد عنك العين. ويصير مزرابك تنين» ينظر: صحيفة المستقبل اللبنانية ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٣م ص٦.
وهناك لونان أساسيان للاحتفال بعيد الميلاد، هما اللون الأخضر والأحمر، ويمثل اللون الأخضر -حسب معتقدهم- استمرار الحياة خلال الشتاء، والإيمان المسيحي في الحياة الأبدية، واللون الأحمر يرمز إلىٰ دم المسيح. تعالىٰ الله عن إفكهم، والحمد لله الذي عافانا من ضلالهم.

(١٣) الأصول الوثنية للمسيحية، تأليف: أندريه نايتون، وإدغارونيد، وكارل غوستاف يونغ، ترجمة: سميرة عزمي الزين (٥١).
يقول إلياس عودة، وهو من نصارىٰ لبنان الأرثوذكس: «كثيرون يناقشوننا في تاريخ الميلاد، ونحن لا نتردد في الإجابة: إن التاريخ الذي نعيد فيه لذكرىٰ ميلاد المسيح ليس تاريخ ميلاده، الوثنيون كانوا يعيدون للشمس في ٢٥/ كانون الأول، وكانت احتفالاتهم تجري في الفحش، وفي ما لا ترضىٰ عنه النفس المؤمنة ... خوفي أن تكون الاحتفالات الوثنية بميلاد الشمس قد انتقلت إلىٰ رأس السنة، وعوض أن تجتمع العائلة وتصلي بخشوع سائلة الرب أن يغفر لها ما اقترفته في السنة المنصرمة، وأن يبارك سنتها المقبلة، يمضي أفرادها سهرتهم بالسكر والعربدة والقمار والتنجيم، واصلين الليل بالنهار، والله غائب عن قلوبهم وحياتهم ..» جريدة النهار، ٢/ كانون الثاني ١٩٩٦م، عن الأعياد، حسن نعمة (٢٧٦).

وَلِلاحْتِفَالِ بِهَذَيْنِ الْعِيدَيْنِ فِي هَذَا الزَّمَنِ شَأْنٌ عَظِيمٌ عِنْدَ الْأُمَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَانْتَقَلَ إِلَىٰ الْأُمَمِ الْأُخْرَىٰ بِسَبَبِ التَّقْلِيدِ وَالمُحَاكَاةِ، وَالتَّزْيِينِ الْإِعْلَامِيِّ لَهُمَا، وَلَاسِيَّمَا عِيدُ رَأْسِ السَّنَةِ الْمِيلَادِيَّةِ الَّتِي تَكَادُ مَظَاهِرُ الِاحْتِفَالِ بِهِ تَشْمَلُ الْأَرْضَ كُلَّهَا بِسَبَبِ اعْتِمَادِ التَّارِيخِ الْمِيلَادِيِّ تَقْوِيمًا لِأَكْثَرِ دُوَلِ الْعَالَمِ، حَتَّىٰ إِنَّ المُسْلِمِينَ فِي أَكْثَرِ دُوَلِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ يَحْفَظُونَ التَّارِيخَ الْمِيلَادِيَّ النَّصْرَانِيَّ، وَلَا يَحْفَظُونَ التَّارِيخَ الْهِجْرِيَّ الْإِسْلَامِيَّ الَّذِي أَجْمَعَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ.

وَأَضْحَىٰ الِاحْتِفَالُ بِرَأْسِ السَّنَةِ الْمِيلَادِيَّةِ يَتَصَدَّرُ نَشَرَاتِ الْأَخْبَارِ، وَالصَّفَحَاتِ الْأَوْلَىٰ مِنَ الصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ، وَتُنْقَلُ بِالْبَثِّ المُبَاشِرِ فِي شَتَّىٰ بِقَاعِ الْعَالَمِ احْتِفَالَاتُ لَحْظَةِ انْتِهَاءِ الْعَامِ الْمِيلَادِيِّ مِنْ مُنْتَصَفِ آخِرِ لَيْلَةٍ مِنْهُ، وَمَا يُصَاحِبُهَا مِنْ أَنْوَاعِ المُحَرَّمَاتِ وَالمُوبِقَاتِ.

وَيُنْفَقُ عَلَىٰ هَذَا الْعِيدِ وَشِعَارَاتِهِ وَاحْتِفَالَاتِهِ مِنَ النَّفَقَاتِ مَا يَكْفِي لِإِطْعَامِ مَلَايِينِ الْجَائِعِينَ، وَإِيوَاءِ مِئَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ اللَّاجِئِينَ وَالمُشَرَّدِينَ، وَمُعَالَجَةِ المَرْضَىٰ، وَتَعْلِيمِ الْأُمِّيِّينَ، وَفِي إِحْصَاءٍ قَبْلَ سِتِّ سَنَوَاتٍ لِلدَّوْلَةِ النَّصْرَانِيَّةِ الْأُولَىٰ فِي الْعَالَمِ بَلَغَتْ نَفَقَاتُ هَذَيْنِ الْعِيدَيْنِ فِيهَا خَمْسِينَ مِلْيَارَ دُولَارٍ!![١٤]

---

(١٤) هذا في أمريكا وحدها حسب ما نشر في الصحف. ومن العجيب أنه في أمريكا تشمل الاحتفالات بعيد رأس السنة القطط والكلاب . وقد ذكر بوب فيتيري رئيس الجمعية المهنية لصانعي المنتجات المخصصة للحيوانات في أمريكا أنه مع حساب الوجبات الخفيفة والحلوىٰ بلغت نفقات الأعياد المخصصة للحيوانات العام الماضي بين عيد «الهلويين» وعيد الميلاد ثلاثة مليارات دولار لفترة شهرين فقط!! وقال: إن الناس ينظمون لحيواناتهم احتفالات أعياد ميلادها وسهرات لمناسبة عيد الميلاد وعيد الأنوار اليهودي. وأفاد استطلاع للرأي نشر مؤخرا أن ٩٠% من الأميركيين الذين يملكون حيوانات يعتبرون قططهم أو كلابهم فردا من أفراد العائلة و٦٥% منهم يشترون لها هدية في عيد الميلاد. =

. . . .

= وهناك أكثر من ٧١ مليون أسرة في الولايات المتحدة يملكون حيوانًا أليفًا.
وقالت ساره شويمر مؤسسة موقع إلكتروني يبيع إكسسوارات يهودية للبشر والحيوانات لوكالة فرانس برس: كثير من الناس يعتبرون حيواناتهم جزءا من العائلة، ومن الطبيعي أن تشملهم الاحتفالات بأعياد آخر السنة، وفي هذه العقلية نقدم تشكيلة كبيرة متنوعة من السلع؛ فالقلنسوة المخصصة للكلاب مثلا تباع كالخبز!!
وأكد تامي زايكي الذي يصنع عدة الرسم علىٰ العشب للفنانين من الكلاب: إن المبيعات ترتفع كثيرا مع موسم الأعياد.
وذكر فيتيري: أن الحيوانات تشكل محط انتباه كبير؛ لأن أصحابها يشبهونها بالإنسان، وتلعب دورا مهما في حياتهم الخاصة. وساق مثالا علىٰ ذلك: أن هناك أزواجا يتبنون حيوانا ليعوضوا الفراغ الذي تركه الأولاد، أو في حال الشبان الذين يفضلون في البداية رفقة الحيوان عن تأسيس عائلة. وخلص فيتيري إلىٰ القول: «إن الحيوان الأليف هو ذلك الذي تستطيعون أن تشكوا له همومكم بعد يوم عمل مضن: فهو يجلس معكم ويحرك ذنبه فرحا».
وبات لهذه الحيوانات المحبوبة مصممون كبار، ومزينو شعر مشهورون، ومخازن كبرىٰ تهتم باكسسواراتها، كما أطلق جون بول ديجوريا مؤسس علامة «بول ميتشل» لمنتجات الشعر، تشكيلة من مستحضرات التجميل الخاصة بالحيوانات «جون بول بيت». وأثناء احتفال عشية الميلاد في محل (بلومينغديل) الشهير نظم في واشنطن لمصلحة إحدىٰ جمعيات الدفاع عن الحيوانات أتيح للكلاب الخيار التقاط صورة لها مع بابا نويل أو مع رجل الثلج، كما كان بإمكان الكلاب تجربة نماذج عطور خاصة بها «باو فيوم» من تصميم جوسي كوتور المتفرعة عن ماركة مصصمة الأزياء الأميركية المعروفة ليز كليربورن، أو تجربة سترات من الفرو الاصطناعي من إنتاج المصممة نفسها بسعر ٧٠ دولارًا!!
ولاستقبال السنة الجديدة كان بإمكان الكلاب الحصول علىٰ زجاجة لعبة «دوغ برينيون» بسعر ١٥ دولارًا!!
وفي مصر البلد المسلم تبلغ نفقات هذا العيد الوثني النصراني أكثر من خمسة عشر مليار جنيه مصري، ويصل سعر شجرة الكريسمس إلىٰ (٥٠٠ جنيه)، وبابا نويل إلىٰ (٧٠٠ جنيه)، وللأسف؛ فإن كثيرا من المسلمين قد اندمجوا في مصر والشام ودول المغرب العربي مع النصارىٰ في الاحتفال بهذين العيدين الوثنيين النصرانيين، والباعة المسلمون صاروا يتاجرون بأدوات هذا العيد وشعائره.

فَكَيْفَ بِبَقِيَّةِ دُوَلِ أُورُبَّا وَالْعَالَمِ أَجْمَع؟!

وَكُلُّهَا نَفَقَاتٌ غَيْرُ مَخْلُوفَةٍ، وَلَا أَجْرَ لِأَصْحَابِهَا فِيهَا؛ لِأَنَّهَا عَلَىٰ أَعْيَادٍ وَثَنِيَّةٍ أَدْخَلَهَا الرُّهْبَانُ فِي دِينِ النَّصَارَىٰ، لَا يُحِبُّهَا اللهُ تَعَالَىٰ وَلَا يَرْضَاهَا، وَمَنْ شَارَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا بِاحْتِفَالٍ أَوْ حُضُورٍ أَوْ إِهْدَاءٍ أَوْ تَهْنِئَةٍ، أَوْ أَظْهَرَ شَيْئًا مِنَ الْفَرَحِ بِهَا فَلْيَعْلَمْ أَنَّ فِي ذَلِكَ إِقْرَارًا لِشَعَائِرَ لَا يَرْضَاهَا اللهُ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ، وَلَا يُحِبُّهَا مِنْهُمْ، وَلَا تَزِيدُ أَصْحَابَهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَّا بُعْدًا، وَتَسْتَوْجِبُ سَخَطَهُ ﷻ وَنِقْمَتَهُ، وَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ شَرَعَ لَنَا مِنَ الْأَعْيَادِ وَالشَّعَائِرِ الَّتِي تُقَرِّبُنَا إِلَيْهِ وَيَرْضَىٰ بِهَا عَنَّا مَا يُغْنِينَا عَنْ تَقْلِيدِ الْأُمَمِ الضَّالَّةِ فِي أَعْيَادِهَا الْوَثَنِيَّةِ الْمُحْدَثَةِ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الْجَاثِيَة: ١٨-١٩].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُثَبِّتَنَا وَالْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا التَّمَسُّكَ بِأَهْدَابِ الدِّينِ الْحَنِيفِ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا صِرَاطَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

❁ ❁ ❁

= والأدهىٰ من ذلك والأمر أن مظاهر هذين العيدين وشعائرهما يزدادان ظهورا في الخليج العربي الذي ليس من مواطنيه نصارىٰ، ولكنه التقليد الأعمىٰ.

وأضحىٰ الفسقة من المغنيين والمغنيات يحيون ليالي هذين العيدين الوثنيين في فنادق مصر ولبنان وسورية وبعض دول الخليج وغيرها، وكثير من أبناء دول الخليج يسافرون إلىٰ حيث الاحتفال بهذه الأعياد؛ لحضور ما فيها من شهوات محرمة، حتىٰ برزت دعوات بأن تتبنىٰ دول الخليج الاحتفال بهذه الأعياد؛ لئلا يذهب الخليجيون إلىٰ الخارج لحضور الاحتفال بها؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا أَمَرَ، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ وَآلَائِهِ؛ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي هَذَا الزَّمَنِ عَمَّتِ الْبَلْوَىٰ بِالْأَعْيَادِ الْوَثَنِيَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَصَارَ الِاحْتِفَالُ بِهَا ظَاهِرًا مُعْلَنًا، وَتَسَاهَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي حُضُورِهَا وَالْمُشَارَكَةِ فِيهَا، وَالْإِعَانَةِ عَلَيْهَا، وَالتَّهَادِي بِمُنَاسَبَتِهَا، وَالتَّهَانِي بِهَا، وَهَذَا مِنَ التَّسَاهُلِ فِي شَعَائِرِ الْكُفْرِ الظَّاهِرَةِ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَسْتَهِينَ بِذَلِكَ.

وَوَاجِبٌ عَلَىٰ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَيُعَظِّمُ شَرِيعَتَهُ أَنْ يَجْتَنِبَ حُضُورَهَا أَوِ الْمُشَارَكَةَ فِيهَا، أَوِ الْإِعَانَةَ عَلَيْهَا بِبَيْعِ أَدَوَاتِ الْعِيدِ وَشَعَائِرِهِ وَرُمُوزِهِ، أَوْ إِعَارَتِهَا أَوْ إِجَارَتِهَا أَوْ هِبَتِهَا، أَوِ التَّهَادِي بِمُنَاسَبَتِهَا، أَوْ قَبُولِ هَدَايَاهَا، أَوْ تَهْنِئَةِ الْغَيْرِ بِهَا، أَوِ الرَّدِّ عَلَىٰ تَهْنِئَتِهِمْ بِمِثْلِهَا، بَلِ الْوَاجِبُ رَحْمَتُهُمْ إِذْ ضَلُّوا عَنِ الْهُدَىٰ، وَتَمَنِّي الْهِدَايَةِ لَهُمْ، وَحَمْدُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نِعْمَتِهِ.

وَقَدْ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ وَالْأَئِمَّةُ بَعْدَهُمْ عَلَىٰ إِنْكَارِ أَعْيَادِ الْكُفَّارِ(١٥)؛ فَإِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا فِي الْمَدِينَةِ وَخَيْبَرَ وَمَا نُقِلَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم مُشَارَكَتُهُمْ فِي أَعْيَادِهِمْ، أَوْ حُضُورُهَا، أَوْ إِعَانَتُهُمْ عَلَيْهَا، أَوِ التَّهَادِي بِمُنَاسَبَتِهَا، أَوْ تَهْنِئَتُهُمْ بِهَا.

---

(١٥) ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٥٢٤)، وأحكام أهل الذمة (٢/ ٧٢٢-٧٥٢).

وَلَمَّا فُتِحَتْ كَثِيرٌ مِنْ بُلْدَانِ النَّصَارَىٰ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ وَغَيْرِهَا -وَكَانَ فِيهَا نَصَارَىٰ بَقُوا عَلَىٰ دِينِهِمْ وَدَخَلُوا فِي ذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْجِزْيَةِ- لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ التَّابِعِينَ مُشَارَكَتُهُمُ النَّصَارَىٰ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ إِنَّ عُمَرَ رضي الله عنه لَمَّا صَالَحَ نَصَارَىٰ الشَّامِ، وَكَتَبَ شُرُوطَهُ عَلَيْهِمْ كَانَ مِنْهَا أَلَّا يُظْهِرُوا الِاحْتِفَالَ بِأَعْيَادِهِمْ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ[١٦]، وَأَجْمَعَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم عَلَىٰ هَذِهِ الشُّرُوطِ[١٧]، وَلَوْ سَاغَ مُشَارَكَتُهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَوْ تَهْنِئَتُهُمْ بِهَا لَمَا مَنَعَهُمْ مِنْ إِظْهَارِهَا.

وَكُلُّ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي النَّهْيِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالْكُفَّارِ تَتَنَاوَلُ النَّهْيَ عَنِ التَّشَبُّهِ بِهِمْ فِي أَعْيَادِهِمْ أَوْ مُشَارَكَتِهِمْ فِيهَا، نَحْوُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الْحَدِيد: ١٦]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[١٨].

وَقَدِ اتَّفَقَ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ عَلَىٰ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم

---

(١٦) أخرج حديث الشروط العمرية من حديث عبد الرحمن بن غنم: ابن زبر الربعي في جزء في شروط النصارىٰ: ٢٢، وابن الأعرابي في معجمه (١/ ٣٥٨)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٩/ ٢٠٢)، وابن عساكر في تاريخه (٢/ ١٧٤).

(١٧) نقل الإجماع عليها عدد من العلماء، منهم: ابن حزم في مراتب الإجماع (١١٥)، والطرطوشي في سراج الملوك (١٣٨)، وابن تيمية في الفتاوىٰ (٢٨/ ٦٥٤)، والصارم المسلول (٢/ ٣٩٤)، وابن القيم في أحكام أهل الذمة (٣/ ١١٦٤-١١٦٥)، وتقي الدين السبكي في فتاويه (٢/ ٣٩٩)، ومجير الدين الحنبلي في الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (١/ ٢٥٥)، والونشريسي المالكي في البيان المغرب (٢/ ٢٣٨).

(١٨) أخرجه أبو داود في اللباس، باب لبس الشهرة (٤٠٣١)، وأحمد (٢/ ٥٠)، وعبد بن حميد (٨٤٨)، وتمام الرازي (٧٧٠)، والطحاوي في شرح المشكل (٤٠٣١)، والطبراني في مسند الشاميين (٢١٦)، وجود إسناده ابن تيمية في الاقتضاء (١/ ٢٤٠)، وقال الذهبي في السير: إسناده صالح (١٥/ ٥٠٩)، وحسنه الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٧١)، والسيوطي في الجامع الصغير (٥١٤٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٢٥).

مِنْ وُجُوبِ اجْتِنَابِ الْكُفَّارِ فِي أَعْيَادِهِمْ(١٩).

وَقَدْ يَعْجَبُ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ هَذَا التَّشْدِيدِ فِي أَعْيَادِ الْكُفَّارِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِعَجِيبٍ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَيَعْلَمُ أَنَّ حِمَايَتَهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَنْعِ شَعَائِرِ الْآخَرِينَ مِنَ الدُّخُولِ فِيهَا؛ وَذَلِكَ بِتَحْرِيمِ التَّشَبُّهِ بِالْكُفَّارِ، وَمَنْعِ الِابْتِدَاعِ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَيَبْقَىٰ الدِّينُ عَلَىٰ صَفَائِهِ وَنَقَائِهِ، لَا يَدْخُلُ فِي شَرِيعَتِهِ مَا لَيْسَ مِنْهَا، وَلَا يَخْرُجُ عَنْهَا مَا هُوَ مِنْهَا، وَهَذَا هُوَ حِفْظُ الدِّينِ الَّذِي تَكَفَّلَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ قَدَرًا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الْحِجْر: ٩]، وَجَعَلَ مِنَ الْأَسْبَابِ الشَّرْعِيَّةِ لِذَلِكَ: المَنْعَ مِنَ التَّشَبُّهِ وَالِابْتِدَاعِ.

وَقَدْ عَلِمْنَا آنِفًا كَيْفَ أَنَّ الشَّعَائِرَ وَالْأَعْيَادَ الْوَثَنِيَّةَ الْيُونَانِيَّةَ وَالرُّومَانِيَّةَ أُدْخِلَتْ فِي دِينِ النَّصَارَىٰ، وَابْتَدَعَ الرُّهْبَانُ فِيهِ مَا ابْتَدَعُوا، فَكَانَ دِينُهُمْ بَعِيدًا عَنْ شَرِيعَةِ عِيسَىٰ عليه السلام بِسَبَبِ التَّشَبُّهِ وَالِابْتِدَاعِ.

وَأَمَّا المَنْعُ مِنْ تَهْنِئَتِهِمْ بِأَعْيَادِهِمْ؛ فَلِأَنَّ أَعْيَادَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِهِمْ سَوَاءً كَانَتْ مُبْتَدَعَةً أَمْ مُحَرَّفَةً، وَالصَّحِيحُ مِنْهَا -إِنْ كَانَ مَوْجُودًا- مَنْسُوخٌ بِأَعْيَادِنَا، فَأَعْيَادُهُمْ مِنْ دِينِ الشَّيْطَانِ الَّذِي لَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَلَا يَرْضَاهُ لِعِبَادِهِ دِينًا وَلَا عِيدًا، وَالْوَاجِبُ عَلَىٰ المُسْلِمِ إِنْكَارُ ذَلِكَ، وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْكَارِ فِي شَيْءٍ التَّهْنِئَةُ بِهَا؛ بَلْ هِيَ مُشْعِرَةٌ بِقَبُولِهَا وَالرِّضَا بِهَا.

وَلَوْ أَنَّ وَثَنِيًّا سَجَدَ لِصَنَمٍ، أَوْ نَصْرَانِيًّا سَجَدَ لِقِسِّيسٍ أَوْ صَلِيبٍ فَهَنَّأَهُ مُسْلِمٌ عَلَىٰ سُجُودِهِ لَاسْتَعْظَمَ النَّاسُ مِنْهُ ذَلِكَ؛ لِمَا فِي تَهْنِئَتِهِ مِنْ إِقْرَارِ السُّجُودِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَيَرَوْنَ أَنَّ الْوَاجِبَ الْإِنْكَارُ عَلَيْهِ وَدَعْوَتُهُ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ يَعْجَبُونَ مِنْ تَحْرِيمِ تَهْنِئَةِ الْكُفَّارِ بِأَعْيَادِهِمْ، وَأَعْيَادُهُمْ مِنْ أَظْهَرِ شَعَائِرِهِمْ وَأَبْيَنِهَا؟!

---

(١٩) ينظر: الاقتضاء (٢/ ٥٢٤)، وأحكام أهل الذمة (٣/ ١٢٤٥).

وَأَيْنَ التَّهْنِئَةُ بِشَعِيرَةٍ فَرْدِيَّةٍ خَاصَّةٍ سَجَدَ صَاحِبُهَا لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ التَّهْنِئَةِ بِشَعَائِرَ ظَاهِرَةٍ مُعْلَنَةٍ هِيَ مِنْ صَمِيمِ الْوَثَنِيَّةِ الَّتِي أُدْخِلَتْ عَلَىٰ النَّصْرَانِيَّةِ المُحَرَّفَةِ؟!

وَلَكِنَّ النَّاسَ يَسْتَعْظِمُونَ السُّجُودَ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِقِلَّةِ مُشَاهَدَتِهِمْ لَهُ، وَلَا يَسْتَعْظِمُونَ شَعَائِرَ الْكُفْرِ الظَّاهِرَةَ المُعْلَنَةَ الَّتِي مِنْهَا الْأَعْيَادُ وَمَظَاهِرُهَا وَهِيَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ لِإِلْفِهِمْ لَهَا، وَكَثْرَةِ الْوَاقِعِينَ مِنْهُمْ فِيهَا، وَقَدْ قِيلَ: كَثْرَةُ الْإِمْسَاسِ تُقَلِّلُ الإِحْسَاسَ.

وَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ أَمَرَنَا بِتَعْظِيمِ شَعَائِرِهِ، وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ التَّقْوَىٰ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] وَلَيْسَ مِنْ تَعْظِيمِ شَعَائِرِ الله تَعَالَىٰ الِاسْتِهَانَةُ بِشَعَائِرِ الْكُفْرِ الَّتِي مِنْ أَظْهَرِهَا وَأَعْظَمِهَا الْأَعْيَادُ، فَمَنْ عَظَّمَ شَعَائِرَ اللَّهِ تَعَالَىٰ قَامَ فِي قَلْبِهِ إِنْكَارُ شَعَائِرِ الْكُفْرِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَلَا يُدَاهِنُ وَلَا يُجَامِلُ أَحَدًا فِيهَا، وَلَوْ كَثُرَ الزَّائِغُونَ، وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ المُطَبِّلِينَ لَهَا، المُحْتَفِينَ بِهَا؛ فَإِنَّ أَهْلَ الضَّلَالِ أَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ، وَأَصْحَابَ النَّارِ أَكْثَرُ مِنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فَاحْذَرُوا -عِبَادَ اللَّهِ- مُشَارَكَةَ الْأُمَّةِ الضَّالَّةِ فِي أَعْيَادِهَا وَشَعَائِرِهَا، أَوْ إِعَانَتَهُمْ عَلَيْهَا، أَوِ التَّهَادِيَ بِمُنَاسَبَتِهَا، أَوْ تَهْنِئَةَ أَحَدٍ بِهَا؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ رِضًا بِشَعَائِرِ الْكُفْرِ وَمَنَاسِكِهِ، وَالمُؤْمِنُ لَا يَرْضَىٰ أَنْ يُكْفَرَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ شَيْئًا، بَلْ يُنْكِرُ ذَلِكَ وَيَأْبَاهُ، وَيُحَذِّرُ النَّاسَ مِنْهُ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْحَقِّ الَّذِي هَدَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ، وَهَذَا مِنَ الِاعْتِزَازِ بِالْإِسْلَامِ وَالْفَخْرِ بِهِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...

٢١٨- يوم عاشوراء

٧/ ١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ أُصُولِ إِقَامَةِ النِّظَامِ الْبَشَرِيِّ، وَدَفْعِ الْفَوْضَىٰ عَنْ أَحْوَالِهِمْ؛ ضَبْطُ مَوَاقِيتِهِمْ، وَمِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ بَنِي آدَمَ لَمَّا وَهَبَهُمُ الْعُقُولَ، أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هَدَاهُمْ إِلَىٰ الْمَوَاقِيتِ، وَأَلْهَمَهُمُ الِاسْتِفَادَةَ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الِاسْتِنَادَ فِي ضَبْطِ الْمَوَاقِيتِ إِلَىٰ الْآيَاتِ السَّمَاوِيَّةِ أَضْبَطُ وَأَبْعَدُ عَنِ الْخَطَإِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَتَنَاوَلُهَا أَيْدِي النَّاسِ بِالتَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ[1].

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٠/ ١٨٠-١٨١).

لَقَدْ خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ، وَعَلَّمَهُمْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ؛ فَانْتَظَمَتْ حَيَاتُهُمْ، وَصَلَحَتْ أَحْوَالُهمْ، وَطَابَ عَيْشُهُمْ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْبَشَرَ، وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَخَلَقَ الزَّمَانَ، وَفَضَّلَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ، وَفَضَّلَ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ.

وَأَفْضَلِيَّةُ الْبَشَرِ تكُونُ بِأَعْمَالِهِمْ، وَتكُونُ مَنَازِلُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ بِحَسَبِ عِبَادَتِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ، وَأَمَّا أَفْضَلِيَّةُ المَكَانِ وَالزَّمَانِ فَبِحَسَبِ مَا يَقَعُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

اخْتَارَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ السَّنَةِ أَشْهُرًا حُرُمًا؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وَمِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ: شَهْرُ اللَّهِ المُحَرَّمُ .. أَوَّلُ شَهْرٍ فِي السَّنَةِ، وَكَانَ شَهْرًا مُحَرَّمًا بَعْدَ شَهْرِ الْحَجِّ؛ لِيَأْمَنَ الْحُجَّاجُ فِي سَفَرِهِمْ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ، وَسُمِّيَ مُحَرَّمًا تَأْكِيدًا لِتَحْرِيمِهِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَتَقَلَّبُ فِيهِ، فَتُحِلُّهُ عَامًا وَتُحَرِّمُهُ عَامًا[٢].

وَلَهُ مَزِيَّةٌ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنَ الْأَشْهُرِ، وَهِيَ أَفْضَلِيَّةُ الصِّيَامِ فِيهِ؛ كَمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ شَهْرِ رَمَضَانَ: شَهْرُ الله الَّذِي تَدْعُونَهُ الْمُحَرَّمَ . . .**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٣].

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥٣).

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٣٤٤)، ومسلم في الصيام، باب فضل صوم المحرم (١١٦٣)، وأبو داود في الصوم، باب في صوم المحرم (٢٤٢٩)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في صوم المحرم، وقال: حديث حسن (٧٤٠)، والنسائي في قيام الليل، باب فضل صلاة الليل (٣/ ٢٠٦)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام أشهر الحرم (١٧٤٢)، والدارمي (١٧٥٨)، وعبد بن حميد (١٤٢٣)، وابن خزيمة (٢٠٧٦).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «هَذَا إِنَّمَا كَانَ -وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ- مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْمُحَرَّمَ أَوَّلُ السَّنَةِ الْمُسْتَأْنَفَةِ الَّتِي لَمْ يَجِئْ بَعْدُ رَمَضَانُهَا، فَكَانَ اسْتِفْتَاحُهَا بِالصَّوْمِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، وَالَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ ﷺ بِأَنَّهُ ضِيَاءٌ، فَإِذَا اسْتَفْتَحَ سَنَتَهُ بِالضِّيَاءِ مَشَىٰ فِيهِ بَقِيَّتَهَا»(٤) اهـ.

وَقَدْ سَمَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ الْمُحَرَّمَ: شَهْرَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَإِضَافَتُهُ إِلَىٰ اللَّهِ سُبْحَانَهُ تَدُلُّ عَلَىٰ شَرَفِهِ وَفَضْلِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَا يُضِيفُ إِلَيْهِ إِلَّا خَوَاصَّ مَخْلُوقَاتِهِ .. وَلَمَّا كَانَ هَذَا الشَّهْرُ الْمُحَرَّمُ مُخْتَصًّا بِإِضَافَتِهِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَكَانَ الصِّيَامُ مِنْ بَيْنِ الْأَعْمَالِ مُضَافًا إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّهُ لَهُ مِنْ بَيْنِ الْأَعْمَالِ؛ نَاسَبَ أَنْ يَخْتَصَّ هَذَا الشَّهْرُ الْمُضَافُ إِلَىٰ اللَّهِ بِالْعَمَلِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ الْمُخْتَصِّ بِهِ وَهُوَ الصَّوْمُ(٥).

فَأَفْضَلُ زَمَانٍ يَتَطَوَّعُ فِيهِ مُتَطَوِّعٌ بِصَوْمٍ مُطْلَقٍ هُوَ هَذَا الشَّهْرُ الْمُحَرَّمُ، كَمَا هُوَ نَصُّ الْحَدِيثِ(٦).

وَالْيَوْمُ الْعَاشِرُ مِنْ مُحَرَّمٍ يَوْمٌ عَظِيمٌ؛ نَجَّىٰ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ مُوسَىٰ ؑ، وَأَغْرَقَ عَدُوَّهُ فِرْعَوْنَ، فَكَانَ أَتْبَاعُ مُوسَىٰ ؑ يَصُومُونَهُ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، ثُمَّ تَوَارَثَ ذَلِكَ الْيَهُودُ أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ، وَبَقِيَ صِيَامُهُ مِنْ شَعَائِرِ دِينِهِمُ الَّتِي مَا طَالَتْهَا أَيْدِي التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ إِلَىٰ زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَصَامَهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَكَّةَ، فَصَامَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي مَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ؓ قَالَتْ: «كَانَ يَوْمُ

---

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ٢٣٥).

(٥) لطائف المعارف، لابن رجب (٨١-٨٢).

(٦) قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ- في لطائف المعارف (٧٨): «فأما التطوع المطلق فأفضله: صيام الأشهر الحرم ... وأفضل صيام الأشهر الحرم: صيام شهر الله المحرم» اهـ.

عَاشُورَاءَ تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُهُ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

ثُمَّ لمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ المَدِينَةِ رَأَىٰ الْيَهُودَ يُعَظِّمُونَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَيَتَّخِذُونَهُ عِيدًا، وَيَصُومُونَهُ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ فِيهِ شَيْءٌ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ فَرَأَىٰ الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا؟**» قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّىٰ اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَىٰ، قَالَ: «**أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَىٰ مِنْكُمْ، فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٨).

وَفِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ كَانَ صِيَامُ عَاشُورَاءَ فَرِيضَةً، بِدَلِيلِ حَدِيثِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ رضي الله عنها قَالَتْ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ عَاشُورَاءَ إِلَىٰ قُرَىٰ الْأَنْصَارِ الَّتِي حَوْلَ المَدِينَةِ: «**مَنْ كَانَ أَصْبَحَ صَائِمًا، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ، وَمَنْ كَانَ أَصْبَحَ مُفْطِرًا، فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ**» فَكُنَّا بَعْدَ ذَلِكَ نَصُومُهُ، وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا الصِّغَارَ مِنْهُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَنَذْهَبُ إِلَىٰ المَسْجِدِ، فَنَجْعَلُ لَهُمُ اللُّعْبَةَ مِنَ الْعِهْنِ، فَإِذَا بَكَىٰ أَحَدُهُمْ عَلَىٰ الطَّعَامِ أَعْطَيْنَاهَا إِيَّاهُ عِنْدَ الْإِفْطَارِ. وَفِي رِوَايَةٍ: فَإِذَا سَأَلُونَا الطَّعَامَ، أَعْطَيْنَاهُمُ اللُّعْبَةَ تُلْهِيهِمْ حَتَّىٰ يُتِمُّوا صَوْمَهُمْ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ(٩).

---

(٧) أخرجه مالك (١/ ٢٩٩)، وأحمد (٦/ ١٦٢)، وعبد الرزاق (٧٨٤٤)، والبخاري في مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية (٣٨٣١)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٢٥).

(٨) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٦)، والبخاري في الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (٢٠٠٤)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠).

(٩) أخرجه أحمد (٦/ ٣٥٩)، والبخاري في الصيام، باب صوم الصبيان (١٩٦٠)، ومسلم في الصيام، باب من أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه (١١٣٦).

وَفِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ فَرَضَ اللهُ تَعَالَىٰ صَوْمَ رَمَضَانَ، وَزَالَتْ فَرْضِيَّةُ صَوْمِ عَاشُورَاءَ، فَلَمْ يَأْمُرِ النَّبِيُّ ﷺ الصَّحَابَةَ بَعْدَ فَرْضِ رَمضَانَ بِصِيَامِ عَاشُورَاءَ، وَإِنَّمَا خَيَّرَهُمْ فِي ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «صَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَاشُورَاءَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ تُرِكَ»، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَصُومُونَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَامَهُ وَالمُسْلِمُونَ قَبْلَ أَنْ يُفْتَرَضَ رَمَضَانُ، فَلَمَّا افْتُرِضَ رَمَضَانُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ عَاشُورَاءَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَمَنْ شَاءَ صَامَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ**»[١٠].

وَعَلَىٰ هَذَا فَإِنَّ الرَّسُولَ ﷺ وَالصَّحَابَةَ رضي الله عنهم صَامُوا عَاشُورَاءَ فَرْضًا سَنَةً وَاحِدَةً، هِيَ السَّنَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ الْهِجْرَةِ؛ لِأَنَّ فَرْضَ صِيَامِ عَاشُورَاءَ كَانَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ إِلَىٰ المَدِينَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ هَاجَرَ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ، فَلَمْ يُفْرَضْ عَلَيْهِمْ فِي الْعَامِ الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّهُ فَاتَ وَقْتُهُ، وَفِي الْعَامِ الثَّانِي صَامُوهُ فَرْضًا، ثُمَّ فُرِضَ رَمَضَانُ فِي الْعَامِ الثَّانِي، فَصَامُوا عَاشُورَاءَ فَرْضًا وَرَمَضَانَ فَرْضًا، ثُمَّ فِي الْأَعْوَامِ الَّتِي تَلِيهِ لَمْ يَصُومُوا عَاشُورَاءَ فَرْضًا، وَصَامُوا رَمَضَانَ فَرْضًا.

وَبَعْدَ أَنْ أَكْمَلَ اللهُ تَعَالَىٰ الدِّينَ، وَأَتَمَّ النِّعْمَةَ، وَتَنَزَّلَتِ الشَّرِيعَةُ، وَاسْتَقَرَّتْ أَحْكَامُهَا؛ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِمُخَالَفَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ لِيَتَمَيَّزَ الْإِسْلَامُ بِصَفَائِهِ وَنَقَائِهِ، وَشَرِيعَتِهِ المُنَزَّلَةِ عَنِ الشَّرَائِعِ الْأُخْرَىٰ الَّتِي اخْتَلَطَ فِيهَا الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ؛ بِسَبَبِ التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِيرِ، فَعَزَمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ الْيَهُودِ فِي صَوْمِهِمْ عَاشُورَاءَ، كَمَا خَالَفَهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ شَرَائِعِهِمْ؛ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «حِينَ صَامَ رَسُولُ

---

(١٠) أخرجه أحمد (٢/ ٥٧)، والبخاري في الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (٢٠٠٠)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٢٦).

اللَّهِ ﷺ يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ**» قَالَ: فَلَمْ يَأْتِ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، حَتَّىٰ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَئِنْ بَقِيتُ إِلَىٰ قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١١).

فَاسْتَقَرَّتِ الشَّرِيعَةُ عَلَىٰ سُنِّيَّةِ صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، مَعَ مُخَالَفَةِ الْيَهُودِ بِصِيَامِ يَوْمٍ قَبْلَهُ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ؛ حَتَّىٰ تَتَحَقَّقَ الْمُخَالَفَةُ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**خَالِفُوا الْيَهُودَ، وَصُومُوا التَّاسِعَ وَالْعَاشِرَ**»(١٢). وَفِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَىٰ: قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**صُومُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَخَالِفُوا فِيهِ الْيَهُودَ، وَصُومُوا قَبْلَهُ يَوْمًا أَوْ بَعْدَهُ يَوْمًا**»(١٣).

فَكَانَتْ مُخَالَفَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِلْيَهُودِ فِي عَاشُورَاءَ مِنْ جِهَتَيْنِ:

الْأُولَىٰ: مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ وَيَتَّخِذُونَهُ عِيدًا، فَخَالَفَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَتَّخِذْهُ عِيدًا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ يَوْمًا تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَتَتَّخِذُهُ عِيدًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**صُومُوهُ أَنْتُمْ**»

---

(١١) أخرجه مسلم في الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء (١١٣٤)، وأبو داود في الصوم، باب ما روي أن عاشوراء اليوم التاسع (٢٤٤٥).

(١٢) هذه الرواية لعبد الرزاق في مصنفه (٧٨٣٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٣) هذه الرواية لأحمد في المسند (١/ ٢٤١)، وفي فضائل الصحابة (١٩٥١)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٧٨/٢)، وفي سندها محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ وهو سيئ الحفظ، وقد رفع الحديث وخالفه عطاء وغيره، فرووه موقوفا علىٰ ابن عباس رضي الله عنهما.
قال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٣/ ٨١): «لكن لم ينفرد به -يعني ابن أبي ليلىٰ- فقد تابعه عليه صالح بن أبي صالح بن حي» اهـ.
والروايات الأخرىٰ الصحيحة التي تأمر بصيام التاسع تشهد لهذه الرواية وتقويها، وكذلك صححه ابن خزيمة (٢٠٩٥)، وحسنه الشيخ أحمد شاكر في شرحه علىٰ المسند (٢١٥٤).

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ[(١٤)].

وَمِنْ جِهَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِمُخَالَفَةِ الْيَهُودِ فِي صِيَامِ عَاشُورَاءَ بِشَفْعِهِ بِيَوْمٍ قَبْلَهُ أَوْ يَوْمٍ بَعْدَهُ.

وَجَاءَ فِي فَضْلِ صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَنَّهُ يُكَفِّرُ سَنَةً كَامِلَةً؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «**يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَىٰ الله أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١٥)].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ: «مَنْ صَامَ عَاشُورَاءَ غَفَرَ اللهُ لَهُ سَنَةً»[(١٦)].

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَهَذَا فِيمَنْ صَادَفَهُ صَوْمُهُ وَلَهُ سَيِّئَاتٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ مَا يُكَفِّرُهَا، فَإِنْ صَادَفَهُ صَوْمُهُ وَقَدْ كُفِّرَتْ سَيِّئَاتُهُ بِغَيْرِهِ انْقَلَبَتْ زِيَادَةً فِي دَرَجَاتِهِ»[(١٧)].

وَكَانَ الزُّهْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- يُفْطِرُ إِذَا سَافَرَ فِي رَمَضَانَ، فَصَامَ عَاشُورَاءَ

---

(١٤) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٩)، والبخاري في الصوم، باب صوم يوم عاشوراء (٢٠٠٥)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣١) واللفظ له.

(١٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٩٦)، ومسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس (١١٦٢)، وأبو داود في الصوم، باب في صوم الدهر تطوعا (٢٤٢٥)، والترمذي في الصوم، باب ما جاء في الحث علىٰ صوم يوم عاشوراء (٧٥٢)، والنسائي في الكبرىٰ (٢٧٩٦)، وابن ماجه في الصيام، باب صيام يوم عاشوراء (١٧٣٨). والرواية الثانية لمسلم، وأبي داود، وابن ماجه، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ٧٧).

(١٦) أخرجه البزار، كما في مختصر زوائد البزار للحافظ ابن حجر (٦٧٣)، وقال البزار: «لا نعلم رواه هكذا إلا عمر بن صهبان، وليس بالقوي، وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم» وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للطبراني في الأوسط، وقال: «وإسناد الطبراني حسن» (٣/ ١٨٩)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٦٨).

(١٧) فضائل الأوقات (٤٣٩).

وَهُوَ مُسَافِرٌ فَلَمْ يُفْطِرْ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّ رَمَضَانَ لَهُ عِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، وَعَاشُورَاءَ يَفُوتُ»(١٨).

فَاحْرِصُوا رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ صِيَامِهِ، وَخَالِفُوا الْيَهُودَ؛ فَصُومُوا يَوْمًا قَبْلَهُ وَذَلِكَ أَفْضَلُ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَسْتَعْمِلَنَا جَمِيعًا فِي طَاعَتِهِ، وَأَنْ يُسْبِغَ عَلَيْنَا نِعْمَتَهُ، وَأَنْ يَكِلَنَا إِلَىٰ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَالْزَمُوا السُّنَّةَ، وَاحْذَرُوا الْبِدْعَةَ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ: غُلُوُّهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: اخْتَرَعَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَفْعَالًا فِي عَاشُورَاءَ لَمْ يَأْذَنْ بِهَا شَرْعُنَا؛ بَلْ هِيَ أَفْعَالٌ مُخَالِفَةٌ لِمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلِمَا عَلَيْهِ سَلَفُ هَذِهِ

(١٨) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٧/ ٢١٥).

الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَهَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعُونَ لَهُمْ فِيهِ مَنْهَجَانِ:

الْمَنْهَجُ الْأَوَّلُ: يَنْتَهِجُهُ أَكْثَرُ الْفِرَقِ الْبَاطِنِيَّةِ، جَعَلُوهُ مَأْتَمًا عَلَىٰ قَتْلِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما يَجْتَمِعُونَ عَلَىٰ ذِكْرِهِ، وَيُغَالُونَ فِي مَدْحِهِ، وَيَنُوحُونَ عَلَيْهِ، وَبَعْضُهُمْ يَخْلَعُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَالِ مَا هُوَ مُخْتَصٌّ بِالرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، وَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ خَلِيفَتُهُ الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَمَا اتَّخَذَ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَي وَفَاتِهِمَا مَنَاحَةً يَنُوحُونَ فِيهَا، وَقُتِلَ الْخُلَفَاءُ الثَّلَاثَةُ: عُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ وَالِدُ الْحُسَيْنِ -رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيعِ- وَمَا جُعِلَتِ الْأَيَّامُ الَّتِي تُوَافِقُ أَيَّامَ قَتْلِهِمْ مِنْ كُلِّ عَامٍ أَيَّامَ حُزْنٍ وَجَزَعٍ، وَإِنْشَادٍ لِلْمَرَاثِي؛ بَلْ رَضِيَ الْمُسْلِمُونَ بِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَقَدَرِهِ، وَحَزِنُوا لِمَقْتَلِهِمْ كَمَا حَزِنُوا لِوَفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ أَشَدَّ الْحُزْنِ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَوْلَىٰ بِأَنْ يُخَصَّصَ يَوْمُ وَفَاتِهِ لِرِثَائِهِ وَمَدْحِهِ، لَكَانَ سَيِّدُ الْخَلْقِ وَخَاتَمُ الرُّسُلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ مَمْنُوعٌ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

وَالْمُسْلِمُونَ مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَفْضَلُ مِنَ الْحُسَيْنِ رضي الله عنه وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَخُصُّوا الْيَوْمَ الَّذِي يُوَافِقُ يَوْمَ وَفَاتِهِ مِنْ كُلِّ عَامٍ بِشَعَائِرَ لِرِثَائِهِ وَالْحُزْنِ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ مَا وُتِرَتْ فِي شَيْءٍ أَعْظَمَ مِنْ فَقْدِهَا لِحَبِيبِهَا وَصَفِيِّهَا مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَكَذَلِكَ الْمُسْلِمُونَ مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْخُلَفَاءَ الْأَرْبَعَةَ: أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا رضي الله عنهم أَعْلَىٰ مَنْزِلَةً فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْحُسَيْنِ رضي الله عنه؛ لِسَابِقَتِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ وَالْهِجْرَةِ، وَصُحْبَتِهِمُ النَّبِيَّ ﷺ زَمَنًا طَوِيلًا، وَأَعْمَالِهِمُ الْجَلِيلَةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَقَدْ بَشَّرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَنَّةِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتَّخِذِ الْمُسْلِمُونَ أَيَّامَ فَقْدِهِمْ مَنَاحَةً عَلَيْهِمْ، فَهَلْ هَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعُونَ يَرَوْنَ أَنَّ الْحُسَيْنَ رضي الله عنه أَفْضَلُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَمِنْ خُلَفَائِهِ الْأَرْبَعَةِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ؟!

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الضَّلَالِ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَأَمَّا اتِّخَاذُهُ مَأْتَمًا كَمَا تَفْعَلُهُ الرَّافِضَةُ لِأَجْلِ قَتْلِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما فِيهِ، فَهُوَ مِنْ عَمَلِ مَنْ ضَلَّ سَعْيُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ يُحْسِنُ صُنْعًا، وَلَمْ يَأْمُرِ اللهُ وَلَا رَسُولُهُ بِاتِّخَاذِ أَيَّامِ مَصَائِبِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَوْتِهِمْ مَأْتَمًا، فَكَيْفَ بِمَنْ دُونَهُمْ؟!»[١٩].

الْمَنْهَجُ الثَّانِي: وَهُوَ مُقَابِلٌ لِمَنْهَجِ هَؤُلَاءِ الضُّلَّالِ، وَقَدْ نَهَجَهُ النَّوَاصِبُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْجُهَّالِ، فَاتَّخَذُوا مِنْ يَوْمِ عَاشُورَاءَ عِيدًا، وَخَصُّوهُ بِعِبَادَاتٍ لَمْ تَأْتِ فِي شَرْعِ اللَّهِ عز وجل؛ كَزِيَارَةِ الْقُبُورِ فِيهِ، وَتَخْصِيصِهِ بِالصَّدَقَةِ، وَقِرَاءَةِ سُورَةٍ فِيهَا ذِكْرُ قِصَّةِ مُوسَىٰ مَعَ فِرْعَوْنَ فِي فَجْرِهِ، وَقِيَامِ لَيْلَتِهِ، وَإِحْيَائِهَا بِالذِّكْرِ.

وَكَذَلِكَ مَا يَفْعَلُونَهُ فِي عَاشُورَاءَ مِنَ الاغْتِسَالِ وَالِاكْتِحَالِ وَالتَّطَيُّبِ، وَالذَّبْحِ فِيهِ، وَطَبْخِ طَعَامٍ خَاصٍّ لَهُ، وَالتَّوْسِعَةِ عَلَىٰ الْأَهْلِ وَالْعِيَالِ، وَبَعْضُهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- يُظْهِرُ الْفَرَحَ وَالشَّمَاتَةَ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ رضي الله عنه، فَكُلُّ هَذَا أَيْضًا مِنَ الضَّلَالِ وَالْبِدْعَةِ، وَإِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ رَدَّةَ فِعْلٍ وَنِكَايَةً بِمَنِ اتَّخَذُوا يَوْمَ عَاشُورَاءَ يَوْمَ حُزْنٍ عَلَىٰ الْحُسَيْنِ رضي الله عنه[٢٠].

وَكِلَا الْفَرِيقَيْنِ قَدْ ضَلَّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَضَاعَ السُّنَّةَ، وَارْتَكَسَ فِي الْبِدْعَةِ، فَلَمْ

---

(١٩) لطائف المعارف (١١٣)، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوىٰ (٢٥/ ٣٠٩): «فكل ما زينه الشيطان لأهل الضلال والغي من اتخاذ يوم عاشوراء مأتما، وما يصنعون فيه من الندب والنياحة، وإنشاد قصائد الحزن، ورواية الأخبار التي فيها كذب كثير، والصدق فيها ليس فيه إلا تجديد الحزن والتعصب، وإثارة الشحناء والحرب، وإلقاء الفتن بين أهل الإسلام، والتوسل بذلك إلىٰ سب السابقين الأولين، وكثرة الكذب والفتن في الدنيا، ولم يعرف طوائف الإسلام أكثر كذبا وفتنا ومعاونة للكفار علىٰ أهل الإسلام من هذه الطائفة الضالة الغاوية؛ فإنهم شر من الخوارج المارقين» اهـ.

(٢٠) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوىٰ (٢٥/ ٣٠٩-٣١٠): «فعارض هؤلاء قوم إما من =

يَرِدْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا عَنْ صَحَابَتِهِ ﷺ عَمَلٌ فِي عَاشُورَاءَ سِوَىٰ صِيَامِهِ وَصِيَامِ يَوْمٍ قَبْلَهُ، وَقَدْ أَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ صِيَامَهُ يُكَفِّرُ سَنَةً، وَمَنِ اتَّخَذَهُ مَنَاحَةً فَقَدْ خَالَفَ الْهَدْيَ النَّبَوِيَّ، وَشَابَهَ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي تَعْظِيمِهِمْ وَإِطْرَائِهِمْ وَغُلُوِّهِمْ فِي أَنْبِيَائِهِمْ وَأَحْبَارِهِمْ.

وَمَنِ اتَّخَذَهُ عِيدًا فَقَدْ خَالَفَ الْهَدْيَ النَّبَوِيَّ أَيْضًا، وَشَارَكَ الْيَهُودَ فِي اتِّخَاذِهِ عِيدًا.

وَأَكْمَلُ الْهَدْيِ هَدْيُ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي تَرَكَنَا عَلَىٰ بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، فَحَذَارِ -أَخِي الْمُسْلِمَ- مِنَ الْبِدَعِ، وَالتَّأَثُّرِ بِزُخْرُفِهَا وَنَمَارِقِهَا؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مَا ابْتَلَىٰ عِبَادَهُ إِلَّا لِيَرَىٰ مِنْهُمْ حُسْنَ الْعَمَلِ، وَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ حَسَنًا إِلَّا إِذَا كَانَ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، مُوَافِقًا لِهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ، كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

❀ ❀ ❀

= النواصب المتعصبين على الحسين وأهل بيته، وإما من الجهال الذين قابلوا الفاسد بالفاسد، والكذب بالكذب، والشر بالشر، والبدعة بالبدعة، فوضعوا الآثار في شعائر الفرح والسرور يوم عاشوراء كالاكتحال والاختضاب، وتوسيع النفقات على العيال، وطبخ الأطعمة الخارجة عن العادة، ونحو ذلك مما يفعل في الأعياد والمواسم، فهؤلاء صاروا يتخذون يوم عاشوراء موسما كمواسم الأعياد والأفراح، وأولئك يتخذونه مأتما يقيمون فيه الأحزان والأتراح، وكلا الطائفتين مخطئة خارجة عن السنة» اهـ.



٢١٩- ليلة النصف من شعبان

١٠/٨/١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الزَّمَانَ، وَجَعَلَهُ ظَرْفًا لِلْأَعْمَالِ، وَفَاضَلَ سُبْحَانَهُ بَيْنَ الْأَزْمَانِ كَمَا فَاضَلَ بَيْنَ سَائِرِ خَلْقِهِ مِنَ الْبَشَرِ وَالْبِقَاعِ وَغَيْرِهَا، وَمَعْرِفَةُ فَضِيلَةِ الزَّمَانِ عَلَىٰ غَيْرِهِ تُدْرَكُ بِالنَّصِّ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ أَنْ يُفَضِّلَ زَمَانًا لَمْ يَرِدْ لَهُ فَضْلٌ لَا فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، وَلَا أَنْ يَشْرَعَ فِيهِ عِبَادَاتٍ لَمْ يَشْرَعْهَا اللهُ تَعَالَىٰ وَلَا رَسُولُهُ ﷺ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَلَيْسَ بِمُسْتَسْلِمٍ لِشَرْعِ اللَّهِ ﷻ، وَلَا خَاضِعٍ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُجْتَنِبٍ لِنَهْيِهِ؛ إِذْ الِاسْتِسْلَامُ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ ﷻ يَقْتَضِي الْعَمَلَ بِهَا، وَاتِّبَاعَ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَشَهْرُ شَعْبَانَ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهِ عَمَلٌ وَهُوَ صِيَامُ أَكْثَرِهِ، وَأَحْدَثَ النَّاسُ فِيهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا أَعْمَالًا أُخْرَىٰ مَا جَاءَتْ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ.

أَمَّا مَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ صِيَامِ أَكْثَرِهِ، فَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها فَقَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ حَتَّىٰ نَقُولَ: لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّىٰ نَقُولَ: لَا يَصُومُ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ إِلَّا رَمَضَانَ، وَمَا رَأَيْتُهُ أَكْثَرَ صِيَامًا مِنْهُ فِي شَعْبَانَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلَّا قَلِيلًا»[1].

وَحِكْمَةُ إِكْثَارِهِ مِنَ الصِّيَامِ فِي شَعْبَان بَيَّنَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي حَدِيثِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ أَرَكَ تَصُومُ شَهْرًا مِنَ الشُّهُورِ مَا تَصُومُ مِنْ شَعْبَانَ، قَالَ: «**ذَلِكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُرْفَعُ فِيهِ الْأَعْمَالُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ[2].

وَهَذَا الْعَرْضُ لِلْأَعْمَالِ هُوَ الْعَرْضُ السَّنَوِيُّ؛ فَإِنَّ عَرْضَ الْأَعْمَالِ يَوْمِيٌّ وَأُسْبُوعِيٌّ وَحَوْلِيٌّ: يُعْرَضُ عَلَيْهِ ﷻ عَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ[3]،

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب صوم شعبان (١٨٦٨)، ومسلم في الصيام، باب صيام النبي ﷺ في غير رمضان (١١٥٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠١)، والنسائي في الصيام، باب صوم النبي ﷺ بأبي هو وأمي، واللفظ له (٤/ ٢٠١)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣٠٧٧)، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٤٦)، والبزار (٢٦١٧)، وعزاه الحافظ في الفتح لأبي داود (٤/ ٢١٥)، وصححه ابن خزيمة (٢١١٩)، والضياء في المختارة (١٣٥٦)، وفي رواية ابن خزيمة الاقتصار علىٰ ذكر الاثنين والخميس.
وله شاهدان من حديث عائشة وحديث أم سلمة رضي الله عنهما.

(٣) كما في حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع فقال: «**إن الله** ﷻ =

وَالْأُسْبُوعِيُّ يُعْرَضُ عَلَيْهِ يَوْمَيِ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ؛ وَلِذَلِكَ نَدَبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَىٰ صِيَامِهِمَا[٤]، وَالْحَوْلِيُّ يُعْرَضُ فِي شَعْبَانَ؛ فَاسْتُحِبَّ صِيَامُ أَكْثَرِهِ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَصُومُ أَكْثَرَهُ.

هَذَا مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ شَعْبَانَ: الصِّيَامُ فَحَسْبُ.

أَمَّا لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ الَّتِي كَثُرَ الْكَلَامُ فِيهَا، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ حَوْلَها، وَأَحْدَثُوا فِيهَا مَا أَحْدَثُوا، وَخَصُّوهَا بِأَعْمَالٍ كَثِيرَةٍ؛ حَتَّىٰ أَضْحَتْ هَذِهِ الشَّعَائِرُ وَالْأَعْمَالُ تَنْتَقِلُ إِلَىٰ النَّاسِ عَبْرَ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ عَنْهَا، وَتَحْرِيرَ الْقَوْلِ فِيهَا يَكُونُ فِي مَقَامَيْنِ:

أَوَّلُهُمَا: مَا وَرَدَ فِيهَا مِنَ الْفَضْلِ.

وَثَانِيهِمَا: مَا جَاءَ فِيهَا مِنْ أَعْمَالٍ مَخْصُوصَةٍ كَصِيَامِ نَهَارِهَا، وَقِيَامِ لَيْلِهَا، وَاخْتِصَاصِهَا بِصَلَاةٍ يُسَمُّونَهَا الْأَلْفِيَّةَ، وَاتِّخَاذِهَا عِيدًا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ.

أَمَّا فَضْلُهَا؛ فَجَاءَ فِيهِ أَحَادِيثُ ضَعِيفَةٌ، لَا يَسْلَمُ حَدِيثٌ مِنْهَا مِنْ طَعْنٍ فِي رُوَاتِهِ، أَوِ انْقِطَاعٍ فِي سَنَدِهِ، وَمَنْ صَحَّحَهَا مِنَ الْعُلَمَاءِ فَإِنَّمَا صَحَّحَهَا بِكَثْرَةِ طُرُقِهَا، وَلَمْ يَصِحَّ مِنْهَا حَدِيثٌ مُسْتَقِلٌّ بِذَاتِهِ[٥].

= **لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل بالنهار وعمل النهار بالليل»** رواه أحمد، واللفظ له (٤/ ٣٩٥)، ومسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥).

(٤) جاء في رواية أحمد لحديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما المخرج في هامش (٢) عن صيام الاثنين والخميس: «**ذلك يومان تعرض فيهما الأعمال علىٰ رب العالمين، وأحب أن يعرض عملي وأنا صائم**» وهو كذلك في رواية ابن خزيمة (٢١١٩).

(٥) ذكر الشيخ العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني -رحمه الله تعالىٰ- في السلسلة الصحيحة طرقًا ثمانية لحديث فضل ليلة النصف من شعبان، وهي:

١- حديث معاذ رضي الله عنه يرويه مكحول عن مالك بن يخامر عنه مرفوعًا به، وهذا منقطع؛ =

وَمُفَادُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: «أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَطَّلِعُ إِلَىٰ خَلْقِهِ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَيَغْفِرُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ إِلَّا لِمُشْرِكٍ أَوْ مُشَاحِنٍ» وَهَذَا الْحَدِيثُ بِهَذَا اللَّفْظِ مُنْقَطِعٌ(٦).

وَجَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: «أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَنْزِلُ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَغْفِرُ لِأَكْثَرِ مِنْ عَدَدِ شَعْرِ غَنَمِ كَلْبٍ»؛ أَيْ: غَنَمِ قَبِيلَةِ كَلْبٍ. أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدًا -يَعْنِي الْبُخَارِيَّ- يُضَعِّفُ هَذَا الْحَدِيثَ(٧).

= فإن مكحولا لم يلق مالك بن يخامر كما أفاد ذلك الذهبي.

٢- حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه، يرويه الأحوص بن حكيم عن مهاصر بن حبيب عنه، والأحوص ضعيف كما ذكر الهيثمي.

٣- حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وفي سنده ابن لهيعة، وهو لين الحديث.

٤- حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه، وفي سنده ابن لهيعة، وعبد الرحمن بن عرزب وهو مجهول.

٥- حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفي سنده هشام بن عبد الرحمن، وهو مجهول.

٦- حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي سنده عبد الملك بن عبد الملك، قال البخاري: في حديثه نظر.

٧- حديث عوف بن مالك رضي الله عنه، وفي سنده ابن لهيعة وعبد الرحمن بن أنعم وهما ضعيفان.

٨- حديث عائشة رضي الله عنها، وفي سنده حجاج بن أرطاة، مدلس، وقد عنعن.

وبعد أن ساق الشيخ الألباني -رحمه الله تعالىٰ- هذه الطرق وما لها من متابعات قال: «وجملة القول أن الحديث بمجموع هذه الطرق صحيح بلا ريب، والصحة تثبت بأقل منها عددا، ما دامت سالمة من الضعف الشديد، كما هو الشأن في هذا الحديث» اهـ من السلسلة الصحيحة (٣/ ١٣٥-١٣٩) برقم (١١٤٤).

(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٥١٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٣٥٧٠)، وفي المعجم الكبير (٢٠/ ١٠٨) برقم (٢١٥)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٩١)، وصححه ابن حبان (٥٦٦٥) من حديث معاذ رضي الله عنه.
قلت: وهو من رواية مكحول عن مالك بن يخامر ولم يلقه فهو منقطع.

(٧) أخرجه الترمذي في الصوم، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان (٧٣٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في ليلة النصف من شعبان (١٣٨٩)، وأحمد =

وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا، وَهِيَ الدَّالَّةُ عَلَىٰ اخْتِصَاصِ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ بِفَضْلٍ؛ تَسَامَحَ فِيهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فَصَحَّحُوهَا بِكَثْرَةِ طُرُقِهَا، وَلَوْ كَانَتْ كُلُّ طَرِيقٍ مِنْهَا ضَعِيفَةً.

وَطَعَنَ آخَرُونَ فِي أَحَادِيثِهَا، وَلَمْ يَقْبَلُوهَا لِضَعْفِهَا، وَجَزَمُوا بِأَنَّهَا لَيْلَةٌ كَسَائِرِ اللَّيَالِي لَا تَخْتَصُّ بِفَضْلٍ وَلَا بِعَمَلٍ؛ كَمَا نَقَل ابْنُ وَضَّاحٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «لَمْ أُدْرِكْ أَحَدًا مِنْ مَشَايِخِنَا وَلَا فُقَهَائِنَا يَلْتَفِتُونَ إِلَىٰ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، وَلَمْ نُدْرِكْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَذْكُرُ حَدِيثَ مَكْحُولٍ، وَلَا يَرَىٰ لَهَا فَضْلًا عَلَىٰ مَا سِوَاهَا مِنَ اللَّيَالِي»(٨).

وَقِيلَ لِلتَّابِعِيِّ الْجَلِيلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: إِنَّ زِيَادًا النُّمَيْرِيَّ يَقُولُ: «أَجْرُ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ كَأَجْرِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَقَالَ: لَوْ سَمِعْتُهُ وَبِيَدِي عَصًا لَضَرَبْتُهُ»(٩).

وَبَالَغَ بَعْضُ مَنْ عَظَّمَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ فَزَعَمُوا أَنَّهَا المَقْصُودَةُ بِقَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، مَعَ أَنَّ نَصَّ الْقُرْآنِ صَرِيحٌ يُفِيدُ أَنَّهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ،

= (٦/ ٢٣٨)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٨٥٠)، وعبد بن حميد (١٥٠٩).
وهو من رواية الحجاج بن أرطاة عن يحيىٰ بن أبي كثير عن عروة عن عائشة، قال الترمذي: «حديث عائشة لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الحجاج، وسمعت محمدًا -يعني البخاري- يضعف هذا الحديث، وقال: يحيىٰ بن أبي كثير لم يسمع من عروة، والحجاج لم يسمع من يحيىٰ بن أبي كثير» قلت: فهو حديث منقطع، والحجاج بن أرطاة ضعيف.
وتخصيص قبيلتي كلب بالذكر لأجل أنهم أكثر غنما من سائر العرب، ينظر: تحفة الأحوذي (٣/ ٣٦٥).

(٨) أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها (٤٦)، وينظر: الباعث علىٰ إنكار البدع لأبي بكر الطرطوشي (١/ ٣٥).

(٩) أخرجه ابن وضاح (٤٦)، وينظر: الباعث علىٰ إنكار البدع (١/ ٣٥).

وَأَنَّهَا فِي رَمَضَانَ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَنْ قَالَ إِنَّهَا لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ كَمَا رُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ فَقَدْ أَبْعَدَ النُّجْعَةَ؛ فَإِنَّ نَصَّ الْقُرْآنِ أَنَّهَا فِي رَمَضَانَ»(١٠).

وَقَدْ جَزَمَ بِتَضْعِيفِ كُلِّ أَحَادِيثِ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ جَمْعٌ مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ، حَتَّىٰ قَالَ الْعَلَّامَةُ الْمُحَقِّقُ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَيْسَ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ حَدِيثٌ يُسَاوِي سَمَاعَهُ»(١١).

وَقَالَ عَلَّامَةُ الشَّامِ جَمَالُ الدِّينِ الْقَاسِمِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «قَالَ أَهْلُ التَّعْدِيلِ وَالتَّجْرِيحِ: لَيْسَ فِي فَضْلِ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ حَدِيثٌ يَصِحُّ»(١٢).

---

(١٠) تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٠) وقال ابن العربي: «وهو باطل؛ لأن الله تعالىٰ قال في كتابه الصادق القاطع: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فنص علىٰ أن ميقات نزوله رمضان، ثم عبر عن زمانية الليل ها هنا بقوله: ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] فمن زعم أنها في غيره فقد أعظم الفرية علىٰ الله تعالىٰ» اهـ من أحكام القرآن (٤/ ١١٧).

(١١) عارضة الأحوذي (٣/ ٢٧٥)، وقال في أحكام القرآن: «وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يعول عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها، فلا تلتفتوا إليها» (٤/ ١١٧).

(١٢) إصلاح المساجد من البدع والعوائد (٩٩)، وقد تعقبه الألباني في الحاشية فقال: «فلا تلتفت إلىٰ ما سينقله المصنف أنه ليس في فضل ليلة النصف حديث يصح، نعم، لا يلزم من ثبوت هذا الحديث اتخاذ هذه الليلة موسما يجتمع الناس فيها، ويفعلون فيها من البدع ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالىٰ» اهـ.

وممن ضعف أحاديثها أيضا العلامة المحدث سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمه الله تعالىٰ- فقال: «ومن البدع التي أحدثها بعض الناس: بدعة الاحتفال بليلة النصف من شعبان، وتخصيص يومها بالصيام، وليس علىٰ ذلك دليل يجوز الاعتماد عليه، وقد ورد في فضلها أحاديث ضعيفة لا يجوز الاعتماد عليها، أما ما ورد في فضل الصلاة فيها فكله موضوع كما نبه علىٰ ذلك كثير من أهل العلم» اهـ من مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، عدد (٢٦) ص (٣) شوال ١٣٩٤هـ.

وَقَالَ الشَّيْخُ الْأَزْهَرِيُّ عَلِيّ مَحْفُوظ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ كُلَّ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ دَائِرَةٌ بَيْنَ الضَّعْفِ وَالْوَضْعِ وَعَدَمِ الصِّحَّةِ»(١٣).

وَقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّد رَشِيد رِضَا -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَكُلُّ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي لَيْلَةِ نِصْفِ شَعْبَانَ دَائِرٌ أَمْرُهَا بَيْنَ الْوَضْعِ وَالضَّعْفِ وَعَدَمِ الصِّحَّةِ»(١٤).

أَمَّا فَضِيلَةُ الْعَمَلِ فِيهَا، أَوْ تَخْصِيصُهَا بِقِيَامٍ، أَوْ بِإِفْرَادِ يَوْمِهَا بِالصِّيَامِ، أَوْ بِصَلَاةِ الْأَلْفِيَّةِ فِيهَا، وَهِيَ صَلَاةٌ مُبْتَدَعَةٌ وَمُرْهِقَةٌ، يُصَلِّي فِيهَا الْمُصَلِّي مِئَةَ رَكْعَةٍ، يَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ عَشْرَ مَرَّاتٍ(١٥)، أَوِ اتِّخَاذِ يَوْمِهَا أَوْ لَيْلَتِهَا عِيدًا بِالِاجْتِمَاعِ فِي الْمَسَاجِدِ، أَوِ الْبُيُوتِ عَلَىٰ طَعَامٍ مَخْصُوصٍ، وَإِظْهَارِ الْفَرَحِ وَالزِّينَةِ؛ فَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْمُبْتَدَعَاتِ الَّتِي أَنْكَرَهَا الْعُلَمَاءُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَأَمَّا صَوْمُ يَوْمِ النِّصْفِ مُفْرَدًا فَلَا أَصْلَ لَهُ، بَلْ إِفْرَادُهُ مَكْرُوهٌ، وَكَذَلِكَ اتِّخَاذُهُ مَوْسِمًا تُصْنَعُ فِيهِ الْأَطْعِمَةُ،

---

(١٣) الإبداع في مضار الابتداع (٢٨٧).

(١٤) مجلة المنار: (مجلد: ٣١، ص ٣٣١).

(١٥) وهذه الصلاة المزعومة فيها حديث موضوع عن علي ﷺ، ذكره ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- في المنار المنيف، ولفظه: «يا علي، من صلىٰ ليلة النصف من شعبان مئة ركعة، بألف «قل هو الله أحد» قضىٰ الله له كل حاجة طلبها تلك الليلة ... وأعطي سبعين ألف حوراء، لكل حوراء سبعون ألف غلام وسبعون ألف ولدان .. ويشفع والداه كل واحد منهما في سبعين ألفًا ..» قال ابن القيم بعد أن ساقه مختصرا: «والعجب ممن شم رائحة العلم بالسنن أن يغتر بمثل هذا الهذيان ويصليها؟! وهذه الصلاة وضعت في الإسلام بعد الأربع مئة، ونشأت من بيت المقدس فوضع لها عدة أحاديث» اهـ من المنار المنيف في الصحيح والضعيف (١٧٥)، وينظر: الفوائد المجموعة للشوكاني (٥٠-٥١).

وَتُظْهَرُ فِيهِ الزِّينَةُ، هُوَ مِنَ المَوَاسِمِ المُحْدَثَةِ المُبْتَدَعَةِ الَّتِي لَا أَصْلَ لَها، وَكَذَلِكَ مَا قَدْ أُحْدِثَ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنَ الاجْتِمَاعِ الْعَامِّ لِلصَّلَاةِ الْأَلْفِيَّةِ فِي المَسَاجِدِ الْجَامِعَةِ، وَمَسَاجِدِ الْأَحْيَاءِ وَالدُّرُوبِ وَالْأَسْوَاقِ؛ فَإِنَّ هَذَا الاجْتِمَاعَ لِصَلَاةِ نَافِلَةٍ مُقَيَّدَةٍ بِزَمَانٍ وَعَدَدٍ، وَقَدْرٍ مِنَ الْقِرَاءَةِ لَمْ يُشْرَعْ، مَكْرُوهٌ؛ فَإِنَّ الْحَدِيثَ الْوَارِدَ فِي الصَّلَاةِ الْأَلْفِيَّةِ مَوْضُوعٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ . . »(١٦).

---

(١٦) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٣٢) علىٰ أن شيخ الإسلام -رحمه الله تعالىٰ- يرجح أن فضلها ثابت، فقال -رحمه الله تعالىٰ-: «ومن هذا الباب: ليلة النصف من شعبان؛ فقد روي في فضلها من الأحاديث المرفوعة والآثار ما يقتضي أنها ليلة مفضلة، وأن من السلف من كان يخصها بالصلاة فيها . . ومن العلماء من السلف من أهل المدينة وغيرهم من الخلف من أنكر فضلها، وطعن في الأحاديث الواردة فيها، كحديث «**إن الله يغفر فيها لأكثر من عدد شعر غنم كلب**» وقال: لا فرق بينها وبين غيرها، لكن الذي عليه كثير من أهل العلم، أو أكثرهم من أصحابنا وغيرهم علىٰ تفضيلها، وعليه يدل نص أحمد؛ لتعدد الأحاديث الواردة فيها، وما يصدق ذلك من الآثار السلفية، وقد روي بعض فضائلها في المسانيد والسنن، وإن كان قد وضع فيها أشياء أخر» اهـ من الاقتضاء (٢/ ٦٣١-٦٣٢).
ولكن شيخ الإسلام نص علىٰ أن إفراد النصف بالصيام بدعة، وأما إحياؤها بالصلاة فقال فيه: «إذا صلىٰ الإنسان ليلة النصف وحده أو في جماعة خاصة، كما كان يفعل طوائف من السلف فهو أحسن، وأما الاجتماع في المساجد علىٰ صلاة مقدرة كالاجتماع علىٰ مئة ركعة، بقراءة ألف ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ دائما فهذا بدعة، لم يستحبها أحد من الأئمة. والله أعلم» اهـ من مجموع الفتاوىٰ (٢٣/ ١٣١).
وقال أيضا: «وأما ليلة النصف فقد روي في فضلها أحاديث وآثار ونقل عن طائفة من السلف أنهم كانوا يصلون فيها، فصلاة الرجل فيها وحده قد تقدمه فيه سلف، وله فيه حجة فلا ينكر مثل هذا. وأما الصلاة فيها جماعة، فهذا مبني علىٰ قاعدة عامة في الاجتماع علىٰ الطاعات والعبادات فإنه نوعان:
أحدهما: سنة راتبة إما واجب وإما مستحب كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين. وصلاة الكسوف والاستسقاء والتراويح، فهذا سنة راتبة ينبغي المحافظة عليها والمداومة.
والثاني: ما ليس بسنة راتبة مثل الاجتماع لصلاة تطوع، مثل قيام الليل أو علىٰ قراءة =

. . . .

= قرآن أو ذكر الله أو دعاء. فهذا لا بأس به إذا لم يتخذ عادة راتبة» مجموع الفتاوىٰ (٢٣/ ١٣٢).
وأما الحافظ ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ- فإنه اختار العمل فيها وإحياءها، ولكن أفرادا وليس جماعات في المساجد، فقال بعد أن ذكر الخلاف فيها: «واختلف علماء أهل الشام في صفة إحيائها علىٰ قولين:
أحدهما: أنه يستحب إحياؤها جماعة في المساجد، كان خالد بن معدان، ولقمان بن عامر وغيرهما يلبسون فيها أحسن ثيابهم، ويتبخرون ويكتحلون ويقومون في المساجد ليلتهم تلك، ووافقهم إسحاق بن راهويه علىٰ ذلك، وقال في قيامها في المساجد جماعة: ليس ذلك ببدعة، نقله عنه حرب الكرماني في مسائله .
والثاني: أنه يكره الاجتماع فيها في المساجد للصلاة والقصص والدعاء، ولا يكره أن يصلي الرجل فيها بخاصة نفسه، وهذا قول الأوزاعي إمام أهل الشام وفقيههم وعالمهم، وهذا هو الأقرب إن شاء الله تعالىٰ» اهـ من اللطائف (٢٦٣).
وذكر أيضا أنه لم يعرف للإمام أحمد كلام في ليلة النصف من شعبان، ثم قال ابن رجب عقب ذلك: «ينبغي للمؤمن أن يتفرغ في تلك الليلة لذكر الله تعالىٰ ودعائه بغفران الذنوب، وستر العيوب، وتفريج الكروب، وأن يقدم علىٰ ذلك التوبة؛ فإن الله تعالىٰ يتوب فيها علىٰ من يتوب» اهـ من اللطائف (٢٦٥).
ولما نقل الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالىٰ- بعض كلام ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ- قال عقبه: «وفيه التصريح منه بأنه لم يثبت عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه ﷺ شيء في ليلة النصف من شعبان، وأما ما اختاره الأوزاعي -رحمه الله تعالىٰ- من استحباب قيامها الأفراد، واختيار الحافظ ابن رجب لهذا القول فهو غريب ضعيف؛ لأن كل شيء لم يثبت بالأدلة الشرعية كونه مشروعا لم يجز للمسلم أن يحدثه في دين الله تعالىٰ، سواء فعله مفردا أو في جماعة، وسواء أسره أو أعلنه؛ لعموم قول النبي ﷺ: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**» وغيره من الأدلة الدالة علىٰ إنكار البدع والتحذير منها» اهـ من مجلة الجامعة الإسلامية عدد (٢٦) ص(٤).
ثم قال الشيخ عقب ذلك: «فلو كان تخصيص شيء من الليالي بشيء من العبادة جائزًا لكانت ليلة الجمعة أولىٰ من غيرها؛ لأن يومها هو خير يوم طلعت عليه الشمس بنص الأحاديث عن رسول الله ﷺ، فلما حذر النبي ﷺ من تخصيصها بقيام من بين الليالي دل ذلك علىٰ أن غيرها من الليالي من باب أولىٰ، لا يجوز تخصيص شيء منها بشيء من =

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَلَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ كَانَ التَّابِعُونَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ؛ كَخَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ، وَمَكْحُولٍ، وَلُقْمَانَ بْنِ عَامِرٍ، وَغَيْرِهِمْ يُعَظِّمُونَهَا، وَيَجْتَهِدُونَ فِيهَا فِي الْعِبَادَةِ، وَعَنْهُمْ أَخَذَ النَّاسُ فَضْلَهَا

= العبادة إلا بدليل صحيح يدل علىٰ التخصيص، ولما كانت ليلة القدر وليالي رمضان يشرع قيامها والاجتهاد فيها نبه النبي ﷺ علىٰ ذلك، وحث الأمة علىٰ قيامها وفعل ذلك بنفسه ..» اهـ من مجلة الجامعة الإسلامية عدد (٢٦) ص (٩).

وقد ضعف الشيخ -رحمه الله تعالىٰ- كل الأحاديث الواردة في فضلها، فقال: «وقد ورد في فضلها أحاديث ضعيفة لا يجوز الاعتماد عليها، أما ما ورد في فضل الصلاة فيها فكله موضوع كما نبه علىٰ ذلك كثير من أهل العلم ... وورد فيها أيضا آثار عن بعض السلف من أهل الشام وغيرهم، والذي عليه جمهور العلماء أن الاحتفال بها بدعة، وأن الأحاديث الواردة في فضلها كلها ضعيفة وبعضها موضوع .. والأحاديث الضعيفة إنما يعمل بها في العبادات التي قد ثبت أصلها بأدلة صحيحة، أما الاحتفال بليلة النصف من شعبان فليس له أصل صحيح حتىٰ يستأنس بالأحاديث الضعيفة، وقد ذكر هذه القاعدة الجليلة الإمام أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ ..» اهـ من مجلة الجامعة الإسلامية عدد (٢٦) ص (٩).

وحاصل الخلاف فيها كما يلي:

أولًا: أن الأحاديث في فضلها وفي العمل فيها لا يصح منها شيء، ولا يجوز الاحتجاج بها، وأنها كسائر الليالي لا مزية لها ألبتة، وهذا قول علماء المدينة من التابعين وغيرهم كما نقله عنهم زيد بن أسلم، وذكر الشيخ ابن باز أنه قول الجمهور، وجزم به ابن العربي المالكي والقاسمي وعلي محفوظ وابن باز رحمة الله علىٰ الجميع.

ثانيًا: تصحيح أحاديث فضلها، وهؤلاء علىٰ أقسام ثلاثة:

الأول: من يرىٰ إحياءها بالصلاة جماعة في المساجد، وهو المنقول عن بعض التابعين من أهل الشام؛ كخالد بن معدان، ولقمان بن عامر، ووافقهم إسحاق بن راهويه فيما ذكره ابن رجب رحمة الله علىٰ الجميع.

الثاني: إحياؤها في البيوت، وهو قول الأوزاعي واختاره ابن رجب، واستحسنه شيخ الإسلام ابن تيمية.

الثالث: إثبات فضل ليلة النصف من شعبان دون العمل فيها. كما هو قول الألباني.

وَتَعْظِيمَهَا، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ بَلَغَهُمْ فِي ذَلِكَ آثَارٌ إِسْرَائِيلِيَّةٌ، فَلَمَّا اشْتُهِرَ ذَلِكَ عَنْهُمْ فِي الْبُلْدَانِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَبِلَهُ مِنْهُمْ، وَافَقَهُمْ عَلَىٰ تَعْظِيمِهَا، مِنْهُمْ طَائِفَةٌ مِنْ عُبَّادِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ، مِنْهُمْ: عَطَاءٌ، وَابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، وَنَقَلَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَغَيْرِهِمْ، وَقَالُوا: ذَلِكَ كُلُّهُ بِدْعَةٌ»(١٧).

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تَعْظِيمَ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ وَتَخْصِيصَهَا بِعِبَادَاتٍ أَوْ بِاحْتِفَالَاتٍ مُحْدَثٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَعْدَ صَحَابَتِهِ ﷺ، فَعَلَهُ بَعْضُ التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ بِنَاءً عَلَىٰ أَحَادِيثَ ضَعِيفَةٍ، ثُمَّ تَبِعَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ، وَالْعِبَادَاتُ تُؤْخَذُ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَمِمَّا صَحَّ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَلَا تُؤْخَذُ مِنْ أَقْوَالِ الرِّجَالِ وَاجْتِهَادَاتِهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂(١٨).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ بِمَا عَلِمْنَا، وَأَنْ يَدُلَّنَا عَلَىٰ الْحَقِّ، وَيَهْدِيَنَا لِاتِّبَاعِهِ، وَأَنْ يُرِيَنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَيُعِينَنَا عَلَىٰ اجْتِنَابِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

---

(١٧) لطائف المعارف (٢٦٣).

(١٨) أخرجه البخاري في الصلح، باب إذا اصطلحوا علىٰ صلح جور فالصلح مردود (٢٥٥٠)، ومسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨-١٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تَعَلَّمُوا السُّنَّةَ، وَاحْذَرُوا الْبِدْعَةَ؛ فَإِنَّ صَاحِبَ الْبِدْعَةِ يَعْمَلُ فِي بِدْعَتِهِ وَلَا يُقْبَل عَمَلُهُ، وَيَسْعَىٰ وَلَا يَجِدُ أَجْرَ سَعْيِهِ؛ بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَفِي الدُّنْيَا تَشْغَلُهُ بِدْعَتُهُ عَنْ تَعَلُّمِ دِينِهِ، وَإِقَامَةِ شَرِيعَةِ رَبِّهِ، كَمَا تَشْغَلُهُ عَنِ السَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ.

وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ أَحْرَىٰ أَنْ يُحَاسَبَ عَلَىٰ بِدْعَتِهِ، وَأَنْ يُؤَاخَذَ بِعِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ عَلَىٰ وَجْهٍ لَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَلَا يَرْضَاهُ؛ كَمَا يُؤَاخَذُ عَلَىٰ تَقْصِيرِهِ فِي تَعَلُّمِ السُّنَّةِ، وَاجْتِنَابِ الْبِدْعَةِ. وَلَا سِيَّمَا فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي بَلَغَتْ فِيهَا السُّنَّةُ الْآفَاقَ، وَانْتَشَرَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ.

وَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ الَّذِي يَنْشُرُ بِدْعَتَهُ، وَيُنَافِحُ عَنْهَا حَرِيٌّ بِأَنْ يُدْرِكَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ عَلَىٰ بِدْعَتِهِ؛ لِأَنَّ مَنْشَأَ الْبِدْعَةِ هُوَ الشُّبْهَةُ، وَصَاحِبُهَا يَظُنُّ أَنَّهُ عَلَىٰ خَيْرٍ وَهُوَ عَلَىٰ شَرٍّ؛ إِمَّا اتِّبَاعًا لِهَوَاهُ، أَوْ تَقْلِيدًا لِغَيْرِهِ، فَهُوَ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ جَهْلٍ؛ وَلِذَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ صَاحِبِ كُلِّ بِدْعَةٍ**» رَوَاهُ

الطَّبَرَانِيُّ وَحَسَّنَهُ الْمُنْذِرِيُّ(١٩).

وَمِنْ شُؤْمِ الْبِدْعَةِ أَنَّهَا لَا تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ؛ فَلَيْسَ ثَمَّةَ زِمَامٌ يَزُمُّهَا، وَلَا غَايَةٌ تَبْلُغُهَا، وَالنَّاسُ يَتَوَسَّعُونَ فِيهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ حَتَّىٰ يَبْلُغُوا بِهَا الشِّرْكَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، أَوْ يَعْمَلُوا أَعْمَالًا شَنِيعَةً مُنْكَرَةً، لَا يَرْضَاهَا كَثِيرٌ مِمَّنْ غَرَّتْهُمُ الْبِدْعَةُ فِي أَوَّلِ ظُهُورِهَا، وَمِثَالُ ذَلِكَ: مَا أَحْدَثَ النَّاسُ فِي شَعْبَانَ مِنْ عِبَادَاتٍ وَاحْتِفَالَاتٍ بِنَاءً عَلَىٰ أَحَادِيثَ ضَعِيفَةٍ فِي فَضَائِلِهِ؛ فَإِنَّ بَعْضَ التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ أَخَذُوا بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ، وَأَحْيَوْا لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَلَمَّا انْقَرَضَ جِيلُهُمْ، وَأَعْقَبَتْهَا أَجْيَالٌ أُخْرَىٰ أَحْدَثَ النَّاسُ فِيهَا صَلَاةَ الْأَلْفِيَّةِ الَّتِي أَجْمَعَ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ فِي كُلِّ الْأَعْصَارِ عَلَىٰ أَنَّهَا مَكْذُوبَةٌ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَحَكَمُوا بِبِدْعِيَّتِهَا، وَأَوَّلُ مَا وَقَعَ ذَلِكَ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ الْهِجْرِيِّ؛ كَمَا حَكَىٰ ذَلِكَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمَقْدِسِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- فَقَالَ: «لَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ صَلَاةُ الرَّغَائِبِ هَذِهِ الَّتِي تُصَلَّىٰ فِي رَجَبٍ، وَلَا صَلَاةُ شَعْبَانَ، وَأَوَّلُ مَا حَدَثَتْ عِنْدَنَا -يَعْنِي: صَلَاةَ شَعْبَانَ- فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ، قَدِمَ عَلَيْنَا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ رَجُلٌ مِنْ نَابُلِس يُعْرَفُ بِابْنِ أَبِي الْحَمْرَاءِ، وَكَانَ حَسَنَ التِّلَاوَةِ، فَقَامَ

---

(١٩) أخرجه من حديث أنس ﷺ: إسحاق بن راهويه في مسنده (٣٩٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٧)، وأبو الشيخ في تاريخ أصبهان (٢٥٩)، والطبراني في الأوسط (٤٢٠٢)، والبيهقي في الشعب (٩٤٥٧)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٤٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسىٰ الفروي وهو ثقة» (١٠/ ١٨٩)، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٢٠)، وقال: «وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير هارون بن موسىٰ وهو الفروي، قال النسائي وتبعه الحافظ في التقريب: لا بأس به».

وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية، وقال بعد أن أورد له طريقين (٢١١-٢١٢): «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، ومدار الطريقين علىٰ محمد بن عبد الرحمن الكوفي القشيري. قال ابن عدي: هو منكر الحديث مجهول، وهو من مشائخ بقية المجهول ..».

يُصَلِّي فِي المَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَأَحْرَمَ خَلْفَهُ رَجُلٌ، ثُمَّ انْضَافَ إِلَيْهِمَا ثَالِثٌ وَرَابِعٌ، فَمَا خَتَمَهَا إِلَّا وَهُمْ جَمَاعَةٌ كَبِيرَةٌ، ثُمَّ جَاءَ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ فَصَلَّىٰ مَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَشَاعَتْ فِي المَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ وَبُيُوتِ النَّاسِ وَمَنَازِلِهِمْ، ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ كَأَنَّهَا سُنَّةٌ . . .»(٢٠).

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أُحْدِثَ فِي لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ أَدْعِيَةٌ مَخْصُوصَةٌ؛ حَتَّىٰ صَارَ النَّاسُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ يُؤَلِّفُونَهَا وَيُوَزِّعُونَهَا عَلَىٰ الْعَامَّةِ فِي كُتُبٍ مَطْبُوعَةٍ(٢١).

ثُمَّ صَارَ يُحْتَفَلُ بِهَا كَمَا يُحْتَفَلُ بِالْأَعْيَادِ الْكَبِيرَةِ، وَهَكَذَا لَا يَقِفُ الْجَهَلَةُ عِنْدَ حَدٍّ فِي بِدْعَتِهِمْ، وَكُلُّ أَهْلِ جِيلٍ يُحْدِثُونَ فِيهَا أَعْمَالًا جَدِيدَةً، حَتَّىٰ تُصْبِحَ شَعِيرَةً مِنَ الشَّعَائِرِ الْكَبِيرَةِ؛ فَيُطْمَسُ مَا يُطْمَسُ مِنَ السُّنَّةِ، وَيَنْتِجُ عَنْهَا مَا يَنْتِجُ مِنَ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ، حَتَّىٰ يَكُونَ الدِّينُ الْحَقُّ فِي غُرْبَةٍ، وَضَحِيَّةُ ذَلِكَ: عَوَامُّ الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ يَسْعَوْنَ فِي تِلْكَ الْبِدَعِ سَعْيًا بَاطِلًا، يُرْهِقُ أَبْدَانَهُمْ، وَيَسْتَنْزِفُ أَمْوَالَهُمْ، وَيُضَيِّعُ أَوْقَاتَهُمْ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا بِأَوْزَارٍ اللهُ أَعْلَمُ بِهَا، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ شَيْءٌ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاحْذَرُوا الْبِدَعَ؛ فَإِنَّهَا شَرٌّ عَظِيمٌ، وَالْتَزِمُوا السُّنَنَ فَإِنَّ الْخَيْرَ فِيهَا، وَإِذَا زَاحَمَتِ السُّنَّةُ الْبِدْعَةَ كَانَ ذَلِكَ مِنْ خَيْرِ الزَّمَانِ، وَإِذَا قَضَتِ الْبِدْعَةُ عَلَىٰ السُّنَّةِ كَانَ ذَلِكَ شُؤْمًا عَلَىٰ النَّاسِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.

❊ ❊ ❊

---

(٢٠) الباعث علىٰ إنكار البدع (٢٥)، وانظر: الإبداع في مضار الابتداع (٢٨٨).

(٢١) تنشر هذه الكتب في كثير من البلاد الإسلامية؛ كبلاد الشام، وخاصة لبنان وسورية، ومصر وتركيا، وشرق آسيا، وغيرها، ويتبنىٰ نشرها وتوزيعها المتصوفة، هدانا الله وإياهم إلىٰ الحق.

٢٢٠- من صفات المنافقين (٣) (*)
رفض حكم الله تعالى

١٦/ ١٠/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٦٨-٧٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَرَاقِبُوهُ فَلَا تَعْصُوهُ؛ فَإِنَّكُمْ فِي زَمَنٍ كَثُرَ فِيهِ الزَّيْغُ وَالضَّلَالُ، وَالْتَبَسَ فِيهِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَلَا مَنْجَاةَ فِيهِ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي ظِلِّ التَّلْبِيسِ وَالتَّضْلِيلِ وَالتَّحْرِيفِ إِلَّا بِنُورِ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّذِي يَقْذِفُهُ فِي قُلُوبِ الصَّالِحِينَ مِنْ خَلْقِهِ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وَأَسَاسُ

(*) من صفات المنافقين (١) تجدها في مجلد (١) خطبة رقم (٢٣)، ومن صفات المنافقين (٢) تجدها في مجلد (١) خطبة رقم (٢٤).

ذَلِكَ وَعِمَادُهُ: تَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ لِنَيْلِ ذَلِكَ النُّورِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ: قَبُولُ الْحَقِّ، وَرَحْمَةُ الْخَلْقِ، وَالْقِيَامُ بِالْعَدْلِ، وَالْإِنْصَافُ مِنَ النَّفْسِ، وَمِنْ صِفَاتِ المُنَافِقِينَ: الْفُجُورُ فِي الْخُصُومَةِ، وَالْكَذِبُ فِي الْحَدِيثِ وَالدَّعْوَىٰ، وَرَفْضُ الْحَقِّ إِنْ كَانَ عَلَيْهِمْ. وَرَفْضُهُمْ لِلْحَقِّ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِمْ، وَسَجِيَّةٌ مِنْ سَجَايَاهُمُ الَّتِي تَخَلَّقُوا بِهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ مُنْذُ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، وَلَا يَجِدُونَ حَرَجًا مِنْ رَدِّ الْحُكْمِ إِذَا كَانَ عَلَيْهِمْ وَلَوْ كَانَ صَادِرًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، أَوْ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ، أَوْ عَمَّنْ يَحْكُمُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، هَكَذَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ وَقْتَ تَنَزُّلِ الْقُرْآنِ قَبْلَ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ.

وَمِنْ دَلَائِلِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ يَقَعُ مِنْهُمْ كَثِيرًا فِي هَذِهِ الْأَزْمَانِ الْمُتَأَخِّرَةِ عَنْ تَنَزُّلِ الْقُرْآنِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ حَاكِيًا عَنْهُمْ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٤٧-٥٠]، ثُمَّ بَعْدَ بَيَانِ مَوْقِفِ المُنَافِقِينَ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَأَحْكَامِ رَسُولِهِ ﷺ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ مَوْقِفَ المُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢].

قَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «كَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّجُلِ

مُنَازَعَةٌ فَدُعِيَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُحِقٌّ أَذْعَنَ، وَعَلِمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ سَيَقْضِي لَهُ بِالْحَقِّ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَظْلِمَ فَدُعِيَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ أَعْرَضَ، وَقَالَ: أَنْطَلِقُ إِلَىٰ فُلَانٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ»[(١)].

وَتَأَمَّلُوا -عِبَادَ اللَّهِ- قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أَيْ: وَإِذَا كَانَ الْحُكْمُ لَهُمْ لَا عَلَيْهِمْ جَاءُوا سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، وَإِذَا كَانَ الْحُكْمُ عَلَيْهِمْ أَعْرَضُوا، وَدَعَوْا إِلَىٰ غَيْرِ الْحَقِّ، وَأَحَبُّوا التَّحَاكُمَ إِلَىٰ غَيْرِ الشَّرِيعَةِ؛ لِيُرَوِّجُوا بَاطِلَهُمْ، فَلَمْ يَكُنْ إِذْعَانُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ إِذَا أَذْعَنَ لِحُكْمِ الشَّرِيعَةِ عَنِ اعْتِقَادٍ مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ؛ بَلْ لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِهَوَاهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا خَالَفَ قَصْدُهُ الْحَقَّ عَدَلَ عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ.

لَقَدْ فَضَحَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَلَكِنَّ أَفْعَالَهُمْ تُكَذِّبُ مَزَاعِمَهُمْ، وَعَدَمَ قَبُولِهِمْ لِلْحَقِّ يُنْبِئُ عَنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ، وَلَمَّا أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِطَاعَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَطَاعَةِ وُلَاةِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ؛ أَمَرَ عِنْدَ التَّنَازُعِ بِالرَّدِّ إِلَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالتَّحَاكُمِ إِلَىٰ مَا جَاءَ فِيهِمَا، ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ مَوْقِفَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «ذَمَّ الْمُدَّعِينَ الْإِيمَانَ بِالْكُتُبِ كُلِّهَا وَهُمْ يَتْرُكُونَ التَّحَاكُمَ إِلَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَتَحَاكَمُونَ إِلَىٰ بَعْضِ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٦٢٢).

الطَّوَاغِيتِ المُعَظَّمَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَمَا يُصِيبُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِمَّنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ وَيَنْتَحِلُهُ، فِي تَحَاكُمِهِمْ إِلَىٰ مَقَالَاتِ الصَّابِئَةِ الْفَلَاسِفَةِ أَوْ غَيْرِهِمْ، أَوْ إِلَىٰ سِيَاسَةِ بَعْضِ الْمُلُوكِ الْخَارِجِينَ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ مِنْ مُلُوكِ التُّرْكِ وَغَيْرِهِمْ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: تَعَالَوْا إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ إِعْرَاضًا»[٢].

وَقَالَ الرَّازِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا أَوْجَبَ فِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ عَلَىٰ جَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ أَنْ يُطِيعُوا اللهَ وَيُطِيعُوا الرَّسُولَ، ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ لَا يُطِيعُونَ الرَّسُولَ وَلَا يَرْضَوْنَ بِحُكْمِهِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ حُكْمَ غَيْرِهِ»[٣].

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ الشِّنْقِيطِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَنَّ مَنْ دُعِيَ إِلَىٰ الْعَمَلِ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَصَدَّ عَنْ ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الْمُنَافِقِينَ»[٤].

وَقَدْ أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَنَّ الْإِيمَانَ مَنْفِيٌّ عَمَّنْ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ الشَّرِيعَةِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، وَالِاسْتِجَابَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَفَاتِهِ هِيَ الرُّجُوعُ إِلَىٰ سُنَّتِهِ ﷺ، وَالتَّحَاكُمُ إِلَيْهَا.

وَذَكَرَ الرَّازِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- جُمْلَةً مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: «وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ دَلَائِلُ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ أَوْ أَوَامِرِ

---

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٣) التفسير الكبير (١٠/ ١٢٣).

(٤) أضواء البيان (٧/ ٣٠٠).

الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ خَارِجٌ عَنِ الْإِسْلَامِ، سَوَاءٌ رَدَّهُ مِنْ جِهَةِ الشَّكِّ أَوْ مِنْ جِهَةِ التَّمَرُّدِ» اهـ[٥].

وَقَدْ ظَهَرَ لِكُلِّ مُتَابعٍ لِأَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ أَنَّ مَوْقِفَهُمْ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: أَخْذٌ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْهَا، وَرَدُّ مَا لَا يَتَوَافَقُ مَعَ أَهْوَائِهِمْ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ فَلَا غَرَابَةَ أَنْ نَرَىٰ مَنْ يُحَارِبُ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ فِي بَعْضِ الْجَوَانِبِ، يُدَافِعُ عَنْهَا فِي جَوَانِبَ أُخْرَىٰ، وَلَا عَجَبَ أَنْ نَسْمَعَ مَنْ يَطْعَنُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ثُمَّ يَسْتَشْهِدُ بِهِمَا، فَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّنْ فَعَلَهُ إِيمَانًا بِمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَحَاكُمًا إِلَىٰ نُصُوصِهِمَا، وَاسْتِغْنَاءً بِهِمَا عَمَّا سِوَاهُمَا؛ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَأَخَذُوا بِكُلِّ الشَّرِيعَةِ، وَلَكِنَّهُ انْتِقَاءٌ يَنْتَقُونَهُ مِنْهَا بِمَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ كَفَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَمَلَاحِدَةِ النَّاسِ.

وَإِذَا جَادَلَ الْمُنَافِقُونَ عَنْ بَاطِلِهِمْ، وَقَامُوا مَقَامَ الْمُحَاجَجَةِ وَالْمُخَاصَمَةِ فَإِنَّهُمْ يَفْجُرُونَ فِي خُصُومَتِهِمْ، وَيَظْلِمُونَ فِي دَعَاوِيهِمْ، وَيَكْذِبُونَ فِي حَدِيثِهِمْ، وَيَسْتَمِيتُونَ فِي نَصْرِ بَاطِلِهِمْ، هَكَذَا جَاءَ الْخَبَرُ عَنْهُمْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِهِ إِنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تَصِفُهُمْ بِذَلِكَ كَأَنَّهَا تَتَنَزَّلُ الْآنَ، وَنَحْنُ نُشَاهِدُ أَفْعَالَهُمْ، وَنَسْمَعُ أَقْوَالَهُمْ، وَنَقْرَأُ كِتَابَاتِهِمْ؛ كَأَنَّ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ تَتَنَزَّلُ الْآنَ؛ مِنْ دِقَّةِ وَصْفِهَا لِهُمْ، وَشِدَّةِ انْطِبَاقِهَا عَلَيْهِمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦]، فَوَصَفَ سُبْحَانَهُ الْمُنَافِقَ بِأَنَّهُ أَلَدُّ فِي خُصُومَتِهِ، وَالْأَلَدُّ هُوَ

---

(٥) التفسير الكبير (١٠/ ١٢٤).

الْأَعْوَجُ(٦)، فَهُوَ يَعُوجُ فِي خُصُومَتِهِ عَنِ الْحَقِّ، وَيَفْتَرِي الْكَذِبَ، وَيَتَّخِذُ كُلَّ الْوَسَائِلِ فِي تَحْقِيقِ مُرَادِهِ، دُونَ اعْتِبَارٍ لِدِينٍ أَوْ خُلُقٍ، أَوْ خَوْفًا مِنْ ظُلْمٍ أَوْ حَيْفٍ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ مِنَ الْبَشَرِ فَهُوَ مَمْقُوتٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ كَمَا رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ**»(٧).

وَأَخْبَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الْفُجُورَ فِي الْخُصُومَةِ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ النِّفَاقِ، فَقَالَ ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٨).

---

(٦) قال العيني: «الألد في اللغة هو الأعوج: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٧٩]. أي: عوجا، وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفتري ويفجر. ويقال: الألد هو شديد الجدال، والإضافة فيه بمعنىٰ: في، كقولهم: ثبت الغدر أو جعل الخصام ألد علىٰ المبالغة، وفي (الجامع): واللدد مصدر الألد، ورجل ألد إذا اشتد في الخصومة، والأنثىٰ لداء، واللدد الجدال، أخذ من: لديد الوادي أي: جانبه، كأنه إذا منع من جانب جاء من جانب آخر، وفي تفسير عبد الرحمن عن ابن عباس: ألد الخصام، أي: ذو جدال إذا كلمك وراجعك. وعن الحسن: كاذب القول، وعن مجاهد: ظالم لا يستقيم، وعن قتادة: شديد القسوة في معصية الله جدل بالباطل. وقال ابن سيده: لددت لددا: صرت ألد، ولددته ألده إذا خصمته. وقيل: مأخوذ من اللديدين وهما صفحتا العنق، والمعنىٰ: من أي جانب أخذ في الخصومة قوي، والخصام جمع: الخصم، كصعب وصعاب، قاله الزجاج. وقيل: هو مصدر خاصمته» عمدة القاري (١٣/ ٤).

(٧) أخرجه البخاري في المظالم والغصب، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] ومسلم في العلم، باب في الألد الخصم (٢٦٦٨).

(٨) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄: البخاري في الإيمان، باب علامة المنافق (٣٤)، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال المنافق (٥٨).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَيَعْنِي بِالْفُجُورِ أَنْ يَخْرُجَ عَنِ الحَقِّ عَمْدًا حَتَّىٰ يَصِيرَ الحَقُّ بَاطِلًا وَالْبَاطِلُ حَقًّا، وَهَذَا مِمَّا يَدْعُو إِلَيْهِ الْكَذِبُ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ**» ... فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ ذَا قُدْرَةٍ عِنْدَ الْخُصُومَةِ -سَوَاءٌ كَانَتْ خُصُومَتُهُ فِي الدِّينِ أَوْ فِي الدُّنْيَا- عَلَىٰ أَنْ يَنْتَصِرَ لِلْبَاطِلِ، وَيُخَيِّلَ لِلسَّامِعِ أَنَّهُ حَقٌّ، وَيُوهِنَ الْحَقَّ، وَيُخْرِجَهُ فِي صُورَةِ الْبَاطِلِ، كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَقْبَحِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَمِنْ أَخْبَثِ خِصَالِ النِّفَاقِ» اهـ[٩].

وَتِلْكَ هِيَ أَفْعَالُ الْمُنَافِقِينَ، يَنْتَصِرُونَ لِلظُّلْمِ عَلَىٰ الْعَدْلِ، وَيُعِينُونَ عَلَىٰ الْبَاطِلِ ضِدَّ الْحَقِّ، وَيَحُولُونَ دُونَ تَطْبِيقِ شَرِيعَةِ اللَّهِ الَّتِي أَنْزَلَها، وَيَقِفُونَ أَمَامَ حُدُودِهِ الَّتِي فَرَضَهَا، بِكُلِّ الْوَسَائِلِ وَالْأَسَالِيبِ، وَيَتَّخِذُونَ الْكَذِبَ وَالْبُهْتَانَ، وَتَزْوِيرَ الْحَقَائِقِ، وَرَمْيَ الْأَبْرِيَاءِ بِالتُّهَمِ الْبَاطِلَةِ مَطِيَّةً لِبُلُوغِ ذَلِكَ.

وَكَمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَالْفَسَادِ! وَأَصْحَابُهُ مَوْعُودُونَ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ، كَمَا رَوَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، فَقَدْ ضَادَّ اللهَ، وَمَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ وَهُوَ يَعْلَمُهُ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْزِعَ، وَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللهُ رَدْغَةَ الخَبَالِ حَتَّىٰ يَخرُجَ مِمَّا قَالَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[١٠].

وَإِذَا طُولِبَ أَهْلُ النِّفَاقِ بِالْعَدْلِ لَمْ يَعْدِلُوا، وَإِذَا ذُكِّرُوا لَمْ يَتَذَكَّرُوا، وَإِذَا

---

(٩) جامع العلوم والحكم (٤٣٢).

(١٠) أخرجه أبو داود في الأقضية، باب فيمن يعين علىٰ خصومة من غير أن يعلم أمرها (٣٥٩٧)، وأحمد (٢/ ٧٠)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٢٧)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٣٧).

وُعِظُوا اسْتَكْبَرُوا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وَقَدْ يَخْفَىٰ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ حَالُ الْمُنَافِقِينَ؛ لِأَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ خِلَافَ مَا يُبْطِنُونَ؛ وَلِذَلِكَ يُعَامَلُونَ بِحَسَبِ مَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ مِنْ أَحْوَالِهِمْ، فَمَنْ أَظْهَرَ رِدَّتَهُ عُومِلَ مُعَامَلَةَ الْمُرْتَدِّينَ، وَحُوكِمَ بِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمَنْ أَخْفَىٰ ذَلِكَ وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ فَلَا يُؤَاخَذُ إِلَّا بِمَا ظَهَرَ مِنْهُ، وَمَنْ فَلَتَ لِسَانُهُ بِزَنْدَقَةٍ فَقَدْ أَنْبَأَ لِسَانُهُ عَنْ مَكْنُونِ قَلْبِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا فَيُعَلَّمَ، أَوْ مُتَأَوِّلًا فَتُزَالَ شُبْهَتُهُ حَتَّىٰ يَعُودَ إِلَىٰ الْحَقِّ.

وَمِنْ عَجِيبِ مَا سُجِّلَ فِي التَّارِيخِ فِي هَذَا الشَّأْنِ حَادِثَةٌ وَقَعَتْ فِي الْأَنْدَلُسِ فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهِجْرِيِّ، دَوَّنَهَا مُؤَرِّخُو الْأَنْدَلُسِ، وَمُلَخَّصُهَا: أَنَّ أَمِيرَ قُرْطَبَةَ آنَذَاكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَكَمِ الْأُمَوِيَّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- كَانَ لَهُ زَوْجَةٌ هِيَ أَحَبُّ زَوْجَاتِهِ إِلَيْهِ، وَلَهَا ابْنُ أَخٍ مُسْتَهْتِرٌ، خَرَجَ يَوْمًا وَالسَّمَاءُ تُمْطِرُ فَبَلَّهُ الْمَطَرُ، فَقَالَ: بَدَأَ الْخَرَّازُ يَرُشُّ جُلُودَهُ، فَحَبَسَهُ الْأَمِيرُ، فَلَمْ تَزَلْ زَوْجَةُ الْأَمِيرِ تُحَاوِلُ إِطْلَاقَ ابْنِ أَخِيهَا، فَقَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: نُكَاشِفُ أَهْلَ الْعِلْمِ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ فِي لَفْظِهِ، ثُمَّ يَكُونُ الْفَصْلُ فِي أَمْرِهِ، فَاجْتَمَعَ مَجْلِسُ كِبَارِ الْفُقَهَاءِ فِي قُرْطُبَةَ، وَتَوَقَّفُوا عَنْ سَفْكِ دَمِهِ عَلَىٰ الرِّدَّةِ، وَأَشَارُوا إِلَىٰ أَنَّهُ عَبَثٌ مِنَ الْقَوْلِ يَكْفِي فِيهِ الْأَدَبُ، إِلَّا الْفَقِيهَيْنِ عَبْدَالمَلِكِ بْنَ حَبِيبٍ وَأَصْبَغَ بْنَ خَلِيلٍ فَأَفْتَيَا بِقَتْلِهِ، وَرَأَىٰ قَاضِي قُرْطُبَةَ مُوسَىٰ بْنُ زِيَادٍ مَا رَأَىٰ جَمْعُ الْفُقَهَاءِ فَحَكَمَ بِهِ، فَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: دَمُهُ فِي عُنُقِي، أَيُشْتَمُ رَبًّا عَبَدْنَاهُ، وَلَا نَنْتَصِرُ لَهُ؟! إِنَّا إِذًا لَعَبِيدُ سُوءٍ، وَمَا نَحْنُ لَهُ بِعَابِدِينَ، وَبَكَىٰ، فَرُفِعَ الْمَجْلِسُ إِلَىٰ الْأَمِيرِ، فَخَرَجَ الْإِذْنُ مِنْ عِنْدِهِ بِالْأَخْذِ بِقَوْلِ ابْنِ حَبِيبٍ وَصَاحِبِهِ، وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ وَصَلْبِهِ، فَقُتِلَ وَصُلِبَ بِحَضْرَةِ

الْفَقِيهَيْنِ: ابْنِ حَبِيبٍ وَأَصْبَغَ، وَعَزَلَ الْأَمِيرُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- الْقَاضِيَ لِمُدَاهَنَتِهِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَوَبَّخَ بَقِيَّةَ الْفُقَهَاءِ وَسَبَّهُمْ عَلَىٰ مَوْقِفِهِمْ(١١).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يَجْعَلَ وَلَاءَنَا لَهُ وَلِدِينِهِ وَلِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْ يَكْفِيَنَا شُرُورَ أَنْفُسِنَا وَشُرُورَ كُلِّ ذِي شَرٍّ مِنْ عِبَادِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [النور: ٣٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ؛ نَحْمَدُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ الْعَظِيمَةِ وَآلَائِهِ الْجَسِيمَةِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَىٰ هَدْيِهِمْ، وَاسْتَنَّ بِسُنَّتِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ رَاجِعُونَ، وَعَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ مُحَاسَبُونَ، فَاسْتَعِدُّوا لِذَلِكَ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: الِاعْتِرَاضُ عَلَىٰ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّتِي أَنْزَلَهَا وَبَيَّنَهَا رَسُولُهُ ﷺ مَزْلَقٌ خَطِيرٌ، وَدَرْكٌ سَحِيقٌ، يُودِي بِصَاحِبِهِ إِلَىٰ الرِّدَّةِ وَالزَّنْدَقَةِ، وَيَجْعَلُهُ فِي عِدَادِ

---

(١١) ينظر: الشفا للقاضي عياض (٢/ ٢٤٧)، والذخيرة (١٢/ ٣٠).

المُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَوَعَّدَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وَطَاعَةُ الْإِمَامِ المُسْلِمِ فِي غَيْرِ المَعْصِيَةِ هِيَ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَإِذَا نَصَّبَ الْإِمَامُ قُضَاةً يَحْكُمُونَ النَّاسَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَىٰ أَحْكَامِهِمْ؛ لِأَنَّهَا لَا تُوَافِقُ هَوَاهُ، وَلَا أَنْ يَسْخَرَ مِنْ قَضَاءٍ هَذَا حَالُهُ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ قَضَاءً آخَرَ مَأْخُوذًا مِنَ الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ، كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يَفْعَلُهُ مِمَّنْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالمُثَقَّفِينَ وَالصَّحَفِيِّينَ، وَمَنْ كَانَ حَالُهُ هَكَذَا فَهُوَ يَرُدُّ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَمْ يَسْتَسْلِمْ لِدِينِهِ، وَلَوْ زَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، وَهُوَ كَذَلِكَ يَطْعَنُ فِيمَنِ اخْتَارَ الْإِسْلَامَ مَنْهَجًا يَتَحَاكَمُ النَّاسُ إِلَىٰ شَرِيعَتِهِ، وَهَذَا طَعْنٌ فِي كُلِّ مُسْلِمٍ يَرْتَضِي دِينَ الْإِسْلَامِ حَاكِمًا كَانَ أَمْ مَحْكُومًا.

إِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ فُتِنُوا بِالمَنَاهِجِ الْغَرْبِيَّةِ قَدْ رَفَعُوا عَقِيرَتَهُمْ طَعْنًا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ، وَاسْتِهْزَاءً بِشَرِيعَتِهِ، وَمُطَالَبَةً بِفَصْلِهَا عَنْ حَيَاةِ النَّاسِ، وَحَصْرِهَا فِي التَّعَبُّدَاتِ المَحْضَةِ، كَمَا عَمِلَ المَلَاحِدَةُ الْغَرْبِيُّونَ بِدِينِ النَّصَارَىٰ المُحَرَّفِ، فِي تَدَاعٍ سَرِيعٍ، وَتَأَلُّبٍ عَجِيبٍ، لَمَّا رَأَوْا أَنَّ الْقُوَىٰ المُسْتَكْبِرَةَ تَقِفُ مَعَ مَطَالِبِهِمْ، وَتُرِيدُ تَغْيِيرَ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

وَمِنْ عَجِيبِ هَؤُلَاءِ المَفْتُونِينَ: أَنَّهُمْ إِذَا ضَاقَتْ حِيلَتُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُمْ، وَثَبَتَ الجُرْمُ عَلَىٰ أَتْبَاعِهِمْ؛ شَهَرُوا سِلَاحَ الْوَطَنِيَّةِ فِي وُجُوهِ خُصُومِهِمْ، مُدَّعِينَ أَنَّهُمْ وَطَنِيُّونَ، وَأَنَّ خُصُومَهُمْ أَعْدَاءٌ لِلْوَطَنِ، فِي انْتِهَازِيَّةٍ قَبِيحَةٍ، وَأَخْلَاقٍ رَدِيئَةٍ، وَخُصُومَةٍ غَيْرِ شَرِيفَةٍ، بَلْ كُلُّهَا لَجَاجٌ وَكَذِبٌ وَفُجُورٌ.

وَالْوَطَنِيَّةُ الَّتِي فِي أَذْهَانِ هَؤُلَاءِ هِيَ ذَوَاتُهُمُ المُنْتَفِخَةُ بِالنَّرْجِسِيَّةِ، وَأَفْكَارُهُمُ النَّاضِحَةُ بِكُلِّ رَدِيءٍ مِنَ الْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ، وَفِي وَاقِعِ الْأَمْرِ هُمْ أَعْدَاءُ الْوَطَنِ

وَأَعْدَاءُ أَبْنَائِهِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يَطْعَنُونَ فِي دِينٍ يَدِينُ بِهِ جُمْهُورُ النَّاسِ فِي الْبِلَادِ الْمُسْلِمَةِ، وَيَدِينُ بِهِ كُلُّ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ الْمُبَارَكَةِ، وَلَا تَعْدُو أَفْعَالُهُمْ أَفْعَالَ إِخْوَانِهِمْ مِنْ مُدَّعِي الْوَطَنِيَّةِ فِي الْبِلَادِ الْقَرِيبَةِ الَّتِي بَاعُوهَا لِلْأَعْدَاءِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ، ثُمَّ كَانُوا -وَهُمْ وَطَنِيُّونَ- رَأْسَ حَرْبَةِ الْأَعْدَاءِ فِي احْتِلَالِهَا، وَطَلَائِعَ الِاسْتِعْمَارِ فِيهَا.

لَقَدْ عَلَّمَنَا التَّارِيخُ وَالْأَحْدَاثُ الْمُعَاصِرَةُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَزَنْدِقِينَ هُمْ أَخْوَنُ النَّاسِ لِلْبِلَادِ وَالْعِبَادِ عِنْدَ نُزُولِ الْبَلَاءِ، وَاسْتِحْكَامِ الشِّدَّةِ. وَمَنْ خَانَ دِينَهُ فَهُوَ لِمَا دُونَهُ أَخْوَنُ، وَمَنْ ضَيَّعَ أَمَانَتَهُ مَعَ رَبِّهِ فَهُوَ لِتَضْيِيعِهَا مَعَ غَيْرِهِ أَشَدُّ، وَمَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ مَعَ خَالِقِهِ وَرَازِقِهِ فَهُوَ لِنَقْضِ غَيْرِهِ مِنَ الْعُهُودِ أَحْرَىٰ، وَمَنْ طَعَنَ الْيَوْمَ فِي الْقَضَاءِ طَعَنَ غَدًا فِي غَيْرِهِ، وَمَنْ شَكَّكَ الْيَوْمَ فِي شَرْعِيَّةِ الْقَضَاءِ شَكَّكَ غَدًا فِي شَرْعِيَّةِ مَا هُوَ أَعْلَىٰ سُلْطَةً مِنَ الْقَضَاءِ.

لَقَدْ أَصَمَّ هَؤُلَاءِ آذَانَ النَّاسِ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ ثَقَافَةِ الْحِوَارِ، وَقَبُولِ الْآخَرِ، وَسَمَاعِ الرَّأْيِ الْآخَرِ، ثُمَّ رَأَيْنَاهُمْ لَا يَقْبَلُونَ إِلَّا الْكُفَّارَ وَالزَّنَادِقَةَ، وَمَنْ كَانَ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِمْ مِنْ مُرِيدِيهِمْ وَالْمُطَبِّلِينَ لَهُمْ، وَمَا رَأَيْنَاهُمْ يَقْبَلُونَ سِوَاهُمْ مِنْ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ، فَضْلًا عَنْ قَبُولِهِمْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، وَرَأَيْنَا صُحُفَهُمُ الْمَسْمُومَةَ تَجْعَلُ الْمُذْنِبَ بَرِيئًا، وَتُعْلِي صَوْتَهُ، وَتَقْدَحُ فِي عَشَرَاتِ النَّاسِ مِمَّنِ احْتَسَبُوا عَلَيْهِ، أَوْ حَقَّقُوا مَعَهُ، أَوْ شَهِدُوا عَلَىٰ جُرْمِهِ، ثُمَّ إِذَا حَكَمَ الْقَاضِي عَلَيْهِ صَاحُوا مُطَالِبِينَ بِإِلْغَاءِ الْحُكْمِ، وَطَعَنُوا فِي كُلِّ مَا يَمُتُّ لِلْقَضِيَّةِ بِصِلَةٍ، وَأَلَّبُوا النَّاسَ عَلَىٰ ذَلِكَ، فِي بَلْبَلَةٍ يَبْتَغُونَ بِهَا الْفِتْنَةَ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ أَنَّ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ لَمْ يُوَافِقْ هَوَاهُمْ، فَهَلْ فُجْرٌ فِي الْخُصُومَةِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الْفُجُورِ؟! وَهَلْ إِرْهَابٌ فِكْرِيٌّ أَعْتَىٰ مِنْ هَذَا الْإِرْهَابِ؟! وَهَلْ يَعْقِلُ هَؤُلَاءِ مَا يَقُولُونَ، وَيَعُونَ مَا يَكْتُبُونَ؟!

إِنَّهُمْ يَرْمُونَ غَيْرَهُمْ بِخَسِيسَتِهِمْ، وَيَتَّهِمُونَهُمْ بِمَا هُمْ غَارِقُونَ فِيهِ! أَوَلَيْسُوا يَصِيحُونَ فِي دُعَاةِ الْإِسْلَامِ بِأَنَّهُمْ مُؤْدَلَجُونَ لِأَفْكَارٍ مُعَيَّنَةٍ؟! فَلِمَاذَا لَا يَكُونُونَ هُمُ الْمُؤْدَلَجِينَ لِحَرْبِ الْإِسْلَامِ وَإِلْغَاءِ شَرِيعَتِهِ؟! يُفَكِّرُونَ بِعُقُولِ غَيْرِهِمْ، وَيَخْدُمُونَ أَعْدَاءَهُمْ، وَيُسِيئُونَ إِلَىٰ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، قَدِ انْحَازُوا إِلَىٰ الْبَاطِلِ بِشَكْلٍ مَفْضُوحٍ، وَاسْتَعْبَدَتْهُمْ أَفْكَارٌ دَخِيلَةٌ، وَمَذَاهِبُ هَدَّامَةٌ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ، فَتَبًّا لِحُرِّيَّةٍ أَوْثَقَتْ أَصْحَابَهَا بِتِلْكَ الْأَغْلَالِ حَتَّىٰ مَا عَادَ لَهُمْ عُقُولٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- تُرَّهَاتُهُمْ وَطُعُونُهُمْ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَإِنَّ ذَٰلِكَ حِيلَةُ الْحَانِقِ الْغَاضِبِ الَّذِي رَأَىٰ النَّاسَ مُنْصَرِفَةً عَنْهُ وَعَنْ أَفْكَارِهِ الْمُتَعَفِّنَةِ، وَقَدْ تَعَوَّدَ عَلَىٰ جَوٍّ مِنَ الدِّعَايَةِ وَتَضْخِيمِ الذَّاتِ لَا يَسْتَطِيعُ الْعَيْشَ إِلَّا فِيهِ، ثُمَّ رَأَىٰ جُمْهُورَ الْأُمَّةِ قَدْ وَلَّوْا عَنْهُ، وَانْحَازُوا إِلَىٰ دِينِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ فَضِيحَةِ الْمَبَادِئِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ الَّتِي ذَبَحَتْ بِلَادَ الْأَفْغَانِ وَالْعِرَاقَ ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

❀ ❀ ❀

٢٢١- من صفات المنافقين (٤)
السخرية بالدين وأهله

٢٨/ ٨/ ١٤٢٩هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَىٰ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْإِيمَانِ وَالْهُدَىٰ، وَأَضَلَّ عَنْ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ أَهْلَ الرَّدَىٰ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ مَا أَعْطَانَا، وَنَسْأَلُهُ الثَّبَاتَ عَلَىٰ دِينِنَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَبَشَّرَ عِبَادَهُ وَأَنْذَرَهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فَاطِر: ٦]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ حَرَصَ عَلَىٰ هِدَايَتِنَا فَنَصَحَ لَنَا وَبَلَّغَنَا، وَعَزَّ عَلَيْهِ عَنَتُنَا فَسَلَكَ سَبِيلَ الْيُسْرِ بِنَا، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِي نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ -عِبَادَ اللَّهِ- بِتَقْوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَطَاعَتِهِ؛ فَإِنَّ الْأَيَّامَ تَمْضِي بِكُمْ إِلَىٰ قُبُورِكُمْ، وَإِنَّكُمْ مُرْتَحِلُونَ مِنْ دُنْيَاكُمْ إِلَىٰ أُخْرَاكُمْ؛ وَلَنْ تَجِدُوا أَمَامَكُمْ إِلَّا أَعْمَالَكُمْ، فَاحْذَرُوا الِاشْتِغَالَ بِمَا يَفْنَىٰ عَمَّا يَبْقَىٰ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: النِّفَاقُ دَاءٌ يَفْتِكُ بِالْقُلُوبِ حَتَّىٰ يَنْقُلَ أَصْحَابَهَا مِنَ الْإِيمَانِ إِلَىٰ الْكُفْرِ، وَمِنَ اسْتِحْقَاقِ الْجَنَّةِ إِلَىٰ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَالْمُنَافِقُونَ فِتْنَةٌ تَسْرِي فِي الْأُمَّةِ لِلصَّدِّ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَإِخْرَاجِ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنْهُ، وَمُحَارَبَةِ الْحَقِّ وَدُعَاتِهِ؛ وَذَلِكَ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَامْتِحَانٌ لِلْعِبَادِ، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم

بِبَعْضٍ﴾ [الْأَنْعَام: ٥٣]، وَفِي الْفُرْقَانِ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الْفُرْقَان: ٢٠]، وَفِي الْقِتَالِ: ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [مُحَمَّد: ٤].

وَمِنْ أَسْلِحَةِ الْمُنَافِقِينَ فِي الصَّدِّ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: السُّخْرِيَةُ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ، وَرَفْضُ أَحْكَامِهِ، وَرَدُّ شَرِيعَتِهِ، وَالطَّعْنُ فِي حَمَلَتِهِ وَدُعَاتِهِ؛ لِتَنْفِيرِ النَّاسِ مِنْهُمْ، وَتَفْرِيقِهِمْ عَنْهُمْ.

وَتِلْكَ هِيَ طَرِيقَةُ الْمُشْرِكِينَ الْقُدَمَاءِ؛ فَإِنَّهُمُ اتَّخَذُوا السُّخْرِيَةَ بِالنَّبِيِّينَ وَأَتْبَاعِهِمْ سِلَاحًا لَهُمْ؛ لِيَرُدُّوهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَلِيُبْقُوهُمْ عَلَىٰ الْبَاطِلِ؛ كَمَا سَخِرَ قَوْمُ نُوحٍ مِنْهُ لَمَّا صَنَعَ السَّفِينَةَ، وَسَخِرَ قَوْمُ لُوطٍ مِنْهُ وَآلِ بَيْتِهِ لِأَنَّهُمْ يَتَطَهَّرُونَ، وَسَخِرَ أَهْلُ مَكَّةَ بِالنَّبِيِّ ﷺ حَتَّىٰ كَانُوا يَضْحَكُونَ وَيَتَمَايَلُونَ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الْأَنْعَام: ١٠].

بَيْدَ أَنَّ سُخْرِيَةَ الْمُنَافِقِينَ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ أَعْظَمُ مِنْ سُخْرِيَةِ الْكَافِرِينَ، وَأَشَدُّ خَطَرًا عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ مَنْ أَظْهَرُوا الْكُفْرَ يَعْرِفُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ فَيَتَّقُونَ شَرَّهُمْ، وَيَحْذَرُونَ سُخْرِيَتَهُمْ، وَلَا يَقْبَلُونَ قَوْلَهُمْ، وَيَصْبِرُونَ عَلَىٰ أَذَاهُمْ. أَمَّا سُخْرِيَةُ الْمُنَافِقِينَ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَأْبَهُونَ بِهَا، وَلَا يُحَاسِبُونَ أَصْحَابَهَا عَلَيْهَا، وَلَا يَتَّخِذُونَهُمْ أَعْدَاءً، وَلَا يَحْذَرُونَهُمْ أَوْ يُحَذِّرُونَ النَّاسَ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، وَرُبَّمَا أَتَوْا بِشَعَائِرِهِ الظَّاهِرَةِ، كَمَا كَانَ الْمُنَافِقُونَ فِي صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يُصَلُّونَ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَصُومُونَ، وَيَغْزُونَ مَعَهُ، وَهُمْ يُبْطِنُونَ الْكُفْرَ.

وَالنَّاسُ يَقْبَلُونَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَا لَا يَقْبَلُونَهُ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ كُفَّارَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي عَصْرِنَا لَمَّا سَخِرُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي رُسُومِهِمْ وَمَقُولَاتِهِمْ غَضِبَ النَّاسُ أَشَدَّ الْغَضَبِ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُرْتَدِّينَ كَانُوا -وَلَا يَزَالُونَ- يَسْخَرُونَ بِدِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي بَلَّغَهُ عَنْ رَبِّهِ، وَبِحَمَلَةِ هَذَا الدِّينِ وَأَتْبَاعِهِ، وَيُعْلِنُونَ رَفْضَهُمْ

التَّامَّ لِشَرِيعَتِهِ، وَلَا يُحَرِّكُ ذَلِكَ فِي النَّاسِ سَاكِنًا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ النَّاسَ يَتَّقُونَ الْعَدُوَّ الظَّاهِرَ أَكْثَرَ مِنَ اتِّقَائِهِمْ لِلْعَدُوِّ الْكَامِنِ.

وَسُخْرِيَةُ الْمُنَافِقِينَ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ أَخْبَرَنَا بِهَا رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ فِي مَوَاضِعَ شَتَّىٰ مِنْ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ؛ فَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [الْبَقَرَة: ١٣]، فَوَصَفُوا الْإِيمَانَ بِالسَّفَهِ، وَجَعَلُوا الْمُؤْمِنِينَ سُفَهَاءَ، وَلَيْسَ بَعِيدًا عَنْ هَذِهِ الْمَقُولَةِ مَقُولَاتُ مُنَافِقِي عَصْرِنَا هَذَا، وَكِتَابَاتُهُمْ فِي صُحُفِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ، وَمَنْ يَتَمَسَّكُونَ بِهَا، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا، ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٤].

لَقَدْ كَانَ مُنَافِقُو عَهْدِ الرِّسَالَةِ يُخْبِرُونَ رُؤُوسَ الْكُفْرِ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ مَعَهُمْ، وَأَنَّ إِيمَانَهُمْ جُنَّةٌ يَسْتَتِرُونَ بِهَا، وَأَنَّهُمْ يَسْخَرُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَيَلْعَبُونَ بِهِمْ، وَيَقَعُ هَذَا فِي عَصْرِنَا؛ فَإِنَّ مُنَافِقِي الْعَصْرِ يَتَّصِلُونَ بِرُؤُوسِ الْكُفْرِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَيُرَوِّجُونَ لِمَذَاهِبِهِمُ الْمَادِّيَّةِ الْمُعَارِضَةِ لِلْإِسْلَامِ بِاسْمِ التَّقَدُّمِ وَالْإِصْلَاحِ، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا عَلَىٰ أَنَّهَا الْخَلَاصُ مِنْ مَشَاكِلِهِمْ، وَيَطْعَنُونَ فِي الشَّرِيعَةِ وَحَمَلَتِهَا وَأَهْلِهَا زَاعِمِينَ أَنَّهَا التَّخَلُّفُ وَالرَّجْعِيَّةُ وَالظَّلَامِيَّةُ.

وَسُورَةُ التَّوْبَةِ نَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَسُمِّيَتِ الْفَاضِحَةَ؛ لِأَنَّهَا فَضَحَتِ الْمُنَافِقِينَ، وَهَتَكَتْ أَسْتَارَهُمْ، وَأَظْهَرَتْ مَكْنُونَ قُلُوبِهِمْ: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٦٤]. قَالَ مُجَاهِدٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «يَقُولُونَ الْقَوْلَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَقُولُونَ: عَسَىٰ اللهُ أَنْ لَا يُفْشِيَ عَلَيْنَا سِرَّنَا هَذَا» اهـ(١).

وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهَا بِبَعْضِ مَا فَعَلَهُ الْمُنَافِقُونَ مِنَ السُّخْرِيَةِ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧١).

فَلَمَزُوا النَّبِيَّ ﷺ، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التَّوْبَة: ٥٨]، وَسَخِرُوا مِنْ أَصْحَابِهِ ﷺ فِي تَصَدُّقِهِمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالُوا: مُرَاءٍ، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا؛ فَنَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ٧٩][٢].

وَمَنْ رَأَىٰ سُخْرِيَةَ مُنَافِقِي الْعَصْرِ بِالْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَرِجَالِ الْحِسْبَةِ، وَحَلَقَاتِ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ وَدُورِ التَّحْفِيظِ النِّسَائِيَّةِ، وَكُلِّ مَجَالٍ مِنْ مَجَالَاتِ الْخَيْرِ وَالْهُدَىٰ؛ عَلِمَ أَنَّ السُّخْرِيَةَ بِالصَّلَاحِ وَأَهْلِهِ، وَالتَّرْوِيجِ لِلْفَسَادِ وَأَهْلِهِ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ الْمُنَافِقِينَ فِي كُلِّ زَمَنٍ لَا تَنْفَكُّ عَنْهُمْ أَبَدًا.

وَكَانَ أَعْظَمُ فَضْحٍ لِلْمُنَافِقِينَ فِي سُورَةِ الْفَاضِحَةِ حِينَ سَخِرُوا بِقُرَّاءِ الصَّحَابَةِ ﷺ، فَكَفَّرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِذَلِكَ فِي قُرْآنٍ يُتْلَىٰ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا رَوَىٰ ابْنُ عُمَرَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي مَجْلِسٍ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ! فَقَالَ رَجُلٌ فِي الْمَجْلِسِ: كَذَبْتَ! وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَنْكُبُهُ الْحِجَارَةُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة (١٣٤٩)، ومسلم في الزكاة، باب الحمل أجرة يتصدق بها والنهي الشديد عن تنقيص المتصدق بقليل (١٠١٨).

إِيمَـٰنِكُمْ﴾» رَوَاهُ الطَّبَرِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ[٣].

وَمِنْ يَوْمِهَا إِلَىٰ الْيَوْمِ يَقْرَؤُهَا الْمُسْلِمُونَ وَيَسْمَعُونَهَا فِي مَسَاجِدِهِمْ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ٦٥-٦٦].

وَبِنَاءً عَلَىٰ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا انْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا عَلَىٰ كُفْرِ مَنِ اسْتَهْزَأَ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، أَوْ سَخِرَ مِنْ شَخْصٍ لِتَمَسُّكِهِ بِشَعِيرَةٍ مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ لَا يَسْخَرُ بِهِ إِلَّا لِأَجْلِهَا؛ كَسُخْرِيَتِهِمْ بِالْعِلْمِ وَالْحِسْبَةِ وَتَحْفِيظِ الْقُرْآنِ، وَتَدْرِيسِ السُّنَّةِ، أَوِ اسْتِهْزَائِهِمْ بِإِعْفَاءِ اللِّحَىٰ وَتَقْصِيرِ الثِّيَابِ، وَاحْتِجَابِ الْمَرْأَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ مِنْ شَتَّىٰ الْمَذَاهِبِ الْفِقْهِيَّةِ مُتَضَافِرَةٌ عَلَىٰ ذَلِكَ:

قَالَ ابْنُ نُجَيْمٍ الْحَنَفِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «الِاسْتِهْزَاءُ بِالْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ كُفْرٌ»[٤].

وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- فِي الْكَلَامِ عَلَىٰ سُخْرِيَةِ الْمُنَافِقِينَ فِي تَبُوكَ: «لَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ مَا قَالُوهُ مِنْ ذَلِكَ جِدًّا أَوْ هَزْلًا، وَهُوَ كَيْفَمَا كَانَ كُفْرٌ؛ فَإِنَّ الْهَزْلَ بِالْكُفْرِ كُفْرٌ، لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ»[٥].

وَقَالَ النَّوَوِيُّ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَالْأَفْعَالُ الْمُوجِبَةُ لِلْكُفْرِ هِيَ الَّتِي تَصْدُرُ عَنْ عَمْدٍ وَاسْتِهْزَاءٍ بِالدِّينِ صَرِيحٌ»[٦].

وَقَالَ ابْنُ قُدَامَةَ الْحَنْبَلِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَنْ سَبَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَفَرَ،

---

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩) رقم (١٠٠٤٧)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لأبي الشيخ وابن مردويه (٣/ ٢٥٤).

(٤) الأشباه والنظائر (١٦٠)، وشرحه: غمز عيون البصائر (٢/ ٢٠٢).

(٥) أحكام القرآن (٢/ ٥٤٣)، وعنه القرطبي في تفسيره (٨/ ١٩٧).

(٦) روضة الطالبين (١٠/ ٦٤).

سَوَاءً مَازِحًا أَوْ جَادًّا، وَكَذَلِكَ مَنِ اسْتَهْزَأَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ أَوْ بِآيَاتِهِ أَوْ بِرُسُلِهِ أَوْ كُتُبِهِ»[٧].

وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «الِاسْتِهْزَاءُ بِالْقَلْبِ وَالِانْتِقَاصُ يُنَافِي الْإِيمَانَ الَّذِي فِي الْقَلْبِ مُنَافَاةَ الضِّدِّ ضِدَّهُ، وَالِاسْتِهْزَاءُ بِاللِّسَانِ يُنَافِي الْإِيمَانَ الظَّاهِرَ بِاللِّسَانِ كَذَلِكَ»[٨].

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَحْفَظَنَا وَالمُسْلِمِينَ مِنَ النِّفَاقِ وَأَهْلِهِ، وَأَنْ يُحْبِطَ كَيْدَهُمْ، وَيُبْطِلَ سَعْيَهُمْ، وَيَكْفِيَ الْأُمَّةَ شَرَّهُمْ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المُطَفِّفِينَ: ٢٩-٣٠].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٨٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تَحَالُفُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ قَدِيمٌ قِدَمَ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرْتَضُوا دِينَهُمْ، فَلَنْ يَرْضَوْا عَنْهُمْ، وَمَا يَقُومُ بِهِ الْمُنَافِقُونَ مِنَ

---

(٧) المغني (٩/ ٣٣).

(٨) الصارم السلول (٣/ ٧٠١).

السُّخْرِيَةِ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَذَىٰ الَّذِي يُؤْجَرُ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ، وَالْوَاجِبُ عَلَيْهِمُ الثَّبَاتُ عَلَىٰ دِينِهِمْ، وَأَنْ لَا تُزَحْزِحَهُمْ سُخْرِيَةُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ بِهِمْ عَنْ هَذَا النُّورِ الَّذِي هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوهُمْ إِلَّا أَذًىٰ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وَالصَّبْرُ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ أَذَاهُمْ وَسُخْرِيَتِهِمْ مَعَ التَّقْوَىٰ وَالْيَقِينِ سَبَبٌ لِلتَّمْكِينِ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وَأُمِرَ بِذَلِكَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ﴾ [الروم: ٦٠]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

كَمَا يَجِبُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ عَدَمُ مُوَالَاةِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَلَوْ كَانُوا أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَهَىٰ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وَلَا يَجُوزُ حُضُورُ مَجَالِسِهِمُ الَّتِي يَسْخَرُونَ فِيهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَّا عَلَىٰ سَبِيلِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، وَرَدِّهِمْ عَنْ غَيِّهِمْ، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فَنَهَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنِ الْقُعُودِ مَعَهُمْ بَعْدَ هَذَا التَّحْذِيرِ وَالتَّذْكِيرِ، وَسَمَّاهُمْ ظَالِمِينَ.

وَأَمَّا مَنْ حَضَرَ وَسَكَتَ فَهُوَ كَمَنِ اسْتَهْزَأَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟

مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء: ١٤٠].

وَأَقْبَحُ مِنْ ذَلِكَ الدِّفَاعُ عَنْهُمْ، وَالاعْتِذَارُ لَهُمْ، وَتَأْوِيلُ أَقْوَالِهِمْ؛ فَإِنَّ فِيهِ إِعَانَةً لَهُمْ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٠٥]، وَفِي الآيَةِ الأُخْرَىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١٠٧].

أَيُّهَا الإِخْوَةُ المُؤْمِنُونَ: لَقَدْ عَوَّدَنَا فَسَقَةُ الإِعْلَامِ وَمُجْرِمُوهُ فِي كُلِّ رَمَضَانٍ جَدِيدٍ عَلَىٰ صُنْعِ مُسَلْسَلَاتٍ وَمَشَاهِدَ يَسْخَرُونَ فِيهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَشَعَائِرِهِ الظَّاهِرَةِ، وَأَحْكَامِهِ المُنَزَّلَةِ، وَيُصَوِّرُونَ لِلْمُشَاهِدِينَ حَمَلَةَ الدِّينِ وَمُبَلِّغِيهِ، وَالمُتَمَسِّكِينَ بِهِ، وَالدَّاعِينَ إِلَيْهِ، وَالمُدَافِعِينَ عَنْهُ فِي أَبْشَعِ الصُّوَرِ وَأَحَطِّهَا، وَهَذَا مِنَ الْغَيْظِ الَّذِي امْتَلَأَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ عَلَىٰ الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَيَأْتِي ذَلِكَ فِي سِيَاقِ الْحَمْلَةِ الْعَالَمِيَّةِ الَّتِي تَآزَرَ فِيهَا الْكُفْرُ مَعَ النِّفَاقِ لِإِجْهَاضِ الإِسْلَامِ، وَالْحَدِّ مِنَ انْتِشَارِهِ فِي الأَرْضِ، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣٢].

وَهُوَ حِلْفٌ شَيْطَانِيٌّ اجْتَمَعَ فِيهِ أَهْلُ الضَّلَالِ وَالْبِدْعَةِ مَعَ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالرِّدَّةِ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ كُفَّارُ أَهْلِ الْكِتَابِ، اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُمْ عَلَىٰ مَدَارِ السَّنَوَاتِ المَاضِيَةِ لَمْ يَسْخَرُوا فِي مُسَلْسَلَاتِهِمُ الرَّمَضَانِيَّةِ مِنْ كَافِرٍ لِكُفْرِهِ، وَلَا مِنْ مُبْتَدِعٍ لِبِدْعَتِهِ، وَلَا مِنْ مُرْتَدٍّ لِرِدَّتِهِ، مَعَ مَا عِنْدَ الْكُفَّارِ وَالمُبْتَدِعَةِ وَالمُرْتَدِّينَ مِنَ الأَفْكَارِ وَالأَعْمَالِ مِمَّا هُوَ مَوْضِعٌ لِلنَّقْدِ وَالسُّخْرِيَةِ وَالاسْتِهْجَانِ!

وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِنْ صَائِمِينَ قَائِمِينَ يُفْطِرُونَ حِينَ يُفْطِرُونَ عَلَىٰ مَشَاهِدَ يُسْخَرُ فِيهَا بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَهُمْ يَقْرَؤُونَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ الْجَالِسَ مَعَهُمْ مِثْلُهُمْ!

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ﴾ [النِّسَاء: ١٤٠].

فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ يَا أَهْلَ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ، وَيَا رُوَّادَ المَسَاجِدِ، وَقُرَّاءَ الْقُرْآنِ مِنْ هَذِهِ المَشَاهِدِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَىٰ بُيُوتِكُمْ عَبْرَ الْإِعْلَامِ الْفَاسِدِ الْمُفْسِدِ! فَإِنَّ المَسْأَلَةَ عَظِيمَةٌ خَطِيرَةٌ، إِنَّهَا مَسْأَلَةُ إِيمَانٍ وَنِفَاقٍ، وَالرَّاضِي فِيهَا كَالْفَاعِلِ، وَأَيُّ رِضًا أَبْلَغُ مِنَ الْإِفْطَارِ عَلَيْهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ الْكَرِيمِ؟!

إِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ يَا أَهْلَ رَمَضَانَ، وَيَا قُرَّاءَ الْقُرْآنِ، إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَنَعَّمُوا بِرِزْقِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَكُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُفْطِرُونَهُ وَأَنْتُمْ تَأْنَسُونَ بِمَا يُعْرَضُ فِي الشَّاشَاتِ مِنَ السُّخْرِيَةِ بِدِينِهِ ﷺ، وَتُشَاهِدُونَ الِاعْتِرَاضَ عَلَىٰ شَرِيعَتِهِ، وَالِاسْتِهْزَاءَ بِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ مُحَادَّةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمُعَادَاةِ أَوْلِيَائِهِ، وَمَنْ عَادَىٰ لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَهُ بِالمُحَارَبَةِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَة: ٦٣].

وَيُخْشَىٰ عَلَىٰ مَنْ أَلِفَ هَذِهِ المَجَالِسَ وَالمَشَاهِدَ أَنْ يَزِيغَ قَلْبُهُ، وَيَفْقِدَ إِيمَانَهُ؛ فَإِنَّ زَيْغَ الْقُلُوبِ يَكُونُ بِزَيْغِ الْعِبَادِ عَنِ الْحَقِّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصَّفّ: ٥].

وَأَيُّ زَيْغٍ أَعْظَمُ مِنَ الْأُنْسِ بِمُسَلْسَلَاتٍ يُسْخَرُ فِيهَا مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ؟ وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ كَثْرَةُ الْمُتَسَاقِطِينَ فِي هَذَا الْإِثْمِ وَالضَّلَالِ، فَإِنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ أَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ، كَمَا أَنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَقَلُّ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «أُقْسِمُ لَوْ نَبَتَ لِلْمُنَافِقِينَ أَذْنَابٌ مَا وَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ أَرْضًا يَمْشُونَ عَلَيْهَا»[٩] اهـ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ . . .

---

(٩) رواه ابن بطة في «الإبانة» (٩٣٧).



هدي الكتاب والسُّنَّة



٢٢٢- سورة الكهف (١)
تقرير التوحيد

٢٤/ ٥/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ دَلَّنَا عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ بِصِفَاتِهِ، وَعَرَّفَنَا عَظَمَتَهُ بِمَخْلُوقَاتِهِ، وَأَبَانَ لَنَا الطَّرِيقَ إِلَيْهِ بِشَرِيعَتِهِ وَكِتَابِهِ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَمَرَ عِبَادَهُ بِتَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ، وَوَعَدَهُمْ رِضْوَانَهُ وَجَنَّتَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ دَاعِيًا إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، مُبَشِّرًا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمُنْذِرًا مِنْ عَذَابِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَأَخْلِصُوا لَهُ الْعَمَلَ، وَأَقِيمُوا لَهُ التَّوْحِيدَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ شَرْطُ النَّجَاةِ مِنَ الْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ، وَبُلُوغِ الرَّحْمَةِ وَالْجِنَانِ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ يَوْمٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، اخْتَصَّهُ سُبْحَانَهُ بِخَصَائِصَ كَثِيرَةٍ، وَشَرَعَ فِيهِ عِبَادَاتٍ لَمْ يَشْرَعْهَا فِي غَيْرِهِ، وَرَتَّبَ عَلَيْهَا أُجُورًا عَظِيمَةً لِمَنْ أَدَّاهَا مُخْلِصًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، مُتَّبِعًا هَدْيَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَمِنْ تِلْكُمُ الْخَصَائِصِ: فَضِيلَةُ قِرَاءَةِ سُورَةِ الْكَهْفِ فِيهِ؛ كَمَا جَاءَ فِي

الْحَدِيثِ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ»، رُوِيَ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، وَصَحَّحَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ(١).

وَمَنْ نَظَرَ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ، وَتَأَمَّلَ آيَاتِهَا وَمَعَانِيَهَا؛ عَلِمَ أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ

---

(١) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: النسائي في الكبرىٰ (١٠٧٨٨)، والبيهقي في الشعب (٢٤٤٦)، والحاكم وصححه، وقال: علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه (١/ ٧٥٢)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير، وقال متعقبًا النسائي والبيهقي حينما رجحا رواية الوقف: ولك أن تقول: أي دليل علىٰ صواب رواية الوقف وخطأ رواية الرفع، ورواة هذه هم رواة هذه؟ والحق -إن شاء الله- الذي لا يتضح غيره أن رواية الرفع صريحة صحيحة كما قررناه (٢/ ٢٩٢-٢٩٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، إلا أن النسائي قال بعد تخريجه في اليوم والليلة: هذا خطأ والصواب: موقوفًا ثم رواه من رواية الثوري وغندر عن شعبة موقوفًا (١/ ٢٣٩).

وأخرجه موقوفًا علىٰ أبي سعيد: النسائي في الكبرىٰ (١٠٧٨٩-١٠٩٩٠)، والدارمي (٣٤٠٧)، وعبد الرزاق (٧٣٠)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (١/ ٤٢٣)، وابن الضريس في فضائل القرآن (١/ ٢٢٢)، والطبراني في الأوسط (١٤٥٥)، والحاكم وصححه (٤/ ٥٧٧)، والبيهقي في الشعب، وقال: هذا هو المحفوظ موقوف (٢٤٤٤)، وقال الألباني بعد أن ساق رواية الدارمي: وهذا سند صحيح رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين، وأبو النعمان وإن كان تغير في آخره فقد تابعه سعيد بن منصور كما تقدم، ثم هو وإن كان موقوفًا، فله حكم المرفوع؛ لأنه مما لا يقال بالرأي كما هو ظاهر، ويؤيده رواية يحيىٰ بن كثير التي علقها البيهقيٰ؛ فإنها صريحة في الرفع، وقد وصلها الحاكم (١/ ٥٦٤) من طريق أبي قلابة عبد الملك بن محمد حدثنا يحيىٰ بن كثير حدثنا شعبة به. وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبيٰ. إرواء الغليل (٣/ ٩٤).

تَكْرَارِهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ: التَّأْكِيدَ عَلَىٰ الْعَقِيدَةِ، وَالتَّذْكِيرَ بِالتَّوْحِيدِ، وَالتَّنْوِيعَ فِي تَقْرِيرِ ذَلِكَ تَارَةً بِالْقِصَّةِ، وَبِالمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ تَارَةً أُخْرَىٰ، مَعَ بَيَانِ مَصِيرِ الْمُكَلَّفِينَ، مِنْ فَوْزِ الْمُوَحِّدِينَ، وَخَسَارَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَذَلِكَ ظَاهِرٌ فِي افْتِتَاحِ هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ؛ إِذْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ مَصِيرَ الْفَرِيقَيْنِ، بَعْدَ حَمْدِهِ ﷻ عَلَىٰ نِعْمَةِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ الْهِدَايَةِ وَالتَّوْحِيدِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١-٥].

فَهُمَا فَرِيقَانِ لَا ثَالِثَ لَهُما: فَرِيقُ الْمُؤْمِنِينَ، وَفَرِيقُ الْمُشْرِكِينَ، وَالتَّوْفِيقُ لِلْهِدَايَةِ وَالْإِيمَانِ بِيَدِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ، لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ، لَا نَبِيًّا وَلَا مَلَكًا وَلَا عَالِمًا وَلَا دَاعِيًا إِلَىٰ الْهُدَىٰ، وَإِنَّمَا هُمْ يَدُلُّونَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، وَيَهْدُونَ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَالتَّوْفِيقُ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلَا يَنْبَغِي لِلدَّاعِيَةِ أَنْ يَأْسَفَ عَلَىٰ ذَلِكَ أَسَفًا يَضُرُّهُ وَيُصِيبُهُ بِالْيَأْسِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ تَدْبِيرُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَتَقْدِيرُهُ ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وَالْأَرْضُ وَمَا عَلَيْهَا تَسْخِيرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ، وَهِيَ مَحَلُّ الِابْتِلَاءِ وَالِامْتِحَانِ، وَمَيْدَانُ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهِيَ آيِلَةٌ إِلَىٰ الدَّمَارِ وَالْخَرَابِ وَالْفَنَاءِ مَهْمَا بَلَغَ عُمْرَانُهَا، وَاشْتَدَّ بُنْيَانُهَا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَضَىٰ أَنَّهَا دَارُ عَمَلٍ وَامْتِحَانٍ، وَلَيْسَتْ دَارَ جَزَاءٍ وَقَرَارٍ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧-٨].

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْعَظِيمَةُ قَدِ افْتُتِحَتْ بِهَذَا التَّقْرِيرِ المُهِمِّ لِلْغَايَةِ مِنْ خَلْقِ الْبَشَرِ، وَإِسْكَانِهِمُ الْأَرْضَ، وَتَسْخِيرِ مَا عَلَيْهَا لَهُمْ، وَهِيَ تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَإِقَامَةُ دِينِهِ، فَإِنَّ الْقَصَصَ المَذْكُورَةَ فِيهَا تُكَرِّسُ تِلْكَ الْغَايَةَ، وَتَدُلُّ عَلَيْهَا.

وَأَوَّلُ قِصَّةٍ مِنْهَا هِيَ الْقِصَّةُ الَّتِي سُمِّيَتِ السُّورَةُ بِهَا: قِصَّةُ أَهْلِ الْكَهْفِ، وَهُمْ قَوْمٌ مَنَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَانِ، فَاعْتَزَلُوا قَوْمَهُمُ المُشْرِكِينَ؛ فِرَارًا بِإِيمَانِهِمْ، وَحِفَاظًا عَلَىٰ تَوْحِيدِهِمْ، وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ مُفَارَقَةُ الْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٣-١٥].

كَلَامٌ عَظِيمٌ مَتِينٌ، يُعْلِنُ فِيهِ أَصْحَابُهُ غَايَتَهُمْ، وَيَصْدَعُونَ بِتَوْحِيدِهِمْ، وَيَنْتَقِدُونَ شِرْكَ عَشِيرَتِهِمْ، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِالْقَوْلِ بَلْ أَتْبَعُوهُ بِالْعَمَلِ، فَاعْتَزَلُوا الْمُشْرِكِينَ؛ إِنْكَارًا لِشِرْكِهِمْ، وَفِرَارًا مِنْ فِتْنَتِهِمْ، وَابْتِغَاءً لِسَلَامَةِ تَوْحِيدِهِمْ؛ فَاسْتَحَقُّوا فِي الدُّنْيَا جَزَاءَ إِيمَانِهِمْ أَنْ يَكُونُوا آيَةً مِنَ الْآيَاتِ، وَأُعْجُوبَةً مِنْ أَعَاجِيبِ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ، يَقْرَؤُهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ فِي كِتَابٍ يُتْلَىٰ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

وَجَعَلَ ﷻ مَا جَرَىٰ لَهُمْ مِنَ النَّوْمِ فِي الْكَهْفِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ آيَةً عَظِيمَةً، ثُمَّ أَكَّدَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هِدَايَةَ مَنِ اهْتَدَىٰ مِنْ عِبَادِهِ مِنَّةٌ وَنِعْمَةٌ مِنْهُ ﷻ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

ثُمَّ يَخْتِمُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ الْقِصَّةَ الْعَظِيمَةَ بِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَصْبِرَ نَفْسَهُ مَعَ أَهْلِ

الْإِيمَانِ، وَلَوْ كَانُوا هُمُ الْأَضْعَفَ، وَكَانَ غَيْرُهُم أَقْوَىٰ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وَمَا أَحْوَجَ كُلَّ مُسْلِمٍ إِلَىٰ تَدَبُّرِ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالْعَمَلِ بِهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي يَمُوجِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْفِتَنِ وَالضَّلَالِ!

وَالتَّوْحِيدُ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ، بَلْ هُوَ أَحَقُّ الْحَقِّ، تَجِبُ الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ؛ لِاسْتِنْقَاذِ أَهْلِ الضَّلَالِ مِنْ ضَلَالِهِمْ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ كُفْرِهِمْ، وَلَا يُفْرَضُ عَلَىٰ النَّاسِ؛ إِذْ الْهِدَايَةُ إِلَيْهِ مَحْضُ تَوْفِيقٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَهَذَا المَعْنَىٰ مُقَرَّرٌ فِي الْقُرْآنِ كَمَا قَرَّرَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، وَعَاقِبَةُ الْإِيمَانِ حَمِيدَةٌ، كَمَا أَنَّ عَاقِبَةَ الْكُفْرِ أَلِيمَةٌ.

ومِنْ قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ؛ حَيْثُ الْفِرَارُ بِالتَّوْحِيدِ، وَالْهُرُوبُ مِنَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ، إِلَىٰ قِصَّةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ؛ حَيْثُ تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ بِنِسْبَةِ النِّعَمِ إِلَىٰ مُسْدِيهَا، وَالِاعْتِرَافِ بِفَضْلِهِ، وَلَازِمُ ذَلِكَ حَمْدُهُ وَشُكْرُهُ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ ﷻ ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٧-٣٩]. تَقْرِيرٌ لِلتَّوْحِيدِ، وَدَعْوَةٌ إِلَيْهِ، وَاسْتِدْلَالٌ عَلَيْهِ بِالْخَلْقِ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ، مَعَ إِعْلَانِ إِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَدَحْضِ الشِّرْكِ.

وَالتَّوْحِيدُ هُوَ الْمُنْجِي لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْإِيمَانُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَجْرِي فِيهِ هُوَ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَالتَّذْكِيرُ بِهِ تَذْكِيرٌ بِالتَّوْحِيدِ ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا

كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٨-٤٩].

وَالَّذِي يَرُدُّ النَّاسَ عَنِ التَّوْحِيدِ وَالطَّاعَةِ، وَيَدْفَعُهُمْ إِلَىٰ الشِّرْكِ وَالمَعَاصِي: الْعَدُوُّ الْأَوَّلُ لِبَنِي آدَمَ: الشَّيْطَانُ وَجُنْدُهُ، وَهُوَ مَنْ سَنَّ مَعْصِيَةَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، فَغَوَىٰ وَهَلَكَ، فَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ بَنِي آدَمَ كَانَ مَصِيرُهُ مَصِيرَ الشَّيْطَانِ. وَمِنْ كِيَاسَةِ الْإِنْسَانِ حَذَرُهُ مِنْهُ وَمِنْ وَسَاوِسِهِ؛ لِئَلَّا يُرْدِيَهُ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أُرْسِلُوا لِلتَّبْشِيرِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالنِّذَارَةِ مِنَ الشِّرْكِ، وَدَحْضِ حُجَجِ أَهْلِ الْبَاطِلِ الَّذِينَ هُمْ مُسْتَمِيتُونَ فِي إِزْهَاقِ الْحَقِّ ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

وَالرِّجَالُ يُعْرَفُونَ بِالْحَقِّ، وَلَا يُعْرَفُ الْحَقُّ بِالرِّجَالِ، وَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ عِلْمًا بِتَوْحِيدِهِ وَدِينِهِ، وَمَا يُوصِلُ إِلَيْهِ؛ وَجَبَ قَبُولُ الْحَقِّ مِنْهُ، وَحَمْلُ الْعِلْمِ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ مَنْ يَتَلَقَّىٰ عَنْهُ أَعْلَىٰ مَنْزِلَةً مِنْهُ، فَالْحَقُّ أَعْلَىٰ مِنَ الْجَمِيعِ، وَهَذَا مَا حَكَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ عَنْ كَلِيمِ الرَّحْمَنِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي رِحْلَتِهِ المَشْهُورَةِ لِتَلَقِّي الْعِلْمِ وَحَمْلِهِ عَنْ عَبْدٍ صَالِحٍ لَمْ يَبْلُغْ مَبَالِغَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٥-٦٩].

وَفِي قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ ذَلِكَ المَلِكُ الصَّالِحُ الَّذِي مَلَكَ الدُّنْيَا، فَسَخَّرَ مُلْكَهُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَطَاعَتِهِ، وَمُسَاعَدَةِ مَنْ يَحْتَاجُ المُسَاعَدَةَ بِلَا عِوَضٍ إِلَّا أَنَّهُ يَرْجُو اللهَ تَعَالَىٰ، وَيُقِرُّ بِالْفَضْلِ لَهُ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ لِلْقَوْمِ الَّذِينَ بَنَىٰ لَهُمْ سَدَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥] أَيْ: مَا أَعْطَانِي مِنَ المُلْكِ وَالْقُوَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَبْذُلُونَ لِي وَتُعْطُونَنِي.

فَلَمَّا أَنْجَزَ بِنَاءَهُ نَسَبَ الْفَضْلَ فِي ذَلِكَ لِصَاحِبِ الْفَضْلِ سُبْحَانَهُ، وَبَيَّنَ أَنَّ لِهَذَا السَّدِّ أَجَلًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا التَّذَكُّرَ وَالِاعْتِبَارَ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِصَلَاحِ الْقُلُوبِ وَالْأَعْمَالِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَأَخْلِصُوا لَهُ الدِّينَ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: كَمَا ابْتَدَأَتْ سُورَةُ الْكَهْفِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَحَمْدِهِ، خُتِمَتْ بِالتَّوْحِيدِ كَذَلِكَ، وَأَوْضَحَتْ لِقَارِئِهَا أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا بِكُلِّ مَا فِيهَا إِلَىٰ زَوَالٍ، وَأَنَّ المُكَلَّفِينَ يُحَاسَبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ

يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: ٩٩-١٠٠].

وَفِي خَاتِمَتِهَا بَيَانٌ لِمَصِيرِ الْفَرِيقَيْنِ: الْمُوَحِّدِينَ وَالْمُشْرِكِينَ؛ أَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَمَصِيرُهُمْ كَمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَٱتَّخَذُوٓا ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٦].

إِنَّهَا النِّهَايَةُ الْأَلِيمَةُ الَّتِي تَنْتَظِرُهُمْ، نَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنْ حَالِهِمْ وَمَآلِهِمْ، بِخِلَافِ حَالِ أَهْلِ الْإِيمَانِ الَّذِينَ يَرْتَعُونَ فِي نَعِيمِ الْجِنَانِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

وَمِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: الْإِقْرَارُ بِصِفَاتِهِ، وَالْإِيمَانُ بِعَظَمَتِهِ، بِحَيْثُ تَصْرِفُ لَهُ الْقُلُوبُ كُلَّ تَعْظِيمٍ وَمَحَبَّةٍ وَرَجَاءٍ وَخَوْفٍ؛ وَهَذَا لَا يَتَأَتَّىٰ إِلَّا بِمَعْرِفَتِهِ ﷻ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلَىٰ، وَفِي أُخْرَيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ بَيَانُ ذَلِكَ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

ثُمَّ يَأْتِي الْقَارِئُ لِهَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ عَلَىٰ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْهَا وَهِيَ تَدْعُوهُ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَتُحَذِّرُهُ مِنَ الشِّرْكِ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وَالْعَمَلُ لَا يَكُونُ صَالِحًا حَتَّىٰ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، مُوَافِقًا لِهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَبِهَذَا نَعْلَمُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- عَظَمَةَ هَذِهِ السُّورَةِ، وَحِكْمَةً مِنْ حِكَمِ تَكْرَارِهَا كُلَّ

جُمُعَةٍ، بَلْ صَحَّ الْخَبَرُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا تُنَجِّي صَاحِبَهَا مِنَ الدَّجَّالِ؛ كَمَا رَوَىٰ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ**»[٢].

وَفِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ. زَادَ أَبُو دَاوُدَ: «**فَإِنَّهَا جِوَارُكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ**»[٣].

وَرَوَىٰ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه قَالَ: «**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَمَا أُنْزِلَتْ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ الدَّجَّالِ لَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْهِ، أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ سَبِيلٌ**» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ[٤].

فَاقْرَءُوهَا -عِبَادَ اللَّهِ- بِتَدَبُّرٍ، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِهَا، وَحَرِّكُوا بِهَا قُلُوبَكُمْ، وَاعْمَلُوا بِمَا فِيهَا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

* * *

---

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٨٠٩)، وأبو داود في الملاحم، باب خروج الدجال (٤٣٢٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٥١)، وأحمد (٥/ ١٩٦)، والبغوي في شرح السنة (١٢٠٤).

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧)، وأبو داود في الملاحم، باب خروج الدجال (٤٣٢١)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في فتنة الدجال (٢٢٤٠)، وابن ماجه في الفتن، باب فتنة الدجال، وخروج عيسىٰ بن مريم، وخروج يأجوج، ومأجوج (٤٠٧٥).

(٤) هذا الحديث هو نفس حديث أبي سعيد المخرج في حاشية (١) وهذه الزيادة في الرواية للنسائي وصححها الحاكم وقال: علىٰ شرط مسلم، وقد جاءت مرفوعة موقوفة، علىٰ ما هو مبين في الحاشية آنفة الذكر.



٢٢٣- سورة الكهف (٢)
معالجة الفتن

١٢/ ١٠/ ١٤٢٧هـ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكَهْف: ١].

أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِلتَّعَبُّدِ بِتِلَاوَتِهِ، وَتَدَبُّرِ آيَاتِهِ، وَالِانْتِفَاعِ بِعِظَاتِهِ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة ص: ٢٩]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ آتَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ الْحِكْمَةَ وَالْكِتَابَ، وَشَرَّفَهُ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ الْهُدَىٰ وَالْإِيمَانِ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورَىٰ: ٥٢] صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ، وَبِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَنْفَعُكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ وَأُخْرَاكُمْ ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، وَقَصَصُهُ وَأَمْثَالُهُ لَيْسَتْ كَالْقَصَصِ وَالْأَمْثَالِ الْأُخْرَىٰ، فَلَا يُذْكَرُ فِيهَا إِلَّا مَا يَحْتَاجُهُ الْمُكَلَّفُونَ مِمَّا يَكُونُ بِهِ صَلَاحُهُمْ فِي الْحَالِ وَالْمَآلِ، وَمَا لَا فَائِدَةَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ أَهْمَلَ ذِكْرَهُ، وَطَوَىٰ عَنِ النَّاسِ خَبَرَهُ، وَهَذَا سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ عَدَمِ الْمَلَالِ مِنْ تَكْرَارِ الْقِصَّةِ فِي الْقُرْآنِ، وَكَمْ يُكَرِّرُ الْمُسْلِمُ فِي حَيَاتِهِ مِنْ

سُورَةٍ يَقْرَأُهَا، أَوْ قِصَّةٍ فِي سُورَةٍ أَوْ مَثَلٍ مِمَّا ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلنَّاسِ، وَمَا يَمَلُّ مِنْ ذَلِكَ، وَلَوْ كَرَّرَ قِصَّةً مِنَ الْقِصَصِ الْبَشَرِيَّةِ أَوْ مَثَلًا مِنْ أَمْثَالِ الْحُكَمَاءِ لَمَلَّ ذَلِكَ.

وَسُورَةُ الْكَهْفِ قَدِ امْتَازَتْ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ بِمِيزَاتٍ عِدَّةٍ، وَجَاءَ فِيهَا مِنَ الْفَضْلِ وَالْأَجْرِ مَا لَمْ يَأْتِ فِي غَيْرِهَا، وَإِنْ كَانَتْ بَعْضُ السُّوَرِ أَفْضَلَ مِنْهَا كَسُورَتَيِ الْفَاتِحَةِ وَالْإِخْلَاصِ.

وَسُورَةُ الْكَهْفِ هِيَ سُورَةُ يَوْمِ الْجُمُعَةِ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَقْرَءُونَهَا فِيهِ؛ اتِّبَاعًا لِلسُّنَّةِ، وَتَحَرِّيًا لِلْفَضْلِ، وَطَلَبًا لِلنُّورِ الَّذِي يُضِيءُ لِقَارِئِهَا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه[1].

وَسُورَةُ الْكَهْفِ قَرَأَهَا أَحَدُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم فَوَقَعَتْ لَهُ كَرَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَهُوَ يَقْرَأُهَا؛ كَمَا رَوَىٰ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَإِلَىٰ جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ، فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: **تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ**»[2].

وَحِفْظُ الْآيَاتِ الْعَشْرِ الْأُولَىٰ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ، أَوْ قِرَاءَةُ الْآيَاتِ الْعَشْرِ الْأَخِيرَةِ مِنْهَا سَبَبٌ لِلْعِصْمَةِ مِنْ أَكْبَرِ فِتْنَةٍ فِي الْبَشَرِيَّةِ، وَهِيَ الْفِتْنَةُ بِالدَّجَّالِ[3]، وَكُلُّ ذَلِكَ ثَابِتٌ فِي أَحَادِيثَ صَحِيحَةٍ، وَلَمْ يَرِدْ مِثْلُ ذَلِكَ فِي غَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ وَالْآيَاتِ.

---

(١) سبق تخريجه في الخطبة السابقة (٦/ ٣٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف (٤٧٢٤)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب نزول السكينة لقراءة القرآن (٧٩٥).

(٣) سبق تخريج الأحاديث في الخطبة السابقة (٦/ ٣٨٣).

إِنَّ سُورَةَ الْكَهْفِ قَدْ عَرَضَتْ لِأَرْبَعِ قَصَصٍ فِيهَا مِنَ الْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ مَا فِيهَا: وَهِيَ قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ الَّتِي سُمِّيَتِ السُّورَةُ بِهَا، وَقِصَّةُ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ، وَقِصَّةُ مُوسَىٰ مَعَ الْخَضِرِ ﷺ، وَقِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْقَصَصِ الْأَرْبَعِ قَدْ عَالَجَتْ فِتْنَةً مِنْ كُبْرَيَاتِ الْفِتَنِ الَّتِي يَسْقُطُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَلَا غَرْوَ أَنْ تَكُونَ آيَاتٌ مِنْهَا سَبَبًا لِلْعِصْمَةِ مِنْ أَكْبَرِ الْفِتَنِ وَهِيَ فِتْنَةُ الدَّجَّالِ.

إِنَّنَا نَتْلُو فِي هَذِهِ السُّورَةِ قِصَّةَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ فِي وَسَطِ أُنَاسٍ مُشْرِكِينَ، وَعَلِمُوا مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ مَا عَلِمُوا فِي قَوْمٍ جَاهِلِينَ؛ فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِفِتْنَتِهِمْ فِي دِينِهِمْ، فَلَمْ يَسْتَسْلِمُوا، وَلَمْ يَتْبَعُوا قَوْمَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَلَا وَافَقُوهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ؛ بَلْ أَعْلَنُوا تَوْحِيدَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، كَمَا أَعْلَنُوا بَرَاءَتَهُمْ مِمَّا يَعْبُدُ أَهْلُوهُمْ وَعَشِيرَتُهُمْ ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنِۭ بَيِّنٍۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الْكَهْف: ١٤-١٥].

ثُمَّ أَتْبَعُوا الْقَوْلَ بِالْعَمَلِ فَتَبَرَّءُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَاعْتَزَلُوهُمْ، وَآوَوْا إِلَىٰ كَهْفٍ لِيَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِيَفِرُّوا مِنَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ، فَكَانَ جَزَاؤُهُمْ فِي الدُّنْيَا تِلْكَ الْكَرَامَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي نَالَتْهُمْ وَهُمْ فِي كَهْفِهِمْ، فَنَجَوْا بِهَا مِنَ الْكُفَّارِ وَكَيْدِهِمْ، وَكَانَتْ كَرَامَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَهُمْ آيَةً تُتْلَىٰ عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ.

وَفِي التَّعْقِيبِ عَلَىٰ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَظِيمَةِ يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَىٰ بِصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَاصْطِبَارِ النَّفْسِ عَلَىٰ ذَلِكَ وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ مَالٍ وَثَرَاءٍ وَدُنْيَا، مَعَ مُجَانَبَةِ أَهْلِ الْغَفْلَةِ، وَأَتْبَاعِ الْهَوَىٰ الَّذِينَ لَا يَرْدَعُهُمْ دِينُهُمْ عَنْ هَوَاهُمْ ﴿وَٱصْبِرْ

نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الْكَهْف: ٢٨].

وَنَسْتَفِيدُ مِنْ ذَٰلِكَ أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ الثَّبَاتِ عَلَىٰ الدِّينِ: صُحْبَةُ الصَّالِحِينَ مِمَّنْ ثَبَتُوا عَلَىٰ دِينِهِمْ وَلَوْ كَانُوا هُمُ الْأَقَلَّ وَالْأَضْعَفَ، كَمَا فَعَلَ أَصْحَابُ الْكَهْفِ؛ إِذْ جَانَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَهْلَهُ وَعَشِيرَتَهُ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَقْوَىٰ، وَصَاحَبَ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمُ الْأَقَلُّونَ الْمُسْتَضْعَفُونَ، وَفِي صُحْبَةِ الصَّالِحِينَ مِنَ التَّثْبِيتِ عَلَىٰ الدِّينِ، وَالْإِعَانَةِ عَلَيْهِ، وَتَحْصِيلِ الْخَيْرِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ.

قَالَ أَبُو الْفَضْلِ الْجَوْهَرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَنْ أَحَبَّ أَهْلَ الْخَيْرِ نَالَ مِنْ بَرَكَتِهِمْ؛ كَلْبٌ أَحَبَّ أَهْلَ فَضْلٍ وَصَحِبَهُمْ فَذَكَرَهُ اللهُ فِي مُحْكَمِ تَنْزِيلِهِ»(٤).

كَمَا نَسْتَفِيدُ مِنْ هَذَا التَّعْقِيبِ: أَنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَىٰ، وَطَاعَةَ أَهْلِ الْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ سَبَبٌ لِلْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ، وَالتَّحَوُّلِ عَنْهُ شَيْئًا شَيْئًا، كَمَا أَنَّ سَبَبَ اتِّبَاعِ الْهَوَىٰ، وَطَاعَةِ أَهْلِ الْغَفْلَةِ هُوَ طَلَبُ حَظٍّ مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا. وَلَوْ أَنَّ فِتْيَةَ الْكَهْفِ أَطَاعُوا أَهْلَ الْغَفْلَةِ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ؛ مَيْلًا إِلَىٰ الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا لَمَا نَجَوْا، وَلَمَا كَانَ خَبَرُهُمْ آيَةً تُتْلَىٰ.

وَمَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمَ فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي يَمُوجُ بِالْفِتَنِ إِلَىٰ فِقْهِ هَذَا الدَّرْسِ الْعَظِيمِ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ، فَيَثْبُتُ عَلَىٰ دِينِهِ وَلَوْ رَأَىٰ قِلَّةَ الثَّابِتِينَ، وَيُضَحِّي بِكُلِّ نَفِيسٍ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الثَّمَنَ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ! وَلْيَحْذَرْ

---

(٤) أخرجه بسنده ابن عطية في تفسيره فقال: وحدثني أبي ﷺ قال: سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم ... فذكره (٣/ ٥٠٤)، وعنه الثعالبي (٢/ ٣٧٢)، والقرطبي في تفسيره (١٠/ ٣٧١)، والدميري في حياة الحيوان (٢/ ٣٨٩).

مِنَ الاغْتِرَارِ بِالْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ مَهْمَا كَانَتْ قُوَّتُهُمْ، وَبَلَغَتْ عُلُومُهُمْ؛ فَهُمْ وَحَضَارَتُهُمْ إِلَىٰ تَبَابٍ وَخُسْرَانٍ مَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَالمَالُ فِتْنَةٌ مِنْ أَكْبَرِ الْفِتَنِ الَّتِي افْتُتِنَ النَّاسُ بِهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَزَادَتِ الْفِتْنَةُ بِهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِسَبَبِ سِيَادَةِ النُّظُمِ الرَّأْسِمَالِيَّةِ عَلَىٰ أَسْوَاقِ المَالِ وَالْأَعْمَالِ فِي الْعَالَمِ؛ إِذْ حَوَّلَتْهُ فِي عُقُولِ أَتْبَاعِهَا مِنْ وَسِيلَةٍ يُنْتَفَعُ بِهَا إِلَىٰ غَايَةٍ تُلْغَىٰ فِي سَبِيلِهَا كُلُّ المَبَادِئِ وَالْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ.

وَنَجِدُ عِلَاجَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ فِي قِصَّةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ الَّذِي أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ بِمَا وُصِفَ فِي تِلْكَ السُّورَةِ ﴿۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ [الْكَهْف: ٣٢-٣٣].

وَلَكِنَّهُ افْتُتِنَ بِذَلِكَ، وَنَسِيَ أَمْرَ السَّاعَةِ، وَتَكَبَّرَ عَلَىٰ النَّاسِ بِمَالِهِ ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [الْكَهْف: ٣٤-٣٦].

فَكَانَ ثَمَرَةُ افْتِتَانِهِ بِمَالِهِ، وَنَتِيجَةُ عُلُوِّهِ عَلَىٰ النَّاسِ بِسَبَبِهِ أَنْ أَذْهَبَ اللهُ تَعَالَىٰ زَهْرَةَ جَنَّتِهِ، وَجَعَلَهَا خَرَابًا يَبَابًا ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الْكَهْف: ٤٢-٤٣].

وَبَعْدَ قِرَاءَةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ نَجِدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ ضَرَبَ مَثَلًا عَظِيمًا فِي الدُّنْيَا؛ بَيَانًا لِحَقِيقَتِهَا، وَإِثْبَاتًا لِزَوَالِهَا، وَتَحْذِيرًا مِنَ الْغُرُورِ بِهَا ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ

خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الْكَهْف: ٤٥-٤٦].

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ الْآخِرَةَ وَالْحِسَابَ، وَالْكِتَابَ الَّذِي لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا.

فَمَنْ فُتِنَ بِالمَالِ فَعَطَّلَ الْفَرَائِضَ مِنْ أَجْلِهِ، وَجَاوَزَ الْحَلَالَ إِلَىٰ الْحَرَامِ فِي جَمْعِهِ وَإِنْفَاقِهِ، وَاسْتَعْلَىٰ عَلَىٰ النَّاسِ بِهِ؛ فَلْيَأْخُذْ عِبْرَةً وَعِظَةً مِنْ قِصَّةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ، وَلْيُمْعِنِ النَّظَرَ فِي المَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلدُّنْيَا عَقِبَ ذَلِكَ، وَلْيَتَدَبَّرِ الآيَاتِ الَّتِي تُخْبِرُ عَنْ شِدَّةِ الْحِسَابِ وَالْكِتَابِ الَّذِي يُحْصِي الصَّغِيرَةَ وَالْكَبِيرَةَ؛ فَإِنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ خَافَ المَالَ وَكَثْرَتَهُ، وَحَاذَرَ مِنْ فِتْنَتِهِ.

وَمِنْ فِتَنِ هَذَا الْعَصْرِ: الْفِتْنَةُ بِمَا فَتَحَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ الَّتِي قَادَتْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ إِلَىٰ الْكُفْرِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَكْذِيبِ آيَاتِهِ، وَالْإِلْحَادِ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ فَزَعَمَ المَفْتُونُونَ بِهَذِهِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ مَرْكَزُ الْكَوْنِ، وَمِحْوَرُ الْوُجُودِ، وَأَنَّهُ سَيْطَرَ عَلَىٰ الطَّبِيعَةِ، وَأَنَّهُ لَا وُجُودَ إِلَّا لِلْمَادَّةِ، فِي إِلْحَادٍ صَارِخٍ، وَإِلْغَاءٍ لِعَالَمِ الْغَيْبِ، وَإِنْكَارٍ لِلْآخِرَةِ، بَلْ زَعَمَ بَعْضُ مَلَاحِدَةِ هَذَا الْعَصْرِ أَنَّ الْإِنْسَانَ سَيُسَيْطِرُ عَلَىٰ المَوْتِ، وَسَيَكْتَشِفُ بَلْسَمَ الْحَيَاةِ.

لَقَدْ فُتِنُوا أَشَدَّ الْفِتْنَةِ بِالْعُلُومِ الْعَصْرِيَّةِ، وَبِسَبَبِهَا عَبَدُوا الدُّنْيَا، وَتَرَكُوا النَّظَرَ فِي المَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ فَنَسُوا الْآخِرَةَ.

وَقَدْ يُفْتَنُ الْإِنْسَانُ بِالْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ فَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا قَلْبُهُ، وَلَا تَزِيدُ إِيمَانَهُ، وَلَا تَقُودُهُ إِلَىٰ مَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَذَلِكَ حِينَ يَغْتَرُّ الْعَالِمُ بِعِلْمِهِ، وَيَسْتَعْلِي بِهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ، وَيَجْعَلُهُ مَطِيَّةً لِدُنْيَاهُ، فَيُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ لِيُرْضِيَ الْأَهْوَاءَ، وَيَنْصُرَ الْبَاطِلَ عَلَىٰ الْحَقِّ، وَيَعْتَدَّ بِرَأْيِهِ وَلَوْ كَانَ

مُخَالِفًا لِلنُّصُوصِ وَالْإِجْمَاعِ. وَنَجِدُ عِلَاجَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ الْعَظِيمَةِ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ مَعَ الْخَضِرِ عليهما السلام؛ فَنَبِيُّ اللَّهِ مُوسَىٰ عليه السلام، كَلِيمُ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَهُوَ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ، وَقَدْ فُضِّلَ عَلَىٰ أَكْثَرِ الرُّسُلِ عليهم السلام، وَأَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَأَظْهَرَ عَلَىٰ يَدَيْهِ الْآيَاتِ، وَدَحَرَ بِهِ السَّحَرَةَ وَعُلُومَهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَتَكَبَّرْ بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ، وَمَا أَجْرَىٰ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ، بَلْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَرَحَلَ يَطْلُبُ الْعِلْمَ عَلَىٰ يَدِ الْخَضِرِ عليه السلام، وَقَالَ مَقُولَةَ التِّلْمِيذِ الْمُطِيعِ لِأُسْتَاذِهِ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾ [الْكَهْف: ٦٩].

يَقُولُ مُوسَىٰ ذَلِكَ لِلْخَضِرِ عليه السلام وَهُوَ أَفْضَلُ وَأَعْلَمُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْهُ، وَهُوَ رَسُولٌ وَالْخَضِرُ عَبْدٌ صَالِحٌ، لَكِنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ لَا يَعْلَمُهُ مُوسَىٰ، فَتَعَلَّمَ مُوسَىٰ عليه السلام مِنْهُ.

وَلَمَّا عَلَّمَ الْخَضِرُ مُوسَىٰ عليه السلام مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لَمْ يَغْتَرَّ بِعِلْمِهِ، بَلْ نَسَبَ ذَلِكَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ اعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ، وَحَمْدًا لَهُ فَقَالَ: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾ [الْكَهْف: ٨٢].

وَمَا أَحْوَجَ مَنْ فُتِنُوا بِالْعُلُومِ الْعَصْرِيَّةِ أَنْ يَعْتَرِفُوا بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ، وَيَنْسُبُوا عُلُومَهُمْ إِلَيْهِ، وَيُسَخِّرُوهَا فِي ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي عَلَّمَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [الْعَلَق: ٥].

وَلَكِنَّ أَهْلَ الْحَضَارَةِ الْمُعَاصِرَةِ أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَنْسُبُوا الْفَضْلَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِيمَا أُعْطُوْا مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ، وَمَا مَلَكُوا مِنْ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ وَالْهَيْمَنَةِ، بَلْ نَسَبُوا ذَلِكَ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَإِلَىٰ تَجَارِبِهِمْ وَخِبْرَاتِهِمْ.

وَلَمْ يُسَخِّرُوا مَعَارِفَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ، وَإِقَامَةِ

الْعَدْلِ، بَلْ سَخَّرُوهَا فِي مُحَارَبَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَنَشْرِ الْفَسَادِ، وَظُلْمِ الْعِبَادِ، وَقَهْرِ النَّاسِ، وَالسَّعْيِ فِي تَبْدِيلِ دِينِهِمْ، وَإِفْسَادِ فِطَرِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَالتَّسَلُّطِ عَلَىٰ بُلْدَانِهِمْ، وَنَهْبِ ثَرَوَاتِهِمْ؛ فَمَا زَادَتْهُمْ عُلُومُهُمْ وَحَضَارَتُهُمْ إِلَّا إِفْسَادًا فِي الْأَرْضِ، وَعُلُوًّا عَلَىٰ النَّاسِ، فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّتِي جَرَتْ عَلَىٰ أَسْلَافِهِمْ مِنْ قَبْلُ، وَبَدَتْ بَوَادِرُ هَزِيمَتِهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ، وَظُهُورُ الْمُسْتَضْعَفِينَ عَلَيْهِمْ، وَأَتَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا؛ فَكَانَتْ رَفَاهِيَتُهُمُ الَّتِي نَتَجَتْ عَنْ عُلُومِهِمْ وَحَضَارَتِهِمْ سَبَبَ خَوَرِهِمْ وَضَعْفِهِمْ، وَعَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَىٰ مُقَارَعَةِ أَعْدَائِهِمْ، فَكُسِرَتْ شَوْكَتُهُمْ عَلَىٰ الْمَلَإِ، وَزَالَتْ هَيْبَتُهُمْ مِنَ الْقُلُوبِ، وَفُضِحُوا شَرَّ فَضِيحَةٍ، وَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ مَعَارِفُهُمْ وَتِقْنِيَّاتُهُمْ شَيْئًا. وَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي أَمْثَالِهِمْ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فَاطِر: ٤٢-٤٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ....

* * *

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَىٰ، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَىٰ مَا أَعْطَىٰ وَأَسْدَىٰ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاعْتَبِرُوا بِأَحْوَالِ الَّذِينَ مَضَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ، وَأَحْسِنُوا التَّلَقِّيَ عَنْ كِتَابِ رَبِّكُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ الَّتِي يَضْعُفُ أَمَامَهَا أَكْثَرُ الْبَشَرِ فِتْنَةُ السُّلْطَانِ الْغَالِبِ، وَالْقُوَّةِ الْقَاهِرَةِ، الَّتِي تَقُودُ إِلَىٰ الْبَطْشِ وَالظُّلْمِ وَالْأَثَرَةِ، وَنَجِدُ عِلَاجَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ الْكَبِيرَةِ فِي الْقِصَّةِ الرَّابِعَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ، وَهِيَ قِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ، الَّذِي مَلَكَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَدَانَتْ لَهُ الدُّوَلُ وَالمَمَالِكُ، وَآتَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتَجَبَّرْ بِسُلْطَانِهِ، وَلَا اسْتَعْلَىٰ عَلَىٰ النَّاسِ بِقُوَّتِهِ؛ بَلْ سَخَّرَ ذَلِكَ فِي إِحْقَاقِ الْحَقِّ، وَإِزْهَاقِ الْبَاطِلِ، وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ، وَنَصْرِ المَظْلُومِ.

وَثَبَتَ إِيمَانُهُ وَعَدْلُهُ، وَصَلَاحُهُ وَإِصْلَاحُهُ فِي قَوْمٍ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَمَلَكَ مَدِينَتَهُمْ، وَذَلَّتْ لَهُ رِقَابُهُمْ، وَخَيَّرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِمْ، فَحَكَمَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الشَّرِيعَةِ ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الْكَهْف: ٨٦-٨٨].

وَظَهَرَ تَسْخِيرُهُ لِسُلْطَانِهِ وَقُوَّتِهِ فِيمَا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَيَرْضَاهُ؛ مِنْ رَفْعِ الظُّلْمِ، وَنُصْرَةِ الْمُسْتَضْعَفِينَ، فِي قَوْمٍ مِنَ التُّرْكِ شَكَوْا إِلَيْهِ إِغَارَةَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ عَلَيْهِمْ، وَالْإِفْسَادَ فِي بِلَادِهِمْ، وَرَجَوْهُ أَنْ يَبْنِيَ حَاجِزًا يَحْجِزُهُمْ عَنْهُمْ مُقَابِلَ خَرَاجٍ يَدْفَعُونَهُ إِلَيْهِ، فَعَفَّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- عَنْ جُعْلِهِمْ، وَبَادَرَ إِلَىٰ نَجْدَتِهِمْ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ، وَبِنَاءِ السَّدِّ لَهُمْ، مُعْتَرِفًا بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ بِالسُّلْطَانِ وَالمَالِ ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الْكَهْف: ٩٤-٩٥]. أَيْ: مَا أَعْطَانِي رَبِّي مِنَ الْمُلْكِ وَالمَالِ خَيْرٌ مِنْ خَرَاجِكُمْ، وَطَلَبَ مَعُونَتَهُمْ عَلَىٰ بِنَاءِ السَّدِّ فَبَنَاهُ لَهُمْ، وَلَمَّا أَتَمَّ بِنَاءَهُ لَمْ يُفَاخِرْ بِذَلِكَ،

أَوْ يُعْلِنْ بِهِ عَلَىٰ المَلَإِ، أَوْ يَمُنَّ بِهِ عَلَىٰ الْقَوْمِ؛ لِيَكْتَسِبَ بِذَلِكَ دِعَايَةً، أَوْ يُظْهِرَ بِهِ قُوَّةً، أَوْ يَحُوزَ بِهِ شَرَفًا، أَوْ يُسَجِّلَهُ فِي سِجِلِّ إِنْجَازَاتِهِ، بَلْ نَسَبَ الْفَضْلَ فِي ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ صَاحِبِ الْفَضْلِ وَالمَنِّ، وَاعْتَرَفَ بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ هَذَا السَّدِّ وَتَدْمِيرِهِ فِي أَجَلٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الْكَهْف: ٩٨].

إِنَّ سُورَةَ الْكَهْفِ قَدْ عَالَجَتْ فِي قَصَصِهَا هَذِهِ الْفِتَنَ الْأَرْبَعَ: فِتْنَةَ الشِّرْكِ فِي قِصَّةِ الْفِتْيَةِ، وَالْفِتْنَةَ بِالمَالِ فِي قِصَّةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ، وَالْفِتْنَةَ بِالْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ فِي قِصَّةِ مُوسَىٰ مَعَ الْخَضِرِ عليهما السلام، وَفِتْنَةَ السُّلْطَانِ فِي قِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ. وَلَوْ نَظَرْنَا فِي حَالِ أَكْبَرِ فِتْنَةٍ حَذَّرَ مِنْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ فِتْنَةُ الدَّجَّالِ لَوَجَدْنَا أَنَّ هَذِهِ الْفِتَنَ الْأَرْبَعَ قَدِ اجْتَمَعَتْ كُلُّهَا فِي الدَّجَّالِ؛ فَهُوَ يَفْتِنُ النَّاسَ فِي دِينِهِمْ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الشِّرْكِ، وَيَقْهَرُهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ الْآيَاتِ مَا يَكُونُ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَابْتِلَاءً؛ فَفِي فِتْنَةِ المَالِ يَمُرُّ الدَّجَّالُ بِالْخَرِبَةِ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا، وَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ.

وَفِي فِتْنَةِ الْعِلْمِ يُخْبِرُ الدَّجَّالُ الرَّجُلَ عَنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَيَقْطَعُ الرَّجُلَ بِسَيْفِهِ حَتَّىٰ يَمْشِيَ بَيْنَ نِصْفَيْهِ ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيَأْتِي، وَيَشُقُّ الرَّجُلَ بِمِنْشَارِهِ مِنْ مَفْرِقِ رَأْسِهِ إِلَىٰ قَدَمَيْهِ ثُمَّ يُعِيدُهُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ كَمَا كَانَ.

وَفِي فِتْنَةِ السُّلْطَانِ يَعِيثُ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَيُسَلَّطُ عَلَىٰ النَّاسِ، وَمَا مِنْ بَلَدٍ إِلَّا يَبْلُغُهَا سُلْطَانُهُ خَلَا مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ، وَيَفِرُّ النَّاسُ إِلَىٰ الْجِبَالِ خَوْفًا مِنْ سُلْطَانِهِ وَبَطْشِهِ.

فَحَرِيٌّ بِمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، قَارِئًا لَهَا، مُتَدَبِّرًا لِآيَاتِهَا، عَارِفًا بِقَصَصِهَا، حَافِظًا لِلْآيَاتِ الْعَشْرِ مِنْ أَوَّلِهَا أَنْ يُحْفَظَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ؛ فَلَا يَغْتَرَّ

بِكَذِبِهِ وَبَهْرَجِهِ، وَلَا تَنْطَلِي عَلَيْهِ أَفْعَالُهُ وَمَا سَخَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ مِنَ الْآيَاتِ، وَلَا يَزْدَادُ فِيهِ وَفِي فِتْنَتِهِ إِلَّا بَصِيرَةً عَلَىٰ بَصِيرَتِهِ، وَإِيمَانًا بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مَعَ إِيمَانِهِ.

فَاعْرِفُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- لِهَذِهِ السُّورَةِ قَدْرَهَا، وَتَدَبَّرُوا آيَاتِهَا، وَانْتَفِعُوا بِقَصَصِهَا، وَلَا سِيَّمَا أَنَّكُمْ تُكَرِّرُونَهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، وَاحْفَظُوهَا، فَإِنْ عَجَزْتُمْ فَاحْفَظُوا مِنْ آيَاتِهَا مَا يَعْصِمُكُمْ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ؛ فَإِنَّهُ شَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٢٢٤- كل يوم هو في شأن

٢/ ١/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ يُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَيُفْنِي الدُّهُورَ وَالأَعْوَامَ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، أَوَّلٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، وَآخِرٌ بِلَا انْتِهَاءٍ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِهِ، فَهُوَ المَحْمُودُ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ، وَلَا يَسْتَحِقُّ كَمَالَ الْحَمْدِ سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، يَتَتَابَعُ تَتَابُعَ نِعَمِهِ عَلَيْنَا؛ فَكَمْ مِنْ عَيْبٍ سَتَرَهُ، وَذَنْبٍ غَفَرَهُ، وَبَلَاءٍ دَفَعَهُ!! وَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَسْبَغَهَا، وَنِقْمَةٍ رَفَعَهَا!! ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارًا يَمْحُو سَيِّئَاتٍ كُتِبَتْ، وَيُبَيِّضُ صَحَائِفَ سُوِّدَتْ، وَيُثَقِّلُ مَوَازِينَ خَفَّتْ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ؛ فَبَلَّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، وَنَصَحَ لِأُمَّتِهِ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ حَتَّىٰ أَتَاهُ الْيَقِينُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَىٰ؛ فَإِنَّكُمْ فِي دَارِ الْعَمَلِ وَالْإِمْهَالِ، وَقَرِيبًا تُفَارِقُونَهَا إِلَىٰ دَارِ الْجَزَاءِ وَالْقَرَارِ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ [الدخان: ٤١-٤٢]، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَصَدِّقُوا بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَاصْبِرُوا عَلَىٰ مَقَادِيرِهِ؛ فَلَا شَيْءَ يَقَعُ فِي الْكَوْنِ إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، عَلِمَهُ سُبْحَانَهُ وَكَتَبَهُ، وَشَاءَهُ وَأَرَادَهُ، وَخَلَقَهُ وَأَوْجَدَه. كُلُّ الْخَلْقِ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، يَسْأَلُونَهُ حَاجَاتِهِمْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ؛ فَيُعْطِيهِمْ سُؤْلَهُمْ، وَيَقْضِي شُؤُونَهُمْ، وَيُبَدِّلُ أَحْوَالَهُمْ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

رَوَىٰ ابْنُ مَاجَهْ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا وَيَخْفِضَ آخَرِينَ**»(١).

وَقَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، يُحْيِي حَيًّا، وَيُمِيتُ مَيِّتًا، وَيُرَبِّي صَغِيرًا، وَيَفُكُّ أَسِيرًا، وَيُغْنِي فَقِيرًا، وَهُوَ مَرَدُّ حَاجَاتِ الصَّالِحِينَ، وَمُنْتَهَىٰ شُكْرِهِمْ، وَصَرِيخُ الْأَخْيَارِ»(٢).

وَقَالَ سُوَيْدٌ الْفِزَارِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «إِنَّ رَبَّكُمْ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ: يُعْتِقُ رِقَابًا، وَيُقْحِمُ عِقَابًا، وَيُعْطِي رِغَابًا»(٣).

فَمِنْ شَأْنِهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي يَقْضِيهِ كُلَّ يَوْمٍ: أَنْ يُحْيِيَ وَيُمِيتَ، وَيُعِزَّ وَيُذِلَّ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب ما أنكرت الجهمية (٢٠٢)، والبزار (٢٢٦٧)، والطبراني في الأوسط (٣١٤٠)، وفي مسند الشاميين (٢٢٠٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٠١)، والبيهقي في الشعب (١١٠١)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٥٢-٢٥٣)، وصححه ابن حبان (٦٨٩)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: «هذا إسناد حسن؛ لتقاصر الوزير عن درجة الحفظ والإتقان» (١/ ٢٨)، والوزير هو ابن صبيح الثقفي، قال أبو حاتم: صالح الحديث، وأورده ابن حبان في الثقات. ينظر: الجرح والتعديل (٩/ ٤٤)، والثقات (٩/ ٢٣٠)، وصححه الألباني في ظلال الجنة بعد أن ذكر له بعض الشواهد والمتابعات (٣٠١)، وقد علقه البخاري موقوفًا علىٰ أبي الدرداء في كتاب التفسير من صحيحه، تفسير سورة الرحمن (٤/ ١٨٤٧)، وينظر: تغليق التعليق (٤/ ٣٣٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٤)، والدر المنثور (٧/ ٧٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٤)، والدر المنثور (٧/ ٧٠٠)، وتفسير السمعاني (٥/ ٣٢٩).

وَيُعْطِي وَيَمْنَعَ، وَيَرْفَعَ وَيَضَعَ، وَيَشْفِيَ مَرِيضًا، وَيَفُكَّ عَانِيًا، وَيُفَرِّجَ مَكْرُوبًا، وَيُجِيبَ دَاعِيًا، وَيُعْطِيَ سَائِلًا، وَيَغْفِرَ ذَنْبًا، إِلَىٰ مَا لَا يُحْصَىٰ مِنْ أَفْعَالِهِ وَأَحْدَاثِهِ فِي خَلْقِهِ مَا يَشَاءُ(٤).

وَمِنْ شَأْنِهِ ﷻ: أَنَّهُ يُخْرِجُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثَلَاثَ أُمَمٍ؛ فَأُمَّةٌ يُخْرِجُهُمْ مِنْ أَصْلَابِ الْآبَاءِ إِلَىٰ أَرْحَامِ الْأُمَّهَاتِ، وَأُمَّةٌ مِنَ الْأَرْحَامِ إِلَىٰ الدُّنْيَا، وَأُمَّةٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَىٰ الْقُبُورِ، ثُمَّ يَرْتَحِلُونَ جَمِيعًا إِلَىٰ اللَّهِ ﷻ(٥).

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «هُوَ سَوْقُ المَقَادِيرِ إِلَىٰ المَوَاقِيتِ»(٦).

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «كُلُّ يَوْمٍ لَهُ إِلَىٰ الْعَبِيدِ بِرٌّ جَدِيدٌ»(٧).

لَا يَشْغَلُهُ سُبْحَانَهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ، وَلَا تُغَلِّطُهُ المَسَائِلُ، وَلَا يُبْرِمُهُ إِلْحَاحُ المُلِحِّينَ، وَلَا طُولُ مَسْأَلَةِ السَّائِلِينَ، فَسُبْحَانَ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ الَّذِي عَمَّتْ هِبَاتُهُ أَهْلَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ! وَعَمَّ لُطْفُهُ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ وَاللَّحَظَاتِ، وَتَعَالَىٰ الَّذِي لَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْإِعْطَاءِ مَعْصِيَةُ الْعَاصِينَ، وَلَا اسْتِغْنَاءُ الْفُقَرَاءِ الْجَاهِلِينَ بِهِ وَبِكَرَمِهِ، وَهَذِهِ الشُّؤُونُ الَّتِي أَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي شَأْنٍ هِيَ تَقَادِيرُهُ وَتَدَابِيرُهُ الَّتِي قَدَّرَهَا فِي الْأَزَلِ وَقَضَاهَا، لَا يَزَالُ سُبْحَانَهُ يُمْضِيهَا وَيُنْفِذُهَا فِي أَوْقَاتِهَا الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَتُهُ(٨).

---

(٤) تفسير البغوي (٤/ ٢٧٠).

(٥) روح المعاني للألوسي (٢٧/ ١١١).

(٦) تفسير البغوي (٤/ ٢٧٠)، وتفسير ابن عطية (٥/ ٢٢٩)، وتفسير الثعالبي (٤/ ٢٤٤)، وتفسير ابن الجوزي (٨/ ١١٤).

(٧) تفسير البغوي (٤/ ٢٧٠).

(٨) تفسير السعدي (٨٣٠).

وَمِنْ جَمِيلِ مَا يُعْتَبَرُ بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ: «أَنَّ أَحَدَ الْأُمَرَاءِ سَأَلَ وَزِيرَهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فَلَمْ يَعْرِفْ مَعْنَاهَا، وَاسْتَمْهَلَهُ إِلَىٰ الْغَدِ، فَانْصَرَفَ كَئِيبًا إِلَىٰ مَنْزِلِهِ، فَقَالَ لَهُ غُلَامٌ لَهُ أَسْوَدُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ: عُدْ إِلَىٰ الْأَمِيرِ فَإِنِّي أُفَسِّرُهَا لَهُ، فَدَعَاهُ فَقَالَ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ، شَأْنُهُ ﷻ: أَنَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَيَشْفِي سَقِيمًا، وَيَبْتَلِي مُعَافًىٰ، وَيُعَافِي مُبْتَلًىٰ، وَيُعِزُّ ذَلِيلًا، وَيُذِلُّ عَزِيزًا، وَيُفْقِرُ غَنِيًّا، وَيُغْنِي فَقِيرًا، فَقَالَ لَهُ الْأَمِيرُ: فَرَّجْتَ عَنِّي فَرَّجَ اللهُ عَنْكَ، ثُمَّ أَمَرَ بِخَلْعِ ثِيَابِ الْوَزِيرِ، وَكَسَاهَا الْغُلَامَ، فَقَالَ الْغُلَامُ: هَذَا مِنْ شَأْنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ»(٩).

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «الدَّهْرُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ يَوْمَانِ: أَحَدُهُمَا: الْيَوْمُ الَّذِي هُوَ مُدَّةُ الدُّنْيَا، فَشَأْنُهُ فِيهِ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، وَالْإِمَاتَةُ وَالْإِحْيَاءُ، وَثَانِيهِمَا: الْيَوْمُ الَّذِي هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَشَأْنُهُ فِيهِ الْجَزَاءُ وَالْحِسَابُ»(١٠).

وَشُؤُونُ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي خَلْقِهِ كَثِيرَةٌ، وَنِعَمُهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ غَزِيرَةٌ، يَلْحَظُهَا الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، يُغَيِّرُ مِنْ حَالٍ إِلَىٰ حَالٍ، وَلَا يَعْرِفُ سِرَّ ذَلِكَ، وَلَا كَيْفِيَّتَهُ، وَلَا مَتَىٰ يَكُونُ إِلَّا هُوَ ﷻ!

إِنَّ الْإِيمَانَ بِأَقْدَارِ اللَّهِ ﷻ هُوَ إِيمَانٌ بِقُدْرَتِهِ ﷻ، وَمَنْ نَفَىٰ الْقَدَرَ عَطَّلَ الْقُدْرَةَ؛ وَلِذَا جَاءَ عَنْ جَمْعٍ مِنَ السَّلَفِ: أَنَّ الْقَدَرَ هُوَ الْقُدْرَةُ(١١).

(٩) تفسير القرطبي (١٧/ ١٦٧)، وتفسير النسفي (٤/ ٢٠٢).

(١٠) الكشاف (٤/ ٤٤٧)، وتفسير النسفي (٤/ ٢٠٢).

(١١) جاء ذلك عن عدد من السلف رحمهم الله تعالىٰ ورضي عنهم، منهم:

أ- عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «القدر قدرة الله ﷻ، فمن كذب بالقدر فقد جحد قدرة الله ﷻ» أخرجه ابن بطة في الإبانة (١٥٦٢).

=

وَلِأَهَمِّيَّةِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ كَانَ رُكْنًا مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السِّتَّةِ، «**وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١٢).

وَرَاحَةُ الْعِبَادِ وَطُمَأْنِينَتُهُمْ، وَسَعَادَةُ قُلُوبِهِمْ، وَهَنَاءُ عَيْشِهِمْ؛ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِذَلِكَ، حَتَّىٰ لَا يَجْزَعَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ إِذَا وَقَعَ مَا يَكْرَهُهُ، أَوْ تَخَلَّفَ مَا يَطْلُبُهُ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الْكُلَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ؛ فَيَرْضَىٰ وَيُسَلِّمُ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩].

وَلَوْ تَأَمَّلَ الْمُتَأَمِّلُ فِيمَا وَقَعَ مِنْ أَحْدَاثٍ خِلَالَ عَامِهِ الْمُنْصَرِمِ؛ لَعَجِبَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهَا، وَمَا ظَنَّ وُقُوعَهَا، وَلَكِنَّهَا وَقَعَتْ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَرَادَ وُقُوعَهَا فَقَدَّرَهَا، سَوَاءً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْفَرْدِ نَفْسِهِ، فِي بَيْتِهِ وَمَعَ أُسْرَتِهِ، أَوْ فِي وَظِيفَتِهِ وَعَمَلِهِ، مِنْ وُقُوعِ أُمُورٍ مَا كَانَ يَظُنُّهَا، أَوْ فَوَاتِهَا وَهُوَ يَطْلُبُهَا.

أَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْدَاثُ عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ بَلَدِهِ أَوْ أُمَّتِهِ، أَوْ عَلَىٰ مُسْتَوَىٰ الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ.

إِنَّ مُرَاجَعَةَ مَا وَقَعَ فِي الْعَامِ الْمُنْقَضِي لَمِمَّا يَزِيدُ إِيمَانَ الْمُؤْمِنِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ

= ب- زيد بن أسلم -رحمه الله تعالىٰ- مثل قول عمر ﵁، أخرجه الفريابي (٢٠٧) والآجري في الشريعة (٤٨٢)، وابن بطة (١٨٠٥).

ج- سئل الإمام أحمد عن القدر فقال: «القدر قدرة الله تعالىٰ علىٰ العباد، فقال الرجل: إن زنىٰ فبقدر، وإن سرق فبقدر؟ قال: نعم، الله قدر عليه» أخرجه ابن بطة (١٨٧٩).

(١٢) هذا جزء من حديث عمر بن الخطاب ﵁ في قصة جبريل ﵇ لما تذاكر هو والنبي ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان، أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨)، وأبو داود في السنة، باب في القدر (٤٦٩٥)، والترمذي في الإيمان، باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام (٢٦١٠)، وابن حبان (١٧٣).

تَعَالَىٰ وَقَدَرِهِ، وَيَدْفَعُهُ إِلَىٰ التَّسْلِيمِ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ.

مَاتَ زُعَمَاءُ كَانُوا يُصَبِّحُونَ النَّاسَ وَيُمَسُّونَهُمْ فِي الصُّحُفِ وَالشَّاشَاتِ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً، فَخَلَفَهُمْ آخَرُونَ حَلُّوا مَكَانَهُمْ، وَكَانَ الْأَوَّلُونَ عِنْدَ النَّاسِ نَسِيًا مَنْسِيًّا(١٣).

رَفَعَ اللهُ تَعَالَىٰ أَقْوَامًا، فَنَالُوا فَوْقَ مُرَادِهِمْ، وَوَضَعَ آخَرِينَ مَا ظَنُّوا أَنَّهُمْ يُوضَعُونَ، وَإِلَىٰ آخِرِ لَحْظَةٍ مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ وَشَأْنُ اللَّهِ تَعَالَىٰ يَجْرِي فِي عِبَادِهِ، وَحَتَّىٰ فِي بِدَايَةِ هَذَا الْعَامِ، وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَآنٍ؛ لَا خُرُوجَ لِلْمَخْلُوقَاتِ عَنْ تَقْدِيرِ الْخَالِقِ وَتَدْبِيرِهِ.

وَفِي لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الْعَامِ الْمَاضِي أَرَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ شَيْئًا مِنْ قُدْرَتِهِ، تَمَثَّلَ فِي طُوفَانٍ عَظِيمٍ أَتَىٰ عَلَىٰ الْمُدُنِ وَالْقُرَىٰ فَطَمَرَهَا، وَأَهْلَكَ بَشَرًا كَثِيرًا، وَقَفَ الْعَالَمُ كُلُّهُ أَمَامَهُ عَاجِزًا عَنْ تَخْفِيفِ آثَارِهِ، فَضْلًا عَنْ مَنْعِ وُقُوعِ مِثْلِهِ مُسْتَقْبَلًا(١٤).

وَفِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ شُؤُونٌ قَضَاهَا الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَفِي مَغَارِبِهَا شُؤُونٌ أُخْرَىٰ.

وَفِي فِلَسْطِينَ شُؤُونٌ يُقَدِّرُهَا الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَفِي الْعِرَاقِ شُؤُونٌ، وَفِي كُلِّ بُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ شُؤُونٌ، وَفِي كُلِّ يَوْمٍ، وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ.

شُؤُونٌ فِي السِّيَاسَاتِ وَمَصِيرِ الزُّعَمَاءِ وَالدُّوَلِ وَالْأُمَمِ، وَشُؤُونٌ فِي الاقْتِصَادِ وَالْأَرْزَاقِ، وَشُؤُونٌ فِي الْحُرُوبِ وَالْعَسْكَرِيَّاتِ، وَشُؤُونٌ فِي السِّلْمِ وَإِبْرَامِ الِاتِّفَاقِيَّاتِ؛ فَالْكُلُّ عَبِيدُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، لَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ إِلَّا مَا قَدَّرَهُ، فَلِمَاذَا يَخَافُ النَّاسُ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَخَافُونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؟ وَلِمَاذَا

---

(١٣) ممن توفي من الزعماء في العام المنصرم: الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات، وياسر عرفات رئيس السلطة الفلسطينية.

(١٤) هذا الطوفان هو التسونامي الذي حصل في شرق آسيا، وذهب ضحاياه أكثر من مئة وخمسين ألفا من البشر، وتنظر تفاصيله في خطبة: «حدثان كبيران» مجلد (٨)، رقم الخطبة (٣٣٢).

يَطْلُبُونَ الرِّزْقَ مِنْ بَشَرٍ مِثْلِهِمْ وَلَا يَسْأَلُونَ الْغَنِيَّ الرَّزَّاقَ؟! لِمَاذَا يَخْشَىٰ الْمُؤْمِنُونَ عَبِيدًا مِثْلَهُمْ كَخَشْيَتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً؟ وَلِمَاذَا تَتَعَلَّقُ قُلُوبُهُمْ بِمَنْ لَا يَمْلِكُونَ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا؟! فَالشَّأْنُ شَأْنُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ، وَالْقَضَاءُ قَضَاؤُهُ، وَالْحُكْمُ حُكْمُهُ، وَالْكُلُّ عَبِيدُهُ، لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، فَتَعَلَّقُوا -عِبَادَ اللَّهِ- بِرَبِّكُمْ، وَسَلُوهُ حَاجَاتِكُمْ، وَذَرُوا الْمَخْلُوقِينَ مِثْلَكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ مَهْمَا بَلَغُوا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يَضُرُّوكُمْ.

وَاسْتَقْبِلُوا عَامَكُمْ هَذَا بِتَجْدِيدِ الْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا؛ فَإِنَّ أَعْمَارَكُمْ مَاضِيَةٌ كَمَا مَضَىٰ عَامُكُمْ هَذَا، وَكُلُّ عَبْدٍ سَيَجِدُ مَا عَمِلَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

أَحْسِنُوا فِيمَا بَقِيَ مِنْ أَعْمَارِكُمْ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ مَا مَضَىٰ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَلْيَكُنْ عَامُكُمْ هَذَا خَيْرًا مِنْ عَامِكُمُ الَّذِي مَضَىٰ، وَلْيَكُنْ يَوْمُكُمْ خَيْرًا مِنْ أَمْسِكُمْ، وَغَدُكُمْ خَيْرًا مِنْ يَوْمِكُمْ. عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَخْتِمَ لَنَا أَجْمَعِينَ بِخَيْرٍ، وَأَنْ يَجْعَلَ عَوَاقِبَ أُمُورِنَا إِلَىٰ خَيْرٍ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . .

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ مِنَ الْأَحْدَاثِ الْمُؤْلِمَةِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَامِ الْمَاضِي: اسْتِمْرَارُ احْتِلَالِ الْعِرَاقِ، وَمَا نَتَجَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ ضَيَاعِ الْأَمْنِ، وَحُلُولِ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ، وَأَذِيَّةِ كَثِيرٍ مِنْ إِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ أَيْدِي الْفَجَرَةِ الْمُحْتَلِّينَ، وَخَاصَّةً فِي السُّجُونِ وَالْمُعْتَقَلَاتِ(١٥)؛ مِمَّا يَنْدَىٰ لَهُ الْجَبِينُ، وَيُحْزِنُ كُلَّ قَلْبٍ حَيٍّ سَلِيمٍ، وَهُوَ ابْتِلَاءٌ عَظِيمٌ قَدَّرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ إِخْوَانِنَا، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَأْجُرَهُمْ عَلَيْهِ عَظِيمَ الْأَجْرِ، وَأَنْ يَكْبِتَ عَدُوَّهُمْ، وَأَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ أَذِلَّةً صَاغِرِينَ.

وَابْتِلَاءٌ آخَرُ لِإِخْوَانِنَا فِي فِلَسْطِينَ؛ إِذْ عَانُوا كَلَبَ الْعَدُوِّ الْمُحْتَلِّ، وَصَبَرُوا عَلَىٰ لَأْوَاءِ الصَّهَايِنَةِ أَشَدَّ الصَّبْرِ، ثَبَّتَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ، وَسَدَّدَ أَقْوَالَهُمْ وَأَفْعَالَهُمْ.

وَفِي خِضَمِّ هَذِهِ الِابْتِلَاءَاتِ وَالشَّدَائِدِ الَّتِي أَصَابَتِ الْمُسْلِمِينَ اخْتُصَّتْ هَذِهِ

---

(١٥) هذا وقع في أول العام المنصرم؛ حيث سربت صور بعض المعتقلين في سجن «أبو غريب» في العراق، فكانت مأساوية، وانظر خطبة: «حقوق الأسرىٰ في الإسلام» مجلد (٩)، رقم الخطبة (٣٧٨).

الْبِلَادُ الْمُبَارَكَةُ بِبَلَاءٍ آخَرَ شَدِيدٍ؛ إِذْ انْبَرَىٰ بَعْضُ شَبَابِهَا لَهَا، فَخَرَجُوا عَنْ بَيْعَةِ إِمَامِهِمْ، وَرَكِبَ بَعْضُهُمْ مَوْجَةَ التَّكْفِيرِ ثُمَّ التَّخْرِيبِ وَالتَّفْجِيرِ، فَخَالَفُوا النُّصُوصَ الْوَاضِحَةَ فِي وُجُوبِ الْبَيْعَةِ، وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وَطَاعَةِ الْإِمَامِ الْمُسْلِمِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمَرَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَفِي حَالِ الْأَثَرَةِ، وَقَدْ شَقُّوا عَصَا الطَّاعَةِ، وَنَازَعُوا الْأَمْرَ أَهْلَهُ، حَتَّىٰ اسْتَحَلَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَسَاغُوا التَّخْرِيبَ فِي أَوْسَاطِهِمْ، فَأَشْمَتُوا بِالْمُسْلِمِينَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَكْبِتَ كُلَّ مُفْسِدٍ مِنْهُمْ، وَأَنْ يَرُدَّ إِلَىٰ الْحَقِّ ضَالَّهُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

إِنَّهَا ابْتِلَاءَاتٌ عِدَّةٌ، وَأَحْدَاثٌ كَثِيرَةٌ، حَوَاهَا عَامُنَا السَّالِفُ، وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَامُ عَامَ خَيْرٍ وَرَشَادٍ لِلْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَعَامَ نَصْرٍ وَتَمْكِينٍ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: انْتَشَرَتْ فِي الْآوِنَةِ الْأَخِيرَةِ ظَاهِرَةُ التَّهْنِئَةِ بِالْعَامِ الْجَدِيدِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَعْرُوفًا عِنْدَنَا مِنْ قَبْلُ؛ فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ.

وَالتَّحْقِيقُ فِي ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَنَّ التَّهَانِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْعَادَاتِ وَلَيْسَتْ مِنْ أَبْوَابِ الْعِبَادَاتِ، وَلَا زَالَ النَّاسُ يُهَنِّئُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِتَجَدُّدِ النِّعَمِ، وَانْدِفَاعِ النِّقَمِ، كَالنَّجَاحِ فِي الدِّرَاسَةِ، وَالْحُصُولِ عَلَىٰ الْوَظِيفَةِ، وَالرِّبْحِ فِي التِّجَارَةِ، وَالْقُدُومِ مِنَ السَّفَرِ، وَكَبُلُوغِ رَمَضَانَ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ. وَوَرَدَ عَنِ السَّلَفِ التَّهْنِئَةُ بِرَمَضَانَ وَبِالْعِيدِ[١٦]، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ وَرَدَ عَنْهُمُ التَّهْنِئَةُ بِالْعَامِ الْجَدِيدِ.

فَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ التَّهْنِئَةَ مِنْ أَبْوَابِ الْعَادَاتِ، فَالْأَصْلُ فِيهَا الْإِبَاحَةُ مَا لَمْ تَتَلَبَّسْ

---

(١٦) جاءت التهنئة بالعيد عن عدد من السلف منهم: أبو أمامة الباهلي، وواثلة بن الأسقع الليثي رضي الله عنهما، وعمر بن عبد العزيز، والحسن البصري، وعبد الله بن بسر المازني، وخالد بن معدان، وراشد بن سعد، وعبد الرحمن بن جبير بن نفير، وعبد الرحمن بن عائذ، =

بِمَحْظُورٍ آخَرَ، وَوَاقِعُ التَّهْنِئَةِ بِالْعَامِ الْجَدِيدِ لَيْسَ فِيهِ مَحْذُورٌ فِيمَا يَظْهَرُ لِي، إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَشَبُّهٌ بِالْكُفَّارِ؛ لِأَنَّ النَّصَارَىٰ يُهَنِّئُونَ بِالسَّنَةِ المِيلَادِيَّةِ، وَالْيَهُودَ بِالسَّنَةِ الْعِبْرِيَّةِ، فَإِذَا انْتَشَرَتِ التَّهْنِئَةُ بِالسَّنَةِ الْهِجْرِيَّةِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، وَزَالَتِ الْخُصُوصِيَّةُ؛ انْتَفَىٰ التَّشَبُّهُ، وَزَالَ التَّحْرِيمُ، فَالْأَمْرُ فِيهَا وَاسِعٌ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَتَرْكُهَا أَوْلَىٰ وَأَحْوَطُ، لَكِنْ لَا يُنْكَرُ عَلَىٰ مَنْ فَعَلَهَا، وَهِيَ مِنْ أَبْوَابِ المُبَاحَاتِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ المُنْذِرِيُّ أَنَّ الْحَافِظَ أَبَا الْحَسَنِ المَقْدِسِيَّ سُئِلَ عَنِ التَّهْنِئَةِ فِي أَوَائِلِ الشُّهُورِ وَالسِّنِينَ، أَهُوَ بِدعَةٌ أَمْ لَا؟ فَأَجَابَ بِأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَزَالُوا مُخْتَلِفِينَ فِي ذَلِكَ، قَالَ: وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّهُ مُبَاحٌ، لَيْسَ بِسُنَّةٍ وَلَا بِدْعَةٍ(١٧).

وَيَنْبَغِي لِمَنِ اخْتَارَ أَنْ يُهَنِّئَ إِخْوَانَهُ بِالْعَامِ الْجَدِيدِ أَنْ يَقْصِدَ بِذَلِكَ طُولَ الْعُمْرِ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ ﷻ، وَإِدْرَاكَ عَامٍ جَدِيدٍ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، مُؤَدٍّ لِلْفَرَائِضِ وَالمَنْدُوبَاتِ، مُجْتَنِبٌ لِلْمُحَرَّمَاتِ وَالمَكْرُوهَاتِ؛ لِتَكُونَ تَهْنِئَتُهُ تَهْنِئَةً بِطَاعَةِ اللهِ ﷻ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

= وغيرهم، عليهم أجمعين رحمة الله تعالىٰ، ينظر في ذلك: المعجم الكبير للطبراني (٢٢/ ٥٢)، والدعاء للطبراني (٢٨٨)، وسنن البيهقي (٣/ ٣١٩)، وتاريخ ابن عساكر (٦/ ٤٣٦-٢٤/ ١٥٤)، والثقات لابن حبان (٩/ ٩٠).

(١٧) الإقناع للشربيني (١/ ١٨٨)، ومغني المحتاج (١/ ٣١٦) ثم بعد مدة من كتابة هذا سمعت فتوىٰ مسجلة للشيخ ابن باز -رحمه الله تعالىٰ- بالجواز، وأن الأمر فيها واسع، فالحمد لله كثيرًا.

٢٢٥- إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا

١٢/ ٤/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، وَتَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَأَشْكُرُهُ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَقْسَمَ قَسَمًا عَظِيمًا عَلَىٰ كِتَابٍ كَرِيمٍ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الْوَاقِعَة: ٨٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ رَبُّهُ وَاجْتَبَاهُ، وَرَفَعَهُ بِالْوَحْيِ وَأَعْلَاهُ ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [الْقِيَامَة: ١٧-١٩]. صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَىٰ، وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ مِنَ الْهُدَىٰ؛ فَإِنَّ صَلَاحَ الْقُلُوبِ، وَزَكَاءَ النُّفُوسِ فِي تَدَبُّرِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الْحَشْر: ٢١].

أَيُّهَا النَّاسُ: خَصَائِصُ الْقُرْآنِ وَأَوْصَافُهُ، وَعُلُومُهُ وَمَنَافِعُهُ؛ لَا يُطِيقُ عَدَّهَا الْعَادُّونَ، وَلَا يُحْصِيهَا الْحَاسِبُونَ؛ فَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَالْحَبْلُ الْمَتِينُ، مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ نَجَا، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ هَلَكَ.

جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ حُجَّةً عَلَىٰ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَمُعْجِزَةً بَاقِيَةً لِسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، دَعَا النَّاسَ بِهِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، وَخَلْعِ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ.

قَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا فِي أَصْحَابِهِ ﷺ خَطِيبًا فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «**أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا ... وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: «**لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ**» مَعْنَاهُ: أَنَّ الْقُرْآنَ مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الذَّهَابُ، بَلْ يَبْقَىٰ عَلَىٰ مَرِّ الْأَزْمَانِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: «**تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**» مَعْنَاهُ: يَكُونُ مَحْفُوظًا لَكَ فِي حَالَتَي النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ، وَقِيلَ: تَقْرَؤُهُ فِي يُسْرٍ وَسُهُولَةٍ[٢].

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الْحِجْر: ٩]؛ إِذْ حَفِظَهُ اللهُ ﷻ مِنْ تَحْرِيفِ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالِ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلِ الْجَاهِلِينَ، وَعَدَتْ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ عَادِيَاتٌ مِنَ التَّتَارِ الْجَاهِلِينَ، وَعُبَّادِ الصَّلِيبِ الْحَاقِدِينَ، وَالْمُسْتَعْمِرِينَ الْمُفْسِدِينَ؛ لِيَنَالُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَنَالُوا مِنْ دِمَاءِ

---

(١) أخرجه من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ: مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥)، وابن حبان (٦٥٣).

(٢) شرح النووي علىٰ مسلم (١٧/ ١٩٨).

الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ مَا نَالُوا، وَأَفْسَدُوا فِي دِيَارِهِمْ مَا أَفْسَدُوا، وَعَجَزُوا عَنِ النَّيْلِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

لمَّا نُبِّئَ رَسُولُنَا ﷺ بِبَعْضِ آيَاتِهِ فَزِعَ أَشَدَّ الْفَزَعِ، وَرَجَعَ إِلَىٰ بَيْتِهِ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ﵂ فَقَالَ: «**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**، فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ: **لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لَهُمَا: «**فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَئِثْتُ مِنْهُ رُعْبًا فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثِّرُونِي**»(٣).

لَقَدْ أَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي سَيَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ كَلَامٌ عَظِيمُ الْمَنْزِلَةِ، ثَقِيلُ الْوَطْأَةِ، كَبِيرُ الشَّأْنِ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [الْمُزَّمِّل: ٥]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: «أَيْ كَلَامًا عَظِيمًا»(٤).

وَكَيْفَ لَا يَكُونُ قَوْلًا ثَقِيلًا وَكَلَامًا عَظِيمًا وَهُوَ كَلَامُ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ، الَّذِي طَلَبَ مُوسَىٰ ﵇ مِنْهُ أَنْ يَرَاهُ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٤٣]؟

وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ثَقِيلٌ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ؛ فَلَا يُطِيقُهَا إِلَّا مَنْ هَدَاهُ

---

(٣) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في المقدمة، باب بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ (١٦٠). والرواية الثانية للبخاري في بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافق أحداهما الأخرىٰ غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٠٦٦)، ومسلم (١٦١) ومن حديث جابر ﵁.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٢٧)، وينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٦).

اللهُ تَعَالَىٰ وَوَفَّقَهُ وَأَعَانَهُ، وَإِلَّا فَإِنَّ تَكَالِيفَهُ ثَقُلَتْ عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وَهُوَ ثَقِيلٌ عَلَىٰ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَسَّرَهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَآمَنُوا بِهِ، وَقَرَأُوهُ وَفَهِمُوهُ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وَثَوَابُ قِرَاءَتِهِ وَتَدَبُّرِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ ثَقِيلٌ فِي الْمِيزَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «كَمَا ثَقُلَ فِي الدُّنْيَا ثَقُلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْمَوَازِينِ»(٥).

وَكَانَ حَالَ تَنَزُّلِهِ شَدِيدَ الْوَطْأَةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّىٰ تَعْتَرِيَهُ أَحْوَالٌ لَا يُطِيقُهَا الْبَشَرُ لَوْلَا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ثَبَّتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَىٰ تَلَقِّيهِ عَنْهُ، وَتَبْلِيغِهِ لِلنَّاسِ، كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**. قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «إِنْ كَانَ لَيَنْزِلُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْغَدَاةِ الْبَارِدَةِ ثُمَّ تَفِيضُ جَبْهَتُهُ عَرَقًا»(٦).

لَقَدْ عَايَشَهُ أَصْحَابُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَعَلِمُوا ثِقَلَ الْقَوْلِ الَّذِي يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ، وَجَرَتْ لَهُمْ مَعَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَىٰ عَظَمَةِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَإِذَا رَأَوْا مِنْهُ ﷺ تَغَيُّرًا عَلِمُوا أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَطَأْطَأُوا رُؤُوسَهُمْ، وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ، وَأَمْسَكُوا

---

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٢٧)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٦).

(٦) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٢)، ومسلم في الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (٢٣٣٣).

عَنِ الْكَلَامِ؛ إِجْلَالًا لِلْقُرْآنِ، فَإِذَا رَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ رَأْسَهُ رَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ ﷺ وَأَنْصَتُوا؛ لِيَتَلَقَّوْا عَنْهُ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ؛ كَمَا رَوَىٰ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ كُرِبَ لِذَلِكَ وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ»(٧).

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ عُبَادَةُ رضي الله عنه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ نَكَسَ رَأْسَهُ وَنَكَسَ أَصْحَابُهُ رُؤُوسَهُمْ، فَلَمَّا أُتْلِيَ عَنْهُ رَفَعَ رَأْسَهُ»(٨) أَيْ: رُفِعَ عَنْهُ الْوَحْيُ رَفَعَ رَأْسَهُ.

وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أُوحِيَ إِلَيْهِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنَّا يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَيْهِ حَتَّىٰ يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ(٩).

وَرَوَىٰ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه فَقَالَ: «كُنْتُ أَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ أَخَذَتْهُ بُرَحَاءُ شَدِيدَةٌ، وَعَرِقَ عَرَقًا شَدِيدًا مِثْلَ الْجُمَانِ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَكُنْتُ أَدْخُلُ عَلَيْهِ بِقِطْعَةِ الْقَتَبِ أَوْ كِسْرَةٍ، فَأَكْتُبُ وَهُوَ يُمْلِي عَلَيَّ، فَمَا أَفْرُغُ حَتَّىٰ تَكَادَ رِجْلِيَّ تَنْكَسِرُ مِنْ ثِقَلِ الْقُرْآنِ، حَتَّىٰ أَقُولَ: لَا أَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيَّ أَبَدًا، فَإِذَا فَرَغْتُ قَالَ: اقْرَأْهُ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ سَقْطٌ أَقَامَهُ، ثُمَّ أَخْرُجُ بِهِ إِلَىٰ النَّاسِ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرِجَالُهُ مَوْثُوقُونَ(١٠).

---

(٧) أخرجه مسلم في الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (٢٣٣٤)، وأحمد (٥/ ٣١٧).

(٨) أخرجه مسلم في الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (٢٣٣٥).

(٩) أخرجه مسلم مطولًا في الجهاد والسير، باب فتح مكة (١٧٨٠)، والحاكم مختصرًا واللفظ له (٢/ ٢٤٢)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٢٩٨)، وأحمد (٢/ ٥٣٨).

(١٠) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/ ١٤٢) رقم (٤٨٨٩)، والأوسط (١٩١٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٧) رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما ثقات.

وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَهُوَ عَلَىٰ دَابَّتِهِ تَأَثَّرَتْ دَابَّتُهُ بِثِقَلِ مَا يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ، كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أُوحِيَ إِلَيْهِ وَهُوَ عَلَىٰ نَاقَتِهِ وَضَعَتْ جِرَانَهَا فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكَ، وَتَلَتْ عَائِشَةُ قَوْلَ اللَّهِ عز وجل: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ٥]» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ(١١).

وَفِي إِحْدَىٰ مَغَازِيهِ ﷺ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، قَالَ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: «وَإِذَا أَصْحَابُهُ كَأَنَّ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرَ، وَإِذَا الْإِبِلُ قَدْ وَضَعَتْ جِرَانَهَا» صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(١٢).

وَمِنْ ثِقَلِ الْقُرْآنِ وُقُوعُ الْعَذَابِ الْعَاجِلِ عَلَىٰ رَجُلٍ آمَنَ بِهِ، ثُمَّ ارْتَدَّ عَنْهُ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُفْتَرًىٰ؛ فَقَدْ رَوَىٰ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَعَادَ نَصْرَانِيًّا فَكَانَ يَقُولُ: مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ، فَأَمَاتَهُ اللهُ، فَدَفَنُوهُ، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوْهُ، فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقَوْهُ، فَحَفَرُوا لَهُ وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الْأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا، فَأَصْبَحَ قَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ فَأَلْقَوْهُ»، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ قَدْ نَبَذَتْهُ عَلَىٰ وَجْهِهَا فَتَرَكُوهُ مَنْبُوذًا»(١٣).

---

(١١) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣/ ٣٢٤)، والطبري (٢٩/ ١٢٧)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٥٤٩).

(١٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٠٨٦٥)، وابن خزيمة في التوحيد (٢٦٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٨١٩)، وصححه ابن حبان (٧٢٠٧)، والحاكم (١/ ١٣٧).

(١٣) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٢١)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٨١).

فَحَقٌّ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَفَضْلُهُ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَلَنْ يُعَارِضَهُ مُعَارِضٌ إِلَّا كَانَ مَخْذُولًا مَرْذُولًا ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٨٢]. ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإِسْرَاء: ٨٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَاعْمَلُوا بِكِتَابِ رَبِّكُمْ، وَسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ ﷺ؛ فَإِنَّ فِيهِمَا الْغِنَىٰ وَالْكِفَايَةَ عَنْ كُلِّ مَنَاهِجِ الْبَشَرِ وَأَفْكَارِهِمْ، وَبِهِمَا النَّجَاةُ فِي الدَّارَيْنِ، وَالسَّعَادَةُ فِي الْحَيَاتَيْنِ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٦٩-٧٠].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مِنْ عَظَمَةِ الْقُرْآنِ، وَإِعْجَازِهِ الظَّاهِرِ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ وَبَصِيرَةٍ: إِغَاظَتَهُ لِأَعْدَائِهِ مَعَ عَجْزِ أَعْدَائِهِ عَنِ النَّيْلِ مِنْهُ تَحْرِيفًا أَوْ تَبْدِيلًا، أَوْ مَحْوًا وَإِلْغَاءً، أَوْ صَرْفًا لِلْمُسْلِمِينَ عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ.

وَلَا زَالَ هَذَا الْقُرْآنُ عَظِيمًا عَزِيزًا ثَقِيلًا، يُغِيظُ أَعْدَاءَهُ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ،

وَلَا حِيلَةَ لَهُمْ مَعَهُ؛ وَفِي الْقَدِيمِ قَالَ قَائِلُ الْمُشْرِكِينَ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٢٦].

وَفِي عَصْرِنَا هَذَا اخْتَرَعَ صَهَايِنَةُ النَّصَارَىٰ قُرْآنًا سَمَّوْهُ فُرْقَانًا(١٤)؛ لِيَحُلَّ مَحَلَّ

(١٤) هذا إشارة إلىٰ ما نشرته بعض المجلات الإسلامية في الكويت حول توزيع الأمريكيين مصحفا نشرته داران أمريكيتان سميتاه (الفرقان الحق) وزعموا أنه الكتاب المقدس للقرن الحادي والعشرين!! أو كتاب السلام!! أو مصحف الأديان الثلاثة!!
قدم له عضوا اللجنة المشرفة علىٰ تدوينه وترجمته ونشره المدعوان: الصفي والمهدي -كما ورد في مقدمته- وذكرا بأنه للأمة العربية خصوصًا، وللعالم الاسلامي عمومًا.
ويقع في ٣٦٦ صفحة من القطع المتوسط، ومترجم إلىٰ اللغتين العربية والإنجليزية .. ويوزع في الكويت علىٰ المتفوقين من أبناء الكويتيين الطلبة في المدارس الأجنبية الخاصة. التي أصبحت مرتعا خصبا للمنصرين.
يبتدئ هذا المصحف المخترع بمقدمة مسمومة ترسخ وتؤصل للخلط العقدي، وحرية الأديان في مرادات تنصيرية، زاعمة أن الفرقان الحق لكل إنسان بحاجة إلىٰ النور بدون تمييز لعنصره أو لونه أو جنسه أو أمته أو دينه.
يتألف قرآنهم هذا من ٧٧ سورة مختلقة وخاتمة، ومن أسماء تلك السور المفتراة: الفاتحة - المحبة - المسيح - الثالوث - المارقين - الصلب - الزنا - الماكرين - الرعاة - الإنجيل - الأساطير - الكافرين - التنزيل - التحريف - الجنة - الأضحىٰ - العبس - الشهيد .. إلخ.
ويفتتح ببسملة شركية هي: بسم الأب الكلمة الروح الإله الواحد الأوحد. مثلث التوحيد .. موحد التثليث ما تعدد.
يتجلىٰ فيها خلط واضح لمعنىٰ الإله، فهو الأب كما زعمت النصاري، ومثلث التوحيد، وهو الإله الواحد الأحد كما يعتقد المسلمون.
ثم تأتي سورة الفاتحة المزعومة بتلبيس إبليس في مطابقة اسمها لفاتحة القرآن العظيم .. ثم سورة النور .. ثم السلام .. وهكذا.
وفي سوره آيات مفتراة تنضح بالباطل، وتفيض بالإفك والافتراء ومن ذلك:
١- ما جاء في سورة السلام (والذين اشتروا الضلالة وأكرهوا عبادنا بالسيف ليكفروا بالحق ويؤمنوا بالباطل أولئك هم أعداء الدين القيم وأعداء عبادنا المؤمنين).
٢- قولهم افتراء علىٰ الله: (يا أيها الناس لقد كنتم أمواتا فأحييناكم بكلمة الإنجيل =

. . . .

= الحق. ثم نحييكم بنور الفرقان الحق).
٣- قولهم: (لقد افتريتم علينا كذبًا بأنا حرمنا القتال في الشهر الحرام ثم نسخنا ما حرمنا فحللنا فيه قتالًا كبيرًا).
وهكذا يحللون لأنفسهم القتال في الأشهر الحرم، ولعلهم يقصدون بذلك حربهم التي شنوها في رمضان علىٰ الأفغان وفي الأشهر الحرم علىٰ العراق.
٤- قولهم في سورة التوحيد المزعومة: (وما كان لكم أن تجادلوا عبادنا المؤمنين في إيمانهم وتكفروهم بكفركم فسواء تجلينا واحدا أو ثلاثة أو تسعة وتسعين فلا تقولوا ما ليس لكم به من علم وإنا أعلم من ضل عن السبيل).
٥- قولهم في سورة المسيح: (وزعمتم بأن الإنجيل محرف بعضه فنبذتم جله وراء ظهوركم). فهم يعترضون علىٰ القرآن في بيانه حقيقة تحريفهم للإنجيل والتوراة.
٦- اتهامهم المسلمين بالنفاق في مثل قولهم: (وقلتم: آمنا بالله وبما أوتي عيسىٰ من ربه، ثم تلوتم منكرين .. ومن يبتغ غير ملتنا دينا فلن يقبل منه .. وهذا قول المنافقين).
٧- قولهم في سورة الصلب: (إنما صلبوا عيسىٰ المسيح ابن مريم جسدا بشرا سويا وقتلوه يقينا) ... يردون بهذا الإفك المفترىٰ قول الله ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.
٨- قولهم في سورة الثالوث: (ونحن الله الرحمن الرحيم ثالوث فرد إله واحد لا شريك لنا في العالمين).
٩- قولهم في سورة الثالوث: (إن أهل الضلال من عبادنا أشركوا بنا شركا عظيما فجعلونا تسعة وتسعين شريكا بصفات متضاربة وأسماء للإنس والجان يدعونني بها وما أنزلنا بها من سلطان .. وافتروا علينا كذبا بأنا الجبار المنتقم المهلك المتكبر المذل، وحاشا لنا أن نتصف بإفك المفترين ونزهنا عما يصفون) منكرين بإفكهم قول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾. وقوله عز من قائل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.
١٠- قولهم في سورة الموعظة ملغين الجهاد، ناشرين ثقافة الاستسلام والخضوع والضعف والجبن في ديار المسلمين وعقائدهم: (وزعمتم بأنا قلنا قاتلوا في سبيل الله وحرضوا المؤمنين علىٰ القتال وما كان القتال سبيلنا وما كنا لنحرض المؤمنين علىٰ القتال إن ذلك إلا تحريض شيطان رجيم لقوم مجرمين). هل أصبح الجهاد إجراما؟! وهل أصبح أمر الله بتحريض المؤمنين قول شيطان رجيم؟! تعالىٰ الله عما يقولون علوا كبيرا.
١١- قولهم في سورة الصلاح ملغين ركن الولاء والبراء: (يا أيها الذين ضلوا من عبادنا =

. . . .

= هل ندلكم علىٰ تجارة تنجيكم من عذاب أليم تحابوا ولا تباغضوا وأحبوا ولا تكرهوا أعداءكم، فالمحبة سنتنا وصراطنا المستقيم .. وسكوا سيوفكم سككا ورماحكم مناجل ومن جني أيديكم تأكلون) يريدون بذلك أن يصبح المسلمون أهل جزية وصغار وأهل زروع ودنيا .. ومصانع السلاح بأيديهم، والقوة ملكهم وحدهم!! فأين هم من قول الله ﷻ في القرآن العظيم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

١٢- قولهم في سورة الصلاح أيضا: (ولا تطيعوا أمر الشيطان ولا تصدقوه إن قال لكم: كلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم).

١٣- قولهم في السورة نفسها: (وكم من فئة قليلة مؤمنة غلبت فئة كثيرة كافرة بالمحبة والرحمة والسلام).

١٤- قولهم في سورة الطهر: (وما كان النجس والطمث والمحيض والغائط والتيمم والنكاح والهجر والضرب والطلاق إلا كومة ركس لفظها الشيطان بلسانكم وما كانت من وحينا وما أنزلنا بها من سلطان).

١٥- قولهم أخزاهم الله تعالىٰ في سورة الطهر: (وقلتم إفكا لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا .. وأمرتم باقترافه مثنىٰ وثلاث ورباع أو ما ملكت أيمانكم، ولا جناح عليكم إذا طلقتم النساء فإن طلقتموهن فلا يحللن لكم من بعد حتىٰ ينكحن أزواجا غيركم فهل بعد هذا من زنا وفحش وفجور). تعالىٰ الله عما يقولون علوا كبيرا ..

١٦- قولهم في سورة الغرانيق: (يا أيها الذين كفروا من عبادنا لقد ضل رائدكم وقد غوىٰ .. إن هو إلا وحي إفك يوحىٰ علمه مريد القوىٰ .. فرأىٰ من مكائد الشيطان الكبرىٰ. كلما مسه طائف من الشيطان زجره صحبه فأخفىٰ ما أبدىٰ .. وإذا خلا به قال: إني معك، فقد اتخذ الشيطان وليا من دوننا .. فلا يقوم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس إذ ينزل عليه رجزا) تعالىٰ الله عن إفكهم، وتنزه الرسول ﷺ عن وصفهم.

١٧- قولهم أخزاهم الله تعالىٰ: (وهن حرث لكم تأتون حرثكم أني شئتم، ذلك هو الظلم والفجور فأين العدل والخلق الكريم؟ وبدأنا خلقكم بآدم واحد وحواء واحدة فتوبوا عن شرك الزنا ووحدوا أنفسكم بأزواجكم .. فللزوج الذكر الواحد زوجة أنثىٰ واحدة وما زاد عن ذلك فهو من الشيطان الرجيم .. فالمرأة بشرعتكم نصف وارث فللذكر مثل حظ الأنثيين وهي نصف شاهد فإن لم يكن رجلان فرجل وامرأتان فللرجال عليهن درجة، =

. . . .

= وهذا عدل الظالمين .. واذا خشيتم عليهن الفتنة غيرة احتبستوهن بقولكم: قرن في بيوتكن ألا ساء حكم الظالمين قرارا .. فأي سلعة تبتاعون وأي بهيمة تقتنون وتسوسون).
١٨- قولهم في سورة الزنا: (يا أهل السفاح من عبادنا الضالين: لقد دفعتم بأنفسكم إلىٰ الزنا بما طاب لكم من النساء مثنىٰ وثلاث ورباع أو ما ملكت أيمانكم فعارضتم سنتنا في الإنجيل الحق بأن من نظر لأنثىٰ بعين الشهوة، فقد زنا بها في قلبه السقيم، ومن أشرك بزوجة أخرىٰ فقد زنا وأوقعها في الزنا والفجور).
١٩- قولهم في سورة المنافقين واصفين الله ﷻ بالشيطان تعالىٰ الله عن إفكهم ولعنهم وأخزاهم: (ومكرتم ومكر الشيطان والشيطان خير الماكرين .. وطبع الشيطان علىٰ قلوبكم وسمعكم وأبصاركم فأنتم قوم لا تفقهون).
٢٠- قولهم في سورة الجزية: (زعمتم بأننا قلنا: قاتلوا الذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتىٰ يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .. يا أهل الضلال من عبادنا: إنما دين الحق هو دين الإنجيل والفرقان الحق من بعده فمن ابتغىٰ غير ذلك دينا فلن يقبل منه فقد كفر بدين الحق كفرا).
تلك أمانيهم أن نكفر بالقرآن العظيم وبآيات الله ﷻ ونتبع إنجيلهم المحرف وفرقانهم المكذوب علىٰ الله، ولكن هيهات لهم، والقرآن محفوظ ودين الله تعالىٰ غالب، ولو كره الكافرون، فليفتروا ما هم مفترون، وسيعلمون أي منقلب ينقلبون.
ثم بعد نقل هذا من بعض المجلات الكويتية وقت نشرها له بسنوات، وقفت علىٰ مصحفهم (فرقان الحق) فإذا هم قد طبعوه بحجم المصحف الذي يطبع في المدينة النبوية وعلىٰ هيئته؛ ليغروا به السذج من الناس، وفي كل صفحة منه عمودان للآيات بالعربي والإنجليزي، وأكثره تركيب من ألفاظ من القرآن ينتقونها بما يوافق أغراضهم وخلطها بعبارات من الإنجيل.
ثم وقفت بعد ذلك علىٰ دراسة وافية لفرقان الحق هذا، مطبوعة ومحفوظة في مكتبة الملك فهد الوطنية، أعدها الدكتور صلاح الخالدي؛ ذبا عن القرآن ودفاعا عنه، فجزاه الله تعالىٰ خيرا.
هذا؛ وقد دعاني فعلهم القبيح لتتبع محاولات اختراع قرآن يكونا بديلا عن كتاب الله تعالىٰ، فوقفت علىٰ إحدىٰ عشرة محاولة من مسيلمة الكذاب إلىٰ فرقان الحق هذا، وأكثر المحاولات كانت بعد القرن الحادي عشر الهجري، وجلها من أعاجم، كما وضع =

كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّذِي أَغَاظَهُمْ أَشَدَّ الْغَيْظِ، فَمَا الْتَفَتَ أَحَدٌ إِلَىٰ قُرْآنِهِمُ الَّذِي أَمْلَاهُ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِمْ، وَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمُ الَّتِي أَنْفَقُوهَا فِي كِتَابَتِهِ وَطِبَاعَتِهِ وَتَوْزِيعِهِ

= اليزيدون قرآنا لهم، ووضع البابيون كتاب البيان قرآنا لهم، ثم جاء البهائيون فنسخوا قرآن البابيين بكتاب سموه الأقدس جعلوه قرآنهم، والدروز وضعوا كتابا سموه المنفرد بذاته وهو قرآنهم، وكذلك فعل النصيرون، وكلها كتب وقفت عليها كاملة أو علىٰ قطع منها فإذا هي طلاسم وخزعبلات، وكثير منها جمل غير مفهومة، وفيها ركاكة في الأسلوب، ولعل سبب ذلك أن من كتبوها من الأعاجم الذين تعلموا العربية. وهذا دعاني إلىٰ التأمل أن الله تعالىٰ لما تحدىٰ الناس أن يأتوا بمثل القرآن، ثم بعشر سور مثله، ثم بسورة مثله، أنه سبحانه ما صرف الناس عن محاولة ذلك، ولكن الناس عجزوا كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨] وأن العرب الأقحاح في القرون الأولىٰ لم يحاولوا؛ لعلمهم أنه لا أحد يأتي بمثله، إلا ما كان من أمر مسيلمة الكذاب، وفعله صار أضحوكة للعرب في وقته وبعده. وأما ما نقل عن محاولات للمعري ثم المتنبي فلا يثبت منها شيء حسب علمي، وقد قيل: إن خصومهم رموهم بذلك للنيل منهم؛ حسدًا لهم.

وقد نقل الماوردي عن أبي عبيد: أن أعرابيًا سمع رجلًا يقرأ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد، وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام. وسمع آخر رجلا يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ [يوسف: ٨٠] فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر علىٰ مثل هذا الكلام. تفسير الماوردي (١/ ٣٠).

بيد أنه لما جاء الأعاجم الذين لا يعرفون لسان العرب تمام المعرفة ظنوا أنهم بالاقتباس من القرآن، وتركيب بعض ألفاظه مع ألفاظ أخرىٰ ينقلونها من مصادر شتىٰ، وكلام يخترعونه ويؤلفون بينه وبين ألفاظ القرآن أنهم ينجحون في ذلك، لكنهم صاروا هم وكتبهم أضحوكة لمن يعرف العربية ويتذوقها، كما كان مسيلمة الكذاب أضحوكة قبلهم.

وتالله إن هذا لمن أعظم جوانب الإعجاز في القرآن، أن يتحدىٰ الله تعالىٰ الإنس والجن علىٰ الإتيان بمثل كلامه سبحانه، المنزل بلغتهم، ثم يعجزون عن ذلك، وتكون المحاولات علىٰ قلتها غاية في السخف والانحطاط لغة ومعنىٰ، ولا يزال التحدي قائمًا إلىٰ آخر الزمان؛ فسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

سُدًىٰ، وَسَتَكُونُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسْرَةً وَنَدَامَةً.

وَلَمَّا ضَاقُوا بِالْقُرْآنِ ذَرْعًا، وَأَعْيَتْهُمُ الْحِيَلُ فِي التَّعَامُلِ مَعَهُ، وَعَجَزُوا عَنْ صَرْفِ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُ؛ أَوْعَزُوا لِمَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمُحَرِّفِينَ أَنْ يُعِيدُوا قِرَاءَتَهُ وَتَفْسِيرَهُ بِمَا يَتَوَافَقُ مَعَ أَفْكَارِ الْقَوْمِ؛ لِيُفَسِّرُوا لَنَا الْقُرْآنَ تَفْسِيرًا لِيبْرَالِيًّا، وَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَمَا اسْتَمَعَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ وُكَلَائِهِمُ الْمُحَرِّفِينَ، وَفُضِحُوا شَرَّ فَضِيحَةٍ.

بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَتَعْجَبُونَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- إِنْ جُنَّ جُنُونُ الْقَوْمِ فَأَهَانُوا الْقُرْآنَ بِوَطْئِهِ بِالْأَقْدَامِ، وَرَمْيِهِ فِي دَوْرَاتِ الْمِيَاهِ(١٥)، لَيْسَ هَذَا بِمُسْتَغْرَبٍ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ أَنَّ

---

(١٥) نشرت مجلة نيوزويك الأمريكية، الصادرة في يوم الإثنين ١/ ٤/ ١٤٢٦ الموافق ٩/ ٥/ ٢٠٠٥م، أن بعض جنود الجيش الأمريكي في قاعدة غوانتانامو الأمريكية بكوبا قاموا بتدنيس المصحف الشريف، وإلقائه في المراحيض، ؛ لإيذاء السجناء المسلمين. وغضب المسلمون أشد الغضب من هذه الإهانة لكتاب ربهم تبارك وتعالىٰ، وكان بعض من أطلق سراحهم في العام الماضي قد ذكروا أن المحققين الأمريكيين يدوسون المصحف بأقدامهم، ويتبولون عليه؛ لإهانة هؤلاء الأسرىٰ الذين لا حول لهم ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

ومن هؤلاء الأسرىٰ المواطن الأردني (وسام عبد الرحمن أحمد المكنىٰ بأبي عبيدة) وهو أول من كشف عن إهانة القرآن وقال لموقع (إسلام أون لاين.نت) في يوليو ٢٠٠٤م إنه شاهد صنوفا من العذاب والتنكيل في جوانتانامو، كان أقساها وأشدها إيلاما إهانة القرآن الكريم من قبل حراس المعتقل الذين لم يتورعوا عن البول عليه.

ونقلت المجلة في عددها الأخير عن المحامي: مارك فالكوف، الذي يدافع عن عدد من معتقلي غوانتانامو قوله: إن ثلاثة وعشرين معتقلا حاولوا الانتحار في ٢٣ آب/ اغسطس ٢٠٠٣م؛ لأن حراسا ألقوا مصاحف علىٰ الأرض قبل أن يدوسوا عليها.

وفي يوم الأحد٧/ ٤/ ١٤٢٦ الموافق١٥/ ٥/ ٢٠٠٥م أصدر مجمع الفقه الإسلامي بجدة، بيانا استنكر فيه هذه الجريمة البشعة جاء فيه: (إن الأمانة العامة لمجمع الفقه الإسلامي بجدة المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي، تعبر باسم شعوب الأمة الإسلامية وعلمائها وفقهائها عن سخطهم الشديد واستنكارهم الكبير لما نقلته وكالات الأنباء العالمية استنادا إلىٰ مجلة (نيوزويك) الأمريكية، الصادرة في ٩ مايو ٢٠٠٥م، من أخبار مزعجة حول قيام بعض جنود الجيش الأمريكي في قاعدة غوانتانامو الأمريكية بكوبا، بتدنيس المصحف =

. . . .

= الشريف وإلقائه في المراحيض، قصد إيذاء السجناء المسلمين، ومن ورائهم من عامة المسلمين، وأهل الديانات الإلهية المعترفين بأن الكتاب المنزل علىٰ الرسول هو كمثله من الكتب المقدسة: التوراة والإنجيل، واجب احترامها وتقديسها.

ومعلوم أن المصحف الشريف يحتوي بين دفتيه كلام الله جل وعلا المنزل علىٰ نبيه محمد ﷺ، المنقول عنه متواترا، وهو مقدس جليل القدر متعبد بتلاوته. قال الله في وصفه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠] وهو أكبر معجزات النبي ﷺ، وأي انتهاك لحرمته وقدسيته يعتبر من أشد الموبقات جرمًا، ولا يمكن للمسلمين التسامح فيه.

والمجمع إذ يصدر هذا البيان يأمل من السلطات الأمريكية المختصة أن تحقق في الأمر بجدية وسرعة، وتصدر أشد العقوبات علىٰ مرتكبيه، عقوبة لهم وردعا لأمثالهم، فقد أجج مشاعر المسلمين، وألهب نفوسهم في سائر بقاع العالم، وهذا ما يزيد في تباعد الشقة بين المسلمين والغرب، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وطالبت (منظمة المؤتمر الإسلامي) بمحاكمة المسئولين عن انتهاك حرمة القرآن الكريم في معتقل جوانتانامو الأمريكي بكوبا، في ظل غضب إسلامي عارم في العديد من الدول الإسلامية عبر عن نفسه في صورة احتجاجات سالت الدماء في بعضها.

ثم صدر عن مفتي عام المملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن محمد آل الشيخ بيان حول هذا، نصه:

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه أما بعد:

فإن الله ﷻ أرسل رسوله محمدا ﷺ بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وأنزل عليه خير كتبه القرآن الكريم ﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] وأقسم الله سبحانه علىٰ تكريم كتابه وصيانته وأنه منزل من عنده بقوله: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠].

فالقرآن العظيم حبل الله المتين وصراطه المستقيم أنزله الله لهداية الخلق أجمعين، وهو الأصل الأول الذي يتلقىٰ منه المسلم أحكام دينه وما يجب عليه تجاه ربه أو نبيه أو دينه أو الخلق أجمعين، والأصل الثاني هو سنة المصطفىٰ ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

ومكانة القرآن العظيم لدىٰ جميع المسلمين لا تعدلها مكانة أخرىٰ، فهو من أقدس =

. . . .

= المقدسات في نفس كل مسلم، فالكل يتلوه ويتدبر معانيه ويحافظ عليه ويعمل بما جاء فيه، ويدافع عنه بكل ما يستطيع.
وبمناسبة ما تناقلته وكالات الأنباء، ورددته وسائل الإعلام المختلفة نقلا عن مجلة (نيوزويك) الأمريكية من انتهاك لحرمة هذا الكتاب الكريم علىٰ أيدي مسئولين في معسكر جوانتانامو بكوبا؛ حيث قاموا بتمزيق نسخ من القرآن وتدنيس أوراقه ودوسها بالأقدام فإننا نستنكر وندين هذا العمل الآثم الموجه لأقدس مقدسات المسلمين كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.
ويتعين علىٰ الجهات المسئولة عمن قاموا بهذا العمل المشين سرعة التحقيق في هذه الواقعة؛ وإيضاح الحقيقة كاملة، ومن ثم إيقاع الجزاء الرادع لمن يثبت تورطهم في هذا التصرف اللامسئول؛ إعذارا إلىٰ الله أولا، وتخفيفا للأسىٰ والأسف الذي أوجده هذا التصرف الآثم في نفوس جميع المسلمين ثانيا.
فاللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء بكتابك الكريم، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اهـ.
وصدرت بيانات كثيرة من علماء المسلمين في مصر وماليزيا وأندونيسيا والباكستان والهند وغيرها، وكذلك من المراكز الإسلامية في بلاد الغرب.
وفي الأردن أفتت رئاسة لجنة علما ء الشريعة الإسلامية بحزب جبهة العمل الإسلامي بقتال الاحتلالين الأمريكي والصهيوني في كل من العراق وفلسطين، وإخراجهم من هناك؛ ردا علىٰ تدنيس القرآن الكريم، واستمرار عدوانهما علىٰ المسلمين.
وقال الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني رئيس لجنة علماء الشريعة في حزب جبهة العمل الإسلامي في فتوىٰ ضمن بيان: (يتوجب علىٰ المسلمين جميعا شعوبا وحكومات وقف هذا العدوان بالرفض والإدانة لجريمة تدنيس المصحف الكريم، والتحرك لنصرة الكتاب العزيز، والعمل لإخراج القواعد الأمريكية من البلاد الإسلامية، ومقاطعة البضائع الأمريكية، والعمل بكل السبل لتحرير بلاد العرب والمسلمين من كل أشكال الاستعمار والاحتلال وفي مقدمتهما الأمريكي والصهيوني).
كما دعا الكيلاني في بيانه المسلمين حكاما وأفرادا إلىٰ الاتحاد دفاعا عن الدين الإسلامي والقرآن والمقدسات وشرف الأمة.
واعتبر أن الولايات المتحدة الأمريكية قد اقترفت جريمة تدنيس القرآن، إلىٰ جانب جرائمها السابقة بإصدار ما يسمىٰ بالفرقان الأمريكي المحرف لآيات الله، المشحون =

الْقُرْآنَ ثَقِيلٌ عَظِيمٌ يَسْتَعْصِي عَلَىٰ أَعْدَائِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، مَعَ مَعْرِفَتِهِ بِضَعْفِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي أَفْكَارِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمُ الَّتِي عَجَزُوا عَنْ إِقْنَاعِ الْعَالَمِ بِهَا رَغْمَ مَا يَمْتَلِكُونَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْقُوَّةِ المَادِّيَّةِ!!

إِنَّهَا الْهَزِيمَةُ الَّتِي حَاقَتْ بِهِمْ مَعَ الْقُرْآنِ وَأَهْلِ الْقُرْآنِ وَلَوْ كَانُوا أُسَارَىٰ فِي سُجُونِهِمْ، ضُعَفَاءَ فِي قُيُودِهِمْ؛ فَقُوَّتُهُمْ فِي كَوْنِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ، وَضَعْفُ أَعْدَائِهِمْ فِي مُعَارَضَتِهِمْ لَهُ، وَكِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ غَالِبٌ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ.

إِنَّهُمْ بِفِعْلِهِمُ الدَّنِيءِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ الْعَجْزِ وَالْفَشَلِ يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ، وَيَسْتَجْلِبُونَ غَضَبَ الْجَبَّارِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَيُعْطُونَ أَعْدَاءَهُمُ الَّذِينَ نَكَأُوا فِيهِمْ أَشَدَّ النِّكَايَةِ -وَلَا يَزَالُونَ- يُعْطُونَهُمُ الْقُوَّةَ وَالتَّأْيِيدَ مِنْ كُلِّ الْعَالَمِ، وَخَاصَّةً الْمُسْلِمِينَ، وَيُحْرِجُونَ أَتْبَاعَهُمْ وَالْمُسَارِعِينَ فِيهِمْ أَبْلَغَ الْحَرَجِ، وَيَفْضَحُونَهُمْ أَشَدَّ الْفَضِيحَةِ، وَيُقِيمُونَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمَا يَكَادُ الْمُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَفْرَحُونَ بِرَأْبِ الصَّدْعِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَيُحَسِّنُونَ الْعَلَاقَةَ مَعَهُمْ إِلَّا قَابَلُوهُمْ بِدَاهِيَةٍ تَزِيدُ الشُّقَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَتُثْبِتُ أَنَّهُمْ أَعْدَاءٌ لِدِينِنَا وَأُمَّتِنَا وَلَوْ كَرِهَ ذَلِكَ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُغَفَّلُونَ.

وَهُمْ مُنْذُ اعْتِدَائِهِمْ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَقَصُّدِهِمُ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِيذَاءِ وَالتَّسَلُّطِ لَمْ يَرَوْا خَيْرًا وَلَنْ يَجِدُوهُ فِي مُقْتَبَلِ الْأَيَّامِ. وَسِيَاسَاتُهُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ فَشَلٍ إِلَىٰ فَشَلٍ، وَفُضِحُوا أَمَامَ الْعَالَمِ شَرَّ فَضِيحَةٍ.

وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِهِ إِنَّ تَدْنِيسَهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَمُؤْذِنٌ بِعُقُوبَتِهِمُ الْعَاجِلَةِ مِنْ عِنْدِهِ ﷻ، أَوْ بِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ الَّذِينَ أَزْعَجُوهُمْ فِي الْعِرَاقِ وَأَفْغَانِسْتَانَ.

= بالأباطيل والعدوان علىٰ آيات الله، المزور لأسماء السور ومعانيها، إلىٰ جانب سعيها مع حكومة شارون وكيانه لهدم المسجد الأقصىٰ وبناء الهيكل المزعوم.

وَقَدْ ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ وَالمُؤَرِّخُونَ إِبَّانَ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ أَنَّ المُسْلِمِينَ كَانُوا يُحَاصِرُونَ النَّصَارَىٰ الْإِفْرِنْجَ فِي بَعْضِ حُصُونِهِمْ فِي الشَّامِ الشَّهْرَ وَالشَّهْرَيْنِ، وَهُوَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ فَتْحَهُ وَلَا اقْتِحَامَهُ، حَتَّىٰ كَادُوا يَيْأَسُونَ مِنْهُ، فَيَتَعَرَّضُ أَهْلُهُ لِسَبِّ الْقُرْآنِ وَإِهَانَتِهِ وَسَبِّ رَسُولِ اللَّهِ وَالْوَقِيعَةِ فِيهِ فَيُعَجِّلُ اللهُ تَعَالَىٰ فَتْحَهُ عَقِبَ ذَلِكَ(١٦).

حَتَّىٰ نُقِلَ عَنْ بَعْضِهِمْ قَوْلُهُ: إِنْ كُنَّا لَنَتَبَاشَرُ بِتَعْجِيلِ الْفَتْحِ إِذَا سَمِعْنَاهُمْ يَقَعُونَ فِي ذَلِكَ، مَعَ امْتِلَاءِ الْقُلُوبِ غَيْظًا عَلَيْهِمْ بِمَا قَالُوا.

فَمَا فَعَلَهُ هَؤُلَاءِ الصَّهَايِنَةُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا هُوَ إِلَّا نَذِيرُ شُؤْمٍ عَلَيْهِمْ لَا عَافِيَةَ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٧].

اللَّهُمَّ إِنَّا نَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا فَعَلُوا بِكِتَابِكَ، وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ مُسَارِعٍ فِيهِمْ، أَوْ مُدَافِعٍ عَنْهُمْ، أَوْ دَاعٍ إِلَىٰ مَذَاهِبِهِمْ، اللَّهُمَّ خُصَّهُمْ بِعَذَابِكَ، وَلَا تَجْعَلْهُ عَامًّا عَلَىٰ عِبَادِكَ.

اللَّهُمَّ نَكِّسْ رَايَاتِهِمْ، وَفَرِّقْ جُمُوعَهُمْ، وَمَزِّقْهُمْ شَرَّ مُمَزَّقٍ، وَأَخْرِجْهُمْ مِنْ بِلَادِ المُسْلِمِينَ أَذِلَّةً صَاغِرِينَ، وَاجْعَلْهُمْ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ. أَنْتَ مَوْلَانَا فَنِعْمَ المَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ، عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ . . .

❁ ❁ ❁

(١٦) ينظر: الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول (٢/ ٢٣٣-٢٣٤)

٢٢٦- ألهاكم التكاثر (١)

٣٠/ ١٠/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لله، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ كِتَابَهُ الْكَرِيمَ هُدًىٰ لِلْمُتَّقِينَ، وَجَعَلَهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

هُوَ رَبِيعُ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، وَنُورُ صَدْرِهِ، وَجَلَاءُ حُزْنِهِ، وَذَهَابُ هَمِّهِ، وَسَلَا نَفْسِهِ، لَا غِنَىٰ لِمُؤْمِنٍ عَنْهُ، وَلَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا بِهِ، مَا دَاخَلَتْ آيَاتُهُ قَلْبًا إِلَّا أَصْلَحَتْهُ، وَلَا عَمِلَ بِهَا عَبْدٌ إِلَّا سَعِدَ، وَلَا قَامَتْ بِهَا جَمَاعَةٌ إِلَّا أَفْلَحَتْ.

لَقَدْ دَلَّنَا كِتَابُ رَبِّنَا عَلَىٰ مَا يَنْفَعُنَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَحَذَّرَنَا مِمَّا يَضُرُّنَا وَيُهْلِكُنَا، تَرْغِيبًا وَتَرْهِيبًا، وَوَعْدًا وَوَعِيدًا، وَضَرَبَ لَنَا الأَمْثَالَ، وَقَصَّ عَلَيْنَا الأَخْبَارَ، وَأَمَرَنَا بِالاعْتِبَارِ.

وَفِي سُورَةٍ مِنْ سُوَرِهِ الْعَظِيمَةِ حَذَّرَنَا رَبُّنَا مِنَ اللَّهْوِ بِالدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا، وَزَجَرَنَا عَنِ التَّكَاثُرِ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَمَلَذَّاتِهَا؛ إِذْ إِنَّ عَاقِبَةَ ذَلِكَ حِسَابٌ شَدِيدٌ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١-٨].

سُورَةٌ مَعْدُودَةُ الآيَاتِ، قَلِيلَةُ الْكَلِمَاتِ، فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ مَا يَقْرَعُ الأَسْمَاعَ، وَيُحْيِي الْقُلُوبَ، وَيُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا، فَلَا يَسْتَكْثِرُ مِنْهَا إِلَّا مَنْ أَلْهَتْهُ وَشَغَلَتْهُ عَمَّا يَجِبُ أَنْ يَشْتَغِلَ بِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ شَغَلَ الْعَبْدَ عَمَّا يَنْفَعُهُ فَهُوَ مِنَ اللَّهْوِ، وَأَكْثَرُ مَا يَشْغَلُ النَّاسَ مِنْ أَنْوَاعِ اللَّهْوِ: التَّكَاثُرُ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا؛ وَلِذَلِكَ خَاطَبَهُمْ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ وَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا يَقَعُ مِنَ النَّاسِ تَكَاثُرٌ فِيهِ، وَتَفَاخُرٌ بِهِ، وَتَنَافُسٌ عَلَيْهِ، ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

رَوَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه فَقَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ، قَالَ: «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ**

إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَقُولُ الْعَبْدُ: مَالِي، مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ: مَا أَكَلَ فَأَفْنَىٰ، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَىٰ، أَوْ أَعْطَىٰ فَاقْتَنَىٰ، وَمَا سِوَىٰ ذَٰلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ، وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢).

وَإِنَّمَا تَكَاثَرَ النَّاسُ بِمَا تَكَاثَرُوا بِهِ تَوْقًا إِلَىٰ السَّعَادَةِ، وَطَلَبًا لِلرَّاحَةِ، يَنْشُدُونَ بِتَكَاثُرِهِمْ مُنَافَسَةَ النَّاسِ، وَالتَّفَوُّقَ عَلَىٰ الْأَقْرَانِ.

وَمِنَ التَّكَاثُرِ مَا هُوَ مَحْمُودٌ، وَمِنْهُ مَا هُوَ مَذْمُومٌ، وَمِنْهُ مَا هُوَ فِي الْأَشْيَاءِ المَحْسُوسَةِ، وَمِنْهُ مَا هُوَ فِي الْأُمُورِ المَعْنَوِيَّةِ، فَالمَحْمُودُ مِنَ التَّكَاثُرِ: مَا كَانَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، وَعُلُوم نَافِعَةٍ، وَنَحْوِهَا، لَا يَبْتَغِي المُكَاثِرُ بِهَا عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا يَبْتَغِي رِضْوَانَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَهُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ وَالصَّالِحُونَ بَعْدَهُمْ؛ إِذْ كَانَ تَكَاثُرُهُمْ فِيمَا يُقَرِّبُهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ كَمَا قَالَ عُمَرُ يَصِفُ الصِّدِّيقَ ﷺ: «وَاللَّهِ مَا سَابَقْتُهُ إِلَىٰ خَيْرٍ قَطُّ إِلَّا سَبَقَنِي إِلَيْهِ»(٣).

وَالتَّكَاثُرُ المَذْمُومُ مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا، وَمِنْهُ مَا هُوَ حِسِّيٌّ كَالتَّكَاثُرِ فِي الْأَمْوَالِ وَالزُّرُوعِ، وَالْبِنَاءِ وَالمَرَاكِبِ، وَالْأَثَاثِ وَالمَتَاعِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ مِمَّا يُوْصِلُ أَصْحَابَهُ إِلَىٰ السَّرَفِ المَذْمُومِ، وَالتَّعَلُّقِ بِالدُّنْيَا، وَالتَّثَاقُلِ عَنِ الْوَاجِبَاتِ،

---

(١) أخرجه مسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٨)، والترمذي في الزهد، باب (٣١) (٢٣٤٢)، وفي التفسير، باب ومن سورة التكاثر (٣٣٥٤)، والنسائي في الوصايا، باب الكراهية في تأخير الوصية (٦/ ٢٣٧)، وأحمد (٤/ ٢٤)، وعبد بن حميد (٥١٣)، وابن حبان (٧٠١)، ووهم الحاكم فاستدركه وقال: صحيح ولم يخرجاه (٤/ ٣٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٥٩)، وأحمد (٢/ ٣٦٨)، وابن حبان (٣٢٤٤).

(٣) أخرجه أبو يعلىٰ (١٩٤)، والبيهقي (١/ ٤٥٢)، والطبراني في الكبير (٩/ ٦٩) رقم (٨٤٢٠)، وصححه ابن خزيمة (١١٥٦)، والضياء في المختارة (١٤)، والحاكم (٢/ ٢٤٦).

وَالْوُقُوعِ فِي المَكْرُوهَاتِ وَالمُحَرَّمَاتِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا اسْتِحْضَارُ الْحِسَابِ عَلَيْهِ لَكَانَ حَرِيًّا بِالْعُقَلَاءِ مِنَ النَّاسِ التَّخَفُّفُ مِنْهُ، وَالْبُعْدُ عَنِ التَّنَافُسِ فِيهِ.

وَأَمَّا كَثْرَةُ الْأَوْلَادِ فَطَاعَةٌ وَقُرْبَةٌ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِنْ كَانَ المُكَاثِرُ بِهِمْ يُرِيدُ تَحْقِيقَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الْأُمَمَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٤).

وَيَكُونُ التَّكَاثُرُ بِالْأَوْلَادِ مَعْصِيَةً إِنْ كَانَ يُرِيدُ المُفَاخَرَةَ بِكَثْرَتِهِمْ، أَوِ الِاسْتِقْوَاءَ بِهِمْ عَلَىٰ الْبَاطِلِ، كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يُفَاخِرُونَ بِكَثْرَةِ أُسَرِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، وَيَسْتَعْلُونَ بِهَا عَلَىٰ النَّاسِ، وَيَعْتَدُونَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِهَا، حَالُهُمْ كَحَالِ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمُ الْأُولَىٰ.

وَمِنَ التَّكَاثُرِ المَعْنَوِيِّ: طَلَبُ الْجَاهِ وَالمَنَاصِبِ، وَالسَّعْيُ فِي التَّرَؤُّسِ عَلَىٰ النَّاسِ، لَا لِخِدْمَتِهِمْ، وَإِنَّما لِيُرَىٰ مَكَانُهُ، وَيَلْتَفَّ النَّاسُ حَوْلَهُ، وَيَطَأُوا عَقِبَهُ.

وَمِنْهُ كَذَلِكَ: التَّفَانِي فِي الْعَمَلِ لَا إِخْلَاصًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَدَاءً لِلْأَمَانَةِ، وَنَفْعًا لِلْأُمَّةِ، بَلْ لِتَحْصِيلِ السُّمْعَةِ، وَطَلَبِ المَدْحِ وَالثَّنَاءِ مِنَ النَّاسِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَتَوَقَّوْنَ هَذِهِ المَزَالِقَ أَشَدَّ التَّوَقِّي، وَيَتَحَاشَوْنَ الْوُقُوعَ فِيهَا وَيَحْذَرُونَ مِنْهَا؛ كَمَا قَالَ النَّخَعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «إِيَّاكُمْ أَنْ تُوطَأَ أَعْقَابُكُمْ»(٥).

وَقَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «يَرْحَمُ اللهُ رَجُلًا لَمْ يَغُرَّهُ مَا يَرَىٰ مِنْ كَثْرَةِ

---

(٤) أخرجه من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه: أبو داود في النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء (٢٠٥٠)، وصححه ابن حبان (٤٠٥٦)، والحاكم (٢/ ١٧٦).
وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه عند: سعيد بن منصور (٤٩٠)، وأحمد (٣/ ١٥٨)، وصححه ابن حبان (٤٠٢٨)، والضياء في المختارة (١٨٨٩).

(٥) أخرجه الدارمي في سننه (٥٢٦).

النَّاسِ، ابْنَ آدَمَ، تَمُوتُ وَحْدَكَ، وَتَدْخُلُ الْقَبْرَ وَحْدَكَ، وَتُبْعَثُ وَحْدَكَ، وتُحَاسَبُ وَحْدَكَ»(٦).

وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- إِذَا مَشَىٰ فِي الطَّرِيقِ يَكْرَهُ أَنْ يَتْبَعَهُ أَحَدٌ، وَكَانَ يَقُولُ: «أَشْتَهِي مَا لَا يَكُونُ: مَكَانًا لَا يَكُونُ فِيهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ»(٧).

وَيَقُولُ: «طُوبَىٰ لِمَنْ أَخْمَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ذِكْرَهُ»(٨).

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَا رَأَيْنَا الزُّهْدَ فِي شَيْءٍ أَقَلَّ مِنْهُ فِي الرِّيَاسَةِ، نَرَىٰ الرَّجُلَ يَزْهَدُ فِي المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ وَالمَالِ؛ فَإِذَا نُوزِعَ الرِّيَاسَةَ حَامَىٰ عَلَيْهَا وَعَادَىٰ»(٩).

وأَكْثَرُ تَنَافُسِ النَّاسِ فِي المَالِ وَالْجَاهِ، فَكَمَا أَنَّ المَالَ مَلِكُ الْأَعْيَانِ المُنْتَفَعِ بِهَا؛ فَإِنَّ الْجَاهَ مَلِكُ الْقُلُوبِ المَطْلُوبِ تَعْظِيمُهَا وَطَاعَتُهَا وَالتَّصَرُّفُ فِيهَا، مِنْ تَحْصِيلِ المَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ(١٠).

وَهَذَا اللَّوْنُ مِنَ المُكَاثَرَةِ أَشَدُّ فَتْكًا، وَأَعْظَمُ خَطَرًا مِنَ المُكَاثَرَةِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ؛ ذَلِكَ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ إِنَّمَا هَلَكُوا لِخَوْفِ مَذَمَّةِ النَّاسِ وَحُبِّ مَدْحِهِمْ؛ فَصَارَتْ حَرَكَاتُهُمْ كُلُّهَا عَلَىٰ مَا يُوَافِقُ رِضَا النَّاسِ؛ رَجَاءَ المَدْحِ، وَخَوْفًا مِنَ الذَّمِّ، وَذَلِكَ مِنَ المُهْلِكَاتِ(١١).

---

(٦) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في الزهد (٢٧١)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٥).

(٧) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٢٦).

(٨) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥/ ٣٠٩).

(٩) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٨).

(١٠) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/ ٢٧٨).

(١١) مختصر منهاج القاصدين (٢١٢)، وينظر: مجلة البيان، عدد (١٤٣) ص (٦)، وفيها بحث لطيف، كتبه: د. عبد الرحمن آل عثمان، جمع فوائد شتىٰ من كتب التفسير وغيرها في قوله تعالىٰ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، ومنه استفدت في الخطبة كثيرًا.

وَلَا يَخْفَىٰ أَنَّ مَنْ غَلَبَ عَلَىٰ قَلْبِهِ حُبُّ الْجَاهِ صَارَ مَقْصُورَ الْهَمِّ عَلَىٰ مُرَاعَاةِ الْخَلْقِ، مَشْغُوفًا بِالتَّوَدُّدِ إِلَيْهِمْ، وَالمُرَاءَاةِ لَهُمْ، وَلَا يَزَالُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ مُلْتَفِتًا إِلَىٰ مَا يُعَظِّمُ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَهُمْ، وَيَقْتَنِصُ بِهِ قُلُوبَهُمْ، وَهَذَا جَذْرُ النِّفَاقِ وَأَصْلُ الْفَسَادِ؛ لِأَنَّهُ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَىٰ تَقْدِيمِ رِضَا الْخَلْقِ عَلَىٰ رِضَا الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ؛ مِمَّا يُؤَدِّي إِلَىٰ رِقَّةِ الدِّينِ، وَالتَّلَاعُبِ بِالشَّرِيعَةِ، فَتَجِدُهُ إِنْ أَفْتَىٰ النَّاسَ مَالَ بِفَتَاوِيهِ مَعَ أَهْوَائِهِمْ، وَإِنْ صَلَّىٰ إِمَامًا لَهُمْ تَلَاعَبَ بِالصَّلَاةِ مُجَارَاةً لِأَذْوَاقِهِمْ[١٢].

وَأَقْبَحُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّكَاثُرِ: أَنْ يَتَكَاثَرَ الْعَبْدُ بِطَاعَةٍ يُرِيدُ بِهَا أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَهَذَا مِنَ الشِّرْكِ الْخَفِيِّ الَّذِي يَأْكُلُ أَعْمَالَ صَاحِبِهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ؛ كَمَنْ يَتَكَاثَرُ فِي الْعِلْمِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «التَّكَاثُرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ فَكُلُّ مَنْ شَغَلَهُ وَأَلْهَاهُ التَّكَاثُرُ بِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي حُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ؛ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُلْهِيهِ التَّكَاثُرُ بِالمَالِ أَوْ بِالْجَاهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْهِيهِ التَّكَاثُرُ بِالْعِلْمِ، فَيَجْمَعُ الْعِلْمَ تَكَاثُرًا وَتَفَاخُرًا، وَهَذَا أَسْوَأُ حَالًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِمَّنْ يُكَاثِرُ بِالمَالِ وَالْجَاهِ؛ فَإِنَّهُ جَعَلَ أَسْبَابَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، وَصَاحِبُ المَالِ وَالْجَاهِ اسْتَعْمَلَ أَسْبَابَ الدُّنْيَا لَهَا، وَكَاثَرَ بِأَسْبَابِهَا»[١٣].

وَمِنَ التَّكَاثُرِ المَذْمُومِ فِي الْعِلْمِ: التَّكَثُّرُ بِالمَسَائِلِ، وَالْبَحْثُ عَنِ الْغَرَائِبِ، كَمَنْ يَهْجُرُ صَحِيحَ الْحَدِيثِ لِاشْتِهَارِهِ، وَيَتَتَبَّعُ غَرِيبَهُ لِيُقَالَ: عِنْدَهُ مِنَ الْحَدِيثِ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِ، أَوْ يَتْرُكُ المُهِمَّ مِنْ مَسَائِلِ الْفِقْهِ، وَيَشْتَغِلُ بِنَوَادِرِ الْفُرُوعِ وَعِلَلِ النَّحْوِ وَغَيْرِهَا؛ لِيَظْهَرَ أَمَامَ الْجَهَلَةِ أَنَّ لَدَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ مَا يَفْقِدُهُ غَيْرُهُ[١٤].

---

(١٢) ببعض التصرف من المصدرين السابقين.

(١٣) عدة الصابرين (١٤٢).

(١٤) مجلة البيان عدد (١٤٣) ص (٦) بتصرف.

وَمِنْ لَطِيفِ مَا وَرَدَ فِي هَذَا المَعْنَىٰ: مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْ حَمْزَةَ الْكِنَانِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «خَرَّجْتُ حَدِيثًا وَاحِدًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مِائَتَيْ طَرِيقٍ. قَالَ: فَدَاخَلَنِي مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْفَرَحِ غَيْرُ قَلِيلٍ، وَأُعْجِبْتُ بِذَلِكَ، قَالَ: فَرَأَيْتُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي يَحْيَىٰ بْنَ مَعِينٍ فِي المَنَامِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا زَكَرِيَّا، خَرَّجْتُ حَدِيثًا وَاحِدًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ مِائَتَيْ طَرِيقٍ، قَالَ: فَسَكَتَ عَنِّي سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: أَخْشَىٰ أَنْ يَدْخُلَ هَذَا تَحْتَ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾»[١٥].

سَاقَ الشَّاطِبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- هَذِهِ الْحِكَايَةَ ثُمَّ قَالَ: «وَهُوَ صَحِيحٌ فِي الاعْتِبَارِ؛ لِأَنَّ تَخْرِيجَهُ مِنْ طُرُقٍ يَسِيرَةٍ كَافٍ فِي المَقْصُودِ مِنْهُ؛ فَصَارَ الزَّائِدُ عَلَىٰ ذَلِكَ فَضْلًا»[١٦].

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- أَنَّ قَوْمًا أَكْثَرُوا جَمْعَ الْحَدِيثِ وَلَمْ يَكُنْ مَقْصِدُهُمْ صَحِيحًا، وَلَا أَرَادُوا مَعْرِفَةَ الصَّحِيحِ مِنْ غَيْرِهِ بِجَمْعِ الطُّرُقِ؛ وَإِنَّمَا كَانَ مُرَادُهُمُ الْعَوَالِيَ وَالْغَرَائِبَ، فَطَافُوا الْبُلْدَانَ لِيَقُولَ أَحَدُهُمْ: لَقِيتُ فُلَانًا، وَلِي مِنَ الْأَسَانِيدِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِي، وَعِنْدِي أَحَادِيثُ لَيْسَتْ عِنْدَ غَيْرِي . . . قَالَ: وَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْإِخْلَاصِ بِمَعْزِلٍ؛ وَإِنَّمَا مَقْصِدُهُمُ الرِّئَاسَةُ وَالمُبَاهَاةُ، وَلِذَلِكَ يَتَّبِعُونَ شَاذَّ الْحَدِيثِ وَغَرِيبَهُ[١٧].

وَالذَّمُّ فِي الْآيَةِ يَتَنَاوَلُ التَّكَاثُرَ فِي الْعِلْمِ مُبَاهَاةً وَرِيَاءً، وَطَلَبًا لِلْجَاهِ وَالرِّئَاسَةِ، كَمَا يَتَنَاوَلُ التَّكَاثُرَ فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، مِمَّا يُلْهِي عَنِ التَّزَوُّدِ لِلْآخِرَةِ، لَكِنْ لَوْ

(١٥) أخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم (٢/ ١٠٣٤) وعنه الذهبي في تذكرة الحفاظ (٣/ ٩٣٣).

(١٦) الموافقات (١/ ٨٢).

(١٧) تلبيس إبليس (١٤٢).

حَصلَتْ كَثْرَةُ المَالِ أَوِ الْجَاهِ أَوِ الْوَلَدِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تكَاثُرٍ[١٨]، وَلَا حِرْصٍ يُفْضِي إِلَىٰ تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ، أَوْ فِعْلِ المُحَرَّمَاتِ، أَوِ المُدَاهَنَةِ فِي الْحَقِّ، أَوِ السُّكُوتِ عَنِ الْبَاطِلِ؛ فَإِنَّ الْكَثْرَةَ حِينَئِذٍ لَا تَضُرُّ، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ أَهْلَ كَثْرَةٍ فِي المَالِ أَوِ الْوَلَدِ أَوِ الْجَاهِ، وَلَمْ يَضُرَّهُمْ ذَلِكَ؛ لِكَوْنِهِ حَصَلَ مِنْ غَيْرِ تكَاثُرٍ، ثُمَّ لَمْ يُلْهِهِمْ مَا نَالُوهُ مِنْ كَثْرَةٍ عَنْ أَعْمَالِ الْآخِرَةِ، بَلْ سَخَّرُوا مَا رُزِقُوا مِنْ كَثْرَةٍ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ تبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يُبَصِّرَنَا بِمَا يَنْفَعُنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لله حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ؛ أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَظَلُّ التَّكَاثُرُ بِالنَّاسِ فِي مُتَعِ الدُّنْيَا وَمَلَذَّاتِهَا حَتَّىٰ يَرِدُوا قُبُورَهُمْ وَهُمْ لَاهُونَ فِي تَكَاثُرِهِمْ ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾، فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ

(١٨) ينظر: مجلة البيان عدد (١٤٣).

قُبُورَهُمْ مَكَانَ زِيَارَتِهِمُ الثَّانِي، كَمَا كَانَتِ الدُّنْيَا مَحَلَّ زِيَارَتِهِمُ الْأَوَّلَ، وَكَمَا لَمْ يُخَلَّدُوا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ لَا يُخَلَّدُونَ فِي قُبُورِهِمْ.

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِالْعَزِيزِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- فَقَرَأَ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فَلَبِثَ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مَيْمُونُ، مَا أَرَىٰ الْمَقَابِرَ إِلَّا زِيَارَةً، وَمَا لِلزَّائِرِ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ؛ أَيْ: إِلَىٰ جَنَّةٍ أَوْ إِلَىٰ نَارٍ»[١٩].

وَسَمِعَ أَعْرَابِيٌّ هَذِهِ الْآيَةَ فَقَالَ: «بُعِثُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: لِأَنَّ الزَّائِرَ لَا بُدَّ أَنْ يَرْتَحِلَ»[٢٠].

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «هَذَا وَعِيدٌ بَعْدَ وَعِيدٍ»[٢١]، يَعْنِي: سَيَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ لَهْوِهِمْ بِالتَّكَاثُرِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا حِينَ يَنْزِلُ بِهِمُ الْمَوْتُ، ثُمَّ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ حِينَ يُوَسَّدُونَ فِي قُبُورِهِمْ[٢٢]، فَلَا أَنِيسَ لَهُمْ إِلَّا أَعْمَالُهُمُ الصَّالِحَةُ، وَأَمَّا دُنْيَاهُمُ الَّتِي تَكَاثَرُوا بِهَا، وَنَافَسُوا غَيْرَهُمْ عَلَيْهَا، فَعَادَتْ إِلَىٰ وَارِثِهِمْ، كَمَا رَوَىٰ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَىٰ مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَىٰ عَمَلُهُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٢٣].

---

(١٩) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٥٩) رقم (١٩٤٥٥).

(٢٠) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٦)، وأضواء البيان (٩/ ٧٨).

(٢١) تفسير البغوي (٤/ ٥٢٠)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٦).

(٢٢) ذكر هذا المعنىٰ ابن القيم في عدة الصابرين (١٥٧)، قال: وهو قول الحسن ومقاتل، ورواه عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانتصر له بأوجه عدة.

(٢٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب سكرات الموت (٦١٤٩)، ومسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٠).

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أَيْ: لَوْ عَلِمْتُمْ حقَّ الْعِلْمِ لما أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ عَنْ طَلَبِ الدَّارِ الآخِرَةِ حَتَّىٰ صِرْتُمْ إِلَىٰ المَقَابِرِ(٢٤).

وَإِنَّمَا الْبَاعِثُ عَلَىٰ الالْتِهَاءِ بِالدُّنْيَا، وَالتَّكَاثُرِ مِنْهَا، وَالتَّنَافُسِ عَلَيْهَا إِمَّا عَدَمُ الْعِلْمِ بِحَقِيقَتِهَا وَحَقِيقَةِ الآخِرَةِ، أَوْ عَدَمُ الإِيمَانِ بِذَلِكَ، أَوْ ضَعْفُ الْيَقِينِ بِهِ، وَإِلَّا لَوْ كَانَ يَقِينُهُمْ قَوِيًّا بِمَا أَخْبَرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ عَنْ حَقِيقَةِ الدُّنْيَا وَحَقِيقَةِ الآخِرَةِ، لما فَرَّطُوا فِي الآخِرَةِ، تَكَاثُرًا بِالدُّنْيَا، لَكِنْ لَمَّا فُقِدَ مِنْهُمْ عِلْمُ الْيَقِينِ وَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي لَا يُشَكُّ فِي صِحَّتِهِ وَثُبُوتِهِ، وَقَعَ مِنْهُمْ مَا وَقَعَ مِنَ التَّكَاثُرِ بِالدُّنْيَا، وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَوْ وَصَلَتْ حَقِيقَةُ هَذَا الْعِلْمِ بِالدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَبَاشَرَتْهَا لما أَلْهَاهُمُ التَّكَاثُرُ بِالدُّنْيَا عَنِ الآخِرَةِ.

وَمُجَرَّدُ الْعِلْمِ بِقُبْحِ الشَّيْءِ وَسُوءِ عَوَاقِبِهِ قَدْ لَا يَكْفِي فِي تَرْكِهِ، فَإِذَا صَارَ لَهُ عِلْمُ الْيَقِينِ كَانَ اقْتِضَاءُ هَذَا الْعِلْمِ لِتَرْكِ التَّكَاثُرِ أَشَدَّ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَىٰ عَيْنِ يَقِينٍ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ تَكَاثُرٌ بِالدُّنْيَا إِلَّا فِيمَا شَذَّ وَنَدَرَ(٢٥).

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أَيْ: رُؤْيَةً بَصَرِيَّةً حَقِيقِيَّةً؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣](٢٦).

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فَكُلُّ أَحَدٍ يُسْأَلُ عَنْ نَعِيمِهِ الَّذِي كَانَ فِيهِ فِي الدُّنْيَا: هَلْ نَالَهُ مِنْ حَلَالِهِ وَوَجْهِهِ أَمْ لَا؟ فَإِذَا تَخَلَّصَ مِنْ هَذَا السُّؤَالِ سُئِلَ سُؤَالًا آخَرَ: هَلْ شَكَرَ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ فَاسْتَعَانَ بِهِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ أَمْ لَا؟ فَالأَوَّلُ سُؤَالٌ عَنْ سَبَبِ اسْتِخْرَاجِهِ، وَالثَّانِي عَنْ مَحَلِّ صَرْفِهِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْعَبْدَ يُسْأَلُ

---

(٢٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٦)، وأضواء البيان (٩/ ٨٢).

(٢٥) ينظر معنىٰ هذا الكلام عند: ابن القيم في عدة الصابرين (١٥٦)

(٢٦) ينظر: تفسير السعدي (٩٣٤).

عَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ[٢٧].

وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فَقَرَأَهَا حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنْ أَيِّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ، وَإِنَّمَا هُمَا الْأَسْوَدَانِ: المَاءُ وَالتَّمْرُ، وَسُيوفُنَا عَلَىٰ رِقَابِنَا، وَالْعَدُوُّ حَاضِرٌ، فَعَنْ أَيِّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ؟ قَالَ: «**إِنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ**»[٢٨].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- وَاشْكُرُوا اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نِعَمِهِ؛ فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، خُذُوهَا مِنْ حِلِّهَا، وَاصْرِفُوهَا فِي حِلِّهَا، وَاشْكُرُوا الْمُنْعِمَ عَلَيْهَا، وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا إِلَىٰ زَوَالٍ، وَعَاقِبَةُ الْفِتْنَةِ بِهَا خُسْرَانٌ، وَكَمْ مِنْ عَظِيمٍ فِي جَاهِهِ، غَنِيٍّ بِمَالِهِ، مُكَاثِرٍ فِي دُنْيَاهُ خَلَّفَ ذَلِكَ لِوَارِثِهِ، وَرَحَلَ هُوَ إِلَىٰ قَبْرِهِ، فَمَا ثَمَّ إِلَّا عَمَلُهُ، فَاعْتَبِرُوا -عِبَادَ اللَّهِ- بِمَنْ مَضَىٰ قَبْلَ أَنْ تَكُونُوا عِبْرَةً لِمَنْ بَقِيَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ . . .



---

(٢٧) ينظر: عدة الصابرين (١٥٧).

(٢٨) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٨٠).

وله شاهد من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه: عند أحمد (١/ ١٦٤)، وابن ماجه في الزهد، باب معيشة أصحاب النبي ﷺ (٤١٥٨)، والضياء في المختارة (٨٥٦).

٢٢٧- ألهاكم التكاثر (٢)

١٢/ ٤/ ١٤٢٩هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الخَلْقِ وَمُدَبِّرِهِمْ، وَرَازِقِ العِبَادِ وَكَافِيهِمْ، وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ، وَعَلَيْهِ حِسَابُهُمْ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ وَآلَائِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ عَطَائِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ عَظُمَ حِلْمُهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ فَأَمْهَلَهُمْ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ هُدًىٰ وَعِبْرَةً لَهُمْ؛ فَذَكَّرَهُمْ فِيهِ وَوَعَظَهُمْ، وَعَلَّمَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر:٥]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِحَقِيقَةِ الدُّنْيَا وَزَوَالِهَا، فَزَهِدَ فِيهَا، وَتَقَلَّلَ مِنْهَا، وَلَمْ يَغْتَرَّ بِهَا، وَقَالَ ﷺ فِيهَا: **«مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟! مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»**[١]، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا الفِتْنَةَ بِالدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا فَإِنَّهَا إِلَىٰ زَوَالٍ، وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ، وَلَنْ يَجِدَ العَبْدُ فِيهَا إِلاَّ مَا عَمِلَ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَجْزِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄: أحمد (١/ ٣٠١)، وعبد بن حميد (٥٩٩)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٢٧) رقم (١١٨٩٨)، وصححه ابن حبان (٦٣٥٢)، والحاكم وقال: علىٰ شرط البخاري (٤/ ٣٤٤).

وجاء بنحوه من حديث ابن مسعود ﵁ عند: الترمذي في الزهد، وقال: حديث حسن صحيح (٢٣٧٧)، وابن ماجه في الزهد، باب مثل الدنيا (٤١٠٩)، والطيالسي (٢٧٧)، وأحمد (١/ ٣٩١)، وأبو يعلىٰ (٥٢٩٢).

يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ هُوَ الهُدَىٰ وَالنُّورُ، وَهُوَ الْعَاصِمُ مِنَ الضَّلاَلِ وَالهَوَىٰ، مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ نَجا، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ هَلَكَ.

وَالقُرْآنُ العَظِيمُ فِيهِ عِلاَجُ أَمْرَاضِ الأَفْرَادِ وَالأُمَمِ، وَحَلُّ مُشْكِلاَتِهِمْ، وَصَلاَحُ قُلُوبِهِمْ، وَزَكَاءُ نُفُوسِهِمْ، وَمَا شَقِيَتِ الْبَشَرِيَّةُ إِلَّا لَمَّا حُكِمَتْ بِغَيْرِهِ، وَمَا ضَعُفَ المُسْلِمُونَ وَلَا هَانُوا إِلَّا لَمَّا اسْتَبْدَلُوا بِهِ غَيْرَهُ؛ ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وَسُورَةُ التَّكَاثُرِ مِنَ السُّوَرِ الْعَظِيمةِ الَّتِي تُعَالِجُ مَا فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ حُبِّ التَّمَلُّكِ وَالاسْتِئْثَارِ عَلَىٰ الْغَيْرِ. والتَّكَاثُرُ يَقَعُ فِيمَا يَزِيدُ عَلَىٰ حَاجَةِ الإِنْسَانِ مِنَ المَالِ وَالمَتَاعِ وَكُلِّ شَيْءٍ، وَهَذَا التَّكَاثُرُ صَارَ مِنْ سِمَاتِ هَذَا الْعَصْرِ الرَّأْسِمَالِيِّ الَّذِي تَرَبَّىٰ فِيهِ الْبَشَرُ عَلَىٰ الْقَسْوَةِ وَالْوَحْشِيَّةِ وَالأَثَرَةِ، وَسَوْفَ يَقُودُهُمْ ذَلِكَ إِلَىٰ الهَلاَكِ وَالْبَوَارِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَنُذُرُ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا مَاثِلَةٌ لِلْعِيَانِ فِي المُشْكِلاَتِ الاقْتِصَادِيَّةِ، وَالْقَلاقِلِ وَالْفِتَنِ الَّتِي تَنْتِجُ عَنْهَا.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التَّكَاثُر: ١-٢]، التَّكَاثُر تَفَاعُلٌ مِنَ الكَثْرَةِ؛ أَيْ: مُكَاثَرَةُ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ[٢]، وَهَذَا هُوَ وَاقِعُ جُمْهُورِ النَّاسِ يُكَاثِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، وَيَغْفُلُونَ عَنْ الآخِرَةِ.

وَأَعْظَمُ شَيْءٍ يَسْتَرِقُّ الْعَبْدَ وَيَسْلبُهُ عَقْلَهُ شُغْلُ قَلْبِهِ فِيمَا لَا نَفْعَ فِيهِ، أَوْ فِيمَا نَفْعُهُ زَائِلٌ، وَأَكْثَرُ مَا يَشْغَلُ الْقُلُوبَ فِي هَذَا الزَّمَنِ لَهْوُهَا بِالدُّنْيَا، وَكَثْرَةُ التَّفْكِيرِ فِيهَا،

(٢) الفوائد لابن القيم (٩٠).

وَكَيْفِيَّةُ الحُصُولِ عَلَيْهَا، وَالتَّزَوُّدُ مِنْهَا، وَالاسْتِمْتَاعُ بِهَا، عَلَىٰ نَحْوٍ قَبِيحٍ مُخِيفٍ.

يَقُولُ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «قَوْلُهُ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أَبْلَغُ فِي الذَّمِّ مِنْ (شَغَلَكُمْ)؛ فَإِنَّ الْعَامِلَ قَدْ يَسْتَعْمِلُ جَوَارِحَهُ بِمَا يَعْمَلُ وَقَلْبُهُ غَيْرُ لَاهٍ بِهِ؛ فَاللَّهْوُ هُوَ ذُهُولٌ وَإِعْرَاضٌ.

وَلَمْ يُذْكَرْ فِي الْآيَةِ نَوْعُ الْمُتَكَاثَرِ بِهِ؛ لِيَكُونَ عَامًّا مُطْلَقًا، وَأَنَّ كُلَّ مَا يُكَاثِرُ بِهِ الْعَبْدُ غَيْرَه سِوَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا يَعُودُ عَلَيْهِ بِنَفْعِ مَعَادِهِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا التَّكَاثُرِ، فَالتَّكَاثُرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ رِيَاسَةٍ أَوْ نِسْوَةٍ أَوْ حَدِيثٍ أَوْ عِلْمٍ وَلَا سِيَّمَا إِذَا لَمْ يَحْتَجْ إِلَيْهِ، والتَّكَاثُرُ فِي الْكُتُبِ وَالتَّصَانِيفِ وَكَثْرَةِ المَسَائِلِ وَتَفْرِيعِهَا وَتَوْلِيدِهَا، والتَّكَاثُرُ أَنْ يَطْلُبَ الرَّجُلُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ وَهَذَا مَذْمُومٌ إِلَّا فِيمَا يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فالتَّكَاثُرُ فِيهِ مُنَافَسَةٌ فِي الخَيْرَاتِ وَمُسَابَقَةٌ إِلَيْهَا» اهـ[٣].

إِنَّ مِنَ التَّكَاثُرِ المَذْمُومِ التَّكَاثُرَ بِعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ كَتَشْقِيقِ المَسَائِلِ، وَالْبَحْثِ عَنْ شَوَاذِّهَا وَغَرِيبِهَا، وَمَا لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ عَمَلٌ؛ لِلْمُفَاخَرَةِ عَلَىٰ الْأَقْرَانِ، وَلَفْتِ الأَنْظَارِ، أَوْ لِتَفْصِيلِ الشَّرِيعَةِ عَلَىٰ أَهْوَاءِ النَّاسِ، كَمَا يَقَعُ مِنْ بَعْضِ المَفْتُونِينَ بِالْجَاهِ وَالإِعْلامِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَيُخْشَىٰ عَلَىٰ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ أَنْ يُقَالَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ: «**تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَدْ قِيلَ، فَيُؤْمَرُ بِهِ، فَيُسْحَبُ عَلَىٰ وَجْهِهِ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ**»[٤].

وَالتَّكَاثُرُ بِالمَالِ إِنْ لَمْ يَنْفَعْ صَاحِبَهُ ضَرَّهُ؛ كَأَنْ يَجْمَعَهُ مِنْ أَيِّ كَسْبٍ لَا يُرَاعِي

---

(٣) الفوائد بتصرف يسير (٩٠-٩١).

(٤) كما في حديث أبي هريرة ﵁ عند مسلم في الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (١٩٠٥).

حَلَالًا وَلَا حَرَامًا، وَيُنْفِقُهُ فِي الحَرَامِ، فَإِنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْ اكْتِسَابِهِ وَإِنْفَاقِهِ، وَلَنْ يَنْتَفِعَ إِلَّا بِالْقَلِيلِ مِنْ مَالِهِ، ثُمَّ هُوَ لِوَارِثِهِ؛ فَغُرْمُهُ عَلَيْهِ وَغُنْمُهُ لِغَيْرِهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ**»(٥)، وَيُفْهَمُ مِنْهُ ذَمُّ المَالِ غَيْرِ الصَّالِحِ عِنْدَ الرَّجُلِ غَيْرِ الصَّالِحِ؛ لِأَنَّهُ يَعُودُ عَلَيْهِ بِالضَّرَرِ.

وَمِنَ التَّكَاثُرِ بِالمَالِ التَّكَاثُرُ بِالدُّورِ وَالمَزَارِعِ وَالضَّيْعَاتِ وَالسَّيَّارَاتِ وَالهَوَاتِفِ النَّقَّالَةِ وَالكَمَالِيَّاتِ الَّتِي أَصْبَحَتْ مِنْ سِمَاتِ هَذَا العَصْرِ، وَأَضْحَتِ المُفَاخَرَةُ بِهَا ظَاهِرَةً لِلْعِيَانِ، وَتَعَدَّتِ الضَّرُورَةَ وَالحَاجَةَ إِلَىٰ الكَمَالِيَّاتِ وَإِلَىٰ السَّرَفِ المَذْمُومِ، وَيُخْشَىٰ أَنْ يَدْخُلَ ذَلِكَ فِي الأَشَرِ وَالْبَطَرِ وَالظُّلْمِ وَالْكِبْرِ، وَيُخْشَىٰ عَلَىٰ النَّاسِ أَنْ يُسْلَبُوا مَا أُنْعِمَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ سُوءِ اسْتِخْدَامِ هَذِهِ النِّعَمِ.

وَالتَّكَاثُرُ بِالْوَلَدِ إِنْ لَمْ يُرَاعِ فِيهِ الوَالِدُ مَا أَوْجَبَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ فِيهِمْ مِنْ صَلَاحِ النِّيَّةِ، وَحُسْنِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّأْدِيبِ، وَأَنْ لَا يَكُونَ مَقْصِدُهُ بِتَكْثِيرِهِمْ: التَّكَاثُرَ بِهِمْ عَلَىٰ سَائِرِ الْأُسَرِ وَالْقَبَائِلِ، أَوِ الْفَخْرَ بِهِمْ أَمَامَ قَرَابَتِهِ وَبَنِي عُمُومَتِهِ، وَلَا حِسْبَةَ لَهُ فِي نَفْعِ الْإِسْلَامِ بِهِمْ، وَتَكْثِيرِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَرَجَاءَ دَعْوَتِهِمْ لَهُ، ثُمَّ يُهْمِلُهُمْ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ، وَيَعْتَنِي بِأُمُورِ دُنْيَاهُمْ، وَيُغَذِّي أَبْدَانَهُمْ، وَيُهْمِلُ قُلُوبَهُمْ، فَهَذَا يُخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ تَكَاثُرُهُ بِوَلَدِهِ وَبَالًا عَلَيْهِ، وَالْوَلِيدُ بْنُ المُغِيرَةِ لَمْ يَنْفَعْهُ كَثْرَةُ وَلَدِهِ وَحُضُورُهُمْ عِنْدَهُ فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر: ١١-١٣].

وَهَذَا التَّكَاثُرُ يُلَازِمُ أَكْثَرَ النَّاسِ حَيَاتَهُمْ كُلَّهَا، فَتَطُولُ أَعْمَارُهُمْ، وَتُنْسَجُ أَكْفَانُهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ عَنِ الآخِرَةِ، مُتَنَافِسُونَ فِي الدُّنْيَا؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

(٥) أخرجه من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: أحمد (٤/١٩٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، وصححه ابن حبان (٣٢١٠)، والعراقي في تخريج الإحياء (٣٢٥٣).

«**الشَّيْخُ يَكْبَرُ وَيَضْعُفُ جِسْمُهُ وَقَلْبُهُ شَابٌّ عَلَىٰ حُبِّ اثْنَتَيْنِ: طُولِ الحَيَاةِ، وَحُبِّ المَالِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

وَهَكَذَا التَّكَاثُرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَذْمُومٌ إِلَّا مَا كَانَ فِيمَا يُقَرِّبُ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَيَسْتَجْلِبُ رِضْوَانَهُ؛ وَلِذَا جَاءَ بَعْدَ الإِخْبَارِ عَنْ لَهْوِ النَّاسِ بِالتَّكَاثُرِ الْوَعِيدُ عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التَّكَاثُر: ٣-٨].

وَهَذَا النَّعِيمُ الَّذِي سَيُسْأَلُ عَنْهُ الْعِبَادُ هُوَ كُلُّ نَعِيمٍ حِسِّيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ يَنَالُهُ الْعَبْدُ، وَنِعَمُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ لَا تُحْصَىٰ، وَمَعَ كَثْرَةِ النِّعَمِ يَكْثُرُ السُّؤَالُ. وَالتَّكَاثُرُ مِنَ النِّعَمِ وَالْمُتَعِ الدُّنْيَوِيَّةِ سَبَبٌ لِتَكَاثُرِ السُّؤَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا وَجَاعُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ وَعُذِّبُوا، وَلَمَّا حَصَلَ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ أَمْنٌ وَشِبَعٌ أَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُمْ سَيُسْأَلُونَ عَنْ نَعِيمِهِمْ ذَاكَ، وَوَرَدَتْ حَوَادِثُ عِدَّةٌ فِي ذَلِكَ:

رَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ: **مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟** قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا**، قُومُوا، فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَىٰ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ:

---

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٣٣٥).

وهو في صحيح البخاري (٦٤٢٠) بلفظ: «لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل»، وفي صحيح مسلم (١٠٤٦) بلفظ: «قلب الشيخ شاب علىٰ حب اثنتين: حب العيش، والمال».

مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أَيْنَ فُلَانٌ؟** قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنا مِنَ المَاءِ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِن هَذِهِ، وَأَخَذَ المُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **إِيَّاكَ وَالحَلُوبَ**، فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيم يَوْمَ القِيَامَةِ؛ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الجُوعُ ثُمَّ لم تَرْجِعُوا حَتَّىٰ أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٧)].

وَفِي حَادِثَةٍ أُخْرَىٰ قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: «أَتَانِي النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَأَطْعَمْتُهُمْ رُطَبًا وَأَسْقَيْتُهُمْ مَاءً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسْأَلُونَ عَنْهُ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[(٨)].

وَعَنِ الزُّبَيْرِ بنِ الْعَوَّامِ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ: ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم، قَالَ الزُّبَيْرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَيُّ النَّعِيمِ نُسْأَلُ عَنْهُ وَإِنَّمَا هُمَا الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالمَاءُ؟ قَالَ: **أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ[(٩)].

فَإِذَا كَانَ أَفَاضِلُ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّذِينَ أَقَامُوا الْإِسْلَامَ، وَنَصَرُوا الدِّينَ، وَهَاجَرُوا

---

(٧) أخرجه مسلم في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلىٰ دار من يثق برضاه بذلك، وبتحققه تحققًا تامًّا، واستحباب الاجتماع علىٰ الطعام (٢٠٣٨).
وجاء بسياق أطول منه من حديث ابن عباس رضي الله عنه عند: ابن حبان (٥٢١٦).

(٨) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥١)، وأبو يعلىٰ (١٧٩٠)، والطيالسي (١٧٩٩)، وصححه ابن حبان (٣٤١١).

(٩) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة التكاثر، وقال: حديث حسن (٣٣٥٦)، والحميدي (٦١)، وأبو يعلىٰ (٦٧٦)، والطحاوي في شرح المشكل (٤٦٧).

فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، يُخْبِرُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُمْ يُسْأَلُونَ عَنْ تَمْرٍ سَدُّوا بِهِ جُوعَهُمْ، فَعَمَّ سَنُسْأَلُ وَقَدْ أَغْرَقَتْنَا النِّعَمُ مِنْ رُؤُوسِنَا إِلَىٰ أَقْدَامِنَا، وَأَسْرَفْنَا فِيهَا وَبَطِرْنَا، وَقَلَّ فِينَا شُكْرُهَا، وَالرِّضَا بِهَا، بَلْ نَطْلُبُ المَزِيدَ وَالمَزِيدَ؟! فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْحَمَنَا بِرَحْمَتِهِ، وَأَنْ يُعَامِلَنَا بِعَفْوِهِ وَلُطْفِهِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا شُكْرَ نِعْمَتِهِ وَحُسْنَ عِبَادَتِهِ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ...

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ فَلَا تَعْصُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَيُّهَا المُسْلِمونَ: إِنَّ مَا نَرْفُلُ فِيهِ مِنْ نِعَمِ المَوْلَىٰ جَلَّ جَلَالُهُ يَسْتَحِقُّ مِنَّا شُكْرًا، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الشَّكُورُ.

وَلَيْسَتِ النِّعَمُ الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا الْعِبَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَحْصُورَةً فِي النِّعَمِ المَادِّيَّةِ المَحْسُوسَةِ، بَلْ حَتَّىٰ النِّعَمُ المَعْنَوِيَّةُ مِنْ رَاحَةِ الْبَالِ، وَانْشِرَاحِ الصَّدْرِ، وَعَافِيَةِ الْجَسَدِ، وَالأُنْسِ بِالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالصَّحْبِ، كُلُّهَا وَغَيْرُهَا نِعَمٌ يُسْأَلُ عَنْهَا الْعِبَادُ

ضِمْنَ مَا يُسْأَلُونَ عَنْهُ مِنَ النَّعِيمِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُبَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَمِّهِ قَالَ: «كُنَّا فِي مَجْلِسٍ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَىٰ رَأْسِهِ أَثَرُ مَاءٍ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُنَا: نَرَاكَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ، فَقَالَ: **أَجَلْ وَالحَمْدُ لِلَّهِ**، ثُمَّ أَفَاضَ الْقَوْمُ فِي ذِكْرِ الْغِنَىٰ، فَقَالَ: **لَا بَأْسَ بِالْغِنَىٰ لِمَنِ اتَّقَىٰ، وَالصِّحَّةُ لِمَنْ اتَّقَىٰ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَىٰ، وَطِيبُ النَّفْسِ مِنَ النَّعِيمِ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه(١٠).

وَأَوَّلُ نَعِيمٍ يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صِحَّةُ الْجَسَدِ، وَالمَاءُ البَارِدُ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ -يَعْنِي الْعَبْدَ- مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ له: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ وَنُرْوِيكَ مِنَ المَاءِ الْبَارِدِ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١١).

وَإِذَا كَانَ النَّاسُ يُسْأَلُونَ عَنْ نَعِيمِهِمْ وَلَوْ لَمْ يُسْرِفُوا فِيهِ، فَكَيْفَ بِنَعِيمِ مَنْ تَوَسَّعُوا فِي المَآكِلِ وَالمَشَارِبِ وَالمَرَاكِبِ وَالمَسَاكِنِ وَالْأَثَاثِ وَالمَتَاعِ وَأَنْوَاعِ الرَّفَاهِيَةِ وَاللَّهْوِ المُبَاحِ وَغَيْرِ المُبَاحِ؟!

ثُمَّ كَيْفَ سَيَكُونُ سُؤَالُ النَّاسِ عَنْ نَعِيمٍ قَدْ بَالَغُوا فِي التَّمَتُّعِ بِهِ، وَتَوَسَّعُوا فِيهِ تَوَسُّعًا تَعَدَّىٰ الْكَمَالِيَّاتِ إِلَىٰ السَّرَفِ وَالْبَطَرِ، وَفِي الْأَرْضِ جَوْعَىٰ لَا يَجِدُونَ بُلْغَةً مِنْ عَيْشٍ، وَفِيهَا مَنْ يَحْتَاجُونَ لِمَا يُرْمَىٰ فِي النُّفَايَاتِ مِنْ بَقَايَا الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ وَالْأَثَاثِ وَغَيْرِهِ؟!

---

(١٠) أخرجه ابن ماجه في التجارات، باب الحث علىٰ المكاسب (٢١٤١)، وأحمد (٥/ ٣٧٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٥٦٦)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الحاكم: والصحابي الذي لم يسمه سليمان بن بلال هو يسار بن عبدالله الجهني (٢/ ٣)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ٦).

(١١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة التكاثر، وقال: حديث غريب (٣٣٥٨)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٢٨٨)، ونقل المناوي تصحيح الحاكم له، وقال المناوي: سند الترمذي جيد، فيض القدير (٢/ ٤٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٠٢٢).

انْظُروا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- إِلَىٰ أَحْوَالِ إِخْوَانِكُمُ المُحَاصَرِينَ فِي غَزَّةَ، وَقَدْ قَارَبَ الْحِصَارُ المَضْرُوبُ عَلَيْهِمْ عَامًا كَامِلًا، ثُمَّ أَتْبَعَ الْيَهُودُ حِصَارَهُمْ وَتَجْوِيعَهُمْ ضَرْبًا وَقَتْلًا وَحَرْقًا بِقَنَابِلِهِمْ وَآلِيَّاتِهِمْ، وَلَا زَالُوا كَذَلِكَ إِلَىٰ الْآنَ.

وَانْظُروا إِلَىٰ إِخْوَانِكُمُ المُسْتَبَاحِينَ فِي الْعِرَاقِ وَفِي الصُّومَالِ وَفِي بِلَادِ الْأَفْغَانِ وَفِي الشِّيشَانِ وَفِي غَيْرِهَا.

لَا يَجِدُونَ أَمْنًا كَمَا تَجِدُونَ، وَلَا يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُونَ، وَلَا يَنَامُونَ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَا يَهْنَئُونَ بِعَيْشٍ كَمَا تَهْنَئُونَ، قَدِ اسْتَبَاحَتْهُمْ جُيُوشُ الظَّلَمَةِ المُحْتَلِّينَ فَسَلَبَتْ أَمْنَهُمْ، وَنَهَبَتْ خَيْرَاتِهِمْ، وَأَحَلَّتِ الْفَوْضَىٰ فِي بِلَادِهِمْ، مَنْ سَلِمَ مِنْ نِيرَانِ غَدْرِهِمْ تَسَلَّطَ عَلَيْهِ وَبَاءٌ مُهْلِكٌ، أَوْ جُوعٌ مُفْتَرِسٌ، فَإِنْ تَجَاوَزَ ذَلِكَ عَاشَ عِيشَةً بَئِيسَةً يَتَمَنَّىٰ مَعَهَا المَوْتَ كُلَّ يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ.

أَيْنَ شُكْرُنَا لِنِعَمِ رَبِّنَا عَلَيْنَا؟! وَأَيْنَ إِحْسَاسُنَا بِمُصَابِ إِخْوَانِنَا؟! أَلَا نَخَافُ أَنْ تُسْلَبَ نِعَمُنَا كَمَا سُلِبَتْ مِنْ غَيْرِنَا؟! ثُمَّ كَيْفَ نُقَابِلُ رَبَّنَا لِلْحِسَابِ وَهَذِهِ نِعَمُهُ تَتْرَا عَلَيْنَا، وَنَحْنُ لَا زِلْنَا فِي سَرَفِنَا وَلَهْوِنَا وَغَفْلَتِنَا، وَقَدْ رَأَيْنَا النُّذُرَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَمِنْ خَلْفِنَا؟!

أَلَا نَقْتَصِدُ فِي سَرَفِنَا وَلَهْوِنَا؛ شُكْرًا لِرَبِّنَا، وَمُوَاسَاةً لِإِخْوَانِنَا، وَإِحْسَاسًا بِمُصَابِ غَيْرِنَا؟ فَإِنَّ هَذِهِ الغَفْلَةَ المُطْبِقَةَ مَعَ كَثْرَةِ النِّعَمِ، وَتَتَابُعِ النُّذُرِ مُؤْذِنَةٌ بِعُقُوبَاتِ الدُّنْيَا، وَإِذَا حَلَّتِ الْعُقُوبَةُ فَلَاتَ حِينَ مَنْدَمٍ، وَسُؤَالُ الآخِرَةِ أَعْظَمُ وَأَشَدُّ ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التَّكَاثُر: ٨]، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ.



٢٢٨- سورة العصر

١٨/ ١٢/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ الْقُرْآنَ هُدًىٰ لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ، فِيهِ هِدَايَتُهُمْ وَنَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ نَجَا، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ هَلَكَ، تَعَلُّمُ آيَاتٍ مَعْدُودَاتٍ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْأَمْوَالِ، وَنَفِيسِ الْمَتَاعِ، قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: **أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَىٰ بُطْحَانَ، أَوْ إِلَىٰ الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ** -أَيْ: عَظِيمَتَيِ السَّنَامَيْنِ، وَكَانَتْ أَنْفَسَ النُّوقِ عِنْدَهُمْ آنَذَاكَ- **فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟** فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: **أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ**

فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَهَذِهِ وَقْفَةٌ مَعَ سُورَةٍ قَصِيرَةٍ عَظِيمَةٍ، آيَاتُهَا ثَلَاثٌ فَقَطْ؛ لَكِنَّهَا جَمَعَتِ الْخَيْرَ كُلَّهُ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ حَتَّىٰ قَالَ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ لَكَفَتْهُمْ»(٢)، وَقَالَ: «لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ لَوَسِعَتْهُمْ»(٣)؛ وَذَلِكَ «لِأَنَّهَا شَمِلَتْ جَمِيعَ عُلُومِ الْقُرْآنِ»(٤).

وَلِأَنَّهَا سُورَةٌ شَامِلَةٌ كَافِيَةٌ، جَمَعَتِ الْخَيْرَ كُلَّهُ؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ ﷺ كَانُوا يَتَذَاكَرُونَهَا، وَيَتَوَاصَوْنَ بِهَا، وَلَا يَفْتَرِقُونَ إِلَّا بَعْدَ قِرَاءَتِهَا؛ كَمَا رَوَىٰ أَبُو مَدِينَةَ الدَّارِمِيُّ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ الرَّجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا الْتَقَيَا لَمْ يَفْتَرِقَا حَتَّىٰ يَقْرَأَ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ الْآخَرِ ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ(٥).

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه (٨٠٣)، وأبو داود في الصلاة، باب في ثواب قراءة القرآن (١٤٥٦)، وأحمد (٤/ ١٥٤)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٣٣)، والروياني في مسنده (٢٠٦)، وابن حبان (١١٥)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٩٠) برقم (٧٩٩)، وفي الأوسط (٣١٨٦)، والبيهقي في السنن الصغرىٰ (٩٨٥)، وفي الشعب (١٩٣٤)، وما بين الحاصرتين ليس من الحديث، ولكنه شرح مني.

(٢) التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (٥٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٨).

(٤) روح المعاني للألوسي (٣٠/ ٢٢٧).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٥٢٤)، وقال: «قال علي بن المديني: اسم أبي مدينة: عبد الله بن حصن، لا يروىٰ هذا الحديث عن أبي مدينة إلا بهذا الإسناد تفرد به حماد بن سلمة».

وقال الهيثمي في الزوائد (١٠/ ٢٣٣): «وكان له صحبة .. ثم قال بعد أن عزا الحديث =

أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْعَصْرِ، وَهُوَ الدَّهْرُ؛ لِأَهَمِّيَّةِ الدَّهْرِ عِنْدَ الْبَشَرِ؛ فَهُمْ يَعِيشُونَ جُزْءًا مِنْهُ، وَيَسْمَعُونَ عَنْ أُمَمٍ ذَهَبَتْ، وَأُمَمٍ سَتَأْتِي، وَحَضَارَاتٍ سَادَتْ ثُمَّ بَادَتْ، وَمُلُوكٍ مَلَكَتْ ثُمَّ مَاتَتْ، وَالدَّهْرُ هُوَ الدَّهْرُ لَمْ يَتَغَيَّرْ، لَيْلٌ يَعْقُبُهُ نَهَارٌ، وَنَهَارٌ يَطْرُدُهُ لَيْلٌ، وَهُوَ آيَةٌ عَجِيبَةٌ، وَسِرٌّ مَكْنُونٌ يَعْجزُ الْبَشَرُ عَنْ إِدْرَاكِهِ، رَغْمَ مَا تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ مِنْ عُلُومٍ؛ فَبِدَايَةُ الدَّهْرِ لَا تُعْلَمُ عَلَىٰ وَجْهِ التَّحْدِيدِ، وَلَا مَتَىٰ يَنْتَهِي، وَلَا يُعْلَمُ حَاضِرُهُ كَيْفَ يَنْقَضِي!![٦] وَالْمُؤْمِنُونَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الشَّمْسَ تُكَوَّرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَذْهَبُ أَشِعَّتُهَا، وَالْقَمَرَ يُخْسَفُ فَيَذْهَبُ نُورُهُ، وَلَا يَدْرُونَ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالدَّهْرِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ خَالِقُ الزَّمَانِ، يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ شَاءَ، لَا رَادَّ لِحُكْمِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِأَمْرِهِ.

لَقَدْ أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِالْعَصْرِ الَّذِي هُوَ زَمَانُ أَفْعَالِ الْإِنْسَانِ وَمَحِلُّها عَلَىٰ عَاقِبَةِ تِلْكَ الْأَفْعَالِ وَجَزَائِهَا، وَنَبَّهَ بِالمَبْدَإِ وَهُوَ خَلْقُ الزَّمَانِ وَالْفَاعِلِينَ وَأَفْعَالِهِمْ عَلَىٰ

= للطبراني في الأوسط: ورجاله رجال الصحيح» اهـ.

ثم أورده الهيثمي في موضع آخر (١٠/ ٣٠٧)، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير ابن عائشة وهو ثقة».

قلت: ابن عائشة هو عبيد الله بن محمد بن حفص القرشي التميمي، قال أبو حاتم في الجرح والتعديل: «صدوق ثقة» (٥/ ٣٣٥).

وعزا الحافظ ابن حجر هذا الأثر للطبراني في الكبير، وقال: «ترجم له الطبراني في العين من اسمه: عبد الله، فقال: عبد الله بن حصين الدارمي، فإن كان ضبط نسبه فهما اثنان: تابعي وهو الذي يروي عن أبي موسىٰ، وصحابي، اتفقا في الاسم والكنية، وفي اسم الأب، واختلفا في النسبة، وإلا فأبو مدينة الدارمي غير السدوسي، وإن ثبت أنهما اتفقا في الكنية، فالصحابي لم يسم، وأما التابعي فسمي، والله أعلم» اهـ. من تعجيل المنفعة (٢١٩) رقم الترجمة (٥٣٤)، وترجم له الحافظ في الإصابة، وقال نحو قوله في التعجيل (٤/ ٦٠) رقم الترجمة (٤٦٢٩).

(٦) تكملة الشيخ عطية سالم علىٰ أضواء البيان (٩/ ٨٧).

المَعَادِ، وَأَنَّ قُدْرَتَهُ كَمَا لَمْ تَقْصُرْ عَنِ المَبْدَإِ فَلَنْ تَقْصُرَ عَنِ المَعَادِ، وَأَنَّ حِكْمَتَهُ الَّتِي اقْتَضَتْ خَلْقَ الزَّمَانِ، وَخَلْقَ الْفَاعِلِينَ وَأَفْعَالِهِمْ وَجَعْلَهَا قِسْمَيْنِ: خَيْرًا وَشَرًّا؛ تَأْبَىٰ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَهُمْ، وَأَنْ لَا يُجَازِيَ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، وَالمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَ النَّوْعَيْنِ رَابِحِينَ أَوْ خَاسِرِينَ، بَلِ الْإِنْسَانُ مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ خَاسِرٌ، إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فَهَدَاهُ وَوَفَّقَهُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي نَفْسِهِ، وَأَمَرَ بِهِ غَيْرَهُ(٧).

وَهَذَا الْقَسَمُ الْعَظِيمُ بِالزَّمَنِ كُلِّهِ أَقْسَمَ بِهِ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَىٰ أَمْرٍ عَظِيمٍ عِنْدَ الْبَشَرِ، وَهُوَ مَصِيرُهُمْ وَمَآلُهُمْ، وَحَالُهُمْ بَيْنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَالرِّبْحِ وَالْخَسَارَةِ، ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢]. وَلَمْ يُبَيِّنْ مَجَالَ هَذَا الخُسْرِ، وَفِي أَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ؛ لِيُفْهَمَ مِنْهُ عُمُومُ الْخُسْرَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

وَالخَسَارُ مَرَاتِبُ مُتَفَاوِتَةٌ؛ فَقَدْ يَكُونُ خَسَارًا مُطْلَقًا يَشْمَلُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، كَمَنْ فَاتَهُ النَّعِيمُ، وَاسْتَحَقَّ الْجَحِيمَ(٨)، وَقَدْ يَكُونُ خَسَارًا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ دُونَ بَعْضٍ؛ لَكِنَّ اللهَ ﷻ عَمَّمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ الخَسَارَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، إِلَّا مَنِ اسْتَثْنَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ ذَلِكَ.

إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْعَظِيمَةَ المُخِيفَةَ يَجِبُ أَنْ يَفْرَقَ مِنْهَا كُلُّ إِنْسَانٍ، وَأَنْ تَرْتَعِدَ فَرَائِصُهُ، وَيَضْطَرِبَ قَلْبُهُ إِذَا قَرَأَهَا أَوْ سَمِعَهَا؛ وَلِمَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ وَهِيَ بَيَانٌ لِمَصِيرِ الْإِنْسَانِ، وَالحُكْمُ عَلَيْهِ بِالْخُسْرَانِ؟ وَلَكِنَّ النَّاسَ لَا يَضْطَرِبُونَ عِنْدَهَا، وَلَا يَخَافُونَ مِنْهَا؛ لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ، وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يَتَدَبَّرُونَ ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢].

---

(٧) التبيان لابن القيم (٥٣).

(٨) ينظر: تفسير السعدي (٩٣٤).

أَكَّدَ سُبْحَانَهُ هَذَا الخُسْرَ بِمُؤَكِّدَاتٍ ثَلَاثٍ، يَكْفِي مِنْهَا مُؤَكِّدٌ وَاحِدٌ لِإِحْيَاءِ الْقُلُوبِ المَيِّتَةِ، وَتَنْبِيهِ النُّفُوسِ الْغَافِلَةِ: أَكَّدَهُ ﷺ بِالْقَسَمِ وَبِإِنَّ وَبِاللَّامِ، وَقَالَ: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾؛ أَيْ: إِنَّهُ مُنْغَمِسٌ فِي الخُسْرِ، وَالخُسْرَانُ مُحِيطٌ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِكَ: الْإِنْسَانُ خَاسِرٌ أَوْ لَخَاسِرٌ(٩).

إِنَّ مَجِيءَ هَذَا الْخَبَرِ عَلَىٰ الْعُمُومِ، مَعَ تَأْكِيدِهِ بِالْقَسَمِ، وَحَرْفِ التَّوْكِيدِ فِي جَوَابِهِ؛ يُفِيدُ التَّهْوِيلَ وَالْإِنْذَارَ بِالْحَالِ المُحِيطَةِ بِمُعْظَمِ النَّاسِ، وَهِيَ الخُسْرَانُ الْأَبَدِيُّ فِي الْآخِرَةِ، فَلَا الْتِفَاتَ إِلَىٰ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْغِنَىٰ وَالْجَاهِ، وَالصِّنَاعَةِ وَالرَّاحَةِ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧](١٠).

فَمَنْ يَخَافُ هَذِهِ الْآيَةَ؟ مَنْ؟ وَمَنْ يُذَكِّرُ نَفْسَهُ بِهَا عَلَىٰ الدَّوَامِ؟!

وَأَعْظَمُ الْخُسْرَانِ خُسْرَانُ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، وَالتَّلَطُّخُ بِالشِّرْكِ وَالْأَوْثَانِ، ثُمَّ دُونَ هَذَا الخُسْرَانِ الْعَظِيمِ خُسْرَانٌ مُتَفَاوِتٌ بِحَسَبِ تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ، وَإِتْيَانِ المُحَرَّمَاتِ.

وَالنَّجَاةُ مِنْ هَذَا الخُسْرَانِ الحَتْمِيِّ لَا تَكُونُ إِلَّا بِلُزُومِ الْأَوْصَافِ الَّتِي اسْتَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ أَصْحَابَهَا مِنَ الخُسْرَانِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

فَهِيَ أَرْكَانٌ أَرْبَعَةٌ، مَنْ حَقَّقَهَا نَجَا مِنَ الخُسْرَانِ، وَمَنْ فَرَّطَ فِي بَعْضٍ مِنْهَا كَانَ لَهُ مِنَ الخُسْرِ بِقَدْرِ تَفْرِيطِهِ.

وَأَوَّلُ هَذِهِ الْأَرْكَانِ وَأَعْلَاهَا: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَالْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ.

---

(٩) تفسير جزء عم للشيخ العثيمين (٣٠٨).

(١٠) التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٣١-٥٣٢).

وَثَانِي هَذِهِ الْأَرْكَانِ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وَالْعَمَلُ الصَّالِحِ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ؛ إِذْ لَا فَائِدَةَ مِنَ التَّصْدِيقِ بِلَا عَمَلٍ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَشْمَلُ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَاجْتِنَابَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحِفْظَ الْحُقُوقِ كُلِّهَا: حُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ، وَحُقُوقِ الْعَبْدِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَحُقُوقِ الْعِبَادِ عَلَيْهِ، سَوَاءٌ مِنْهَا مَا كَانَ وَاجِبًا أَمْ مَنْدُوبًا، فَكُلُّ ذَلِكَ يَنْتَظِمُهُ مُسَمَّىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، مَعَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ فِي أَدَاءِ ذَلِكَ الْعَمَلِ، وَاتِّبَاعِ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِيَكُونَ عَمَلًا صَالِحًا.

وَهَذَانِ الرُّكْنَانِ الْعَظِيمَانِ: الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِمَا صَلَاحُ الْعَبْدِ عَاجِلًا وَآجِلًا، فَتَنْتَظِمُ لَهُ بِهِمَا أُمُورُ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ.

وَأَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ عَمَلُهُمْ مَبْرُورٌ، وَسَعْيُهُمْ مَشْكُورٌ، وَتِجَارَتُهُمْ لَنْ تَبُورَ؛ إِذْ بَاعُوا الفَانِيَ الخَسِيسَ، وَاشْتَرَوُا الْبَاقِيَ النَّفِيسَ؛ وَاسْتَبْدَلُوا الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ، بِالْغَادِيَاتِ الرَّائِحَاتِ، فَيَا لَهَا مِنْ صَفْقَةٍ مَا أَرْبَحَهَا! وَمَنْفَعَةٍ جَامِعَةٍ لِلْخَيْرِ مَا أَوْضَحَهَا![(١١)].

وَلَمَّا كَانَ الْمُسْلِمُ دَالًّا عَلَىٰ الْخَيْرِ، مُرَغِّبًا فِيهِ، مُعَدِّيًا نَفْعَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ؛ إِذْ دِينُهُ يَحُثُّهُ عَلَىٰ نَفْعِ الْغَيْرِ، وَنَشْرِ الْخَيْرِ؛ كَانَ مِنَ الرِّبْحِ الْعَظِيمِ، وَاجْتِنَابِ كُلِّ أَنْوَاعِ الخَسَارِ: أَنْ يُحَقِّقَ الْمُسْلِمُ الرُّكْنَيْنِ الْآخَرَيْنِ ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ وَإِنْ كَانَ هَذَانِ الرُّكْنَانِ دَاخِلَيْنِ فِي مُسَمَّىٰ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِلَّا أَنَّ تَخْصِيصَهُمَا بِالذِّكْرِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَهَمِّيَّتِهِمَا، وَاخْتِصَاصِهِمَا مِنْ دُونِ سَائِرِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَهُمَا مِنْ ذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ[(١٢)].

---

(١١) تفسير أبي السعود (٩/ ١٩٧)، وروح المعاني (٣٠/ ٢٢٨).

(١٢) ينظر: التحرير والتنوير (٥/ ٥٣٢).

وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ يَشْمَلُ الْوَصِيَّةَ بِالدِّينِ كُلِّهِ؛ لِأَنَّ مَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَبَلَّغَهُ رَسُولُهُ ﷺ فَهُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ، وَهَذَا سَنَنُ الْأَنْبِيَاءِ وَهَدْيُهُمْ، كَانُوا يُوصُونَ بِالدِّينِ أَعْظَمَ الْوَصَايَا ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشُّورىٰ: ١٣].

فَدَعْوَةُ الْغَيْرِ إِلَىٰ الْخَيْرِ هِيَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ، وَهِيَ وَصِيَّةُ الْمُرْسَلِينَ ﷩، سَوَاءٌ كَانَ هَذَا الْغَيْرُ قَرِيبًا أَمْ بَعِيدًا، كَافِرًا كَانَ أَمْ مُسْلِمًا.

فَأَمْرُ الرَّجُلِ أَهْلَ بَيْتِهِ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ هُوَ مِنَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ. وَمِنَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ: تَعَاهُدُ جِيرَانِهِ وَقَرَابَتِهِ بِالنَّصِيحَةِ، وَدَعْوَةُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُمْ إِلَىٰ الطَّاعَةِ إِنْ كَانُوا عُصَاةً، أَوْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ إِنْ كَانُوا كُفَّارًا، بِالْخِطَابِ الْمُبَاشِرِ، أَوِ الْكِتَابِ، أَوِ الْمُرَاسَلَةِ، أَوْ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ تُحَقِّقُ الْمَقْصُودَ؛ فَمَجَالَاتُ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ كَثِيرَةٌ، وَأَبْوَابُهُ عَدِيدَةٌ، وَمَنْ حَرَمَ نَفْسَهُ بَابَ الْخَيْرِ هَذَا؛ أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنَ الْخُسْرِ.

وَلِأَنَّ التَّوَاصِيَ بِالْحَقِّ يَقْتَضِي الِاسْتِمْرَارَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَتَعَاهُدَ مَنْ يُوصِيهِمْ بِوَصِيَّتِهِ، وَعَدَمَ الِانْقِطَاعِ عَنْهُمْ، وَلِأَنَّهُ يَنَالُهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَذَىٰ مِنْهُمْ؛ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

وَالتَّحَلِّي بِالصَّبْرِ وَالتَّوَاصِي بِهِ؛ هُوَ التَّاجُ الَّذِي يُزَيِّنُ أَسْبَابَ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الْخُسْرَانِ، بَلْ هُوَ الرُّكْنُ الرَّكِينُ الَّذِي تُبْنَىٰ عَلَيْهِ الْأَرْكَانُ الْأُخْرَىٰ؛ فَالْإِيمَانُ

يَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ صَبْرٍ عَلَىٰ الطَّاعَةِ، وَعَنِ المَعْصِيَةِ، وَعَلَىٰ أَقْدَارِ اللَّهِ ﷻ. وَدَعْوَتُهُ إِلَىٰ الْخَيْرِ، وَوَصِيَّتُهُ بِالْحَقِّ تَحْتَاجُ إِلَىٰ صَبْرٍ فِي تَبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَصَبْرٍ عَلَىٰ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْأَذَىٰ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَهَذِهِ نِهَايَةُ الْكَمَالِ؛ فَإِنَّ الْكَمَالَ أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ كَامِلًا فِي نَفْسِهِ، مُكَمِّلًا لِغَيْرِهِ، وَكَمَالُهُ بِإِصْلَاحِ قُوَّتِهِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، فَصَلَاحُ الْقُوَّةِ الْعِلْمِيَّةِ بِالْإِيمَانِ، وَصَلَاحُ الْقُوَّةِ الْعَمَلِيَّةِ بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ، وَتَكْمِيلِ غَيْرِهِ بِتَعْلِيمِهِ إِيَّاهُ، وَصَبْرِهِ عَلَيْهِ، وَتَوْصِيَتِهِ بِالصَّبْرِ مَعَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ فَهَذِهِ السُّورَةُ عَلَىٰ اخْتِصَارِهَا هِيَ مِنْ أَجْمَعِ سُوَرِ الْقُرْآنِ لِلْخَيْرِ بِحَذَافِيرِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ كِتَابَهُ كَافِيًا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، شَافِيًا مِنْ كُلِّ دَاءٍ، هَادِيًا إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ» اهـ(١٣).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ

(١٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٦-٥٧).

وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- فَإِنَّ الْأَعْمَارَ تَمْضِي، وَالْأَعْمَالَ تُكْتَبُ، وَمَا يَكَادُ عَامٌ يَبْتَدِئُ إِلَّا وَيَنْتَهِي بِمَا عَمِلَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَالمُفْلِحُ مَنْ عَمَّرَ وَقْتَهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَمَّا مَنْ قَضَىٰ عُمُرَهُ فِي الشَّهَوَاتِ وَالمَعَاصِي فَهُوَ فِي خُسْرٍ عَظِيمٍ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: مَنْ تَأَمَّلَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ، وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ مَعَانٍ كَبِيرَةٍ، ثُمَّ نَظَرَ فِي وَاقِعِ النَّاسِ وَأَحْوَالِهِمْ؛ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ فِي خُسْرٍ، وَأَنَّ الْخُسْرَ يُحِيطُ بِالْبَشَرِيَّةِ فِي شَتَّىٰ الْأَقْطَارِ، إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

كَمْ أَعْدَادُ الْكُفَّارِ وَالمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، أَوْ يُشْرِكُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ؟ كَمْ أَعْدَادُ مَنْ يَعْبُدُونَ الصَّلِيبَ، وَمَنْ يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ، وَالْأَوْثَانَ وَالمَادَّةَ؟

كَمْ أَعْدَادُ مَنْ يَطُوفُونَ بِالْقُبُورِ، وَيَتَوَسَّلُونَ بِهَا، وَيَسْأَلُونَ الْأَمْوَاتَ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؟

إِنَّ أَعْدَادَهُمْ كَبِيرَةٌ جِدًّا، بَلْ هُمْ أَكْثَرُ الْبَشَرِ، وَكُلُّ أُولَئِكَ فِي خُسْرَانٍ دَائِمٍ، بَلْ هُمْ فِي أَعْظَمِ الْخُسْرَانِ وَالشَّقَاءِ، فَمَنْ يَتَوَاصَىٰ بِالْحَقِّ، وَيُوصِيهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَيَدُلُّهُمْ عَلَيْهِ، فَيُخْرِجُهُمْ مِنْ خُسْرَانِهِمْ إِلَىٰ الرِّبْحِ الْعَظِيمِ، وَالْفَلَاحِ الدَّائِمِ؟!

كَمْ مِنْ عُصَاةِ المُسْلِمِينَ مَنْ قَارَفُوا المُنْكَرَاتِ، وَاسْتَبَاحُوا المُوبِقَاتِ؛ مِنَ الزِّنَا إِلَىٰ أَنْوَاعِ الشَّهَوَاتِ الْآثِمَةِ، وَمِنَ الرِّبَا إِلَىٰ أَنْوَاعِ المُعَامَلَاتِ المُحَرَّمَةِ وَالمَشْبُوهَةِ؟ وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ الِاتِّصَالِ بِثَقَافَاتِ المَلَاحِدَةِ وَالمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُؤَلِّهُونَ المَادَّةَ، وَيَعْبُدُونَ أَهْوَاءَهُمْ، وَيَتَّبِعُونَ شَهَوَاتِهِمْ، وَيُقَدِّمُونَ دُنْيَاهُمْ عَلَىٰ آخِرَتِهِمْ،

وَقَدْ قَلَّدَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي ضَلَالِهِمْ هَذَا!! كَمْ مِنَ الخُسْرَانِ سَيَجْرِي عَلَيْهِمْ إِنْ لَمْ يَجِدُوا مِنْ إِخْوَانِهِمْ مَنْ يَتَوَاصَىٰ بِالْحَقِّ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْخَيْرِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الضَّلَالِ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، وَمِنَ المَعْصِيَةِ إِلَىٰ الطَّاعَةِ؟!

وَمَا أَحْوَجَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَحَمَلَتَهُ وَدُعَاتَهُ إِلَىٰ التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ؛ لِمُوَاجَهَةِ هَذِهِ الهَجْمَةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْعَلْمَانِيَّةِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ وَأَخْلَاقِهِ! يُرِيدُونَ إِخْرَاجَ المُسْلِمِينَ مِنْ دِينِهِمْ، وَيَوَدُّونَ تَبْدِيلَ ثَقَافَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ. وَلَنْ يَقِفَ فِي وُجُوهِ هَذِهِ الْحَمَلَاتِ الظَّالِمَةِ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ إِلَّا مَنْ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ؛ لِتَكُونَ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ، كَمَا كَانَتْ لِمُوسَىٰ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا وَاجَهُوا ظُلْمَ فِرْعَوْنَ وَكُفْرَهُ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

نَقَلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْحَرْبِيِّ -رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَىٰ- قَوْلَهُ: «أَجْمَعَ عُقَلَاءُ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَىٰ أَنَّ النَّعِيمَ لَا يُدْرَكُ بِالنَّعِيمِ، وَلَا بُدَّ مِنَ الصَّبْرِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ»، ثُمَّ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «فَلَا بُدَّ مِنَ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ؛ إِذْ إِنَّ أَهْلَ الْفَسَادِ وَالْبَاطِلِ لَا يَقُومُ بَاطِلُهُمْ إِلَّا بِصَبْرٍ عَلَيْهِ، لَكِنِ الْمُؤْمِنُونَ يَتَوَاصَوْنَ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ، وَأُولَئِكَ يَتَوَاصَوْنَ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ بَاطِلِهِمْ؛ كَمَا قَالَ قَائِلُهُمْ: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، فَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ بِدُونِ الصَّبْرِ كَمَا يَفْعَلُهُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَ أَحَدَهُمْ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ بِدُونِ الْحَقِّ كَقَوْلِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ كِلَاهُمَا مُوجِبٌ لِلْخُسْرَانِ؛ وَإِنَّمَا نَجَا مَنْ نَجَا مِنَ

الْخُسْرَانِ: الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» اهـ[١٤].

وَمَنْ لَزِمُوا الْحَقَّ، وَصَبَرُوا عَلَىٰ الْأَذَىٰ فِيهِ فِي أَوْقَاتِ الْفِتَنِ وَالْمِحَنِ؛ أَنَالَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ، وَجَعَلَهُمْ يَهْدُونَ النَّاسَ إِلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] إِرْشَادٌ إِلَىٰ مَنْصِبِ الْإِمَامَةِ فِي قُوَّةِ الدِّينِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فَبِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ[١٥].

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَرَزَقَنَا التَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ..



(١٤) قاعدة في المحبة (٢٠٧-٢٠٨).

(١٥) التبيان لابن القيم (٥٥).

٢٢٩- سورة الإخلاص
فضلها وشيء من معانيها

٢٨/ ١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِيهِ الهُدَىٰ وَالرَّشَادُ، وَالشِّفَاءُ وَالنَّجَاةُ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ المَتِينُ، وَصِرَاطُهُ المُسْتَقِيمُ، مَنْ تمسَّكَ بِهِ نَجا، وَمَنْ حَادَ عَنْهُ هَلَكَ، تِلَاوَتُهُ عِبَادَةٌ، وَالْعَمَلُ بِهِ فَرِيضَةٌ، لَمْ يَزَلْ مُنْذُ أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ هَادِيًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَبُرْهَانًا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَحُجَّةً عَلَىٰ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ مَهْمَا كَانَتِ الْأَحْوَالُ وَالظُّرُوفُ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فَاضَلَ اللهُ ﷻ بَيْنَ آيَاتِهِ وَسُوَرِهِ؛ فَأَعْظَمُ آيَةٍ مِنْهُ هِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَأَفْضَلُ سُورَةٍ فِيهِ هِيَ فَاتِحَتُهُ الَّتِي لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ إِلَّا بِهَا، وَسُورَةُ الْإِخْلَاصِ أَرْبَعُ آيَاتٍ فَقَطْ، وَلَكِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؛ لِمَا فِيهَا مِنْ إِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَالرَّدِّ عَلَىٰ طَوَائِفِ الْمُشْرِكِينَ، وَالْقُرْآنُ تَوْحِيدٌ وَأَخْبَارٌ وَأَحْكَامٌ، وَهِيَ قَدْ جَاءَتْ بِالتَّوْحِيدِ؛ فَكَانَتْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.

جَاءَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «يَا مُحَمَّدُ، انْسِبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَزَادَ فِي رِوَايَتِهِ: «**فَالصَّمَدُ: الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ إِلَّا سَيَمُوتُ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَمُوتُ إِلَّا سَيُورَثُ، وَإِنَّ اللهَ ﷻ لَا يَمُوتُ وَلَا يُورَثُ**: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] قَالَ: «**لَمْ يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ وَلَا عِدْلٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**»[(١)].

وَالْأَحَدُ فِي أَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ: الْفَرْدُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَحْدَهُ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ آخَرُ، فَهُوَ تَعَالَىٰ مُخْتَصٌّ بِالْأَحَدِيَّةِ فَلَا يُشْرِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ؛ وَلِهَذَا لَا يُنْعَتُ بِهِ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَلَا يُقَالُ: رَجُلٌ أَحَدٌ[(٢)].

---

(١) أخرجه من حديث أبي بن كعب ﷺ: أحمد (٥/ ١٣٤)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الإخلاص (٣٣٦٤)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٤٢)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٩٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ٢٨١)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٥٨٩)، وقد جاء مرسلًا وموصولًا، وذكر الترمذي في جامعه أن المرسل أصح من الموصول (٣٣٦٥)، وقال الحافظ في الفتح: «وصحح الموصول ابن خزيمة والحاكم» اهـ (٨/ ٧٣٩)، وضعفه الألباني في ظلال الجنة (١/ ٢٩٨).

(٢) ينظر: محاسن التأويل للقاسمي (٧/ ٤٠٩).

وَكَانَ بِلَالٌ ﵁ يُغِيظُ المُشْرِكِينَ، فَيَقُولُ وَهُوَ يُعَذَّبُ: «أَحَدٌ، أَحَدٌ»(٣).

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾: يَصْمُدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ فِي حَوَائِجِهِمْ وَمَسَائِلِهِمْ وَشُؤُونِهِمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: «هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدُدِهِ، وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ، وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ، وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ، هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ، لَيْسَ لَهُ كُفْءٌ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، سُبْحَانَهُ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ(٤).

«فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِأَنْ يَكُونَ هُوَ الصَّمَدَ دُونَ مَا سِوَاهُ؛ فَإِنَّهُ الْمُسْتَوْجِبُ لِغَايَتِهِ عَلَىٰ الْكَمَالِ . . . فَإِنَّ كُلَّ مَا سِوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فَلَيْسَ أَحَدٌ يَصْمُدُ إِلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَا يَصْمُدُ هُوَ إِلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا مَا يَقْبَلُ أَنْ يَتَجَزَّأَ أَوْ يَتَفَرَّقَ وَيَنْقَسِمَ وَيَنْفَصِلَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ حَقِيقَةُ الصَّمَدِيَّةِ وَكَمَالُهَا لَهُ وَحْدَهُ وَاجِبَةٌ لَازِمَةٌ، لَا يُمْكِنُ عَدَمُ صَمَدِيَّتِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، كَمَا لَا يُمْكِنُ تَثْنِيَةُ أَحَدِيَّتِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ»(٥).

وَفِي إِثْبَاتِ صَمَدِيَّتِهِ ﷻ، وَقَصْرِهَا عَلَيْهِ بِتَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ: إِبْطَالٌ لِمَا تَعَوَّدَهُ

---

(٣) كما في حديث ابن مسعود ﵁ عند: أحمد في المسند (١/ ٤٠٤)، وفي فضائل الصحابة (١٩١)، وابن ماجه في المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١٥٠)، وصححه ابن حبان (٧٠٨٣)، والحاكم ووافقه الذهبي (٣/ ٢٨٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٧٤)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٤٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٩٦).

(٥) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٢٣٨)، وينظر: محاسن التأويل للقاسمي (٧/ ٤١٠).

أَهْلُ الشِّرْكِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ دُعَائِهِمْ أَصْنَامَهُمْ فِي حَوَائِجِهِمْ، وَالْفَزَعِ إِلَيْهَا فِي نَوَائِبِهِمْ، حَتَّىٰ نَسُوا اللهَ تَعَالَىٰ، مَعَ أَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ تَصْمُدُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي حَوَائِجِهَا، وَلَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي سُفْيَانَ لَيْلَةَ الْفَتْحِ: «**أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟**»، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَقَدْ عَلِمْتُ أَنْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ آخَرُ لَقَدْ أَغْنَىٰ عَنِّي شَيْئًا(٦).

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾: فَمَنْ يُصْمَدُ إِلَيْهِ لَا يَكُونُ مِنْ حَالِهِ أَنْ يَلِدَ؛ لِأَنَّ طَلَبَ الْوَلَدِ إِنَّمَا كَانَ لِقَصْدِ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ فِي إِقَامَةِ شُؤُونِ الْوَالِدِ، وَتَدَارُكِ عَجْزِهِ؛ وَلِذَلِكَ اسْتُدِلَّ عَلَىٰ إِبْطَالِ قَوْلِهِمْ: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ بِإِثْبَاتِ أَنَّهُ الْغَنِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

فَهَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ أَبْطَلَتْ تَعَدُّدَ الْإِلَهِ بِطَرِيقِ تَوَلُّدِ إِلَهٍ عَنْ إِلَهٍ؛ لِأَنَّ الْمُتَوَلِّدَ مُسَاوٍ لِمَا تَوَلَّدَ عَنْهُ، كَمَا أَبْطَلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعَدُّدَ الْإِلَهِ بِالْأَصَالَةِ وَالِاسْتِقْلَالِ، وَكَمَا يَسْتَحِيلُ تَعَدُّدُ الْآلِهَةِ بِالْأَصَالَةِ فَهُوَ كَذَلِكَ بِالتَّوَلُّدِ مُسْتَحِيلٌ؛ لِمَا يَلْزَمُ عَلَىٰ التَّعَدُّدِ فِي كِلَيْهِمَا مِنْ فَسَادِ الْأَكْوَانِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢](٧).

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ زَعَمُوا لِلَّهِ الْوَلَدَ -تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا!- فَكُفَّارُ الْعَرَبِ جعَلُوا المَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللَّهِ ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وَالْيَهُودُ زَعَمُوا أَنَّ عُزَيْرًا ابْنُ اللَّهِ، وَزَعَمَتِ النَّصَارَىٰ أَنَّ المَسِيحَ ابْنُ اللَّهِ

(٦) أخرجه مطولًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: الطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٣١٩-٣٢٢)، والطبراني في الكبير (٨/ ٩) برقم: (٧٢٦٤).

(٧) مختصرا من التحرير والتنوير (٣٠/ ٦١٨-٦١٩).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، فَرَدَّ الْقُرْآنُ قَوْلَهُمْ، وَفَضَحَ زَعْمَهُمْ، وَبَيَّنَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ غَنِيٌّ عَنْ خَلْقِهِ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وَمَا أَوْسَعَ حِلْمَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ خَلْقِهِ! خلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ، وَأَعْطَاهُمْ، وَآوَاهُمْ، ثُمَّ يَزْعُمُونَ لَهُ الصَّاحِبَةَ، وَيَجْعَلُونَ لَهُ الْوَلَدَ؛ فَلَا يُعَذِّبُهُمْ بَلْ يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، وَيُبَيِّنُ خَطَأَهُمْ عَلَيْهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَىٰ أَذًىٰ سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ**»(٨).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ ﷻ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفوًا أَحَدٌ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٩).

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ سَدٌّ لِتَجْوِيزِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَالِدٌ، فَأَرْدَفَ نَفْيَ الْوَلَدِ بِنَفْيِ الْوَالِدِ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ نَفْيَ الْوَلَدِ لِأَنَّهُ أَهَمُّ؛ إِذْ قَدْ نَسَبَ أَهْلُ الضَّلَالَةِ الْوَلَدَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَلَمْ يَنْسُبُوا إِلَىٰ اللَّهِ وَالِدًا، وَفِي هَذَا إِيمَاءٌ إِلَىٰ أَنَّ مَنْ يَكُونُ مَوْلُودًا

---

(٨) أخرجه من حديث أبي موسىٰ ﷺ: البخاري في الأدب، باب الصبر علىٰ الأذىٰ (٦٩٤٣)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب لا أحد أصبر علىٰ أذىٰ من الله ﷻ (٢٨٠٤).

(٩) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٧)، والبخاري في التفسير، باب قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ (٤٦٩١)، والنسائي في الجنائز، باب أرواح المؤمنين (٤/ ١١٢)، وابن حبان (٨٤٨).

مِثْلَ عِيسَىٰ عليه السلام لَا يَكُونُ إِلَهًا، فَبَطَلَتِ الْعَقَائِدُ المَبْنِيَّةُ عَلَىٰ تَوَلُّدِ الْإِلَهِ، مِثْلُ عَقَائِدِ النَّصَارَىٰ(١٠).

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ الْكُفُوُ: هُوَ المُمَاثِلُ وَالمُسَاوِي، فَسَلَبَ عَنِ المَخْلُوقِ -أَيًّا كَانَ- مُكَافَأَتَهُ وَمُمَاثَلَتَهُ لِلْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، فَالمَخْلُوقُ كَائِنًا مَنْ كَانَ لَا يُمَاثِلُ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ وَخَصَائِصِهِ(١١).

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ صِفَاتِ الْخَالِقِ كَصِفَاتِ المَخْلُوقِينَ فَهُوَ مُفْتَرٍ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، مُخَالِفٌ لِصَرِيحِ الْقُرْآنِ الَّذِي أَوْضَحَ أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

وَمَنْ عَطَّلَ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ مِنْ صِفَاتِهِ؛ فَنَفَاهَا، أَوْ تَأَوَّلَها عَلَىٰ غَيْرِ مَا جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ وَصَحِيحِ السُّنَّةِ فَهُوَ مُعْتَدٍ عَلَىٰ اللَّهِ ﷻ، مُخَالِفٌ لِصَرِيحِ الْقُرْآنِ وَصَحِيحِ السُّنَّةِ، فَاللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ سَمَّىٰ نَفْسَهُ بِأَسْمَاءَ، وَوَصَفَ ذَاتَهُ المُقَدَّسَةَ بِصِفَاتٍ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ؛ فَوَجَبَ إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ سُبْحَانَهُ لِنَفْسِهِ، وَنَفْيُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَالْعِلْمُ بِأَنَّهُ لَا كُفُوَ لَهُ ﷻ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: هَذِهِ السُّورَةُ الْعَظِيمَةُ بِآيَاتِهَا الْقَلِيلَةِ، وَمَعَانِيهَا الْغَزِيرَةِ؛ قَدْ قَرَّرَتِ الْعَقِيدَةَ الصَّحِيحَةَ فِي الْخَالِقِ ﷻ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يُثْبَتَ لَهُ، وَمَا يَجِبُ أَنْ يُنْفَىٰ عَنْهُ، وَرَدَّتْ عَلَىٰ طَوَائِفِ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَلَدًا، كَمَا رَدَّتْ عَلَىٰ أَصْنَافِ المُبْتَدِعِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا صِفَاتِ الْخَالِقِ كَصِفَاتِ المَخْلُوقِينَ، أَوِ الَّذِينَ عَطَّلُوا الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ مِمَّا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ. وَهَذَا مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ

---

(١٠) بتصرف واختصار من التحرير والتنوير (٣٠/ ٦١٨-٦١٩).

(١١) إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/ ٢٣١).

وَإِعْجَازِهِ: أَنْ تَأْتِيَ الْكَلِمَاتُ الْقَلِيلَةُ، وَالسُّوَرُ الْقَصِيرَةُ بِالمَعَانِي الْعَظِيمَةِ، وَالْأَحْكَامِ الْغَزِيرَةِ، وَصَدَقَ اللهُ ﷻ إِذْ يَقُولُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

نَفَعَنِي اللهُ وَإِيَّاكُمْ بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَبِسُنَّةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ؛ فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

❁ ❁ ❁

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- بِفِعْلِ مَا أَمَرَ، وَاجْتَنِبُوا الْفَوَاحِشَ مَا بَطَنَ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ، وَاعْرِفُوا حَقَّ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْكُمْ مِنْ تَوْحِيدِهِ وَطَاعَتِهِ؛ فَمَنْ أَوْفَىٰ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَىٰ اسْتَحَقَّ جَزَاءَهُ وَرِضَاهُ، وَمَنْ حَادَ عَنْ طَرِيقِ تَوْحِيدِهِ كَانَتِ النَّارُ مَأْوَاهُ؛ ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ﴾ [الزمر: ٧].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لِهَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تُسَمَّىٰ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ فَضَائِلُ كَبِيرَةٌ، جَاءَتْ بِهَا نُصُوصٌ كَثِيرَةٌ، فَهِيَ تُعَدُّ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ: أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُها، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١٢].

وَهِيَ مُوجِبَةٌ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ ﷻ، جاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَىٰ سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟**»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّهُ**»[١٣].

وَمَحَبَّتُهَا وَمَحَبَّةُ الْقِرَاءَةِ بِهَا مَعَ الإِيمَانِ وَالْيَقِينِ يُوجِبُ الْجَنَّةَ لِصَاحِبِهَا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، فَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلَاةِ مِمَّا يُقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ بِـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، حَتَّىٰ يَفْرَغَ مِنْهَا، ثُمَّ كَانَ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَىٰ مَعَهَا، وَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ، ثُمَّ لَا تَرَىٰ أَنَّهَا تُجْزِئُكَ حَتَّىٰ تَقْرَأَ بِالْأُخْرَىٰ، فَإِمَّا أَنْ تَقْرَأَ بِهَا، وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِأُخْرَىٰ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِتَارِكِهَا، إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْتُ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ، وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: «**يَا فُلَانُ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ؟ وَمَا حَمَلَكَ عَلَىٰ لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟**» قَالَ: إِنِّي أُحِبُّهَا، قَالَ: «**حُبُّكَ**

---

(١٢) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٠٨)، ومن طريقه أحمد (٣/ ٣٥)، والبخاري في فضائل القرآن، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٤٧٢٦)، وأبو داود في الصلاة، باب في سورة الصمد (١٤٦١)، والنسائي في الافتتاح، باب الفضل في قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٢/ ١٧١).

(١٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ (٦٩٤٠)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٨١٣).

إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُعَلَّقًا، وَالتِّرْمِذِيُّ مَوْصُولًا(١٤).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ قَارِئًا يَقْرَأُ بِهَا، فَقَالَ: «**وَجَبَتْ**»، قَالُوا: وَمَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: «**الجَنَّةُ**» رَوَاهُ مَالِكٌ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ(١٥).

وَأَوْصَىٰ النَّبِيُّ ﷺ بِقِرَاءَتِهَا مَعَ قِرَاءَةِ المُعَوِّذَتَيْنِ فِي الصَّبَاحِ وَالمَسَاءِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَقَالَ لِمَنْ أَوْصَاهُ: «**تَكْفِيكَ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**تَكْفِيكَ كُلَّ شَيْءٍ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ(١٦).

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْصَىٰ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ رضي الله عنه بِسُورَةِ الْإِخْلَاصِ وَالمُعَوِّذَتَيْنِ، وَقَالَ: «**يَا عُقْبَةُ، لَا تَنْسَهُنَّ، وَلَا تَبِتْ لَيْلَةً حَتَّىٰ تَقْرَأَهُنَّ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٧).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَسْتَشْفِي بِهَا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، وَقَرَأَ

---

(١٤) أخرجه معلقا مجزومًا به: البخاري في صفة الصلاة، باب الجمع بين السورتين في الركعة والقراءة بالخواتيم، وبسورة قبل سورة، وبأول سورة (٧٤١)، وأخرجه الترمذي موصولًا في فضائل القرآن، وقال: حديث حسن غريب صحيح (٢٩٠١)، وأخرجه مختصرًا أحمد (٣/ ١٤٩-١٥٠)، وعبد بن حميد (١٣٠٦)، وأبو يعلىٰ (٣٣٣٦)، والدارمي (٣٤٣٥)، وابن حبان (٧٩٢).

(١٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مالك (١/ ٢٠٨)، وأحمد (٢/ ٥٣٥)، والترمذي في فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة الإخلاص، وقال: حديث حسن غريب (٢٨٩٧)، والنسائي في الافتتاح، باب الفضل في قراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٢/ ١٧١)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (١/ ٧٥٤).

(١٦) أخرجه من حديث عبد الله بن خبيب رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٣١٢)، وعبد بن حميد (٤٩٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٥٧٢)، وأبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٨٢)، والترمذي في باب (١١٧)، وقال: حديث حسن صحيح غريب (٣٥٧٥)، والنسائي في فاتحة كتاب الاستعاذة (٨/ ٢٥٠).

(١٧) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٨-١٥٨).

فِيهِمَا: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَىٰ رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَٰلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٨).

وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقْرَأُ بِهَا وَبِسُورَةِ (الْكَافِرُونَ) فِي رَكْعَتَي الطَّوَافِ(١٩)، وَفِي الْوِتْرِ(٢٠)، وَفِي سُنَّةِ الْفَجْرِ(٢١)، وَفِي سُنَّةِ الْمَغْرِبِ(٢٢)؛ لِأَنَّ

(١٨) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب فضل المعوذات (٤٧٢٩)، وأبو داود في الأدب، باب ما يقال عند النوم (٥٠٥٦)، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء فيمن يقرأ من القرآن عند المنام (٣٤٠٢)، والنسائي في السنن الكبرىٰ (١٠٦٢٤)، وابن ماجه في الدعاء، باب ما يدعو إذا أوىٰ إلىٰ فراشه (٣٨٧٥).

(١٩) أخرجه من حديث جابر ﷺ مطولا في قصة حجته عليه الصلاة والسلام: مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، وأخرجه مختصرا: الترمذي في الحج، باب ما جاء ما يقرأ في ركعتي الطواف (٨٦٩)، والنسائي في مناسك الحج، باب القراءة في ركعتي الطواف (٥/ ٢٣٦).

(٢٠) كما في حديث أبي بن كعب ﷺ عند الطيالسي (٥٤٦)، والنسائي في قيام الليل، باب ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر أبي بن كعب في الوتر (٣/ ٢٣٥-٢٣٦)، والبغوي في شرح السنة (٩٧٣)، وصححه ابن حبان (٢٤٥٠).

(٢١) كما في حديث أبي هريرة ﷺ: «أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد» أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي الفجر (٧٢٦)، وأبو داود في الصلاة، باب في تخفيفهما -أي: ركعتي الفجر- (١٢٥٦)، والنسائي في الافتتاح، باب القراءة في ركعتي الفجر بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ (٣/ ١٥٥).

(٢٢) كما في حديث ابن عمر قال: «رمقت رسول الله ﷺ عشرين مرة، يقرأ في الركعتين بعد المغرب وفي الركعتين قبل الفجر قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد» أخرجه النسائي في الافتتاح، باب القراءة في الركعتين بعد المغرب (٢/ ١٧٠).

وأعله مسلم في التمييز فقال: «وهذا الخبر وهم عن ابن عمر، والدليل علىٰ ذلك الروايات الثابتة عن ابن عمر أنه ذكر ما حفظ عن النبي ﷺ من تطوع صلاته بالليل والنهار فذكر عشر ركعات، ثم قال: وركعتي الفجر أخبرتني حفصة أن النبي ﷺ كان يصلي ركعتين خفيفتين =

هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ سُورَتَا الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ؛ فَكَانَ يَفْتَتِحُ بِهِمَا عَمَلَ النَّهَارِ، وَيَخْتِمُهُ بِهِمَا، وَيَقْرَأُ بِهِمَا فِي الْحَجِّ الَّذِي هُوَ شِعَارُ التَّوْحِيدِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «سُنَّةُ الْفَجْرِ تَجْرِي مَجْرَىٰ بِدَايَةِ الْعَمَلِ، وَالْوِتْرُ خَاتِمَتُهُ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي سُنَّةَ الْفَجْرِ وَالْوِتْرَ بِسُورَتَيِ الْإِخْلَاصِ».

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



= إذا طلع الفجر، وكانت ساعة لا أدخل علىٰ النبي ﷺ فيها. فكيف سمع منه أكثر من عشرين مرة قراءته فيها وهو يخبر أنه حفظ الركعتين من حفصة عن النبي ﷺ» التمييز (٢٠٨).

وجاء عن ابن مسعود ﷺ عند: الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في الركعتين بعد المغرب والقراءة فيهما، وضعفه فقال: حديث غريب لا نعرفه عن ابن مسعود إلا من حديث عبدالملك بن معدان عن عاصم (٤٣١).

وقد جود النووي حديث ابن عمر في المجموع (٣/ ٣٣٩)، ورجح الألباني تصحيحه في السلسلة الصحيحة، وأن زيادة قراءة سورتي الإخلاص في المغرب محفوظة، وهي من زيادة ثقتين فهي مقبولة (٣٣٢٨).



٢٣٠- سورتا المعوذتين (١) الفضل والأثر

١١/ ٧/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ الْقُرْآنَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَخَتَمَ بِهِ كُتُبَهُ الَّتِي أَنْزَلَهَا، وَكَفَلَ حِفْظَهُ إِلَىٰ آخِرِ الزَّمَانِ؛ لِيَكُونَ هُدًىٰ لِلنَّاسِ.

جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ الْقُرْآنَ مَصْدَرَ هِدَايَةٍ لِلْعِبَادِ، وَسَبَبًا لِنَجَاتِهِمْ، وَشِفَاءً لِصُدُورِهِمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فَاضَلَ اللهُ تَعَالَىٰ بَيْنَ سُوَرِهِ وَآيَاتِهِ، فَخَصَّ بَعْضَهَا بِالْفَضْلِ عَلَىٰ مَا سِوَاهَا؛ فَالْفَاتِحَةُ أَعْظَمُ سُوَرِهِ، وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ أَفْضَلُ آيَاتِهِ، وَسُورَةُ الْإِخْلَاصِ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَسُورَةُ الْمُلْكِ هِيَ الْمُنْجِيَةُ، وَتَشْفَعُ لِصَاحِبِهَا حَتَّىٰ يُغْفَرَ لَهُ، وَمَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ.

وَلِلْمُعَوِّذَتَيْنِ مِنَ الْفَضْلِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، وَلَهُمَا أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي حَيَاةِ النَّاسِ وَمَعَاشِهِمْ، وَإِذَا مَا كَثُرَتِ الْهُمُومُ وَالْغُمُومُ، وَتَفَشَّتْ أَمْرَاضُ السِّحْرِ وَالْحَسَدِ وَالْعَيْنِ، وَالْقَلَقِ وَالْأَرَقِ؛ فَإِنَّ الدَّوَاءَ النَّاجِعَ، وَالشِّفَاءَ المَضْمُونَ فِي المُعَوِّذَتَيْنِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ؟** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[1].

وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: «**أُنْزِلَ -أَوْ أُنْزِلَتْ- عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: المُعَوِّذَتَيْنِ**»[2].

وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ أَنَّ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ رضي الله عنه سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُقْرِئَهُ سُورَتَيْ هُودٍ وَيُوسُفَ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا أَبْلَغَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ، لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل قراءة المعوذتين (٨١٤)، وأبو داود في الصلاة، باب في المعوذتين (١٤٦٢)، والترمذي في ثواب القرآن، باب ما جاء في المعوذتين (١٩٠٤-٢٩٠٥)، والنسائي في افتتاح الصلاة، باب القراءة في الصبح بالمعوذتين (٢/ ١٥٨)، وأحمد (٤/ ١٤٤).

(٢) هذه الرواية لمسلم (٨١٤)، والنسائي في الكبرىٰ (٨٠٣٠)، وأحمد (٤/ ١٥٢).

(٣) هذه الرواية للنسائي (٢/ ١٥٨)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣١١) رقم (٨٦٠)، =

وَوَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ بِأَنَّهُمَا خَيْرُ سُورَتَيْنِ قُرِئَتَا[٤]، وَقَالَ: «**مَا تَعَوَّذَ بِمِثْلِهِنَّ أَحَدٌ**»[٥]، وَأَوْصَىٰ عُقْبَةَ بِأَنْ يَقْرَأَهُمَا كُلَّمَا نَامَ وَقَامَ، وَقَالَ لَهُ: «**مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا، وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا**»[٦]، وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: «**مَا تَعَوَّذَ النَّاسُ بِأَفْضَلَ مِنْهُمَا**»[٧].

وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ: «**لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ**»: يَعْنِي: لَمْ تَكُنْ آيَاتُ سُورَةٍ كُلُّهُنَّ تَعْوِيذًا لِلْقَارِئِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ غَيْرَ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ[٨].

وَرَوَىٰ **جَابِرٌ** رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اقْرَأْ يَا جَابِرُ**» قُلْتُ: وَمَاذَا أَقْرَأُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي؟ قَالَ: «**اقْرَأْ** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»، فَقَرَأْتُهُمَا، فَقَالَ: «**اقْرَأْ بِهِمَا، وَلَنْ تَقْرَأَ بِمِثْلِهِمَا**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ[٩].

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِهِمَا، وَيَسْتَشْفِي بِهِمَا، وَيَرْقِي أَهْلَهُ وَنَفْسَهُ

= وصححها ابن حبان (٧٩٥).

قال السندي في حاشيته علىٰ النسائي: قوله «أبلغ عند الله» أي: أعظم ثوابا في باب الاستعاذة (٨/ ٢٥٤)

(٤) كما في رواية أبي داود (١٤٦٢)، والنسائي (٨/ ٢٥٢)، وأحمد (٤/ ١٥٣)، والبيهقي (٢/ ٣٩٤)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٣٥)، رقم (٩٢٦)، وفي مسند الشاميين (١٩٨٧) وصححها ابن خزيمة (٥٣٥).

(٥) هذه الرواية للنسائي (٨/ ٢٥١).

(٦) هذه الرواية للنسائي (٨/ ٢٥٣)، والدارمي (٣٤٤٠)، وابن أبي شيبة (٦/ ٧٨)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٤٥) رقم (٩٤٩).

(٧) هذه الرواية للنسائي (٨/ ٢٥٠).

(٨) شرح الطيبي علىٰ المشكاة (٥/ ١٦٥٠).

(٩) أخرجه النسائي في فاتحة كتاب الاستعاذة (٨/ ٢٥٤)، وصححه ابن حبان (٧٩٦).

وجاء بنحوه من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند: أحمد (٤/ ١٤٦-١٥١)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٠٨) رقم (٨٤٩)، وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف.

بِهِمَا؛ كَمَا رَوَىٰ أَبُو سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الجَانِّ وَعَيْنِ الْإِنْسَانِ حَتَّىٰ نَزَلَتِ المُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتْ أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ(١٠).

كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَسْتَشْفِي بِهِمَا، وَإِذَا مَرِضَ أَحَدُ أَهْلِهِ رَقَاهُ بِهِمَا؛ كَمَا رَوَىٰ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ جَعَلْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّها كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْ يَدِي». قَالَ الزُّهْرِيُّ: «وَكَانَ يَنْفُثُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ»(١١).

وَقَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَإِنَّمَا رَقَىٰ بِالمُعَوِّذَاتِ؛ لِأَنَّهُنَّ جَامِعَاتٌ لِلاسْتِعَاذَةِ مِنْ كُلِّ المَكْرُوهَاتِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا؛ فَفِيهَا الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، فَدَخَلَ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ، وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ، وَمِنَ السَّوَاحِرِ، وَمِنْ شَرِّ الْحَاسِدِينَ، وَمِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ»(١٢).

وَهَاتَانِ السُّورَتَانِ الْعَظِيمَتَانِ تُؤَمِّنَانِ الْخَائِفَ مِنْ تَغَيُّرِ الْأَجْوَاءِ، وَشِدَّةِ الرِّيَاحِ،

(١٠) أخرجه الترمذي في الطب، باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين، وقال: حسن غريب (٢٠٥٨)، والنسائي في الاستعاذة، باب الاستعاذة من عين الجان (٨/ ٢٧١)، وابن ماجه في الطب، باب من استرقىٰ من العين (٣٥١١).
قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالىٰ-: «وهذا لا يدل علىٰ المنع من التعوذ بغير هاتين السورتين، بل يدل علىٰ الأولوية ولا سيما مع ثبوت التعوذ بغيرهما، وإنما اجتزأ بهما لما اشتملتا عليه من جوامع الاستعاذة من كل مكروه جملةً وتفصيلًا» فتح الباري (١٠/ ١٩٥).

(١١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب فضل المعوذات (٤٧٢٨)، ومسلم واللفظ له في السلام، باب رقية المريض بالمعوذات والنفث (٢١٩٢).
وقول الزهري هو في رواية البخاري في الطب، باب في المرأة ترقي الرجل (٥٤١٩).

(١٢) شرح النووي علىٰ مسلم (١٤/ ١٨٣).

وَتُؤْنِسَانِهِ فِي الظَّلَامِ، وَمَنْ أَصَابَهُ خَوْفٌ شُرِعَ لَهُ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِهِمَا؛ لِمَا رَوَىٰ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ﵁ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الْجُحْفَةِ وَالْأَبْوَاءِ إِذْ غَشِيَتْنَا رِيحٌ وَظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ بـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ويقول: «**يَا عُقْبَةُ، تَعَوَّذْ بِهِمَا فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا**»، قَالَ عُقْبَةُ: وَسَمِعْتُهُ يَؤُمُّنَا بِهِمَا فِي الصَّلَاةِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالْبَيْهَقِيُّ[١٣].

إِنَّ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ كَافِيَتَانِ، تَكْفِيَانِ الْعَبْدَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، وَتَحْفَظَانِهِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وَشَيْطَانٍ، وَالْعَبْدُ يُحِيطُ بِهِ أَعْدَاءٌ كُثُرٌ، وَيَخْشَىٰ شُرُورًا كَثِيرَةً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ؛ فَالْجِنُّ كَثِيرًا مَا يُؤْذُونَ الْإِنْسَ، حَتَّىٰ إِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَتَعَوَّذُونَ بِهِمْ؛ اتِّقَاءً لِشَرِّهِمْ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]. فَلَمَّا جَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ بِالْإِسْلَامِ شُرِعَتِ الِاسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ، وَهِيَ الِاسْتِعَاذَةُ النَّافِعَةُ مِنْ أَذَىٰ الْجِنِّ وَشَرِّهِمْ.

وَالْعَبْدُ كَذَلِكَ يَخَافُ أَعْيُنَ النَّاسِ وَحَسَدَهُمْ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا تَدَافَعَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ، وَتَنَاءَتْ عَنْهُ النِّقَمُ، فَشَرَعَ اللهُ تَعَالَىٰ لِلسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْمَخَاوِفِ وَالشُّرُورِ افْتِتَاحَ الْيَوْمِ بِقِرَاءَةِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَافْتِتَاحَ اللَّيْلِ بِهِمَا، كَمَا شَرَعَ قِرَاءَتَهُمَا عَقِبَ كُلِّ صَلَاةٍ؛ لِيَكُونَ الْمُسْلِمُ مُحَصِّنًا لِنَفْسِهِ عَلَىٰ الدَّوَامِ مِنَ الشُّرُورِ وَالْأَذَىٰ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَبِيبٍ ﵁ قَالَ: «خَرَجْنَا فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ، وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطْلُبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي لَنَا، فَأَدْرَكْتُهُ، فَقَالَ: **قُلْ**، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: **قُلْ**، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، قَالَ: **قُلْ**، قُلْتُ: مَا أَقُولُ؟ قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

---

(١٣) هذه الرواية لأبي داود (١٤٦٣)، والبيهقي (٢/ ٣٩٤)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٤٥) رقم (٩٥٠).

وَالمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَتُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ(١٤).

وَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَقْرَأَ بِالمُعَوِّذَاتِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ(١٥).

وَحَاجَةُ الْعَبْدِ إِلَىٰ الْحِفْظِ وَالْكِفَايَةِ حَالَ نَوْمِهِ كَحَاجَتِهِ إِلَىٰ ذَلِكَ فِي يَقَظَتِهِ؛ كَيْلَا يُصَابَ بِالْأَرَقِ وَالْفَزَعِ؛ وَلِئَلَّا تَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ بِالْأَحْلَامِ الْمُزْعِجَةِ، فَشُرِعَ لَهُ التَّعَوُّذُ بِالمُعَوِّذَتَيْنِ قَبْلَ نَوْمِهِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ.

رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَىٰ إِلَىٰ فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَىٰ رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٦).

وَرَوَىٰ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ، أَلَا أُعَلِّمُكَ خَيْرَ ثَلَاثِ سُوَرٍ أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَالْفُرْقَانِ الْعَظِيمِ؟**

---

(١٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٥٠٨٢)، والترمذي في الدعوات، باب (١٧)، وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه (٣٥٧٥).

(١٥) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في الاستغفار (١٥٢٣)، والترمذي في ثواب القرآن وفضائله، باب في المعوذتين، وقال: حسن غريب (٢٩٠٣)، والنسائي في الافتتاح، باب الأمر بقراءة المعوذات (٣/ ٦٨)، وأحمد (٤/ ١٥٥)، وصححه ابن خزيمة (٧٥٥)، وابن حبان (٢٠٠٤).

(١٦) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب فضل المعوذات (٤٧٢٩)، وأبو داود في الأدب، باب ما يقال عند النوم (٥٠٥٦)، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء فيمن يقرأ عند المنام، وقال: حسن غريب صحيح (٣٤٠٢)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٦٢٤)، وأحمد (٦/ ١١٦).

قَالَ: قُلْتُ: بَلَىٰ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ! فَأَقْرَأَنِي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ثُمَّ قَالَ: **يَا عُقْبَةُ لَا تَنْسَاهُنَّ وَلَا تَبِيتُ لَيْلَةً حَتَّىٰ تَقْرَأَهُنَّ**، قَالَ عُقْبَةُ: فَمَا نَسِيتُهُنَّ مُنْذُ قَالَ: لَا تَنْسَاهُنَّ، وَمَا بِتُّ لَيْلَةً قَطُّ حَتَّىٰ أَقْرَأَهُنَّ» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ[١٧].

أُنْزِلَتْ هَاتَانِ السُّورَتَانِ الْعَظِيمَتَانِ لَمَّا سَحَرَتْ يَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؛ كَمَا رَوَىٰ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ رضي الله عنه فَقَالَ: «سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مِنْ يَهُودٍ، قَالَ: فَاشْتَكَىٰ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَنَزَلَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَقَالَ: **إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ سَحَرَكَ، وَالسِّحْرُ فِي بِئْرِ فُلَانٍ**، قَالَ: فَأَرْسَلَ عَلِيًّا فَجَاءَ بِهِ، قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَحُلَّ الْعُقَدَ وَيَقْرَأَ آيَةً، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَيَحُلُّ حَتَّىٰ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ كَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ . . .» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَاللَّفْظُ لَهُ[١٨].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَه اللهُ تَعَالَىٰ-: «وَفِي ذَلِكَ نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ»[١٩].

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «أَنْفَعُ مَا يُسْتَعْمَلُ لِإِذْهَابِ السِّحْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي إِذْهَابِ ذَلِكَ وَهُمَا الْمُعَوِّذَتَانِ . .»[٢٠].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَحْفَظَنَا وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يُعِيذَنَا مِنَ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . .

---

(١٧) أخرجه أحمد مطولا (٤/ ١٤٨).

(١٨) أخرجه النسائي في تحريم الدم، باب سحرة أهل الكتاب (٧/ ١١٢)، وأحمد (٤/ ٣٦٧)، وابن أبي شيبة (٥/ ٤٠)، وعبد بن حميد (٢٧١). وكل الروايات ليس فيها ذكر المعوذات إلا رواية عبد بن حميد.

(١٩) التلخيص الحبير (٤/ ٤٧).

(٢٠) تفسير ابن كثير (١/ ١٤٩).

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [**الحشر**: ١٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَعَ تَطَوُّرِ وَسَائِلِ الاتِّصَالِ، وَانْفِتَاحِ الْعَالَمِ بَعْضِهِ عَلَىٰ بَعْضٍ؛ انْتَقَلَتْ كَثِيرٌ مِنَ الشُّرُورِ وَالْآثَامِ إِلَىٰ بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ، وَرَاجَتْ سُوقُ السَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ وَالْعَرَّافِينَ، بِسَبَبِ الدِّعَايَاتِ الْإِعْلَامِيَّةِ لَهُمْ، فَلَجَأَ إِلَيْهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي شَدَائِدِهِمْ وَكُرُوبِهِمْ، فَزَادُوهُمْ رَهَقًا إِلَىٰ رَهَقِهِمْ، وَشِدَّةً إِلَىٰ شِدَّتِهِمْ، يَهْدِمُونَ تَوْحِيدَهُمْ، وَيُزِيلُونَ إِيمَانَهُمْ، وَيَسْتَنْزِفُونَ أَمْوَالَهُمْ!! وَقَدْ كَانَ لَهُمْ غِنًىٰ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ مِنَ التَّعَاوِيذِ النَّافِعَةِ، وَالرُّقَىٰ الشَّافِيَةِ الَّتِي تَنْفَعُهُمْ وَلَا تَضُرُّهُمْ، كَيْفَ؟! وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ: «**مَا سَأَلَ سَائِلٌ بِمِثْلِهِمَا وَلَا اسْتَعَاذَ مُسْتَعِيذٌ بِمِثْلِهِمَا**»(٢١). وَفِي لَفْظٍ: «**لَنْ تَقْرَأَ شَيْئًا يَنْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»(٢٢)، وَفِي لَفْظٍ: «**هَكَذَا فَتَعَوَّذْ؛ فَمَا تَعَوَّذَ الْمُتَعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِنَّ**»(٢٣).

---

(٢١) مضىٰ تخريج هذه الرواية في حاشية (٦).

(٢٢) هذه الرواية من روايات حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند: النسائي (٢/ ١٥٨)، وأحمد (٤/ ١٤٩)، وصححها ابن حبان (٧٩٥).

(٢٣) هذه الرواية من روايات حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عند: النسائي في الكبرىٰ (٧٨٤٥).

وَكَثِيرٌ مِنَ الْأُسَرِ الْمُسْلِمَةِ تَشْكُو مِنْ قَلَقِ نِسَائِهَا وَأَوْلَادِهَا، وَاضْطِرَابِ نَوْمِهِمْ، وَفَزَعِهِمْ وَأَرَقِهِمْ، وَسَبَبُ ذَلِكَ: السَّهَرُ عَلَىٰ الْأَفْلَامِ الْمُرْعِبَةِ، وَالْمَشَاهِدِ الْمُزْعِجَةِ، وَضَعْفِ الْحَصَانَةِ بِتَرْكِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ فَتَسَلَّطَتِ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ بُيُوتِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ، بِالْأَحْلَامِ الْمُزْعِجَةِ، وَالْإِيذَاءِ وَالْوَسْوَسَةِ.

وَمَا أَحْوَجَ تِلْكَ الْأُسَرَ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالِاسْتِشْفَاءِ بِهِ، وَالتَّعَوُّذِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَتَنْظِيفِ بُيُوتِهِمْ مِنْ أَسْبَابِ جَلْبِ الشَّيَاطِينِ، وَمَرَدَةِ الْجَانِّ، الَّذِينَ يُحِبُّونَ إِيذَاءَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِخَافَتَهُمْ وَإِرْعَابَهُمْ!

وَالنَّبِيُّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ رضي الله عنهما وَهُمَا طِفْلَانِ؛ اقْتِدَاءً بِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ عليه السلام الَّذِي كَانَ يُعَوِّذُ ابْنَيْهِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ عليهما السلام(٢٤).

وَثَبَتَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْجِنِّ وَالْعَيْنِ، حَتَّىٰ نَزَلَتِ الْمُعَوِّذَتَانِ، فَتَعَوَّذَ بِهِمَا، وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا؛ لِأَنَّهُمَا الْأَفْضَلُ وَالْأَنْفَعُ فِي هَذَا الْبَابِ(٢٥).

فَمَنْ أَرَادَ حِفْظَ نَفْسِهِ فَلْيُكْثِرْ مِنَ الِاسْتِعَاذَةِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ، وَلَا يَدَعْ قِرَاءَتَهُمَا فِي الصَّبَاحِ، وَلَا فِي الْمَسَاءِ، وَلَا فِي أَدْبَارِ الصَّلَوَاتِ، وَإِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ لِلنَّوْمِ نَفَثَ بِهِمَا وَبِسُورَةِ الْإِخْلَاصِ فِي كَفَّيْهِ، وَمَسَحَ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وَمَنْ أَرَادَ رَاحَةَ نَفْسِهِ وَسَلَامَةَ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ فَلْيُعَلِّمْهُمُ التَّعَوُّذَ بِهِمَا، وَلْيُعَوِّذْهُمْ هُوَ بِهِمَا؛ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُ.

---

(٢٤) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في الأنبياء، باب يزفون: النسلان في المشي (٣٣٧١) بلفظ: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين، ويقول: «**إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**».

(٢٥) ينظر تخريجه في حاشية (١٠).

وَطَرِيقَةُ تَعْوِيذِ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَلَا سِيَّمَا الْأَطْفَالُ بِهِمَا: أَنْ يَقْرَأَ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ، وَيَنْفُثَ عَلَىٰ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ فِي حَالِ يَقَظَتِهِمْ أَوْ حَالِ نَوْمِهِمْ، وَلَا يَلْزَمُ لِفِعْلِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا مَرْضَىٰ؛ فَإِنَّ التَّعَوُّذَ بِهِمَا لِلصِّحَاحِ مَشْرُوعٌ وَفَضِيلَةٌ، وَحِصْنٌ مِنْ أَذَىٰ شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَمَنْ فَرَّطَ فِي الْأَخْذِ بِهَذِهِ التَّعْوِيذَةِ، أَوْ جَاوَزَهَا إِلَىٰ سِوَاهَا، فَقَدْ فَرَّطَ فِي عَظِيمٍ، وَحَرَمَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَوَلَدَهُ خَيْرًا كَثِيرًا.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَتَعَلَّمُوا مَا يَنْفَعُكُمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ..



٢٣١- سورتا المعوذتين (٢) التفسير والمعنى

٢٠/ ٣/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: تُحِيطُ بِالْإِنْسَانِ شُرُورٌ كَبِيرَةٌ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِ أَعْدَاءٌ كُثُرٌ، بَدْءًا بِنَفْسِهِ الْأَمَارَةِ بِالسُّوءِ، وَمُرُورًا بِقَرِينِهِ الَّذِي يُزَيِّنُ لَهُ الشَّرَّ، وَانْتِهَاءً بِشَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ الْمُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهِ بِأَنْوَاعِ الْأَذَىٰ وَالشَّرِّ وَالْفَسَادِ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْحُصُونِ وَالتَّعَاوِيذِ مَا يَكُونُ سَبَبًا فِي حِفْظِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الشُّرُورِ وَالْأَذَىٰ، وَرَدْعِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَنِ النَّيْلِ مِنْهُمْ.

وَمِنْ أَنْفَعِ ذَلِكَ وَأَشَدِّهِ أَثَرًا: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّذِي جَعَلَهُ شِفَاءً وَرَحْمَةً وَهُدًىٰ وَنُورًا ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٤]، فِيهِ شِفَاءٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ أَدْوَاءِ الشُّكُوكِ وَالرِّيَبِ، وَشِفَاءٌ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَفِيهِ التَّعَاوِيذُ النَّافِعَةُ الَّتِي تَحْفَظُ الْمُسْلِمَ وَأُسْرَتَهُ وَآلَ بَيْتِهِ مَتَىٰ مَا تَعَلَّمُوهَا، وَأَيْقَنُوا بِهَا، وَدَاوَمُوا عَلَيْهَا.

وَمِنْ أَنْفَعِ تَعَاوِيذِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: الْمُعَوِّذَتَانِ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الْفَلَق: ١] وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١] فَمَا سَأَلَ سَائِلٌ، وَلَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ، وَلَا قَرَأَ قَارِئٌ بِمِثْلِهِمَا، قَالَ ذَلِكَ نَبِيُّكُمْ ﷺ، وَكَانَ يَسْتَفْتِحُ بِهِمَا صَبَاحَهُ وَمَسَاءَهُ، وَيَقْرَأُهُمَا عِنْدَ نَوْمِهِ، وَأَدْبَارَ صَلَوَاتِهِ، وَيَسْتَشْفِي بِهِمَا؛ لِسُرْعَةِ أَثَرِهِمَا، وَعَظِيمِ نَفْعِهِمَا[1].

وَالْحَدِيثُ عَنْ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ الْمُوجَزَتَيْنِ حَدِيثٌ طَوِيلٌ جِدًّا؛ لِغَزَارَةِ مَا فِيهِمَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعَانِي، وَدَلَالَتِهِمَا عَلَىٰ عَظَمَةِ الْخَالِقِ الْبَارِي جَلَّ جَلَالُهُ.

وَحَسْبُنَا مَا يَكْشِفُ مُجْمَلَ الْمَعْنَىٰ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَثَرِ؛ لِيُحَفِّزَ الْمُسْلِمَ عَلَىٰ تَعَاهُدِهِمَا بِالْقِرَاءَةِ وَالتَّدَبُّرِ وَالْفَهْمِ، وَاتِّخَاذِهِمَا حِصْنًا حَصِينًا ضِدَّ الْأَشْرَارِ، وَالِاسْتِشْفَاءِ بِهِمَا مِنَ الْعَوَادِي وَالْأَسْقَامِ.

تَضَمَّنَتْ هَاتَانِ السُّورَتَانِ الْعَظِيمَتَانِ: اسْتِعَاذَةً وَمُسْتَعَاذًا بِهِ، وَمُسْتَعَاذًا مِنْهُ؛ فَالِاسْتِعَاذَةُ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الْفَلَق: ١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١]، وَالْعَوْذُ هُوَ اللَّجَأُ إِلَىٰ شَيْءٍ يَقِي مَنْ يَلْجَأُ إِلَيْهِ مَا يَخَافُهُ[2].

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في الخطبة السالفة (٦/ ٤٧١).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٠/ ٦٢٦).

وَأَمَّا الْمُسْتَعَاذُ بِهِ فَهُوَ اللهُ وَحْدَهُ؛ رَبُّ الْفَلَقِ، وَرَبُّ النَّاسِ، مَلِكُ النَّاسِ، إِلَهُ النَّاسِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي الِاسْتِعَاذَةُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يُسْتَعَاذُ بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ الَّذِي يُعِيذُ الْمُسْتَعِيذِينَ وَيَعْصِمُهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذُوا مِنْ شَرِّهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ ﷻ فِي كِتَابِهِ عَمَّنِ اسْتَعَاذَ بِخَلْقِهِ أَنَّ اسْتِعَاذَتَهُ زَادَتْهُ طُغْيَانًا وَرَهَقًا فَقَالَ حِكَايَةً عَنْ مُؤْمِنِي الْجِنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الْجِنّ: ٦]، فَلَا يُسْتَعَاذُ إِلَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الْفَلَق: ١](٣).

وَالْفَلَقُ هُوَ فَلَقُ الصُّبْحِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الْأَنْعَام: ٩٦](٤).

وَأَمَّا الْمُسْتَعَاذُ مِنْهُ فِي سُورَةِ الْفَلَقِ فَأُمُورٌ أَرْبَعَةٌ(٥):

---

(٣) بتصرف يسير واختصار من بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ٤٢٩).

(٤) اختلف المفسرون في المقصود بالفلق على أقوال نقلها أهل الأثر:

١- أنه الصبح، وهذا منقول عن ابن عباس وجابر بن عبد الله والحسن البصري وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وابن زيد، ورجحه الطبري، وهو اختيار البخاري وابن كثير وابن القيم. ينظر: تفسير الصنعاني (٣/ ٤٠٨)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٧٥)، وصححه البخاري (٤/ ١٩٠٤)، وتفسير الطبري (٣٠/ ٣٥٠)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٤)، وبدائع الفوائد (٢/ ٢١٧).

٢- أنه سجن في جهنم، وفيه حديث مرفوع عن أبي هريرة ﷺ لا يصح.

وهو منقول عن ابن عباس بإسناد منقطع، وروي عن كعب الأحبار والسدي. ينظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٣٤٩) ورده ابن القيم.

٣- أنه اسم من أسماء جهنم، نقله الطبري عن أبي عبدالرحمن الحبلي (٣٠/ ٣٥٠).

٤- أنه الخلق، أي: أمره الله تعالىٰ أن يتعوذ من الخلق كله، نقله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ، ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٧٤).

قال ابن القيم: «واعلم أن الخلق كله فلق؛ وذلك أن فلقا فعل بمعنىٰ: مفعول، كقبض وسلب وقنص، بمعنىٰ: مقبوض ومسلوب ومقنوص. والله ﷻ فالق الإصباح، وفالق الحب والنوىٰ، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح» بدائع الفوائد (٢/ ٢٢١).

(٥) بتصرف من بدائع الفوائد (٢/ ٢١٠).

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفَلَق: ٢]، وَهَذَا يَعُمُّ كُلَّ الشُّرُورِ فِي أَيِّ مَخْلُوقٍ قَامَ بِهِ الشَّرُّ مِنْ حَيَوَانٍ أَوْ غَيْرِهِ إِنْسِيًّا كَانَ أَوْ جِنِّيًّا أَوْ هَامَّةً أَوْ دَابَّةً أَوْ رِيحًا أَوْ صَاعِقَةً أَوْ أَيَّ نَوْعٍ كَانَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ . . . وَالمَعْنَىٰ: مِنْ شَرِّ كُلِّ مَخْلُوقٍ فِيهِ شَرٌّ . . . وَلَيْسَ المُرَادُ الِاسْتِعَاذَةَ مِنْ شَرِّ كُلِّ مَا خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا لَيْسَ فِيهَا شَرٌّ، وَكَذَلِكَ المَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ فَإِنَّهُمْ خَيْرٌ مَحْضٌ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ حَصَلَ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ؛ فَالِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ تَعُمُّ شَرَّ كُلِّ مَخْلُوقٍ فِيهِ شَرٌّ، كَمَا تَعُمُّ كُلَّ شَرٍّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَشَرَّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، وَشَرَّ السِّبَاعِ وَالْهَوَامِّ، وَشَرَّ النَّارِ وَالْهَوَاءِ وَغَيْرَ ذَلِكَ(٦).

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفَلَق: ٣]، أَيْ: شَرِّ اللَّيْلِ إِذَا أَقْبَلَ بِظُلْمَتِهِ وَوَحْشَتِهِ، أَوْ شَرِّ عَلَامَةِ اللَّيْلِ وَهِيَ الْقَمَرُ؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ ﵂ فَقَالَتْ: «أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَأَرَانِي الْقَمَرَ حِينَ طَلَعَ فَقَالَ: **تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ(٧).

وَالسَّبَبُ الَّذِي لِأَجْلِهِ أَمَرَ اللهُ ﷻ عِبَادَهُ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ اللَّيْلِ . . . هُوَ أَنَّ اللَّيْلَ إِذَا أَقْبَلَ فَهُوَ مَحَلُّ سُلْطَانِ الْأَرْوَاحِ الشِّرِّيرَةِ الْخَبِيثَةِ، وَفِيهِ تَنْتَشِرُ الشَّيَاطِينُ؛ كَمَا رَوَىٰ جَابِرٌ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تُرْسِلُوا مَوَاشِيَكُمْ وَصِبْيَانَكُمْ إِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ حَتَّىٰ تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعِشَاءِ؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْبَعِثُ إِذَا غَابَتِ**

---

(٦) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢١٥).

(٧) أخرجه من حديث عائشة ﵂: أحمد (٦/ ٢٠٦)، وإسحاق بن راهويه (١٠٧٢)، وأبو يعلىٰ (٤٤٤٠)، والطيالسي (١٤٨٦)، وعبد بن حميد (١٥١٧)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة المعوذتين وقال: حديث حسن صحيح (٣٣٦٦)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠١٣٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٥٨٩)، وحسنه الحافظ في الفتح (٨/ ٧٤١).

الشَّمْسُ حَتَّىٰ تَذْهَبَ فَحْمَةُ الْعُشَاءِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ[٨].

قَالَ الْمُنَاوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لِأَنَّ حَرَكَتَهُمْ- أَيِ: الشَّيَاطِينَ- لَيْلًا أَمْكَنُ مِنْهَا نَهَارًا؛ إِذِ الظَّلَامُ أَجْمَعُ لِقُوَىٰ الشَّيْطَانِ، وَعِنْدَ ابْتِدَاءِ انْتِشَارِهِمْ يَتَعَلَّقُونَ بِمَا يُمْكِنُهُمُ التَّعَلُّقُ بِهِ؛ فَخِيفَ عَلَىٰ الْأَطْفَالِ مِنْ إِيذَائِهِمْ»[٩].

فَاللَّيْلُ هُوَ مَحَلُّ الظَّلَامِ، وَفِيهِ تَتَسَلَّطُ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مَا لَا تَتَسَلَّطُ بِالنَّهَارِ؛ فَإِنَّ النَّهَارَ نُورٌ، وَالشَّيَاطِينُ إِنَّمَا سُلْطَانُهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُظْلِمَةِ وَعَلَىٰ أَهْلِ الظُّلْمَةِ . . . وَلِهَذَا كَانَ سُلْطَانُ السِّحْرِ وَعِظَمُ تَأْثِيرِهِ إِنَّمَا هُوَ بِاللَّيْلِ دُونَ النَّهَارِ؛ فَالسِّحْرُ اللَّيْلِيُّ عِنْدَ أَهْلِ السِّحْرِ هُوَ السِّحْرُ الْقَوِيُّ التَّأْثِيرِ؛ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَتِ الْقُلُوبُ الْمُظْلِمَةُ هِيَ مَحَالَّ الشَّيَاطِينِ وَبُيُوتَهُمْ وَمَأْوَاهُمْ، وَالشَّيَاطِينُ تَجُولُ فِيهَا، وَتَتَحَكَّمُ كَمَا يَتَحَكَّمُ سَاكِنُ الْبَيْتِ فِيهِ، وَكُلَّمَا كَانَ الْقَلْبُ أَظْلَمَ كَانَ لِلشَّيْطَانِ أَطْوَعَ، وَهُوَ فِيهِ أَثْبَتَ . . . وَمِنْ هَاهُنَا تَعْلَمُ السِّرَّ فِي الِاسْتِعَاذَةِ بِرَبِّ الْفَلَقِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؛ فَإِنَّ الْفَلَقَ الصُّبْحُ الَّذِي هُوَ مَبْدَأُ ظُهُورِ النُّورِ، وَهُوَ الَّذِي يَطْرُدُ جَيْشَ الظَّلَامِ وَعَسْكَرَ الْمُفْسِدِينَ فِي اللَّيْلِ، فَيَأْوِي كُلُّ خَبِيثٍ وَكُلُّ مُفْسِدٍ وَكُلُّ لِصٍّ وَكُلُّ قَاطِعِ طَرِيقٍ إِلَىٰ سِرْبٍ أَوْ كِنٍّ أَوْ غَارٍ، وَتَأْوِي الْهَوَامُّ إِلَىٰ جُحُورِهَا، وَالشَّيَاطِينُ الَّتِي انْتَشَرَتْ بِاللَّيْلِ إِلَىٰ أَمْكِنَتِهَا وَمَحَالِّهَا؛ فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ أَنْ يَسْتَعِيذُوا بِرَبِّ النُّورِ الَّذِي يَقْهَرُ الظُّلْمَةَ وَيُزِيلُهَا، وَيَقْهَرُ عَسْكَرَهَا وَجَيْشَهَا.

فَالْإِيمَانُ كُلُّهُ نُورٌ، وَمَآلُهُ إِلَىٰ نُورٍ، وَمُسْتَقَرُّهُ فِي الْقَلْبِ الْمُضِيءِ الْمُسْتَنِيرِ،

---

(٨) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣١٠٦)، ومسلم في الأشربة، باب الأمر بتغطية الإناء وإيكاء السقاء وإغلاق الأبواب وذكر اسم الله عليها، واللفظ له (٢٠١٢).

(٩) فيض القدير (١/ ٤٢٣)، وانظر: فتح الباري لابن حجر (٦/ ٣٤١)

وَالمُقْتَرِنُ بِأَهْلِهِ الْأَرْوَاحُ الْمُسْتَنِيرَةُ الْمُضِيئَةُ الْمُشْرِقَةُ. وَالْكُفْرُ وَالشِّرْكُ كُلُّهُ ظُلْمَةٌ، وَمَآلُهُ إِلَىٰ الظُّلُمَاتِ، وَمُسْتَقَرُّهُ فِي الْقُلُوبِ الْمُظْلِمَةِ، وَالمُقْتَرِنُ بِهَا الْأَرْوَاحُ الْمُظْلِمَةُ، فَتَأَمَّلُوا- أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- الِاسْتِعَاذَةَ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ الظُّلْمَةِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَحْدُثُ فِيهَا، وَنُزُولُ هَذَا المَعْنَىٰ عَلَىٰ الْوَاقِعِ يَشْهَدُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ، بَلْ هَاتَانِ السُّورَتَانِ مِنْ أَعْظَمِ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ، وَبَرَاهِينِ صِدْقِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ(١٠).

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الْفَلَق: ٤] هِيَ الْأَنْفُسُ الْخَبِيثَةُ، وَالْأَرْوَاحُ الشِّرِّيرَةُ الَّتِي يَحْمِلُهَا السَّحَرَةُ فَيَنْفُثُونَ بِالشِّرْكِ وَالطَّلَاسِمِ فِي الْعُقَدِ الَّتِي يَعْقِدُونَهَا فِي سِحْرِهِمْ لِأَذِيَّةِ النَّاسِ، وَالْإِضْرَارِ بِهِمْ؛ فَالْحَاجَةُ مَاسَّةٌ إِلَىٰ الِاسْتِعَاذَةِ مِنْهُمْ، وَالتَّحَرُّزِ مِنْ شَرِّهِمْ، وَلَا سَبِيلَ إِلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَىٰ هَذِهِ السُّورَةِ النَّافِعَةِ.

وَآخِرُ مَا يُسْتَعَاذُ مِنْهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْعَظِيمَةِ: الْحَاسِدُ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الْفَلَق: ٥] يَعُمُّ الْحَاسِدَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ وَحِزْبَهُ يَحْسُدُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ فَضْلِهِ كَمَا حَسَدَ إِبْلِيسُ أَبَانَا آدَمَ، وَهُوَ عَدُوٌّ لِذُرِّيَّتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فَاطِر: ٦]، وَلَكِنَّ الْوَسْوَاسَ أَخَصُّ بِشَيَاطِينِ الْجِنِّ، وَالْحَسَدَ أَخَصُّ بِشَيَاطِينِ الْإِنْسِ، وَالْوَسْوَاسَ يَعُمُّهُمَا كَمَا أَنَّ الْحَسَدَ يَعُمُّهُمَا أَيْضًا، فَكِلَا الشَّيْطَانَيْنِ الْإِنْسِيِّ وَالْجِنِّيِّ حَاسِدٌ مُوَسْوِسٌ؛ فَالِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ الْحَاسِدِ تَتَنَاوَلُهُمَا جَمِيعًا(١١).

وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ الْمُوجَزَةَ قَدِ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ الِاسْتِعَاذَةِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ، وَتَضَمَّنَتْ شُرُورًا أَرْبَعَةً يُسْتَعَاذُ مِنْهَا، وَالنَّاسُ مُحْتَاجُونَ أَشَدَّ الْحَاجَةِ

(١٠) ملخص بتصرف يسير من بدائع الفوائد (٢/ ٢٢٠).

(١١) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٥).

إِلَىٰ الِاسْتِعَاذَةِ مِنْهَا؛ لِاتِّقَاءِ شَرِّهَا وَضَرَرِهَا، وَلَا يُفَرِّطُ فِي هَذِهِ الِاسْتِعَاذَةِ إِلَّا مَنْ يَجْلِبُ الْأَذَىٰ وَالضَّرَرَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَيُجَرِّئُ شَيَاطِينَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ عَلَىٰ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الْفَلَق: ١-٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الْحَدِيد: ٢٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَمَا أَنَّ الْمُعَوِّذَةَ الْأُولَىٰ سُورَةَ الْفَلَقِ تَضَمَّنَتْ مِنَ الْمَعَانِي مَا يُبْهِرُ الْعُقُولَ، وَدَلَّتْ عَلَىٰ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَيْهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ مِمَّا يَزِيدُ إِيمَانَ الْمُؤْمِنِ وَيَقِينَهُ بِرَبِّهِ؛ فَإِنَّ الْمُعَوِّذَةَ الْأُخْرَىٰ: سُورَةَ النَّاسِ فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعَانِي مَا لَا يَقْصُرُ عَنْ أُخْتِهَا؛ إِذْ إِنَّهَا حَوَتْ مَعَانِيَ الرُّبُوبِيَّةِ بِافْتِتَاحِهَا بِذِكْرِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ وَالْمُلْكِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

﴿ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١-٣]، فَإِذَا كَانَ اللهُ وَحْدَهُ هُوَ رَبَّنَا وَمَالِكَنَا وَإِلَهَنَا فَلَا مَفْزَعَ لَنَا فِي الشَّدَائِدِ سِوَاهُ، وَلَا مَلْجَأَ لَنَا مِنْهُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا مَعْبُودَ لَنَا غَيْرُهُ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُدْعَىٰ وَلَا يُخَافَ وَلَا يُرْجَىٰ وَلَا يُحَبَّ سِوَاهُ، وَلَا يُذَلَّ لِغَيْرِهِ، وَلَا يُخْضَعَ لِسِوَاهُ، وَلَا يُتَوَكَّلَ إِلَّا عَلَيْهِ. فَكَيْفَ لَا يَلْتَجِئُ الْعَبْدُ عِنْدَ النَّوَازِلِ وَنُزُولِ عَدُوِّهِ بِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ وَمَالِكِهِ وَإِلَهِهِ؟! وَبِهَذَا ظَهَرَتْ مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْإِضَافَاتِ الثَّلَاثِ لِلِاسْتِعَاذَةِ مِنْ أَعْدَىٰ الْأَعْدَاءِ، وَأَعْظَمِهِمْ عَدَاوَةً، وَأَشَدِّهِمْ ضَرَرًا، وَأَبْلَغِهِمْ كَيْدًا[١٢].

وَهَذِهِ الِاسْتِعَاذَةُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ الْجَلِيلَةِ هِيَ اسْتِعَاذَةٌ مِنْ شَرِّ الْوَسَاوِسِ ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٤-٥].

وَهُوَ الشَّيْطَانُ الْمُوَكَّلُ بِالْإِنْسَانِ؛ فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا وَلَهُ قَرِينٌ يُزَيِّنُ لَهُ الْفَوَاحِشَ، وَلَا يَأْلُوا جُهْدًا فِي إِغْوَائِهِ، وَالمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

رَوَىٰ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ**، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١٣].

---

(١٢) ينظر: بدائع الفوائد ففيه كلام نفيس حول ذلك (٢/ ٢٤٨-٢٥٠).

(١٣) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبث سراياه لفتنة الناس ... (٢٨١٤)، والدارمي (٢٧٣٤)، وأحمد (١/ ٣٩٧)، وأبو يعلىٰ (٥١٤٣)، والبزار (١٨٧١)، وابن حبان (٦٤١٧)، وابن خزيمة (٦٥٨).
وجاء من حديث عائشة رضي الله عنها عند: مسلم (٢٨١٥)، والنسائي (٧/ ٧٢)، وأحمد (٦/ ١١٥).
ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند: أحمد (١/ ٢٥٧)، والضياء في المختارة (٤٣٩-٤٤٠)، وابن خزيمة (١٠٩٣).
=

وَشَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ لَهَا وَسْوَسَةٌ أَيْضًا؛ وَلِذَا قَالَ ﷻ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ٦].

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ أَنْ يَسْتَعِيذَ النَّاسُ بِرَبِّهِمْ وَمَلِكِهِمْ وَإِلَهِهِمْ مِنْ شَرِّ مَا يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِهِمْ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُطْلَبُ مِنْهُ الْخَيْرُ الَّذِي يَنْفَعُهُمْ، وَيُطْلَبُ مِنْهُ دَفْعُ الشَّرِّ الَّذِي يَضُرُّهُمْ، وَالْوَسْوَاسُ أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ يَضُرُّهُمْ؛ لِأَنَّهُ مَبْدَأٌ لِلْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، وَعُقُوبَاتُ الرَّبِّ إِنَّمَا تَكُونُ عَلَىٰ ذُنُوبِهِمْ»(١٤).

وَقَدْ جَاءَ فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُحَدِّثُ نَفْسِي بِالشَّيْءِ لَأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَىٰ الْوَسْوَسَةِ**»(١٥).

= ومن حديث جابر رضي الله عنه عند: الترمذي (١١٧٢)، والدارمي (٢٧٨٢)، وأحمد (٣/ ٣٠٩).
ومن حديث شريك بن طارق رضي الله عنه عند: ابن حبان (٦٤١٦)، والطبراني في الكبير (٧/ ٣٠٩) برقم (٧٢٢٢-٧٢٢٣).

(١٤) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٥١٤).

(١٥) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أحمد (١/ ٢٣٥)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٥٠٤)، وأبو داود في السنة، باب رد الوسوسة (٥١١٢)، ومحمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٧٧٩)، والخطابي في غريب الحديث (١/ ٦٤٦).
وجاء بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: مسلم (١٣٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٨٤)، وأحمد (٢/ ٣٩٧)، وابن حبان (١٤٥)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٥٠١)، وأبي يعلىٰ (٥٩١٤).
ومن حديث عائشة رضي الله عنها عند: أحمد (٦/ ١٠٦)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١٧٧٠).
ومن حديث أنس رضي الله عنه: عند أبي يعلىٰ (٤١٢٨).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ عَلَىٰ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ؛ فَإِنْ ذَكَرَ اللهَ خَنَسَ، وَإِنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ**» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَىٰ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(١٦).

فَسُورَةُ الْفَلَقِ تَضَمَّنَتِ الاسْتِعَاذَةَ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي هُوَ ظُلْمُ الْغَيْرِ لَهُ بِالسِّحْرِ وَالْحَسَدِ، وَهُوَ شَرٌّ يَأْتِيهِ مِنْ خَارِجِهِ، وَسُورَةُ النَّاسِ تَضَمَّنَتِ الاسْتِعَاذَةَ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي هُوَ سَبَبُ ظُلْمِ الْعَبْدِ نَفْسَهُ بِالشِّرْكِ وَالْبِدْعَةِ وَالْعِصْيَانِ وَهُوَ شَرٌّ مِنْ دَاخِلِهِ، سَبَبُهُ تَسَلُّطُ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِ بِالْوَسْوَسَةِ.

فَبَانَ أَنَّ فِي هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ الْمُوجَزَتَيْنِ تَحْصِينًا لِمَنْ حَافَظَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْأَعْدَاءِ كُلِّهِمْ: أَعْدَاءِ الدَّاخِلِ وَأَعْدَاءِ الْخَارِجِ، فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مَنْ يُرِيدُ السَّلَامَةَ وَالْحِفْظَ لِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ أَنْ يَأْخُذَ بِهَذَا الْحِرْزِ الْمَتِينِ، وَلَا سِيَّمَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي كَثُرَتْ فِيهِ الشُّرُورُ، وَعَظُمَ تَسَلُّطُ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَىٰ النَّاسِ بِالْوَسَاوِسِ وَالْأَوْهَامِ وَالتَّخَيُّلَاتِ، وَبِالْعَيْنِ وَالْحَسَدِ وَالسِّحْرِ وَأَنْوَاعِ الْمُؤْذِيَاتِ، وَالْحَافِظُ هُوَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَيُنَالُ حِفْظُهُ بِاتِّبَاعِ شَرْعِهِ، وَالْأَخْذِ بِحِرْزِهِ، وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِهِ؛ فَهُوَ ﷻ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَبِيَدِهِ سُبْحَانَهُ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ

---

(١٦) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعا: أبويعلىٰ (٤٣٠١)، والبيهقي في الشعب (٥٤٠)، والطبراني في الدعاء (١٨٦٢)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٦٨)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ٣١).

وأخرجه موقوفًا علىٰ ابن عباس ﷺ: عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٤١٠)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٥٥)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٣٩٣)، والبيهقي في الشعب (٦٧٦)، وصححه الحاكم، وقال: علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه (٢/ ٥٩٠)، وحديث أنس المرفوع لا يصح، ضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٤٩) بعدي ابن أبي عمارة. والموقوف أصح منه. والله أعلم.

وقد جاء عن قتادة -رحمه الله تعالىٰ- مثله أيضًا.

وقوله: واضع خطمه: أي: فمه وأنفه، والخطم من الطير منقاره، ومن الدابة مقدم أنفها وفمها. وقوله: خنس: أي: انقبض وتأخر. ينظر: فيض القدير للمناوي (١/ ٣١٤).

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ③ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ④ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ⑤ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١-٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



٢٣٢- من هدايات السنة النبوية (٥)(*) حديث الهوى

١٤/ ٥/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِمَّا يَعْتَنِي بِهِ عُقَلَاءُ الْبَشَرِ، وَيَحْرِصُونَ عَلَيْهِ: تَحْصِيلُ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَاجْتِنَابُ مَا يَضُرُّهُمْ، وَمَا يَنْفَعُ وَمَا يَضُرُّ يُدْرَكُ بِالْحِسِّ أَوْ بِالْفِطْرَةِ أَوْ بِالْعَقْلِ أَوْ بِالتَّجْرِبَةِ. وَلِلْمُسْلِمِ طَرِيقٌ يُدْرِكُ بِهَا مَا يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ، يَتَمَيَّزُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ الْبَشَرِ، وَهِيَ طَرِيقُ الْوَحْيِ الْمَحْفُوظِ، الَّذِي اخْتُصَّتْ بِهِ هَذِهِ

(*) من هدايات السنة النبوية (١) و(٢) و(٣) و(٤) تجدها في المجلد الأول خطب رقم: (٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨).

الْأُمَّةُ المُبَارَكَةُ، الْخَاتِمَةُ لِأُمَمِ التَّارِيخِ، وَالمُفَضَّلَةُ عَلَىٰ سَائِرِ الْأُمَمِ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١١٠].

وَالنَّبِيُّ ﷺ أَوْصَىٰ المُسْلِمَ بِأَنْ يَحْرِصَ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُهُ(١)، سَوَاءً كَانَ هَذَا النَّفْعُ مُتَعَلِّقًا بِأَمْرِ الدُّنْيَا، بِشَرْطِ أَلَّا يَضُرَّ بِالْآخِرَةِ، أَوْ كَانَ نَفْعًا شَامِلًا لِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَمَصَالِحُ الدُّنْيَا وَمَنَافِعُهَا قَدْ تَتَعَارَضُ مَعَ مَصَالِحِ الْآخِرَةِ؛ فَإِنْ قَدَّمَ الْعَبْدُ الْآخِرَةَ عَلَىٰ الدُّنْيَا فَازَ الْفَوْزَ الْأَبَدِيَّ بِالنَّعِيمِ المُقِيمِ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَإِنْ قَدَّمَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ خَسِرَ الْآخِرَةَ وَلَمْ يَنَلْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ.

وَالضَّرَرُ الْعَظِيمُ إِنَّمَا يَقَعُ عَلَىٰ الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ بِتَقْدِيمِ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ، وَيَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ: انْتِشَارُ المُنْكَرَاتِ، وَالِاسْتِهَانَةُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَعْطِيلُ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، مِمَّا يُؤَدِّي إِلَىٰ ظُهُورِ الْفِتَنِ، وَتَتَابُعِ الْمِحَنِ، وَسَلْبِ النِّعَمِ، وَحُلُولِ النِّقَمِ، وَتَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ مِنْ كُفَّارٍ وَمُنَافِقِينَ.

وَفِي حَدِيثٍ عَظِيمٍ يُرْشِدُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ مَا يَنْفَعُ؛ وَلَا سِيَّمَا فِي أَوْقَاتِ الْفِتَنِ وَاخْتِلَاطِ الْأَمْرِ، وَكَثْرَةِ الشَّرِّ، وَضَعْفِ الْخَيْرِ، وَتَشَعُّبِ الْآرَاءِ، وَافْتِرَاقِ النَّاسِ؛ قَالَ أَبُو أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ رضي الله عنه فَقُلْتُ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ: كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المَائِدَة: ١٠٥]؟ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «بَلِ

---

(١) وذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص علىٰ ما ينفعك ...**» أخرجه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩)، وأحمد (٢/ ٣٦٦-٣٧٠)، وأبو يعلىٰ (٦٢٥١-٦٣٤٦)، والنسائي في الكبرىٰ (١٤٠٥٧)، والبيهقي (١٠/ ٨٩).

ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ، وَتَنَاهُوا عَنِ المُنْكَرِ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًىٰ مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَىٰ الجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ»، قَالَ ابْنُ المُبَارَكِ: وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ بْنِ حَكِيمٍ: «قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: **أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**» رَوَاهُ الْأَرْبَعَةُ إِلَّا النَّسَائِيَّ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٢).

إِنَّ الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ شَأْنُهُ عَظِيمٌ، وَالمُؤْمِنُ الْحَقُّ لَا يَرْضَىٰ إِلَّا بِأَنْ يَهْدِيَ النَّاسَ، وَيَنْشُرَ الْخَيْرَ فِيهِمْ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ؛ وَلِذَلِكَ لَمَّا أَشْكَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَىٰ بَعْضِ مَنْ قَرَأَهَا، وَفَهِمُوا مِنْهَا تَعْطِيلَ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المَائِدَة: ١٠٥] كَأَنَّ السَّائِلَ يَقُولُ: أَمَا نَتْرُكُ الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ بِنَاءً عَلَىٰ ظَاهِرِ الْآيَةِ؟ أَزَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الإِشْكَالَ بِقَوْلِهِ: «**بَلِ ائْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ المُنْكَرِ**»؛ لِأَنَّ حَيَاةَ الْأُمَّةِ، وَحِفْظَهَا وَأَمْنَهَا وَاسْتِقْرَارَهَا؛ لَا يَكُونُ إِلَّا بِإِحْيَاءِ هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ.

---

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٤١)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة المائدة وقال: حسن غريب (٣٠٥٨)، وابن ماجه في الفتن، باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [المائدة: ١٠٥] (٤٠١٤)، والطبري في تفسيره (٧/ ٩٧)، ومحمد ابن نصر المروزي في السنة (٣١)، وأبو عمرو الداني في الفتن (٢٩٣-٢٩٤-٢٩٥)، والبيهقي (١٠/ ٩١)، والطبراني في مسند الشاميين (٧٥٣)، وفي المعجم الكبير (٢٢/ ٢٢٠) برقم (٥٨٧)، وابن أبي عاصم في الزهد (٢٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٠)، وابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ٣١٦)، وصححه ابن حبان (٣٨٥)، والحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٣٥٨)، والزيادة التي ذكرها ابن المبارك للترمذي.

وَلَكِنَّ الشَّرَّ إِذَا كَثُرَ غَلَبَ الْخَيْرَ، وَالْمُنْكَرَ إِذَا تَعَدَّدَ وَتَفَشَّىٰ قَوِيَ الدَّاعُونَ إِلَيْهِ، وَضَعُفَ النَّاهُونَ عَنْهُ، حَتَّىٰ يُبْتَلَىٰ مَنْ أَقَامَ هَذَا الرُّكْنَ الرَّكِينَ، وَرُبَّمَا فُتِنَ فِي دِينِهِ، فَإِذَا خَشِيَ الْمُؤْمِنُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَدِينِهِ؛ اهْتَمَّ بِأَمْرِ نَفْسِهِ، وَحِفْظِ دِينِهِ، وَتَقْوِيَةِ إِيمَانِهِ، وَثَبَاتِهِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا لَا يُطِيقُ مِنَ الْبَلَاءِ، وَحَاذَرَ الْفِتَنَ وَمَوَارِدَهَا؛ لِئَلَّا يَسْقُطَ فِيهَا مَعَ السَّاقِطِينَ «**حَتَّىٰ إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًىٰ مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَوَامِّ**» إِنَّهَا صِفَاتٌ تَنْتَشِرُ حَيْثُ يَفْسُدُ الزَّمَانُ، وَيَغْتَرِبُ الدِّينُ، وَتَكْثُرُ الْفِتَنُ، وَيَخْتَلِطُ أَمْرُ النَّاسِ.

وَالْإِنْسَانُ يُطِيعُ شُحَّهُ حِينَ لَا يُؤَدِّي الْحُقُوقَ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ فِيمَا رَزَقَهُ مِنْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الْحَشْر: ٩]، وَطَاعَةُ الشُّحِّ لَا تَكُونُ إِلَّا حِينَ يُؤْثِرُ الْإِنْسَانُ هَوَاهُ عَلَىٰ أَمْرِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَيُقَدِّمُ دُنْيَاهُ عَلَىٰ دِينِهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِمَّا أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضِلَّاتِ الْفِتَنِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٣].

وَأَخْبَرَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﵁: «أَنَّهُ فِي زَمَانِهِ كَانَ الْعَمَلُ قَائِدًا لِلْهَوَىٰ، وَسَيَأْتِي زَمَانٌ يَكُونُ الْهَوَىٰ قَائِدَ الْعَمَلِ»[٤].

---

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠-٤٢٣)، والبزار (٣٨٤٣-٣٨٤٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٢)، والبيهقي في الزهد الكبير (٣٧١)، والطبراني في الصغير (٥١١)، وعزاه الهيثمي لأحمد وقال: «ورجاله رجال الصحيح» مجمع الزوائد (٧/ ٣٠٦)، وفي موضع آخر عزاه للطبراني في معاجمه الثلاثة وقال: «ورجاله رجال الصحيح» (١/ ١٨٨).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٩) بلفظ: «إنكم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه» موقوفًا علىٰ ابن مسعود ﵁. قال ابن عبد البر في =

وَأَحْرَىٰ بِهِ أَنْ يَكُونَ فِي الْأَزْمَانِ الْمُتَأَخِّرَةِ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا الشَّرُّ، وَيَقِلُّ الْخَيْرُ، وَتَعْظُمُ الْفِتَنُ.

وَعَلِيٌّ رضي الله عنه خَافَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ طُولَ الْأَمَلِ، وَاتِّبَاعَ الْهَوَىٰ، وَقَالَ: «فَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ، وَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَىٰ فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ(٥).

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ: «أَفْلَحَ مِنْكُمْ مَنْ حُفِظَ مِنَ الْهَوَىٰ وَالْغَضَبِ وَالطَّمَعِ» رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ(٦).

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْهَوَىٰ؛ لِأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ» رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ(٧).

وَيَكُونُ الْإِنْسَانُ شَحِيحًا بِجَاهِهِ وَمَالِهِ، مُتَّبِعًا هَوَاهُ؛ إِذَا آثَرَ الدُّنْيَا عَلَىٰ دِينِهِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ فِي الْحَدِيثِ: «وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً» أَيْ: يُؤْثِرُهَا النَّاسُ عَلَىٰ أَمْرِ رَبِّهِمْ تبارك وتعالى.

وَمِمَّا يَنْتِجُ عَنْ هَذِهِ الْخِصَالِ الذَّمِيمَةِ، مِنَ الشُّحِّ، وَاتِّبَاعِ الْهَوَىٰ، وَإِيثَارِ الدُّنْيَا: إِعْجَابُ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ؛ لِأَنَّ الْمُسَيِّرَ لِلنَّاسِ حِينَئِذٍ مَا تَهْوَاهُ نُفُوسُهُمْ، وَمَا أُشْرِبَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَلَيْسَ مَا يَصْدُرُ عَنِ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ مِنْ كَلَامٍ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَبِذَلِكَ يَصِيرُ الْوَاحِدُ مِنَ الْعَامَّةِ يُفْتِي نَفْسَهُ

= الاستذكار (٢/ ٣٦٣): «هذا الحديث قد روي عن ابن مسعود من وجوه متصلة حسان متواترة» اهـ.

وقد جاء مرفوعًا بنحوه من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه عند: الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ١٩٧) برقم (٣١١١).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (٨٨١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٠٠)، والبيهقي في الشعب (١٠٦١٣).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٦٢)، والبيهقي في السنن (٣/ ٢١٥).

(٧) أخرجه الدارمي في سننه (٣٩٥).

فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ بِسَبَبِ هَوَاهُ!!

وَإِذَا مَا وَقَعَ ذَلِكَ، وَأَدْرَكَ الْمُسْلِمُ هَذَا الزَّمَنَ الَّذِي يَكُونُ النَّاسُ فِيهِ عَلَىٰ تِلْكَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ فَإِنَّهُ مَأْمُورٌ بِالْعِنَايَةِ بِنَفْسِهِ، وَالِاشْتِغَالِ بِصَلَاحِ قَلْبِهِ، وَإِعْرَاضِهِ عَنْ كُلِّ مَا يُخِلُّ بِذَلِكَ.

وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ الْحَدِيثِ قَالَ: «**وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَا بُدَّ لَكَ مِنْ طَلَبِهِ**»(٨) أَيْ: يَمِيلُ إِلَيْهِ هَوَاكَ وَنَفْسُكَ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّمِيمَةِ، فَإِنْ أَقَمْتَ بَيْنَ النَّاسِ وَقَعْتَ فِيهِ؛ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، وَاعْتَزِلِ النَّاسَ؛ حَذَرًا مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِ(٩).

وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَرَأَيْتَ أَمْرًا لَا يَدَانِ لَكَ بِهِ**»(١٠) أَيْ: أَمْرًا عَظِيمًا لَا طَاقَةَ لَكَ بِدَفْعِهِ وَرَدِّهِ، فَعَلَيْكَ بِأَمْرِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَوَامِّ، وَهَذَا الْأَمْرُ لَا يَقَعُ إِلَّا حِينَ تَشْتَدُّ الْفِتَنُ، وَيَخْتَلِطُ الْأَمْرُ، وَيَلْتَبِسُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَيَكْثُرُ الْقَوْلُ، وَيَقِلُّ الْعَمَلُ؛ وَلِذَلِكَ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْأَيَّامَ الَّتِي يَكُونُ النَّاسُ فِيهَا عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ الْمَذْكُورِ فِي الْحَدِيثِ هِيَ أَيَّامُ الصَّبْرِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَإِنَّ وَرَاءَكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ**» أَيْ: يُحْمَدُ فِيهَا الصَّبْرُ وَيُفَضَّلُ(١١)، فَمَنْ صَبَرَ فِيهِنَّ قَبَضَ عَلَىٰ الْجَمْرِ، أَيْ: مَشَقَّةُ الصَّابِرِ عَلَىٰ الْقَبَائِحِ وَالْمَحَارِمِ فِيهَا مِثْلُ مَشَقَّةِ الصَّابِرِ عَلَىٰ قَبْضِ الْجَمْرِ، مِنْ شِدَّتِهَا وَكَرْبِهَا، وَزُخْرُفِ الشَّهَوَاتِ فِيهَا، وَسُهُولَةِ الْوُصُولِ إِلَىٰ

---

(٨) هذه الرواية لحديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه عند الحاكم (٤/ ٣٥٨).

(٩) ينظر: شرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح (١٠/ ٣٢٦٤-٣٢٦٥).

(١٠) هذه الرواية لابن ماجه (٤٠١٤)، وأبي عمرو الداني (٢٩٣)، وفي رواية لأبي عمرو (٢٩٥) قال: «ورأيت أمرا لابد لك به». ومنه حديث النواس بن سمعان في شأن يأجوج ومأجوج «**قد أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم**» أي: لا قدرة ولا طاقة، وينظر: شرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح (١٠/ ٣٢٦٥).

(١١) شرح الطيبي المشكاة (١٠/ ٣٢٦٥).

الْمُحَرَّمَاتِ وَالمَعَاصِي(١٢)، وَهَذَا الْوَصْفُ يَكَادُ يَكُونُ وَاقِعًا فِي هَذَا الْعَصْرِ، بَلْ هُوَ وَاقِعٌ فِي أَكْثَرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ، نَسْأَلُ اللهَ الْعِصْمَةَ وَالْعَافِيَةَ، وَالمُوَافَاةَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ. «**لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: **أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**».

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ فَضِيلَةِ الصَّابِرِينَ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ، قَالَ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِالسَّلَامِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَيْسَ هَذَا عَلَىٰ إِطْلَاقِهِ، بَلْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ قَاعِدَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: أَنَّ الْأَعْمَالَ تَشْرُفُ بِثَمَرَاتِهَا، وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ الْغَرِيبَ فِي آخِرِ الْإِسْلَامِ كَالْغَرِيبِ فِي أَوَّلِهِ، وَبِالْعَكْسِ»(١٣).

وَلِذَلِكَ كَانَ السَّابِقُونَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ أَفْضَلَ مِمَّنْ تَأَخَّرَ إِسْلَامُهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ، رَضِيَ اللهُ عَنِ الْجَمِيعِ، وَالنَّفَقَةُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ أَفْضَلَ مِنَ النَّفَقَةِ بَعْدَ قُوَّتِهِ وَانْتِشَارِهِ ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ﴾ [الْحَدِيد: ١٠].

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ النَّفَقَاتِ مِنَ السَّابِقِينَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ أَثْمَرَتْ فِي نَشْرِ الْإِسْلَامِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا لَا يُثْمِرُ غَيْرُهَا، وَهَكَذَا كُلُّ الْأَعْمَالِ الْأُخْرَىٰ(١٤).

---

(١٢) ينظر: المصدر السابق (١٠/ ٣٢٦٥).

(١٣) ينظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٤٢٥-٤٢٦)، وعون المعبود (١١/ ٤٩٦).

ولا يعني ذلك أن من المتأخرين من يكون أفضل من الصحابة ﵃، بل الصحابة أفضل، قال الحافظ في الفتح (٧/ ٩) بعد ذكره طرفا من حديث أبي ثعلبة ﵁: «لا يدل علىٰ أفضلية غير الصحابة علىٰ الصحابة؛ لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، وأيضا فالأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلىٰ ما يماثله في ذلك العمل، فأما ما فاز به من شاهد النبي ﷺ من زيادة فضيلة المشاهدة فلا يعدله فيها أحد» اهـ.

(١٤) ينظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٤٢٦)، وعون المعبود (١١/ ٤٩٦).

وَكَمَا فُضِّلَ السَّابِقُونَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ؛ لِقِلَّةِ الْمُعِينِ، وَكَثْرَةِ الْعَدُوِّ، وَاشْتِدَادِ الْأَذَىٰ، وَمَشَقَّةِ الصَّبْرِ؛ فَكَذَلِكَ الْحَالُ إِذَا كَانَ آخِرُ الزَّمَانِ؛ حَيْثُ غُرْبَةُ الدِّينِ، وَفُشُوُّ الْمُنْكَرَاتِ، وَكَثْرَةُ الشَّرِّ، وَانْفِتَاحُ الْفِتَنِ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَحْفَظَنَا بِحِفْظِهِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ..

❊ ❊ ❊

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ سِمَاتِ الْفِتَنِ أَنَّ الْخَوْضَ فِيهَا يَشْغَلُ الْعَبْدَ عَمَّا يُصْلِحُهُ وَيَنْفَعُهُ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ؛ وَلِذَا أَرْشَدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ عِنَايَةِ الْمُسْلِمِ بِنَفْسِهِ إِذَا رَأَىٰ بَوَادِرَ ذَلِكَ فِي النَّاسِ مِنَ الشُّحِّ الْمُطَاعِ، وَالْهَوَىٰ الْمُتَّبَعِ، وَالدُّنْيَا الْمُؤْثَرَةِ، وَإِعْجَابِ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ.

وَفِي هَذَا الْعَصْرِ انْفَتَحَتْ فِتَنُ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ عَلَىٰ النَّاسِ، فَابْتُلُوا بِالنِّعْمَةِ وَالْخَيْرِ، كَمَا ابْتُلُوا بِالسُّوءِ وَالشَّرِّ، فَظَهَرَ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمُ الشُّحُّ الْمُطَاعُ الَّذِي

يَمْنَعُهُمْ مِنْ إِخْرَاجِ زَكَاةِ أَمْوَالِهِمْ، وَيَجْعَلُهُمْ لَا يَتَحَرَّوْنَ الْكَسْبَ الْحَلَالَ فِي تَنْمِيَةِ ثَرَوَاتِهِمْ.

وَأَمَّا الْهَوَىٰ الْمُتَّبَعُ؛ فَمَظَاهِرُهُ كَثِيرَةٌ فِي الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، وَأَهْلِ الْعِلْمِ وَأَهْلِ الْجَهْلِ، وَالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، لَا يَنْقَادُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِقَدْرِ مَا يَنْقَادُ لِهَوَىٰ نَفْسِهِ، وَشَهَوَاتِ بَطْنِهِ وَفَرْجِهِ، وَهَذَا أَدَّىٰ إِلَىٰ إِيثَارِهِمُ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ، فَفِيهَا يَتَنَافَسُونَ، وَمِنْ أَجْلِهَا يَخْتَصِمُونَ.

وَأَمَّا إِعْجَابُ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ؛ فَعَلَامَةُ سُوءٍ وَشَرٍّ، تُؤَدِّي إِلَىٰ الِاخْتِلَافِ وَالشِّقَاقِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَهَذَا الْعَصْرُ صَارَ يُسَمَّىٰ عَصْرَ الرَّأْيِ الْحُرِّ، وَكُتَّابُهُ وَمُثَقَّفُوهُ وَإِعْلَامِيُّوهُ يُرَبُّونَ النَّاسَ عَلَىٰ تَحَرُّرِ الْكَلِمَةِ مِنْ أَيِّ ضَوَابِطَ دِينِيَّةٍ أَوْ أَخْلَاقِيَّةٍ أَوْ عُرْفِيَّةٍ، وَهَلْ هَذَا التَّوَجُّهُ إِلَّا تَرْبِيَةٌ عَلَىٰ إِعْجَابِ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ؟! وَإِنَّمَا يَنْشَأُ الِاخْتِلَافُ وَالِافْتِرَاقُ، وَتَعْظُمُ الْفِتَنُ بِالْإِعْجَابِ بِالْآرَاءِ، دُونَ ضَبْطِ كُلِّ رَأْيٍ بِضَوَابِطِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

لَقَدْ أَضْحَتْ كَثِيرٌ مِنْ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ فِي مُحَاوَرَاتِهَا وَمُنَاظَرَاتِهَا، وَالْعَدِيدِ مِنْ بَرَامِجِهَا؛ تُكَرِّسُ إِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، وَتُعَظِّمُ مَسْأَلَةَ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ، وَتُعَنِّفُ عَلَىٰ مَنْ يُرِيدُ ضَبْطَ الرَّأْيِ بِضَوَابِطِ الشَّرْعِ.

وَنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ: الْخُصُومَاتُ وَالْمُهَاتَرَاتُ، وَالسِّبَابُ وَالشَّتَائِمُ، وَتَصْدِيرُ الْأَكَاذِيبِ، وَتَرْوِيجُ الْإِشَاعَاتِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْقَنَوَاتِ الْإِعْلَامِيَّةِ؛ فَكُلُّ وَاحِدٍ مُعْجَبٌ بِرَأْيِهِ، وَيُرِيدُ إِثْبَاتَهُ، وَلَوْ كَانَ مُجَافِيًا لِلْحَقَائِقِ، مُصَادِمًا لِلشَّرَائِعِ.

وَرَغْمَ كَثْرَةِ الْبَرَامِجِ الْحِوَارِيَّةِ، وَتَشَعُّبِ الْآرَاءِ وَاخْتِلَافِهَا؛ فَإِنَّنَا مَا سَمِعْنَا عَنْ وَاحِدٍ اعْتَرَفَ فِي نِهَايَةِ حِوَارٍ أَنَّ الْحَقَّ مَعَ خَصْمِهِ؛ أَوْ أَنَّهُ أَخْطَأَ فِي تَصَوُّرِهِ؛ إِذْ لَيْسَ الْمَقْصُودُ فِي كَثِيرٍ مِمَّا يُلْقَىٰ عَلَىٰ النَّاسِ الْوُصُولَ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَإِنَّمَا إِثْبَاتُ

الرَّأْيِ، وَإِقْنَاعُ النَّاسِ بِهِ وَلَوْ كَانَ خَطأً وَبَاطِلًا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْغِشِّ وَالْخِدَاعِ وَالْخِيَانَةِ، وَتَضْيِيعِ أَمَانَةِ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَيُسْأَلُ عَنْهَا الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ وُقُوعِ ذَلِكَ، وَأَرْشَدَ مَنْ أَدْرَكَ زَمَانَ الاخْتِلَافِ، وَتَضْيِيعِ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ الاهْتِمَامِ بِشَأْنِهِ وَتَرْكِ النَّاسِ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ زَمَانٌ يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيهِ غَرْبَلَةً، تَبْقَىٰ حُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ، وَاخْتَلَفُوا فَكَانُوا هَكَذَا**، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَقَالُوا: وَكَيْفَ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **تَأْخُذُونَ مَا تَعْرِفُونَ، وَتَذَرُونَ مَا تُنْكِرُونَ، وَتُقْبِلُونَ عَلَىٰ أَمْرِ خَاصَّتِكُمْ، وَتَذَرُونَ أَمْرَ عَامَّتِكُمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ[١٥].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَاثْبُتُوا عَلَىٰ دِينِكُمْ، وَاحْذَرُوا الشُّحَّ الْمُطَاعَ، وَالْهَوَىٰ الْمُتَّبَعَ، وَإِيثَارَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ، وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ وَالْعُجْبَ بِآرَائِكُمْ؛ فَكَمْ مِنْ رَأْيٍ كَانَ خَطأً، جَرَّ عَلَىٰ صَاحِبِهِ وَبَالًا كَثِيرًا.

نَسْأَلُ اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، وَالسَّلَامَةَ مِنَ الْأَهْوَاءِ وَالْفِتَنِ، وَالْمُوَافَاةَ عَلَىٰ الْحَقِّ وَالرَّشَادِ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.

❊ ❊ ❊

---

(١٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢١)، وأبو داود في الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٤٢)، وابن ماجه في الفتن، باب التثبت في الفتنة (٣٩٥٧)، ونعيم بن حماد في الفتن (٦٩٣)، وأبو عمرو الداني في الفتن (٢٥٣)، والحاكم وصححه وقال: علىٰ شرط الشيخين (٢/ ١٧١).

قال السيوطي -رحمه الله تعالىٰ-: «إشارة إلىٰ أنه يهلك الصلحاء، ويبقىٰ ما لا منفعة فيه، كما أن الغربال ينقي الدقيق ويبقي الحثالة بلا منفعة» شرح سنن ابن ماجه (١/ ٢٨٤).

٢٣٣- من هدايات السنة النبوية (٦) حديث الطاعة

٣/ ٨/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: عِنْدَمَا يَكْثُرُ الشَّرُّ، وَيَخْتَلِطُ الْأَمْرُ، وَتَعْظُمُ الْمِحَنُ، وَتُفْتَحُ أَبْوَابُ الْفِتَنِ، وَتَشْتَدُّ حَيْرَةُ أَكْثَرِ النَّاسِ؛ فَإِنَّ الْمَخْرَجَ يَكُونُ فِي اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنَ الْهُدَىٰ، وَمَا سَنَّ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْعَمَلِ.

وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ قَدْ جَاءَ فِيهِمَا الدَّوَاءُ الشَّافِي، وَالْعِلَاجُ النَّاجِعُ لِكُلِّ الْأَدْوَاءِ وَالْمُشْكِلَاتِ، فِي كُلِّ الْأَمَاكِنِ وَالْأَزْمَانِ، وَلِكُلِّ الْأُمَمِ وَالْأَفْرَادِ.

وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ الْمُعَاصِرَةِ سِيَاسِيَّةً كَانَتْ أَمِ اقْتِصَادِيَّةً أَمِ اجْتِمَاعِيَّةً سَبَبُهَا

الرَّئِيسُ: الْبُعْدُ عَمَّا يُحِبُّهُ اللهُ تَعَالَىٰ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، ثُمَّ عُولِجَتْ بِغَيْرِ هَدْيِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِنَّمَا بِأَهْوَاءِ الْبَشَرِ وَاجْتِهَادَاتِهِمْ وَتَخَبُّطَاتِهِمْ، فَزَادُوهَا تَفَاقُمًا وَاضْطِرَابًا؛ حَتَّىٰ قَلَّ الْأَمْنُ فِي الْأَرْضِ، وَعَظُمَ الْخَوْفُ، وَكَثُرَ الظُّلْمُ، وَاعْتَدَتْ دُوَلٌ عَلَىٰ دُوَلٍ، وَأُمَمٌ عَلَىٰ أُمَمٍ، وَأَضْحَىٰ الْعَالَمُ الْمُعَاصِرُ كَالْغَابَةِ الْمُوحِشَةِ يَأْكُلُ قَوِيُّهَا ضَعِيفَهَا، وَيَتَسَلَّطُ قَادِرُهَا عَلَىٰ عَاجِزِهَا؛ إِنْ سِيَاسِيًّا أَوِ اقْتِصَادِيًّا أَوْ ثَقَافِيًّا.

أَفْرَزَ هَذَا الْوَاقِعُ الْبَئِيسُ مَوْجَاتٍ مِنَ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ، وَالتَّكْفِيرِ بِلَا دَلِيلٍ، وَالتَّخْرِيبِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَقَتْلِ النُّفُوسِ الْمَعْصُومَةِ، وَإِتْلَافِ الْأَمْوَالِ الْمُحْتَرَمَةِ، كَمَا نَتَجَ عَنْهُ انْتِشَارُ ظَوَاهِرِ الْإِرْجَاءِ وَالتَّخْذِيلِ، وَالطَّعْنِ فِي الدِّينِ، وَضَاعَ كَثِيرٌ مِنَ الْحَقِّ فِي خِضَمِّ هَذِهِ الْأَمْوَاجِ الْعَاتِيَةِ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ، وَالْبَلَايَا وَالْفِتَنِ.

وَفِي حَدِيثٍ عَظِيمٍ يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ الْعَمَلَ الْمُنْجِي فِي هَذِهِ الْأَجْوَاءِ الْمُعْتِمَةِ، وَالْفِتَنِ الْمُتَلَاطِمَةِ؛ لِيَنْجُوَ الْمُسْلِمُ بِنَفْسِهِ، وَيَسْلَمَ لَهُ دِينُهُ؛ فَمَا أَحْوَجَ كُلَّ مُسْلِمٍ إِلَىٰ قِرَاءَةِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ!

قَالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ رضي الله عنهما: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: **نَعَمْ**، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: **نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ**، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: **قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: **نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: **هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**، قُلْتُ: فَمَا

تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: **تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: **فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّىٰ يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ حُذَيْفَةَ وَأَرْضَاهُ؛ لَقَدْ كَانَ أَعْلَمَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْفِتَنِ وَأَحْوَالِهَا وَأَسْبَابِهَا، وَسُبُلِ النَّجَاةِ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ دَاوَمَ عَلَىٰ سُؤَالِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ حَزْمِهِ وَحَذَرِهِ، وَاحْتِيَاطِهِ لِنَفْسِهِ؛ فَقَدْ كَانَ يَتَوَقَّعُ مَوْتَ النَّبِيِّ ﷺ فَيَتَغَيَّرُ الْحَالُ، وَتَخْتَلِفُ الْأُمَّةُ، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ، وَوَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنَّ رضي الله عنه(٢).

وَلِذَلِكَ قَالَ: «وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَعَرَفْتُ أَنَّ الْخَيْرَ لَنْ يَسْبِقَنِي»(٣).

وَالْحَدِيثُ جَاءَ فِيهِ بَيَانُ الْمَرَاحِلِ الزَّمَنِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الْخَيْرُ، وَالَّتِي يَكُونُ فِيهَا الشَّرُّ؛ فَزَمَنُ الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ مَرْحَلَةَ الشَّرِّ الْخَالِصِ، ثُمَّ بِبَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَانْتِشَارِ دِينِهِ، وَإِقَامَةِ دَوْلَتِهِ؛ كَانَ زَمَنُ الْخَيْرِ الْخَالِصِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٦٦٧٣)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال، وتحريم الخروج علىٰ الطاعة ومفارقة الجماعة (١٨٤٧)، وابن ماجه في الفتن، باب العزلة (٣٩٧٩)، والنسائي في الكبرىٰ (٨٠٣٢)، وأحمد (٥/ ٤٠٦)، والطيالسي (٤٤٢)، وابن حبان (٩٦٣)، والحاكم وقال: «هذا حديث مخرج في الصحيحين هكذا، وقد خرجاه مختصرا من حديث الزهري عن أبي إدريس الخولاني، وإنما خرجته في كتاب العلم؛ لأني لم أجد للشيخين حديثا يدل علىٰ أن الإجماع حجة غير هذا ..» (١/ ١٩٧)، والبيهقي (٨/ ١٥٦).

(٢) ذكر ذلك القرطبي في المفهم وقال: «وفيه دليل علىٰ فرض المسائل، والكلام عليها قبل وقوعها إذا خيف موت العالم» (٤/ ٥٥).

(٣) هذه الرواية للنسائي في الكبرىٰ (٨٠٣٢)، وأحمد (٥/ ٣٨٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٤٤٧)، وصححها ابن حبان (٥٩٦٣).

حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: «إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَنَحْنُ فِيهِ، فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ»(٤).

وَهَذَا الشَّرُّ المَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ هُوَ مَا وَقَعَ بَعْدَ مَقْتَلِ عُمَرَ رضي الله عنه مِنَ الْخُرُوجِ عَلَىٰ عُثْمَانَ رضي الله عنه وَقَتْلِهِ، وَمَا اسْتَتْبَعَ ذَلِكَ مِنْ فِتَنٍ وَحُرُوبٍ قُتِلَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

ثُمَّ كَانَ بَعْدَ هَذَا الشَّرِّ الْعَظِيمِ وَالْفِتَنِ الْكَبِيرَةِ خَيْرٌ فِيهِ دَخَنٌ، وَهُوَ مَا وَقَعَ فِي خِلَافَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بَعْدَ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه مِنِ اسْتِقْرَارِ المُلْكِ فِيهِمْ، وَأَمْنِ النَّاسِ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، مَعَ وُقُوعِ الظُّلْمِ مِنْ بَعْضِ وُلَاتِهِمْ؛ كَزِيَادِ بْنِ أَبِيهِ وَالْحَجَّاجِ ابْنِ يُوسُفَ وَغَيْرِهِمَا(٥).

---

(٤) هذه الرواية لمسلم (١٨٤٧)، والبيهقي (٨/ ١٥٧).

(٥) قال القاضي عياض: «المراد بالشر الأول: الفتن التي وقعت بعد عثمان، والمراد بالخير الذي بعده: ما وقع في خلافة عمر بن عبدالعزيز، والمراد بالذين تعرف منهم وتنكر: الأمراء بعده، فكان فيهم من يتمسك بالسنة والعدل، وفيهم من يدعو إلىٰ البدعة ويعمل بالجور» ينظر: شرح النووي (١٢/ ٣٢٨)، وفتح الباري (١٣/ ٤٠).

وتعقبه القرطبي في المفهم وقال: «وفيه بعد، بل الأولىٰ أن الإشارة بذلك إلىٰ مدة خلافة معاوية؛ فإنها كانت تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر، وهي مدة الهدنة التي كان فيها الدخن؛ لأنه لما بايع الحسن معاوية، واجتمع الناس عليه؛ كره ذلك كثير من الناس بقلوبهم، وبقيت الكراهة فيهم، ولم تمكنهم المخالفة في مدة معاوية، ولا إظهارها إلىٰ زمن يزيد بن معاوية، فأظهرها كثير من الناس، ومدة خلافة معاوية كان الشر فيها قليلا، والخير غالبا، فعليهم يصدق قوله عليه الصلاة والسلام: «تعرف منهم وتنكر»، وأما خلافة ابنه فهي أول الشر الثالث، فيزيد وأكثر ولاته ومن بعده من خلفاء بني أمية هم الذين يصدق عليهم أنهم «دعاة علىٰ أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها»، فإنهم لم يسيروا بالسواء، ولا عدلوا في القضاء، يدل علىٰ ذلك: تصفح أخبارهم، ومطالعة سيرهم، ولا يعترض علىٰ هذا بمدة خلافة عمر بن عبدالعزيز بأنها كانت خلافة عدل؛ لقصرها وندورها في بني أمية، فقد كانت سنتين وخمسة أشهر، فكأن هذا الحديث لم يتعرض لها، والله تعالىٰ أعلم» اهـ من المفهم (٤/ ٥٦). =

وَهَكَذَا كَانَ حَالُ الدُّوَلِ الْمُتَتَابِعَةِ بَعْدَ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ إِلَىٰ يَوْمِنَا هَذَا، فِيهَا خَيْرٌ وَشَرٌّ؛ فَخَيْرُهَا مَا قَامَتْ بِهِ مِنَ الدِّينِ، وَشَرُّهَا مَا حَادَتْ عَنْهُ، يَزِيدُ ذَلِكَ تَارَةً وَيَنْقُصُ أُخْرَىٰ بِحَسَبِ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ وَالْأَحْوَالِ وَالْوُلَاةِ؛ فَفِي بَعْضِ الدُّوَلِ يَغْلِبُ الْخَيْرُ الشَّرَّ، وَفِي أُخْرَىٰ يَكُونُ الْعَكْسُ؛ وَلِذَا لَمَّا قَالَ حُذَيْفَةُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ**»، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «**قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**»، فَمَا يُعْرَفُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ هُوَ الْخَيْرُ، وَمَا يُنْكَرُ مِنْهَا هُوَ الشَّرُّ، فَلَيْسَ ثَمَّةَ خَيْرٌ خَالِصٌ، وَلَا شَرٌّ خَالِصٌ، وَالْوَاجِبُ إِنْكَارُ الشَّرِّ حَسَبَ الْقُدْرَةِ؛ لِمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عِنْدَ مُسْلِمٍ: «**فَمَنْ أَنْكَرَ بَرِئَ، وَمَنْ كَرِهَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**»(٦).

وَكُلَّمَا بَعُدَ النَّاسُ عَنْ زَمَنِ النُّبُوَّةِ كَثُرَ الْفَسَادُ، وَقَلَّ الصَّلَاحُ بِسَبَبِ تَفَشِّي الْجَهْلِ بِالدِّينِ، وَغَلَبَةِ الْهَوَىٰ، وَإِيثَارِ الدُّنْيَا، قَالَ حُذَيْفَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: **نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ**

= قلت: في كلام القرطبي تحامل كبير علىٰ بني أمية، ولا سيما الحكم بأنهم دعاة علىٰ أبواب جهنم، وتنزيل الحديث عليهم، وفي ذلك نظر لا يخفىٰ.
وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٠): «والذي يظهر أن المراد بالشر الأول: ما أشار إليه من الفتن الأولىٰ، وبالخير: ما وقع من الاجتماع مع علي ومعاوية. (قلت: هكذا في الفتح في كل النسخ التي بين يدي، فلعله سبق قلم؛ لأن الاجتماع إنما كان بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما) وبالدخن: ما كان في زمنهما من بعض الأمراء كزياد بالعراق، وخلاف من خالف عليه من الخوارج، وبالدعاة علىٰ أبواب جهنم: من قام في طلب الملك من الخوارج وغيرهم، وإلىٰ ذلك الإشارة بقوله: «الزم جماعة المسلمين وإمامهم» يعني: ولو جار» اهـ.

(٦) أخرجه مسلم في الإمارة، باب وجوب الإنكار علىٰ الأمراء فيما يخالف الشرع، وترك قتالهم ما صلوا (١٨٥٤)، وأبو داود في السنة، باب في قتل الخوارج (٤٧٦٠)، والترمذي في الفتن، باب (٧٨)، وقال الترمذي: حديث صحيح (٢٢٦٥)، وأحمد (٦/ ٢٩٥)، وابن راهويه (١٠٦)، وأبو يعلىٰ (٦٩٨٠)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٦٩).

فِيهَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: **هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**».

وَقَدْ ذَكَرَ شُرَّاحُ الْحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ هِيَ لِلْمُنَافِقِينَ، وَلِأَصْحَابِ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ؛ كَالْخَوَارِجِ الَّذِينَ يُنَازِعُونَ السَّلَاطِينَ فِي سُلْطَانِهِمْ، وَيَخْرُجُونَ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ الْمُلْكِ وَالدُّنْيَا لَا غَيْرَةً لِلدِّينِ(٧).

وَقَدْ رُوِيَ فِي حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكْنِي زَمَانٌ، وَلَا تُدْرِكُوا زَمَانًا لَا يُتْبَعُ فِيهِ الْعَلِيمُ، وَلَا يُسْتَحَىٰ فِيهِ مِنَ الحَلِيمِ، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْأَعَاجِمِ، وَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ الْعَرَبِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(٨).

وَمَنْ أَدْرَكَ زَمَنَ الدُّعَاةِ إِلَىٰ النَّارِ مِنَ المُنَافِقِينَ، وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالِ؛ فَهُوَ مَأْمُورٌ بِالِاسْتِمْسَاكِ بِدِينِهِ، وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، قَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: «فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: **تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: **فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّىٰ يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ**».

وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامِهِمْ لَيْسَتْ مَحَلَّ اخْتِيَارٍ وَبَحْثٍ، أَوْ إِبَاحَةٍ وَنَدْبٍ؛ بَلْ هُوَ وَاجِبٌ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِ حِينَ الِافْتِرَاقِ، وَحِكْمَةُ ذَلِكَ: تَحْجِيمُ أَمْرِ

---

(٧) نزل القرطبي في المفهم هذه الأوصاف علىٰ بني أمية كما مضىٰ سياق كلامه في الهامش(٥)، ونقل الحافظ عن القابسي: «أنهم في الظاهر علىٰ ملتنا وفي الباطن مخالفون» انظر: الفتح (١٣/ ٤٠).

وقال النووي في شرحه علىٰ مسلم (١٢/ ٣٢٩): «قال العلماء: هؤلاء من كان من الأمراء يدعو إلىٰ بدعة أو ضلال آخر كالخوارج والقرامطة وأصحاب المحنة» اهـ.

(٨) أخرجه أحمد من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه (٥/ ٣٤٠)، وفي سنده جميل الأسلمي مجهول، وابن لهيعة سيئ الحفظ، وأخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٥٥٥).

الْفِتْنَةِ، وَإِضْعَافُ أَثَرِهَا، وَتَقْلِيلُ شَرِّهَا، وَلِأَنَّ الْجَمَاعَةَ أَقْرَبُ إِلَىٰ الْحَقِّ؛ فَإِنَّ الْأُمَّةَ لَا تَجْتَمِعُ عَلَىٰ ضَلَالَةٍ.

فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهُوَ مُفَارِقٌ لِلْجَمَاعَةِ، مُخَالِفٌ لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ فِي هَذَا الشَّأْنِ الْعَظِيمِ.

قَالَ الطَّبَرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَالصَّوَابُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْخَبَرِ: لُزُومُ الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ فِي طَاعَةِ مَنِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ تَأْمِيرِهِ؛ فَمَنْ نَكَثَ بَيْعَتَهُ خَرَجَ عَنِ الْجَمَاعَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ مَتَىٰ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ إِمَامٌ فَافْتَرَقَ النَّاسُ أَحْزَابًا فَلَا يَتْبَعُ أَحَدًا فِي الْفُرْقَةِ، وَيَعْتَزِلُ الْجَمِيعَ إِنِ اسْتَطَاعَ ذَلِكَ؛ خَشْيَةً مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشَّرِّ، وَعَلَىٰ ذَلِكَ يَتَنَزَّلُ مَا جَاءَ فِي سَائِرِ الْأَحَادِيثِ، وَبِهِ يَجْتَمِعُ مَا ظَاهِرُهُ الِاخْتِلَافُ مِنْهَا»(٩).

وَقَالَ ابْنُ بَطَّالٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «فِيهِ حُجَّةٌ لِجَمَاعَةِ الْفُقَهَاءِ فِي وُجُوبِ لُزُومِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَرْكِ الْخُرُوجِ عَلَىٰ أَئِمَّةِ الْجَوْرِ؛ لِأَنَّهُ وَصَفَ الطَّائِفَةَ الْأَخِيرَةَ -أَيِ الْخَارِجَةَ عَلَىٰ الْإِمَامِ- بِأَنَّهُمْ دُعَاةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، وَلَمْ يَقُلْ فِيهِمْ: تَعْرِفُ وَتُنْكِرُ كَمَا قَالَ فِي الْأَوَّلِينَ، وَهُمْ لَا يَكُونُونَ كَذَلِكَ إِلَّا وَهُمْ عَلَىٰ غَيْرِ حَقٍّ، وَأَمَرَ مَعَ ذَلِكَ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ» اهـ(١٠).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُبَصِّرَنَا بِالْحَقِّ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا اتِّبَاعَهُ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا الْبَاطِلَ وَالْفِتَنَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَأَنْ يَحْفَظَ لَنَا دِينَنَا وَدُنْيَانَا، وَأَنْ يُسْبِغَ عَلَيْنَا نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ . .

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

---

(٩) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٤١).

(١٠) شرح ابن بطال (١٠/ ١٠)، وعنه ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤١).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تَتَجَلَّىٰ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ الْبَالِغَةُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ؛ إِذْ أَقَامَ سُبْحَانَهُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ عِبَادِهِ فِيمَا شَاءَ، فَحَبَّبَ إِلَىٰ أَكْثَرِ الصَّحَابَةِ ﷺ السُّؤَالَ عَنْ وُجُوهِ الْخَيْرِ؛ لِيَعْمَلُوا بِهَا، وَيُبَلِّغُوهَا غَيْرَهُمْ، وَحَبَّبَ لِحُذَيْفَةَ ﷺ السُّؤَالَ عَنِ الشَّرِّ؛ لِيَجْتَنِبَهُ، وَلِيَكُونَ سَبَبًا فِي دَفْعِهِ عَمَّنْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ النَّجَاةَ بِالْعَمَلِ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَأَمْثَالِهِ(١١).

وَيُبْرِزُ هَذَا الْحَدِيثُ خُطُورَةَ الْفِتَنِ، وَمَا يَنْتِجُ عَنْ مُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ، وَشَقِّ عَصَا الطَّاعَةِ مِنَ الشَّرِّ الْعَظِيمِ، وَالْإِثْمِ الْكَبِيرِ حَتَّىٰ عُدَّ أَصْحَابُهُ: دُعَاةً عَلَىٰ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، وَإِذَا كَانَ الْمُسْلِمُ مُحْتَاجًا إِلَىٰ فِقْهِ هَذَا الْحَدِيثِ فِي كُلِّ وَقْتٍ فَهُوَ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ حَالَ تَفَاقُمِ الْفِتَنِ، وَاخْتِلَاطِ الْأَمْرِ، وَالْتِبَاسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ.

وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ، وَطَاعَةُ السُّلْطَانِ الْمُسْلِمِ الَّذِيْ لَمْ يَنْقُضْ إِيمَانَهُ، وَتَحْرِيمُ الْخُرُوجِ عَلَيْهِ حَتْمٌ وَاجِبٌ، وَدِينٌ يَدِينُ الْمُسْلِمُ بِهِ لِرَبِّهِ، فِي سِرِّهِ وَعَلَنِهِ، وَعُسْرِهِ وَيُسْرِهِ، وَمَنْشَطِهِ وَمَكْرَهِهِ، وَفِي حَالِ الْأَثَرَةِ عَلَيْهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ دِينًا خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، لَا لِأَجْلِ دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ مَالٍ يُرِيدُهُ، أَوْ إِرْضَاءً لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّىٰ

(١١) نقله الحافظ في الفتح (١٣/ ٤١) عن ابن أبي جمرة.

إِذَا مَا انْتُقِصَتْ دُنْيَاهُ، أَوْ خَلَا بِنَفْسِهِ، أَوْ رَأَىٰ تَبَدُّلَ الْأَحْوَالِ؛ نَكَثَ بَيْعَتَهُ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَهَذَا أَطَاعَ لِأَجْلِ الدُّنْيَا، وَنَكَثَ لِأَجْلِهَا، فَهُوَ عَبْدٌ لَهَا وَلِأَهْلِهَا.

وَالرِّوَايَةُ الْأُخْرَىٰ لِلْحَدِيثِ تَدُلُّ النَّاسَ عَلَىٰ وُجُوبِ الطَّاعَةِ، وَلُزُومِ الْجَمَاعَةِ، حَتَّىٰ لَوِ انْتُقِصَ شَيْءٌ مِنْ دُنْيَاهُمْ، أَوْ أُخِذَتْ أَمْوَالُهُمْ، أَوْ ظُلِمُوا بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ؛ كَمَا جَاءَ فِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ أَنَّ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: «فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: **نَعَمْ**، قُلْتُ: كَيْفَ؟ قَالَ: **يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ**، قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: **تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**»، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْحَاكِمِ قَالَ: «**تَسْمَعُ لِلْأَمِيرِ الْأَعْظَمِ وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ**»(١٢).

وَمِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَغْضَبُ إِلَّا لِأَجْلِ الدُّنْيَا إِذَا أُوثِرَ بِهَا غَيْرُهُ، وَمُنِعَ هُوَ مِنْهَا؛ حَتَّىٰ تَرَاهُمْ يَفْرُونَ لُحُومَ الْوُلَاةِ وَالْعُلَمَاءِ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ، وَخَاصَّةً بَعْدَ الِانْفِتَاحِ الْإِعْلَامِيِّ، وَانْتِشَارِ دُعَاةِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَاللِّيبْرَالِيَّةِ الَّذِينَ يَرُدُّونَ تِلْكَ الْأَحَادِيثَ بِمَحْضِ أَهْوَائِهِمْ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا تُكَرِّسُ الْخُنُوعَ وَالْعُبُودِيَّةَ، وَأَنَّهَا سَبَبٌ لِلْفَسَادِ السِّيَاسِيِّ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ، وَيُطَالِبُونَ الشُّعُوبَ الْمُسْلِمَةَ بِالثَّوْرَةِ وَلَوْ بِلَا قُدْرَةٍ؛ لِتَكُونَ الْفَوْضَىٰ وَسَفْكُ الدِّمَاءِ، عَلَىٰ غِرَارِ مَا حَدَثَ عِنْدَ الْغَرْبِيِّينَ إِبَّانَ ثَوْرَةِ الْحُرِّيَّةِ.

بَلْ رَاحَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَطْعَنُونَ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ تِلْكَ الْأَحَادِيثَ قَدْ كُذِبَتْ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَوُضِعَتْ فِي ظُرُوفٍ سِيَاسِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ لِإِخْضَاعِ النَّاسِ لِحُكْمِ بَنِي أُمَيَّةَ، وَهَذَا زَعْمٌ بَذِيءٌ، وَاتِّهَامٌ صَفِيقٌ، يَدُلُّ عَلَىٰ جَهْلِ أَصْحَابِهِ،

---

(١٢) الرواية الأولىٰ لمسلم (١٨٤٧)، والرواية الثانية للحاكم (٤/ ٥٤٧).

وَضَحَالَةِ عِلْمِهِمْ بِالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ؛ إِذْ لَازِمُ ذَلِكَ هَدْمُ السُّنَّةِ كُلِّهَا، وَالطَّعْنُ فِي عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ وَنَقَلَةِ الْآثَارِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَالْأَئِمَّةِ الْحُفَّاظِ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ تِلْكَ الْأَحَادِيثَ جَاءَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا أَصَحُّ الْكُتُبِ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالطَّعْنُ فِيهِمَا طَعْنٌ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَدُّ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَدٌّ لِلشَّرِيعَةِ كُلِّهَا!! فَمَاذَا يَبْقَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ دِينِهِمْ إِنْ أُلْغِيَتْ سُنَّةُ نَبِيِّهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟!

وَالِانْفِتَاحُ الْإِعْلَامِيُّ قَدْ سَرَّبَ مِثْلَ هَذَا الطَّعْنِ فِي السُّنَّةِ، حَتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ النَّاسِ فِي بُيُوتِهِمْ وَمَكَاتِبِهِمْ عَبْرَ الْبَثِّ الْفَضَائِيِّ، أَوِ الشَّبَكَةِ الْعَالَمِيَّةِ، فِي مُنَاظَرَاتٍ سِيَاسِيَّةٍ، أَوْ بَرَامِجَ فِكْرِيَّةٍ، أَوْ مُنْتَدَيَاتٍ حِوَارِيَّةٍ.

وَالْوَاجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ تَعْظِيمُ مَا عَظَّمَهُ اللهُ ﷻ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَدَاءُ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ الَّتِي قَرَّرَتْهَا الْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، وَلَوْ كَرِهَتْ بَعْضُ النُّفُوسِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ يَكُونُ مُؤْمِنًا إِذَا خَالَفَ هَوَاهُ؛ اتِّبَاعًا لِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَعْظِيمًا لِأَمْرِهِ.

وَفَسَادُ الْقُلُوبِ وَتَشَرُّبُهَا بِالْفِتْنَةِ يَكُونُ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ اتِّبَاعًا لِهَوَىٰ النُّفُوسِ، أَوْ تَقْلِيدًا لِأَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالضَّلَالِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَدُّوا مَا عَلَيْكُمْ مِنْ حُقُوقٍ، وَسَلُوا اللهَ الَّذِي لَكُمْ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا لِمَنْ وَلَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَمْرَكُمْ فِي غَيْرِ الْمَعْصِيَةِ **«فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ»**(١٣)، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ سَيُحَاسِبُ اللهُ

---

(١٣) كما في حديث سلمة بن يزيد الجعفي أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: «يا نبي الله، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم، ويمنعونا حقنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه ثم سأله في الثانية أو في الثالثة، فجذبه الأشعث بن قيس وقال: **اسمعوا** =

تَعَالَىٰ كُلَّ عَبْدٍ عَنْ عَمَلِهِ لَا عَنْ عَمَلِ غَيْرِهِ.

وَمَنْ رَأَىٰ شَيْئًا يَكْرَهُهُ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ أَوِ الدُّنْيَا فَلْيَصْبِرْ(١٤)، وَلْيَنْصَحْ، وَلْيُكْثِرْ مِنَ الدُّعَاءِ، وَلْيَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ، وَلْيَنْهَ عَنِ المُنْكَرِ حَسَبَ طَاقَتِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



= **وأطيعوا؛ فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ماحملتم»** أخرجه مسلم (١٨٤٦)، والترمذي (٢١٩٩)، والطيالسي (١٠١٩)، والبيهقي (٨/ ٥٨).

(١٤) كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من رأىٰ من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه؛ فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتة جاهلية**» أخرجه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٨٤٩).



٢٣٤- من هدايات السنة النبوية (٧)
السؤال للاستفادة

٦/ ٣/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ ﴿يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يُونُس: ٢٥] أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا؛ فَقَدْ هَدَانَا لِلْإِسْلَام، وَوَفَّقَنَا لِاتِّبَاعِ خَيْرِ الْأَنَام، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ؛ فَهَدَىٰ بِهِ أَقْوَامًا مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ لَوْلَا أَنْ هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- فَإِنَّ التَّقْوَىٰ أَمَانٌ مِنَ الْفَقْرِ فِي الدُّنْيَا، وَمِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، وَفِيهَا مَخَارِجُ مِنَ الضَّوَائِقِ ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦١]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَاق: ٢-٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: حَيَاةُ النَّبِيِّ ﷺ وَدَعْوَتُهُ، وَأَخْلَاقُهُ وَسِيرَتُهُ فِيهَا عِظَاتٌ وَعِبَرٌ، وَدُرُوسٌ تَسْتَدْعِي التَّأَمُّلَ وَالنَّظَرَ.

لَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْهِدَايَةَ الَّتِي هَدَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا النَّاسَ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشُّورَىٰ: ٥٢]، وَكَانَ ﷺ الرَّحْمَةَ الَّتِي رَحِمَ بِهَا الْخَلْقَ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ١٠٧].

وَصَدَّقَتْ سِيرَتُهُ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ؛ فَلَقَدْ صَبَرَ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَذَىٰ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، كَمَا تَحَمَّلَ جَفَاءَ الْأَعْرَابِ وَالْجَاهِلِينَ، وَلَمَّا آذَاهُ قَوْمُهُ

مَا دَعَا عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ الْعَامِّ، بَلْ أَخَذَهُمْ بِالْحُسْنَىٰ، وَصَبَرَ عَلَيْهِمْ، وَرَجَا أَنْ يَهْتَدُوا، أَوْ يَهْتَدِيَ أَوْلَادُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ؛ فَكَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ.

كَانَ أَغْلَاظُ النَّاسِ، وَجُفَاةُ الْأَعْرَابِ يَفِدُونَ إِلَيْهِ، وَيُغْلِظُونَ الْقَوْلَ عَلَيْهِ؛ فَلَا يَزِيدُهُ ذَلِكَ إِلَّا صَبْرًا عَلَيْهِمْ، وَحِرْصًا عَلَىٰ هِدَايَتِهِمْ؛ بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَكَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ قَدْ نُهُوا عَنِ التَّكَلُّفِ فِي السُّؤَالِ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المَائِدَة: ١٠١]، فَامْتَثَلُوا لِهَذِهِ الْآيَةِ، وَاحْتَاطُوا فِي ذَلِكَ، فَتَرَكُوا كَثِيرًا مِنَ السُّؤَالِ؛ خَشْيَةَ الْوُقُوعِ فِي النَّهْيِ، فَكَانُوا ﷺ يَفْرَحُونَ بِمَجِيءِ رَجُلٍ مِنَ الْبَادِيَةِ لَمْ يَبْلُغْهُ النَّهْيُ عَنِ السُّؤَالِ، فَيَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُمْ مُنْصِتُونَ، قَالَ أَنَسٌ ﷺ: «نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ»[١]، «وَكَانُوا أَجْرَأَ عَلَىٰ ذَاكَ مِنَّا»[٢].

وَفِي حَادِثَةٍ لِأَحَدِ أَذْكِيَاءِ الْعَرَبِ وَجُفَاتِهِمْ وَعُقَلَائِهِمْ، كَانَ يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ بِغِلْظَةٍ، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُجِيبُهُ عَلَىٰ أَسْئِلَتِهِ، وَيَسْتَحْلِفُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَىٰ صِدْقِهِ فِي إِجَابَتِهِ فَيَحْلِفُ لَهُ، وَمَا عَاقَبَهُ وَلَا عَنَّفَهُ، وَلَا طَرَدَهُ وَلَا أَسْكَتَهُ. وَكَانَتْ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ سَبَبًا فِي هِدَايَةِ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ وَهِدَايَةِ قَوْمِهِ عَلَىٰ يَدَيْهِ.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام (١٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٥٨)، وأحمد (٣/ ١٩٣)، وعبد بن حميد (١٢٥٨).

(٢) هذه الرواية للطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٩٣٩)، وأبو عوانة في مسنده (١/ ١٥) برقم (١).

رَوَىٰ الشَّيْخَانِ -وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ- مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي المَسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَىٰ جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي المَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ المُتَّكِئُ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **قَدْ أَجَبْتُكَ** -أَيْ: سَمِعْتُكَ- فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي المَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ، فَقَالَ: **سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**»(٣).

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عِنْدَ أَحْمَدَ أَنَّ الْأَعْرَابِيَّ قَالَ: «إِنِّي سَائِلُكَ وَمُغْلِظٌ فِي المَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدَنَّ فِي نَفْسِكَ، قَالَ: **لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي، فَسَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**، فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ آللهُ أَرْسَلَكَ إِلَىٰ النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: **اللَّهُمَّ نَعَمْ**»(٤).

وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: **صَدَقَ**، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: اللهُ، قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ

---

(٣) أخرجه البخاري في العلم، باب ما جاء في العلم (٦٣)، ومسلم في الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام (١٢)، وأبو داود مختصرًا في الصلاة، باب ما جاء في المشرك يدخل المسجد (١٤٨٦)، والنسائي في الصيام، باب وجوب الصيام (٤/ ١٢٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في فرض الصلوات الخمس والمحافظه عليها (١٤٠٢)، وأحمد (٣/ ١٦٨).
ويلاحظ أنني اعتمدت رواية أنس ﷺ عند البخاري أصلا، ثم ذكرت الزيادات من الروايات الأخرىٰ بين أقواس عن ابن عباس وأبي هريرة ﷺ، وتخريجها يكون في مواضع ذكرها.

(٤) أخرجه من حديث ابن عباس ﷺ: أحمد (١/ ٢٦٤)، والدارمي (٦٥١-٦٥٢)، والطبراني في الكبير (٨/ ٣٠٥)، برقم (٨١٤٩)، وابن شبة في أخبار المدينة (٩٠٢)، وصححه الحاكم (٣/ ٥٥).

الْأَرْضَ؟ قَالَ: **اللهُ**، قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: **اللهُ**، قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الْأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ آللهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: **نَعَمْ**»(٥).

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «أَنْشُدُكَ اللهَ إِلَهَكَ وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ، آللهُ بَعَثَكَ إِلَيْنَا رَسُولًا؟ فَقَالَ: **اللَّهُمَّ نَعَمْ**، قَالَ: فَأَنْشُدُكَ اللهَ إِلَهَكَ وَإِلَهَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وَإِلَهَ مَنْ هُوَ كَائِنٌ بَعْدَكَ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْمُرَنَا أَنْ نَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ نَخْلَعَ هَذِهِ الْأَنْدَادَ الَّتِي كَانَتْ آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَ مَعَهُ؟ قَالَ: **اللَّهُمَّ نَعَمْ**، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: **اللَّهُمَّ نَعَمْ**، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: **اللَّهُمَّ نَعَمْ**»(٦).

«قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَىٰ فُقَرَائِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **اللَّهُمَّ نَعَمْ**، فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بِكْرٍ»(٧).

وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ: «قَالَ: ثُمَّ وَلَّىٰ، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ**»(٨).

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «ثُمَّ خَرَجَ حَتَّىٰ قَدِمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: بِئْسَتِ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ، قَالُوا: مَهْ يَا ضِمَامُ، اتَّقِ الْبَرَصَ وَالْجُذَامَ، اتَّقِ الْجُنُونَ. قَالَ: وَيْلَكُمْ إِنَّهُمَا وَاللَّهِ لَا يَضُرَّانِ

---

(٥) هذه الرواية لمسلم من حديث أنس رضي الله عنه المخرج في حاشية (١).

(٦) مضىٰ تخريج حديث ابن عباس في حاشية (٤).

(٧) إلىٰ هنا انتهت رواية البخاري المخرجة في حاشية (٣).

(٨) هذه رواية مسلم من حديث أنس المخرج في حاشية (٣).

وَلَا يَنْفَعَانِ، إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ بَعَثَ رَسُولًا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا اسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِهِ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا أَمْسَىٰ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَفِي حَاضِرَتِهِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إِلَّا مُسْلِمًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا سَمِعْنَا بِوَافِدِ قَوْمٍ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ»(٩).

وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا أَنْ وَلَّىٰ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَقِهَ الرَّجُلُ**»(١٠). وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ مَسْأَلَةً وَلَا أَوْجَزَ مِنْ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ»(١١).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ ضِمَامٌ ﷺ: «فَأَمَّا هَذِهِ الْهَنَّةُ وَالْهُنَيَّاتُ -يَعْنِي: الْفَوَاحِشَ- فَقَدْ كُنَّا نَدَعُهَا تَكَرُّمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ» رَوَاهُ الطَّيَالِسِيُّ(١٢).

إِنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ الْعَظِيمَةَ تُحَدِّدُ مَعَالِمَ وَاضِحَةً، وَتَرْسُمُ مَنْهَجًا مَضْمُونَ التَّأْثِيرِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللَّهِ ﷻ حَتَّىٰ تُؤْتِيَ الدَّعْوَةُ ثِمَارَهَا الْمَرْجُوَّةَ.

وَمِنْ أَسَاسَاتِ التَّأْثِيرِ فِي الْمَدْعُوِّينَ، وَقَبُولِهِمْ لِدَعْوَةِ الدَّاعِي: التَّوَاضُعُ لَهُمْ، وَالْحِلْمُ عَلَيْهِمْ، وَأَخْذُ جَاهِلِهِمْ بِالرِّفْقِ وَالرَّأْفَةِ.

وَهَذِهِ الْحَادِثَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ اتِّصَافِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَلِيلَةِ؛ إِذْ ظَهَرَ

---

(٩) تخريج حديث هذه الرواية في هامش (٤).

(١٠) ساق هذه الرواية الذهبي في تاريخ الإسلام (٢/ ٦٨١) فقال: وقال إسحاق بن أبي إسرائيل المروزي: حدثني حمزة بن الحارث عن عمير عن عبيد الله بن عمر عن سعيد عن أبي هريرة ﷺ .. فذكره، وقد ذكرها الحافظ في الفتح (١/ ١٥٣).

(١١) الإصابة لابن حجر (٣/ ٤٨٧)، وجاء نحوه في رواية أبي هريرة عند الطيالسي (٢٣٢٩).

(١٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: الطيالسي واللفظ له (٢٣٢٩)، والنسائي في الكبرىٰ (٢٤٠٤)، وفي المجتبىٰ في الصيام، باب وجوب الصيام (٤/ ١٢٤).

تَوَاضُعُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي جُلُوسِهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ، وَعَدَم تَميُّزِهِ عَنْهُمْ فِي المَجْلِسِ؛ حَتَّىٰ إِنْ ضِمَامًا ﷺ مَا عَرَفَهُ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِهِ فَسَأَلَ عَنْهُ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُ أَنَسٍ ﷺ: وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَقَدْ كَانَ ﷺ يَجْلِسُ بَيْنَهُمْ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَهُوَ أَفْضَلُ الْبَشَرِ، وَخَاتَمُ الرُّسُلِ.

وَالدَّاعِيَةُ إِذَا أَرَادَ مِنَ النَّاسِ قَبُولَ قَوْلِهِ فَلَا يَتَرَفَّعُ عَلَيْهِمْ وَيُخَاطِبُهُمْ مِنْ عُلُوٍّ، بَلْ يَخْفِضُ جَنَاحَهُ لَهُمْ؛ فَإِنَّ التَّكَبُّرَ هُوَ صِفَةُ عُبَّادِ الدُّنْيَا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهِ المُؤْمِنُ، فَضْلًا عَمَّنْ يَدْعُو إِلَىٰ الدَّارِ الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا حِلْمُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَصَبْرُهُ عَلَىٰ ضِمَامٍ ﷺ وَتَحَمُّلُ جَهْلِهِ وَجَفَائِهِ فَظَاهِرٌ مِنْ طَرِيقَتِهِ فِي مُخَاطَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمُنَادَاتِهِ بِمُجَرَّدِ اسْمِهِ، وَالتَّشْدِيدِ عَلَيْهِ فِي الْقَوْلِ، وَاسْتِحْلَافِهِ عَقِبَ كُلِّ سُؤَالٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يُجَارِيهِ فِي ذَلِكَ؛ فَلَمْ يَتَبَرَّمْ مِنْ طَرِيقَتِهِ، وَلَا ضَجِرَ مِنْ تَعَدُّدِ مَسَائِلِهِ، وَلَا امْتَنَعَ عَنِ الْحِلْفِ لَمَّا اسْتَحْلَفَهُ، بَلْ سَايَرَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ حَتَّىٰ أَلْزَمَهُ طَرِيقَ الْهِدَايَةِ، ثُمَّ كَانَ هُوَ دَاعِيَةً لِقَوْمِهِ؛ لِاسْتِبَانَةِ الْحَقِّ لَهُ بَعْدَ هَذِهِ المُنَاظَرَةِ.

وَمَا أَحْوَجَ كُلَّ مُسْلِمٍ -وَخَاصَّةً الدُّعَاةَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ- إِلَىٰ تَأَمُّلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَالِاهْتِدَاءِ بِهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حِرْصِهِ عَلَىٰ دَعْوَةِ الْخَلْقِ، وَالْهِدَايَةِ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَتَحَمُّلِ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ عَنَتِ المَدْعُوِّينَ، وَتَحْلِيَةِ ذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ وَالرِّفْقِ وَالْإِحْسَانِ إِلَىٰ النَّاسِ أَجْمَعِينَ! فَإِنَّ ذَلِكَ كَفِيلٌ بِفَتْحِ الْقُلُوبِ المُغْلَقَةِ، وَإِلَانَةِ النُّفُوسِ المُشْتَدَّةِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النَّحل: ١٢٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَمَا أَنَّ فِي قِصَّةِ ضِمَامٍ ﷺ وَمُنَاظَرَتِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَوَائِدَ لِلدُّعَاةِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَإِنَّ فِيهَا فَوَائِدَ لِلْمَدْعُوِّينَ، يَنْبَغِي لِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعْرِفَهَا وَيَعْمَلَ بِهَا؛ وَمِنْ أَهَمِّ هَذِهِ الْفَوَائِدِ: التَّجَرُّدُ فِي الْمَسْأَلَةِ وَالْمُنَاظَرَةِ، وَالصِّدْقُ فِي طَلَبِ الْحَقِّ؛ فَرَغْمَ أَنَّ ضِمَامًا رضي الله عنه كَانَ جِلْفًا فِي تَعَامُلِهِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، غَلِيظًا فِي أُسْلُوبِهِ، فَظًّا فِي عَرْضِ مَسْأَلَتِهِ، قَوِيًّا فِي لَجَاجِهِ؛ فَإِنَّهُ رضي الله عنه كَانَ مُتَجَرِّدًا فِي مُنَاظَرَتِهِ، مُتَحَرِّيًا فِي مَسْأَلَتِهِ، طَالِبًا لِلْحَقِّ، فَلَمَّا اسْتَبَانَ لَهُ تَبِعَهُ، وَدَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ.

إِنَّ الْمُقَارَنَةَ بَيْنَ فِعْلِ ضِمَامٍ رضي الله عنه وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُنَاظَرَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ الَّتِي تُعْرَضُ فِي وَسَائِلِ الِاتِّصَالِ الْحَدِيثَةِ لَتَدُلُّنَا عَلَىٰ الْفَرْقِ الْعَظِيمِ بَيْنَ مَنْ يُجَادِلُ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَبَيْنَ مَنْ يَلِجُّ لِإِثْبَاتِ رَأْيِهِ، وَهَزِيمَةِ خَصْمِهِ، مَعَ الْإِصْرَارِ الْمُسْبَقِ عَلَىٰ عَدَمِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَلَوْ ظَهَرَ كَظُهُورِ الشَّمْسِ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ.

وَرَغْمَ كَثْرَةِ الْمُنَاظَرَاتِ الدِّينِيَّةِ، وَالْمُجَادَلَاتِ الْفِكْرِيَّةِ، وَالْمُخَاصَمَاتِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي تَنْضَحُ بِهَا الْفَضَائِيَّاتُ وَالْمُنْتَدَيَاتُ -وَقَدْ عَدَّهَا كَثِيرٌ مِمَّنْ يُسَمَّوْنَ بِالْمُفَكِّرِينَ وَالْمُثَقَّفِينَ ظَاهِرَةً صِحِّيَّةً تَدُلُّ عَلَىٰ سِيَادَةِ ثَقَافَةِ التَّحَاوُرِ وَقَبُولِ الْآخَرِ-، رَغْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّنَا مَا سَمِعْنَا أَنَّ أَحَدَ الْمُتَنَاظِرِينَ اعْتَرَفَ بِالْحَقِّ لَمَّا اسْتَبَانَ لَهُ؛

إِنَّمَا هُوَ جِدَالٌ وَلَجَاجٌ وَخِصَامٌ، وَإِعْجَابٌ بِالرَّأْيِ، وَإِصْرَارٌ عَلَىٰ الْخَطَإِ إِلَىٰ آخِرِ رَمَقٍ.

إِنَّهُ لَعَجِيبٌ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنْ يَقْبَلَ ضِمَامٌ ﷺ الْحَقَّ لَمَّا ظَهَرَ لَهُ، وَهُوَ الْأَعْرَابِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي عَاشَ فِي الصَّحْرَاءِ، وَلَمْ يَتَعَلَّمْ فِي الْجَامِعَاتِ الْحَدِيثَةِ، وَلَا دَرَسَ ثَقَافَةَ الْحِوَارِ وَمَا يَلْزَمُ لَهُ، بَيْنَمَا يَسْتَنْكِفُ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَىٰ ثَقَافَةِ الْحِوَارِ، وَيُطَالِبُونَهُمْ بِقَبُولِ الْآخَرِ، كَائِنًا مَنْ كَانَ؛ فَمَنِ الْمَسْؤُولُ عَنْ ذَلِكَ؟ وَمَا سَبَبُهُ يَا تُرَىٰ؟

إِنَّهُ الْجَهْلُ وَالْهَوَىٰ؛ الْجَهْلُ بِالْبَدَهِيَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ، وَالْمُسَلَّمَاتِ الْمَنْطِقِيَّةِ، وَرَدُّ الْحَقِّ بِالْهَوَىٰ، الْجَهْلُ الَّذِي يَتَدَثَّرُ أَصْحَابُهُ بِالْفِكْرِ وَالثَّقَافَةِ، وَيُخْفُونَهُ بِالْمُهَاتَرَاتِ الْكَلَامِيَّةِ حَتَّىٰ يَظُنَّ السَّامِعُ لَهُمْ أَنَّ وَرَاءَ هَذَا التَّشَدُّقِ فِي الْكَلَامِ، وَالتَّكَلُّفِ فِي الْمَنْطِقِ عِلْمًا وَمَعْرِفَةً، وَثَقَافَةً وَخِبْرَةً، وَمَا هُوَ إِلَّا جَعْجَعَةٌ لَا طَحِينَ مَعَهَا.

وَهَذَا الدَّاءُ الْوَبِيلُ الَّذِي يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَيُعْمِي عَنْ رُؤْيَتِهِ، وَيُصِمُّ الْآذَانَ عَنْ سَمَاعِهِ؛ قَدْ سَرَىٰ إِلَىٰ الْعَامَّةِ بِسَبَبِ الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَمُمَارَسَتِهِ الْعَمَلِيَّةِ فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَأَضْحَىٰ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ جُرْأَةٌ عَلَىٰ الْقَوْلِ بِلَا عِلْمٍ، وَالْمُجَادَلَةِ فِي الْحَقِّ لِمُجَرَّدِ الْجِدَالِ، وَيُسَمَّىٰ هَذَا الصُّدُودُ عَنِ الْحَقِّ، وَرَدُّهُ بِالْهَوَىٰ رَأْيًا حُرًّا، وَمَا هُوَ إِلَّا الْجَهْلُ وَالضَّلَالُ.

إِنَّ مِنْ حَقِّ النَّاسِ مَعْرِفَةَ الدَّلَائِلِ عَلَىٰ الْأَفْكَارِ، وَالسُّؤَالَ عَنِ الْبَرَاهِينِ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا -كَمَا فَعَلَ ضِمَامٌ ﷺ-، وَأَقَرَّهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَجَابَهُ، لَكِنْ لَيْسَ مِنْ حَقِّهِمُ الْإِصْرَارُ عَلَىٰ الْبَاطِلِ بَعْدَ اسْتِبَانَةِ الْحَقِّ، وَلَيْسُوا أَحْرَارًا فِي اعْتِنَاقِ مَا يَشَاؤُونَ مِنَ الْأَفْكَارِ، وَإِلَّا فَمَا الْفَائِدَةُ مِنَ الْمُنَاظَرَاتِ وَالْمُجَادَلَاتِ؟ أَهِيَ لِمُجَرَّدِ إِشْغَالِ النَّاسِ وَضَيَاعِ أَوْقَاتِهِمْ؟ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنْهَا لَكَذَلِكَ.

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاقْبَلُوا الْحَقَّ أَيًّا كَانَ مَصْدَرُهُ، وَمَهْمَا ثَقُلَ عَلَىٰ النُّفُوسِ، وَاحْذَرُوا الْجَهْلَ وَالْهَوَىٰ، وَالْقَوْلَ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِلَا عِلْمٍ؛ فَكَمْ مِنْ صَاحِبِ هَوَىٰ أَرْدَاهُ هَوَاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النَّجم: ٢٣].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَقَدْ أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .





٢٣٥- من هدايات السنة النبوية (٨)
حديث النذير العريان

٣٠/ ٣/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ مَا أَعْطَانَا وَأَوْلَانَا، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِأَخْطَائِنَا وَذُنُوبِنَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعَمِ لِيَشْكُرُوهُ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبْرَاهِيم: مِنَ الآيَةِ ٣٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ الْبَشِيرُ النَّذِيرُ، وَالسِّرَاجُ المُنِيرُ؛ بَشَّرَ أُمَّتَهُ وَأَنْذَرَهُمْ، وَهَدَاهُمْ وَعَلَّمَهُمْ، دَلَّهُمْ عَلَىٰ الْخَيْرِ لِيَأْتُوهُ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ الشَّرِّ لِيَتَّقُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأَحْزَاب: ٤٥-٤٦]. صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَىٰ اللَّهِ ﷻ؛ فَهِيَ وَصِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَنَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء: مِنَ الآيَةِ ١٣١].

وَبِهَا وَصَّانَا رَسُولُهُ ﷺ لَمَّا وَعَظَ أَصْحَابَهُ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، قَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللَّهِ**»(١).

---

(١) أخرجه من حديث العرباض بن سارية ﷺ: أبو داود في السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، وقال: حسن صحيح (٢٦٧٦)، وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين =

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- كَمَا أَمَرَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ، وَكَمَا وَصَّاكُمْ رَسُولُهُ ﷺ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ مُلَاقِيكُمْ، وَأَنَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ، وَأَنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ.

أَيُّهَا النَّاسُ: بَعَثَ اللهُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ هِدَايَةً لِلْعِبَادِ، وَنَجَاةً لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، وَرَزَقَهُ جَوَامِعَ الْكَلَامِ، وَسَدَّدَ مَنْطِقَهُ؛ فَلَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النَّجم: ٤ - ٥].

وَلَمَّا قَالَتِ الصَّحَابَةُ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا! قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنِّي لَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ[٢]، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا؟ فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَىٰ فِيهِ، فَقَالَ: «**اكْتُبْ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٣].

إِنَّ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْذَبُ الْحَدِيثِ بَعْدَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَأَحْسَنُهُ، وَأَجْمَعُهُ وَأَحْكَمُهُ؛ فِيهِ الْقَصَصُ وَالْأَخْبَارُ، وَالْمَوَاعِظُ وَالرِّقَاقُ، وَالْحِكَمُ

= المهديين (٤٢)، وصححه ابن حبان (٥).

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في المزاح، وقال: حديث حسن صحيح (١٩٩٠)، وفي الشمائل (٢٣٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٦٥)، وأحمد (٢/ ٣٤٠)، والبيهقي (١٠/ ٢٤٨)، والطبراني في الأوسط (٨٧٠٦)، ووهم الهيثمي فجعله في مجمع الزوائد، وحسنه (٩/ ١٧).

(٣) أخرجه أبو داود في العلم، باب في كتابة العلم (٣٦٤٦)، والدارمي (٤٨٤)، وأحمد (٢/ ١٦٢)، والخطيب في تقييد العلم (٨٠)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٥٣٢).

وَالْأَمْثَالُ، وَمَا مِنْ عَبْدٍ يُدَاوِمُ عَلَىٰ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ يَقْرَؤُهَا وَيَحْفَظُهَا وَيَشْغَلُ وَقْتَهُ بِهَا، وَيَقْضِي عُمْرَهُ فِيهَا، مَعَ تَطْبِيقِهِ لَهَا إِلَّا نَوَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ بَصِيرَتَهُ، وَأَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ، وَوَجَدَ لَذَّةً لَا يَجِدُهَا أَهْلُ السُّلْطَانِ فِي سُلْطَانِهِمْ، وَلَا أَهْلُ المَالِ فِي أَمْوَالِهِمْ، وَلَا أَهْلُ الدُّنْيَا فِي مَلَذَّاتِهِمْ، وَدُونَكُمْ أَخْبَارَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَتَرَاجِمَ حُفَّاظِ الْحَدِيثِ؛ اقْرَؤُوهَا إِنْ شَكَكْتُمْ فِي ذَلِكَ.

وَمِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَكُونُ مَثَلًا مِنَ الْأَمْثَالِ، يَقْصِدُ بِهِ تَوْضِيحَ المَعْنَىٰ، وَزِيَادَةَ الْعِنَايَةِ وَالِاهْتِمَامِ بِالْأَمْرِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ ضَرَبَ لَنَا الْأَمْثَالَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ يَعْقِلُهَا. قَالَ عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَا مَرَرْتُ بِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَا أَعْرِفُهَا إِلَّا أَحْزَنَنِي؛ لِأَنِّي سَمِعْتُ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]»[٤].

وَهَذَا مَثَلٌ عَظِيمٌ ضَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِحَالِهِ مَعَ أُمَّتِهِ، وَبَيَّنَ فِيهِ الْفَرْقَ بَيْنَ مَنْ أَطَاعَهُ وَمَنْ عَصَاهُ مِنْهُمْ، يَرْوِي هَذَا المَثَلَ الْعَظِيمَ أَبُو مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَىٰ قَوْمًا فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالنَّجَاءَ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَىٰ مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ**» مُتَفَقٌ عَلَيهِ[٥].

فَشَبَّهَ حَالَهُ مَعَ أُمَّتِهِ ﷺ بِالنَّذِيرِ الْعُرْيَانِ، وَأَصْلُهُ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَرَادَ إِنْذَارَ قَوْمِهِ

---

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧٣٢٧)، وينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٥).

(٥) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن الرسول ﷺ (٦٨٥٤)، ومسلم في الفضائل، باب شفقته ﷺ علىٰ أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم (٢٢٨٣).

وَإِعْلَامَهُمْ بِمَا يُوجِبُ المَخَافَةَ نَزَعَ ثَوْبَهُ، وَأَشَارَ بِهِ إِلَيْهِمْ إِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُمْ؛ لِيُخْبِرَهُمْ بِمَا دَهَمَهُمْ، وَأَكْثَرُ مَنْ يَفْعَلُ هَذَا طَلِيعَةُ الْقَوْمِ وَرَقِيبُهُمْ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ أَبْيَنُ لِلنَّاظِرِ، وَأَغْرَبُ مَشْهَدًا، وَأَشْنَعُ مَنْظَرًا، وَأَقْوَىٰ تَأْثِيرًا، فَهُوَ أَبْلَغُ فِي اسْتِحْثَاثِهِمْ عَلَىٰ التَّأَهُّبِ لِلْعَدُوِّ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: أَنَا النَّذِيرُ الَّذِي أَدْرَكَنِي جَيْشُ الْعَدُوِّ فَأَخَذَ ثِيَابِي فَأَنَا أُنْذِرُكُمْ عُرْيَانًا[٦].

---

(٦) ينظر: كشف المشكل لابن الجوزي (١/ ٤٠٩)، ومشارق الأنوار للقاضي عياض (٢/ ٧٨)، وشرح النووي علىٰ مسلم (١٥/ ٤٩)، وفتح الباري لابن حجر (١١/ ٣١٧)، والنهاية لابن الأثير (٣/ ٢٢٥).

وقد اختلف في معنىٰ هذه الجملة ومصدرها علىٰ أقوال:

١- قال ابن بطال في شرح البخاري (١٠/ ١٩٤): «النذير العريان: رجل من خثعم حمل عليه رجل يوم ذي الخلصة فقطع يده ويد امرأته، فانصرف إلىٰ قومه فحذرهم، فضرب به المثل في تحقيق الخبر».

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣١٦): «وسبق إلىٰ ذلك يعقوب بن السكيت وغيره، وسمىٰ الذي حمل عليه عوف بن عامر اليشكري، وأن المرأة كانت من بني كنانة، وتعقب باستبعاد تنزيل هذه القصة علىٰ لفظ الحديث؛ لأنه ليس فيها أنه كان عريانا».

٢- قال الحافظ (١١/ ٣١٦-٣١٧): «وزعم ابن الكلبي أن النذير العريان امرأة من بني عامر ابن كعب لما قتل المنذر بن ماء السماء أولاد أبي داود وكان جار المنذر، خشيت علىٰ قومها، فركبت جملا ولحقت بهم، وقالت: أنا النذير العريان».

٣- ويقال: أول من قاله أبرهة الحبشي لما أصابته الرمية بتهامة ورجع إلىٰ اليمن وقد سقط لحمه.

٤- وذكر أبو بشر الآمدي أن زنبر بن عمرو الخثعمي كان ناكحا في آل زبيد فأرادوا أن يغزوا قومه، وخشوا أن ينذر بهم فحرسه أربعة نفر، فصادف منهم غرة، فقذف ثيابه وعدا وكان من أشد الناس عدوا فأنذر قومه.

٥- قيل: الأصل فيه أن رجلا لقي جيشا فسلبوه وأسروه، فانفلت إلىٰ قومه، فقال: إني رأيت الجيش فسلبوني، فرأوه عريانا فتحققوا صدقه؛ لأنهم كانوا يعرفونه ولا يتهمونه في النصيحة، ولا جرت عادته بالتعري، فقطعوا بصدقة لهذه القرائن، فضرب النبي ﷺ لنفسه ولما جاء به مثلا بذلك؛ لما أبداه من الخوارق والمعجزات الدالة علىٰ القطع بصدقه =

وَقَدْ جَاءَ مَا يَكْشِفُ هَذَا المَعْنَىٰ فِي حَدِيثِ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ ﷺ قَالَ: خَرَجَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا فَنَادَىٰ ثَلَاثَ مِرَارٍ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَدْرُونَ مَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ مَثَلُ قَوْمٍ خَافُوا عَدُوًّا يَأْتِيهِمْ فَبَعَثُوا رَجُلًا يَتَرَاءَىٰ لَهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ أَبْصَرَ الْعَدُوَّ فَأَقْبَلَ لِيُنْذِرَهُمْ، وَخَشِيَ أَنْ يُدْرِكَهُ الْعَدُوُّ قَبْلَ أَنْ يُنْذِرَ قَوْمَهُ فَأَهْوَىٰ بِثَوْبِهِ: أَيُّهَا النَّاسُ أُتِيتُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ أُتِيتُمْ، ثَلَاثَ مِرَارٍ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٧).

فَالنَّبِيُّ ﷺ هُوَ النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ الَّذِي أَنْذَرَ أُمَّتَهُ، وَبَالَغَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي نِذَارَتِهِ؛ رَحْمَةً بِأُمَّتِهِ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَنُصْحًا لَهُمْ، حَتَّىٰ كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِنِذَارَتِهِ؛ كَمَا رَوَىٰ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: **صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٨).

= تقريبًا لإفهام المخاطبين بما يألفونه ويعرفونه.
قال الحافظ بعد أن ساقه (١١/ ٣١٧): ويؤيده ما أخرجه الرامهرمزي في الأمثال، وهو عند أحمد أيضا بسند جيد من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه ... فذكر حديث بريدة المذكور في الخطبة المخرج في حاشية (٧) ثم قال الحافظ: وأحسن ما فسر به الحديث من الحديث، وهذا كله يدل علىٰ أن العريان من التعري، وهو المعروف في الرواية.
٦- ونقل ابن الجوزي في المشكل (١/ ٤٠٩) عن الخطابي قوله: وقد روي لنا «وأنا النذير العربان» بالباء، فإن كان ذلك محفوظا فمعناه: المفصح بالإنذار لا يكني ولا يوري، يقال: رجل عربان أي: فصيح اللسان، ويقال: أعرب الرجل بحاجته إذا أفصح بها.
وينظر أيضًا: تهذيب اللغة (٣/ ١٠٢)، والمحكم لابن سيده (١٠/ ٦٢)، واللسان (٥/ ٢٠٢)، وتاج العروس (١٤/ ٢٠١ و٣٩/ ٣٥).

(٧) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨)، والرامهرمزي في أمثال الحديث (٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح (٢/ ١٨٨).

(٨) أخرجه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧).

وَلمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ انْطَلَقَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ رَضْمَةٍ مِنْ جَبَلٍ، فَعَلَا أَعْلَاهَا حَجَرًا، ثُمَّ نَادَىٰ: «**يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، إِنِّي نَذِيرٌ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَىٰ الْعَدُوَّ فَانْطَلَقَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ فَجَعَلَ يَهْتِفُ: يَا صَبَاحَاهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٩].

وَوَصْفُ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُ نَذِيرٌ، وَأَمْرُهُ بِالنِّذَارَةِ قَدْ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَثِيرًا، وَجَاءَ بِأَسَالِيبَ عِدَّةٍ، وَصِيَغٍ مُتَنَوِّعَةٍ:

فَفِي آيَاتٍ يَأْمُرُهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِالنِّذَارَةِ ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الْأَنْعَام: مِنَ الْآيَةِ ٥١]، ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [الْمُدَّثِّر: ١-٢].

وَفِي آيَاتٍ أُخَرَ يُخْبِرُهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ النِّذَارَةَ هِيَ وَظِيفَتُهُ الَّتِي أَرْسَلَهُ إِلَىٰ الثَّقَلَيْنِ مِنْ أَجْلِهَا ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرَّعْد: ٧]، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فَاطِر: ٢٢-٢٤].

وَفِي آيَاتٍ أُخْرَىٰ يَأْمُرُهُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي مَحَاجَّتِهِ لِلْمُشْرِكِينَ، وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ حِينَ يَطْلُبُونَ الْآيَاتِ بِأَنْ يُخْبِرَهُمْ أَنَّ الْآيَاتِ لَيْسَتْ مِنْ شَأْنِهِ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّ مُهِمَّتَهُ هِيَ إِنْذَارُهُمْ فَحَسْبُ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وَفِي الْأَعْرَافِ ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وَفِي

---

(٩) أخرجه من حديث قبيصة بن المخارق وزهير بن عمرو رضي الله عنهما: مسلم في الإيمان، باب في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] (٢٠٧).

هُودٍ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، وَفِي الْحِجْرِ ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾، وَفِي الْحَجِّ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الْحَجّ: ٤٩]، وَفِي ص ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [سورة ص: ٦٥]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، وَفِي الذَّارِيَاتِ ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذَّارِيَات: ٥١-٥٢].

وَمَا كَانَتْ نِذَارَتُهُ ﷺ إِلَّا اسْتِمْرَارًا وَتَكْمِيلًا لِنِذَارَةِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فَاطِر: مِنَ الْآيَةِ ٢٤]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النَّجْم: ٥٦].

أَيْ: مِنْ جِنْسِ الرُّسُلِ السَّابِقِينَ الَّذِينَ أَنْذَرُوا أَقْوَامَهُمْ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

وَأَمَّا مَوْضُوعَاتُ النِّذَارَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهِيَ مَا يَضُرُّ الْبَشَرَ وَيُوبِقُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعْصِيَةِ؛ تَحْذِيرًا وَتَنْفِيرًا مِنْهُمَا؛ إِذْ هُمَا سَبَبُ الْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، فَكَانَ مِنْ نِذَارَتِهِ ﷺ لِأُمَّتِهِ تَحْذِيرُهُمْ مِنِ اتِّبَاعِ سُنَنِ الْمُعَذَّبِينَ قَبْلَهُمْ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١٣].

وَأَمَّا إِنْذَارُهُمْ عَنْ قُرْبِ السَّاعَةِ، وَعَنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَفِي آيَاتٍ عِدَّةٍ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مَرْيَم: ٣٩]، ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَۚ﴾ [غَافِر: ١٨]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشُّورَىٰ: ٧]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النَّازِعَات: ٤٢-٤٥]، ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [اللَّيْل: ١٤-١٦].

وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ قَدْ بَيَّنَ مَسَالِكَ الشَّرِّ وَطُرُقَهُ، وَأَسْبَابَ الْعَذَابِ وَمُوجِبَاتِهِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ الْوَسِيلَةَ الْعُظْمَىٰ وَالْهِدَايَةَ الْكُبْرَىٰ الَّتِي أَنْذَرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥]، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وَالمَعْنَىٰ: أُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَ بِهِ المُخَاطَبِينَ وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ، وَأُنْذِرَ كُلَّ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ(١٠)، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ فَكَأَنَّمَا رَأَىٰ النَّبِيَّ ﷺ»(١١).

وَنِذَارَتُهُ ﷺ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا إِلَّا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ؛ وَلِذَلِكَ خَاطَبَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ١٨]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

وَأَمَّا أَهْلُ التَّكْذِيبِ وَالشَّكِّ مِنَ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِإِنْذَارِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا يَحْذَرُونَ مَا أَنْذَرَهُمْ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

وَبِإِرْسَالِ النُّذُرِ مِنَ المُرْسَلِينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَحْتَجُّ المَلَائِكَةُ عَلَىٰ المُعَذَّبِينَ مِنَ المُكَلَّفِينَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [المُلك: ٨-٩].

---

(١٠) التسهيل في علوم التنزيل للكلبي (٢/ ٥)، وتفسير الرازي (١٢/ ١٤٧).

(١١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٦٣)، وهو في تفسير مجاهد (١/ ٢١٣)، والدر المنثور (٣/ ٢٥٧).

لَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ» فَاسْتَخْدَمَ هَذَا اللَّفْظَ الْبَلِيغَ الْمُؤَثِّرَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ شِدَّةِ الْحَالِ، وَهَوْلِ الْمُطَّلَعِ، وَفَخَامَةِ الْأَمْرِ الْمُنْذَرِ عَنْهُ وَهُوَ عَذَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

وَاسْتَخْدَمَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَفْرَادٌ مِنْ أُمَّتِهِ فِي الْأَمْرِ الْعَظِيمِ يُبَلِّغُونَهُ، وَيُنْذِرُونَ عَنْهُ، وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ حُذَيْفَةَ ﷺ لَمَّا رَأَىٰ اخْتِلَافَ النَّاسِ فِي الْمَصَاحِفِ أَسْرَعَ إِلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي رَأَىٰ مِنَ اخْتِلَافِ النَّاسِ، وَقَالَ: «أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَأَدْرِكُوا الْأُمَّةَ»[١٢].

وَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ ﷺ قَدِمَ الْحَجَّاجُ بْنُ خُزَيْمَةَ، فَقَالَ لِمُعَاوِيَةَ ﷺ: «أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ أَنْعِي إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ»[١٣].

وَلَمَّا كَثُرَتِ الْفِتَنُ فِي وَقْتِ الْأَعْمَشِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «أَنَا لَكُمُ النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، كَفَّ رَجُلٌ يَدَهُ، وَأَمْسَكَ لِسَانَهُ، وَعَالَجَ قَلْبَهُ»[١٤].

أَسْأَلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا الْعِظَةَ وَالِاعْتِبَارَ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِقُوَّةِ الْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ.



الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ كَمَا أَمَرَ، وَنَشْكُرُهُ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ

(١٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٢٤٢)، وهو في الكامل لابن الأثير (٣/ ٨).
(١٣) الإمامه والسياسة لابن قتيبة (١/ ٧٢).
(١٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وآداب اللسان (٦٢٢)، وابن عساكر بنحوه (٦٣/ ٣٤٨).

تَعَالَىٰ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَحُجَّةً عَلَىٰ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ سَرِيعُ الْعِقَابِ، وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي هَذَا الْمَثَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي ضَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِحَالِهِ مَعَ أُمَّتِهِ فِي نِذَارَتِهِ وَاسْتِجَابَتِهِمْ يَتَبَيَّنُ نُصْحُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَنَا، وَحِرْصُهُ عَلَىٰ نَجَاتِنَا، فَشَبَّهَ ﷺ نَفْسَهُ بِالرَّجُلِ الَّذِي أَنْذَرَ قَوْمَهُ الْعَدُوَّ، وَشَبَّهَ إِنْذَارَهُ بِالْعَذَابِ الْقَرِيبِ بِإِنْذَارِ الرَّجُلِ قَوْمَهُ بِالْجَيْشِ الْمُصَبِّحِ، وَشَبَّهَ مَنْ أَطَاعَهُ مِنْ أُمَّتِهِ وَمَنْ عَصَاهُ بِمَنْ كَذَّبَ الرَّجُلَ فِي إِنْذَارِهِ وَمَنْ صَدَّقَهُ(١٥). وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِتَأْكِيدَاتٍ ثَلَاثَةٍ:

أَحَدُهَا: قَوْلُهُ: إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنِي، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ رَأَىٰ مِنْ أَحْوَالِ الْمُعَذَّبِينَ مَا رَأَىٰ، وَكَثِيرًا مَا أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ؛ فَقَالَ مَرَّةً: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ آنِفًا فِي عُرْضِ هَذَا الْحَائِطِ وَأَنَا أُصَلِّي، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٦).

وَمَرَّةً أُخْرَىٰ قَالَ: «**وَأُرِيتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٧)، وَلَيْسَ مَنْ رَأَىٰ كَمَنْ سَمِعَ.

وَالْمُؤَكِّدُ الثَّانِي فِي الْحَدِيثِ: قَوْلُهُ: «**وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ**».

---

(١٥) شرح الطيبي علىٰ المشكاة (٢/ ٦١٢)، وعنه الحافظ في الفتح (١١/ ٣١٧).

(١٦) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه (٦٨٦٤)، ومسلم في الفضائل، باب توقيره ﷺ، وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع، ونحو ذلك (٢٣٥٩).

(١٧) أخرجه من حديث ابن عباس ﷺ: البخاري في الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة (١٠٠٤)، ومسلم في الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ من أمر الجنة والنار (٩٠٧).

وَالثَّالِثُ: قَوْلُهُ: «**الْعُرْيَانُ**»؛ لِأَنَّهُ الْغَايَةُ فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ؛ وَلِأَنَّهُ الَّذِي يَخْتَصُّ فِي إِنْذَارِهِ بِالصِّدْقِ[١٨]. ثُمَّ قَالَ: «**النَّجَاءَ النَّجَاءَ**» أَي: اطْلُبُوا النَّجَاءَ بِأَنْ تُسْرِعُوا الْهَرَبَ، إِشَارَةً إِلَىٰ أَنَّهُمْ لَا يُطِيقُونَ مُقَاوَمَةَ ذَلِكَ الْجَيْشِ[١٩].

فَانْقَسَمَ النَّاسُ تُجَاهَ هَذَا الْإِنْذَارِ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ ذَكَرَهُمْ فِي الْحَدِيثِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا** -أَيْ: سَارُوا اللَّيْلَ كُلَّهُ مُبْتَعِدِينَ عَنْ خَطَرِ الْعَدُوِّ- **فَانْطَلَقُوا عَلَىٰ مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا**»، وَبَيَّنَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَالَ الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ بِقَوْلِهِ: «**وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ**»، وَلْيَخْتَرْ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَحَدِ الطَّائِفَتَيْنِ مَا دَامَ الْوَقْتُ وَقْتَ اخْتِيَارٍ، وَأَمَّا إِذَا دَهَمَ الْعَبْدَ الْمَوْتُ فَلَا اخْتِيَارَ.

وَنَجَاةُ الْعَبْدِ فِي إِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ الصَّالِحِ، وَهَلَاكُهُ فِي مَعْصِيَتِهِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَكُلَّمَا تَخَفَّفَ الْعَبْدُ مِنْ عَلَائِقِ الدُّنْيَا وَأَثْقَالِهَا كَانَ أَحْرَىٰ لِنَجَاتِهِ، وَأَسْرَعَ فِي اللِّحَاقِ بِرِكَابِهِمْ، وَأَمَّا مَنْ أَثْقَلَتْهُ الدُّنْيَا بِزَخَارِفِهَا وَزِينَتِهَا، وَحَلَالِهَا وَحَرَامِهَا، فَحَرِيٌّ أَلَّا يَلْحَقَ بِرَكْبِ النَّاجِينَ لِثِقَلِ مَا مَعَهُ مِنْ أَحْمَالٍ، وَعُسْرِ سَيْرِهِ بِهَا.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَاقْبَلُوا نِذَارَةَ النَّاصِحِ الْأَمِينِ ﷺ؛ فَقَدْ بَانَ لَكُمْ صِدْقُهُ، وَعَلِمْتُمْ نُصْحَهُ، وَأَيْقَنْتُمْ بِخَبَرِهِ، فَهُوَ يُخْبِرُ عَمَّنْ خَلَقَكُمْ وَابْتَلَاكُمْ بِالدِّينِ، وَمَنْ سَيُحَاسِبُكُمْ عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ، فَأَعِدُّوا لِذَلِكَ الْيَوْمِ عُدَّتَهُ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الْحَاقَّة: ١٨].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

---

(١٨) شرح الطيبي علىٰ المشكاة (٢/ ٦١٢)، والفتح (١١/ ٣١٧).

(١٩) فتح الباري (١١/ ٣١٧).



العبادات

٢٣٦- عمود الإسلام (١)
تكبيرة الإحرام

١٥/٢/١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، وَكَلَّفَهُمْ بِحَمْلِ أَمَانَتِهِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ الْأُجُورِ وَالْخَيْرَاتِ، وَابْتَلَاهُمْ بِالْفِتَنِ وَالشَّهَوَاتِ؛ فَالْأَزْوَاجُ وَالْأَوْلَادُ وَالْأَمْوَالُ وَالْجِيرَانُ فِتَنٌ يُبْتَلَىٰ بِهَا الْعِبَادُ، وَلَكِنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ مِنْ وَاجِبَاتٍ وَمَنْدُوبَاتٍ تُكَفِّرُ هَذِهِ الْفِتَنَ، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «مَنْ يَحْفَظُ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْفِتْنَةِ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ رضي الله عنه: أَنَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[١].

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب الصوم كفارة (١٧٨٦)، ومسلم في الفتن وأشراط =

وَأَعْظَمُ الْمُكَفِّرَاتِ بَعْدَ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ: الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ تَعَالَىٰ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، وَخَاطَبَ بِهَا النَّبِيَّ ﷺ مُبَاشَرَةً بِلَا وَاسِطَةٍ.

فَرَضَهَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَأَشَارَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ ﷻ التَّخْفِيفَ، فَلَا تُطِيقُ أُمَّتُهُ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَمَا زَالَ نَبِيُّنَا ﷺ يُرَاجِعُ رَبَّهُ ﷻ فِيهَا يَسْأَلُهُ التَّخْفِيفَ؛ رَحْمَةً بِأُمَّتِهِ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَخَشْيَةً مِنْ تَضْيِيعِهِمْ هَذَا الْفَرْضَ الْعَظِيمَ؛ فَرَحِمَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِمَشُورَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِمُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ رَبَّهُ تَعَالَىٰ، فَخَفَّفَهَا عَنْهُمْ مِنْ خَمْسِينَ إِلَىٰ خَمْسٍ، وَقَالَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ: «**هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢]. وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: فَقَالَ اللهُ ﷻ: «**إِنِّي يَوْمَ خَلَقْتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَرَضْتُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّتِكَ خَمْسِينَ صَلَاةً، فَخَمْسٌ بِخَمْسِينَ، فَقُمْ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ، قال النَّبِيُّ ﷺ: فَعَرَفْتُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ صَرَّىٰ**»[٣]؛ أَيْ: حَتْمٌ لَازِمَةٌ، «**فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَىٰ مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[٤].

إِنَّ الصَّلَاةَ لَيْسَتْ كَسَائِرِ الْأَعْمَالِ الْأُخْرَىٰ لَا فِي فَرْضِهَا، وَلَا فِي تَكْرَارِهَا فِي

= الساعة، باب في الفتنه التي تموج كموج البحر (١٤٤).

(٢) أخرجه من حديث أنس بن مالك عن أبي ذر رضي الله عنهما: البخاري في الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء (٣٤٢)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء بالنبي ﷺ إلىٰ السماوات وفرض الصلوات (١٦٣).

(٣) هذه الرواية من حديث أنس رضي الله عنه عند: النسائي في الصلاة، باب فرض الصلاة (١/ ٢٢١-٢٢٢).

(٤) هذه الرواية للبخاري في فضائل الصحابة، باب المعراج، من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما (٣٦٧٤).

الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَلَا فِي أَثَرِهَا عَلَىٰ مَنْ أَدَّاهَا؛ فَهِيَ عَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَرُكْنُهُ الْأَوَّلُ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَهِيَ صِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ ضَيَّعَهَا.

إِنَّهَا ذُلٌّ وَخُضُوعٌ لِلْعَزِيزِ الْجَبَّارِ؛ فَقِيَامُهَا قُنُوتٌ، وَرُكُوعُهَا خُضُوعٌ، وَسُجُودُهَا خُشُوعٌ، وَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ.

أَفْضَلُ الذِّكْرِ يُقْرَأُ فِي قِيَامِهَا، وَرُكُوعُهَا وَسُجُودُهَا تَسْبِيحٌ وَتَعْظِيمٌ وَدُعَاءٌ، وَالِانْتِقَالُ بَيْنَ أَرْكَانِهَا بِالتَّكْبِيرِ، وَفِيهَا دُعَاءُ الثَّنَاءِ وَدُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ، فَهَلْ تَعْرِفُونَ عِبَادَةً فِيهَا مَا فِي الصَّلَاةِ؟! وَحَقِيقٌ بِالْعِبَادِ أَنْ يَلْهَجُوا لِرَبِّهِمْ بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ عَلَىٰ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ.

تُفْتَتَحُ الصَّلَاةُ بِالتَّكْبِيرِ (اللهُ أَكْبَرُ)، وَتَكْبِيرُ اللَّهِ تَعَالَىٰ يُشْرَعُ فِي الْمَوَاطِنِ الْكَبِيرَةِ الْعَظِيمَةِ؛ وَلِذَا شُرِعَ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، وَلَهُ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي إِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ لَيُهْزَمُونَ بِالتَّكْبِيرِ أَكْثَرَ مِنْ هَزِيمَتِهِمْ بِالسِّلَاحِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْ فَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ أَخْبَرَ أَنَّهَا تَسْقُطُ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ بِالتَّكْبِيرِ بِلَا قِتَالٍ[٥]. وَشُرِعَ التَّكْبِيرُ فِي الْحَجِّ، وَفِي الْعِيدَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ، وَشُرِعَ أَيْضًا إِذَا عَلَا نَشْزًا مِنَ الْأَرْضِ، وَشُرِعَ لِدَفْعِ أَذَىٰ الْمُؤْذِينَ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ وَسَبُعٍ وَنَارٍ، قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَهَذَا كُلُّهُ يُبَيِّنُ أَنَّ التَّكْبِيرَ مَشْرُوعٌ فِي الْمَوَاضِعِ الْكِبَارِ؛ لِكَثْرَةِ الْجَمْعِ، أَوْ لِعَظَمَةِ الْفِعْلِ، أَوْ لِقُوَّةِ الْحَالِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْكَبِيرَةِ؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَكْبَرُ، وَتَسْتَوْلِي كِبْرِيَاؤُهُ فِي الْقُلُوبِ عَلَىٰ كِبْرِيَاءِ تِلْكَ الْأُمُورِ الْكِبَارِ، فَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَيَكُونُ الْعِبَادُ لَهُ مُكَبِّرِينَ[٦]»، فَيَحْصُلُ لَهُمْ مَقْصُودَانِ: مَقْصُودُ الْعِبَادَةِ بِتَكْبِيرِ

---

(٥) جاء تفصيل هذا الفتح في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم في صحيحه (٢٩٢٠)، وقد سبق عرضه وتخريجه في المجلد الثالث، خطبة فتح القسطنطينية ورقمها (١٥١) حاشية رقم (١).

(٦) في مجموع الفتاوىٰ (مكبرون)، والجادة: مكبرين، خبر كان.

قُلُوبِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَمَقْصُودُ الاِسْتِعَانَةِ بِانْقِيَادِ سَائِرِ المَطَالِبِ لِكِبْرِيَائِهِ؛ وَلِهَذَا شُرِعَ التَّكْبِيرُ عَلَىٰ الْهِدَايَةِ وَالرِّزْقِ وَالنَّصْرِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَ أَكْبَرُ مَا يَطْلُبُهُ الْعَبْدُ، وَهِيَ جِمَاعُ مَصَالِحِهِ . . . فَجِمَاعُ هَذَا: أَنَّ التَّكْبِيرَ مَشْرُوعٌ عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ كَبِيرٍ مِنْ مَكَانٍ وَزَمَانٍ وَحَالٍ وَرِجَالٍ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَكْبَرُ لِتَسْتَوْلِيَ كِبْرِيَاؤُهُ فِي الْقُلُوبِ عَلَىٰ كِبْرِيَاءِ مَا سِوَاهُ، وَيَكُونَ لَهُ الشَّرَفُ عَلَىٰ كُلِّ شَرَفٍ، قَالَ تَعَالَىٰ فِيمَا رَوَىٰ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ: «**الْعَظَمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**»»[٧].

وَكَانَ يُقَالُ: أَبْلَغُ لَفْظَةٍ لِلْعَرَبِ فِي مَعْنَىٰ التَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ «اللهُ أَكْبَرُ» أَيْ: صِفْهُ بِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[٨]، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «قَوْلُ الْعَبْدِ: اللهُ أَكْبَرُ؛ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[٩]، وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شِعَارًا، وَإِنَّ شِعَارَ الصَّلَاةِ التَّكْبِيرُ»[١٠].

وَإِذَا عَلِمْنَا مَعْنَىٰ التَّكْبِيرِ وَمَنْزِلَتَهُ مِنَ الدِّينِ، وَأَنَّهُ حَقُّ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَلِمْنَا أَنَّ الصَّلَاةَ افْتُتِحَتْ بِهِ؛ عَرَفْنَا قَدْرَ الصَّلَاةِ، وَقَدْرَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ.

---

(٧) مجموع الفتاوىٰ (٢٤/ ٢٢٩-٢٣٠)، والحديث الذي ساقه شيخ الإسلام ابن تيمية هو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: أبي داود في اللباس، باب ما جاء في الكبر (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد، باب البراءة من الكبر، والتواضع (٤١٧٤)، وأحمد (٢/ ٢٤٨)، والطيالسي (٢٣٨٧)، وصححه ابن حبان (٣٢٨).

وجاء من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عند: مسلم في البر والصلة، باب تحريم الكبر (٢٦٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٥٢) بلفظ: «**العز إزاري والعظمة ردائي، فمن نازعني عذبته**».

(٨) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٤٥).

(٩) المصدر السابق (١٠/ ٣٤٥).

(١٠) أخرجه أبو الحسن العامري في الأمالي والقراءة (٤٥)، وابن أبي شيبة (١/ ٢٠٨).

إِنَّ المُصَلِّيَ حِينَ يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ فَهُوَ يَنْقَطِعُ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَيَتْرُكُ كُلَّ عَمَلٍ، وَيَهْجُرُ كُلَّ قَوْلٍ، وَيَقُومُ قَانِتًا بِلَا حَرَكَةٍ، مُتَّجِهًا إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِقَلْبِهِ وَجَسَدِهِ، ثُمَّ يُكَبِّرُ رَافِعًا يَدَيْهِ لِيُحْرِمَ بِالصَّلَاةِ، مُعْلِنًا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَكْبَرُ فِي ذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، مُسْتَحْضِرًا كِبْرِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَعَظَمَتَهُ ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤]، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجَاثِيَة: ٣٧]، وَلِذَا أَمَرَ سُبْحَانَهُ بِتَكْبِيرِهِ ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإِسْرَاء: ١١١] أَيْ: عَظِّمْهُ عَظَمَةً تَامَّةً[١١].

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَالْحِكْمَةُ فِي ابْتِدَاءِ الصَّلَاةِ بِالتَّكْبِيرِ: افْتِتَاحُهَا بِالتَّنْزِيهِ وَالتَّعْظِيمِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَنَعْتُهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ»[١٢].

إِنَّ المُصَلِّيَ قَدْ تَرَكَ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لِيُعْلِنَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَكْبَرُ مِنْهَا وَمِنْ أَشْغَالِهَا؛ وَلِذَلِكَ فَهُوَ يَنْبِذُ الدُّنْيَا، وَيَتْرُكُ شُغْلَهُ مَهْمَا كَبُرَ فِي نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَكْبَرُ، وَحَقُّهُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ، فَيَذِلُّ لَهُ قَانِتًا وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا.

وَمِنَ المَعَانِي المَذْكُورَةِ فِي رَفْعِ الْيَدَيْنِ مَعَ التَّكْبِيرِ، أَنَّ فِي رَفْعِهِمَا حَالَ التَّكْبِيرِ إِشَارَةً إِلَىٰ اطِّرَاحِ المُصَلِّي لِلدُّنْيَا، وَالْإِقْبَالِ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، وَمُنَاجَاةِ رَبِّهِ ﷻ، كَمَا تَضَمَّنَ ذَلِكَ قَوْلُهُ (اللهُ أَكْبَرُ)، وَفِيهِ الِاسْتِسْلَامُ وَالِانْقِيَادُ لِيُنَاسِبَ فِعْلُهُ قَوْلَهُ، وَفِيهِ اسْتِعْظَامُ مَا سَيَدْخُلُ فِيهِ وَهُوَ الصَّلَاةُ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ رَفْعِ

---

(١١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٤٥)، وينظر: الشرح الممتع للشيخ ابن عثيمين (٣/ ٢٢-٢٣).

(١٢) شرح النووي علىٰ مسلم (٤/ ٩٧).

الْحِجَابِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالمَعْبُودِ(١٣).

وَالمُحَافَظَةُ عَلَىٰ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ مَعَ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ هِيَ مِنَ الرِّبَاطِ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَىٰ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالمَسَاجِدِ، وَثَوَابُ ذَلِكَ: مَحْوُ الْخَطِيئَاتِ، وَرَفْعُ الدَّرَجَاتِ، وَالِاسْتِظْلَالُ فِي المَوْقِفِ الْعَظِيمِ بِظِلِّ الرَّحْمَنِ(١٤).

وَمَنْ حَافَظَ عَلَىٰ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ أَثْبَتَ بَرَاءَتَهُ مِنَ النِّفَاقِ؛ لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿إِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]، وَلَا يُحَافِظُ عَلَىٰ التَّكْبِيرَةِ الْأُولَىٰ كَسْلَانُ. وَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَ كَذَلِكَ حَرِيًّا بِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: «مَنْ صَلَّىٰ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ يُدْرِكُ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَىٰ كُتِبَتْ لَهُ بَرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١٥).

---

(١٣) ينظر: التمهيد لابن عبد البر (٩/ ٢١٢)، وشرح النووي علىٰ مسلم (٤/ ٩٦)، وفتح الباري لابن حجر (٢/ ٢١٨)وطرح التثريب (٢/ ٢٦٠).

(١٤) دل علىٰ ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟**» قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**إسباغ الوضوء علىٰ المكاره، وكثرة الخطىٰ إلىٰ المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط**» أخرجه مسلم في الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء علىٰ المكاره (٢٥١).
كما دل عليه حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله** ... وذكر منهم: **ورجل قلبه معلق في المساجد** ... » الحديث. أخرجه البخاري في الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

(١٥) أخرجه مرفوعا الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل التكبيرة الأولىٰ، وقال الترمذي: وقد روي هذا الحديث عن أنس موقوفا، ولا أعلم أحدا رفعه إلا ما روىٰ سلم ابن قتيبة، عن طعمة بن عمرو، وإنما يروىٰ هذا عن حبيب بن أبي حبيب البجلي، عن أنس ابن مالك قوله. حدثنا بذلك هناد قال: حدثنا وكيع عن خالد بن طهمان عن حبيب بن أبي حبيب البجلي عن أنس قوله ولم يرفعه. وروىٰ إسماعيل بن عياش هذا الحديث، عن عمارة بن غزية، عن أنس بن مالك، عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ نحو هذا. =

وَلِأَهَمِّيَّتِهَا شُرِعَ لِمَنْ كَانَ فِي نَافِلَةٍ أَنْ يَقْطَعَهَا لِيُدْرِكَ تَكْبِيرَةَ الْإِحْرَامِ، إِلَّا إِذَا أَمْكَنَهُ أَنْ يُتِمَّ نَافِلَتَهُ قَبْلَ أَنْ يُحْرِمَ الْإِمَامُ، وَإِدْرَاكُهَا يَكُونُ بِوُقُوفِهِ فِي الصَّفِّ حِينَ يُكَبِّرُ الْإِمَامُ، فَإِذَا كَبَّرَ الْإِمَامُ تَابَعَهُ بِالتَّكْبِيرِ(١٦).

= وهذا حديث غير محفوظ، وهو حديث مرسل. عمارة بن غزية لم يدرك أنس بن مالك، قال محمد بن إسماعيل: حبيب بن أبي حبيب يكنىٰ أبا الكشوثا، ويقال: أبو عميرة (٢٤١)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي.

وأخرجه موقوفًا علىٰ أنس ﷺ: عبد الرزاق (٢٠٩١).

وللحديث طرق عدة وشواهد، لكن كلها ضعيفة لا يصح منها شيء. وينظر في الكلام عليها التلخيص الحبير (٢/ ٢٧-٢٨) رقم (٥٥٨)، وخلاصة البدر المنير (١/ ١٨٦) رقم (٦٤٢).

(١٦) في فتوىٰ للجنة الدائمة للإفتاء برئاسة الشيخ ابن باز، وعضوية المشائخ: ابن قعود وابن غديان وعفيفي: إذا أقيمت الصلاة فلا يجوز الدخول في نافلة، لعموم قوله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة» رواه مسلم وغيره. وإذا أقيمت الصلاة وهو في النافلة قطعها؛ للحديث المذكور؛ ولأن الفريضة أهم منها. فتاوىٰ اللجنة الدائمة (٧/ ٢٤٠-٢٤١)، ومثله أيضا في (٧/ ٣١٤).

وفي فتوىٰ أخرىٰ للجنة الدائمة برئاسة ابن باز وعضوية ابن غديان وآل الشيخ والفوزان: إذا أقيمت الصلاة وهو في أول النافلة أو في أثنائها، فالواجب أن يقطعها بدون تسليم في أصح قولي العلماء؛ لقوله ﷺ: **«إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة»** أخرجه مسلم، وإن أقيمت وهو في الركوع من الركعة الأخيرة أو بعده فالأولىٰ أن يكملها؛ لأن ذلك لا يأخذ عليه وقتا يفوت عليه الدخول في الصلاة. فتاوىٰ اللجنة الدائمة (٦/ ٢١٧).

وقال الشيخ ابن باز: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة»**. أخرجه مسلم في صحيحه، فالمشروع لك إذا أقيمت الصلاة وأنت في نافلة أن تقطعها لهذا الحديث الشريف، مجموع فتاوىٰ ابن باز (١١/ ٣٨٩-٣٩٠). ومثله أيضًا في: (١١/ ٣٩٣، و٢٥/ ١٥٥).

وفي موضع آخر قال: لكن لو أقيمت الصلاة وهو في الركوع الأخير من النافلة أو في السجود الأخير فالأفضل إتمامها؛ لأنه لم يبق منها إلا أقل من ركعة وأقل الصلاة ركعة واحدة، مجموع فتاوىٰ ابن باز (١١/ ٣٩٠).

وقال أيضًا: من كان في صلاة النافلة حين الإقامة فإنه يقطعها للحديث المذكور، إلا أن =

وَهِيَ فِي الصَّلَاةِ رُكْنٌ لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ إِلَّا بِهَا، وَهِيَ أَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ الْعَبْدُ بِهِ صَلَاتَهُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: **«مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ إِلَّا النَّسَائِيَّ**(١٧).

= يكون في الركوع الثاني أو بعده فإنه يتمها خفيفة ثم يلتحق بالإمام؛ لأن ما أدركه في هذه الحال أقل من الركعة فلا يدخل في الحديث المذكور؛ لقول النبي ﷺ: «**من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة**» أخرجه مسلم في صحيحه. وقطع الصلاة يكون بالنية ولا يحتاج إلىٰ التسليم، مجموع فتاوىٰ ابن باز (٢٥/ ١٧٢-١٧٣). ومثله أيضًا في (٣٠/ ٧٤).

وقال الشيخ ابن عثيمين: إذا أقيمت الصلاة المكتوبة، وقد شرعت في نافلة، فمن أهل العلم من يقول: يجب عليك قطعها فورا، وإن كنت في التشهد الأخير.

ومن العلماء من يقول: لا تقطعها إلا أن تخاف أن يسلم الإمام قبل أن تدرك معه تكبيرة الإحرام. هذان قولان متقابلان.

القول الأول: إذا أقيمت الصلاة فاقطع النافلة ولو كنت في التشهد الأخير.

والقول الثاني: لا تقطعها إلا إذا بقي من صلاة الإمام بقدر تكبيرة الإحرام فاقطعها؛ يعني تستمر في الصلاة، ولا تقطعها إلا إن خفت أن يسلم الإمام قبل أن تدرك معه تكبيرة الإحرام.

هذان القولان متقابلان، يعني علىٰ هذا القول الأخير استمر في الصلاة حتىٰ لو فاتتك جميع الركعات، ما دمت تدرك تكبيرة الإحرام قبل أن يسلم الإمام، فاستمر في هذا النفل، وعندي أن القول الوسط في ذلك أنه إذا أقيمت الصلاة وأنت في الركعة الثانية فأتمها خفيفة، وإن أقيمت وأنت في الركعة الأولىٰ فاقطعها، لقول النبي ﷺ: «**من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة**»، فإذا كنت قد صليت ركعة قبل إقامة الصلاة فقد أدركت ركعة قبل الحظر والمنع، وإذا أدركت ركعة قبل الحظر والمنع فقد أدركت الصلاة، وصارت الصلاة كلها غير ممنوعة فتتمها لكن خفيفة؛ لأن إدراك جزء من الفرض خير من إدراك جزء من النفل، أما إذا كنت في الركعة الأولىٰ فإنك لم تدرك من الوقت ما تدرك به الصلاة؛ لأن النبي ﷺ يقول: «**من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة**». وبناء علىٰ هذا فإنك تقطعها؛ لقول النبي ﷺ: «**إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة**» فتاوىٰ أركان الإسلام (٣٧١).

(١٧) أخرجه من حديث علي ﷺ: أبو داود في الطهارة، باب فرض الوضوء (٦١)، =

إِنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ -عَلَيْهِمْ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ- قَدْ أَدْرَكُوا مَنْزِلَةَ الصَّلَاةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَعَرَفُوا قِيمَةَ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ؛ فَمَا أَقْعَدَهُمْ عَنْ إِدْرَاكِهَا عَجْزٌ وَلَا كَسَلٌ، وَلَا حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا مَالٌ وَلَا وَلَدٌ، وَلَا أَخَّرَهُمْ عَنْهَا صَنْعَةٌ وَلَا عَمَلٌ؛ فَلَقَدْ كَانُوا يَتَهَيَّئُونَ لِصَلَاتِهِمْ قَبْلَ النِّدَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَسْمَعِ النِّدَاءَ إِلَّا مِنْ دَاخِلِ الْمَسْجِدِ مِنْ مُبَالَغَتِهِ فِي التَّبْكِيرِ إِلَىٰ الْجَمَاعَةِ، وَالْمُسَابَقَةِ عَلَىٰ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَالْحِرْصِ عَلَىٰ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْهُمْ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، أَوْ شَهْرًا أَوْ شَهْرَيْنِ، بَلْ هُوَ وَاللَّهِ جُلُّ أَعْمَارِهِمْ، وَأَكْثَرُ أَيَّامِهِمْ، فَلِلَّهِ دَرُّهَمْ مَا أَصْبَرَهُمْ! وَمَا أَشَدَّ رَغْبَتَهُمْ فِي الْخَيْرِ! وَمَا أَعْظَمَ جِهَادَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ! اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ سِيَرَهُمْ، وَقَارِنُوا حَالَنَا بِحَالِهِمْ!!

يَقُولُ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ ﷺ: «مَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ إِلَّا وَأَنَا عَلَىٰ وُضُوءٍ»(١٨)، «وَمَا دَخَلَ وَقْتُ صَلَاةٍ حَتَّىٰ أَشْتَاقَ إِلَيْهَا»(١٩).

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «مَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً إِلَّا وَأَنَا فِي الْمَسْجِدِ»(٢٠)، وَقَالَ أَيْضًا: «مَا فَاتَتْنِي الصَّلَاةُ فِي جَمَاعَةٍ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً»(٢١).

وَعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «مَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ

= والترمذي في الطهارة، باب ما جاء أن مفتاح الصلاة الطهور، وذكر الترمذي أنه أصح شيء في الباب وأحسنه (٣)، وابن ماجه في الطهارة وسننها، باب مفتاح الصلاة الطهور (٢٧٥)، والدارمي (٦٨٧)، وأحمد (١/ ١٢٣)، وأبو يعلىٰ (٦١٦) وجاء نحوه عن جابر وأبي سعيد وابن عباس ﷺ.

(١٨) أخرجه الخطيب في تاريخه (٢/ ٢٨٩).

(١٩) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٤).

(٢٠) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٩٢٦)، وهو في السير (٤/ ٢٢١).

(٢١) أخرجه عبد الرزاق (٤/ ٢٧٩)، والبيهقي في الشعب (٢٩٢٤-٢٩٢٥).

مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلَّا وَأَنَا فِي المَسْجِدِ، إِلَّا أَنْ أَكُونَ مَرِيضًا أَوْ مُسَافِرًا»[٢٢].

وَبِشْرُ بْنُ مَنْصُورٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- مَا فَاتَتْهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ قَطُّ[٢٣].

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ سَمَاعَةَ التَّيْمِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَكَثْتُ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ تَفُتْنِي التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ إِلَّا يَوْمَ مَاتَتْ أُمِّي»[٢٤].

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَيْمُونٍ المَرْوَزِيُّ يَمْتَهِنُ صِيَاغَةَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَكَانَ إِذَا رَفَعَ الْمِطْرَقَةَ فَسَمِعَ النِّدَاءَ أَلْقَاهَا، فَلَمْ يَرُدَّهَا، وَلَمْ يَطْرُقْ بِهَا[٢٥].

وَقَالَ وَكِيعٌ: «كَانَ الْأَعْمَشُ قَرِيبًا مِنْ سَبْعِينَ سَنَةً لَمْ تَفُتْهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ، وَاخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ قَرِيبًا مِنْ سَنَتَيْنِ، فَمَا رَأَيْتُهُ يَقْضِي رَكْعَةً»[٢٦].

وَكَانُوا -رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ- يَأْسَوْنَ لِحَالِ مَنْ يَتَهَاوَنُ بِتَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ، وَيَسْقُطُ مِنْ أَعْيُنِهِمْ؛ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتَهَاوَنُ فِي التَّكْبِيرَةِ الْأُولَىٰ فَاغْسِلْ يَدَكَ مِنْهُ»[٢٧]، وقَالَ وَكِيعٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَنْ لَمْ يُدْرِكِ التَّكْبِيرَةَ الْأُولَىٰ فَلَا تَرْجُ خَيْرَهُ»[٢٨].

تِلْكَ بَعْضُ أَخْبَارِهِمْ مَعَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ، وَعَسَىٰ أَنْ نَتَأَسَّىٰ بِهِمْ فِي الْخَيْرِ وَالْهُدَىٰ، وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُلْحِقَنَا بِهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .

---

(٢٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٢٩٣٠)، وهو في السير (٥/ ٢٤٠).

(٢٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٤٠).

(٢٤) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٤٦).

(٢٥) ذكر ذلك أبو داود في سننه (٣/ ٢٢٣).

(٢٦) أخرجه أبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٧٥٥).

(٢٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٢١٥).

(٢٨) أخرجه الدوري في تاريخ ابن معين (٢١٤٦)، والبيهقي في الشعب (٢٩١١).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لِصَلَاةِ الْجَمَاعَةِ رِجَالٌ يُحَافِظُونَ عَلَيْهَا، وَلِلتَّكْبِيرَةِ الْأُولَىٰ أَفْذَاذٌ لَا يُفَوِّتُونَهَا، وَهُمْ عُمَّارُ الْمَسَاجِدِ الَّذِينَ امْتَدَحَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النُّور: ٣٦-٣٨].

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- فِي تَفْسِيرِهَا: «كَانُوا حَدَّادِينَ وَخَرَّازِينَ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا رَفَعَ الْمِطْرَقَةَ، أَوْ غَرَزَ الْإِشْفَىٰ -وَهُوَ مَا يُخْرَزُ بِهِ- فَسَمِعَ الْأَذَانَ لَمْ يُخْرِجِ الْإِشْفَىٰ مِنَ الْغُرْزَةِ، وَلَمْ يُوقِعِ الْمِطْرَقَةَ، وَرَمَىٰ بِهَا، وَقَامَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ»(٢٩).

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَبْتَدِرُونَ عِنْدَ الْأَذَانِ، وَيُخْلُونَ الْأَسْوَاقَ لِلصِّبْيَانِ وَأَهْلِ

---

(٢٩) شرح البخاري(٦/ ٢٠٢)، وعنه العيني (١١/ ١٧٤).

الذِّمَّةِ، وَكَانُوا يَسْتَأْجِرُونَ بِالْقَرَارِيطِ لِحِفْظِ الْحَوَانِيتِ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ، وَكَانَ ذَلِكَ مَعِيشَةً لَهُمْ(٣٠).

وَلَا زَالَتْ سُنَّةُ تَعْطِيلِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْأَعْمَالِ أَثْنَاءَ الصَّلَاةِ قَائِمَةً فِي هَذِهِ الْبِلَادِ الْمُبَارَكَةِ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَتَوْفِيقِهِ؛ سَيْرًا عَلَىٰ سُنَنِ أُولَئِكَ الصَّالِحِينَ، وَالْتِزَامًا بِهَدْيِهِمْ، وَيُرِيدُ الْمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ إِلْغَاءَ تِلْكَ السُّنَّةِ الْمُبَارَكَةِ، بِالْقَضَاءِ عَلَىٰ نِظَامِ الْحِسْبَةِ، أَخْزَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ وَكَبَتَهُمْ، وَلَا بَلَّغَهُمْ مَا يُرِيدُونَ.

وَرَأَىٰ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ السُّوقِ حَيْثُ نُودِيَ لِلصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ تَرَكُوا بِيَاعَاتِهِمْ وَنَهَضُوا إِلَىٰ الصَّلَاةِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النُّور: ٣٧](٣١).

وَقَالَ مَطَرٌ الْوَرَّاقُ: «كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ، وَلَكِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا سَمِعَ النِّدَاءَ وَمِيزَانُهُ فِي يَدِهِ خَفَضَهُ وَأَقْبَلَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ»(٣٢).

وَإِذَا كَانَ حَالُ السَّلَفِ مَعَ التَّكْبِيرَةِ الْأُولَىٰ مَا قَدْ سَمِعْتُمْ فَإِنَّ فِي هَذَا الزَّمَنِ مَنِ الْتَزَمُوا هَذَا الْهَدْيَ، وَسَارُوا عَلَىٰ السُّنَّةِ؛ فَتَرَاهُمْ يُسَابِقُونَ إِلَىٰ النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَيَحْرِصُونَ عَلَىٰ إِدْرَاكِ التَّكْبِيرَةِ الْأُولَىٰ، أَكْثَرُهُمْ شُيُوخٌ وَكُهُولٌ، وَمِنْهُمْ شَبَابٌ وَفِتْيَانٌ، وَمَا مِنْ مَسْجِدٍ مِنْ مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا إِلَّا وَفِيهِ مِنْهُمْ بِضْعَةُ رِجَالٍ، وَهُمْ مَعَ مُحَافَظَتِهِمْ عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ، وَحِرْصِهِمْ عَلَىٰ التَّكْبِيرَةِ الْأُولَىٰ لَمْ يَفُتْهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَدْرَكَهُ غَيْرُهُمْ مِمَّنْ ضَيَّعُوا الصَّلَوَاتِ، وَهَجَرُوا الْجَمَاعَاتِ!! بَلْ رُبَّمَا أَدْرَكُوا هُمْ مِنْهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَدْرَكَهُ أُولَئِكَ الْمُفَرِّطُونَ.

---

(٣٠) إحياء علوم الدين (٢/ ٨٥).

(٣١) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٦)، وجاء مثله عن ابن عمر ﵄.

(٣٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٦).

وَلَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُفَرِّطِينَ أَنَّهُمْ ضَبَطُوا أَوْقَاتَ الصَّلَوَاتِ، وَفَرَّغُوهَا مِنَ الْمَشَاغِلِ وَالْأَعْمَالِ، وَسَارُوا فِي حَيَاتِهِمْ عَلَىٰ هَذَا النِّظَامِ؛ فَمَا يُؤَذَّنُ لِلصَّلَاةِ إِلَّا وَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ، إِنْ كَانُوا فِي السُّوقِ فَفِي مَسْجِدِ السُّوقِ، وَإِنْ كَانُوا فِي وَظَائِفِهِمْ فَفِي مُصَلَّيَاتِ أَعْمَالِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا فِي بُيُوتِهِمْ فَفِي مَسَاجِدِ حَارَاتِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا فِي الطَّرِيقِ قَصَدُوا أَقْرَبَ الْمَسَاجِدِ.

وَإِذَا أَرَادَ وَاحِدُهُمْ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا، أَوْ كَانَتْ لَهُ وِجْهَةٌ يَقْصِدُهَا نَظَرَ إِلَىٰ سَاعَتِهِ، فَقَدَّرَ أَنْ يَبْلُغَ وِجْهَتَهُ قَبْلَ الْأَذَانِ، أَوْ أَرْجَأَ سَيْرَهُ إِلَىٰ مَا بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَبِذَا اعْتَادُوا ضَبْطَ أَوْقَاتِهِمْ عَلَىٰ النِّدَاءِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ كَبِيرُ عَنَاءٍ أَوْ مَشَقَّةٍ، بِخِلَافِ أَكْثَرِ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَأْبَهُونَ بِذَلِكَ، وَلَرُبَّمَا كَانَ ضَبْطُهُمْ لِأَوْقَاتِهِمْ عَلَىٰ الْإِقَامَةِ لَا عَلَىٰ الْأَذَانِ، وَكَثِيرًا مَا تَفُوتُهُمْ تَكْبِيرَةُ الْإِحْرَامِ، وَيَفُوتُهُمْ مَعَهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ.

وَمَنْ نَظَرَ إِلَىٰ تَزَاحُمِ النَّاسِ عَلَىٰ الْبُنُوكِ عِنْدَ الِاكْتِتَابِ فِي الْأَسْهُمِ، حَتَّىٰ نُقِلَتْ صُوَرٌ مُخْجِلَةٌ فِي ذَلِكَ، وَقَارَنَهُ مَعَ فَرَاغِ الْمَسَاجِدِ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَفِي بَعْضِ الْمَسَاجِدِ عِنْدَ الْإِقَامَةِ؛ عَلِمَ مَدَىٰ تَمَكُّنِ الدُّنْيَا مِنَ الْقُلُوبِ، وَتَفْرِيطِ أَكْثَرِ النَّاسِ فِي الْخَيْرِ الدَّائِمِ، وَتَقَاعُسِهِمْ عَنْ تَحْصِيلِ أَسْبَابِ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَخُذُوا مِنَ الْخَيْرِ حَظَّكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ نَاسًا عَاشُوا قَبْلَكُمْ، وَآخَرِينَ مَعَكُمْ، مِنْهُمْ مَنْ لَمْ تَفُتْهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَاتَتْهُمْ كَثِيرًا، وَكَانُوا مَعًا فِي مَآكِلِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، الْمُحْسِنُونَ مِنْهُمْ وَالْمُفَرِّطُونَ!! وَقَدْ مَضَوْا إِلَىٰ قُبُورِهِمْ: الْمُحْسِنُ مِنْهُمْ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُفَرِّطُ بِتَفْرِيطِهِ وَحِرْمَانِهِ، وَسَتَمْضُونَ كَمَا مَضَوْا، وَتَجِدُونَ مَا وَجَدُوا، فَأَعِدُّوا لِذَلِكَ الْيَوْمِ عُدَّتَهُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ . . .



٢٣٧- عمود الإسلام (٢)
الركوع والسجود

٣٠/ ١٢/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَانَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَشَرَعَ لَنَا الدِّينَ الْحَنِيفَ، مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، فَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، الْجَوَادُ الْكَرِيمُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإِسْرَاء: ٤٤]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَشَدُّهُمْ خَشْيَةً مِنْهُ، وَأَكْثَرُهُمْ تَعْظِيمًا لَهُ؛ صَلَّىٰ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَبَكَىٰ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ حِجْرَهُ، ثُمَّ بَكَىٰ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ لِحْيَتَهُ، ثُمَّ بَكَىٰ فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟**»[1]، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَأَخْلِصُوا لَهُ دِينَكُمْ، وَاقْدُرُوهُ حَقَّ

---

(١) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: ابن حبان بهذا اللفظ (٦٢٠)، وأصل الحديث عند: البخاري في التفسير، باب قوله تعالىٰ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (٤٨٣٦)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).

قَدْرِهِ، وَاعْبُدُوهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١].

أَيُّهَا النَّاسُ: الدُّنْيَا مَلْهَاةٌ لِلْعِبَادِ، وَزَخَارِفُهَا تَصُدُّهُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَتُنْسِيهِمُ الدَّارَ الْأُخْرَىٰ، وَمَعَ شِدَّةِ الِاغْتِرَارِ بِهَا وَزَخَارِفِهَا يَحْتَاجُ الْعِبَادُ إِلَىٰ مَا يُذَكِّرُهُمْ حُقُوقَ رَبِّهِمْ عَلَيْهِمْ، وَيُنَبِّهُهُمْ حَالَ غَفْلَتِهِمْ، وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ أَنْ شَرَعَ لَهُمُ الصَّلَوَاتِ، وَفَرَضَهَا عَلَيْهِمْ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، تُقَرِّبُهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وَتُذَكِّرُهُمْ آخِرَتَهُمْ .. تَنْشَرِحُ بِهَا صُدُورُهُمْ، وَتُخَفِّفُ هُمُومَهُمْ وَغُمُومَهُمْ. وَإِنَّهَا وَاللَّهِ لَمِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ لِمَنْ هُدِيَ إِلَيْهَا، وَوَاظَبَ عَلَيْهَا.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَمَّا كَانَ الْعَبْدُ خَارِجَ الصَّلَاةِ مُهْمِلًا جَوَارِحَهُ، قَدْ أَسَامَهَا فِي مَرَاتِعِ الشَّهَوَاتِ وَالْحُظُوظِ أُمِرَ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالْإِقْبَالِ بِجَمِيعِ جَوَارِحِهِ عَلَىٰ رَبِّهِ ... وَاقِفًا بَيْنَ يَدَيْهِ، مُقْبِلًا بِكُلِّهِ عَلَيْهِ، مُعْرِضًا عَمَّنْ سِوَاهُ، مُتَنَصِّلًا مِنْ إِعْرَاضِهِ عَنْهُ، وَجِنَايَتِهِ عَلَىٰ حَقِّهِ، وَلَمَّا كَانَ هَذَا طَبْعَهُ وَدَأْبَهُ أُمِرَ أَنْ يُجَدِّدَ هَذَا الرُّكُوعَ إِلَيْهِ، وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ، وَقْتًا بَعْدَ وَقْتٍ؛ لِئَلَّا يَطُولَ عَلَيْهِ الْأَمَدُ فَيَنْسَىٰ رَبَّهُ، وَيَنْقَطِعَ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَكَانَتِ الصَّلَاةُ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ، وَأَفْضَلِ هَدَايَاهُ الَّتِي سَاقَهَا إِلَيْهِ» اهـ(٢).

وَالصَّلَاةُ شَأْنُهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَظِيمٌ، وَمَقَامُهَا فِي الْإِسْلَامِ كَبِيرٌ؛ فَهِيَ عَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ آخِرُ مَا يُفْقَدُ مِنْهُ، وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ ضَيَّعَهَا.

هِيَ دَلِيلُ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَرَجَائِهِ وَخَوْفِهِ، وَهِيَ أَكْثَرُ المَقَامَاتِ ذُلًّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، فِي تَكْرَارِهَا، وَفِي أَقْوَالِهَا وَأَفْعَالِهَا، وَفِي هَيْئَةِ المُصَلِّي فِيهَا.

وَأَبْيَنُ المَوَاضِعِ فِيهَا ذُلًّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ: الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ، وَهُمَا رُكْنَانِ مِنْ

---

(٢) باختصار من شفاء العليل (٢٣٠).

أَرْكَانِهَا لَا تَصِحُّ الصَّلَاةُ بِدُونِهِمَا؛ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِهِمَا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ [الْحَجّ: ٧٧]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَنْ يُعَلِّمُهُ الصَّلَاةَ: «**ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا**»، وَقَالَ لَهُ فِي السُّجُودِ: «**ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٣).

إِنَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجودَ عَمَلَانِ جَلِيلَانِ يَسْتَسْلِمُ بِهِمَا الْمُصَلِّي لِرَبِّهِ، وَيُثْبِتُ أَنَّهُ عَبْدُهُ، وَيُعْلِنُ كَامِلَ ذُلِّهِ، مُنَزِّهًا رَبَّهُ عَنْ كُلِّ ذُلٍّ وَنَقْصٍ، مُقِرًّا لَهُ بِالْكَمَالِ وَالْعِزِّ، فَمَا أَرْوَعَ هَيْئَةَ الْمُصَلِّي حِينَ يُرَاغِمُ الشَّيْطَانَ الْمُسْتَكْبِرَ بِالتَّذَلُّلِ للَّهِ تَعَالَىٰ فِعْلًا وَقَوْلًا!

وَالْكُفَّارُ قَدِ اسْتَكْبَرُوا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَامْتَنَعُوا عَنِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لَهُ سُبْحَانَهُ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [الْمُرْسَلَات: ٤٨] وَلِذَلِكَ يُعَذَّبُونَ.

وَالرُّكُوعُ انْحِنَاءٌ يُقْصَدُ بِهِ التَّعَبُّدُ للَّهِ تَعَالَىٰ وَتَعْظِيمُهُ وَإِجْلَالُهُ، يُسَوِّي فِيهِ الْمُصَلِّي ظَهْرَهُ، وَقَدْ حَكَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَكَعَ لَمْ يُشْخِصْ رَأْسَهُ وَلَمْ يُصَوِّبْهُ، وَلَكِنْ بَيْنَ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

وفِي حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**أَتِمُّوا الرُّكُوعَ**

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في صفة الصلاة، باب حد إتمام الركوع والاعتدال فيه والطمأنينة (٧٦٠)، ومسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة ... (٣٩٧).

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يجمع صفة الصلاة وما يفتتح به ويختم به، وصفة الركوع والاعتدال منه، والسجود والاعتدال منه، والتشهد بعد كل ركعتين من الرباعية، وصفة الجلوس بين السجدتين، وفي التشهد الأول (٤٩٨)، وأبو داود في الصلاة، باب من لم ير الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم (٧٨٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الركوع في الصلاة (٨٦٩)، وأحمد (٦/ ١٩٤).

وَالسُّجُودَ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ بَعْدِ ظَهْرِي إِذَا مَا رَكَعْتُمْ، وَإِذَا مَا سَجَدْتُمْ»(٥).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تُجْزِئُ صَلَاةٌ لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ فِيهَا صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ**» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ حِبَّانَ(٦).

وَلَا يَتَأَتَّىٰ لِلْمُصَلِّي أَنْ يُقِيمَ صُلْبَهُ فِي هَذَيْنَ الرُّكْنَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ إِلَّا بِالطُّمَأْنِينَةِ فِي صَلَاتِهِ. وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَقِيمُوا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَحَرِيٌّ بِالْمُصَلِّي إِذَا رَكَعَ أَنْ يَفْهَمَ مَعْنَىٰ الرُّكُوعِ، وَأَنْ يَسْتَحْضِرَ مَقَامَهُ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مَا رَكَعَ إِلَّا خُضُوعًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، مُوقِنًا بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، قَدْ رَضِيَ مِنْهُ هَذَا الْخُضُوعَ لَهُ، وَلَا يَكُونُ رُكُوعُهُ مُجَرَّدَ حَرَكَةٍ يُؤَدِّيهَا فِي صَلَاتِهِ.

وَمَنْ تَأَمَّلَ أَذْكَارَ الرُّكُوعِ عَلِمَ مَكَانَتَهُ مِنَ الصَّلَاةِ، فَالرَّاكِعُ يُسَبِّحُ اللهَ تَعَالَىٰ، وَيَصِفُهُ بِالْعَظَمَةِ، فَيَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ(٧).

وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الْوَاقِعَة: ٧٤] قَالَ عَلَيْهِ

---

(٥) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٦٤٤)، ومسلم في الصلاة، باب الأمر بتحسين الصلاة وإتمامها والخشوع فيها (٤٢٥).

(٦) أخرجه الترمذي في الصلاة، باب ما جاء فيمن لا يقيم صلبه في الركوع والسجود، وقال: حديث حسن صحيح (٢٦٥)، والنسائي في الافتتاح، باب إقامة الصلب في الركوع (٢/ ١٨٣)، وابن ماجه في الصلاة، باب الركوع (٨٧٠)، والدارمي (١٣٢٧)، وصححه ابن خزيمة (٦٦٦)، وابن حبان (١٨٩٢)، وابن الجارود (١٩٥).

(٧) أخرجه من حديث حذيفة ﷺ: مسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (٧٧٢).

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] قَالَ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٨).

وَفِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَالمُصَلِّي يُنَاجِي رَبَّهُ فِي رُكُوعِهِ مُقِرًّا بِرُبُوبِيَّتِهِ، مُعْلِنًا إِيمَانَهُ بِهِ، مُثْبِتًا خُشُوعَ جَوَارِحِهِ كُلِّهَا لِرَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، كَمَا رَوَىٰ عَلِيٌّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا رَكَعَ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٠).

وَالرَّاكِعُ وَهُوَ يَسْتَشْعِرُ عَظَمَةَ مَنْ يَرْكَعُ لَهُ، يُعْلِنُ ذُلَّهُ لَهُ، وَيُقِرُّ بِفَقْرِهِ إِلَيْهِ، فَيَحْنِي ظَهْرَهُ، وَيَخْفِضُ جَبْهَتَهُ، مُتَفَكِّرًا فِي عَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَفِي كِبْرِيَائِهِ وَسُلْطَانِهِ وَمَلَكُوتِهِ وَجَبَرُوتِهِ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي

---

(٨) أخرجه من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: أبو داود في الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٦٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب التسبيح في الركوع والسجود (٨٨٧)، والدارمي (١٣٠٥)، وأحمد (٤/ ١٥٥)، وأبو يعلىٰ (١٧٣٨)، وصححه ابن خزيمة (٦٠٠)، وابن حبان (١٨٩٩)، والحاكم (٢/ ٥١٩).

(٩) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٧)، وأبو داود في التطبيق، باب نوع آخر من الذكر في الركوع (٢/ ١٩٠)، وأحمد (٦/ ٣٤)، وابن خزيمة (٦٠٦)، وابن حبان (١٨٩٩).

(١٠) أخرجه من حديث علي رضي الله عنه: مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (٧٦٠)، والترمذي في الدعوات، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل (٣٤٢١)، والنسائي في التطبيق، باب نوع آخر من الذكر في الركوع (٢/ ١٩٢)، وأحمد (١/ ٩٤)، وأبو يعلىٰ (٥٧٤)، وابن خزيمة (٦٠٧)، وابن حبان (١٩٠١).

رُكُوعِهِ: «**سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١١).

وَالرَّاكِعُ يَسْتَحْضِرُ حَالَ رُكُوعِهِ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ، وَتَقْصِيرَهُ فِي طَاعَةِ مَوْلَاهُ فَيُسَبِّحُهُ وَيَسْأَلُهُ المَغْفِرَةَ، وَيَقُولُ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٢).

وَالمُلَاحَظُ أَنَّ الصِّفَةَ المُشْتَرَكَةَ بَيْنَ هَذِهِ الأَذْكَارِ الْعَظِيمَةِ هِيَ صِفَةُ التَّسْبِيحِ؛ فَقَدْ جَاءَ التَّسْبِيحُ فِيهَا كُلِّهَا. وَالتَّسْبِيحُ هُوَ تَنْزِيهُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَنْ أَيِّ نَقْصٍ، وَإِثْبَاتُ الْكَمَالِ لَهُ ﷻ، وَالرَّاكِعُ يُؤَكِّدُ هَذَا المَعْنَىٰ بِإِضَافَةِ صِفَةِ الْعَظَمَةِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بَعْدَ تَنْزِيهِهِ عَنِ النَّقْصِ «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ** ﷿» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٣).

وَالرَّاكِعُ قَدْ جَمَعَ بِرُكُوعِهِ وَذِكْرِهِ فِيهِ بَيْنَ التَّعْظِيمِ الْفِعْلِيِّ بِانْحِنَائِهِ، وَبَيْنَ التَّعْظِيمِ الْقَوْلِي بِتَسْبِيحِهِ وَذِكْرِهِ(١٤).

وَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنَ الرُّكُوعِ فَإِنَّ شَأْنَ السُّجُودِ أَعْظَمُ، وَهُوَ أَبْلَغُ فِي الذُّلِّ لِلَّهِ

---

(١١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٧٣)، والنسائي في التطبيق، باب نوع آخر من الذكر في الركوع (٢/ ١٩١)، والترمذي في الشمائل (٣٠٦)، والبزار (٢٧٥٠)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٠٠٩)، والبيهقي (٢/ ٣١٠)، والبغوي في شرح السنة (٩١٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (الأم ٨١٧).

(١٢) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في صفة الصلاة، باب التسبيح والدعاء في السجود (٨١٧)، ومسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

(١٣) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄: مسلم في الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (٤٧٩)، والنسائي في التطبيق، باب تعظيم الرب في الركوع (٢/ ١٨٩)، والدارمي (١٣٢٦)، وابن حبان (٦٠٤٥).

(١٤) ينظر: الشرح الممتع علىٰ زاد المستقنع (٣/ ٩٣).

تَعَالَىٰ، وَمَا الرُّكُوعُ إِلَّا بِمَثَابَةِ التَّهَيُّؤِ لِلسُّجُودِ، وَالمُقَدِّمَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالتَّوْطِئَةِ لَهُ، وَقَدْ فَعَلَ السُّجُودَ تَعَبُّدًا للَّهِ تَعَالَىٰ أَشْرَفُ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ المَلَائِكَةِ المُقَرَّبِينَ، وَالْأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩﴾ [الْأَعْرَاف: ٢٠٦].

وَجَاءَ الْأَمْرُ بِالسُّجُودِ للَّهِ تَعَالَىٰ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِ السَّجَدَاتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٧].

وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَكَمَا اسْتَنْكَفُوا عَنِ الرُّكُوعِ للَّهِ تَعَالَىٰ فَهُمْ كَذَلِكَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِ السُّجُودِ لَهُ سُبْحَانَهُ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الْفُرْقَان: ٦٠].

وَالسُّجُودُ فِي الصَّلَاةِ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِهَا، يَجِبُ أَنْ يُمَكِّنَ المُصَلِّي أَعْضَاءَهُ السَّبْعَةَ مِنَ الْأَرْضِ؛ كَمَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَعْظُمٍ: عَلَىٰ الجَبْهَةِ**- وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَىٰ أَنْفِهِ- **وَالْيَدَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٥).

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي سُجُودِهِ لَا يَتَّقِي الْأَرْضَ بِوَجْهِهِ قَصْدًا، بَلْ إِذَا اتَّفَقَ لَهُ ذَلِكَ فَعَلَهُ؛ وَلِذَلِكَ سَجَدَ فِي المَاءِ وَالطِّينِ(١٦).

إِنَّ أَشْرَفَ شَيْءٍ فِي الْإِنْسَانِ وَجْهُهُ، وَلِذَا كَانَتِ الْعَرَبُ إِذَا أَهَانَتْ أَحَدًا قَبَّحَتْ وَجْهَهُ، وَإِذَا أَرَادُوا النِّكَايَةَ بِشَخْصٍ جَدَعُوا أَنْفَهُ؛ مُبَالَغَةً فِي إِهَانَتِهِ وَتَحْقِيرِهِ، وَفِي

---

(١٥) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب السجود علىٰ الأنف (٧٧٩)، ومسلم في الصلاة، باب أعضاء السجود (٤٩٠).

(١٦) الصلاة وحكم تاركها لابن القيم (٢١٠).

وَعِيدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِمَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القَلَم: ١٦] أَيْ: عَلَىٰ وَجْهِهِ أَوْ أَنْفِهِ[١٧]، وَأَشَقُّ شَيْءٍ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يُوسَمَ فِي وَجْهِهِ؛ لِأَنَّهُ عُنْوَانُ كَرَامَتِهِ، وَبِهِ يَسْتَقْبِلُ النَّاسَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ إِلَيْهِ، وَالْمُصَلِّي حِينَ يَهْوِي بِجَسَدِهِ عَلَىٰ الْأَرْضِ فَإِنَّهُ يُمَرِّغُ فِيهَا أَكْرَمَ شَيْءٍ عَلَيْهِ وَهُوَ وَجْهُهُ؛ ذُلًّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَتَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا، وَيَضَعُ جَبْهَتَهُ وَأَنْفَهُ مَوْضِعَ الْأَقْدَامِ، فَأَيُّ شَرَفٍ يَسْتَحِقُّهُ الْمُسْلِمُ وَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي صَلَاتِهِ؟!

وَمَعَ كَوْنِ السُّجُودِ سُفُولًا بِالْعَبْدِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَبُعْدًا عَنِ التَّعَالِي وَالسُّمُوِّ، وَالرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ مُسْتَوٍ عَلَىٰ عَرْشِهِ، مُتَعَالٍ عَلَىٰ خَلْقِهِ، مُنَزَّهٌ عَنِ السُّفُولِ . . مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ حَالَ سُجُودِهِ أَقْرَبُ إِلَىٰ رَبِّهِ مِنْ حَالِهِ فِي قِيَامِهِ أَوْ قُعُودِهِ أَوْ رُكُوعِهِ، وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا إِكْرَامًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِمَنْ عَبَدَهُ، فَوَضَعَ أَكْرَمَ شَيْءٍ فِيهِ وَهُوَ وَجْهُهُ مَوْضِعَ الْأَقْدَامِ؛ ذُلًّا لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا. رَوَىٰ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»[١٨].

إِنَّ سُجُودَ الْعَبْدِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ بَابٌ عَرِيضٌ مِنْ أَبْوَابِ الذُّلِّ وَالْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، يَنْتِجُ عَنْهُ اسْتِجَابَةُ الدُّعَاءِ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ الْكَرِيمَ إِذَا رَأَىٰ ذُلَّ عَبْدِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَافْتِقَارَهُ إِلَيْهِ، مَعَ سُؤَالِهِ وَإِلْحَاحِهِ عَلَيْهِ لَا يَرُدُّهُ خَائِبًا؛ وَلِذَا كَانَ الدُّعَاءُ أَرْجَىٰ إِجَابَةً فِي

---

(١٧) ذهب بعض المفسرين إلىٰ أن ذلك في الدنيا بسواد في وجهه، وكما حصل للمشركين في بدر من ضرب الملائكة المشركين علىٰ وجوههم وأنوفهم ووسمها، وقيل: يكون ذلك في الآخرة، ومال الطبري وتبعه ابن كثير إلىٰ أنه لا مانع من اجتماع ذلك عليهم في الدنيا والآخرة، ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠٦).

(١٨) أخرجه مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢)، وأبو داود في صفة الصلاة، باب في الدعاء في الركوع والسجود (٨٧٥)، والنسائي في الكبرىٰ (٧٢٣)، وأحمد (٢/ ٤٢١)، وأبو يعلىٰ (٦٦٥٨)، وابن حبان (١٩٢٨).

حَالِ السُّجُودِ مِنْ أَيِّ حَالٍ أُخْرَىٰ، وَأُمِرَ الْمُصَلِّي بِالْإِكْثَارِ فِيهِ مِنَ الدُّعَاءِ، وَنُهِيَ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ حَالَ رُكُوعِهِ وَحَالَ سُجُودِهِ؛ لِأَنَّهُمَا مَوْضِعَا ذُلٍّ وَسُفُولٍ، وَالْقُرْآنُ أَشْرَفُ الْكَلَامِ، فَلَا يُنَاسِبُ أَنْ يُقْرَأَ فِي تِلْكَ الْحَالِ، بَلِ الْمُنَاسِبُ تَنْزِيهُ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَتَعْظِيمُهُ وَدُعَاؤُهُ؛ وَلِذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ ﷻ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٩).

وَنَاسَبَ فِي أَذْكَارِ السُّجُودِ أَنْ يَقْرِنَ السَّاجِدُ بَيْنَ تَنْزِيهِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَبَيْنَ إِقْرَارِهِ بِعُلُوِّهِ، فَيَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ، مُسْتَحْضِرًا عُلُوَّ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلِيٌّ بِذَاتِهِ، وَعَلِيٌّ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ جَلَّ فِي عُلَاهُ أَعْلَىٰ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

وَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَتَذَكَّرَ حَالَ سُجُودِهِ ذُلَّهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، وَحَاجَتَهُ وَفَقْرَهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَا تَطَامَنَ بِجَسَدِهِ، وَمَرَّغَ فِي الْأَرْضِ وَجْهَهُ إِلَّا إِقْرَارًا بِذُلِّهِ، وَعُلُوِّ رَبِّهِ، فَلْيَكُنْ كَذَلِكَ فِي قَلْبِهِ كَمَا أَدَّاهُ بِجَسَدِهِ.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَمَّا كَانَ السُّجُودُ غَايَةَ سُفُولِ الْعَبْدِ وَخُضُوعِهِ سَبَّحَ اسْمَ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْأَعْلَىٰ، وَالْعَبْدُ الْأَسْفَلُ، كَمَا أَنَّهُ الرَّبُّ، وَالْعَبْدُ الْعَبْدُ، وَهُوَ الْغَنِيُّ، وَالْعَبْدُ الْفَقِيرُ، وَلَيْسَ بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ إِلَّا مَحْضُ الْعُبُودِيَّةِ، فَكُلَّمَا كَمَّلَهَا قَرُبَ الْعَبْدُ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ بَرٌّ جَوَادٌ مُحْسِنٌ، يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُنَاسِبُهُ، فَكُلَّمَا عَظُمَ فَقْرُهُ إِلَيْهِ كَانَ أَغْنَىٰ، وَكُلَّمَا عَظُمَ ذُلُّهُ لَهُ كَانَ أَعَزَّ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ لِمَا فِيهَا مِنْ أَهْوَائِهَا الْمُتَنَوِّعَةِ، وَتَسْوِيلِ الشَّيْطَانِ لَهَا تَبْعُدُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ حَتَّىٰ تَصِيرَ مَلْعُونَةً بَعِيدَةً مِنَ الرَّحْمَةِ، وَاللَّعْنَةُ هِيَ

---

(١٩) مضىٰ تخريجه في حاشية (١٣)، وينظر في معنىٰ ذلك: فتاوىٰ شيخ الإسلام (٢٣/ ٥٨-٥٩).

الْبُعْدُ، وَمِنْ أَعْظَمِ ذُنُوبِهَا إِرَادَةُ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ، وَالسُّجُودُ فِيهِ غَايَةُ سُفُولِهَا» اهـ[٢٠].

وَمِنْ عَظِيمِ أَمْرِ السُّجُودِ أَنَّهُ أَشْرَفُ رُكْنٍ فِي الصَّلَاةِ، وَتُذْكَرُ الصَّلَاةُ بِهِ، وَكَثِيرٌ مِنَ النُّصُوصِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا السُّجُودُ إِنَّمَا يُرَادُ بِهِ الصَّلَاةُ، فَجُعِلَ لِشَرَفِهِ عَلَامَةً عَلَيْهَا، وَلَمَّا قَالَ رَبِيعَةُ الْأَسْلَمِيُّ رضي الله عنه لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَأَعِنِّي عَلَىٰ نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢١].

وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْإِكْثَارِ مِنْهُ، وَعَدَّهُ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ثَوْبَانَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ أَعْمَلُهُ يُدْخِلُنِي اللهُ بِهِ الْجَنَّةَ، أَوْ قَالَ: أَخْبِرْنِي بِأَحَبِّ الْأَعْمَالِ إِلَىٰ اللَّهِ فَقَالَ ﷺ: «**عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٢٢].

وَمِنْ شَرَفِ السُّجُودِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَنَّ الْمُعَذَّبِينَ فِي النَّارِ مِنْ عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ تُحْفَظُ مَوَاضِعُ سُجُودِهِمْ فَلَا يَنَالُهَا الْعَذَابُ، وَإِذَا انْتَهَتْ فَتْرَةُ عَذَابِهِمْ، وَأَرَادَ الْمَلَائِكَةُ إِخْرَاجَهُمْ مِنَ النَّارِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ يَعْرِفُونَهُمْ بِأَعْضَاءِ سُجُودِهِمْ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حَتَّىٰ إِذَا أَرَادَ اللهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ، وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللهُ**

---

(٢٠) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٢٣٧).

(٢١) أخرجه مسلم في صفة الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه (٤٨٩)، وأبو داود في الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل (١٣٢٠)، والنسائي في التطبيق، باب فعل السجود (٢/ ٢٢٧).

(٢٢) أخرجه مسلم في الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه (٤٨٨)، والنسائي في الكبرىٰ (٨٦٩٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب ما جاء في كثرة السجود (١٤٢٢).

عَلَىٰ النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢٣).

وَأَكْثَرُ شَيْءٍ يُحْزِنُ الشَّيْطَانَ، وَيُذَكِّرُهُ بِشَقَائِهِ وَعَذَابِهِ: أَنْ يَرَىٰ ابْنَ آدَمَ يَسْجُدُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، فَيَظَلُّ يَبْكِي حَسْرَةً عَلَىٰ مَا فَاتَهُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمَا سَبَقَهُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ سُجُودِهِمْ لِلَّهِ ﷻ؛ كَمَا رَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي، يَقُولُ: يَا وَيْلِي! أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِي النَّارُ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٢٤).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .

❊ ❊ ❊

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ

(٢٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في صفة الصلاة، باب فضل السجود (٧٧٣)، ومسلم في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

(٢٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر علىٰ من ترك الصلاة (٨١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب سجود القرآن (١٠٥٢)، وابن خزيمة (٥٤٩)، وابن حبان (٢٧٥٩).

وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ مِنْ خَصَائِصِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَلَا يُصْرَفَانِ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ؛ وَلِذَا نُهِيَ عَنِ الِانْحِنَاءِ حَالَ التَّحِيَّةِ كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعَاجِمِ لِلْكُبَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ؛ وَذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ مُشَابَهَةِ الرُّكُوعِ، وَالرُّكُوعُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَىٰ أَخَاهُ أَوْ صَدِيقَهُ أَيَنْحَنِي لَهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَفَيَلْتَزِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ؟ قَالَ: **لَا**، قَالَ: أَفَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ؟ قَالَ: **نَعَمْ**»(٢٥).

قَالَ ابْنُ عَلَّانَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مِنَ الْبِدَعِ الْمُحَرَّمَةِ الِانْحِنَاءُ عِنْدَ اللِّقَاءِ بِهَيْئَةِ الرُّكُوعِ»(٢٦).

«أَمَّا إِذَا وَصَلَ انْحِنَاؤُهُ لِلْمَخْلُوقِ إِلَىٰ حَدِّ الرُّكُوعِ قَاصِدًا بِهِ تَعْظِيمَ ذَلِكَ الْمَخْلُوقِ كَمَا يُعَظَّمُ اللهُ ﷻ، فَلَا شَكَّ أَنَّ صَاحِبَهُ يَرْتَدُّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَيَكُونُ كَافِرًا بِذَلِكَ، كَمَا لَوْ سَجَدَ لِذَلِكَ الْمَخْلُوقِ»(٢٧).

---

(٢٥) أخرجه الترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في المصافحة وقال: حديث حسن (٢٧٢٨)، وابن ماجه في الأدب، باب المصافحة (٣٧٠٢)، وأحمد (٣/ ١٩٨)، وعبد بن حميد (١٢١٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي وصحيح ابن ماجه. لكن نقل الحافظ في التلخيص الحبير أن الإمام أحمد -رحمه الله تعالىٰ- استنكره؛ لأنه من رواية السدوسي وقد اختلط وتركه يحيىٰ القطان. اهـ (٣/ ١٤٩)، وذكر ابن الملقن في خلاصة البدر المنير أن هذا الحديث مما أنكر علىٰ السدوسي (١٩٢٢)، ويعارض هذا الحديث أحاديث المعانقة.

(٢٦) دليل الفالحين لشرح رياض الصالحين (٦/ ٢٧).

(٢٧) الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٣/ ١٣٥)، وعزوه فيها للفواكه الدواني (٢/ ٤٢٥)، ودليل الفالحين (٣/ ٣٥٦)، وتحفة المحتاج (٩/ ٩٠)، ونهاية المحتاج (٧/ ٣٩٦)، ومغني المحتاج (٣/ ١٣٥)، والجمل علىٰ شرح المنهاج (٥/ ١٢٤).

وَأَمَّا السُّجُودُ فَأَشَدُّ مِنَ الرُّكُوعِ؛ لِأَنَّهُ أَقْصَىٰ مَرَاتِبِ الْعِبَادَةِ، وَنِهَايَةُ التَّعْظِيمِ، وَلَا يَلِيقُ إِلَّا بِمَنْ كَانَ أَشْرَفَ الْمَوْجُودَاتِ وَأَعْظَمَهَا، فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَخْصِيصِهِ بِاللَّهِ ﷻ، وَالنَّهْيِ عَنِ السُّجُودِ لِغَيْرِهِ، وَقَدْ كَانَ تَحِيَّةً فِي بَعْضِ الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ كَمَا فِي سُجُودِ إِخْوَةِ يُوسُفَ ﵇ لَهُ، لَكِنَّهُ مُنِعَ فِي شَرِيعَتِنَا الَّتِي أَكْمَلَهَا لَنَا رَبُّنَا، وَخَتَمَ بِهَا الشَّرَائِعَ.

رَوَىٰ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ ﵁ فَقَالَ: أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ، فَقُلْتُ: رَسُولُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: إِنِّي أَتَيْتُ الْحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِمَرْزُبَانٍ لَهُمْ فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، قَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ مَرَرْتَ بِقَبْرِي أَكُنْتَ تَسْجُدُ لَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَلَا تَفْعَلُوا، لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ النِّسَاءَ أَنْ يَسْجُدْنَ لِأَزْوَاجِهِنَّ؛ لِمَا جَعَلَ اللهُ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْحَقِّ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٢٨).

وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَىٰ ﵁ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟** قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَلَا تَفْعَلُوا؛ فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ(٢٩).

---

(٢٨) أخرجه أبو داود في النكاح، باب حق الزوج على المرأة (٢١٤٠)، والدارمي (١٤٦٣)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٥٣١) رقم (٨٩٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٠٢٣)، والبيهقي (٧/ ٢٩١)، وصححه الحاكم (٢/ ٢٠٤)، والألباني في صحيح أبي داود دون جملة: «لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟».

(٢٩) أخرجه ابن ماجه في النكاح، باب حق الزوج على المرأة (١٨٥٣)، وأحمد (٤/ ٣٨١)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٥٢) رقم (٩٠)، والبيهقي (٧/ ٢٩٢)، وصححه ابن حبان (٤١٧١)، والحاكم وقال: على شرط الشيخين (٤/ ١٩٠).

إِنَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ نِعْمَتَانِ عَظِيمَتَانِ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِمَا عَلَىٰ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ تَعَبُّدًا لَهُ، وَقُرْبًا مِنْهُ، وَهَذِهِ النِّعْمَةُ الْعَظِيمَةُ قَدْ حُرِمَهَا إِبْلِيسُ بِاسْتِكْبَارِهِ وَعُلُوِّهِ، وَهُوَ يَبْكِي لِأَجْلِهَا، وَقَدْ حُرِمَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْبَشَرِ بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِهِمْ أَوْ جَهْلِهِمْ، وَحَقِيقٌ عَلَىٰ مَنْ هَدَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِلْإِسْلَامِ أَنْ يَشْكُرَ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنْ يُحَافِظَ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةِ؛ لِيَكُونَ مِنَ الرَّاكِعِينَ السَّاجِدِينَ الَّذِينَ أَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَلِيَلْحَقَ بِرَكْبِ السَّابِقِينَ الْأَفَاضِلِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُبَارَكَةِ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفَتْح: ٢٩].

وَمَنْ كَانَ قَادِرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ فَلْيَقْدِرْ هَذِهِ النِّعْمَةَ حَقَّ قَدْرِهَا، وَلْيَعْرِفْ فَضْلَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ؛ إِذْ هَدَاهُ وَعَافَاهُ فَأَقْدَرَهُ عَلَيْهِمَا؛ فَإِنَّ الْقُدْرَةَ عَلَيْهِمَا مَنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ الَّتِي يَغْفُلُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، قَالَ مَسْرُوقٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُرْغَبُ فِيهِ إِلَّا أَنْ نُعَفِّرَ وُجُوهَنَا فِي التُّرَابِ، وَمَا آسَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا السُّجُودِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ»(٣٠).

يَقُولُ مَسْرُوقٌ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَدْ حُرِمَ السُّجُودَ إِلَّا إِيمَاءً حِينَ شُلَّتْ يَدُهُ فِي الْقَادِسِيَّةِ، وَأَصَابَتْهُ آمَّةٌ فِي رَأْسِهِ(٣١).

وَكَمْ فِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ عَاجِزٍ عَنِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لِعِلَّةٍ أَصَابَتْهُم قَدْ عَرَفُوا قَدْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ بَعْدَ أَنْ حُرِمُوهَا، وَوَدُّوا لَوْ رَكَعُوا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَتَمَنَّوا أَنْ يُعَفِّرُوا وُجُوهَهُمْ فِي الْأَرْضِ؛ تَعَبُّدًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَذُلًّا وَتَعْظِيمًا.

---

(٣٠) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥٧/ ٤٢٣).

(٣١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٧)، وتهذيب التهذيب (١٠/ ١٠٠)، والآمة هي الشجة التي بلغت أم الرأس، وهي الجلدة التي تجمع الدماغ.

وَحَسْبُ مَنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ قَلْبِهِ، عَالِمٌ بِأُمْنِيَّتِهِ، وَأَنَّ إِيمَاءَهُ لِلرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ يَكْفِيهِ مَا دَامَ عَاجِزًا، وَيَقْبَلُهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُ كَمَا لَوْ رَكَعَ وَسَجَدَ حَقِيقَةً؛ وَذَلِكَ مِنْ تَخْفِيفِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الْحَجّ: ٧٨].

فَأَقِيمُوا للَّهِ تَعَالَىٰ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- دِينَكُمْ، وَاحْنُوا لَهُ جِبَاهَكُمْ، وَعَفِّرُوا لَهُ وُجُوهَكُمْ، وَلْتَرْكَعْ قُلُوبُكُمْ وَلْتَسْجُدْ مَعَ رُكُوعِ أَبْدَانِكُمْ وَسُجُودِهَا؛ فَإِنَّ رُكُوعَ الْقَلْبِ للَّهِ تَعَالَىٰ وَسُجُودَهُ لَهُ تَذَلُّلًا وَمَحَبَّةً وَرَجَاءً أَهَمُّ وَأَوْلَىٰ مِنْ رُكُوعِ الْأَبْدَانِ وَسُجُودِهَا، بَلْ مَا شُرِعَ رُكُوعُ الْأَبْدَانِ وَسُجُودُهَا إِلَّا لِتَرْكَعَ الْقُلُوبُ وَتَسْجُدَ لِخَالِقِهَا وَمُدَبِّرِهَا.

وَمَنْ صَلَّىٰ للَّهِ تَعَالَىٰ وَرَكَعَ وَسَجَدَ وَهُوَ مُسْتَشْعِرٌ هَذِهِ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةَ وَجَدَ لَذَّةً فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ، وَنَهَتْهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٤٥]، وَهِيَ الصَّلَاةُ الَّتِي يَرْكَعُ فِيهَا الْقَلْبُ وَيَسْجُدُ مَعَ رُكُوعِ الْبَدَنِ وَسُجُودِهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

٢٣٨- عمود الإسلام (٣)
صلاة الأنبياء عليهم السلام

٨/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ هَدَىٰ عِبَادَهُ إِلَىٰ دِينِهِ الْقَوِيمِ، وَدَلَّهُمْ عَلَىٰ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَبِلَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ هُدَاهُ فَكَانَ مِنَ الْمُهْتَدِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ زَاغَ عَنْهُ فَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ مَا أَعْطَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَرَضَ عَلَيْنَا مِنَ الْفَرَائِضِ مَا يُصْلِحُنَا فِي الدُّنْيَا، وَيُنْجِينَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ قُرَّةَ عَيْنِهِ فِي الصَّلَاةِ، فَيَرْتَاحُ بِهَا، وَإِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَيْهَا، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَعْمَارَكُمْ مُسْتَوْدَعُ أَعْمَالِكُمْ، وَأَنَّ أَعْمَالَكُمْ لَا تَنْتَهِي إِلَّا بِمَوْتِكُمْ، فَلَا تَتْرُكُوا الْعَمَلَ بَعْدَ رَمَضَانَ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُعْبَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، وَشَرَعَ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ، وَيُنَجِّيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ. وَشَرَائِعُ اللَّهِ تَعَالَىٰ مُتَنَوِّعَةٌ مُتَفَاضِلَةٌ: فَمِنْهَا مَا يَجِبُ فِي الْعُمْرِ مَرَّةً وَاحِدَةً كَالْحَجِّ، وَمِنْهَا مَا يَجِبُ فِي الْحَوْلِ كَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، وَمِنْهَا مَا يَعُودُ فِي الْأُسْبُوعِ كَالْجُمُعَةِ، وَمِنْهَا الْمُتَكَرِّرُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ كَالصَّلَاةِ، وَمَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الشَّرَائِعَ إِلَّا لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ.

وَالصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ أَمْرُهَا عَظِيمٌ، وَشَأْنُهَا كَبِيرٌ، وَهِيَ عَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَآخِرُ

مَا يَفْقِدُ النَّاسُ مِنْ دِينِهِمْ . . هِيَ الشَّعِيرَةُ الظَّاهِرَةُ الْمُتَكَرِّرَةُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، يَتَمَيَّزُ بِهَا الْمُسْلِمُ عَنْ غَيْرِهِ . . هِيَ بُرْهَانُ الْإِيمَانِ، وَدَلِيلُ الْإِسْلَامِ، وَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ إِلَّا الصَّلَاةَ، وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي الصَّلَاةِ لَحَافَظُوا عَلَيْهَا، وَمَا تَهَاوَنُوا بِهَا، وَلَا انْشَغَلُوا بِغَيْرِهَا عَنْهَا.

إِنَّ الصَّلَاةَ أَجَلُّ عَمَلٍ يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، قَدْ جَمَعَتْ مِنَ الْأَقْوَالِ أَجَلَّهَا وَأَعْلَاهَا، وَمِنَ الْأَفْعَالِ أَكْثَرَهَا ذُلًّا وَخُضُوعًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، مَعَ مَا فِيهَا مِنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ، كَالتَّدَبُّرِ وَالْخُشُوعِ وَالرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ وَالْمُنَاجَاةِ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَيْهَا إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يَتْرُكُهَا إِلَّا كَافِرٌ أَوْ مُنَافِقٌ، وَهِيَ أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَىٰ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

وَفِي السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ يُصَلُّونَ لَهُ فَيَقْنُتُونَ وَيَرْكَعُونَ وَيَسْجُدُونَ، وَفِي حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَرُفِعَ لِيَ الْبَيْتُ المَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ المَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ(١).

وَالصَّلَاةُ أَهَمُّ أَعْمَالِ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، وَأَوْلَىٰ شَيْءٍ دَعَوُا النَّاسَ إِلَيْهِ بَعْدَ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ وَلِذَا جَاءَتْ فِي شَرَائِعِهِمْ، وَأَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا عَلَيْهِمْ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْهَا، وَبَشَّرَ بَعْضَهُمْ بِمُرَادِهِمْ فِيهَا.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ فُرِضَتْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ فِي أَوْقَاتٍ وَقَّتَهَا اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ؛ كَمَا رَوَىٰ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَمَّنِي جِبْرِيلُ ﷺ عِنْدَ**

(١) أخرجه من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ﷺ: البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٣٥)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١٦٤).

الْبَيْتِ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَذَا وَقْتُكَ وَوَقْتُ النَّبِيِّينَ قَبْلَكَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ(٢).

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ عليهم السلام كَانُوا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَالسُّجُودُ مِنْ أَعْظَمِ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ وَأَخَصِّهَا ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٥٨]، ثُمَّ لَمَّا أَثْنَىٰ تعالى عَلَيْهِمْ ذَمَّ الْخُلُوفَ الَّتِي تُضَيِّعُ الصَّلَاةَ ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مَرْيَم: ٥٩].

وَشُعَيْبٌ عليه السلام كَانَ مُصَلِّيًا، وَأَنْكَرَ قَوْمُهُ عَلَيْهِ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَقَالُوا: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هُود: ٨٧].

وَخَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام لَمَّا وَضَعَ هَاجَرَ وَابْنَهَا إِسْمَاعِيلَ عليه السلام فِي مَكَّةَ وَهِيَ مُقْفِرَةٌ دَعَا اللهَ عز وجل أَنْ تُعْمَرَ وَيَثُوبَ النَّاسُ إِلَيْهَا، وَتُجْبَىٰ إِلَيْهَا الثَّمَرَاتُ

---

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب المواقيت (٣٩٣)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في مواقيت الصلاة، وقال: حسن صحيح (١٤٩)، وأحمد (١/ ٣٣٣-٣٥٤)، وأبو يعلىٰ (٢٧٥٠)، وعبد الرزاق (٢٠٢٨) (٣٢٥)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٠٩) رقم (١٠٧٥٢)، وتمام في فوائده (٣٢٩)، والحاكم (١/ ٣٠٦)، وابن الجارود (١٤٩)، وصححه ابن خزيمة (٣٢٥).

وأخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب (١٥٠)، والنسائي في المواقيت، باب آخر وقت العصر (١/ ٢٥٥)، وأحمد (٣/ ٣٣٠)، وصححه ابن حبان (١٤٧٢)، والحاكم (١/ ٣١٠)، ونقل الترمذي عن البخاري قوله: أصح شيء في المواقيت حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم، الجامع (١/ ٢٨١) رقم (١٥٠).

وأخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الطبراني في الكبير (٦/ ٣٧) رقم (٥٤٤٣).

وَالْأَرْزَاقُ، وَعَلَّلَ دَعْوَتَهُ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ فِيهَا، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَلَمْ يَذْكُرْ عَمَلًا غَيْرَ الصَّلَاةِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا عَمَلَ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ وَلَا يُوَازِيهَا» اهـ(٣).

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ فَخَامَةِ الصَّلَاةِ، وَعَظِيمِ شَأْنِهَا، وَعُلُوِّ مَكَانَتِهَا، وَأَنَّ مِنْ مَقَاصِدِ بِنَاءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ إِقَامَ الصَّلَاةِ فِيهِ وَإِلَيْهِ، وَاسْتَجَابَ اللهُ سُبْحَانَهُ دَعْوَةَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَمَنْ يَفِدُونَ إِلَيْهِ مُنْذُ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَمَنْ يَؤُمُّونَهُ فِي هَذَا الزَّمَنِ مِنْ شَتَّىٰ الْبِقَاعِ لِلصَّلَاةِ فِيهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ جِدًّا، لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَىٰ، وَلَا سِيَّمَا فِي الْمَوَاسِمِ الْفَاضِلَةِ كَرَمَضَانَ وَالْحَجِّ، وَعِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ يَنْزِلُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ سَيَقْصِدُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، وَمُصَلِّيًا فِيهِ(٤).

بَلْ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ذَكَرَ أَنَّ إِقَامَ الصَّلَاةِ مَقْصِدٌ مِنْ مَقَاصِدِ بِنَاءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَتَطْهِيرِهِ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الْبَقَرَة: ١٢٥]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الْحَجّ: ٢٦]، وَالْقَائِمُونَ هُمُ الْمُصَلُّونَ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ(٥).

---

(٣) تعظيم قدر الصلاة (١/ ٩٨).

(٤) روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**والذي نفسي بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجا أو معتمرا أو ليثنينهما**» أخرجه مسلم في الحج، باب إهلال النبي صلى الله عليه وسلم وهديه (١٢٥٢).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ١٤٣)، وعبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٣٦). =

وَمِنْ عَظِيمِ أَمْرِ الصَّلَاةِ أَنَّ الْخَلِيلَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام دَعَا رَبَّهُ لِنَفْسِهِ وَلِذُرِّيَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ بِإِقَامَتِهَا؛ فَمَنْ أَصَابَتْهُ دَعْوَةُ الْخَلِيلِ وُفِّقَ لَهَا، فَأَقَامَهَا، وَحَافَظَ عَلَيْهَا، وَمَنْ لَمْ تُصِبْهُ لَمْ يُوَفَّقْ لَهَا، وَلَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا. قَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وَخَلَفَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ ابْنُهُ الذَّبِيحُ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام، وَكَانَ مِنَ الْمُصَلِّينَ الْآمِرِينَ بِالصَّلَاةِ، أَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ بِذَلِكَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

كَمَا خَلَفَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَلَدُهُ إِسْحَاقُ وَآلُهُ عليهم السلام، وَقَدْ كَانُوا أَئِمَّةً مُصَلِّينَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ مُمْتَنًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وَمِنْ نَسْلِ إِسْحَاقَ عليه السلام بُعِثَ الْكَلِيمُ مُوسَىٰ عليه السلام، فَاصْطَفَاهُ رَبُّهُ عز وجل بِرِسَالَاتِهِ، وَاخْتَصَّهُ بِكَلَامِهِ؛ فَسَاقَهُ إِلَىٰ الْوَادِي الْمُقَدَّسِ، فَأَمَرَهُ سُبْحَانَهُ بِعِبَادَتِهِ، وَنَصَّ عَلَىٰ الصَّلَاةِ بِخُصُوصِهَا -وَإِنْ كَانَتْ دَاخِلَةً فِي مُسَمَّىٰ الْعِبَادَةِ- وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِعَظِيمِ شَأْنِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١١-١٤].

وَلَمَّا اشْتَدَّ أَذَىٰ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يُرَخِّصِ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ فِي

= وجاء عن عطاء -رحمه الله تعالىٰ- أن القائمين: المصلون عنده، ينظر: الدر المنثور (٦/ ٣٢)، وقال البغوي: القائمين؛ أي: المقيمين (٣/ ٢٨٣).

تَرْكِ الصَّلَاةِ اتِّقَاءً لِلْعَذَابِ، بَلْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ عليهما السلام أَنْ يَتَّخِذَا مِنْ بُيُوتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَكَانًا لِلصَّلَاةِ بَدَلَ الْبِيَعِ وَالْكَنَائِسِ، وَأَمَرَهُمْ بِهَا ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس: ٨٧].

وَفِي الْمُنَاظَرَةِ الْكُبْرَىٰ بَيْنَ مُوسَىٰ وَالسَّحَرَةِ لَمْ يُلْهِمِ السَّحَرَةُ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ طَاعَةً يَرْجِعُونَ بِهَا إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَيَتَرَضَّوْنَهُ بِهَا ظَنًّا أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ إِلَّا السُّجُودَ، وَهُوَ أَعْظَمُ هَيْئَاتِ الصَّلَاةِ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ٤٦-٤٨]، فَعَفَّرُوا وُجُوهَهُمْ فِي التُّرَابِ خُضُوعًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، فَلَمْ يَجْعَلِ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ مَفْزَعًا إِلَّا إِلَىٰ الصَّلَاةِ مَعَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَهِيَ مَفْزَعُ كُلِّ مُنِيبٍ[٦].

وَمِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ زَكَرِيَّا عليه السلام، سَأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ الْوَلَدَ، فَبُشِّرَ بِهِ وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا، وَجَاءَتْهُ الْبِشَارَةُ بِهِ وَهُوَ يُصَلِّي ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عِمْرَان: ٣٩].

قَالَ ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «الصَّلَاةُ خِدْمَةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي الْأَرْضِ، وَلَوْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَىٰ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنَ الصَّلَاةِ مَا قَالَ: فَنَادَتْهُ المَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ»اهـ[٧].

وَمَرْيَمُ عليها السلام لَمَّا بُشِّرَتْ بِتَطْهِيرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَهَا، وَاصْطِفَائِهِ لَهَا عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أُمِرَتْ بِالصَّلَاةِ؛ لِأَنَّ الِاصْطِفَاءَ لَا يَنَالُهُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّهُ، وَكَانَتْ مَرْيَمُ

---

(٦) ينظر: تعظيم قدر الصلاة (١/ ٩٧).

(٧) أخرجه أبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (١٣٩٠)، والبيهقي في الشعب (٣١٨٦)، وابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (٤٠٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٢٠).

مِمَّنْ يَسْتَحِقُّهُ؛ طَاعَةً للَّهِ تَعَالَىٰ، وَكَثْرَةَ رُكُوعٍ وَسُجُودٍ ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٤٣].

لَقَدْ كَانَتْ مَرْيَمُ عليها السلام كَثِيرَةَ التَّعَبُّدِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، كَثِيرَةَ الصَّلَاةِ، قَدِ اتَّخَذَتْ لَهَا مِحْرَابًا عُرِفَتْ بِهِ، لَا تَكَادُ تُبَارِحُهُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَتَعَبُّدِهَا، وَرِزْقُهَا يُسَاقُ إِلَيْهَا فِي مِحْرَابِهَا؛ كَرَامَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَهَا ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٣٧].

أَسْأَلُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يُلْهِمَنَا رُشْدَنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْمُحَافَظَةَ عَلَىٰ مَا بِهِ يَرْضَىٰ عَنَّا، وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَىٰ ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ ....



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَثَقِّلُوا مَوَازِينَ حَسَنَاتِكُمْ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَخَفِّفُوا مَوَازِينَ سَيِّئَاتِكُمْ بِاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٨-٩].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تَتَابَعَ رُسُلُ اللَّهِ تَعَالَىٰ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- عَلَىٰ الْعِنَايَةِ بِالصَّلَاةِ، وَالِاهْتِمَامِ بِهَا، وَجَاءَتْ بِهَا شَرَائِعُهُمْ، وَأَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِمْ بِهَا؛ حَتَّىٰ كَانَتِ الصَّلَاةُ مِمَّا أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الشَّرَائِعُ.

وَمِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ بُعِثَ عِيسَىٰ بَعْدَ مُوسَىٰ عليهما السلام، وَتَكَلَّمَ فِي المَهْدِ آيَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ لِيَدْرَأَ عَنْ أُمِّهِ عليها السلام أَيَّ تُهْمَةٍ، وَأَخْبَرَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدِ اصْطَفَاهُ بِالنُّبُوَّةِ، وَآتَاهُ الْكِتَابَ، وَأَوْصَاهُ بِالصَّلَاةِ، وَالْوَصِيَّةُ إِنَّمَا تَكُونُ بِمَا هُوَ مُهِمٌّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ عَظِيمِ أَمْرِ الصَّلَاةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ إِذْ وَصَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مَرْيَم: ٢٩-٣١].

وَنَبِيُّ اللَّهِ تَعَالَىٰ دَاوُدُ عليه السلام لَمَّا جَاءَهُ الْخَصْمَانِ لِلْحُكْمِ بَيْنَهُمَا تَسَوَّرُا عَلَيْهِ مِحْرَابَهُ، وَهُوَ مَكَانُ عِبَادَتِهِ وَصَلَاتِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [سورة ص: ٢١-٢٢].

ثُمَّ لَمَّا أَخْطَأَ عليه السلام فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا وَقَدْ سَمِعَ حُجَّةَ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدِ ابْتَلَاهُ بِهِمَا، وَأَرَادَ التَّوْبَةَ مِنْ ذَلِكَ؛ لَمْ يَجِدْ لِتَوْبَتِهِ مَفْزَعًا إِلَّا الصَّلَاةَ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ وَاصِفًا إِيَّاهُ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [سورة ص: ٢٤].

وَوَرِثَ الْمُلْكَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ عليه السلام، وَكَانَ مُحِبًّا لِلْخَيْلِ حُبًّا شَدِيدًا، فَعُرِضَتْ عَلَيْهِ فَانْشَغَلَ بِهَا حَتَّىٰ فَاتَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، فَتَنَبَّهَ وَأَسِفَ لِذَلِكَ، فَأَمَرَ بِإِرْجَاعِهَا وَهِيَ أَحَبُّ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، فَعَقَرَهَا وَضَرَبَ أَعْنَاقَهَا لِأَنَّهَا شَغَلَتْهُ عَنْ

صَلَاتِهِ(٨) ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [سورة ص: ٣٠-٣٣].

وَقَدْ سُخِّرَتِ الْجِنُّ لِخِدْمَتِهِ وَطَاعَتِهِ، فَلَمَّا قَبَضَهُ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِ قَبَضَهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي قَدْ تَوَكَّأَ عَلَىٰ عَصَاهُ(٩)، فَمَا عَلِمَتِ الْجِنُّ بِذَلِكَ إِلَّا لَمَّا أَكَلَتِ الْأَرَضَةُ عَصَاهُ فَخَرَّ إِلَىٰ الْأَرْضِ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سَبَأ: ١٤].

وَيُونُسُ عليه السلام نَجَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ بِكَثْرَةِ تَسْبِيحِهِ وَصَلَاتِهِ ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٤٣-١٤٤]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «كَانَ مِنَ الْمُصَلِّينَ»(١٠)، وَقَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «كَانَ

---

(٨) وهذا هو قول جمهور المفسرين، وهو اللائق بحال سليمان عليه السلام، والموافق للسياق القرآني، واختار الطبري مسح أعناقها بيده. قال ابن الجوزي: «والمفسرون علىٰ القول الأول، وقد اعترضوا علىٰ القول الثاني، وقالوا: أي مناسبة بين شغلها إياه عن الصلاة وبين مسح أعرافها حبا لها ..» اهـ من زاد المسير (٧/ ١٣٢)، والمسح يطلق علىٰ المسح باليد، والمسح بالسيف كناية عن القتل، والظاهر من الآيات الثاني. والله أعلم.

(٩) ذكر ذلك ابن جزي الكلبي في تفسيره: التسهيل لعلوم التنزيل (٣/ ١٤٨)، والرازي (٢٥/ ٢١٦)، ونقله السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما أخرجه الطبري والطبراني وابن أبي حاتم وابن السني وابن المنذر وابن مردويه والبزار (٦/ ٦٨٣).

(١٠) وهكذا جاء عن سعيد بن جبير والضحاك وعطاء بن السائب والسدي والحسن وقتادة رحمهم الله تعالىٰ كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢).

قلت: والصلاة يطلق عليها تسبيح، وقيل: هو التسبيح علىٰ ظاهره، وقيل: هو دعوته التي جاءت في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

قلت: ولا يمنع اجتماع ذلك فيه عليه السلام، ولفظة (المسبحين) تجمعه كله.

كَثِيرَ الصَّلَاةِ فِي الرَّخَاءِ، فَنَجَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِذَلِكَ»[(١١)].

وَأَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ أُمِرُوا بِالصَّلَاةِ مَعَ التَّوْحِيدِ؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [الْبَيِّنَة: ٤-٥].

وَأَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ لِلْقِيَامِ بِجُمْلَةٍ مِنَ الشَّرَائِعِ مِنْ أَجَلِّهَا وَأَعْظَمِهَا الصَّلَاةُ، وَوَعَدَهُمْ بِتَكْفِيرِ سَيِّئَاتِهِمْ، وَإِدْخَالِهِمُ الْجَنَّةَ إِنْ وَفَّوْا بِمَا عَاهَدُوا اللهَ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المَائِدَة: ١٢].

ثُمَّ كَانَتِ الصَّلَاةُ فِي الْإِسْلَامِ ثَانِيَ أَرْكَانِهِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَأَعْظَمَ عَمَلٍ يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَكَلَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ ﷻ وَبَيْنَ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَيُّ وَاسِطَةٍ فِي فَرْضِهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ عَظِيمِ شَأْنِهَا فِي الْإِسْلَامِ، وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهَا.

وَإِذَا كَانَتِ الصَّلَاةُ كَذَلِكَ فِي كُلِّ الشَّرَائِعِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَقَدْ تَوَارَدَ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كُلُّهُمْ عَلَىٰ الْعِنَايَةِ بِهَا، حَتَّىٰ كَانَتْ شَرِيعَةُ خَاتَمِهِمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّتِي تَكَرَّرَتِ الصَّلَاةُ فِيهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَهَلْ يَلِيقُ بِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنْ يُفَرِّطُوا فِيهَا، أَوْ يَتَهَاوَنُوا بِهَا، أَوْ يُخِلُّوا بِمَا يَجِبُ

(١١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٩٩)، وابن أبي حاتم (١٨٢٩٢)، والبيهقي (١٠/ ٢٨٧).

لَهَا؟! وَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ أَمَرَنَا بِالِاقْتِدَاءِ بِرُسُلِهِ عليهم السلام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الْأَنْعَام: ٩٠].

وَتَعْظِيمُ أَمْرِ الصَّلَاةِ، وَالْعِنَايَةُ بِهَا، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا، وَالْإِتْيَانُ بِمَا يَجِبُ لَهَا هُوَ مِنَ الِاقْتِدَاءِ بِرُسُلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ الَّذِينَ دَلَّتْ قِصَصُهُمْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَىٰ تَعْظِيمِهِمْ لِقَدْرِ الصَّلَاةِ، وَعِنَايَتِهِمْ بِهَا.

إِنَّ الْمَسَاجِدَ فِي رَمَضَانَ كَانَتْ تَكْتَظُّ بِالْمُصَلِّينَ، وَهَكَذَا فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَكِنْ مَا إِنْ يَنْتَهِي رَمَضَانُ حَتَّىٰ يَتَهَاوَنَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِالصَّلَاةِ، فَرُبَّمَا هَجَرُوا الْمَسَاجِدَ، أَوْ أَخَّرُوا الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا، وَهَذَا مِنَ التَّهَاوُنِ بِهَا، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَىٰ عَدَمِ تَعْظِيمِهِمْ لِشَأْنِهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يُضَيِّعُ فُرُوضًا وَيَأْتِي بِفُرُوضٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتْرُكُهَا كُلِّيَّةً إِلَىٰ رَمَضَانَ الْقَابِلِ، وَكُلُّ هَذَا مِنَ الْخِذْلَانِ وَالْحِرْمَانِ، وَإِلَّا فَهَلْ يُفَرِّطُ فِيمَا هُوَ صِلَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ أَحَدٌ؟!

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ فِي صَلَاتِكُمْ، حَافِظُوا عَلَيْهَا، وَأَقِيمُوهَا فِي أَوْقَاتِهَا مَعَ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ يُنَادَىٰ بِهَا فِي الْمَسَاجِدِ، وَلَا تُلْهِيَنَّكُمْ عَنْهَا الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا مَتَاعُ الْغُرُورِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

❀ ❀ ❀



٢٣٩- صلاة الجماعة (١)
فضل الخروج إلى المسجد

٥/ ١٠/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ فَتَحَ لِعِبَادِهِ أَبْوَابَ الْخَيْرَاتِ، وَدَلَّهُمْ عَلَىٰ طُرُقِ اكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ السَّيِّئَاتِ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمِنَنِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ مَا اخْتَصَّنَا بِهِ مِنَ النِّعَمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ دَلَّتْ آيَاتُهُ وَمَخْلُوقَاتُهُ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ، فَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي صَمَدَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ إِلَيْهِ فَقَامَ بِهِمْ، وَقَضَىٰ حَوَائِجَهُمْ؛ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ﴾ [الرُّوم: ٢٥]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ نَصَحَ لِأُمَّتِهِ أَعْظَمَ النُّصْحِ، فَهَدَاهُمْ إِلَىٰ مَا يَنْفَعُهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ؛ فَجَزَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرَ مَا جَزَىٰ نَبِيًّا عَنْ أُمَّتِهِ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ؛ أَصْلَحِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا، وَأَهْدَاهُمْ سَبِيلًا، ﵃ وَأَرْضَاهُمْ رَغْمَ أُنُوفِ الْكَارِهِينَ لَهُمْ، السَّاخِرِينَ بِهِمْ، السَّاخِطِينَ عَلَيْهِمْ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَلَئِنْ كَانَ رَمَضَانُ قَدِ انْتَهَىٰ بِمَا أَوْدَعَ الْعِبَادُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُعْبَدُ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ، وَلَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ عِبَادَتِهِ إِلَّا الْمَوْتُ، فَبِهِ يَنْقَطِعُ الْعَمَلُ، وَيَبْتَدِئُ الْجَزَاءُ؛ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الْحِجر: ٩٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَكْدَحُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّهُمْ مُخَلَّدُونَ فِيهَا، وَيَنْسَىٰ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَعْمَالَ الْآخِرَةِ كَأَنَّهُمْ لَا يُنْقَلُونَ إِلَيْهَا، وَيَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ تَضْيِيعُهُمْ لِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ

وَاجِبَةٍ عَظِيمَةِ الْأُجُورِ لِمَصْلَحَةِ أَعْمَالٍ دُنْيَوِيَّةٍ قَدْ يَرْبَحُونَ فِيهَا شَيْئًا مِنْ مَالٍ وَقَدْ يَخْسَرُونَ، وَكَمْ ضُيِّعَ مِنَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ؟ وَكَمْ فَاتَتْ تَكْبِيرَةُ الْإِحْرَامِ مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ الدُّنْيَا؟ ذَلِكَ فَضْلًا عَنْ تَضْيِيعِ النَّوَافِلِ!

وَالْكَيِّسُ الْحَازِمُ الْفَطِنُ مَنْ رَتَّبَ مُهِمَّاتِ أَعْمَالِهِ، وَبَدَأَ بِالْأَهَمِّ مِنْهَا، فَمَا كَانَ لِلْآخِرَةِ قَدَّمَهُ عَلَىٰ مَا كَانَ لِلدُّنْيَا؛ لِأَنَّ كُلَّ الْمُسْلِمِينَ يَتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْآخِرَةَ أَهَمُّ مِنَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ سَلِمَتْ لَهُ آخِرَتُهُ، وَلَمْ تَفُتْهُ الدُّنْيَا.

إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ رَتَّبَ أُجُورًا كَبِيرَةً عَلَىٰ أَعْمَالٍ يَسِيرَةٍ دَائِمَةٍ مَعَ الْعَبْدِ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَعْمَالِ -رَغْمَ أَنَّهَا يَسِيرَةٌ- إِلَّا الْمُرَابِطُونَ عَلَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمِنْ تِلْكُمُ الْأَعْمَالِ: الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، فَفِيهَا مِنَ الْأُجُورِ وَالْمَنَافِعِ وَالْخَيْرِ مَا لَا يُحْصِيهِ الْمُحْصُونَ، وَلَا يَعُدُّهُ الْعَادُّونَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا أَتَمَّ الْمُصَلِّي شُرُوطَهَا وَأَرْكَانَهَا، وَأَتَىٰ بِوَاجِبَاتِهَا وَسُنَنِهَا، وَسَابَقَ غَيْرَهُ إِلَيْهَا فِي الْمَسَاجِدِ مَعَ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ يُنَادَىٰ بِهَا؛ حَتَّىٰ إِنَّ مَشْيَهُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ عِبَادَةٌ تُقَرِّبُهُ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَرُتِّبَ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنَ الثَّوَابِ مَا لَا يُفَرِّطُ فِيهِ إِلَّا مَحْرُومٌ خَسْرَانٌ.

فَالْمَشْيُ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ يُكَفِّرُ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَىٰ إِلَىٰ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ، كَانَتْ خُطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً وَالْأُخْرَىٰ تَرْفَعُ دَرَجَةً»**[١]. وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنْهُ ﵁ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: **«أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟** قَالُوا: بَلَىٰ

(١) أخرجه مسلم في المساجد، باب المشي إلىٰ الصلاة تمحىٰ بها الخطايا وترفع به الدرجات (٦٦١)، وابن حبان (٢٠٤٤).

يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَىٰ المَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَىٰ إِلَىٰ المَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**» رَوَىٰ الْحَدِيثَيْنِ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ(٢).

وَلَمَّا أَرَادَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ الِانْتِقَالَ قُرْبَ المَسْجِدِ أَوْصَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبْقَوْا فِي مَسَاكِنِهِمْ؛ لِيُكْتَبَ لَهُمْ مَمْشَاهُمْ إِلَىٰ المَسْجِدِ؛ كَمَا رَوَىٰ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما فَقَالَ: «خَلَتِ الْبِقَاعُ حَوْلَ المَسْجِدِ فَأَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَىٰ قُرْبِ المَسْجِدِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: **إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ المَسْجِدِ**، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ: **يَا بَنِي سَلِمَةَ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣).

وَكُلَّمَا بَعُدَ المَسْجِدُ عَنِ المَنْزِلِ طَالَ المَمْشَىٰ، وَكَثُرَتِ الْخُطَىٰ، فَزَادَ الْأَجْرُ، وَكَثُرَتِ الْحَسَنَاتُ؛ كَمَا رَوَىٰ أَبُو مُوسَىٰ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ أَجْرًا فِي الصَّلَاةِ أَبْعَدُهُمْ إِلَيْهَا مَمْشًىٰ فَأَبْعَدُهُمْ**»(٤).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَكُلَّمَا شَقَّ عَلَيْكَ المَشْيُ إِلَىٰ المَسَاجِدِ كَانَ أَفْضَلَ؛ وَلِهَذَا فُضِّلَ المَشْيُ إِلَىٰ صَلَاةِ الْعِشَاءِ وَصَلَاةِ الصُّبْحِ، وَعُدِلَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ كُلِّهِ؛ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه قَالَ:

---

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١)، والترمذي في الطهارة، باب ما جاء في إسباغ الوضوء (٥١)، والنسائي في الطهارة، باب الفضل في إسباغ الوضوء (١/ ٨٩)، ومالك (١/ ١٦١)، وأحمد (٢/ ٣٠٢)، وأبو يعلىٰ (٥٠٣).

(٣) أخرجه مسلم في المساجد، باب فضل كثرة الخطىٰ إلىٰ المساجد (٦٦٥)، وأحمد (٣/ ٣٧١). وجاء نحوه من حديث أنس رضي الله عنه عند: البخاري في الجماعة والإمامة، باب احتساب الآثار (٦٢٥).

(٤) أخرجه البخاري في الجماعة والإمامة، باب فضل صلاة الفجر في جماعة (٦٢٣)، ومسلم في المساجد، باب فضل كثرة الخطىٰ إلىٰ المساجد (٦٦٢).

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ صَلَّىٰ الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّىٰ الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّىٰ اللَّيْلَ كُلَّهُ**»[٥].

وَلِذَلِكَ كَانَتْ هَاتَانِ الصَّلَاتَانِ أَثْقَلَ الصَّلَاةِ عَلَىٰ المُنَافِقِينَ؛ لِأَنَّ المُنَافِقِينَ يُرِيدُونَ بِصَلَاتِهِمْ فِي المَسْجِدِ أَنْ يَرَاهُمُ النَّاسُ، وَهَاتَانِ الصَّلَاتَانِ لَيْلِيَّتَانِ، فَلَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا وَيَمْشِي إِلَيْهِمَا إِلَّا مُؤْمِنٌ.

وَالْخُطْوَةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْخُطَىٰ إِلَىٰ المَسْجِدِ تَعْدِلُ صَدَقَةً؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَىٰ الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٦].

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ كَانَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ مَنْ يُقَارِبُ بَيْنَ الْخُطَىٰ فِي المَشْيِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ لِتَكْثِيرِ الْأَجْرِ، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «مَشَيْتُ مَعَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ إِلَىٰ المَسْجِدِ فَقَارَبَ بَيْنَ الْخُطَىٰ وَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ تَكْثُرَ خُطَانَا إِلَىٰ المَسْجِدِ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ[٧].

---

(٥) اختيار الأولىٰ في شرح حديث اختصام الملأ الأعلىٰ ط. المؤيد، تحقيق بشير محمد عيون (٣٦)، والحديث الذي ساقه أخرجه مسلم في المساجد، باب فضل صلاة الصبح والعشاء في الجماعة (٦٥٦).

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب من حمل متاع صاحبه في السفر (٢٧٣٤)، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع علىٰ كل نوع من المعروف (١٠٠٩).

(٧) عزاه الحافظ في الفتح (٢/ ١٤١) لابن أبي شيبة، ولم أقف عليه لا في المصنف ولا في المسند، وقد أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ١٥٤)، والطبراني في الكبير (٥/ ١١٧) رقم (٤٧٩٦).

وأخرجه مرفوعا: البخاري في الأدب المفرد (٤٥٨)، والطبراني في الكبير (٥/ ١١٨) رقم (٤٨٠٠) لكن في سند البخاري الضحاك بن نبراس البصري وهو ضعيف، وقال النسائي: متروك، وقال ابن معين: ليس بشيء، وضعفه الدارقطني وغيره كما في ميزان الاعتدال (٣/ ٤٤٧) رقم (٣٩٥٠)، وفي سند الطبراني محمد بن ثابت البناني عن أبيه وهو =

فَإِنْ كَانَ المَشْيُ إِلَىٰ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فَالْأَجْرُ أَكْثَرُ، وَالثَّوَابُ أَعْظَمُ؛ كَمَا رَوَىٰ أَوْسُ بْنُ أَوْسٍ الثَّقَفِيُّ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَىٰ وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ، فَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ؛ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ[٨].

وَمِنْ عَظِيمِ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ، وَتَوْسِيعِ مَجَالَاتِ الْخَيْرِ لَهُمْ: أَنَّ الرُّجُوعَ مِنَ المَسْجِدِ عَقِبَ الصَّلَاةِ يُحْتَسَبُ كَمَا يُحْتَسَبُ الذَّهَابُ، رَوَىٰ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ فَقَالَ: «كَانَ رَجُلٌ لَا أَعْلَمُ رَجُلًا أَبْعَدَ مِنَ المَسْجِدِ مِنْهُ، وَكَانَ لَا تُخْطِئُهُ صَلَاةٌ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: لَوِ اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ فِي الظَّلْمَاءِ وَفِي الرَّمْضَاءِ، قَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَنْزِلِي إِلَىٰ جَنْبِ المَسْجِدِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إِلَىٰ المَسْجِدِ وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَىٰ أَهْلِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **قَدْ جَمَعَ اللهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٩].

قَالَ الْعُلَمَاءُ: فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ الثَّوَابِ فِي الْخُطَىٰ فِي الرُّجُوعِ كَمَا يَثْبُتُ فِي الذَّهَابِ[١٠].

= ضعيف، قال البخاري: فيه نظر، وضعفه أبو داود والنسائي والدارقطني وغيرهم، ينظر: الكاشف (٢/ ١٦٠) رقم (٤٧٥٣)، وتهذيب التهذيب (٩/ ٧٢). والموقوف أصح من المرفوع.

(٨) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب في الغسل يوم الجمعة (٣٤٥)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل الغسل يوم الجمعة وقال: حديث حسن (٤٩٦)، والنسائي في الجمعة، باب فضل غسل يوم الجمعة (٣/ ٩٥-٩٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الغسل يوم الجمعة (١٠٨٧)، وأحمد (٤/ ٩)، والدارمي (١٥٤٧)، وصححه ابن خزيمة (١٧٥٨)، وابن حبان (٢٧٨١).

(٩) أخرجه مسلم في المساجد، باب فضل كثرة الخطىٰ إلىٰ المساجد (٦٦٣).

(١٠) ينظر: شرح النووي علىٰ مسلم (٥/ ١٦٨)، والديباج علىٰ مسلم (٢/ ٣٠٥)، وعون المعبود (٢/ ١٨٤).

وَمِنْ عَظِيمِ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ المَشْيِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ لِأَدَاءِ الصَّلَوَاتِ: مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ احْتَبَسَ عَنْهُمْ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَلَمَّا سَأَلُوهُ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَمَا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةَ، إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّىٰ اسْتَثْقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي، قَالَهَا ثَلَاثًا، قَالَ: فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّىٰ وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ، فَتَجَلَّىٰ لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ، قَالَ: مَا هُنَّ؟ قُلْتُ: مَشْيُ الْأَقْدَامِ إِلَىٰ الحَسَنَاتِ، وَالجُلُوسُ فِي المَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ حِينَ المَكْرُوهَاتِ» صَحَّحَهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ[11]، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ: «قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الْأَعْلَىٰ؟ قَالَ: قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ، قَالَ: وَمَا الْكَفَّارَاتُ؟ قُلْتُ: المَشْيُ عَلَىٰ الْأَقْدَامِ إِلَىٰ الجَمَاعَاتِ، وَالجُلُوسُ فِي المَسْجِدِ خِلَافَ الصَّلَوَاتِ، وَإِبْلَاغُ الْوُضُوءِ فِي المَكَارِهِ، قَالَ: مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَاشَ بِخَيْرٍ، وَمَاتَ بِخَيْرٍ، وَكَانَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[12].

---

(١١) أخرجه في حديث طويل: الترمذي في تفسير سورة ص، وقال: حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح (٣٢٣٥)، وأحمد (٥/ ٢٤٣).

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عند: الترمذي (٣٢٣٤)، وأحمد (١/ ٣٦٨)، وأبي يعلىٰ (٢٦٠٨)، وعبد بن حميد (٦٨٢).

وجاء من حديث عبد الرحمن بن عائش عن بعض أصحاب النبي ﷺ عند: أحمد (٤/ ٦٦)، والدارمي (٢١٥٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله ثقات (٧/ ١٧٦).

(١٢) هذه الرواية لأحمد عن بعض أصحاب النبي ﷺ (٤/ ٦٦). ونحوها عند الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (٣٢٣٣-٣٢٣٤).

وَالمَشْيُ إِلَىٰ صَلَاتَيِ الْعِشَاءِ وَالْفَجْرِ سَبَبٌ لِلنُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه: «**بَشِّرِ المَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَفِي لَفْظٍ لِابْنِ خُزَيْمَةَ: «**لِيُبَشَّرَ المَشَّاؤُونَ فِي الظَّلَامِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١٣).

وَيَفْرَحُ اللهُ تَعَالَىٰ بِمَشْيِ عَبْدِهِ إِلَىٰ المَسْجِدِ لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُحِبُّ الطَّاعَةَ لِعِبَادِهِ، وَيَكْرَهُ لَهُمُ المَعْصِيَةَ؛ ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزُّمَر: مِنَ الآيَةِ ٧]، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ خُزَيْمَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «بَابُ ذِكْرِ فَرَحِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ بِمَشْيِ عَبْدِهِ إِلَىٰ المَسْجِدِ مُتَوَضِّئًا، ثُمَّ سَاقَ تَحْتَهُ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا يَتَوَضَّأُ أَحَدٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ وَيُسْبِغُهُ ثُمَّ يَأْتِي المَسْجِدَ لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ، إِلَّا تَبَشْبَشَ اللهُ إِلَيْهِ كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِطَلْعَتِهِ**»»(١٤).

---

(١٣) أخرجه من حديث بريدة رضي الله عنه أبو داود في الصلاة، باب ما جاء في المشي إلىٰ الصلاة في الظلم (٥٦١)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة، ورجح الترمذي وقفه (٢٣٣)، والطبراني في الأوسط (٤٢٠٧).
وأخرجه من حديث سهل رضي الله عنه: ابن ماجه في المسجد والجماعات، باب المشي إلىٰ الصلاة (٧٨١)، والطبراني في الكبير (٦/ ١٤٧) رقم (٥٨٠٠)، واستغربه ابن خزيمة (١٤٩٨)، وصححه الحاكم وقال: علىٰ شرط الشيخين (١/ ٣٣١).
وقد جاء عن أنس رضي الله عنه عند ابن ماجه (٧٨١)، والضياء في المختارة (١٧١٣)، والحاكم (١/ ٣٣٢)، والطبراني في الأوسط (٥٩٥٦).
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند: الطيالسي (٢٢١٢)، وأبي يعلىٰ (١١١٣).
وعن ابن عباس رضي الله عنهما عند: الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٨٩) رقم (١٨٠٦٨٩).
وعن ابن عمر رضي الله عنهما عند الطبراني في الكبير (١٢/ ٣٥٨) رقم (١٣٣٣٥).
(١٤) أخرجه ابن ماجه في المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة (٨٠٠)، وأحمد (٢/ ٣٠٧)، والطيالسي (٢٢٣٤)، وصححه ابن خزيمة (١٤٩١)، وابن حبان (١٦٠٧)، والحاكم وقال: علىٰ شرط الشيخين (١/ ٣٣٢)، واللفظ لأحمد وابن خزيمة، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٠٢).

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُعِدُّ لِزُوَّارِ المَسَاجِدِ ضِيَافَةً فِي الْجَنَّةِ فِي كُلِّ غَدْوَةٍ يَغْدُونَهَا إِلَىٰ المَسْجِدِ، فَالمَشَّاؤُونَ إِلَىٰ المَسَاجِدِ فِي ضِيَافَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ حَتَّىٰ يَعُودُوا إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ، رَوَىٰ أَبو هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ غَدَا إِلَىٰ المَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللهُ لَهُ فِي الجَنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١٥]، وَالنُّزُلُ: مَا يُهَيَّأُ لِلضَّيْفِ عِنْدَ قُدُومِهِ[١٦].

وَمَنْ خَرَجَ إِلَىٰ المَسْجِدِ يُرِيدُ الصَّلَاةَ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ إِلَىٰ أَنْ يَرْجِعَ؛ كَمَا رَوَىٰ الدَّارِمِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ ثُمَّ خَرَجَ يُرِيدُ الصَّلَاةَ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَىٰ بَيْتِهِ**»[١٧].

وَإِذَا تَأَخَّرَ الْعَبْدُ عَنْ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ مَعَ حِرْصِهِ عَلَىٰ إِدْرَاكِهَا، وَمَشْيِهِ إِلَيْهَا؛ كُتِبَ لَهُ أَجْرُهَا وَلَوْ فَاتَتْهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ ثُمَّ رَاحَ فَوَجَدَ النَّاسَ قَدْ صَلَّوْا أَعْطَاهُ اللهُ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ صَلَّاهَا أَوْ حَضَرَهَا، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[١٨]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ عَظِيمِ أَمْرِ الْخُرُوجِ لِصَلَاةِ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

بَلْ جَاءَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَىٰ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الحَاجِّ المُحْرِمِ،**

---

(١٥) أخرجه مسلم في المساجد، باب المشي إلىٰ الصلاة تمحىٰ بها الخطايا وترفع بها الدرجات (٦٦٩)، وأحمد (٢/ ٥٠٨)، وابن أبي شيبة (٧/ ١١٥).

(١٦) شرح النووي علىٰ مسلم (٥/ ١٧٠)، والمفهم للقرطبي (٢/ ٢٩٤).

(١٧) أخرجه الدارمي (١٤٠٦)، وصححه ابن خزيمة (٤٣٩)، والحاكم وقال: علىٰ شرط الشيخين (١/ ٣٢٤).

(١٨) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب فيمن خرج يريد الصلاة فسبق بها (٥٦٤)، وأحمد (٢/ ٣٨٠)، وعبد بن حميد (١٤٥٥)، وصححه الحاكم وقال: علىٰ شرط مسلم (١/ ٣٢٧).

وَمَنْ خَرَجَ إِلَىٰ تَسْبِيحِ الضُّحَىٰ لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ، وَصَلَاةٌ عَلَىٰ إِثْرِ صَلَاةٍ لَا لَغْوَ بَيْنَهُمَا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٩).

وَمَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَىٰ الْجَمَاعَةِ فَهُوَ فِي رِعَايَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَحِفْظِهِ، وَلَهُ أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ سَالِمًا غَانِمًا، فَإِنْ تَوَفَّاهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«ثَلَاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَىٰ اللَّهِ ﷻ، وَذَكَرَ مِنْهُمْ: رَجُلًا رَاحَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَىٰ اللَّهِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ»** رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(٢٠).

فَاحْرِصُوا رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ إِدْرَاكِ هَذِهِ الْأُجُورِ الْعَظِيمَةِ بِالْمَشْيِ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ، وَكَثْرَةِ الْخُطَىٰ إِلَيْهَا، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْجَمَاعَاتِ، وَعَوِّدُوا أَبْنَاءَكُمْ وَمَنْ وَلَّاكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ أُمُورَهُمْ عَلَىٰ هَذَا الْخَيْرِ الْعَظِيمِ؛ فَفِي ذَلِكَ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٤].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .

❀ ❀ ❀

---

(١٩) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ما جاء في فضل المشي إلىٰ الصلاة (٥٥٨)، وأحمد (٥/ ٢٦٨)، والروياني (١٢٠٤)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٧٦) رقم (٧٧٣٤)، والأوسط (٣٢٦٢).

(٢٠) أخرجه أبو داود في الجهاد باب فضل الغزو في البحر (٢٤٩٤)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٩٤)، وابن أبي عاصم في الجهاد (٥١)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٠٠) رقم (٧٤٩٣)، وصححه ابن حبان (٤٩٩)، والحاكم (٢/ ٨٣)، ورجح ابن أبي حاتم وقفه كما في العلل (٩٢٧).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ؛ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْمُحَافَظَةُ عَلَىٰ الْجَمَاعَاتِ، وَاعْتِيَادُ الْمَشْيِ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ يَسْتَطِيعُهُ الْمُسْلِمُ إِذَا جَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَرَوَّضَهَا عَلَيْهِ، وَقَدْ رَأَيْنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَعَلُوا ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ حَتَّىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَابِقُونَ عَلَىٰ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَعَلَىٰ الدُّنُوِّ مِنَ الْإِمَامِ، وَمَنِ اسْتَطَاعَ ذَلِكَ فِي شَهْرٍ كَامِلٍ فَإِنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَيْهِ الْعُمْرَ كُلَّهُ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَحْجِزُهُمْ عَنِ الْمُسَابَقَةِ إِلَىٰ ذَلِكَ كَسَلُهُمْ، وَتَسَلُّطُ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِمْ بِالتَّسْوِيفِ وَالتَّأْجِيلِ، فَيَسْمَعُ وَاحِدُهُمُ النِّدَاءَ فَيَتَعَلَّلُ بِعَمَلٍ يَعْمَلُهُ، أَوْ يَتَأَخَّرُ لِأَنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ بَقِيَ عَلَيْهَا وَقْتٌ، فَمَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ يَتَمَادَىٰ بِهِ حَتَّىٰ تَفُوتَهُ الْجَمَاعَةُ، أَوِ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ!

وَيَظَلُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يُمَنُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِأَنَّهُ سَيَأْتِي الْيَوْمُ الَّذِي يُحَافِظُ فِيهِ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ، وَيُسَابِقُ عَلَىٰ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَلَا تَفُوتُهُ التَّكْبِيرَةُ الْأُولَىٰ، وَيَعِدُ نَفْسَهُ بِأَنَّ ذَلِكَ سَيَحْصُلُ إِذَا فَرَغَ مِنْ شُغْلِهِ، وَقَلَّ ارْتِبَاطُهُ، وَخَفَّتْ مَسْئُولِيَّاتُهُ، وَمَا هَذَا التَّسْوِيفُ وَالْعِدَةُ وَالْأَمَانِي إِلَّا حَبَائِلَ الشَّيْطَانِ يَصْطَادُ بِهَا الْعَبْدَ حَتَّىٰ يُدْرِكَهُ الْمَوْتُ وَلَمَّا يَفْرُغْ مِنْ شُغْلِهِ.

وَمَا الَّذِي يَمْنَعُ المُسْلِمَ أَنْ يَجْعَلَ المَشْيَ إِلَىٰ المَسَاجِدِ، وَحُضُورَ الْجَمَاعَةِ مِنْ أَهَمِّ مُهِمَّاتِهِ، وَأَوَّلِ أَوْلَوِيَّاتِهِ، حَتَّىٰ يَعْتَادَ ذَلِكَ، وَيَكُونَ جُزْءًا مِنْ حَيَاتِهِ؟ وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَهُ الْعُمْرَ كُلَّهُ، وَلَنْ يَفُوتَهُ مِنَ الدُّنْيَا مَا قَدْ يُدْرِكُهُ غَيْرُهُ مِمَّنْ هَجَرُوا المَسَاجِدَ، وَأَضَاعُوا صَلَاةَ الْجَمَاعَةِ، فَخَسِرُوا كَثِيرًا.

إِنَّ سَلَفَنَا الصَّالِحَ قَدْ أَدْرَكُوا أَهَمِّيَّةَ المَشْيِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ، وَحُضُورَ الْجَمَاعَةِ، وَعَلِمُوا مَا رُتِّبَ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ، فَجَعَلُوا ذَلِكَ مِنْ أَهَمِّ أَعْمَالِهِمْ، لَا يُقَدِّمُونَ عَلَيْهِ أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا مَهْمَا عَلَا شَأْنُهُ، وَبَعْضُهُمْ قَدْ عَذَرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ لِمَرَضٍ مُقْعِدٍ، أَوْ كِبَرٍ مُعْجِزٍ، وَمَا تَرَكُوا المَشْيَ إِلَىٰ المَسَاجِدِ وَحُضُورَ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، يَبْتَغُونَ الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ.

مِنْهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْحَفَّارُ الْغِرْنَاطِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-، قَالَ ابْنُ الْخَطِيبِ: قَدْ بَقِيَ الْحَفَّارُ نَحْوًا مِنْ عَامَيْنِ أَوْ أَزْيَدَ يَخْرُجُ لِلصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يُهَادَىٰ بَيْنَ رَجُلَيْنِ لِشَيْءٍ كَانَ بِرِجْلِهِ، حَتَّىٰ كَانَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ يَقُولُ: الْحَفَّارُ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَىٰ مَنْ لَمْ يَحْضُرِ الْجَمَاعَةَ[٢١].

وَكَانَ الرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَمٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- يُقَادُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، وَكَانَ بِهِ الْفَالِجُ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا يَزِيدَ، إِنَّهُ قَدْ رُخِّصَ لَكَ فِي ذَلِكَ، قَالَ: إِنِّي أَسْمَعُ حَيَّ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَىٰ الْفَلَاحِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَأْتُوهَا وَلَوْ حَبْوًا[٢٢].

وَمَنْ عَجَزَ مِنْهُمْ عَنِ المَشْيِ إِلَىٰ المَسْجِدِ كَانَ يَسْتَأْجِرُ مَنْ يَحْمِلُهُ إِلَىٰ المَسْجِدِ لِحُضُورِ الْجَمَاعَةِ يَبْتَغِي الْأَجْرَ عَلَىٰ ذَلِكَ؛ كَمَا وَقَعَ لِلْعَالِمِ المَالِكِيِّ ابْنِ خَفِيفٍ

---

(٢١) الدرر الكامنة لابن حجر (٥/ ٣٣٥-٣٣٦) رقم (١٥٧٠)

(٢٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٦/ ١٨٩-١٩٠)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٣٠)، والبيهقي في الشعب (٢٩٢٩).

-رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-؛ إِذْ كَانَ بِهِ وَجَعُ الْخَاصِرَةِ، فَكَانَ إِذَا أَصَابَهُ أَقْعَدَهُ عَنِ الْحَرَكَةِ، فَكَانَ إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ يُحْمَلُ عَلَىٰ ظَهْرِ رَجُلٍ، فَقِيلَ لَهُ: لَوْ خَفَّفْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ! فَقَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: إِذَا سَمِعْتُمْ: حَيَّ عَلَىٰ الصَّلَاةِ، وَلَمْ تَرَوْنِي فِي الصَّفِّ فَاطْلُبُونِي فِي المَقْبَرَةِ(٢٣).

وَرُبَّمَا أَحَسَّ بَعْضُهُمْ بِالمَوْتِ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَآثَرَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَىٰ الْجَمَاعَةِ لِيَشْهَدَهَا، وَيَمُوتَ فِي المَسْجِدِ؛ كَمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِعَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ -رحمه الله تعالىٰ-؛ إِذْ سَمِعَ المُؤَذِّنَ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ وَمَنْزِلُهُ قَرِيبٌ مِنَ المَسْجِدِ، فَقَالَ: خُذُوا بِيَدِي، فَقِيلَ لَهُ: أَنْتَ عَلِيلٌ، فَقَالَ: أَسْمَعُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَا أُجِيبُهُ؟! فَأَخَذُوا بِيَدِهِ، فَدَخَلَ فِي صَلَاةِ المَغْرِبِ، فَرَكَعَ مَعَ الْإِمَامِ رَكْعَةً، ثُمَّ مَاتَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ(٢٤).

إِنَّ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ كَانُوا بَشَرًا مِثْلَنَا، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ وَأَوْلَادٌ وَمَسْؤُولِيَّاتٌ، وَلَكِنَّهُمْ جَعَلُوا مِنْ أَهَمِّ مُهِمَّاتِهِمُ المُحَافَظَةَ عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ فِي المَسَاجِدِ، فَمَا فَاتَتْهُمُ الدُّنْيَا، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ بِمَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ فِي الْآخِرَةِ، فَسِيرُوا يَا عِبَادَ اللَّهِ سِيرَتَهُمْ فِي المَشْيِ إِلَىٰ المَسَاجِدِ، وَالمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْجَمَاعَةِ، وَالمُسَابَقَةِ عَلَىٰ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَإِدْرَاكِ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ؛ فَفِي ذَلِكَ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالْفَوْزُ بِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ . . .

❊ ❊ ❊

---

(٢٣) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٣٤٦).

(٢٤) التمهيد لابن عبد البر (٢٠/ ٩٣١)، وصفة الصفوة (٢/ ١٣١-١٣٢) رقم (١٧٤)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٢١٩-٢٢٠).

٢٤٠- صلاة الجماعة (٢)
آداب الخروج إلى المسجد

١/ ٥/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْجَوَادِ الْكَرِيمِ؛ فَتَحَ لِعِبَادِهِ أَبْوَابَ خَيْرَاتِهِ، وَأَفَاضَ عَلَيْهِمْ مِنْ جَزِيلِ عَطَائِهِ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ مَا شَرَعَ لَنَا مِنْ دِينِهِ الْقَوِيمِ، وَنَشْكُرُهُ فَقَدْ جَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَمِ الْعَالَمِينَ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عِمْرَان: ١١٠]، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَرَضَ عَلَيْنَا مِنَ الْعِبَادَاتِ مَا يَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ، وَيُكَفِّرُ السَّيِّئَاتِ، وَيَزِيدُ الْحَسَنَاتِ؛ تَفَضُّلًا مِنْهُ عَلَيْنَا، وَرَحْمَةً بِنَا؛ لِيَجْزِيَنَا بِمَا عَمِلْنَا ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرَّحْمَن: ٦٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ وَأَمَرَنَا بِهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ وَنَهَانَا عَنْهُ، وَمَا فَارَقَ أُمَّتَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَرَكَهَا عَلَىٰ بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَصْلَحِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَزْكَاهُمْ نُفُوسًا، وَأَخْلَصِهِمْ أَعْمَالًا، فَرَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَجَعَلَ دَارَ الْخُلْدِ مَأْوَاهُمْ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ تُفَارِقُونَ بُيُوتَكُمْ إِلَىٰ قُبُورِكُمْ، وَلَنْ تَجِدُوا فِيهَا إِلَّا أَعْمَالَكُمْ، فَشَمِّرُوا عَنْ سَوَاعِدِ الْجِدِّ فِيمَا يُنْجِيكُمْ، وَاحْذَرُوا مَا يَكُونُ سَبَبًا فِي هَلَاكِكُمْ، فَالْفُرْصَةُ وَاحِدَةٌ .. فَوْزُهَا كَبِيرٌ، وَخَسَارَتُهَا عَظِيمَةٌ ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٨، ٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: لِلصَّلَاةِ شَأْنٌ كَبِيرٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَهِيَ الشَّعِيرَةُ الَّتِي كَلَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِلَا وَاسِطَةٍ، وَهِيَ عَمُودُ الْإِسْلَامِ، وَرُكْنُهُ الْأَوَّلُ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَكَثُرَتْ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي شُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا وَمُسْتَحَبَّاتِهَا كَثْرَةً لَا تُقَارِبُهَا فِيهَا عِبَادَةٌ أُخْرَىٰ، وَهِيَ الْعِبَادَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي يُؤَذَّنُ فِي النَّاسِ بِهَا كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ.

وَصَلَاةُ الْجَمَاعَةِ وَاجِبَةٌ عَلَىٰ الرِّجَالِ، وَفِيهَا لَهُمْ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ مَا يَعِزُّ عَلَىٰ الْحَصْرِ، وَلَهَا فِي دِينِ اللَّهِ ﷻ فَضَائِلُ عَظِيمَةٌ، وَرُتِّبَ عَلَيْهَا أُجُورٌ كَثِيرَةٌ، وَمُرْتَادُ الْمَسَاجِدِ فِي ضِيَافَةِ الرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ؛ فَمَنْ أَعْظَمُ شَرَفًا مِنْهُ؟! وَمَنْ غَدَا إِلَىٰ الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ نُزُلًا فِي الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ(١).

إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ إِذَا دُعِيَ إِلَىٰ ضِيَافَةٍ اسْتَعَدَّ لَهَا بِالْغُسْلِ وَالطِّيبِ، وَاخْتَارَ لَهَا مِنَ اللِّبَاسِ بِحَسَبِ نَوْعِهَا وَمَنْزِلَةِ صَاحِبِهَا، وَمَوْقِعِهِ هُوَ مِنَ الضِّيَافَةِ، وَمَنْ ضَيَّفَهُ مُلُوكُ الدُّنْيَا لَيْسَ كَمَنْ ضَيَّفَهُ سَائِرُ النَّاسِ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَنْ ضَيَّفَهُ مَلِكُ الْمُلُوكِ، وَرَبُّ الْعَالَمِينَ، وَخَالِقُ النَّاسِ أَجْمَعِينَ؟!

وَلَمَّا كَانَ مُرْتَادُ الْمَسَاجِدِ لِحُضُورِ الْجَمَاعَةِ ضَيْفًا عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ شُرِعَ لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْآدَابِ مَا يَلْتَزِمُ بِهِ؛ لِحَقِّ هَذِهِ الضِّيَافَةِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي لَا تُقَارِبُهَا ضِيَافَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ مَهْمَا كَانَتْ، وَلِلضَّيْفِ فِيهَا مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ عَلَىٰ قَدْرِ الْتِزَامِهِ بِمَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ فِي هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ.

وَمِنْ تِلْكُمُ الْأَعْمَالِ وَالْآدَابِ: أَنْ يُخْلِصَ النِّيَّةَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَىٰ

---

(١) هذا نص حديث أخرجه البخاري في الجماعة والإمامة، باب فضل من غدا إلىٰ المسجد ومن راح (٦٦٢)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلىٰ الصلاة تمحىٰ به الخطايا (٦٦٩).

الصَّلَاةِ، وَأَنْ يَسْتَحْضِرَ عَظَمَتَهَا وَمَكَانَتَهَا مِنَ الدِّينِ، وَمَنْزِلَتَهَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ؛ حَتَّىٰ تَعْظُمَ فِي قَلْبِهِ، فَلَا يُنَازِعُهُ فِيهَا مَخْلُوقٌ مَهْمَا كَانَ عَظِيمًا، وَلَا يَصُدُّهُ عَنْهَا شُغْلٌ دُنْيَوِيٌّ وَإِنْ كَانَ كَبِيرًا، وَيُعْطِيهَا مَا تَسْتَحِقُّ مِنَ التَّهْيِئَةِ وَالِاسْتِعْدَادِ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ أَتَىٰ الْمَسْجِدَ لِشَيْءٍ فَهُوَ حَظُّهُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٢]، وَمَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ مَنْ أَتَاهُ لِلصَّلَاةِ فَحَظُّهُ عَظِيمٌ؛ لِمَنْزِلَتِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَلِمَكَانَتِهَا مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَغِيبُ عَنْهُمْ هَذَا الْمَعْنَىٰ الْمُهِمُّ قَبْلَ الْخُرُوجِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ، وَهُوَ اسْتِحْضَارُ عَظَمَةِ الصَّلَاةِ عِنْدَ الْخُرُوجِ إِلَيْهَا؛ وَذَلِكَ لِاعْتِيَادِهِمْ عَلَيْهَا، وَبِسَبَبِهِ تَثْقُلُ عَلَيْهِمْ، وَيُجَاهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ فِيهَا، وَلَوْ وَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ وَجَاهَدُوهَا قُبَيْلَ كُلِّ صَلَاةٍ عَلَىٰ اسْتِحْضَارِ مَكَانَتِهَا مِنَ الدِّينِ، وَمَنْزِلَتِهَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لَوَجَدُوا فِيهَا أَعْظَمَ اللَّذَّةِ وَالرَّاحَةِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَرِيحُ بِهَا، وَهِيَ قُرَّةُ عَيْنِهِ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ عَظَمَةِ الصَّلَاةِ فِي الدِّينِ: مَا شُرِعَ لَهَا مِنَ التَّطَهُّرِ وَالْوُضُوءِ رَغْمَ أَنَّهَا تَتَكَرَّرُ خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَرُتِّبَ عَلَىٰ هَذَا الْوُضُوءِ أُجُورٌ عَظِيمَةٌ مِنْ تَكْفِيرِ الْخَطَايَا مَعَ كُلِّ عُضْوٍ يَغْسِلُهُ، وَفَتْحِ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ لِلْمُتَوَضِّئِ إِذَا أَنْهَىٰ وُضُوءَهُ وَأَتَىٰ بِالذِّكْرِ الْوَارِدِ عَقِبَهُ.

وَهَذَا التَّطَهُّرُ لَهَا مِمَّا يَلِيقُ بِحَقِّ هَذِهِ الضِّيَافَةِ الْعَظِيمَةِ؛ وَلِذَا شُرِعَ لَهَا التَّزَيُّنُ بِاللِّبَاسِ، وَالطِّيبُ لَهُ تَبَعٌ، وَالسِّوَاكُ لِتَطْهِيرِ الْفَمِ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ

---

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أبو داود في الصلاة، باب فضل القعود في المسجد (٤٧٢)، والبيهقي (٢/ ٤٤٧)، والديلمي كما في مسند الفردوس (٥٩٣١)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٥٩)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (الأم: ٤٩١)، وصححه في صحيح الجامع (٥٩٣٦).

مَسْجِدٍ﴾ [الأعْرَاف: ٣١]، وَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٣].

وَمِنَ الِاسْتِهَانَةِ بِالمَسْجِدِ وَبِالصَّلَاةِ: أَنْ يَحْضُرَهَا المُصَلِّي بِمَا لَا يَلِيقُ مِنْ لِبَاسِ النَّوْمِ أَوِ الرِّيَاضَةِ أَوِ المِهْنَةِ، مَعَ مَا تَعِجُّ بِهِ مِنْ رَوَائِحِ صَنْعَتِهِ وَحِرْفَتِهِ، أَوْ نَحْوِهَا مِنَ الْأَلْبِسَةِ الَّتِي لَا يَرْضَىٰ أَنْ يَلْبَسَهَا لَهُ ضَيْفُهُ، وَلَا يَلْبَسَهَا هُوَ إِذَا دُعِيَ إِلَىٰ ضِيَافَةٍ؛ فَكَيْفَ يَرْفُضُهَا فِي مَجْلِسِ بَيْتِهِ، وَيَرْضَاهَا فِي مَسْجِدِ رَبِّهِ؟! وَكَيْفَ لَا يَقْبَلُهَا عَلَىٰ نَفْسِهِ فِي دَعْوَةِ الْبَشَرِ، وَيَقْبَلُهَا فِي دَعْوَةِ رَبِّ الْبَشَرِ ﷻ؟!

وَجَاءَ النَّهْيُ الشَّدِيدُ عَنْ حُضُورِ الْجَمَاعَةِ بِالرَّوَائِحِ الْكَرِيهَةِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُنَافِي عَظَمَةَ الضِّيَافَةِ، وَيَتَأَذَّىٰ بِهِ المَلَائِكَةُ وَالمُؤْمِنُونَ، رَوَىٰ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعْتَزِلْنَا وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا؛ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَتَأَذَّىٰ مِمَّا يَتَأَذَّىٰ مِنْهُ بَنُو آدَمَ**»[٤].

وَبَلَغَ مِنْ أَهَمِّيَّةِ هَذَا المَوْضُوعِ الَّذِي اسْتَهَانَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَنِ أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه لَمَّا عَلِمَ قُرْبَ وَفَاتِهِ بِرُؤْيَا رَآهَا أَوْصَىٰ النَّاسَ، فَكَانَ مِنْ وَصِيَّتِهِ قَوْلُهُ رضي الله عنه: «ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَأْكُلُونَ شَجَرَتَيْنِ لَا أُرَاهُمَا إِلَّا خَبِيثَتَيْنِ: هَذَا الْبَصَلَ وَالثُّومَ، لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا وَجَدَ رِيحَهُمَا مِنَ الرَّجُلِ فِي

---

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الجمعة، باب السواك يوم الجمعة (٨٤٧)، ومسلم في الطهارة، باب السواك (٢٥٢).

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الأحكام التي تعرف بالدلائل وكيف معنىٰ الدلالة وتفسيرها (٦٩٢٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوهما (٥٦٤).

المَسْجِدِ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجُ إِلَىٰ الْبَقِيعِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥)، وَلَوْلَا شِدَّةُ النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ لَمَا أَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ إِلَىٰ الْبَقِيعِ.

فَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَحْضُرَ الْمَسْجِدَ بِرَوَائِحِ الثُّومِ أَوِ الْبَصَلِ أَوِ الدُّخَانِ أَوْ نَتْنِ جَوَارِبِهِ أَوْ مَلَابِسِهِ إِذَا كَانَ لَا يُنَظِّفُهَا، وَمَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا طِبًّا أَوْ طَعَامًا فَلْيُصَلِّ فِي بَيْتِهِ، وَلَا يُؤْذِي الْمُصَلِّينَ بِرَائِحَتِهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّخَانِ سَيِّئَةٌ إِلَّا أَنَّ الْمُدَخِّنَ يُؤْذِي الْمَلَائِكَةَ وَالْمُصَلِّينَ بِرَائِحَتِهِ لَكَانَ ذَلِكَ رَادِعًا لِلْمُبْتَلَىٰ بِهِ أَنْ يَسْعَىٰ جُهْدَهُ فِي الْإِقْلَاعِ عَنْهُ، وَمَنِ ابْتُلِيَ بِرَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ فِي جَسَدِهِ أَوْ بَخَرٍ فِي فَمِهِ فَلْيَسْعَ قَبْلَ حُضُورِهِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ إِلَىٰ إِزَالَتِهَا بِأَنْوَاعِ الْمُطَهِّرَاتِ وَالرَّوَائِحِ الطَّيِّبَةِ، فَإِنْ كَانَتْ لَا تَزُولُ أَبَدًا، فَلَا جَمَاعَةَ عَلَيْهِ، وَلْيُصَلِّ فِي بَيْتِهِ.

وَإِذَا أَكْمَلَ الْمُسْلِمُ مَا يَلْزَمُ لِصَلَاتِهِ، وَأَرَادَ الْخُرُوجَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ قَدَّمَ رِجْلَهُ الْيُسْرَىٰ فِي خُرُوجِهِ مِنْ مَنْزِلِهِ، وَأَتَىٰ بِالْأَذْكَارِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهَا تَدْحَرُ شَيْطَانَهُ، وَتُعِينُهُ عَلَىٰ الْخُشُوعِ فِي صَلَاتِهِ.

وَمَشْيُهُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ أَفْضَلُ مِنْ رُكُوبِهِ؛ لِمَا رُتِّبَ عَلَىٰ الْخَطْوِ إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ مِنْ رَفْعِ الدَّرَجَاتِ، وَزِيَادَةِ الْحَسَنَاتِ، وَتَكْفِيرِ الْخَطِيئَاتِ، وَيُقَرِّبُ بَيْنَ رِجْلَيْهِ فِي خُطُوَاتِهِ؛ لِتَكْثِيرِهَا وَتَحْصِيلِ مَا رُتِّبَ عَلَيْهَا مِنْ عَظِيمِ الثَّوَابِ. عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «وَضَعَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ يَدَهُ عَلَيَّ وَهُوَ يُرِيدُ الصَّلَاةَ فَجَعَلَ يُقَارِبُ خَطْوَهُ»(٦)، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «إِنْ كُنَّا لَنُقَارِبُ فِي الْخُطَىٰ»(٧).

---

(٥) أخرجه من حديث عمر رضي الله عنه: مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوهما (٥٦٧)، والنسائي في المساجد، باب من يخرج من المسجد (٢/ ٤٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب من أكل الثوم فلا يقربن المسجد (١٠١٤)، وأحمد (١/ ١٥)، والطيالسي (٥٣)، وأبو يعلىٰ (١٨٤)، وابن حبان (٢٠٩١).

(٦) أخرجه عبد الرزاق (١٩٨٣).

(٧) أخرجه عبد الرزاق (١٩٧٩)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٣٨)، وأحمد (١/ ٣٨٢)، والطيالسي =

وَهَذَا الْخَيْرُ الْعَظِيمُ لَا يَتَأَتَّىٰ إِلَّا لِمَنِ اسْتَعَدَّ لِلصَّلَاةِ قَبْلَ دُخُولِ وَقْتِهَا، أَوْ فِي أَوَّلِهِ، وَخَرَجَ إِلَىٰ المَسْجِدِ مُبَكِّرًا، وَالتَّبْكِيرُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ سَبَبٌ لِتَحْصِيلِ عِبَادَاتٍ كَثِيرَةٍ تَفُوتُ عَلَىٰ الْمُتَأَخِّرِينَ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَىٰ قُرْبِ الْإِقَامَةِ أَوْ بَعْدِهَا.

فَإِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَهُوَ يَمْشِي فَلَا يُسْرِعْ فِي مَشْيِهِ لِإِدْرَاكِ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ أَوِ الرَّكْعَةِ أَوِ الصَّلَاةِ، لَا خَارِجَ المَسْجِدِ وَلَا دَاخِلَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا أَخْرَجَتْهُ الصَّلَاةُ، رَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ وَأْتُوهَا تَمْشُونَ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ يَعْمِدُ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ**»(٨).

وَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ الْجَرْيِ وَتَسْرِيعِ الْخُطَىٰ وَالْجَلَبَةِ وَالنَّحْنَحَةِ وَرَفْعِ الصَّوْتِ وَالضَّرْبِ بِالْأَرْجُلِ لِإِدْرَاكِ الرُّكُوعِ مِمَّا يُنَافِي الْوَقَارَ وَالسَّكِينَةَ، وَفِيهِ مُخَالَفَةٌ لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ إِزْعَاجٍ لِلْمُصَلِّينَ وَتَشْوِيشٍ عَلَيْهِمْ، فَحَرِيٌّ بِالمُصَلِّي أَنْ يَجْتَنِبَ ذَلِكَ، وَأَنْ يُبَكِّرَ لِلصَّلَاةِ مَا اسْتَطَاعَ؛ لِئَلَّا يَقَعَ فِي هَذِهِ المُخَالَفَاتِ.

وَمِنْ كَبِيرِ الْخَطَإِ: تَشْوِيشُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ عَلَىٰ إِخْوَانِهِمُ المُصَلِّينَ بِهَوَاتِفِهِمْ قَبْلَ الصَّلَاةِ وَأَثْنَاءَهَا وَبَعْدَهَا، بِمَا يَصْدُرُ عَنْهَا مِنْ أَصْوَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ، تُزْعِجُ المُصَلِّينَ، وَتُذْهِبُ خُشُوعَهُمْ، سَوَاءٌ كَانَتْ قُرْآنًا أَمْ أَذَانًا أَمْ دُعَاءً أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ،

= (٣١٣)، والطبراني في الكبير (٩/ ١١٦) رقم (٨٥٩٦)، والبيهقي في السنن الصغرىٰ (٥٠٢).

(٨) أخرجه البخاري في الجمعة، باب المشي إلىٰ الجمعة (٨٦٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، والنهي عن إتيانها سعيًا (٦٠٢).

فَإِذَا كَانَتْ تُصْدِرُ غِنَاءً أَوْ مُوسِيقَىٰ فَالْجُرْمُ أَكْبَرُ، وَالْأَذِيَّةُ أَشَدُّ؛ إِذْ كَيْفَ يَرْضَىٰ مُسْلِمٌ بِمُحَرَّمَاتٍ يَجْلِبُهَا إِلَىٰ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ أَذِيَّةِ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُصَلِّينَ، فَلْيَتَّقِ اللهَ تَعَالَىٰ مَنْ يَتَسَاهَلُونَ فِي ذَلِكَ.

فَإِذَا أَرَادَ دُخُولَ الْمَسْجِدِ قَدَّمَ رِجْلَهُ الْيُمْنَىٰ، وَأَتَىٰ بِذِكْرِ دُخُولِ الْمَسْجِدِ، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «مِنَ السُّنَّةِ إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ أَنْ تَبْدَأَ بِرِجْلِكَ الْيُمْنَىٰ، وَإِذَا خَرَجْتَ أَنْ تَبْدَأَ بِرِجْلِكَ الْيُسْرَىٰ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ[٩].

وَيَحْرِصُ عَلَىٰ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَعَلَىٰ الْقُرْبِ مِنَ الْإِمَامِ مَا اسْتَطَاعَ، وَعَلَىٰ أَنْ يَكُونَ فِي يَمِينِ الصَّفِّ؛ لِمَا رُتِّبَ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنَ الْأُجُورِ الْعَظِيمَةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ»** مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه[١٠].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَىٰ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١١].

وَإِذَا أَخَذَ مَكَانَهُ فِي الْمَسْجِدِ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّىٰ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ؛ لِحَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ**

---

(٩) أخرجه البيهقي (٢/ ٤٤٢)، والحاكم وصححه وقال: علىٰ شرط مسلم (١/ ٢٣٨).

(١٠) أخرجه البخاري في الأذان، باب الاستهام في الأذان (٥٩٠)، ومسلم في الصلاة، باب تسوية الصفوف (٤٣٧).

(١١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها، وفضل الأول فالأول منها، والازدحام علىٰ الصف الأول، والمسابقة إليها، وتقديم أولي الفضل، وتقريبهم من الإمام (٤٣٢)، وأبو داود في الصلاة، باب من يستحب أن يلي الإمام في الصف وكراهية التأخر (٦٧٤)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء ليلنىٰ منكم أولو الأحلام والنهىٰ (٢٢٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب من يستحب أن يلي الإمام (٩٧٦).

فَلَا يَجْلِسْ حَتَّىٰ يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٢).

وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي صَلَاةٍ مَا دَامَ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، فَإِنْ شَاءَ تَنَفَّلَ أَوْ قَرَأَ الْقُرْآنَ أَوِ اشْتَغَلَ بِالذِّكْرِ أَوْ بِالدُّعَاءِ، وَلَا يَشْتَغِلْ بِأُمُورِ الدُّنْيَا أَوْ بِالْحَدِيثِ مَعَ غَيْرِهِ فِي شُئُونِهَا وَهُوَ مُنْتَظِرٌ صَلَاتَهُ، وَلَا يَعْبَثْ فِي المَسْجِدِ بِثَوْبِهِ أَوْ يَدَيْهِ أَوْ سَاعَتِهِ أَوْ جَوَّالِهِ، وَلَا يُشَبِّكْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ؛ لِحَدِيثِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ ثُمَّ خَرَجَ عَامِدًا إِلَىٰ المَسْجِدِ، فَلَا يُشَبِّكَنَّ يَدَيْهِ؛ فَإِنَّهُ فِي صَلَاةٍ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(١٣).

وَلَا يَرْفَعْ صَوْتَهُ بِقُرْآنٍ أَوْ ذِكْرٍ فَيُشَوِّشَ عَلَىٰ غَيْرِهِ؛ لِمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: «اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي المَسْجِدِ فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرُونَ بِالْقِرَاءَةِ، فَكَشَفَ السِّتْرَ، وَقَالَ: **أَلَا إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ، فَلَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَرْفَعْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ. أَوْ قَالَ: فِي الصَّلَاةِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ وَالْحَاكِمُ(١٤).

---

(١٢) أخرجه البخاري في التطوع، باب ما جاء في التطوع مثنىٰ مثنىٰ (١١١٠)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب تحية المسجد بركعتين (٧١٤).

(١٣) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب ما جاء في الهدي في المشي إلىٰ الصلاة (٥٦٢)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في كراهية التشبيك بين الأصابع في الصلاة (٣٨٦)، ثم قال الترمذي: ورویٰ شريك عن محمد بن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحو هذا الحديث، وحديث شريك غير محفوظ. وأخرجه الطيالسي (١٠٦٣)، وعبد بن حميد (٣٦٩)، وصححه ابن حبان (٢٠٣٦).
وجاء في معناه حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند: أحمد (٣/ ٤٢).

(١٤) أخرجه أبو داود في الصلاة أبواب قيام الليل، باب في رفع الصوت في القرآن في صلاة الليل (١٣٣٢)، والنسائي في الكبرىٰ (٨٠٩٢)، وأحمد (٣/ ٩٤)، وعبد بن حميد (٨٨٣)، وصححه ابن خزيمة (١١٦٢)، والحاكم وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين (١/ ٤٥٤).

وَإِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا يُصَلِّي إِلَّا المَكْتُوبَةَ؛ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ(١٥)، وَلِأَنَّهَا هِيَ المَقْصُودُ مِنْ مَجِيئِهِ لِلْمَسْجِدِ، فَإِذَا صَلَّىٰ أَتَىٰ بِالْأَذْكَارِ عَقِبَ الصَّلَاةِ، وَالسُّنَّةُ أَنْ يَجْهَرَ بِهَا؛ لِمَا رَوَىٰ الشَّيْخَانِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ حِينَ يَنْصَرِفُ النَّاسُ مِنَ المَكْتُوبَةِ كَانَ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ»(١٦).

فَإِنْ كَانَ لِلصَّلَاةِ رَاتِبَةٌ بَعْدِيَّةٌ أَتَىٰ بِهَا فِي المَسْجِدِ، وَإِنْ صَلَّاهَا فِي بَيْتِهِ فَذَلِكَ أَفْضَلُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**صَلُّوا -أَيُّهَا النَّاسُ- فِي بُيُوتِكُمْ فَإِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ صَلَاةُ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا المَكْتُوبَةَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه(١٧)، وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا قَضَىٰ أَحَدُكُمُ الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِهِ فَلْيَجْعَلْ لِبَيْتِهِ نَصِيبًا مِنْ صَلَاتِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ فِي بَيْتِهِ مِنْ صَلَاتِهِ خَيْرًا**»(١٨).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ بِمَا عَلَّمَنَا، وَأَنْ يَقْبَلَ مِنَّا وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ....



(١٥) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه «إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة» أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب كراهة الشروع في نافلة بعد شروع المؤذن (٧١).

(١٦) أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة (٨٠٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٨٣).

(١٧) أخرجه البخاري في الأذان، باب صلاة الليل (٦٩٨)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب النافلة في بيته (٧٨١).

(١٨) أخرجه مسلم (٧٧٨).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا النَّاسُ: لِلْمَسَاجِدِ حُرْمَتُهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَوَاجِبٌ عَلَىٰ مُرْتَادِيهَا أَنْ يُرَاعُوا تِلْكَ الْحُرْمَةَ، وَأَنْ يَلْتَزِمُوا فِيهَا بِآدَابِ الشَّرِيعَةِ، وَمَنْ فَقَدَ شَيْئًا فَلَا يَسْأَلْ عَنْهُ فِي الْمَسْجِدِ رَجَاءَ أَنْ يَجِدَهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنِ انْتِهَاكِ حُرْمَةِ الْمَسَاجِدِ وَابْتِذَالِهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ: لَا رَدَّهَا اللهُ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١٩)].

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ رَجُلًا نَشَدَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ: مَنْ دَعَا إِلَىٰ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لَا وَجَدْتَ، إِنَّمَا بُنِيَتِ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٢٠)].

وَمِنْ تَعْظِيمِ الْمَسَاجِدِ: تَحْرِيمُ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ فِيهَا، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ**

---

(١٩) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد (٥٦٨).

(٢٠) أخرجه مسلم (٥٦٩).

فَقُولُوا: لَا أَرْبَحَ اللهُ تِجَارَتَكَ . .» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ ابْنُ خُزَيْمَةَ(٢١).

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَحْلُو لَهُمُ الْحَدِيثُ عَنِ الدُّنْيَا وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالتِّجَارَةِ وَالْعَقَارِ وَالْأَسْهُمِ إِلَّا فِي الْمَسَاجِدِ، وَأَثْنَاءَ انْتِظَارِ الصَّلَاةِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا جَلَسَ بِجِوَارِ شَرِيكِهِ أَوْ قَرِينِهِ، وَذَلِكَ مِنْ تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ لَهُمْ؛ لِيُنْقِصَ مِنْ أَجْرِهِمْ، وَيَزِيدَ فِي إِثْمِهِمْ، فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ مَا بُنِيَتْ لِهَذَا.

وَيَدْخُلُ فِي مَعْنَىٰ ذَلِكَ: التَّسَوُّلُ فِي الْمَسَاجِدِ إِذَا كَانَ فِيهِ تَشْوِيشٌ عَلَىٰ النَّاسِ، وَإِشْغَالٌ لَهُمْ عَنِ الذِّكْرِ، وَإِلْحَاحٌ فِي الْمَسْأَلَةِ، كَمَا هُوَ وَاقِعٌ فِي هَذَا الزَّمَنِ؛ إِذْ لَا يَهْنَأُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ حَتَّىٰ يَصِيحَ فِي النَّاسِ يُفَصِّلُ حَاجَتَهُ، وَيَسْتَدِرُّ عَوَاطِفَهُمْ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يُنْهَىٰ عَنْهُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄ يَسُبُّ الْمُتَسَوِّلِينَ وَيَقُولُ: لَا تَشْهَدُونَ جُمْعَةً وَلَا عِيدًا إِلَّا لِلْمَسْأَلَةِ وَالْأَذَىٰ . . . قَالَ الذَّهَبِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: فَكَيْفَ إِذَا انْضَافَ إِلَىٰ ذَلِكَ غِنًىٰ مَا عَنِ السُّؤَالِ، وَقُوَّةٌ عَلَىٰ التَّكَسُّبِ(٢٢).

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: تِلْكَ آدَابٌ عَظِيمَةٌ شُرِعَتْ لِمَنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، وَكَانَ مِنْ رُوَّادِ الْمَسَاجِدِ؛ لِيَكْتَمِلَ أَجْرُهُ، وَيَعْظُمَ جَزَاؤُهُ، فَحَرِيٌّ بِنَا وَبِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا وَيَعْمَلَ بِهَا؛ الْتِزَامًا بِالسُّنَّةِ، وَطَلَبًا لِلْأَجْرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿**وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الْبَقَرَة: ١١٠].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

---

(٢١) أخرجه الترمذي في البيوع، باب النهي عن البيع في المسجد، وقال: حسن غريب (١٣٢١)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٠٠٤)، والدارمي (١٤٠١)، وابن الجارود (٥٦٢)، وصححه ابن خزيمة (١٣٠٥)، والحاكم وقال: علىٰ شرط مسلم (٢/ ٦٥).

(٢٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٩).

تنبيه: كنت وضعت في صلب الخطبة حديث عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ مُيَامِنِ الصُّفُوفِ**» أخرجه أبو داود في الصلاة، باب من يستحب أن يلي الإمام في الصف وكراهية التأخر (٦٧٦) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب فضل ميمنة الصف (١٠٠٥)، وصححه ابن حبان (٢١٦٠)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٧١٢)، والحافظ في الفتح (٢/ ٢١٣)، وقال النووي في خلاصة الأحكام: رواه أبو داود بإسناد علىٰ شرط مسلم، وفيه رجل مختلف في توثيقه (٢٤٨٢)، ونقل تصحيح الطبراني له، وذكر إعلال البيهقي له فتعقبه قائلًا: والمختار تصحيحه فلم يذكر ما يقتضي ضعفًا. خلاصة الأحكام (٢/ ٧١٠)، وصححه المناوي في التيسير (١/ ٢٦٤)، ونقل في فيض القدير عن مغلطاي في شرح ابن ماجه قوله: سنده صحيح علىٰ شرط مسلم. فيض القدير (٢/ ٢٧٠).

ثم حذفته من الخطبة بعد أن تبين لي أنه حديث ضعيف؛ إذ ساقه البيهقي بسنده عن عائشة ﵂ وقال عقبه: والمحفوظ بهذا الإسناد عن النبي ﷺ: «**إن الله وملائكته يصلون علىٰ الذين يصلون الصفوف**» السنن الكبرىٰ (٣/ ١٠٣).

وبَيَّنَ الألباني -رحمه الله تعالىٰ- أن خطأ وقع في متن الحديث من بعض رواته فقال: إسناده حسن، وكذا قال المنذري والعسقلاني، وهو علىٰ شرط مسلم، كما قال النووي. لكن أخطأ في متنه بعض رواته؛ حيث قال: «**علىٰ ميامن الصفوف**»! والصواب فيه ما رواه جماعة من الثقات بلفظ: «**علىٰ الذين يَصِلُونَ الصفوف**». وقال البيهقي: «إنه المحفوظ». وبهذا اللفظ: أخرجه ابن خزيمة وابن حبان في «صحيحيهما». وقال الحاكم: «حديث صحيح علىٰ شرط مسلم»، ووافقه الذهبي .... إلىٰ أن قال: وهو علىٰ شرط مسلم؛ كما قال

النووي في الرياض (ص ٤١٤)؛ وزاد: وفيه رجل مختلف في توثيقه، وهو يشير بذلك إما إلىٰ معاوية بن هشام؛ وإما إلىٰ أسامة بن زيد- وهو الليثي-؛ فإنهما من رجال مسلم، وفي كل منهما مقال، ولكن التحقيق أنهما ثقتان، في حفظهما شيء من الضعف الذي لا يمنع من الاحتجاج به، ولا ينزل حديثهما عن رتبة الحسن؛ كما حكم بذلك الحافظان المذكوران: المنذري والعسقلاني. وهذا كله ما لم يتبين خطؤهما. وقد ظهر لي أن معاوية بن هشام قد أخطأ علىٰ سفيان في بعض متن هذا الحديث؛ وهو قوله: «**علىٰ ميامن الصفوف**»! وذلك لأنه رواه جماعة من الثقات وهم قَبِيصَة الآشْجَعِيّ وأبو أحمد والحسين بن حفص وعبد الرزاق وعبد الله بن الوليد العَدَني عن سفيان بلفظ: علىٰ الذين يَصِلون الصفوف. وكذلك رواه ابن وهب وغيره عن أسامة بن زيد. وإسماعيل بن عَيّاش عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ... به ... والمقصود هنا: الإشارة إلىٰ أن حديث الباب خطأ، وأن الصواب فيه رواية الجماعة. صحيح سنن أبي داود (٦٨٠).

وأورد الحديث في موضع آخر بهذا اللفظ وضعفه فقال: عن معاوية بن هشام ثنا سفيان عن أسامة بن زيد عن عثمان بن عروة عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله وملائكته يُصَلُّونَ عَلَىٰ مَيَامِنِ الصُّفُوفِ**». قلت: حديث ضعيف بهذا اللفظ؛ أخطأ فيه معاوية بن هشام، وتفرد به، وفي حفظه ضعف. ولذا قال البيهقي: «لا أراه محفوظًا». وقد خالفه جماعة من الثقات عن سفيان وغيره عن أسامة فرووه بلفظ: «**علىٰ الذين يصِلون الصفوف**». وهو الصواب. وقال البيهقي: «هو المحفوظ» اهـ من ضعيف سنن أبي داود (١٠٤).

قلت: وضعف الحديث لا يعني أن ميمنة الصف وميسرته في الفضل سواء؛

إذ ورد ما يدل علىٰ ترجيح ميمنة الصف علىٰ ميسرته، وهي الأدلة العامة في فضل اليمين؛ كما في حديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النَّبِيّ ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ، فِي تَنَعُّلِهِ، وَتَرَجُّلِهِ، وَطُهُورِهِ، وَفِي شَأْنِهِ كُلِّهِ» أخرجه البخاري في الوضوء، باب التيمن في الوضوء والغسل (١٦٨)، ومسلم في الطهارة، باب التيمن في الطهور وغيره (٢٦٨).

وفي يمين الصف بخصوصه حديث البراء رضي الله عنه قال: «كنا إذا صلينا خلف رسول الله ﷺ، أحببنا أن نكون عن يمينه، يقبل علينا بوجهه» رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب يمين الإمام (٧٠٩).

والبراء رضي الله عنه ذكر أن العلة من ذلك إقبال النبي عليه الصلاة والسلام عليهم بوجهه، وجاء في رواية أخرىٰ لمسلم أنه لم يذكر هذه العلة. فإن كانت العلة محفوظة فالحكم يدور معها وجودًا وعدمًا، وإن كانت غير محفوظة فيكون الحكم مطلقًا، وترجح ميمنة الصف بهذا الحديث؛ لأنهم كانوا يفعلون ذلك بحضرة النبي عليه الصلاة والسلام، وإقراره لهم شرع.

لكن ورد أيضًا أن النبي ﷺ ينصرف من الصلاة عن شماله، وذلك في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لَا يَجْعَلَنَّ أَحَدُكُمْ لِلشَّيْطَانِ مِنْ نَفْسِهِ جُزْءًا، لا يَرَىٰ إِلَّا أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ لا يَنْصَرِفَ إِلَّا عَنْ يَمِينِهِ، أَكْثَرُ مَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَنْصَرِفُ عَنْ شِمَالِهِ» أخرجه البخاري في صفة الصلاة، باب الانفتال والانصراف عن اليمين والشمال (٨١٤) ومسلم واللفظ له في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب يمين الإمام (٧٠٧).

وعَنْ قَبِيصَةَ بْنِ هُلْبٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَؤُمُّنَا، فَيَنْصَرِفُ عَلَىٰ جَانِبَيْهِ جَمِيعًا: عَلَىٰ يَمِينِهِ وَعَلَىٰ شِمَالِهِ» أخرجه الترمذي في الصلاة، باب

ما جاء في الانصراف عن يمينه، وعن يساره، وقال: حديث حسن، ثم قال الترمذي عقبه: وعليه العمل عند أهل العلم: أنه ينصرف علىٰ أي جانبيه شاء، إن شاء عن يمينه، وإن شاء عن يساره، وقد صح الأمران عن النبي ﷺ (٣٠١).

فظاهرٌ أن النصوص ترجح جهة اليمين علىٰ جهة اليسار، هذا في حال تساوي الجهتين بالنسبة للقرب من الإمام، ولكن في حال كون الجهة اليسرىٰ أقرب للإمام، واليمين أبعد عنه؛ فإن العلماء المعاصرين اختلفوا في ذلك علىٰ قولين:

القول الأول: أن جهة اليمين أفضل مطلقًا، ولو اختل الصف بحيث كان من في يمينه أكثر ممن هم في يساره، وهو قول الشيخ ابن باز، واللجنة الدائمة للإفتاء.

قال الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالىٰ-: «قد ثبت عن النبي ﷺ ما يدل علىٰ أن يمين كل صف أفضل من يساره، ولا يشرع أن يقال للناس: اعدلوا الصف، ولا حرج أن يكون يمين الصف أكثر، حرصًا علىٰ تحصيل الفضل» مجموع فتاواه (١٢/ ٢٠٧).

وسئلت اللجنة الدائمة: هل الأفضل أن يكون المصلي في أيمن الصف مع بعده عن الإمام أو في أيسر الصف مع قربه من الإمام؟

فأجابوا: الأفضل أن يكون في الجانب الأيمن من الصف، سواء قرب من الإمام أو بعد؛ لعموم حديث: «**إنَّ اللهَ ومَلائكته يُصَلّون علىٰ مَيَامِنِ الصّفوف**» رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان. فتاوىٰ اللجنة الدائمة (٧/ ٤٢١).

والحديث المستدل به قد بان ضعفه، لكن حديث البراء السابق يدل علىٰ الأفضلية، وأيضًا ما جاء عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما موقوفا: «خَيْرُ المَسْجِدِ

المَقَامُ ثُمَّ مَيَامِنُ المَسْجِدِ» رواه ابن أبي شيبة (١/ ٣٠٠)، وفي لفظ: «خير المسجد خلف المقام، وعن يمين الإمام» أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (١٠٢٧).

القول الثاني: أن جهة اليمين أفضل عند التساوي، وأما إذا كانت جهة اليسار أقرب للإمام فهي الأفضل، وهو قول الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالىٰ-، فقد سئل: أيهما أفضل: الصلاة عن يمين الإمام أم يساره؟ وأيهما أفضل يمين الصف أو يساره؟

فأجاب بقوله: إذا كان لا يصلي مع الإمام إلا رجل واحد فإن المأموم يقف عن يمينه، ولا يقف عن يساره، لحديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه بات عند خالته ميمونة رضي الله عنها فقام النبي ﷺ بالليل، فقام ابن عباس عن يساره فأخذه من ورائه، وأقامه عن يمينه، فهذا دليل أن المأموم إذا كان واحدًا فإنه يكون عن اليمين، ولا يكون عن اليسار، أما إذا كان المأموم أكثر من واحد فإنه يكون خلفه. ويمين الصف أفضل من يساره، وهذا إذا كانا متقاربين، فإذا بعد اليمين بعدًا بَيِّنًا فإن اليسار والقرب من الإمام أفضل، وعلىٰ هذا فلا ينبغي للمأمومين أن يكونوا عن يمين الإمام حتىٰ لا يبقىٰ في اليسار إلا رجل أو رجلان؛ وذلك لأنه لما كان المشروع في حق الثلاثة أن يكون إمامهم بينهم، كان أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره ولم يكونوا عن اليمين، فدل هذا علىٰ أن الإمام يكون متوسطًا في الصف أو مقاربًا.

والخلاصة: أن اليمين أفضل إذا كانا متساويين أو متقاربين، وأما مع بعد اليمين فاليسار أفضل؛ لأنه أقرب إلىٰ الإمام. والله الموفق. مجموع فتاوىٰ ورسائل العثيمين (١٥/ ١٨٤-١٨٥).

والنفس تميل إلىٰ هذا القول؛ لما يلي:

١- أن الدنو من الإمام له فضيلة ثابتة بفضيلة الصف الأول علىٰ غيره من الصفوف، وكل صف متقدم فهو أفضل من الصف الذي يليه، وما ذاك إلا لقربه من الإمام.

٢- أنه ورد التصريح بفضيلة الدنو من الإمام في حديث أوس بن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ غَسَّلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَىٰ وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ فَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا**» أخرجه أبو داود في الطهارة، باب في الغسل يوم الجمعة (٣٤٥) والنسائي في الجمعة، باب فضل غسل يوم الجمعة (٣/ ٩٥) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الغسل يوم الجمعة (١٠٨٧) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٧٣) فقال: إسناده صحيح. وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، وقال الحاكم: «إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين»! ووافقه الذهبي! وقال الترمذي: «حديث حسن، ووافقه النووي» اهـ.

وهو وإن كان في الجمعة، ويحتمل أن الدنو لأجل سماع الخطبة، لكنه يعضد عموم فضيلة الدنو من الإمام حتىٰ في غير الجمعة. ويحمل التقييد بالدنو يوم الجمعة علىٰ أنه خرج مخرج الغالب؛ لكثرة الجمع فيها، كما في النهي عن تخطي الرقاب الوارد في الجمعة؛ فإنه يكره في الجمعة وغيرها، فكذلك الدنو يستحب في الجمعة وغيرها.

قال النووي -رحمه الله تعالىٰ-: «يستحب الدنو من الإمام بالإجماع؛ لتحصيل فضيلة التقدم في الصفوف واستماع الخطبة محققًا» المجموع (٤/ ٤٦٦).

٣- أن القول بفضيلة الجهة اليمنىٰ مطلقًا لو عمل به لأدىٰ إلىٰ تعطيل الجهة اليسرىٰ، فلا يتوسط الإمام، والأمة مجمعة عمليًّا علىٰ خلاف ذلك من عهد النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ يومنا هذا؛ إذ لو صح القول بأفضلية الجهة اليمنىٰ مطلقًا لأسست المساجد علىٰ مقتضىٰ هذه الأفضلية بأن لا يكون في يسار الصفوف أحد، وذلك بأن يجعل موضع الإمام في الطرف الأيسر من المسجد، فيكون الناس كلهم عن يمينه في جميع الصفوف. فلما لم يقع ذلك عمليًّا مع تحري العلماء للأفضلية، وحرص عمار المساجد علىٰ تحري السنة فيها؛ علم أن محل أفضلية ميمنة الصف هي في حال التساوي بين اليمين واليسار في الدنو من الإمام. والله أعلم.



٢٤١- عيد الأسبوع (١)
فضل يوم الجمعة

٢/ ٣/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَفَاضَلَ بَيْنَهُمْ بِحِكْمَتِهِ؛ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الْقَصَص: ٦٨]، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَىٰ جَزِيلِ عَطَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ هَدَانَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِدِينِهِ الْقَوِيمِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ الْأَمِينَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْعَظِيمَ، وَكُلُّ خَيْرٍ وَفَضْلٍ اكْتَسَبْنَاهُ فَمِنْ فَضْلِ رَبِّنَا عَلَيْنَا، وَكُلُّ شَرٍّ أَصَابَنَا، وَفِتْنَةٍ حَلَّتْ بِنَا فَمِنْ شُؤْمِ ذُنُوبِنَا؛ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشُّورَىٰ: ٣٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ دَلَّنَا عَلَىٰ مَا يَنْفَعُنَا، وَحَذَّرَنَا مِمَّا يَضُرُّنَا، وَمَا فَارَقَ أُمَّتَهُ إِلَّا بَعْدَ مَا أَدَّىٰ أَمَانَتَهُ، وَبَلَّغَ دِينَ رَبِّهِ، وَتَرَكَ الْأُمَّةَ عَلَىٰ بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ كَانُوا أَحْرَصَ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ الْخَيْرِ، وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الشَّرِّ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ؛ فَفِي التَّقْوَىٰ صَلَاحُ الْحَالِ وَالْمَآلِ، وَفِي التَّقْوَىٰ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَفَوْزُ الْآخِرَةِ؛ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٣٥].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ عَظِيمِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْنَا أَنْ كَتَبَنَا فِي آخِرِ الْأُمَمِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا خَاتَمَ الرُّسُلِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا آخِرَ الْكُتُبِ، وَفَضَّلَ أُمَّتَنَا عَلَىٰ سَائِرِ الْأُمَمِ،

وَشَرَّعَ لَنَا مِنَ الشَّرَائِعِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِنَجَاتِنَا مِنْ عَذَابِهِ، وَفَوْزِنَا بِجَنَّاتِهِ.

وَكَمَا فَضَّلَ ﷻ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَىٰ سَائِرِ الْأُمَمِ فَإِنَّهُ ﷻ هَدَاهَا لِأَفْضَلِ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي وَالْأَوْقَاتِ؛ لِيُعْمِرَهَا الْعِبَادُ بِطَاعَتِهِ وَذِكْرِهِ، فَتُكَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتُهُمْ، وَتُرْفَعَ دَرَجَاتُهُمْ.

وَمِنَ الْأَيَّامِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي اخْتَصَّ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَمَا فِيهِ مِنْ عِبَادَاتٍ عَظِيمَةٍ، وَشَعَائِرَ كَبِيرَةٍ، كَانَ يُسَمَّىٰ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمَ الْعَرُوبَةِ[1]، فَسُمِّيَ فِي الْإِسْلَامِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ.

وَقَدْ دَلَّتِ الْأَحَادِيثُ الْكَثِيرَةُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ هَدَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةَ الْمُبَارَكَةَ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَهُوَ يَوْمٌ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ، وَأَضَلَّتْهُ الْأُمَمُ الْأُخْرَىٰ فَلَمْ تُوَفَّقْ لِإِصَابَتِهِ وَتَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِيهِ؛ حَتَّىٰ إِنَّ الْيَهُودَ لَمَّا فُرِضَ عَلَيْهِمُ اخْتَلَفُوا فِيهِ فَأَضَاعُوهُ، فَجَعَلُوا مَكَانَهُ السَّبْتَ، وَبَقِيَ هَذَا الْيَوْمُ الْعَظِيمُ مَحْفُوظًا لِتُخْتَصَّ بِهِ آخِرُ أُمَّةٍ عَلَىٰ سَائِرِ الْأُمَمِ.

وَفِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي شَأْنِ الْيَهُودِ: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النَّحل: ١٢٤]، قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «أَرَادُوا الْجُمُعَةَ فَأَخْطَؤُوا فَأَخَذُوا السَّبْتَ مَكَانَهُ»[2]، وَرَوَىٰ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **«نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللهُ،**

---

(١) قيل: سماه بهذا الاسم كعب بن لؤي جد النبي ﷺ كما في تاج العروس (٣/ ٣٤٢)، واللسان (٨/ ٥٨).

(٢) أخرجه عن قتادة الطبري في تفسيره (١٤/ ١٩٣).

وأخرجه بنحوه عن مجاهد: عبد الرزاق (٢/ ٣٦٢)، والطبري (١٤/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٣٠٧)، وصححه الحافظ في الفتح (٢/ ٣٥٥).

فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَىٰ بَعْدَ غَدٍ»، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**فَهَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ هَدَانَا اللهُ لَهُ قَالَ: يَوْمُ الجُمُعَةِ**»[٣].

وَرَوَىٰ حُذَيْفَةُ وَأَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَضَلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَىٰ يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ المَقْضِيُّ لهُمْ قَبْلَ الخَلَائِقِ**»[٤]، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ حَسَدَ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ أَهْلَ الْإِسْلَامِ عَلَىٰ اخْتِصَاصِهِمْ بِالْجُمُعَةِ وَهُمْ قَدْ ضَلُّوا عَنْهُ؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَنَا عَلَىٰ شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَنَا عَلَىٰ الجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللهُ لَهَا، وَضَلُّوا عَنْهَا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٥].

وَلِفَضْلِ هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ امْتَازَ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَيَّامِ بِمَزَايَا عَظِيمَةٍ، وَاخْتُصَّ بِفَضَائِلَ وَعِبَادَاتٍ كَثِيرَةٍ؛ فَهُوَ عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِ الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا يَوْمُ عِيدٍ جَعَلَهُ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما[٦]، وَرَوَىٰ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ يَوْمُ عِيدٍ، فَلا تَجْعَلُوا يَوْمَ عِيدِكُمْ**

---

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة، باب فرض الجمعة (٨٣٦)، ومسلم في الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٥).

(٤) أخرجه مسلم في الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٨٥٦).

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٤)، والبيهقي (٢/ ٥٦).

(٦) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة (١٠٩٨)، والطبراني في الأوسط (٧٣٥٥)، وحسنه المنذري في الترغيب (١/ ٢٨٦)، وذكر البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٣٢): أن في سنده صالح بن أبي الأخضر، لينه الجمهور، وباقي رجاله ثقات. وقال الألباني في صحيح الترغيب: حسن لغيره (٧٠٧).

يَوْمَ صِيَامِكُمْ، إِلَّا أَنْ تَصُومُوا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ»(٧).

وَمِنْ أَعْظَمِ خَصَائِصِهِ، وَأَفْضَلِ مَزَايَاهُ: اخْتِصَاصُهُ بِسَاعَةٍ يُجَابُ فِيهَا الدُّعَاءُ؛ كَمَا رَوَىٰ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ فِي الجُمُعَةِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**» وَأَشَارَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُهَا، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ قَالَ: «**وَهِيَ سَاعَةٌ خَفِيفَةٌ**»(٨).

وَجَاءَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا «**مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الْإِمَامُ إِلَىٰ أَنْ تُقْضَىٰ الصَّلَاةُ**»(٩)، كَمَا جَاءَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهَا: «**آخِرُ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ**»(١٠).

وَفِي حَدِيثٍ ثَالِثٍ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنِّي قَدْ كُنْتُ أُعْلِمْتُهَا ثُمَّ أُنْسِيتُهَا كَمَا أُنْسِيتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ**»(١١).

---

(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٣)، وإسحاق بن راهويه (٥٢٤)، وصححه ابن خزيمة (٢١٦١).

(٨) أخرجه البخاري في الجمعة، باب الساعة التي في يوم الجمعة (٨٩٣)، ومسلم، واللفظ له في الجمعة، باب في الساعة التي في يوم الجمعة (٨٥٢).

(٩) أخرجه من حديث أبي موسىٰ الأشعري ﷺ: مسلم في الجمعة، باب في الساعة التي في يوم الجمعة (٨٥٣)، وأبو داود في الصلاة، باب الإجابة أية ساعة هي في يوم الجمعة (١٠٤٩)، وذكر الحافظ في الفتح أنه أعل بالانقطاع والاضطراب (٢/ ٤٢٢).

(١٠) أخرجه من حديث عبد الله بن سلام ﷺ: أبو داود في الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٦)، والنسائي في الجمعة، باب ذكر الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة (٣/ ١١٣-١١٤)، ومالك (١/ ١٠٨-١٠٩)، وأحمد (٥/ ٤٥١)، وصححه الحاكم وقال: علىٰ شرط الشيخين (١/ ٤١٣)، ورجح الحافظ وقفه علىٰ ابن سلام كما في الفتح (٢/ ٤٢٠).

وله شاهد من حديث جابر ﷺ عند أبي داود (١٠٤٨)، والنسائي (٣/ ٩٩).

(١١) أخرجه من حديث أبي سعيد ﷺ: أحمد (٣/ ٦٥)، وصححه ابن خزيمة (١٧٤١)، والحاكم، وقال: علىٰ شرط الشيخين (١/ ٤١٥).

وَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «أَنَّ نَاسًا مِنَ الصَّحَابَةِ اجْتَمَعُوا فَتَذَاكَرُوا سَاعَةَ الجُمُعَةِ، ثُمَّ افْتَرَقُوا فَلَمْ يَخْتَلِفُوا أَنَّهَا آخِرُ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ»(١٢).

وَذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ أَنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يُوَافِقُ يَوْمَ المَزِيدِ فِي الْجَنَّةِ، حَيْثُ يُجْمَعُ فِيهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي وَادٍ أَفْيَحَ، وَيُنْصَبُ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ لُؤْلُؤٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَيَاقُوتٌ عَلَىٰ كُثْبَانِ الْمِسْكِ، فَيَنْظُرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- وَيَتَجَلَّىٰ لَهُمْ، فَيَرَوْنَهُ عِيَانًا، وَيَكُونُ أَسْرَعُهُمْ مُوَافَاةً أَعْجَلَهُمْ رَوَاحًا إِلَىٰ المَسْجِدِ وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ أَقْرَبَهُمْ مِنَ الْإِمَامِ(١٣). وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ الطَّوِيلِ: «... **فَلَيْسُوا هُمْ فِي الجَنَّةِ بِأَشْوَقَ مِنْهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الجُمُعَةِ، لِيَزْدَادُوا نَظَرًا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﷻ وَكَرَامَتِهِ، وَلِذَلِكَ دُعِيَ يَوْمَ المَزِيدِ**»(١٤).

وَهُوَ أَفْضَلُ الْأَيَّامِ وَخَيْرُهَا وَسَيِّدُهَا؛ كَمَا رَوَىٰ أَوْسُ بْنُ أَوْسٍ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ؛ فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(١٥).

وَرَوَىٰ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلَا تَغْرُبُ عَلَىٰ يَوْمٍ أَفْضَلَ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ**»(١٦).

---

(١٢) عزاه الحافظ في الفتح لسعيد بن منصور وصححه (٢/ ٤٢١).

(١٣) زاد المعاد (١/ ٦٣).

(١٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٠٨٤)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٢٩١).

(١٥) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في الاستغفار (١٥٣١)، والنسائي في الجمعة، باب إكثار الصلاة علىٰ النبي ﷺ يوم الجمعة (٣/ ٩١)، وابن ماجه في الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٣٦)، والدارمي (١٥٧٢)، وأحمد (٤/ ٨)، وصححه ابن خزيمة (١٧٣٣)، وابن حبان (٩١٠)، والحاكم وقال: صحيح علىٰ شرط البخاري (١/ ٤١٣).

(١٦) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧٢)، وعبد بن حميد (١٤٤٣)، وعبد الرزاق (٥٥٦٣)، وأبو يعلىٰ (٦٤٩٨)، وتمام الرازي في فوائده (٨٥٦)، والدولابي في الكنىٰ (١٤١٥)، والطبراني في الأوسط (٨٧٩٠)، وصححه ابن حبان (٢٧٧٠).

وَابْتِدَاءُ خَلْقِ الْبَشَرِ كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فَأَبُونَا آدَمُ عليه السلام خُلِقَ فِيهِ، وَقُبِضَتْ رُوحُهُ فِيهِ، وَصَعْقُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّفْخُ فِي أَرْوَاحِهِمْ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ أَيْضًا يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ كَمَا رَوَىٰ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ عليه السلام، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ**»(١٧). وَقَالَ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٨).

وَلِذَلِكَ تُشْفِقُ سَائِرُ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْهُ؛ فَرَقًا مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِلَّا بَنِي آدَمَ؛ كَمَا رَوَىٰ أَبُو لُبَابَةَ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَيِّدُ الْأَيَّامِ وَأَعْظَمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَهُوَ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ يَوْمِ الْأَضْحَىٰ وَيَوْمِ الْفِطْرِ، فِيهِ خَمْسُ خِلَالٍ: خَلَقَ اللهُ فِيهِ آدَمَ، وَأَهْبَطَ اللهُ فِيهِ آدَمَ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَفِيهِ تَوَفَّىٰ اللهُ آدَمَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يَسْأَلُ اللهَ فِيهَا الْعَبْدُ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ مَا لَمْ يَسْأَلْ حَرَامًا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، مَا مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، وَلَا سَمَاءٍ، وَلَا أَرْضٍ، وَلَا رِيَاحٍ، وَلَا جِبَالٍ، وَلَا بَحْرٍ؛ إِلَّا وَهُنَّ يُشْفِقْنَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَحَسَّنَهُ الْبُوصِيرِيُّ(١٩).

وَرَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه فَقَالَ: «قَدِمْتُ الشَّامَ فَلَقِيتُ كَعْبًا، فَكَانَ يُحَدِّثُنِي عَنِ

---

(١٧) أخرجه مسلم في الجمعة، باب فضل يوم الجمعة (٨٥٤)، والنسائي في الجمعة، باب فضل الجمعة (٣/ ٨٩-٩٠)، وأبو يعلىٰ (٥٩٢٥)، وأحمد (٢/ ٤٠١)، والطيالسي (٢٣٦٢).

(١٨) هذه رواية أخرىٰ لحديث أوس بن أوس رضي الله عنه المخرج في حاشية (١٥)، وهذه الرواية أخرجها أبو داود (١٠٤٧).

(١٩) أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة (١٠٨٤)، وابن أبي شيبة (١/ ٤٧٧)، وأحمد (٣/ ٤٣٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٧٢١)، وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٢٩).

التَّوْرَاةِ وَأُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّىٰ أَتَيْنَا عَلَىٰ ذِكْرِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَحَدَّثْتُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ سَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ فِيهَا خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ.** فَقَالَ كَعْبٌ: أَتَدْرِي أَيَّ يَوْمٍ هُوَ؟ قُلْتُ: وَأَيُّ يَوْمٍ هُوَ؟ قَالَ: فِيهِ خَلَقَ اللهُ آدَمَ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَالْخَلَائِقُ فِيهِ مُصِيخَةٌ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ خَشْيَةَ الْقِيَامَةِ . . .» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٢٠].

وَالْوَفَاةُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَتَهَا عَلَامَةُ خَيْرٍ لِلْمُؤْمِنِ؛ لِمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ مَاتَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ وُقِيَ فِتْنَةَ الْقَبْرِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٢١].

---

(٢٠) الظاهر أن أصل هذا الحديث ما مضىٰ تخريجه في حاشية (١٧)، لكن هنا فيه زيادة وقصة، وقد أخرجه بهذه الزيادة والقصة: مالك (١/ ١٠٨)، وأحمد واللفظ له (٥/ ٤٥٣)، والنسائي في الجمعة، باب ذكر الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة (٣/ ١١٣- ١١٤)، والبيهقي في الصغرىٰ (٦٣١)، وصححه ابن حبان (٢٧٧٢)، والحاكم وقال: علىٰ شرط الشيخين (١/ ٤١٣)، والضياء في المختارة (٣٩٥)؛ وما مضىٰ من حديث عبد الله بن سلام المخرج في حاشية (١٠) هو تكملة هذا الحديث كما جاء في بعض الروايات التي جمعته؛ إذ إن أبا هريرة حدث عن كعب ثم لقي عبد الله بن سلام فأخبره بحديث كعب فحدثه عبد الله عن يوم الجمعة.
فجاء في بعض الروايات مختصرا عن أبي هريرة ﷺ، اختصره بعض الرواة عنه، وفي بعضها قصة كعب مع قصة عبد الله بن سلام ﷺ.

(٢١) أخرجه من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ: الترمذي في الجنائز، باب ما جاء فيمن مات يوم الجمعة، وقال: حديث غريب (١٠٧٤) وأعله الترمذي بالانقطاع؛ لأن راويه عن عبد الله بن عمرو ﷺ: ربيعة بن سيف، وذكر الترمذي أن ربيعة إنما يروي عن أبي عبد الرحمن الحبلي، قال: ولا نعرف لربيعة بن سيف سماعا من عبد الله بن عمرو. اهـ من جامعه (٣/ ٣٨٦).
لكن رواه أحمد من طريق أخرىٰ عن ابن سريج، حدثنا بقية عن معاوية بن سعيد عن أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو ﷺ (٢/ ١٧٦) وفيه بقية بن الوليد وهو مدلس وقد عنعن.
وأخرجه عبد بن حميد من طريق بقية، وفيه تصريح بالسماع (٣٢٣).
وجاء من حديث أنس بن مالك ﷺ عند أبي يعلىٰ (٤١١٣) وفي سنده يزيد الرقاشي ضعيف.

وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ فِيهِ -كَالصَّدَقَةِ وَغَيْرِهَا- خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَيَّامِ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَالصَّدَقَةُ فِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ سَائِرِ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ كَالصَّدَقَةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ سَائِرِ الشُّهُورِ. ثُمَّ قَالَ: وَشَاهَدْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- إِذَا خَرَجَ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ يَأْخُذُ مَا وَجَدَ فِي الْبَيْتِ مِنْ خُبْزٍ أَوْ غَيْرِهِ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ فِي طَرِيقِهِ سِرًّا»(٢٢).

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا اخْتُصَّ بِهِ يَوْمُ الْجُمُعَةِ: فَرْضُ هَذِهِ الصَّلَاةِ الْعَظِيمَةِ، وَكَانَ الْأَنْصَارُ ﷺ يُقِيمُونَ الْجُمُعَةَ قَبْلَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ؛ كَمَا رَوَىٰ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- فَقَالَ: «كُنْتُ قَائِدَ أَبِي حِينَ كُفَّ بَصَرُهُ، فَإِذَا خَرَجْتُ بِهِ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ، فَسَمِعَ الْأَذَانَ بِهَا اسْتَغْفَرَ لِأَبِي أُسَامَةَ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ، فَمَكَثَ حِينًا عَلَىٰ ذَلِكَ فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا لَعَجْزٌ! أَلَا أَسْأَلُهُ عَنْ هَذَا؟! فَخَرَجْتُ بِهِ كَمَا كُنْتُ أَخْرُجُ، فَلَمَّا سَمِعَ الْأَذَانَ لِلْجُمُعَةِ اسْتَغْفَرَ لَهُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، أَرَأَيْتَ اسْتِغْفَارَكَ لِأَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ كُلَّمَا سَمِعْتَ الْأَذَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، كَانَ أَسْعَدُ أَوَّلَ مَنْ جَمَّعَ بِنَا بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي هَزْمِ النَّبِيتِ مِنْ حَرَّةِ بَنِي بَيَاضَةَ فِي نَقِيعٍ يُقَالُ لَهُ: نَقِيعُ الْخَضِمَاتِ؛ قُلْتُ: فَكَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ رَجُلًا» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ، وَقَالَ: عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ(٢٣).

---

(٢٢) زاد المعاد (١/ ٤٠٧) وعنه السيوطي في اللمعة في خصائص الجمعة (١٤٦).

(٢٣) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الجمعة في القرىٰ (١٠٦٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في فرض الجمعة (١٠٨٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٩١) رقم (١٧٦)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (١٦٦٨)، وصححه ابن خزيمة (١٧٢٤)، وابن حبان (٧٠١٣)، والحاكم وقال: علىٰ شرط مسلم (١/ ٤١٧)، وابن الجارود في المنتقىٰ (٢٩١)، وحسنه الحافظ في التلخيص الحبير (٢/ ٥٦). =

وَكَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِهِمْ لِلْجُمُعَةِ قَبْلَ مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ مَا رَوَىٰ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: «جَمَّعَ أَهْلُ المَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يَقْدَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الْجُمُعَةُ وَهُمُ الَّذِينَ سَمَّوْهَا الْجُمُعَةَ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: لِلْيَهُودِ يَوْمٌ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ كُلَّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، وَلِلنَّصَارَىٰ أَيْضًا مِثْلُ ذَلِكَ فَهَلُمَّ فَلْنَجْعَلْ يَوْمًا نَجْتَمِعُ وَنَذْكُرُ اللهَ تَعَالَىٰ، وَنُصَلِّي وَنَشْكُرُهُ فِيهِ، فَقَالُوا: يَوْمُ السَّبْتِ لِلْيَهُودِ، وَيَوْمُ الْأَحَدِ لِلنَّصَارَىٰ، فَاجْعَلُوهُ يَوْمَ الْعُرُوبَةِ، وَكَانُوا يُسَمُّونَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَوْمَ الْعُرُوبَةِ، فَاجْتَمَعُوا إِلَىٰ أَسْعَدَ بْنِ زُرَارَةَ فَصَلَّىٰ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ، وَذَكَّرَهُمْ، فَسَمَّوْهُ الْجُمُعَةَ حَتَّىٰ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَذَبَحَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ لَهُمْ شَاةً، فَتَغَدَّوْا وَتَعَشَّوْا مِنْ شَاةٍ وَاحِدَةٍ؛ وَذَلِكَ لِقِلَّتِهِمْ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الْجُمُعَة: ٩]»[٢٤].

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَهَذَا كَانَ مَبْدَأَ الْجُمُعَةِ، ثُمَّ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَقَامَ بِقُبَاءٍ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ؛ كَمَا قَالَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَيَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، وَأَسَّسَ مَسْجِدَهُمْ، ثُمَّ خَرَجَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَأَدْرَكَتْهُ الْجُمُعَةُ فِي بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ فَصَلَّاهَا فِي الْمَسْجِدِ

= ونقيع الخضمات موقع قرب المدينة علىٰ ميل من منازل بني سلمة، حماه عمر رضي الله عنه في خلافته لخيل المسلمين، وهو من أودية الحجاز، يدفع سيله إلىٰ المدينة، يسلك العرب إلىٰ مكة منه؛ ينظر: معجم البلدان لياقوت (٥/ ٣٠١)، وتهذيب الأسماء (٣/ ٣٥٢).
والهزم هو ما اطمأن من الأرض، والنبيت بطن من الأنصار وهو عمرو بن مالك بن الأوس، وبياضة أيضا بطن من الأنصار وهو بياضة بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج. ينظر: معجم البلدان (٥/ ٤٠٥).
وبعضهم يجعله بالباء (بقيع الخضمات) والصواب أنه بالنون لا بالباء، وذكر الخطابي أن ذكره بالباء تصحيف، نقل ذلك ياقوت (٥/ ٣٠٢) والنووي في تهذيب الأسماء (٣/ ٣٥٢).

(٢٤) أخرجه عبد الرزاق (٥١٤٤).

الَّذِي فِي بَطْنِ الْوَادِي، وَكَانَتْ أَوَّلَ جُمُعَةٍ صَلَّاهَا بِالمَدِينَةِ، وَذَلِكَ قَبْلَ تَأْسِيسِ مَسْجِدِهِ» اهـ[٢٥].

وَمِنْ خَصَائِصِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ: فَضِيلَةُ قِرَاءَةِ سُورَةِ الْكَهْفِ فِيهِ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**أَنَّ مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ يَوْمَ الجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الجُمُعَتَيْنِ**»، وَفِي لَفْظٍ: «**أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**» رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ وَالْحَاكِمُ[٢٦].

وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَتَوَاصَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَتَزَاوَرُونَ، وَفِيهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ، وَيُوَسَّعُ عَلَىٰ الْأَهْلِ وَالْعِيَالِ، وَفَرَحُ المُسْلِمِينَ بِهِ عَظِيمٌ، وَمِنَّةُ اللَّهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ بِهِ كَبِيرَةٌ، فَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَنْ هَدَانَا لَهُ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يُرْضِيهِ عَنَّا، وَأَنْ يُصْلِحَ قُلُوبَنَا وَأَعْمَالَنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الْجُمُعَة: ٩-١٠].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِله حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، نَحْمَدُهُ عَلَىٰ

---

(٢٥) زاد المعاد (١/ ٣٧٣).

(٢٦) سبق تخريجه في خطبة: سورة الكهف (١) في هذا الجزء (ص: ٣٧٦).

نِعَمِهِ الْعَظِيمَةِ، وَآلَائِهِ الْجَسِيمَةِ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ مَزِيدِ فَضْلِهِ، وَكَرِيمِ عَطَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: وَاجِبٌ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ أَنْ يَشْكُرَ اللهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَا اخْتُصَّتْ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَلَيْسَ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَا اعْتَادَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مِنَ الِاسْتِهَانَةِ بِهَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، وَعَدَمِ إِعْطَائِهِ حَقَّهُ مِنَ الِاهْتِمَامِ وَالْعِنَايَةِ وَالتَّعْظِيمِ، وَكَانَ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ تَعْظِيمُ هَذَا الْيَوْمِ وَتَشْرِيفُهُ وَتَخْصِيصُهُ بِعِبَادَاتٍ دُونَ غَيْرِهِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ فَرَّطُوا فِي فَضْلِ الْجُمُعَةِ، وَيَفُوتُهُمْ كَثِيرٌ مِنْ خَيْرِهِ وَأَجْرِهِ؛ إِمَّا جَهْلًا بِفَضْلِهِ، أَوِ اسْتِهَانَةً بِشَرَفِهِ؛ فَلَيْلَةُ الْجُمُعَةِ يَسْهَرُونَ فِيهَا إِلَىٰ قُبَيْلِ الْفَجْرِ، وَيَسْهَرُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي مَجَالِسَ تَغْشَاهَا الْمُحَرَّمَاتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا يُسْمَعُ فِيهَا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَىٰ إِلَّا قَلِيلًا، وَهَذَا السَّهَرُ يُفَوِّتُ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْهُمْ صَلَاةَ الْفَجْرِ الَّتِي اخْتُصَّتْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِفَضِيلَةِ قِرَاءَةِ سُورَتَيِ السَّجْدَةِ وَالْإِنْسَانِ.

وَهَذَا السَّهَرُ الْمَشْؤُومُ يُؤَدِّي فِي الْغَالِبِ إِلَىٰ تَأَخُّرِهِمْ عَنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يُدْرِكُ تَقْرِيبَ دَجَاجَةٍ وَلَا بَيْضَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَحْضُرُ الْمَسْجِدَ إِلَّا وَقَدْ طَوَىٰ الْمَلَائِكَةُ صُحُفَهُمْ يَسْتَمِعُونَ إِلَىٰ الذِّكْرِ، بَلْ يَبْلُغُ التَّفْرِيطُ بِبَعْضِهِمْ أَنْ تَفُوتَهُمْ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ إِمَّا نَوْمًا، وَإِمَّا خُرُوجًا إِلَىٰ مُتَنَزَّهَاتٍ وَحَدَائِقَ لَا يَخْرُجُونَ إِلَيْهَا إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّاسُ فِي مَسَاجِدِهِمْ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْحِرْمَانِ وَالْخِذْلَانِ.

وَبَعْضُ النَّاسِ يُقَصِّرُ فِي الْإِكْثَارِ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، مَعَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَثَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ الْإِكْثَارِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَام عَلَيْهِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ يَصِلُهُ وَيَبْلُغُهُ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدَ النَّاسِ أَيْقَنَ أَنَّهُ لَوْ كَتَبَ كِتَابًا إِلَىٰ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا لَبَلَغَهُ ذَلِكَ الْكِتَابُ، وَكَافَأَهُ عَلَيْهِ، أَوْ رَفَعَ عَنْهُ مَظْلِمَتَهُ؛ لَبَادَرَ لِكِتَابَتِهِ، وَأَحْسَنَ فِيهَا أَشَدَّ الْإِحْسَانِ، فَكَيْفَ إِذَنْ بِصَلَاةٍ وَسَلَامٍ تَبْلُغَانِ خَيْرَ الْخَلْقِ، وَخَاتَمَ الرُّسُلِ ﷺ؟!

وَبَعْضُ النَّاسِ يُقَصِّرُ فِي الدُّعَاءِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيَغْفُلُ عَنْ سَاعَةِ الْإِجَابَةِ فِيهِ، فَيَسْأَلُ النَّاسُ رَبَّهُمْ حَاجَاتِهِمْ وَهُوَ غَافِلٌ عَنْ ذَلِكَ، وَكُلُّ هَذَا التَّفْرِيطِ يُعَدُّ حِرْمَانًا عَظِيمًا، وَخِذْلَانًا كَبِيرًا، وَفِيهِ تَفْوِيتٌ لِأُجُورٍ رُتِّبَتْ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَكَمْ يَخْسَرُ صَاحِبُهُ مِنَ الثَّوَابِ الْجَزِيلِ؟!

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَأَعْطُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ حَقَّهُ مِنَ الْعِنَايَةِ وَالِاهْتِمَامِ، وَفَرِّغُوا أَنْفُسَكُمْ فِيهِ لِاكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ، وَتَكْفِيرِ الْخَطِيئَاتِ، بِالتَّبْكِيرِ إِلَىٰ الْجُمُعَاتِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ الْجَمَاعَاتِ، وَالْإِكْثَارِ مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ، وَالْإِلْحَاحِ عَلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي الدَّعَوَاتِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

٢٤٢- عيد الأسبوع (٢)
فضل صلاة الجمعة

٢٨/ ٦/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ فَتَحَ أَبْوَابَ الْخَيْرِ لِعِبَادِهِ، وَأَمَرَهُمْ بِالْمُسَارَعَةِ فِيهَا، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المَائِدَة: ٤٨]، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كَتَبَ الْأُجُورَ الْعَظِيمَةَ عَلَىٰ الْعَمَلِ الْقَلِيلِ؛ رَحْمَةً مِنْهُ بِنَا، وَإِحْسَانًا إِلَيْنَا، وَمُرَاعَاةً لِعَجْزِنَا وَضَعْفِنَا، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٨٥]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاء: ٢٨]، فَلَهُ الْحَمْدُ، لَا نُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ كَمَا أَثْنَىٰ هُوَ عَلَىٰ نَفْسِهِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ، تَرَكَنَا عَلَىٰ بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠-٧١].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ يَوْمٌ عَظِيمٌ مُبَارَكٌ، بَارَكَهُ اللهُ ﷻ بِهَذِهِ الصَّلَاةِ الْعَظِيمَةِ، وَخَصَّهُ بِخَصَائِصَ كَثِيرَةٍ، هَدَىٰ أُمَّةَ الْإِسْلَامِ إِلَيْهِ، وَهِيَ الْأُمَّةُ الْمُتَأَخِّرُ زَمَنُهَا فِي تَارِيخِ الْأُمَمِ، وَضَلَّ عَنْهُ مَنْ كَانَ قَبْلَهَا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا وَفَضَّلَنَا وَأَعْطَانَا.

وَصَلَاةُ الْجُمُعَةِ شَعِيرَةٌ مِنْ أَعْظَمِ الشَّعَائِرِ الظَّاهِرَةِ فِي الْإِسْلَامِ، أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي شَأْنِهَا سُورَةً تُتْلَىٰ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيهَا بِأَدَاءِ هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الْجُمُعَة: ٩]، فَأَمَرَ ﷻ بِالسَّعْيِ إِلَىٰ عَمَلِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ ذِكْرُهُ سُبْحَانَهُ فِي الْمَسَاجِدِ بِهَذِهِ الصَّلَاةِ الْعَظِيمَةِ، كَمَا أَمَرَ ﷻ بِتَرْكِ السَّعْيِ إِلَىٰ عَمَلِ الدُّنْيَا، وَهُوَ الْبَيْعُ وَنَحْوُهُ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «أَمَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالسَّعْيِ عَلَىٰ الْأَقْدَامِ، وَلَقَدْ نُهُوا أَنْ يَأْتُوا الصَّلَاةَ إِلَّا وَعَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَكِنْ بِالْقُلُوبِ وَالنِّيَّةِ وَالْخُشُوعِ» اهـ[1]. وَقَالَ عَطَاءٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «إِذَا نُودِيَ بِالْأَذَانِ حَرُمَ اللَّهْوُ، وَالْبَيْعُ، وَالصِّنَاعَاتُ كُلُّهَا، وَالرُّقَادُ، وَأَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ، وَأَنْ يَكْتُبَ كِتَابًا» اهـ[2].

وَلَمَّا حَبَسَ الْمُصَلُّونَ أَنْفُسَهُمْ فِي الْجَوَامِعِ لِلْقِيَامِ بِفَرِيضَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ أُمِرُوا بِالِانْتِشَارِ عَقِبَ أَدَائِهَا لِحَاجَاتِهِمْ وَمَعَايِشِهِمْ؛ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَلُطْفًا بِهِمْ، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الْجُمُعَة: ١٠].

وَقَدْ جَاءَ عَنْ عِرَاكِ بْنِ مَالِكٍ ؓ أَنَّهُ كَانَ إِذَا صَلَّىٰ الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ، فَوَقَفَ عَلَىٰ بَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ، وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٨٩٨)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر (٨/ ١٦٢).

(٢) علقه البخاري مختصرا في الجمعة، باب المشي إلىٰ الجمعة (١/ ٣٠٧)، ووصله عبد بن حميد في تفسيره كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح (٢/ ٣٩١). وينظر: تغليق التعليق (٢/ ٣٦١).

وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ»(٣).

وَمَنِ اشْتَغَلَ بِالتِّجَارَةِ أَوِ الدُّنْيَا عَنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ فَيُخْشَىٰ عَلَيْهِ الْعَذَابُ، وَقَدْ كَادَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ أَنْ يُصَابُوا بِهِ لَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ لِاسْتِقْبَالِ قَافِلَةٍ قَدِمَتْ، وَتَرَكُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ؛ كَمَا رَوَىٰ جَابِرٌ ﷺ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ قَائِمٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إذ قَدِمَتْ عِيرٌ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، فَابْتَدَرَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قَالَ: وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الْجُمُعَة: ١١] رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي لَفْظٍ لِابْنِ حِبَّانَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَتَابَعْتُمْ حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ مِنْكُمْ أَحَدٌ، لَسَالَ لَكُمُ الْوَادِي نَارًا**»(٤).

وَمِنْ عَظِيمِ فَضْلِ هَذِهِ الصَّلَاةِ أَنَّهَا سَبَبٌ لِتَكْفِيرِ ذُنُوبِ الْأُسْبُوعِ، مَعَ أَنَّ الْمُبَكِّرَ إِلَيْهَا يَقْضِيهَا فِي سُوَيْعَاتٍ قَلَائِلَ، وَالْمُتَأَخِّرَ لَا يَمْكُثُ فِي الْمَسْجِدِ سَاعَةً كَامِلَةً، فَتَكُونُ هَذِهِ السَّاعَةُ سَبَبًا فِي تَكْفِيرِ ذُنُوبِ الْأُسْبُوعِ، فَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ فَضْلٍ حَبَانَا بِهِ رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ! رَوَىٰ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٥).

وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَلْمَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ**

---

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٨٨٩٧)، وعنه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٦٨).

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة، باب إذا نفر الناس عن الإمام في صلاة الجمعة فصلاة الإمام ومن بقي جائزة (٨٩٤)، ومسلم في الجمعة باب في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ واللفظ له (٨٦٣)، والرواية الثانية لابن حبان (٦٨٧٧).

(٥) أخرجه مسلم في الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلىٰ الجمعة ورمضان إلىٰ رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (٢٣٣)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في فضل الصلوات الخمس (٢١٤).

الْجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَىٰ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٦)، وَجَاءَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: «**غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَىٰ، وَفَضْلُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**»(٧).

وَالْإِنْسَانُ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَىٰ الْمَغْفِرَةِ وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يُخْطِئُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْعَاقِلُ لَا يُفَوِّتُ هَذِهِ الشَّعَائِرَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي تُكَفِّرُ الْكَثِيرَ مِنَ الذُّنُوبِ.

وَكَانَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ﷺ يَرَىٰ أَنَّ الْخُرُوجَ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ مِنَ الْخُرُوجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ سَبَبٌ لِلنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ؛ كَمَا رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ- قَالَ: أَدْرَكَنِي أَبُو عَبْسٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ جَبْرٍ ﷺ وَأَنَا أَذْهَبُ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَىٰ النَّارِ**»(٨)، فَجَعَلَ ﷺ الْخُرُوجَ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ مِنَ الْخُرُوجِ فِي

---

(٦) أخرجه البخاري في الجمعة، باب الدهن للجمعة (٨٤٣).

(٧) أخرجه مسلم في الجمعة، باب فضل من استمع وأنصت في الخطبة (٨٥٧).

(٨) أخرجه البخاري في الجمعة، باب المشي إلىٰ الجمعة (٨٦٥)، والترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل من اغبرت قدماه في سبيل الله (١٦٣٢)، والنسائي في الجهاد، باب ثواب من اغبرت قدماه في سبيل الله (٦/ ١٤)، وابن حبان (٤٦٠٥).

ولفظ روايتي الترمذي والنسائي: عن يزيد بن أبي مريم قال: لحقني عباية بن رفاعة بن رافع وأنا ماش إلىٰ الجمعة فقال: أبشر فإن خطاك هذه في سبيل الله، سمعت أبا عبس يقول قال رسول الله ﷺ: «**من اغبرت قدماه في سبيل الله فهما حرام علىٰ النار**».

وهنا مسألتان:

الأولىٰ: اختلاف الروايات في الحديث: ساق ابن رجب رواية الإسماعيلي للحديث ثم =

. . . .

= قال: «ففي هذه الرواية أن هذه القصة جرت ليزيد مع عباية، وفي رواية البخاري أنها جرت لعباية مع أبي عبس، وقد يكون كلاهما محفوظا» اهـ فتح الباري لابن رجب (٥/ ٤٣٧).
وقال ابن حجر: «وقع عند البخاري أن القصة وقعت لعباية مع أبي عبس، وعند الإسماعيلي من رواية علي بن بحر وغيره عن الوليد بن مسلم أن القصة وقعت ليزيد بن أبي مريم مع عباية، وكذا أخرجه النسائي عن الحسين بن حريث عن الوليد، ولفظه: حدثني يزيد قال: لحقنىٰ عباية بن رفاعة وأنا ماش إلىٰ الجمعة، زاد الإسماعيلي في روايته: وهو راكب فقال: احتسب خطاك هذه، وفي رواية النسائي فقال: أبشر؛ فإن خطاك هذه في سبيل الله؛ فإني سمعت أبا عبس بن جبر فذكر الحديث، فإن كان محفوظا احتمل أن تكون القصة وقعت لكل منهما» اهـ فتح الباري (٢/ ٣٩١).
الثانية: أن الصحابي أبا عبس بن جبر الأنصاري ﷺ عمم (سبيل الله) وأدخل فيه المشي إلىٰ الجمعة، أو يكون الذي عممه الراوي عنه عباية بن رفاعة بن رافع بن خديج، أو كلاهما؛ بناء علىٰ أن كلا الروايتين محفوظ. وهكذا أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، وفي الجهاد أيضا، خلافا للنسائي والترمذي وابن حبان؛ إذ جعلوه في كتاب الجهاد فقط، مع أن روايتي النسائي والترمذي أصرح من رواية البخاري.
وكنت قد ذكرت عند حديث: «**من صام يوما في سبيل الله بعد الله وجهه عن النار** ...» في خطبة (رمضان والقوة، المفيد في خطب الجمعة والعيد، ط: الأولىٰ ٢/ ٩٠-٩١) أن سبيل الله إذا أطلق فإن المراد به الجهاد، وإلا فإن كل الطاعات في سبيل الله تعالىٰ، ونقلت هناك أقوال العلماء مما يغني عن إعادتها، والاكتفاء بالإضافة عليها.
قال ابن قدامة: «سبيل الله عند الإطلاق إنما ينصرف إلىٰ الجهاد، فإن كل ما في القرآن من ذكر سبيل الله إنما أريد به الجهاد إلا اليسير» المغني (٦/ ٣٣٤).
وقال ابن الأثير: «وسبيل الله عام يقع علىٰ كل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلىٰ الله تعالىٰ بأداء الفرائض والنوافل وأنواع التطوعات، وإذا أطلق فهو في الغالب واقع على الجهاد حتىٰ صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه» اهـ النهاية في غريب الأثر (٢/ ٣٣٨-٣٣٩).
فالمشي للجمعة من الجهاد في سبيل الله تعالىٰ بمفهوم الجهاد العام الذي دل عليه قول الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فإن المشي إلىٰ الجمع والجماعات فيه مشقة ويحتاج إلىٰ جهاد. =

سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَالْبُخَارِيُّ وَضَعَ هَذَا الْحَدِيثَ فِي أَبْوَابِ الْجُمُعَةِ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

وَمِنْ أَبْيَنِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ فَضْلِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ انْتَدَبَ إِلَيْهَا كَتَبَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، يَقِفُونَ عَلَىٰ أَبْوَابِ مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، يَكْتُبُونَ فِي صُحُفِهِمْ مَنْ يُبَكِّرُونَ إِلَيْهَا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِمَامُ طَوَوُا الصُّحُفَ، وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «**عَلَىٰ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ مَلَكَانِ يَكْتُبَانِ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ**»، وَجَاءَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ مَاجَهْ: «**فَمَنْ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا يَجِيءُ بِحَقٍّ إِلَىٰ الصَّلَاةِ**»[٩].

فَكَمْ مِنَ الْخَيْرِ الْعَظِيمِ يُحْرَمُ مِنْهُ مَنْ يَتَأَخَّرُونَ عَنِ الْجُمُعَةِ إِلَىٰ خُرُوجِ الْإِمَامِ؟ إذ يَفُوتُ عَلَيْهِمْ تَسْجِيلُ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ فِي صُحُفِهِمْ.

= وأما حمل الأحاديث العامة في تغبير القدمين في سبيل الله عليه فهو اجتهاد من الصحابي أو من التابعي رضي الله عنهما، ولم يرفعه للنبي ﷺ. والظاهر أن أحاديث تغبير الأرجل يراد بها تغبيرها في الجهاد والرباط، كما هو ظاهرها، ولا تتناول غير ذلك.

قال ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: «وليس عن النبي ﷺ في هذا الحديث ذكر المشي إلىٰ الجمعة، إنما فيه فضل المشي في سبيل الله، فأدخل الراوي المشي إلىٰ الجمعة في عموم السبيل، وجعله شاملا له وللجهاد. والأظهر في إطلاق سبيل الله: الجهاد، وقد يؤخذ بعموم اللفظ، كما أذن النبي ﷺ لمن جعل بعيره في سبيل الله أن يحج عليه، وقال: «**الحج من سبيل الله**»» فتح الباري لابن رجب (٥/ ٤٣٧).

(٩) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٣٩)، ومسلم في الجمعة، باب فضل التهجير يوم الجمعة (٨٥٠).

والرواية الثانية لعبد الرزاق (٥٥٦٣)، وأحمد (٢/ ٤٥٧)، وعبد بن حميد (١٧٧٠)، وابن حبان (٢٧٧٤)، والرواية الثالثة لابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في التهجير إلىٰ الجمعة (١٠٩٢).

وَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْعِنَايَةُ بِالْجُمُعَةِ حَتَّىٰ خُصِّصَ لَهَا مَلَائِكَةٌ يَكْتُبُونَ الْمُبَكِّرِينَ إِلَيْهَا إِلَّا لِعَظِيمِ مَنْزِلَتِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَفَخَامَةِ مَكَانَتِهَا مِنْ شَرِيعَتِهِ الْغَرَّاءِ، فَلَا يُحْرَمُ مِنْ هَذَا الْخَيْرِ الْعَظِيمِ إِلَّا مَحْرُومٌ.

أَرَأَيْتُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- لَوْ أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا فَتَحَ مَجْلِسَهُ لِلنَّاسِ، وَجَعَلَ عَلَىٰ أَبْوَابِهِ كَتَبَةً يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ لِيَطَّلِعَ المَلِكُ عَلَىٰ أَسْمَائِهِمْ، وَيَجْزِيَهُمْ بِتَبْكِيرِهِمْ إِلَىٰ مَجْلِسِهِ، فَمَاذَا سَيَحْصُلُ؟!

إِنَّهُ لَوْ حَلَفَ حَالِفٌ أَنَّ أَنْفُسًا تَهْلَكُ مِنَ الزِّحَامِ عَلَىٰ أَبْوَابِ مَجْلِسِهِ لَمَا حَنِثَ فِي يَمِينِهِ، فَكَيْفَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- وَالدَّاعِي إِلَىٰ الْجُمُعَةِ هُوَ اللهُ تَعَالَىٰ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ؟ وَالمَسَاجِدُ بُيُوتُهُ، وَالمَلَائِكَةُ عَلَىٰ أَبْوَابِهَا كَتَبَتُهُ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ مَنْ بَادَرُوا إِلَىٰ الْجُمُعَةِ وَبَكَّرُوا، وَمَنْ نَامُوا عَنْهَا، أَوْ سَوَّفُوا فَتَأَخَّرُوا.

ثُمَّ مَا قِيمَتُنَا -نَحْنُ بَنِي آدَمَ- حَتَّىٰ يُنْتَدَبَ مَلَائِكَةٌ كِرَامٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ تَعَالَىٰ طَرْفَةَ عَيْنٍ، يَنْتَظِرُونَنَا عَلَىٰ أَبْوَابِ المَسَاجِدِ كُلَّ جُمْعَةٍ لِيَكْتُبُونَا فِي صُحُفِهِمْ، وَيَرْفَعُوهَا إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ، ثُمَّ نُجْزَىٰ بِذَلِكَ أَعْظَمَ الْجَزَاءِ؟!

مَا قِيمَتُنَا لَوْلَا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَفَعَ قَدْرَنَا، وَأَعْلَىٰ مَكَانَتَنَا، وَشَرَّفَنَا بِدِينِهِ، وَأَلْزَمَنَا شَرِيعَتَهُ؟ فَلْنَكُنْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- عَلَىٰ قَدْرِ تَشْرِيفِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَنَا، وَرَفْعِهِ إِيَّانَا، وَلَنْ نَبْلُغَ ذَلِكَ مَهْمَا عَمِلْنَا، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وَلَكِنْ سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَجِدُّوا وَاجْتَهِدُوا فِي طَاعَةِ رَبِّكُمْ، وَأَرُوهُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ مُتَفَضِّلٌ عَلَيْكُمْ، شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الْعِبَادَاتِ مَا يُصْلِحُكُمْ، فَاقْبَلُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ شَرِيعَتَهُ، وَسَارِعُوا إِلَىٰ طَاعَتِهِ، وَنَافِسُوا غَيْرَكُمْ عَلَيْهَا ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المَطَفِّفِينَ: ٢٦]، وَلَا تُقَدِّمُوا

الدُّنْيَا عَلَىٰ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ؛ فَإِنَّكُمْ مُفَارِقُوهَا إِلَىٰ قُبُورِكُمْ وَآخِرَتِكُمْ، وَلَنْ تَجِدُوا أَمَامَكُمْ إِلَّا أَعْمَالَكُمْ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٨٥].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ عَظِيمِ الْخَطَرِ، وَكَبِيرِ الْإِثْمِ، أَنْ يَتَخَلَّفَ الْمُسْلِمُ عَنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ بِلَا عُذْرٍ؛ وَذَلِكَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النِّفَاقِ، وَسَبَبٌ لِلْخَتْمِ عَلَىٰ قَلْبِ صَاحِبِهِ حَتَّىٰ يَمُوتَ قَلْبُهُ فَيَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ؛ كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رَوَىٰ ابْنُ عُمَرَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ ﵄ أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَىٰ أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٠).

---

(١٠) أخرجه مسلم في الجمعة، باب التغليظ في ترك الجمعة (٨٦٥)، والنسائي في الجمعة، باب التشديد في التخلف عن الجمعة (٣/ ٨٨)، وابن ماجه في المساجد والجماعات، =

وَرَوَىٰ أَبُو الْجَعْدِ الضَّمْرِيُّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قَلْبِهِ**»، وَفِي لَفْظٍ لِابْنِ حِبَّانَ: «**مَنْ تَرَكَ الجُمُعَةَ ثَلَاثًا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ، فَهُوَ مُنَافِقٌ**»[(١١)].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ جُمَعٍ مُتَوَالِيَاتٍ فَقَدْ نَبَذَ الْإِسْلَامَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ»[(١٢)].

وَلَقَدْ هَمَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِمُعَاقَبَةِ مَنْ يَتَخَلَّفُونَ عَنْهَا بِأَشَدِّ الْعُقُوبَةِ؛ كَمَا رَوَىٰ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِقَوْمٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجُمُعَةِ: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ رَجُلًا يُصَلِّي بِالنَّاسِ، ثُمَّ أُحَرِّقَ عَلَىٰ رِجَالٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الجُمُعَةِ بُيُوتَهُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١٣)].

= باب التغليظ في التخلف عن الجماعة (٧٩٤)، وأحمد (١/ ٢٣٩)، والطيالسي (١٩٥٢)، وابن حبان (٢٧٨٥).

وفي كل روايات من أخرجوا الحديث أنه من حديث ابن عمر وابن عباس ﷺ، سوىٰ رواية مسلم الذي جعله من رواية ابن عمر وأبي هريرة ﷺ.

(١١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب التشديد في ترك الجمعة (١٠٥٢)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في ترك الجمعة من غير عذر وقال: حديث حسن (٥٠٠)، والنسائي في الجمعة، باب التشديد في التخلف عن الجمعة (٣/ ٨٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب فيمن ترك الجمعة من غير عذر (١١٢٥)، وأحمد (٣/ ٤٢٤)، وابن الجارود (٢٨٨)، وصححه ابن خزيمة (١٨٥٨)، وابن حبان (٢٧٨٦)، والحاكم وقال: علىٰ شرط مسلم (١٠٣٤).

والرواية الثانية لابن خزيمة (١٨٥٧)، وابن حبان (٢٥٨).

(١٢) أخرجه موقوفًا علىٰ ابن عباس ﷺ: عبد الرزاق (٥١٦٩)، وأبو يعلىٰ (٢٧١٢)، وابن عبد البر في التمهيد (١٦/ ٢٤٢)، وصححه المنذري في الترغيب (١/ ٢٩٦) رقم (١٠٦٤) والألباني في صحيح الترغيب (٧٣٣).

(١٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة والجمعة (٦٥١)، وأحمد (١/ ٤٠٢)، وابن أبي شيبة (١/ ٤٨٠)، وأبو يعلىٰ (٥٣٣٥)، وابن خزيمة (١٨٥٣)، ووهم الحاكم فاستدرك (١/ ٤٣٠).

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ كَرِهَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ السَّفَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِأَجْلِ الصَّلَاةِ(١٤)، فَإِذَا أُذِّنَ الْأَذَانُ الثَّانِي وَهُوَ مُقِيمٌ لَزِمَهُ أَنْ يُصَلِّيَ قَبْلَ أَنْ يُنْشِئَ سَفَرَهُ إِلَّا إِذَا كَانَ سَيُصَلِّيهَا فِي الطَّرِيقِ فِي بَلَدٍ قَرِيبٍ، أَوْ يَخْشَىٰ فَوَاتَ رِحْلَةٍ أَوْ رُفْقَةٍ فِي سَفَرِهِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَتَهَاوَنُونَ بِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَيَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا، وَرُبَّمَا فَاتَتْهُمْ بِسَبَبِ سَهَرِهِمْ لَيْلَتَهَا، فَيَحْرِمُونَ أَنْفُسَهُمُ التَّبْكِيرَ إِلَيْهَا، وَفِيهِ مِنَ الْفَضْلِ مَا فِيهِ، وَرُبَّمَا فَاتَتْ بَعْضَهُمْ فَنَامُوا عَنْهَا.

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ قَدِ اتَّخَذُوا ضَيْعَاتٍ وَاسْتِرَاحَاتٍ أَوْ إِبِلٍ يَخْرُجُونَ إِلَيْهَا ثُمَّ يَتَثَاقَلُونَ عَنِ الْعَوْدَةِ لِشُهُودِ الْجُمُعَةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا الصَّنِيعُ قَدْ خَافَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ أُمَّتِهِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الْكِتَابَ وَاللَّبَنَ**، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بَالُ الْكِتَابِ؟ **قَالَ: يَتَعَلَّمُهُ الْمُنَافِقُونَ، ثُمَّ يُجَادِلُونَ بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا**، فَقِيلَ: وَمَا بَالُ اللَّبَنِ؟ **قَالَ: أُنَاسٌ يُحِبُّونَ اللَّبَنَ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ الْجَمَاعَاتِ، وَيَتْرُكُونَ الْجُمُعَاتِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٥).

---

(١٤) ينظر: مسائل الإمام أحمد رواية ابنه صالح (٢/ ٤٦٨)، والمغني (٢/ ١٠٨)، والمجموع (١/ ١٤٩).

(١٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٦-١٥٥)، وأبو يعلىٰ (١٧٤٦)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٩٥) رقم (٨١٥-٨١٦-٨١٧)، والبيهقي في الشعب (٣٠٠٩)، والحاكم وصححه (٢/ ٣٧٤)، وللحديث شاهدان يشهدان لمعناه فيما يتعلق باتخاذ الإبل أو الغنم وتضييع الصلاة:

١- حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا هل عسىٰ أحدكم أن يتخذ الصبة من الغنم علىٰ رأس ميل أو ميلين، فيتعذر عليه الكلأ، فيرتفع، ثم تجيء الجمعة فلا يجيء ولا يشهدها، وتجيء الجمعة فلا يشهدها، وتجيء الجمعة فلا يشهدها، حتىٰ يطبع علىٰ قلبه**» رواه ابن ماجه (١١٢٧)، وصححه ابن خزيمة (١٨٥٩)، وسكت عنه =

قَالَ السِّنْدِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «قَوْلُهُ: فَيَخْرُجُونَ مِنَ الْجَمَاعَاتِ وَيَتْرُكُونَ الْجُمُعَاتِ؛ أَيْ: لَا يَتَيَسَّرُ الْإِكْثَارُ مِنْهُ إِلَّا فِي الْبَادِيَةِ، فَيَخْرُجُونَ إِلَيْهَا، فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَىٰ تَرْكِ الْجُمَعِ وَالْجَمَاعَاتِ»(١٦).

وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَعْلَامِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ إِذ يَقَعُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الزَّرْعِ وَأَهْلِ الْإِبِلِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَىٰ، فَلَمْ يَشْغَلْهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا عَنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قَالَ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ ﷺ: «لَوْلَا الْجُمُعَةُ وَالْجَمَاعَةُ لَبَنَيْتُ فِي أَعْلَىٰ دَارِي هَذِهِ بَيْتًا، فَلَمْ أَخْرُجْ مِنْهُ حَتَّىٰ أُخْرَجَ إِلَىٰ قَبْرِي»(١٧)، وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ السَّرِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «لَوْلَا الْجُمُعَةُ وَالْجَمَاعَةُ لَطَيَّنْتُ عَلَيَّ الْبَابَ»(١٨).

فَاحْرِصُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- عَلَىٰ هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ، وَبَكِّرُوا إِلَيْهَا،

= الحاكم (١/ ٤٣٠)، وحسنه المنذري في الترغيب (١/ ٥٧٤) رقم (١٠٧٩)، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٧٣١): حسن لغيره، لكن قال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ١٣٦): هذا إسناد ضعيف لضعف معدي بن سليمان.

وجاء بنصه من حديث ابن عمر ﷺ عند: الطبراني في الأوسط (٣٣٦)، والبيهقي في الشعب (٣٠١٠).

٢- حديث حارثة بن النعمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتخذ أحدكم السائمة فيشهد الصلاة في جماعة، فتتعذر عليه سائمته فيقول: لو طلبت لسائمتي مكانا هو أكلأ من هذا، فيتحول ولا يشهد إلا الجمعة، فيتعذر عليه سائمته، فيقول: لو طلبت لسائمتي مكانًا هو أكلأ من هذا، فيتحول فلا يشهد الجمعة ولا الجماعة، فيطبع علىٰ قلبه**» أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٣)، وفيه عمر بن عبد الله مولىٰ غفرة، وثقه أحمد وضعفه الجمهور، لكن حسن هذا الحديث الألباني باعتبار ما قبله، ينظر: صحيح الترغيب (٧٣٤).

(١٦) ينظر: مسند أحمد ط: الرسالة (٢٨/ ٥٥٦).

(١٧) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٥٣٤)، وعبد الله بن أحمد في الزهد (١٥١).

(١٨) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (١٧٤)، وفي الشعب (٢٩٣٥)، وابن عساكر في تاريخه (٢٠/ ١٧٧).

وَتَهَيَّئُوا لَهَا بِمَا يَلِيقُ بِمَقَامِهَا، فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَشَعِيرَةٌ مِنْ شَعَائِرِهِ، شَرَعَهَا لِتُقَرِّبَكُمْ إِلَيْهِ، وَلِتَكُونَ زِيَادَةً فِي حَسَنَاتِكُمْ، وَرِفْعَةً لِدَرَجَاتِكُمْ، وَتَكْفِيرًا لِخَطَايَاكُمْ، وَكَمْ نُقَارِفُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْعِصْيَانِ خِلَالَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، وَالْجُمُعَةُ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ مُكَفِّرَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ....



٢٤٣- الزكاة المفروضة (١) فرضها وفضلها وأهميتها

٩/ ٩/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؛ فَرَضَ عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنَ الدِّينِ مَا يُقَرِّبُ إِلَيْهِ، وَشَرَعَ لَهُمْ مِنَ الْفَرَائِضِ مَا يُصْلِحُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ، وَنَتُوبُ إِلَيْهِ وَنَسْتَغْفِرُهُ؛ ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٣٥]. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الْقَصَص: ٧٠]، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الْفَتْح: ٢٨]، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَأَزْوَاجِهِ، وَأَتْبَاعِهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاعْمُرُوا أَوْقَاتَكُمْ بِطَاعَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَخُذُوا مِمَّا مَضَىٰ مِنْ أَعْمَارِكُمْ عِبْرَةً لِمَا بَقِيَ، فَحَالُ مَا بَقِيَ سَيَكُونُ كَحَالِ مَا مَضَىٰ؛ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: كُلُّ النَّاسِ يَنْشُدُونَ السَّعَادَةَ، وَيَطْلُبُونَ الرَّاحَةَ، وَكُلُّ مَا يَسْعَىٰ إِلَيْهِ الْبَشَرُ مِنْ تَحْصِيلِ الْأَمْوَالِ، وَالتَّرَقِّي فِي الْجَاهِ، وَتَنْوِيعِ وَسَائِلِ التَّرَفِ وَالرَّفَاهِيَةِ الْمُبَاحِ مِنْهَا وَالْمُحَرَّمِ إِنَّمَا كَانَ سَعْيُهُمْ فِيهَا لِتَحْصِيلِ الرَّاحَةِ وَالسَّعَادَةِ، وَلَا رَاحَةَ لِلْعَبْدِ، وَلَا سَعَادَةَ لِلْقَلْبِ إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَكُلُّ سَعَادَةٍ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَطَاعَتِهِ تَزُولُ سَرِيعًا، وَلَا تَبْقَىٰ أَبَدًا، وَالْأَثْرِيَاءُ الَّذِينَ يُغْبَطُونَ عَلَىٰ ثَرَوَاتِهِمْ كَانُوا يَجِدُونَ لَذَّةً فِي جَمْعِهَا وَتَنْمِيَتِهَا، فَلَمَّا امْتَلَأَتْ بِهَا أَرْصِدَتُهُمْ، ذَهَبَتْ لَذَّتُهَا، وَصَارَتْ أَمْرًا عَادِيًّا.

وَأَصْحَابُ المَسَاكِنِ وَالْقُصُورِ يَفْرَحُونَ بِهَا حَالَ بِنَائِهَا، وَبَعْدَ سُكْنَاهَا تَذْهَبُ حَلَاوَتُهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَرُبَّمَا أَصَابَهُمُ المَلَلُ مِنْهَا، وَصَاحِبُ الْجَاهِ يَسْعَىٰ إِلَيْهِ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَهُ لَا يَلْبَثُ إِلَّا قَلِيلًا، فَيَذْهَبُ رَوْنَقُهُ، وَلَا يُحِسُّ بِهِ، وَيَسْعَىٰ إِلَىٰ مَا هُوَ أَعْلَىٰ مِمَّا بَلَغَ. وَهَكَذَا كُلُّ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا، أَبَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ تَبْقَىٰ لَذَّتُهَا لِأَصْحَابِهَا أَبَدًا، كَيْفَ؟ وَلَا وَزْنَ لِلدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ.

أَمَّا لَذَّةُ الْعِبَادَاتِ فَلَا يُدَانِيهَا لَذَّةٌ، هِيَ السَّعَادَةُ الَّتِي يَطْرَبُ الْقَلْبُ لَهَا، وَيَنْشَرِحُ الصَّدْرُ بِهَا، وَإِذَا قَضَىٰ الْمُسْلِمُ فَرْضَهُ مِنَ الصَّلَاةِ أَحَسَّ بِرَاحَةٍ عَظِيمَةٍ، وَإِذَا وَضَعَ زَكَاةَ مَالِهِ فِي يَدِ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا فَرِحَ بِذَلِكَ، وَإِذَا قَضَىٰ نُسُكَهُ مِنْ حَجَّتِهِ وَعُمْرَتِهِ، فَلَا تَسَلْ عَنْ فَرْحَتِهِ وَهُوَ عَائِدٌ إِلَىٰ بَلَدِهِ، «**وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ**»(١).

وَكَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْحَجَّ عِبَادَاتٌ بَدَنِيَّةٌ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ عِبَادَةٌ مَالِيَّةٌ، تَقِي النَّفْسَ شُحَّهَا، وَتُطَهِّرُهَا مِنْ بُخْلِهَا وَحِرْصِهَا، عَظُمَتْ عِنَايَةُ الشَّارِعِ الْحَكِيمِ بِهَا، وَتَكَرَّرَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا مُقْتَرِنَةً بِالصَّلَاةِ أَوْ مُنْفَصِلَةً عَنْهَا.

وَهِيَ مِنْ مَبَانِي الْإِسْلَامِ الْعِظَامِ، وَرُكْنُهُ الثَّالِثُ بَعْدَ الصَّلَاةِ وَقَبْلَ الصِّيَامِ؛ كَمَا رَوَىٰ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٢).

وَلِمَكَانَةِ الزَّكَاةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ جَاءَتْ بِهَا شَرَائِعُ مَنْ سَبَقُوا مِنْ رُسُلِ اللَّهِ

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم (١٨٠٥)، ومسلم في الصيام، باب فضل الصيام (١١٥١).

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الإيمان (٨)، ومسلم في الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام (١٦).

تَعَالَىٰ، وَأُوحِيَ إِلَيْهِمْ بِهَا، وَفُرِضَتْ عَلَىٰ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، كَمَا أَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ الْأَئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وَامْتَدَحَ بِهَا إِسْمَاعِيلَ عليه السلام بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٥٥]، وَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ عِيسَىٰ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مَرْيَم: ٣١].

وَأَخَذَ ﷻ الْمِيثَاقَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الشَّرَائِعِ كَانَ مِنْ أَهَمِّهَا: إِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَمَرَهُمْ بِهَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٣].

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَهَمِّيَّتِهَا، وَعِنَايَةِ الشَّارِعِ الْحَكِيمِ بِهَا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ خُوطِبُوا بِهَا فِي مَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، وَتَكَرَّرَ ذِكْرُهَا فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ، فَقُرِنَتْ فِي سُورَةِ الْبَيِّنَةِ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ؛ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [الْبَيِّنَة: ٥].

وَلَكِنْ لَمْ يَنْزِلْ نِصَابُهَا وَلَا مِقْدَارُهَا وَلَا وَقْتُهَا، بَلْ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ مَأْمُورِينَ بِإِطْعَامِ الْمِسْكِينَ، وَرِعَايَةِ الْيَتِيمِ، وَفَكِّ الْأَسِيرِ، وَتَبْلِيغِ السَّبِيلِ، وَمُوَاسَاةِ أَهْلِ الْمُوَاسَاةِ، وَكَثُرَ الْأَمْرُ بِذَلِكَ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ، وَتَنَوَّعَتِ الْأَسَالِيبُ فِيهِ، تَارَةً بِالْأَمْرِ الْمُبَاشِرِ، ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الرُّوم: ٣٨]، وَتَارَةً أُخْرَىٰ بِالثَّنَاءِ عَلَىٰ الْمُنْفِقِينَ؛ ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الْمَعَارِج: ٢٤-٢٥]، وَثَالِثَةً بِذَمِّ مَنْ يُقَصِّرُونَ فِي ذَلِكَ؛ ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الْفَجْر: ١٨]، وَرَابِعَةً بِجَعْلِ تَرْكِهَا مِنْ أَسْبَابِ دُخُولِ الْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ؛ ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم

بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٦-٧]، وَفِي سُورَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المُدَّثِّر: ٤٢-٤٤].

وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ صَرَاحَةً فِي السُّوَرِ المَكِّيَّةِ، كَمَا فِي أَوَائِلِ «النَّمْلِ» وَ«لُقْمَانَ»؛ إذ امْتَدَحَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النَّمْل: ٣]، وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ مِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ المُفْلِحِينَ؛ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ٤].

وَجَاءَ فِي حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «لَمَّا أَمَرَهُمْ بِزَكَاةِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَبَيَّنَ عُقُوبَةَ مَنْ لَمْ يُخْرِجْهَا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ: **إِطْرَاقُ فَحْلِهَا، وَإِعَارَةُ دَلْوِهَا، وَمَنِيحَتُهَا، وَحَلَبُهَا عَلَىٰ المَاءِ، وَحَمْلٌ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٣].

وَكُلُّ هَذِهِ النُّصُوصِ الْعَظِيمَةِ -وَمِثْلُهَا كَثِيرٌ- تَدُلُّ عَلَىٰ مَكَانَةِ الزَّكَاةِ فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّ الْأَمْرَ بِهَا جَاءَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ وَبِنَاءِ الدَّوْلَةِ المُسْلِمَةِ.

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَأُمِرُوا بِالزَّكَاةِ وَالْإِحْسَانِ فِي مَكَّةَ، وَلَكِنَّ فَرَائِضَ الزَّكَاةِ وَنُصُبَهَا إِنَّمَا شُرِعَتْ بِالمَدِينَةِ»[٤].

وَبَايَعَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَصْحَابَهُ عَلَىٰ أَدَائِهَا، وَالْبَيْعَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا عَلَىٰ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ. رَوَىٰ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: «بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَىٰ إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٥].

---

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة (٩٨٨)، والنسائي في الزكاة، باب مانع زكاة البقر (٢/ ١٢)، والدارمي (١٦١٦)، وابن الجارود (٣٣٥).

(٤) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٦٠٦).

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة، باب البيعة علىٰ إيتاء الزكاة (١٣٣٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة (٥٦).

وَالمُمْتَنِعُ عَنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ يُقَاتَلُ حَتَّىٰ يُؤَدِّيَهَا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ قَدْ نَصَّ عَلَىٰ أَنَّ أَدَاءَهَا مَعَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَالْتِزَامِ التَّوْبَةِ سَبَبٌ لِلْكَفِّ عَنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التَّوْبَة: ٥].

وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ جَعَلَ ذَلِكَ سَبَبًا لِلْأُخُوَّةِ فِي الدِّينِ ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التَّوْبَة: ١١].

وَنَصَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ هَذَا الْحُكْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي تَنَزَّلَ بِهِ الْقُرْآنُ فَقَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللَّهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما(٦).

وَحِينَ تُوُفِّيَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَارْتَدَّتْ بَعْضُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَمَنَعَ بَعْضُهُمُ الزَّكَاةَ زَاعِمِينَ أَنَّ دَفْعَ الزَّكَاةِ خَاصٌّ بِالنَّبِيِّ ﷺ عَمِلَ الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فِيهِمْ بِمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ، فَسَيَّرَ الْجُيُوشَ لِقِتَالِهِمْ، وَلَمْ يَتَهَاوَنْ فِي أَمْرِهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الزَّكَاةَ قَرِينَةُ الصَّلَاةِ، وَأَنَّ الْمُمْتَنِعَ عَنْ أَدَائِهَا يَسْتَحِقُّ الْقِتَالَ حَتَّىٰ يُؤَدِّيَهَا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللَّهِ**؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ

---

(٦) أخرجه البخاري في الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] (٢٥)، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله ... (٢٢).

بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَىٰ مَنْعِهَا، قَالَ عُمَرُ ﷺ فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٧).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَقَدِ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ وَالْأَئِمَّةُ بَعْدَهُمْ عَلَىٰ قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ، وَإِنْ كَانُوا يُصَلُّونَ الْخَمْسَ، وَيَصُومُونَ شَهْرَ رَمَضَانَ» اهـ(٨).

فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ أَنْ لَا يَتَهَاوَنَ بِهَذَا الرُّكْنِ الرَّكِينِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ يُخْرِجَ زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، مُسْتَحْضِرًا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِهَذَا المَالِ، وَأَوْجَبَ جُزْءًا يَسِيرًا مِنْهُ فَرِيضَةً عَلَيْهِ، يُجْزَىٰ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْرًا عَظِيمًا إِنْ وَضَعَهَا فِي يَدِ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا، مُؤْمِنًا بِفَرْضِهَا، مُخْلِصًا لِرَبِّهِ فِي أَدَائِهَا، مُحْتَسِبًا ثَوَابَهَا.

مَعَ مَا فِيهَا مِنْ تَطْهِيرِ النَّفْسِ مِنْ شُحِّهَا وَأَثَرَتِهَا، وَتَزْكِيَةِ المَالِ وَتَنْمِيَتِهِ؛ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التَّوْبَة: ١٠٣].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُلْهِمَنَا رُشْدَنَا، وَأَنْ يَقِيَنَا شُحَّ أَنْفُسِنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ . . .

❃ ❃ ❃

(٧) أخرجه البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة (١٣٣٥)، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله ... (٢٠).

(٨) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٥١٩)، وقال ابن قدامة في الكافي: أجمعوا علىٰ قتال مانعي الزكاة (١/ ٩٥).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ أَنْعَمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ بِهَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس: ٩٩]، نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ، وَجِدُّوا فِيمَا بَقِيَ مِنْ شَهْرِكُمُ الْمُبَارَكِ؛ فَعَنْ قَرِيبٍ يُفَارِقُكُمْ بِمَا اسْتَوْدَعْتُمْ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ؛ لِتَجِدُوا ذَلِكَ أَمَامَكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عِمْرَان: ٣٠].

أَيُّهَا النَّاسُ: اعْتَادَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِخْرَاجَ زَكَاتِهِمْ فِي رَمَضَانَ؛ تَحَرِّيًا لِفَضِيلَةِ الشَّهْرِ، وَفَضِيلَةِ التَّلَبُّسِ بِالصِّيَامِ؛ رَجَاءَ أَنْ يَقْبَلَ اللهُ تَعَالَىٰ زَكَوَاتِهِمْ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ لَا يُوَفَّقُونَ فِي إِيصَالِ الزَّكَاةِ لِمُسْتَحِقِّيهَا بِسَبَبِ التَّفْرِيطِ أَوِ الْجَهْلِ.

وَفِي الْمُسْلِمِينَ عَشَرَاتُ الْأُلُوفِ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ، وَفِيهِمْ مَلَايِينُ الْفُقَرَاءِ، وَلَوْ رَدَّ الْأَغْنِيَاءُ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ عَلَىٰ الْمُسْتَحِقِّينَ لَمَا بَقِيَ فِي الْمُسْلِمِينَ فَقِيرٌ، وَلَكِنَّ بَعْضَ الْأَثْرِيَاءِ يُقَصِّرُونَ فِي إِخْرَاجِ زَكَاتِهِمْ، فَلَا يُخْرِجُونَهَا كُلِّيَّةً، أَوْ يُخْرِجُونَ بَعْضَهَا؛ اسْتِعْظَامًا لَهَا، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا أَمْوَالَهُمْ، وَمَا الزَّكَاةُ مِنْهَا إِلَّا جُزْءًا وَاحِدًا مِنْ أَرْبَعِينَ جُزْءًا ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عَبَس: ١٧].

وَكَثِيرٌ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ يُخْرِجُونَ زَكَاتَهُمْ وَلَكِنَّهَا لَا تَقَعُ فِي أَيْدِي مُسْتَحِقِّيهَا؛ وَذَلِكَ

لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَغْنِيَاءِ قَدِ اعْتَادُوا صَرْفَ زَكَوَاتِهِمْ مُنْذُ سَنَوَاتٍ لِأُسَرٍ كَانَتْ مُحْتَاجَةً لِفَقْرِهَا أَوْ فَقْدِ عَائِلِهَا، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ فَتَحَ عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ رِزْقِهِ، فَعَمِلَ أَبْنَاؤُهُمْ وَبَنَاتُهُمْ، وَسُدَّتْ حَاجَاتُهُمْ، وَهُمْ لَا زَالُوا يَتَقَبَّلُونَ الزَّكَاةَ؛ جَهْلًا بِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَهَا، أَوْ ظَنًّا أَنَّهَا هِبَةٌ أَوْ هَدِيَّةٌ مِمَّنْ يُعْطِيهِمْ إِيَّاهَا، أَوْ جَشَعًا وَطَمَعًا.

وَبَعْضُ الْأَغْنِيَاءِ يَدْفَعُونَ زَكَاتَهُمْ إِلَىٰ أَقْرَبِ سَائِلٍ، وَلَا يَتَحَرَّوْنَ فِيهَا أَهْلَهَا الَّذِينَ اخْتَصَّهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا، وَسَبَبُ ذَلِكَ الثِّقَةُ الْمُفْرِطَةُ، وَإِتْقَانُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَسَوِّلِينَ صَنْعَتَهُمْ، بِاصْطِنَاعِ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ، وَتَقَمُّصِ أَحْوَالِ ذَوِي الْعَاهَاتِ وَالْأَمْرَاضِ، مَعَ فَصَاحَةِ لِسَانٍ فِي اخْتِلَاقِ الْأَكَاذِيبِ، وَإِنْشَاءِ الْقِصَصِ الَّتِي يُحَرِّكُونَ بِهَا قُلُوبَ النَّاسِ، وَيَسْتَدِرُّونَ بِهَا عَوَاطِفَهُمْ، وَبَعْضُهُمْ قَدْ يَكُونُ مُحْتَاجًا فِي الْبِدَايَةِ، وَلَكِنَّهُ اعْتَادَ عَلَىٰ السُّؤَالِ، وَوَجَدَ أَنَّ هَذَا الْبَابَ أَسْهَلُ الْأَبْوَابِ لِلْكَسْبِ وَالِارْتِزَاقِ.

وَبِكُلِّ حَالٍ فَإِنَّ مَنْ يَسْأَلُونَ سَيَجِدُونَ مَنْ يُعْطِيهِمْ، فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ لَا يَحْفِلَ بِهِمْ كَثِيرًا، وَلَا يُغَامِرَ بِزَكَاتِهِ فِي أَيْدِيهِمْ وَهُوَ لَا يَتَيَقَّنُ صِدْقَهُمْ، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أَرْشَدَنَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَا اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الْمُتَعَفِّفُ، اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ:** ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(٩).

وَمَنْ كَانَ وَصِيًّا عَلَىٰ الزَّكَاةِ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَرَّىٰ فِيهَا أَهْلَهَا، وَيَجْتَهِدَ فِي

(٩) أخرجه البخاري في التفسير ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] (٤٢٦٥)، ومسلم في الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنىٰ ... (١٠٣٩).

ذَلِكَ، وَلَا يُجَامِلَ أَحَدًا فِيهَا لِقَرَابَةٍ أَوْ زَمَالَةٍ أَوْ مَعْرِفَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَغْنِيَاءَ مَا وَكَّلُوهُ بِصَدَقَاتِهِمْ إِلَّا لِثِقَتِهِمْ فِيهِ، فَيَجِبُ أَنْ يَرْدَعَهُ دِينُهُ عَنْ تَحَمُّلِ ذَلِكَ وَهُوَ لَيْسَ بِأَهْلٍ لَهُ؛ لِقِلَّةِ مَعْرِفَتِهِ، أَوْ كَثْرَةِ مَشَاغِلِهِ، فَإِنْ تَحَمَّلَهُ فَلْيَكُنْ عَلَىٰ قَدْرِ الْمَسْؤُولِيَّةِ فِيهِ، وَلَا يُفَرِّطْ فِي حَقِّ الْفُقَرَاءِ، فَيَحْرِمَهُمْ مِنْهُ، وَيَدْفَعَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ.

قَالَ نَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ[١٠].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَىٰ نَبِيِّكُمْ ...



(١٠) أخرجه الترمذي في العيدين، باب (٤٣٤)، وقال: حسن صحيح (٦١٦)، وأحمد (٥/ ٢٥١)، والدارقطني (٢/ ٢٩٤) رقم (٢٥٨)، والطبراني في الكبير (٨/ ١١٥) رقم (٧٥٣٥)، وفي مسند الشاميين (٥٤٣)، وصححه ابن حبان (٤٥٦٣)، والحاكم، وقال: علىٰ شرط مسلم (١/ ٥٤٧).



٢٤٤- الزكاة المفروضة (٢) تطهرهم وتزكيهم بها

١٤/٦/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِعِبَادِهِ أَنَّهُ لَمَّا خَلَقَهُمْ وَكَلَّفَهُمْ هَدَاهُمْ لِدِينِهِ، وَبَيَّنَ لَهُمُ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، وَقَطَعَ أَعْذَارَهُمْ، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

وَالشَّرَائِعُ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْعِبَادِ وَأَلْزَمَهُمْ بِهَا هِيَ لِمَنَافِعِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ، فَالْتِزَامُهُمْ بِهَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْفَعُ اللهَ تَعَالَىٰ شَيْئًا، وَرَفْضُهُمْ لَهَا

يَضُرُّهُمْ وَلَا يَضُرُّ اللهَ تَعَالَىٰ شَيْئًا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

هَذَا؛ وَمِنْ أَعْظَمِ مَا فَرَضَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ مِنَ الْفَرَائِضِ فَرِيضَةُ الزَّكَاةِ، فَهِيَ عِبَادَةُ المَالِ، وَرُكْنُ الْإِسْلَامِ الثَّالِثُ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ وَالصَّلَاةِ. تَكَرَّرَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا، وَقُرِنَ ذِكْرُهَا بِذِكْرِ الصَّلَاةِ فِي أَكْثَرِ الْآيَاتِ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٣] فَالصَّلَاةُ تَعْصِمُ الدَّمَ، وَالزَّكَاةَ تَعْصِمُ المَالَ.

وَلَوْلَا مَا فِيهَا مِنَ المَنَافِعِ لِلْعِبَادِ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وَفِيمَا يَخُصُّهُمْ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ وَدُوَلًا وَأُمَمًا لمَا كَانَتْ عِنَايَةُ الشَّرِيعَةِ بِهَا كَذَلِكَ؛ إذ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَشْرَعُ لِعِبَادِهِ إِلَّا مَا يُصْلِحُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالزَّكَاةُ دَلِيلُ صِدْقِ الْعَبْدِ فِي إِيمَانِهِ، وَتَسْلِيمِهِ لِرَبِّهِ، وَثِقَتِهِ فِي مَوْعُودِهِ؛ وَلِذَلِكَ يَبْذُلُ أَغْلَىٰ مَا يَمْلِكُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ وَرِضًا، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ أُطْلِقَ عَلَىٰ الزَّكَاةِ لَفْظُ الصَّدَقَةِ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الصِّدْقِ فِي مُسَاوَاةِ الْفِعْلِ لِلْقَوْلِ وَالِاعْتِقَادِ؛ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْعَلَّامَةُ أَبُو بَكْرٍ ابْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ(٢).

وَهَذَا الْفَهْمُ لِمَعْنَىٰ الزَّكَاةِ يَرْتَكِزُ عَلَىٰ مَفْهُومِ التَّلَازُمِ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ وَالِاعْتِقَادِ فِي الْإِسْلَامِ، فَلَا يَكْمُلُ الِاعْتِقَادُ بِلَا قَوْلٍ، كَمَا لَا يَكْمُلُ الْقَوْلُ بِدُونِ فِعْلٍ، فَالتَّلَازُمُ بَيْنَ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ لُحْمَةُ عَقِيدَةِ الْإِسْلَامِ وَمُرْتَكَزُهَا(٣).

إِنَّ ارْتِبَاطَ الزَّكَاةِ بِالْعَقِيدَةِ، وَكَوْنَهَا جُزْءًا أَسَاسًا لَا يَكْتَمِلُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهَا يَدُلُّ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أحكام القرآن (٢/ ٥٢١).

(٣) ببعض التصرف من آراء وتأملات في فقه الزكاة، د.محمد بن عبد الله الشباني، مجلة البيان عدد (١١) ص(٣٥).

عَلَيْهِ مَا وَرَدَ مِنْ آيَاتٍ عَنِ الزَّكَاةِ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ، حَيْثُ لَمْ تَتَكَوَّنْ بَعْدُ دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ تَتَحَدَّدْ أَنْوَاعُ الْأَمْوَالِ وَالْمَقَادِيرُ الْوَاجِبُ إِخْرَاجُهَا، إِنَّمَا كَانَتِ الْإِشَارَةُ إِلَىٰ الزَّكَاةِ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الِاعْتِقَادِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ مَدَىٰ التَّلَازُمِ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ وَالْعُبُودِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَقْوَالٌ وَأَفْعَالٌ تُبَرْهِنُ عَلَىٰ صِدْقِ الْإِيمَانِ، كَمَا يُبَيِّنُ هَذَا التَّبْكِيرُ فِي الْخِطَابِ بِالزَّكَاةِ قَبْلَ قِيَامِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ مَا يَجِبُ عَلَىٰ الْفَرْدِ تُجَاهَ إِخْوَانِهِ وَمُجْتَمَعِهِ وَأُمَّتِهِ(٤).

إِنَّ الزَّكَاةَ تَعْنِي الطَّهَارَةَ وَالنَّمَاءَ وَالْبَرَكَةَ، يَقُولُ ابْنُ قُتَيْبَةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «الزَّكَاةُ مِنَ الزَّكَاءِ وَالنَّمَاءِ وَالزِّيَادَةِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا تُثْمِرُ الْمَالَ وَتُنَمِّيهِ، يُقَالُ: زَكَا الزَّرْعُ: إِذَا كَثُرَ رَيْعُهُ، وَزَكَتِ النَّفَقَةُ: إِذَا بُورِكَ فِيهَا»(٥) اهـ.

وَمِنْ عَجِيبِ التَّشْرِيعِ الرَّبَّانِيِّ أَنَّ الزَّكَاةَ أَخْذٌ، وَالْأَخْذُ فِي الْأَصْلِ نَقْصٌ مِنَ الْمَالِ، وَهَذَا هُوَ الْمُسْتَقِرُّ عِنْدَ الْبَشَرِ؛ وَلِذَلِكَ يَشِحُّ أَكْثَرُهُمْ بِبَذْلِ الْمَالِ خَوْفًا مِنْ نَقْصِهِ، وَلَكِنَّ الشَّارِعَ الْحَكِيمَ أَخْبَرَنَا أَنَّ الزَّكَاةَ وَإِنْ كَانَتْ إِخْرَاجَ جُزْءٍ مِنَ الْمَالِ فَهِيَ طَهَارَةٌ وَنَمَاءٌ لِلْمَالِ، عَلَىٰ عَكْسِ مَا هُوَ مُسْتَقِرٌّ عِنْدَ الْبَشَرِ، وَقَدْ تَوَارَدَتِ النُّصُوصُ عَلَىٰ هَذَا الْمَعْنَىٰ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التَّوْبَة: ١٠٣] وَالتَّطْهِيرُ وَالتَّزْكِيَةُ مِنْ أَعْظَمِ مَطْلُوبَاتِ أَصْحَابِ النُّفُوسِ السَّامِيَةِ، وَالْهِمَمِ السَّامِقَةِ، وَتَطْهِيرُ الزَّكَاةِ عَامٌّ يَشْمَلُ الْمُزَكِّي وَآخِذَ الزَّكَاةِ وَالْمَالَ الْمُزَكَّىٰ وَالْمُجْتَمَعَ بِأَسْرِهِ.

أَمَّا الْمُزَكِّي فَتُطَهِّرُهُ الزَّكَاةُ مِنَ الْبُخْلِ وَالشُّحِّ وَالْأَثَرَةِ، كَمَا تُطَهِّرُهُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الْمَالِ، وَكَمْ مِنْ صَاحِبِ مَالٍ يَمْلِكُهُ الْمَالُ وَيُسَيِّرُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ عَبْدًا لَهُ، فَيُوَالِي

---

(٤) المصدر السابق ببعض التصرف.

(٥) غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ١٨٤)، وينظر: تفسير الطبري (١/ ٢٥٧).

فِي المَالِ، وَيُعَادِي فِيهِ، وَيُحِبُّ فِيهِ، وَيُبْغِضُ فِيهِ، وَيَشْقَىٰ فِي جَمْعِهِ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وَيَخْشَىٰ فَوَاتَهُ أَكْثَرَ مِنْ خَشْيَتِهِ عَلَىٰ دِينِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ، وَلَرُبَّمَا هَلَكَ بِسَبَبِ خَسَارَتِهِ! فَهَذَا عَبْدٌ لِمَالِهِ وَإِنْ مَلَكَهُ.

وَمُخْرِجُ الزَّكَاةِ يَتَحَرَّرُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِنْ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ إِلَىٰ عُبُودِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ، وَيَتَطَهَّرُ مِنْ شُحِّ نَفْسِهِ، وَفَقْرِ قَلْبِهِ. وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَنْفَعُ الْعَبْدَ عَاجِلًا وَآجِلًا، وَقَدْ أَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ، وَوَصَفَهُ بِالْفَلَاحِ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التَّغَابُن: ١٦]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ١]، ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ فَلَاحِهِمْ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ٤] وَذَمَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنْ لَمْ يَتَطَهَّرْ قَلْبُهُ مِنَ الشُّحِّ وَالْأَثَرَةِ، وَدَعَا عَلَيْهِ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه[٦].

وَالزَّكَاةُ سَبَبٌ لِطَهَارَةِ قُلُوبِ الْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ مِنَ الْحِقْدِ عَلَىٰ الْأَغْنِيَاءِ، وَحَسَدِهِمْ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ فَضْلِهِ؛ إِذ يَرَوْنَ أَنَّ الْأَغْنِيَاءَ قَدْ أَحَسُّوا بِهِمْ، وَشَارَكُوهُمْ فِي مُصَابِهِمْ، وَتَلَمَّسُوا حَاجَاتِهِمْ، وَوَاسَوْهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ، فَالزَّكَاةُ أَعْظَمُ صِلَةٍ بَيْنَ الْفُقَرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ، وَفِيهَا إِزَالَةٌ لِلْحَوَاجِزِ المُصْطَنَعَةِ بَيْنَهُمْ، وَتَقْرِيبُ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّىٰ يَكُونُوا إِخْوَةً مُتَآلِفِينَ، مُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ تَعَالَىٰ، مُتَعَاوِنِينَ عَلَىٰ الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ.

وَالْفُقَرَاءُ إِذَا مَا عَلِمُوا أَنَّ لَهُمْ حَظًّا فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ قَدْ فَرَضَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ، وَقَامَ الْأَغْنِيَاءُ بِوَاجِبِهِمْ فِيهِ؛ فَإِنَّهُمْ حِينَئِذٍ سَيَتَمَنَّوْنَ زِيَادَةَ أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ،

---

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق، باب ما يتقىٰ من فتنة المال (٦٠٧١).

وَيَفْرَحُونَ بِرِبْحِهِمْ فِي تِجَارَاتِهِمْ، وَيَدْعُونَ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَيُبَرِّكُونَ عَلَىٰ مَا يَرَوْنَ مِنْ عَظِيمِ أَمْوَالِهِمْ، وَلَا يَتَمَنَّوْنَ زَوَالَهَا أَوْ تَلَفَهَا؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ حَقَّهُمْ مِنَ الزَّكَاةِ يَزِيدُ مَعَ زِيَادَةِ رُؤُوسِ أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ وَأَرْبَاحِهِمْ.

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّصْرَ وَالرِّزْقَ يُسْتَجْلَبُ بِالْفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاءِ؛ وَذَلِكَ بِبَرَكَةِ صَلَاحِهِمْ وَدُعَائِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنهما قَالَ: «رَأَىٰ سَعْدٌ رضي الله عنه أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَىٰ مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِيِّ: «**إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ**»[(٧)].

وَمَهْمَا عَمِلَ الْبَشَرُ مِنَ الْوَسَائِلِ وَالْأَسَالِيبِ، وَمَهْمَا قَامُوا بِهِ مِنَ الْبُحُوثِ وَالدِّرَاسَاتِ وَالدَّوْرَاتِ لِلتَّقْرِيبِ بَيْنَ الْفُقَرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ، وَتَآلُفِهِمْ وَاجْتِمَاعِ قُلُوبِهِمْ فَلَنْ يَجِدُوا لِلزَّكَاةِ مَثِيلًا فِي ذَلِكَ، فَسُبْحَانَ مَنْ شَرَّعَ فَأَحْسَنَ، وَأَمَرَ فَأَحْكَمَ!!

وَالزَّكَاةُ طَهَارَةٌ لِلْمَالِ مِمَّا عَلِقَ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ أَوْ غَفْلَةِ صَاحِبِهِ عَنْ حَرَامٍ فِي تَحْصِيلِهِ، أَوْ تَقْصِيرِهِ فِي أَدَاءِ وَاجِبٍ عَلَىٰ اسْتِحْقَاقِهِ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مِنْ غَفْلَةِ الْإِنْسَانِ وَنَقْصِهِ؛ وَلِذَلِكَ سَمَّىٰ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الزَّكَاةَ: أَوْسَاخَ النَّاسِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ رَبِيعَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، وَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٨)]. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْأَرْقَمِ رضي الله عنه: «إِنَّمَا الصَّدَقَةُ أَوْسَاخُ

---

(٧) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب (٢٧٣٩)، والنسائي في الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف (٦/ ٤٥).

(٨) أخرجه مسلم في الزكاة، باب ترك استعمال آل النبي ﷺ علىٰ الصدقة (١٠٧)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء، باب في بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربي (٢٩٨٥)، والنسائي في الزكاة، باب استعمال آل النبي ﷺ علىٰ الصدقة (٥/ ١٠٥)، وابن الجارود (١١١٣)، وابن خزيمة (٢٣٥٢)، وأحمد (٤/ ١٦٦).

النَّاسِ يَغْسِلُونَهَا عَنْهُمْ» رَوَاهُ مَالِكٌ(٩).

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَمَعْنَىٰ أَوْسَاخِ النَّاسِ: أَنَّهَا تَطْهِيرٌ لِأَمْوَالِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التَّوْبَة: ١٠٣] فَهِيَ كَغَسَّالَةِ الْأَوْسَاخِ»(١٠).

وَالزَّكَاةُ طَهَارَةٌ لِلْمُجْتَمَعِ مِنْ مَشَاكِلِ الْفَقْرِ، وَاكْتِنَازِ الثَّرَوَاتِ، وَفُشُوِّ الطَّبَقِيَّةِ، وَزِيَادَةِ الْفَجْوَةِ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ. وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةِ إِنَّمَا يُقْضَىٰ عَلَيْهَا بِهَذِهِ الشَّعِيرَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ تَعَالَىٰ حَقًّا لِلْفُقَرَاءِ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ.

---

(٩) أخرجه مالك (٢/ ١٠٠١).

(١٠) شرح مسلم (٧/ ١٧٩).

قال ابن عبد البر -رحمه الله تعالىٰ-: «وخرج قوله «أوساخ الناس» مخرج المثل السائر المضروب في كراهة الصدقة لمن وجد عنها غنىٰ، ومعناه يقتضي وجهين يعضدهما الأصول:

أحدهما: أن الأوساخ التي ضرب بها المثل هي علىٰ الغني حرام؛ لأن الكلام خرج علىٰ الصدقة المفروضة وهي لا تحل للأغنياء.

والوجه الآخر: أن الصدقة كلها مكروهة لكل من يجد عنها بدا بقوته علىٰ الاكتساب والتخوف في طلب الرزق، وإن كان فقيرا فقد أوضحنا المعنىٰ الذي يحرم الصدقة علىٰ السائل فيما تقدم» الاستذكار (٨/ ٦١٤-٦١٥).

وقال العيني -رحمه الله تعالىٰ- في عمدة القاري (٩/ ٨٧): «الحكمة في تحريمها عليهم:

١- أنها مطهرة للملاك ولأموالهم، قال تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، فهي كغسالة الأوساخ، وأن آل محمد منزهون عن أوساخ الناس وغسالاتهم.

٢- وإما أن أخذها مذلة، ولا يليق بهم الذل والافتقار إلىٰ غير الله تعالىٰ، ولهم اليد العليا.

٣- وإما أنها لو أخذوها لطال لسان الأعداء بأن محمدا يدعونا إلىٰ ما يدعونا إليه؛ ليأخذ أموالنا ويعطيها لأهل بيته، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]».

وَيَنْتِجُ عَنْهَا أَيْضًا: تَطْهِيرُ الْمُجْتَمَعِ مِنْ جَرَائِمِ السَّرِقَةِ وَالنَّهْبِ وَالنَّشْلِ وَالْغَصْبِ وَقَطْعِ الطَّرِيقِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَوْجُهِ الِاسْتِيلَاءِ عَلَىٰ الْأَمْوَالِ بِغَيْرِ حَقٍّ؛ فَإِنَّ الْمُحْتَاجِينَ إِنْ جَاءَهُمُ الْمَالُ مِنَ الْأَوْجُهِ الْمَشْرُوعَةِ، لَمْ يَحْتَاجُوا إِلَىٰ تَحْصِيلِهِ بِطُرُقٍ مُحَرَّمَةٍ.

وَأَمَّا التَّزْكِيَةُ فَهِيَ الطَّاعَةُ وَالْإِخْلَاصُ، كَمَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما؛ فَالزَّكَاةُ دَلِيلُ الطَّاعَةِ، وَعُنْوَانُ الْإِخْلَاصِ، وَلَا يُخْرِجُهَا سَخِيَّةً بِهَا نَفْسُهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ، صَادِقٌ فِي إِيمَانِهِ، مُخْلِصٌ لِدِينِهِ؛ وَلِذَا نَفَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ أَدَاءَ الزَّكَاةِ، فَأَخْبَرَ عز وجل أَنَّهُمْ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ؛ لِفَقْدِهِمُ الْإِيمَانَ وَالْإِخْلَاصَ ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٦-٧].

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ-: «وَالزَّكَاةُ تَتَضَمَّنُ الطَّهَارَةَ؛ فَإِنَّ فِيهَا مَعْنَىٰ تَرْكِ السَّيِّئَاتِ، وَمَعْنَىٰ فِعْلِ الْحَسَنَاتِ؛ وَلِهَذَا تُفَسَّرُ تَارَةً بِالطَّهَارَةِ وَتَارَةً بِالزِّيَادَةِ وَالنَّمَاءِ، وَمَعْنَاهَا يَتَضَمَّنُ الْأَمْرَيْنِ ... فَالصَّدَقَةُ تُوجِبُ الطَّهَارَةَ مِنَ الذُّنُوبِ وَتُوجِبُ الزَّكَاةَ الَّتِي هِيَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ» اهـ(١١).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا الْفِقْهَ فِي دِينِهِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، وَأَنْ يَقِيَنَا شُحَّ أَنْفُسِنَا، وَأَنْ يَجْعَلَ غِنَانَا فِي قُلُوبِنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ ...



(١١) مجموع الفتاوىٰ (١٥/ ٣٨٧).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَىٰ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَىٰ بِهُدَاهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ وَأَطِيعُوهُ ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَنْ نَظَرَ فِي وَاقِعِ الْمُسْلِمِينَ وَجَدَ أَنَّهُمْ قَدْ قَصَّرُوا كَثِيرًا تُجَاهَ هَذَا الرُّكْنِ الرَّكِينِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، فَشَحَّتْ نُفُوسُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ عَنْ أَدَاءِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي أَمْوَالِهِمْ، فَعُوقِبُوا بِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةِ الَّتِي يَبْحَثُونَ لَهَا عَنْ حُلُولٍ فَلَا يَجِدُونَ أَيَّ حَلٍّ.

انْظُرُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَىٰ- إِلَىٰ كَثْرَةِ الْأَسْوَاقِ وَالمَحِلَّاتِ التِّجَارِيَّةِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْسُبُوا أَعْدَادَ الشَّرِكَاتِ وَالمُؤَسَّسَاتِ؛ تَجِدُوا أَنَّهَا أَكْثَرُ عَدَدًا مِنَ الْأُسَرِ الْفَقِيرَةِ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ، ثُمَّ انْظُرُوا إِلَىٰ حِسَابَاتِ كِبَارِ التُّجَّارِ، وَأَبَاطِرَةِ الْمَالِ؛ تَجِدُوا أَنَّهَا تُقَارِبُ مُوَازَنَاتِ دُوَلٍ كَامِلَةٍ، فَلَوْ أَخْرَجَ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ مَا أَوْجَبَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي أَمْوَالِهِمْ مِنْ زَكَاةٍ لَمَا بَقِيَ فِي النَّاسِ فَقِيرٌ وَلَا مُحْتَاجٌ!!

وَمَنْ نَظَرَ فِي أَحْوَالِ كُلِّ بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ، أَوْ قَرْيَةٍ مِنَ الْقُرَىٰ، أَوْ قَبِيلَةٍ مِنَ الْقَبَائِلِ، أَوْ أُسْرَةٍ مِنَ الْأُسَرِ؛ وَجَدَ أَنَّ فِيهَا أَغْنِيَاءَ وَفُقَرَاءَ، وَأَنَّ زَكَاةَ أَغْنِيَائِهِمْ تَسُدُّ حَاجَةَ فُقَرَائِهِمْ فِي الْغَالِبِ، فَلَوْ رَدُّوا صَدَقَاتِهِمْ عَلَيْهِمْ لَكَانَتْ صَدَقَةً وَصِلَةً، وَلَأَغْنَوْهُمْ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ، وَلَكَانَ كُلُّ قَرِيبٍ وَجَارٍ كَفِيلًا بِقَرِيبِهِ وَجَارِهِ.

وَالْعَجِيبُ أَنَّهُ كُلَّمَا ازْدَهَرَ الِاقْتِصَادُ، وَتَحَرَّكَتْ أَسْوَاقُ الْمَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَكَثُرَتْ مَصَادِرُ الدَّخْلِ، وَاكْتَشَفَتِ الدُّوَلُ مَنَابِعَ أُخْرَىٰ لِلثَّرْوَةِ؛ ازْدَادَ الْفَقْرُ فِي

النَّاسِ، وَانْضَمَّ أُنَاسٌ جُدُدٌ إِلَىٰ قَوَائِمِ الْفُقَرَاءِ، مَعَ أَنَّهُ فِي الْحِسَابَاتِ الْبَشَرِيَّةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْحَالُ بِعَكْسِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ السُّنَنَ الرَّبَّانِيَّةَ وَالنَّوَامِيسَ الْكَوْنِيَّةَ لَا تَخْتَلُّ وَلَا تُخْطِئُ؛ فَإِنَّ تَلَوُّثَ الْأَمْوَالِ بِالْكَسْبِ الْخَبِيثِ نَزَعَ الْبَرَكَةَ مِنْهَا، وَجَعَلَ عَاقِبَتَهَا إِلَىٰ مَحْقٍ وَقِلَّةٍ، وَإِنَّ التَّقَاعُسَ عَنْ إِخْرَاجِ زَكَاتِهَا أَوْقَفَ نَمَاءَهَا وَزِيَادَتَهَا، وَزَادَ مِنْ مَحْقِهَا وَقِلَّتِهَا وَإِنْ بَدَا لِلنَّاسِ فِي الظَّاهِرِ أَنَّهَا تَنْمُو وَتَزْدَادُ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الرُّوم: ٣٩]، فَتَضْعِيفُ المَالِ وَبَرَكَتُهُ إِنَّمَا تَكُونُ بِتَطْهِيرِهِ مِمَّا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَتَزْكِيَتُهُ بِالزَّكَاةِ الْوَاجِبَةِ، وَالصَّدَقَةِ الْمَنْدُوبَةِ، وَمَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ.

وَالْخَلَلُ فِي أَدَاءِ الزَّكَاةِ وَقَعَ مُرَكَّبًا مِنْ جِهَتَيْنِ، وَهَذَا أَدَّىٰ إِلَىٰ ضَعْفِ وَظِيفَتِهَا الَّتِي شُرِعَتِ الزَّكَاةُ مِنْ أَجْلِهَا، فَلَا أَغْنَتِ الْفُقَرَاءَ رَغْمَ كَثْرَةِ الْأَغْنِيَاءِ، وَلَا رَفَعَتِ الضَّائِقَاتِ الِاقْتِصَادِيَّةَ عَنِ النَّاسِ.

أَمَّا الْجِهَةُ الْأُولَىٰ: فَكَثِيرٌ مِنْ مُلَّاكِ الْأَمْوَالِ لَا يُخْرِجُونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، وَيَتَحَايَلُونَ لِإِسْقَاطِهَا بِشَتَّىٰ الطُّرُقِ وَالْوَسَائِلِ، فَمَا نَفَعَتْ أَمْوَالُهُمْ مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَلَا سَدَّتْ حَاجَاتِ فُقَرَائِهِمْ.

وَأَمَّا الْجِهَةُ الثَّانِيَةُ: فَإِنَّ مَنْ أَخْرَجُوا صَدَقَاتِهِمْ لَمْ يَضَعُوهَا فِي أَيْدِي مَنْ يَسْتَحِقُّونَهَا، بَلْ جَامَلُوا مَنْ يَعْرِفُونَ بِهَا، أَوْ دَفَعُوهَا إِلَىٰ أَقْرَبِ سَائِلٍ تَخَلُّصًا مِنْهَا، فَانْبَرَىٰ لِذَلِكَ تُجَّارٌ يُتَاجِرُونَ بِالزَّكَاةِ، وَيَتَلَمَّسُونَهَا عِنْدَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْكُبَرَاءِ، وَهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الِاسْتِحْقَاقِ.

وَبَعْضُ مَنْ وُكِّلُوا بِالزَّكَاةِ مِنْ قِبَلِ الْأَغْنِيَاءِ وَالْكُبَرَاءِ رَأَوْا أَنَّهَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الشَّرَفِ وَالْعِزِّ وَالْجَاهِ، فَسَارُوا فِيهَا سِيرَةَ ذَوِي الْجَاهِ، وَطَلَبُوا بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ

شَرَفًا وَجَاهًا لَمْ يُحَصِّلُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ، فَأَحَبُّوا أَنْ يَطَأَ النَّاسُ أَعْقَابَهُمْ، وَأَنْ يَزْدَحِمُوا عَلَىٰ أَبْوَابِهِمْ؛ لِتَحْصِيلِ مَا يُحَصِّلُونَهُ مِنْهُمْ مِنْ زَكَاةٍ هُمْ وُكَلاءُ فِيهَا، وَسَيَسْأَلُهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا، فَازْدَحَمَ عَلَىٰ أَبْوَابِهِمْ مَنِ اتَّخَذُوا مِنْ جَمْعِ الصَّدَقَاتِ حِرْفَةً وَتِجَارَةً، وَعَفَّ عَنْهُمْ أَهْلُ الْعَفَافِ وَالْحَيَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا.

وَوَاجِبٌ عَلَىٰ مَنْ آتَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ مَالًا، وَعَلَىٰ مَنْ كَانَ وَكِيلًا فِي الزَّكَاةِ أَنْ يَبْحَثُوا هُمْ عَنِ الْمُحْتَاجِينَ بِأَنْفُسِهِمْ، وَلَا يَنْتَظِرُونَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مَنِ اتَّخَذُوا مِنَ السُّؤَالِ حِرْفَةً وَتِجَارَةً.

وَمَنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ ذَلِكَ فَلْيَدْفَعْ زَكَاتَهُ إِلَىٰ ثِقَةٍ أَمِينٍ يَضَعُهَا حَيْثُ أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَلَا يَبْتَغِي بِهَا شَرَفًا وَلَا جَاهًا. وَمَنْ عَجَزَ عَنْ تَلَمُّسِ الْمُحْتَاجِينَ الْمُتَعَفِّفِينَ فَلَا يَجْعَلْ مِنْ نَفْسِهِ وَكِيلًا عَلَىٰ زَكَاةٍ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِيصَالِهَا إِلَىٰ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا، وَيَدْفَعُهَا إِلَىٰ غَنِيٍّ عَنْهَا، إِمَّا مُجَامَلَةً لَهُ، أَوْ كَسَلًا فِي الْبَحْثِ عَنْ مَدَىٰ حَاجَتِهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ لَهَا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...



الفهرس